الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

٤

بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

آیت الله ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعهٔ:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۴

اشاره

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ ت۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۱۰۳۹۱

ص: ۱

اشاره

[تتمه سوره المائده]

اشاره

الآیتان [سوره المائده (۵): الآیات ۴۱ الی ۴۲]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلرَّسُولُ لاٰ یَحْزُنْکَ اَلَّذِینَ یُسٰارِعُونَ فِی اَلْکُفْرِ مِنَ اَلَّذِینَ قٰالُوا آمَنّٰا بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ اَلَّذِینَ هٰادُوا سَمّٰاعُونَ لِلْکَذِبِ سَمّٰاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِینَ لَمْ یَأْتُوکَ یُحَرِّفُونَ اَلْکَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوٰاضِعِهِ یَقُولُونَ إِنْ أُوتِیتُمْ هٰذٰا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ یُرِدِ اَللّٰهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِکَ لَهُ مِنَ اَللّٰهِ شَیْئاً أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ لَمْ یُرِدِ اَللّٰهُ أَنْ یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِی اَلدُّنْیٰا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۴۱) سَمّٰاعُونَ لِلْکَذِبِ أَکّٰالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جٰاؤُکَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ یَضُرُّوکَ شَیْئاً وَ إِنْ حَکَمْتَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اَللّٰهَ یُحِبُّ اَلْمُقْسِطِینَ (۴۲)

سبب النّزول

وردت روایات عدیده فی سبب نزول الآیتین الأخیرتین أوضحها ما نقل عن الإمام الباقر علیه السّلام فی هذا المجال،و خلاصه ذلک أنّ أحد وجهاء الیهود فی منطقه خیبر کان متزوجا،فارتکب عملا غیر شرعی و مخالفا للعفه مع امرأه

متزوجه من عائله خيبريه مشهوره،فاغتم اليهود كيف ينفذون حكم التّوراه (الرجم)فى وجيههم ذلك و فى شريكته فى الذنب،فأخذوا يبحثون عن حل لهذه المعضله لينقذوهما من العقوبه المذكوره،و فى نفس الوقت ليظهروا التزامهم بالأحكام الإلهيه،و دفعهم هذا الأمر إلى الاستعانه بأبناء طائفتهم الموجودين فى المدينه المنوره،و طلبوا منهم أن يسألوا عن حكم هذه الحادثه من النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم(حتى إذا كان الحكم بسيطا و خفيفا أخذوا به،و إذا كان شديدا تجاهلوه و تناسوه،و لعلهم أرادوا بسؤالهم ذلك أن يلفتوا انتباه نبيّ الإسلام إلى أنفسهم و ليظهروا أنفسهم بأنّهم أصدقاء للمسلمين).

و لهذا الغرض توجه عدد من وجهاء يهود المدينه للقاء النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فسألهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن كانوا سيقبلون بكل حكم يصدره،فأجابوه بأنّهم قدموا إليه لهذا السبب!فنزل فى تلك الأثناء حكم رجم مرتكب الزنا مع المرأه المحصنه، لكن اليهود لم يبدوا استعدادا لقبول هذا الحكم،بدعوى أنّ ديانتهم تخلو من مثله، فرد عليهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ هذا الحكم هو نفس ذلك الذى هو عندهم فى التّوراه، و سألهم إن كانوا يقبلون بحضور أحد علمائهم ليتلو عليهم حكم التّوراه فى تلك القضيه ليأخذوا به،فوافقوا على ذلك،فسألهم النّبى عن رأيهم فى العالم اليهودى (ابن صوريا)الذى كان يقطن منطقه(فدك) فأجابوه بأنّه خير من يعرف التّوراه من اليهود.

فبعث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى هذا العالم،فلمّا قدم عنده أقسم عليه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باللّه الواحد الأحد الذى أنزل التّوراه على موسى و فلق البحر لإنقاذ بنى إسرائيل و أغرق عدوّهم فرعون و أنزل عليهم نعمه فى صحراء سيناء،أن يصدق القول إن كان حكم الرجم قد نزل فى التّوراه فى مثل تلك الواقعه أم لم ينزل؟فأجاب العالم اليهودى(ابن صوريا)بأنّه مرغم بسبب القسم الذى أقسمه عليه النّبى أن يقول الحقيقه و يعترف بوجود حكم الرجم فى التّوراه.

فسأل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الیهود عن سبب احجامهم عن تطبیق الحکم المذکور، فأجاب(ابن صوریا)بأنّهم کانوا یطبقون هذا الحکم بحقّ العامّه من أبناء طائفتهم و یصونون الأثریاء و الوجهاء منهم من تنفیذ هذا الحکم بحقّهم،فأدی هذا التهاون إلی انتشار الخطیئه المذکوره بین أثریاء الیهود حتی بادر إلی ارتکابها ابن عم لأحد رؤساء الطائفه،فلم یطبق بحقه الحکم الشرعی بحسب العاده المتبعه لدیهم، و صادف فی نفس ذلک الوقت أن ارتکب نفس الخطیئه أحد عامّه الناس من أبناء الطائفه،فأرادوا تطبیق حکم الرجم بحقّه لکن أقاربه اعترضوا علی ذلک،و قالوا:

إذا کان لا بدّ من تنفیذ هذا الحکم فیجب أن ینفذ بحق الاثنین(الوجیه الیهودی و الشخص الآخر العادی)،فعمد عند ذلک علماء الطائفه إلی سنّ حکم أخف من الرجم و هو أن یجلد الزناه ۴۰ جلده و تسود وجوههم و یرکبوا دابه و یطاف بهم فی أزقه و أسواق المنطقه! فأمر النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی الفور أن یرجم ذلک الرجل الوجیه و المرأه الثریه أمام المسجد (۱) و أشهد اللّه فی ذلک الحین بأنّه هو أول شخص یحیی حکم اللّه بعد أن أماته الیهود.

فی تلک الأثناء نزلت الآیتان الأخیرتان و تحدّثنا عن القضیه المذکوره بالإیجاز.

التّفسیر

اشاره

التّحکیم بین الأنصار و الأعداء:

تدلّ هاتان الآیتان و الآیات التی تلیهما،علی أنّ للقاضی المسلم الحق-فی ظل شروطه خاصّه-فی الحکم فی جرائم الطوائف الأخری من غیر المسلمین،

ص: ۶

۱- ۱) -ذکرت الرّوایات التی جاء بها(البیهقی)فی الجزء الثامن من سننه،ص ۲۶۶ أن علماء الیهود حین قدموا إلی النّبی کانوا قد جلبوا معهم الرجل و المرأه الزانیین.

و سيأتى شرح هذا الموضوع فى تفسير نفس هذه الآيات.

لقد بدأت الآيه الاولى-من الآيتين الأخيرتين-الخطاب بعباره يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ و قد وردت هذه العباره فى مكانين من القرآن:أوّلهما فى الآيه موضوع البحث،و الثّانى فى الآيه(۶۷)من نفس هذه السوره و التى تتعرض لقضيه الولايه و الخلافه.و ربّما جاء استخدام هذا التعبير من أجل إثاره أكثر لدافع الشعور بالمسؤوليه لدى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تعزيز ارادته،و مخاطبته بأنّه هو رسول اللّه،و عليه أن يستقيم و يصمد فى إبلاغ الحكم المكلّف به.

بعد ذلك تطمئن الآيه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-كتمهيد لبيان الحكم التالى-فتقول: لاٰ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسٰارِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قٰالُوا آمَنّٰا بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ .

و يرى البعض أن عباره يُسٰارِعُونَ فِى الْكُفْرِ تختلف عن عباره«يسارعون إلى الكفر» و ذلك لأنّ العباره الاولى تقال بشأن أفراد كافرين غارقين فى كفرهم، و يتسابقون فيما بينهم للوصول إلى آخر مرحله من الكفر،أمّا العباره الثّانيه فتقال فى من يعيشون خارج حدود الكفر لكنّهم يتسابقون للوصول إليه (۱) .

و بعد أن تذكر الآيه تجاوزات المنافقين و الأعداء الداخليين،تتناول وضع الأعداء الخارجيين و اليهود الذين كانوا سببا لحزن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول الآيه: وَ مِنَ الَّذِينَ هٰادُوا...

ثمّ تشير الآيه إلى قسم من تصرفات هؤلاء المشوبه بالنفاق و الرياء،و فتؤكّد أنّهم إنّما يستمعون كلام النّبى لا لأجل أطاعته،بل لكى يجعلوا من ذلك وسيله لتكذيب النّبى و الافتراء عليه حيث تقول الآيه: سَمّٰاعُونَ لِلْكَذِبِ .

و لهذه الجمله القرآنيه تفسير آخر،هو أنّ هؤلاء اليهود يستمعون كثيرا إلى أكاذيب قادتهم و زعمائهم،لكنّهم لا يبدون استعدادا لاستماع قول الحق

۱- ۱) -المنار،ج ۶،ص ۳۸۸.

و الإذعان له (۱) .

ثمّ تفضح الآيه الصفه الثالثه لليهود،فتبيّن أنّهم يتجسّسون على المسلمين لمصلحه قوم آخرين ممّن لا يحضرون الاجتماعات الإسلاميه التى تعقد فى مجلس النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول الآيه: سَمّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ... .

و فى تفسير آخر لهذه الجمله قيل أن هؤلاء اليهود كانوا يستمعون إلى أوامر جماعتهم-فقط-و قد كلّفهم قومهم بأن يقبلوا ما وافق أهواءهم من أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و أن يخالفوا أو يرفضوا ما كان عكس ذلك من أقواله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و بناء على هذا السلوك فإنّ ما كان يظهر من طاعه هؤلاء لبعض أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن فى الحقيقه إلاّ طاعه منهم لأقوال كبارهم و وجهائهم الذين أمروهم باتباع هذا الأسلوب،و لذلك أشارت الآيه على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يحزن لمخالفات هؤلاء، فهم لم يحضروا عنده أبدا من أجل الاستماع إلى الحقّ و اتّباعه! ثمّ تذكر الآيه انحرافا آخر لهؤلاء اليهود،فتشير إلى تحريفهم لكلام اللّه سبحانه و تعالى من خلال تحريف الألفاظ أو تحريف المعانى الوارده فى هذا الكلام،فهم إن وجدوا فى كلام اللّه حكما يخالف مصالحهم أوّلوه أو رفضوه جمله و تفصيلا،كما تقول الآيه: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ... (۲) .

و الأعجب من ذلك أنّ هؤلاء قبل أن يحضروا مجلس النّبى كانوا يقررون كما يأمرهم كبارهم أنّهم إن تلقوا من محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حكما موافقا لميولهم و أهوائهم قبلوا به،و إن كان مخالفا لهوى أنفسهم ردوه و ابتعدوا عنه،تقول الآيه الكريمه: يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا... .

فهؤلاء قد غرقوا فى الضلال و تحجرت عقولهم لغايه أنّهم كانوا يرفضون كل شىء يخالف ما عندهم من أحكام محرفه،دون أن يبذلوا جهدا أو عناء فى التفكير

۱- ۱) -فى التّفسير الأوّل تكون اللاء فى عباره(للكذب)لام التعليل بينما فى التّفسير الثّانى فهى لام التعديه.

۲- ۲) -تحدثنا عن أساليب التحريف التى اتبعها اليهود فى تفسير الآيه(۱۳)من نفس هذه السوره.

لمعرفه الحقیقه،و قد أبعدتهم هذه الحاله عن طریق الرشاد و أخرجتهم من جاده الصواب،بحیث لم یبق أمل فی هدایتهم،فاستحقوا بذلک عذاب اللّه،و لم تعد تنفع فیهم شفاعه الشافعین،و فی هذا المجال تقول الآیه الکریمه: وَ مَنْ یُرِدِ اللّٰهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِکَ لَهُ مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً و قد تدنست قلوب هؤلاء إلی درجه لم تعد قابله للتطهیر،و حرمهم اللّه لذلک طهاره القلوب،فتقول الآیه: أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَمْ یُرِدِ اللّٰهُ أَنْ یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ... و عمل اللّه مقرون بالحکمه دائما،لأن من یقضی عمرا فی الانحراف و یمارس النفاق و الکذب و یخالف الحق و یرفض الحقیقه،و یحرف قوانین اللّه لن یبقی له مجال للتوبه و العوده إلی الحق، حیث تقول الآیه الکریمه فی هذا المجال: لَهُمْ فِی الدُّنْیٰا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ عَذٰابٌ عَظِیمٌ .

أمّا الآیه الثّانیه فتؤکّد-مرّه أخری-علی أن هؤلاء لدیهم آذان صاغیه لاستماع حدیث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا لإطاعته بل لتکذیبه،أو کما یقول تفسیر آخر فإنّ هؤلاء آذانهم صاغیه لاستماع أکاذیب کبارهم،فتقول الآیه: سَمّٰاعُونَ لِلْکَذِبِ.. و قد تکررت هذه الجمله فی آیتین متتالیتین تأکیدا و اثباتا لوجود هذه الصفه الشنیعه فی هؤلاء.

کما أضافت الآیه صفه شنیعه أخری اتصف بها الیهود،و هی تعودهم و ادمانهم علی أکل الأموال المحرمه و الباطله من الرّبا و الرّشوه و غیر ذلک،حیث تقول الآیه: أَکّٰالُونَ لِلسُّحْتِ.. (١) .

ثمّ تخیر الآیه النّبی بین أن یحکم بینهم أو أن یتجنبهم و یترکهم،حیث تقول الآیه: فَإِنْ جٰاؤُکَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ... و لا یعنی التخییر أن یستخدم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم میله و رغبته فی اختیار أحد الأمرین المذکورین،بل إن

---

١ - ١) -تعنی کلمه(سحت)فی الأصل نزع القشره،أو شدّه الجوع،ثمّ أطلقت علی کل مال غیر مشروع،أی محرم،و بالأخص الرشوه،لأن مثل هذه الأموال تنزع الصفاء و الموده عن المجتمع و تزیل عنه البرکه و الرخاء مثلما یؤدی نزع قشر الشجره إلی ذبولها و جفافها و علی هذا الأساس فإن لکلمه(سحت)معنی واسعا،و إذا ورد فی بعض الرّوایات مصداق خاص لها فلا یدل ذلک علی اختصاص الکلمه بذلک.

المراد من ذلك هو أن يراعى النّبى الظروف و الملابسات المحيطه بكل حاله،فإن رأى الوضع يقتضى الحكم بينهم حكم،و إن رأى خلاف ذلك تركهم و أعرض عنهم.

و لكى تعزز الآيه الاطمئنان فى نفس النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،إن هو ارتأى الإعراض عن هؤلاء لمصلحه أكّدت قائله: وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً... .

كما أكّدت ضروره اتباع العدل و تطبيقه إذا كانت الحاله تقتضى أن يحكم النّبى بين هؤلاء فقالت الآيه: وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

و قد اختلف المفسّرون فى قضيه تخيير النظام الإسلامى بين الحكم فى غير المسلمين بأحكام الإسلام أو الإعراض عنهم،و هل أن هذا التخيير باق على قوته أو أنّه أصبح منسوخا؟ و يرى البعض أنّ الناس فى ظل الحكم الإسلامى مشمولون من الناحيتين الحقوقيه و الجزائيه بالقوانين الإسلاميه،سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين.و بناء على هذا الرأى فإن حكم التأخير إمّا أن يكون منسوخا و إمّا أنّه يخص غير الكفار الذميين،أى يخض أولئك الكفار الذين لا يعيشون فى ظل حكم اسلامى،بل يرتبطون بالمسلمين باتفاقيات أو مواثيق،أو يكون بينهم علاقات ود و تزاور.

و يعتقد مفسّرون آخرون أنّ الحاكم المسلم يكون مخيرا-حتى فى الوقت الحاضر لدى التعامل مع غير المسلمين،فهو إمّا أن يطبق فيهم الأحكام الإسلاميه إذا اقتضت الضروره و المصلحه ذلك،و إمّا أن يعرض عنهم و يحيلهم إلى قوانينهم الخاصّه بهم،بحسب ظروف و ملابسات كل حاله«للاطلاع أكثر على تفاصيل هذا الحكم تراجع كتب الفقه».

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۴۳]

اشاره

وَ کَیْفَ یُحَکِّمُونَکَ وَ عِنْدَهُمُ اَلتَّوْرٰاهُ فِیهٰا حُکْمُ اَللّٰهِ ثُمَّ یَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ مٰا أُولٰئِکَ بِالْمُؤْمِنِینَ (۴۳)

التّفسیر

تتابع هذه الآیه موضوع الحکم بین الیهود تطرقت إلیه الآیتان السابقتان، اللتان بیّنتا أنّ الیهود کانوا یأتون إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یطلبون منه الحکم فیهم،و قد أظهرت هذه الآیه الأخیره الاستغراب من حاله الیهود الذین کانوا مع وجود التّوراه بینهم،و احتوائها علی حکم اللّه،یأتون إلی النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یطلبون منه الحکم فیهم بالرغم من وجود التّوراه عندهم،فتقول: وَ کَیْفَ یُحَکِّمُونَکَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرٰاهُ فِیهٰا حُکْمُ اللّٰهِ... .

و یجب الانتباه إلی أنّ المقصود من الحکم فی الآیه هو حکم الرجم للزانی المحصن من الرجال و النساء و الذی ورد فی التّوراه أیضا،فی سفر التثنیه الفصل الثّانی و العشرین.

و العجیب فی أمر هؤلاء الیهود أنّهم مع وجود التّوراه بینهم و عدم اعترافهم بنسخها من قبل القرآن و رفضهم للشریعه الإسلامیه،کانوا حین یرون حکما فی التّوراه لا یوافق میولهم و أهوائهم یترکون ذلک الحکم و یبحثون عن حکم آخر فی

مصادر لم يقرّوا و لم يعترفوا بها.

و الأعجب من ذلك أنّهم حين كانوا يطلبون التحكيم من نبی الإسلام بينهم، كانوا لا يقبلون بحكمه إذا كان مطابقا لحكم التّوراه لكنه لم يوافق ميولهم و رغباتهم حيث تقول الآيه: ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ و ما ذلك إلاّ لأن هؤلاء لم يكونوا بمؤمنين فی الحقيقه،و لو كانوا مؤمنين لما استهزءوا هكذا بأحكام اللّه، حيث تؤكّد الآيه قائله: وَ مٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ .

و قد يرد اعتراض فی هذا المجال و هو:إن الآيه الشريفه تقرّ بوجود حكم اللّه فی التّوراه و نحن نعلم عن طريق القرآن و الرّوايات الإسلاميه،بأن التّوراه قد أصابها التحريف قبل ظهور نبی الإسلام محمّد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم؟ إنّ جوابنا علی هذا الاعتراض هو أننا أوّلا:لا نقول بأن التحريف قد أصاب التّوراه كلّها،بل نقر بوجود أحكام فی التّوراه تطابق الحقيقه و الواقع،و حكم الرجم-الذی هو موضوع بحثنا الآن-من الأحكام التی لم تصبها يد التحريف فی التّوراه.

ثانيا:إنّ التّوراه مهما كان حالها لا يعتبرها اليهود كتابا محرفا،و لذلك فإن الغرابه هنا تكمن فی رفض اليهود العمل بحكم اللّه مع وجوده فی توراتهم.

ص :۱۲

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۴۴]

اشاره

إِنّٰا أَنْزَلْنَا اَلتَّوْرٰاهَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا اَلنَّبِيُّونَ اَلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هٰادُوا وَ اَلرَّبّٰانِيُّونَ وَ اَلْأَحْبٰارُ بِمَا اُسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتٰابِ اَللّٰهِ وَ كٰانُوا عَلَيْهِ شُهَدٰاءَ فَلاٰ تَخْشَوُا اَلنّٰاسَ وَ اِخْشَوْنِ وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِآيٰاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلْكٰافِرُونَ (۴۴)

التّفسیر

إنّ هذه الآیه و الآیه التی تلیها تکملان البحث أو الموضوع الوارد فی الآیات السابقه،و تبیّن هذه الآیه أهمیه الکتاب السماوی الذی نزل علی النّبی موسی علیه السّلام أی التّوراه،حیث تشیر إلی أنّ اللّه أنزل هذا الکتاب و فیه الهدایه و النّور اللذان یرشدان إلی الحق،و أن النّور و الضیاء الذی فیه هو لإزاحه ظلمات الجهل من العقول فتقول الآیه: إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاهَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ...

و لذلک فإنّ الأنبیاء الذین أطاعوا أمر اللّه،و الذین تولوا مهامهم بعد نزول التّوراه کانوا یحکمون بین الیهود بأحکام هذا الکتاب،تقول الآیه الکریمه: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هٰادُوا .

ص: ۱۳

کما أنّ علماء الیهود و وجاءهم و مفکریهم المؤمنین الأتقیاء،کانوا یحکمون وفق هذا الکتاب السماوی الذی وصل أمانه بأیدیهم و کانوا شهودا علیه،حیث تقول الآیه: وَ الرَّبّانِیُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِما اسْتُحْفِظُوا مِنْ کِتابِ اللّهِ وَ کانُوا عَلَیْهِ شُهَداءَ (۱) .

ثمّ توجه الآیه الخطاب إلی أولئک العلماء و المفکرین من الیهود الذین کانوا یعیشون فی ذلک العصر،فتطلب منهم أن لا یخافوا الناس لدی بیان أحکام اللّه،بل علیهم أن یخافوا اللّه،فلا تسول لهم أنفسهم مخالفه أوامره أو کتمان الحق،و إن فعلوا ذلک فسیلقون الجزاء و العقاب،فتقول الآیه هنا: فَلا تَخْشَوُا النّاسَ وَ اخْشَوْنِ .

ثمّ تحذر الآیه من الاستهانه و الاستخفاف بآیات اللّه،فتقول: وَ لا تَشْتَرُوا بِآیاتِی ثَمَناً قَلِیلاً... .

و حقیقه کتمان الحق و أحکام اللّه نابعه إمّا عن الخوف من الناس،و إمّا بدافع المصلحه الشخصیه،و أیّا کان السبب فهو دلیل علی ضعف الإیمان و انحطاط الشخصیه،و قد أشیر فی الجمل القرآنیه أعلاه إلی هذین السببین.

و تصدر الآیه حکما صارما و حازما علی مثل هؤلاء الأفراد الذین یحکمون خلافا لما أنزل اللّه فتقول: وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْکافِرُونَ .

و واضح أنّ عدم الحکم بما أنزل اللّه یشمل السکوت و الابتعاد عن حکم اللّه الذی یؤدی بالناس إلی الضلال،کما یشمل التحدث بخلاف حکم اللّه.

و واضح-أیضا-أنّ للکفر مراتب و درجات مختلفه،تبدأ من إنکار أساس وجود اللّه و یشمل عصیان أوامره،لأنّ الإیمان الکامل یدعو و یحثّ الإنسان علی

۱- ۱) -لقد تطرقنا إلی معنی کلمه(ربانی)و مصدرها لدی تفسیر الآیه(۸۰)من سوره آل عمران،أمّا کلمه(أحبار)فهی صیغه جمع من(حبر)علی وزن(فکر)فهی تعنی کل أثر خیر،أطلقت علی المفکرین الذین یخلفون آثارا خیره فی مجتمعهم،و یطلق أیضا علی حبر الدواه الذی یستعمل للکتابه لما فیه من أثر خیر.

العمل وفق أوامر اللّه،و من لا عمل له ليس له ايمان كامل.

و تبيّن هـذه الآـيه-أيضـا-المسؤوليه الكبرى التى يتحملها علماء و مفكر و أكل أمّه حيال العواصف الاجتماعيه،و الأحـداث التى تقع فى بيئاتهم،و تدعو بأسلوب حازم لمكافحه الانحرافات و عدم الخوف من أى بشر-كائنا من كان-لدى تطبيق أحكام اللّه.

ص :١٥

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۴۵]

اشاره

وَ كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ فِيهٰا أَنَّ اَلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ اَلْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ اَلْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ اَلْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ اَلسِّنَّ بِالسِّنِّ وَ اَلْجُرُوحَ قِصٰاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّٰارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۴۵)

التّفسیر

اشاره

القصاص و العفو:

تشرح هذه الآیه الكریمه قسما آخر من الأحكام الجنائیه و الحدود الإلهیه التی وردت فی التّوراه،فتشیر إلى ما ورد فی هذا الكتاب السماوی من أحكام و قوانین تخص القصاص،و تبیّن أن من یقتل إنسانا بریئا فإنّ لأولیاء القتیل حق القصاص من القاتل بقتله نفسا بنفس.حیث تقول الآیه فی هذا المجال: وَ كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ فِيهٰا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ .

كما بیّنت أن من یصیب عین انسان آخر و یتلفها،یستطیع هذا الإنسان المتضرر فی عینه أن یقتص من الفاعل و یتلف عینه،إذ تقول الآیه فی هذا المجال:

وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ....

.

و کـذلک الحـال بالنسـبه للأـنف و الأـذن و السن و الجروح الأـخری، وَ الْـأَنْفَ بِالْـأَنْفِ وَ الْـأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصٰاصٌ.. .

و علی هذا الأساس فإنّ حکم القصاص یطبق بشـکل عادل علی المجرم الذی یرتکب أحد الجرائم المذکوره،دون الالتفات إلی عنصره أو قومیته أو طبقته الاجتماعیه أو طائفته،و لا مجال أبدا لاستخدام التمایز القومی أو الطبقی أو الطائفی لتأخیر تطبیق حکم القصاص علی الجانی.

و بـدیهی أنّ تطبیق حکم القصـاص علی المعتـدی شـأنه شأن الأحکام الإسـلامیه الأخری، مقیـد بشـروط و حـدود ذکرتها کتب الفقه،و لا یختص هـذا الکلام و لا ینحصـر ببنی إسـرائیل وحـدهم،لأنّ الإسـلام-أیضا-جاء بنظیره کما ورد فی آیه القصاص فی سوره البقره-الآیه(۱۷۸).

و قـد أنهت هـذه الآـیه التمـایز غیر العـادل الـذی کان یمارس فی ذلک الوقت حیث ذکرت بعض التفاسـیر أنّ تمایزا غریبا کان یسود بین طائفتین من الیهود، هما بنو النضیر و بنو قریظه الذین کانوا یقطنون المدینه المنوره فی ذلک العصر، لدرجه أنّه إذا قتل أحـد أفراد طـائفه بنی النضـیر فردا آخر من طـائفه بنی قریظه فالقاتـل لاـ ینال القصاص،بینما فی حاله حصول العکس فإن القاتل الذی کان من طائفه بنی قریظه کان ینال القصاص إن هو قتل واحدا من أفراد طائفه بنی النضیر.

و لمّا امتـد نور الإسـلام إلی المدینه سأل بنو قریظه النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم عن هذا الأمر، فأکّد النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أن لا فرق فی الدماء بین دم و دم...فاعترضت قبیله بنی النضـیر علی حکم النّبی محمّد صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و ادعت أنّ حکمه حطّ من شـأنهم،فنزلت الآـیه الأـخیره و بیّنت أنّ هـذا الحکم غیر مختص بالإسـلام،بـل حـتی الـدیانه الیهـودیه أوصت بتطبیق قانون القصاص بصوره عادله (۱) .

و لکی لا یحصل و هم أنّ القصاص أو المقابله بالمثل أمر الزامی لا یمکن

ص: ۱۷

۱- ۱) -تفسیر القرطبی،الجزء الثّالث،ص ۲۱۸۸.

الحیده عنه،استدرکت الآیه بعد ذکر حکم القصاص فبیّنت أن الذی یتنازل عن حقه فی هذا الأمر و یعفو و یصفح عن الجانی،یعتبر عفوه کفاره له عن ذنوبه بمقدار ما یکون للعفو من أهمیه فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ کَفّارَهٌ لَهُ... (۱) .

و یجب الانتباه إلی أنّ الضمیر الوارد فی کلمه(به)یعود علی القصاص، و کانت الآیه جعلت التصدق بالقصاص عطیه أو منحه للجانی و استخدام عباره «التصدق»و الوعد الذی قطعه اللّه للمتصدق،یعتبران عاملا محفزا علی العفو و الصفح،لأنّ القصاص لا یمکنه أن یعید للإنسان ما فقده مطلقا،بل یهبه نوعا من الهدوء و الاستقرار النفسی المؤقت،بینما العفو الذی وعد به اللّه للمتصدق،بإمکانه أن یعوضه عما فقده بصوره أخری،و بذلک یزیل عن قلبه و نفسه بقایا الألم و الاضطراب،و یعتبر هذا الوعد خیر محفز لمثل هؤلاء الأشخاص.

و

قد ورد عن الحلبی قال سألت أبا عبد اللّه-الإمام الصادق-علیه السّلام عن قوله اللّه عزّ و جلّ: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ کَفّارَهٌ لَهُ وَ... قال:«یکفر عنه من ذنوبه بقدر ما عفی» (۲) .

و تعتبر هذه الجمله القرآنیه فی الحقیقه خیر جواب مفحم للذین یزعمون أن القصاص لیس بقانون عادل،و یدعون أنّه یشجع روح الانتقام و المثله.

و الذی یفهم من الصیاغه العامّه للآیه هو أنّ جواز القصاص إنّما هو لإخافه و إرعاب الجناه و بالنتیجه لضمان الأمن لأرواح الناس الأبریاء،کما أنّ الآیه فتحت باب العفو و التوبه،و بذلک أراد الإسلام أن یحول دون ارتکاب مثل هذه الجرائم باستخدام الروادع و الحوافز کالخوف و الأمل،کما استهدف الإسلام من ذلک-أیضا-الحیلوله دون الانتقام للدم بالدم بقدر الإمکان-إذا استحق الأمر

۱- ۱) -لقد أورد الکثیر من المفسّرین احتمالا آخر،و هو أن الضمیر الوارد فی کلمه«له»یعود علی شخص الجانی،بحیث یصبح المعنی أن الذی یتنازل عن حقه یرفع بذلک القصاص عن الجانی و یکون ذلک کفاره لعمل الجانی،إلاّ أن ظاهر الآیه یدل علی التفسیر الذی أشرنا إلیه أعلاه.

۲- ۲) -نور الثقلین،الجزء الأول،ص ۶۳۷.

ذلك.

و فی الختام تؤكّد الآیه قائله: وَ مَنْ لَمْ یَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ .

و أی ظلم أكبر من الانجرار وراء العاطفه الكاذبه،و ترك القاتل دون أن ینال قصاصه العادل بحجّه لا ضروره فی غسل الدم بالدم، و فسح المجال للقتله للتمادی بارتكاب جرائم قتل أخری،و بالنهایه الإساءه عبر هذا التغاضی إلی أفراد أبریاء،و ممارسه الظلم بحقّهم نتیجه لذلك.

و یجب الانتباه إلی أنّ التّوراه المتداوله حالیا قد اشتملت علی هذا الحكم أیضا،و ذلك فی الفصل الواحد و العشرین من سفر الخروج،حیث جاء فیها أنّ النفس بالنفس و العین بالعین و السن بالسن و الید بالید و الرجل بالرجل و الحرق بالحرق و الجرح بالجرح و الصفعه بالصفعه(سفر الخروج،الجمل ۲۳ و ۲۴ و ۲۵).

ص :۱۹

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۴۶]

اشاره

وَ قَفَّیْنا عَلیٰ آثارِهِمْ بِعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ اَلتَّوْراهِ وَ آتَیْناهُ اَلْإِنْجِیلَ فِیهِ هُدیً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ اَلتَّوْراهِ وَ هُدیً وَ مَوْعِظَهً لِلْمُتَّقِینَ (۴۶)

التّفسیر

بعد الآیات التی تحدثت عن التّوراه جاءت هذه الآیه،و هی تشیر إلی حال الإنجیل و تؤکّد بعثه و نبوه المسیح علیه السّلام بعد الأنبیاء الذین سبقوه،و تطابق الدلائل التی جاء بها مع تلک التی وردت فی التّوراه ،حیث تقول الآیه: وَ قَفَّیْنا عَلیٰ آثارِهِمْ بِعِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ التَّوْراهِ... و لهذه الجمله القرآنیه تفسیر آخر و هو أنّ عیسی المسیح علیه السّلام قد أقرّ بحقیقه کلّ ما نزل فی التّوراه علی النّبی موسی علیه السّلام کاقرار جمیع الأنبیاء علیهم السّلام بنبوه من سبقوهم من الأنبیاء،و بعداله ما جاؤوا به من أحکام.

ثمّ تشیر الآیه الکریمه إلی إنزال الإنجیل علی المسیح علیه السّلام و فیه الهدایه و النّور فتقول: وَ آتَیْناهُ الْإِنْجِیلَ فِیهِ هُدیً وَ نُورٌ و قد أطلق اسم النّور فی القرآن المجید علی التّوراه و الإنجیل و القرآن نفسه،حیث نقرأ بشأن التّوراه قوله تعالی: إِنّا

أَنْزَلْنَا التَّوْراٰةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ

(۱)

.

و أمّا الإنجيل فقد أطلقت عليه الآيه الأخيره اسم النّور.

و القرآن-أيضا-حيث نقرأ قوله تعالى: قَدْ جٰاءَكُمْ مِنَ اللّٰهِ نُورٌ وَ كِتٰابٌ مُبِينٌ (۲) .

فكما أنّ النّور يعتبر-فى الحقيقه-ضروره حتميه لجميع الموجودات من أجل أن تواصل حياتها،كذلك تكون الأديان الإلهيه و الشرائع و الكتب السماويه ضروره حتميه لنضوج و تكامل بنى الإنسان.

و قد ثبت من حيث المبدأ أنّ مصدر كل الطاقات و القوى و الحركات و كل أنواع الجمال هو النّور،فكذلك الحال فى تعليمات الأنبياء و ارشاداتهم،فلولاها لساد الظلام كل القيم الإنسانيه سواء الفرديه منها أو الاجتماعيه،و هذا ما نلاحظه فى المجتمعات الماديه بكل وضوح.

لقد كرر القرآن الكريم فى مجالات متعدده أنّ التّوراه و الإنجيل هما كتابان سماويان، و مع أن هذين الكتابين-دون شك-منزلان فى الأصل من قبل اللّه سبحانه و تعالى،لكنّهما-بالتأكيد-قد تعرضا بعد حياه الأنبياء إلى التحريف، فحذفت منهما حقائق و أضيفت إليهما خرافات،و أدى ذلك إلى أن يفقدا قيمتهما الحقيقيه،أو أنّ الكتب الأصليه تعرضت للنسيان و التجاهل و حلت محلها كتب أخرى حوت على بعض الحقائق من الكتب الأصليه (۳) .

و على هذا الأساس فإنّ كلمه النّور التى أطلقت فى القرآن الكريم على هذين الكتابين،إنما عنت التّوراه و الإنجيل الأصليين الحقيقيين.

بعد ذلك تكرر الآيه التأكيد على أن عيسى عليه السّلام لم يكن وحده الذى أيد

۱- ۱) -المائده،۴۴.

۲- ۲) -المائده،۱۵.

۳- ۳) -راجع كتابى«الهدى إلى دين المصطفى»و«أنيس الأعلام»لمعرفه تفاصيل التحريف الوارد فى الإنجيل و الدلائل التأريخيه على ذلك.

و صدق التّوراه،بل أن الإنجيل-الكتاب السـماوى الذى نزل عليه-هو الآخر شـهد بصدق التّوراه حيث تقول الآيه: مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ... .

و فى الختام تؤكّد الآيه أنّ هذا الكتاب السماوى قد حوى سبل الرشاد و الهدايه و المواعظ للناس المتقين،حيث تقول: وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ .

و تشـبه هذه العباره،عباره أخرى وردت فى بدايه سوره البقره،حين كان الحديث يدور عن القرآن الكريم،حيث جاء قوله تعالى: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ .

إن هذه الصـفه لا تنحصـر بالقرآن وحده،بل أن كل الكتب السـماويه تحتوى على سـبل الهدايه للناس المؤمنين المتقين،و المراد بـالمتقين هم أولئـك الـذين يبحثـون عن الحـق و الحقيقه و المسـتعدون لقبـول الحق،و بـديهى أن الـذين يغلقون أبواب قلوبهم إصرارا و عنادا بوجه الحق،لن ينتفعوا بأى حقيقه أبدا.

و الملفت للنظر فى هـذه الآيه أيضا،أنّها ذكرت أوّلا أنّ الإنجيل(فيه هـدى)ثمّ كررت الآيه كلمه(هدى)بصوره مطلقه،و قد يكون المراد من هـذا الاختلاـف فى التعبير هو بيـان أنّ الإنجيل و الكتب السـماويه الأخرى تشـتمل على دلائل الهـدايه للناس-جميعا-بصوره عامّه،و لكنّها بصوره خاصّه-تكون باعثا لهدايه و تربيه و تكامل الأتقياء من النّاس الذى يتفكرون فيها بعمق و تدبر.

ص :۲۲

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۴۷]

اشاره

وَ لْیَحْکُمْ أَهْلُ اَلْإِنْجِیلِ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فِیهِ وَ مَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۴۷)

التّفسیر

اشاره

الامتناع عن الحکم بالقانون الإلهی:

بعد أن أشارت الآیات السابقه إلی نزول الإنجیل،أکّدت الآیه الأخیره أنّ حکم اللّه یقضی أن یطبق أهل الإنجیل ما أنزله اللّه فی هذا الکتاب من أحکام، فتقول الآیه: وَ لْیَحْکُمْ أَهْلُ الْإِنْجِیلِ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فِیهِ... .

و بدیهی أنّ القرآن لا یأمر بهذه الآیه المسیحیین أن یواصلوا العمل بأحکام الإنجیل فی عصر الإسلام،و لو کان کذلک لناقض هذا الکلام الآیات القرآنیه الأخری،بل لناقض أصل وجود القرآن الذی أعلن الدین الجدید و نسخ الدین القدیم،لذلک فالمراد هو أنّ المسیحیین تلقوا الأوامر من اللّه بعد نزول الإنجیل بأن یعملوا بأحکام هذا الکتاب و أن یحکموها فی جمیع قضایاهم (۱) .

و تؤکّد هذه الآیه-فی النهایه-فسق الذین یمتنعون عن الحکم بما أنزل اللّه

۱- ۱) -إنّ الحقیقه التی أکّدها الکثیر من المفسّرین هی أنّ جمله«قلنا»تکون مقدره هنا فی هذه الآیه حیث یصبح مفهوم الآیه کما یلی:«قلنا لیحکم أهل الإنجیل...».

من أحكام و قوانين فتقول: وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ .

و يلفت النظر اطلاق كلمه«الكافر»مرّه و«الظّالم»أخرى و«الفاسق»ثالثه، فى الآيات الأخيره على الـذين يمتنعون عن تطبيق أحكام اللّه،و لعل هذا التنوع فى اطلاق صفات مختلفه إنّما هو لبيان أنّ لكل حكم جوانب ثلاثه:

أحدها:ينتهى بالمشرع الذى هو اللّه.

و الثّانى:يمس المنفذين للحكم(الحاكم أو القاضى).

الثّالث:يرتبط بالفرد أو الأفراد الذين يطبق عليهم الحكم.

أى أنّ كل صفه من الصفات الثلاث المذكوره قد تكون إشاره إلى واحد من الجوانب الثلاثه،لأنّ الذى لا يحكم بما أنزل اللّه يكون قد تجاوز القانون الإلهى و تجاهله،فيكون قد كفر بغفلته هذه،و من جانب آخر ارتكب الظلم و الجور بابتعاده عن حكم اللّه-على انسان برىء مظلوم،و ثالثا:يكون قد خرج عن حدود واجباته و مسئوليته،فيصبح بذلك من الفاسقين(لأنّ«الفسق»كما أوضحنا،يعنى الخروج عن حدود العبوديه و الواجب).

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۴۸]

اشاره

وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ اَلْکِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ اَلْکِتٰابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ عَمّٰا جٰاءَکَ مِنَ اَلْحَقِّ لِکُلٍّ جَعَلْنٰا مِنْکُمْ شِرْعَهً وَ مِنْهٰاجاً وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَعَلَکُمْ أُمَّهً وٰاحِدَهً وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَکُمْ فِی مٰا آتٰاکُمْ فَاسْتَبِقُوا اَلْخَیْرٰاتِ إِلَی اَللّٰهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸)

التّفسیر

تشیر هذه الآیه إلی موقع القرآن بعد أن ذکرت الآیات السابقه الکتب السماویه التی نزلت علی الأنبیاء السابقین.

و کلمه«مهیمن»تطلق فی الأصل علی کل شیء یحفظ و یراقب أو یؤتمن علی شیء آخر و یصونه،و لمّا کان القرآن الکریم یشرف فی الحفاظ علی الکتب السماویه السابقه و صیانتها من التحریف اشرافا کاملا،و یکمل تلک الکتب، لذلک أطلق علیه لفظ«المهیمن»حیث تقول الآیه: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً

ص: ۲۵

لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتٰابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ...

.

فالقرآن بالإضافه إلى تصديقه الكتب السماويه السابقه،اشتمل-أيضا-على دلائل تتطابق،مع ما ورد فى تلك الكتب،فكان بذلك حافظا و صائنا لها.

إنّ الكتب السماويه جاءت كلها متناسقه فى المبادئ و الهدف الواحد الذى تبنى تربيه الإنسان و السمو به إلى مراتب الكمال المعنوى و المادى،على الرغم من الفوارق الموجوده بين هذه الكتب و التى تنبع من مقتضى التكامل التدريجى للإنسان،حيث أن كل شرعه جديده ترتقى بالإنسان إلى مرحله أسمى من مراحل الرقى و الكمال الإنسانى،و تشتمل على خطط و برامج أكثر شمولا و تطورا، و الإتيان بعباره: مُهَيْمِناً عَلَيْهِ بعد جمله مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ يدل على هذه الحقيقه،أى أنّ القرآن فى الوقت الذى يصدّق الكتب السابقه،يأتى فى نفس الوقت ببرامج و خطط أكثر شمولا للحياه.

ثمّ تؤكّد على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انطلاقا من الحقيقه المذكوره-ضروره الحكم بتعاليم و قوانين القرآن بين الناس،حيث تقول فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ... .

و قد اقترنت هذه الجمله بالفاء التفريعيه،فتدلّ على شموليه أحكام الإسلام بالنسبه لأحكام الشرائع السماويه الأخرى،و لا تعارض هنا بين هذا الأمر و بين ما سبق من أمر فى أيه سابقه و التى خيرت النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين الحكم بين اليهود أو تركهم لحالهم،لأنّ هذه الآيه ترشد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-إن هو أراد أن يحكم بين أهل الكتاب-إلى أنّ عليه أن يحكم بتعاليم و قوانين القرآن بينهم.

ثمّ تؤكّد عليه أن يبتعد عن أهواء و ميول أهل الكتاب،الذين يريدون أن يطوعوا الأحكام الإلهيه لميولهم و رغباتهم،و أن ينفذ ما نزل عليه بالحق،حيث تقول الآيه: وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ عَمّٰا جٰاءَكَ مِنَ الْحَقِّ... .

و لأجل إكمال البحث تشير الآيه إلى أن كل ملّه قد أفردت لها شرعه و نظام

للحياه يهديها إلى السبيل الواضح،حيث تقول: لِكَلٍّ جَعَلْنا مِنْكَمْ شِرْعَهً وَ مِنْهاجاً... .

و كلمه«شرع»أو«الشريعه»تعنى الطريق الذى يؤدى إلى الماء و ينتهى به، و اطلاق كلمه«الشريعه»على الدين لأن الدين ينتهى بحقائق و تعاليم هدفها تطهير النفس الإنسانيه و ضمان الحياه السليمه للبشريه،أمّا كلمه«النهج»أو«المنهاج» فتطلقان على الطريق الواضح.

نقل(الراغب)فى كتابه(المفردات)عن ابن عباس قوله بأنّ الفرق بين كلمتى «الشرعه»و«المنهاج»هو أنّ الاولى تطلق على كل ما ورد فى القرآن،و أن المنهاج يطلق على ما ورد فى سنّه النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم(و هذا الفرق مع كونه جميلا، إلاّ أنّنا لا نملك دليلا جازما لتأييده) (۱) .

ثمّ تبيّن الآيه أنّ اللّه لو أراد أن يجعل من جميع أبناء البشر أمّه واحده،تتبع دينا و شرعه واحده لقدر على ذلك،لكن هذا الأمر يتنافى مع قانون التكامل التدريجى،و حركه مراحل التربيه المختلفه،فتقول: وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّهً واحِدَهً وَ لٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِی ما آتاكُمْ... .

و جمله لِيَبْلُوَكُمْ فِی ما آتاكُمْ.. إشاره إلى ما قلناه سابقا من أنّ اللّه قد أودع لدى أفراد البشر استعدادات و كفاءات تنمو فى ظل الاختبارات و فى ضوء تعاليم الأنبياء،فعند ما يطوى بنو الإنسان مرحله معينه، يجعلهم اللّه فى مرحله أسمى و حين تنتهى مرحله تربويه يأتى اللّه بمرحله تربويه أخرى على يد نبى آخر،كما يحصل بالضبط للمراحل التعليميه التى يمرّ بها الشاب فى مدرسته.

ص: ۲۷

---

۱ - ۱) -يعتقد البعض من كبار المفسّرين بوجود فرق بين«الدّين»و«الشريعه»و يقولون بأنّ الدين هو مبدأ التوحيد و المبادئ الأخرى المشتركه بين جميع الديانات،لذلك يكون الدين واحدا فى كل الأحوال و الأزمنه،و الشريعه هى القوانين و الأحكام و التعاليم التى تختلف أحيانا بين ديانه و أخرى لكنّنا لا نمتلك-أيضا-دليلا واضحا يؤيد هذا القول،لأن هاتين الكلمتين استخدمتا فى الكثير من الموارد للدلاله على معنى واحد.

بعد ذلك تخاطب الآیه-فی الختام-جمیع الأقوام و الملل،و تدعوهم إلی التسابق فی فعل الخیرات بدل تبذیر الطاقات فی الاختلاف و التناحر،حیث تقول: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ مؤكده أنّ الجمیع یکون مرجعهم و عودتهم إلی اللّه الذی یخبرهم فی یوم القیامه بما کانوا فیه یختلفون: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

الآیتان [سوره المائده (۵): الآیات ۴۹ الی ۵۰]

اشاره

وَ أَنِ اُحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ وَ اِحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمٰا يُرِيدُ اَللّٰهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ اَلنّٰاسِ لَفٰاسِقُونَ (۴۹) أَ فَحُكْمَ اَلْجٰاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اَللّٰهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۵۰)

سبب النّزول

نقل بعض المفسّرین فی سبب نزول هذه الآیه عن ابن عباس قوله:أنّ رهطا من وجهاء الیهود تآمروا و اتفقوا علی الذهاب إلی النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بغیه حرفه عن الإسلام،فذهبوا إلیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ذکروا له أنّهم قوم من مفکری و علماء الیهود،و أنّهم إن اتبعوه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اقتدی بهم بالتأکید بقیه الیهود،و زعموا أنّ بینهم و بین جماعه أخری نزاع(فی قضیه قتل أو أمر آخر)و طلبوا من النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یحکم فی النزاع المزعوم لمصلحتهم،و وعدوه أنّه إن استجاب لأمرهم یؤمنوا به،فامتنع النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن إصدار حکم غیر عادل،فنزلت الآیه المذکوره (۱) .

ص: ۲۹

۱- ۱) -تفسیر المنار،ج ۶،ص ۴۲۱.

التّفسير

اشاره

تكرر هـذه الآيه تأكيد البارى عزّ و جلّ على نبيّه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أن يحكم بين أهل الكتاب طبقا لأحكام اللّه،و أن لا يستسلم لأهوائهم و نزواتهم،فتقول: وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ... .

و التكرار للأمر هنا إمّا أن يكون بسبب المواضيع التى اشتملت عليها الآيه، و إمّا لأنّ موضوع الحكم فى هـذه الآيه يختلف عن موضوع الحكم فى الآيات السابقه،حيث كان موضوع الحكم فى الآيات السابقه هو الزنا مع المحصنه، و موضوع الحكم فى هذه الآيه هو القتل أو شيء آخر.

ثمّ تحذر الآيه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مؤامره هؤلاء الذين أرادوا عدول النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن شرعه الحقّ و العدل،و طالبته بأن يراقب تحركاتهم ،حيث تقول: وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكَ... .

و أكّدت هذه الآيه استمرارا لخطابها لنبى الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ هؤلاء الكتابيين إن لم يذعنوا لحكمه العادل فإنّ ذلك يكون دلاله على أن ذنوبهم و آثامهم قد طوقتهم فحرمتهم من التوفيق،و أنّ اللّه يريد أن يعاقبهم و يعذبهم بسبب بعض ذنوبهم،حيث تقول الآيه: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ... .

و سبب ذكر«بعض الذنوب»لا كلّها،قد يكون لأنّ عقاب كل الذنوب لا يتم فى الحياه الدنيا بل يذوق و بال بعضها،و الباقى منها يوكّل أمرها إلى العالم الثّانى، أى بعد الموت.

و لم تصرّح هـذه الآيه بنوع الذنوب التى طوقت و أحاطت بهؤلاء،و يحتمل أن تكون إشاره إلى المصير الذى أحاط بيهود المدينه،بسبب الخيانات المتواليه التى مارسوها،ممّا اضطرهم إلى ترك بيوتهم و مغادره المدينه المنوره،أو أن يكون فشل هؤلاء و حرمانهم من التوفيق نوعا من العقاب لهم على ذنوبهم السابقه،لأنّ

الحرمان من التوفيق يعتبر-بحد ذاته-نوعا من العقاب،أى أن الذنوب المتتاليه و العناد و الإصرار على الذنب،جزاؤهما الحرمان من الأحكام العادله،و التورط بالضّلال و الحيره متاهات الحياه.

و تشير الآيه فى النهايه إلى أنّ إصرار هؤلاء القوم من أهل الكتاب على باطلهم يجب أن لا يكون باعثا للقلق عند النّبى،لأنّ الكثير من الناس منحرفون عن طريق الحق،أى أنّهم فاسقون،حيث تقول الآيه: وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النّاسِ لَفاسِقُونَ .

سؤال:

يمكن أن يعترض البعض بأنّ هذه الآيه توحى باحتمال صدور الانحراف عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و العياذ باللّه،و أن اللّه يحذره من ذلك،فهل أنّ هذا الأمر يتلائم و منزله العصمه التى يتمتع بها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟

الجواب:

إنّ العصمه لا تعنى مطلقا استحاله صدور الخطأ من المعصوم،و لو كان كذلك لما بقيت لهم مكرمه أو فضل،و معنى العصمه هو أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّه عليهم السّلام مع وجود احتمال صدور الذنب أو الخطأ منهم إلّا أنّهم لا يرتكبون الذنب أبدا و إن كان عدم ارتكاب الذنب من قبل المعصوم ناشئ عن التنبيه و التحذير و التذكير الإلهى للمعصوم،أى أن التنبيه الإلهى يعتبر جزءا من عامل العصمه لدى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذى يحول دون ارتكاب الخطأ،و سنبادر إلى توضيح موضوع العصمه لدى الأنبياء-بتفصيل أكثر-عند تفسير آيه التطهير(الآيه ٣٣ من سوره الأحزاب بإذن اللّه).

أمّا الآيه الأخرى فتساءلت بصيغه استفهام استنكارى،هل أنّ هؤلاء الذين يدّعون أنّهم اتباع الكتب السماويه يتوقعون أن تحكم بينهم(الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بأحكام الجاهليه التى فيها أنواع التمايز المقيت؟حيث تقول الآيه: أَ فَحُكْمَ

الْجاهِلِيَّهِ يَبْغُونَ...

.

لكنّ أهل الإيمان لا يرون أى حكم أرفع و أفضل من حكم اللّه،حيث تتابع الآيه قولها: وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

و لقد بيّنا-عند تفسير الآيات السابقه-أن نوعا من التمايز الغريب كان يسود الأوساط اليهوديه بحيث لو أن فردا من يهود بنى قريظه قتل فردا من يهود بنى النضير لتعرض للقصاص،بينما لو حصل العكس لم يكن ليطبق حكم القصاص فى القاتل،و قد شمل هذا التمايز المقيت-أيضا-حكم الغرامه و الديه عند هؤلاء، فكانوا يأخذون ضعف الديه من جماعه،و لا يأخذونها من جماعه أخرى،أو يأخذون أقل من الحدّ المقرر،و لذلك استنكر القرآن هذا النوع من التمايز و اعتبره من أحكام الجاهليه،فى حين أنّ الأحكام الإلهيه تشمل البشر أجمعين و تطبق دون أى تمايز.

و

جاء فى كتاب«الكافى»عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام أنّه قال:

«الحكم حكمان:حكم اللّه،و حكم الجاهليه،فمن أخطأ حكم اللّه حكم بحكم الجاهليه» (1) .

و هكذا يتّضح أنّ أى مسلم يتبع الأحكام الوضعيه و لا يلتزم بالأحكام و القوانين الإلهيه السماويه إنّما يسير فى الحقيقه فى طريق الجاهليه.

١- ١) -نور الثقلين،ج ١،ص ۶۴٠.

الآيات [سوره المائده (۵): الآيات ۵۱ الى ۵۳]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا اَلْيَهُودَ وَ اَلنَّصٰارىٰ أَوْلِيٰاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (۵۱) فَتَرَى اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسٰارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشىٰ أَنْ تُصِيبَنٰا دٰائِرَةٌ فَعَسَى اَللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلىٰ مٰا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نٰادِمِينَ (۵۲) وَ يَقُولُ اَلَّذِينَ آمَنُوا أَ هٰؤُلاٰءِ اَلَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خٰاسِرِينَ (۵۳)

سبب النّزول

نقل الكثير من المفسّرين أنّ(عباده بن صامت الخزرجى)قدم إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد غزوه بدر و ذكر له أن له حلفاء من اليهود ذوى عده و عدد،و أكّد للنبى أنّه يريد البراءه من صداقتهم و من عهده معهم ما داموا يهددون المسلمين بالحرب،و قال بأنّه يريد أن يكون حليفا للّه و لنبيه دون سواهما،أمّا عبد اللّه بن أبى فرفض التنصل من عهده مع اليهود،و اعتذر بأنّه يخشى المشاكل و ادعى أنّه يحتاج إلى اليهود.

و أظهر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خشيته على عباده و عبد اللّه من صداقه اليهود مشيرا إلى أنّ خطر صداقه اليهود على عبد اللّه أكبر من خطرها على عباده بن صامت،فقال عبد اللّه بأنّه ما دام الأمر كذلك فإنّه سيتخلى عن صداقته و عهده مع اليهود،فنزلت الآيات الأخيره و هى تحذر المسلمين من التحالف مع اليهود و النصارى.

التّفسير

اشاره

لقد حذرت الآيات الثلاث الأخيره المسلمين-بشدّه-من الدخول فى أحلاف مع اليهود و النصارى،فالآيه الاولى منها تمنع المسلمين من التحالف مع اليهود و النصارى أو الاعتماد عليهم(أى أنّ الإيمان باللّه يوجب عدم التحالف مع هؤلاء إن كان ذلك لأغراض و مصالح ماديه)حيث تقول الآيه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارىٰ أَوْلِيَاءَ... .

و كلمه«أولياء»صيغه جمع من«ولى»و هى مشتقه من مصدر«الولايه»و هى بمعنى التقارب الوثيق بين شيئين،و قد وردت بمعنى«الصداقه»و«التحالف» و«الإشراف».

لكن بالنظر إلى سبب النّزول و القرائن الأخرى الموجوده،فإنّ المراد ليس منع المسلمين من اقامه أى علاقات تجاريه و اجتماعيه مع اليهود و النصارى،بل المقصود هو منع المسلمين من التحالف مع هؤلاء أو الاعتماد عليهم فى مواجهه الأعداء.

و كانت قضيه التحالف رائجه فى ذلك العصر بين العرب،و كان يطلق على ذلك«الولاء».

و الملفت للنظر فى هذه الآيه أنّها لم تعتمد تسميه«أهل الكتاب»لدى تحدثها عن اتباع الديانتين السماويتين المعروفتين،بل استخدمت كلمتى«اليهود و النّصارى»و ربّما يكون هذا إشاره إلى أنّ اليهود و النصارى لو كانوا يعملون

بکتابیهم السماویین،لکان اتباع هذین الدینین خیر حلیفین للمسلمین،لکنّهم اتّحدوا معا-لا بأمر من کتابیهم-بل لأغراض سیاسیه و تکتلات عنصریه و أمثال ذلک.

بعد ذلک تبیّن الآیه سبب هذا النهی فی جمله قصیره،و تقول بأن هاتین الطائفتین إنّما هما أصدقاء و حلفاء أشباههما من الیهود و النصاری حیث تقول:

بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ

أی أنّهما یهتمان بمصالحهما و مصالح أصدقائهما فقط،و لا یعیران اهتماما لمصالح المسلمین،و لذلک فإن أی مسلم یقیم صداقه أو حلفا مع هؤلاء فإنّه سیصبح من حیث التقسیم الاجتماعی و الدینی جزءا منهم،حیث تؤکّد الآیه فی هذا المجال بقولها: وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ .

و بدیهی أنّ اللّه لا یهدی الأفراد الظالمین الذین یرتکبون الخیانه بحق أنفسهم و إخوانهم و أخواتهم المسلمین و المسلمات،و یعتمدون علی أعداء الإسلام تقول الآیه: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ .

و تشیر الآیه التّالیه إلی الأعذار التی کان یتشبث بها أفراد ذوی نفوس مریضه لتبریر علاقاتهم اللاشرعیه مع الغرباء،و اعتمادهم علیهم و تحالفهم معهم،مبررین ذلک بخوفهم من الوقوع فی مشاکل إن أصبحت القدره یوما فی ید حلفائهم الغرباء،فتقول الآیه: فَتَرَی الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یُسٰارِعُونَ فِیهِمْ یَقُولُونَ نَخْشیٰ أَنْ تُصِیبَنٰا دٰائِرَهٌ (۱) .

و یذکر القرآن الکریم هؤلاء الضعفاء ذوی النفوس المریضه ردا علی تعللهم فی التخلی عن حلفهم مع الغرباء،فیبیّن لهم أنّهم حین یحتملون أن یمسک الیهود و النصاری یوما بزمام القدره و السلطه یجب أن یحتملوا-أیضا-أن ینصر اللّه

۱- ۱) -إنّ کلمه(دائره)مشتقه من المصدر(دور)أی الشیء الذی یکون فی حاله دوران،و بما أن القدرات المادیه و الحکومات هی فی حاله دوران دائم علی طول التّأریخ،لذلک یقال لها(دائره)کما تطلق هذه الکلمه-أیضا-علی أحداث الحیاه المختلفه التی تدور حول الأشخاص.

المسلمين فتقع القدره بأيديهم،حيث يندم هؤلاء على ما أضمروه فى أنفسهم،كما تقول الآيه: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ .

و يشتمل هذا الجواب القرآنى-فى الحقيقه على جانبين:

أوّلهما:أنّ أفكارا كهذه إنما تخرج من قلوب مريضه لأفراد تزلزل ايمانهم و أصبحوا يسيئون الظن باللّه،و لو لم يكونوا كذلك لما سمحوا لهذه الأفكار بأن تداخل نفوسهم.

أمّا الجانب الثّانى فى هذا الجواب فهو مواجهتهم بنفس الحجه التى أوردوها لتعللهم ذلك،إذ أنّ احتمالهم لوقوع السلطه بيد اليهود و النصارى يقابله- بالضروره-احتمال آخر و هو انتصار المسلمين و استلامهم لمقاليد الأمور،و بهذا لا يكون هناك أى مجال لتشبث هؤلاء بحلفهم مع أولئك أو الاعتماد عليهم.

و على أساس هذا التّفسير فإنّ كلمه(عسى)التى لها مفهوم الاحتمال و الأمل، تبقى فى هذه الآيه محتفظه بمعناها الأصلى لكن بعض المفسّرين قالوا بأنّها تعنى هنا الوعد الجازم من قبل اللّه للمسلمين،و هذا ما لا يتلائم و ظاهر كلمه(عسى) البته.

أمّا المراد من جمله أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ التى جاءت بعد كلمه(الفتح)فى هذه الآيه فيحتمل أنّها تعنى أنّ المسلمين-فى المستقبل-إمّا أن يتغلبوا و ينتصروا على أعدائهم عن طريق الحرب أو بدونها كأن تتوسع قدرتهم إلى درجه يضطر بعدها الأعداء إلى الخضوع و الاستسلام للمسلمين دون الحاجه إلى الدخول فى حرب.

و بتعبير آخر:كلمه(الفتح)تشير إلى الإنتصار العسكرى للمسلمين،و أنّ جمله أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ إشاره إلى الانتصارات الاجتماعيه و الاقتصاديه و ما شابه ذلك.

إنّ بيان هذا الاحتمال من قبل اللّه سبحانه و تعالی،مع کونه-عزّ و جلّ-عالما بجمیع ما سیحصل فی المستقبل،یدل علی أنّ الآیه تشیر إلی الانتصارات العسکریه و الاجتماعیه و الاقتصادیه التی سیحرمها المسلمون فی المستقبل.

و تشیر الآیه فی الختام إلی مصیر عمل المنافقین،و تبیّن أنّه حین یتحقق الفتح للمسلمین المؤمنین و تنکشف حقیقه عمل المنافقین یقول المؤمنون-بدهشه -:هل أنّ هؤلاء المنافقین هم أولئک الذین کانوا یتشدقون بتلک الدعاوی و یجلفون بالایمان المغلظه بأنّهم معنا،فکیف وصل الأمر بهم إلی هذا الحدّ؟حیث تقول الآیه: وَ یَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا أَ هٰؤُلاٰءِ الَّذِینَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَکُمْ.. (۱) .

إنّ هؤلاء لنفاقهم هذا ذهبت أعمالهم أدراج الریاح،لأنّها لم تکن نابعه من نیّه خالصه صادقه،و لهذا فقد أصبحوا من الخاسرین-سواء فی هذه الدنیا أو الآخره معا-حیث تؤکّد الآیه هذا الأمر بقولها: حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خٰاسِرِینَ .

و الجمله الأخیره تشبه-فی الحقیقه-جوابا لسؤال مقدر،و کأن شخصا یسأل:ماذا سیکون مصیر هؤلاء؟ فیجاب بأنّ أعمالهم أدراج الریاح،و ستطوقهم الخساره من کل جانب،أی أنّ هؤلاء-حتی لو کانت لهم أعمال صدرت عنهم بإخلاص و نیه صادقه-فهم لا یحصلون علی أی نتیجه حسنه من تلک الأعمال الصالحه لانحرافهم صوب النفاق و الشّرک بعد ذلک:و قد شرحنا هذا الأمر فی الجزء الثّانی من تفسیرنا هذا عند تفسیر الآیه(۲۱۷)من سوره البقره.

ص: ۳۷

۱- ۱) -فی هذه الآیه تکون کلمه«هؤلاء»مبتدأ و خبرها جمله«الذین أقسموا باللّه»أمّا جمله«جهد إیمانهم»فهی مفعول مطلق.

الاعتماد على الغرباء:

على الرّغم من أنّ الواقعه-التى ذكرت سببا لنزول الآيات الأخيره-تحدثت عن شخصين هما«عباده بن الصامت»و«عبد اللّه بن أبى»إلّا أنّ ممّا لا شك فيه أنّ هذين الشخصين لا يشار إليهما باعتبارهما شخصيتين تاريخيتين-فحسب-بل لأنّهما يمثلان مذهبين فكريين و اجتماعيين.يدعو أحدهما إلى التخلى عن التعاون و التحالف مع الغرباء،و عدم تسليم زمام المسلمين بأيديهم،و عدم الثقه بتعاونهم.

و المذهب الآخر يرى أنّ كل انسان أو شعب فى هذه الدنيا المليئه بالمشاكل و الأهوال يحتاج إلى من يتكئ و يعتمد عليه،و أن الحاجه تدعو أحيانا إلى انتخاب الدّعم و السند من بين الغرباء بحجه أن الصداقه معهم لا تخلو من قيمه و فائده،و لا بدّ أن تظهر ثمارها فى يوم من الأيّام.

و قد دحض القرآن الكريم رأى المذهب الثّانى بشدّه،و حذر المسلمين بصراحه من مغبه الوقوع و التورط فى نتائج مثل هذا النوع من التفكير،لكن البعض من المسلمين-و مع الأسف-قد نسوا و تجاهلوا هذا الأمر القرآنى العظيم، فانتخبوا من بين الغرباء و الأجانب من يعتمدون عليهم،و قد أثبت التّأريخ أن كثيرا من النكبات التى أصابت المسلمين تنبع من هذا الاتجاه الخاطئ! و بلاد الأندلس تعتبر دليلا حيّا و بارزا على هذا الأمر،و تظهر كيف أن المسلمين بالاعتماد على قواهم الذاتيه-استطاعوا أن يبنوا أكثر الحضارات ازدهارا فى الأندلس-أسبانيا اليوم- لكنّهم نتيجه لاعتمادهم على قوى غريبه أجنبيه فقدوا تلك المكتسبات العظيمه بكل سهوله.

و الإمبراطوريه العثمانيه التى سرعان ما ذابت كذوبان الجليد فى الصيف، تعتبر دليلا آخر على هذه الدعوى.

كما أنّ التّأريخ المعاصر يشهد على ما أصاب المسلمين من خسائر و مصائب

كبيره بسبب انحرافهم عن رسالتهم و اعتمادهم فى كثير من الأمور على الأجانب الغرباء،و العجب كل العجب من أن هذا السبات ما زال يلف العالم الإسلامى،و لم توقظه بعد الكوارث و النكبات التى أصابته بسبب اعتماده على القوى الأجنبيه.

على أى حال فإن الأجنبى أجنبى،و مهما اشترك معنا فى المصالح و تعاون معنا فى مجالات محدوده فهو فى النهايه يعتزل عنّا فى اللحظات الحساسه، و كثيرا ما تنالنا منه-أيضا-ضربات مؤثره.

و ما على المسلمين اليوم إلّا أن ينتبهوا أكثر من أى وقت مضى إلى هذا النداء القرآنى و لا يعتمدوا على أحد سوى اللّه و قواهم الذاتيه التى وهبها اللّه لهم.

لقد اهتمّ نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كثيرا بهذا الأمر،حتى أنّه رفض مساعده اليهود فى واقعه«أحد»حين أعلن ثلاثمائه منهم استعدادهم للوقوف بجانب المسلمين ضد المشركين،فأعادهم النّبى إلى حيث كانوا و لما يصلوا إلى منتصف الطريق، و امتنع عن قبول عرضهم فى حين أن مثل هذا العدد من الناس كان يمكن له أن يلعب دورا مؤثرا فى واقعه أحد،فلما ذا رفضهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ لقد رفضهم لأنّه لم يستبعد منهم أن يخذلوه و يخذلوا المسلمين فى أحرج اللحظات و أكثرها خطوره أثناء الحرب،و يتحولوا إلى التعاون مع العدوّ و يقضوا على ما تبقى من جيش المسلمين فى ذلك الوقت.

ص: ٣٩

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۵۴]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اَللّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ أَذِلَّهٍ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّهٍ عَلَی اَلْکافِرِینَ یُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اَللّهِ وَ لا یَخافُونَ لَوْمَهَ لائِمٍ ذلِکَ فَضْلُ اَللّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ وَ اَللّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ (۵۴)

التّفسیر

بعد الانتهاء من موضوع المنافقین،یأتی الکلام-فی هذه الآیه الکریمه-عن المرتدین الذین تتبأ القرآن بارتدادهم عن الدین الإسلامی الحنیف،و هذه الآیه أتت بقانون عام یحمل إنذارا لجمیع المسلمین،فأکّدت أنّ من یرتد عن دینه فهو لن یضر اللّه بارتداده هذا أبدا،و لن یضر الدین و لا المجتمع الإسلامی أو تقدمه السریع،لأنّ اللّه کفیل بإرسال من لدیهم الاستعداد فی حمایه هذا الدین،حیث تقول الآیه الکریمه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ... .

ثمّ تتطرق الآیه إلی صفات هؤلاء الحماه الذین یتحملون مسئولیه الدفاع العظیمه،و تبیّنها علی الوجه التّالی:

۱-إنّهم يحبّون اللّه و لا يفكرون بغير رضاه،فاللّه يحبّهم و هم يحبّونه،كما تقول الآيه: يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ .

۲-و ۳-يبدون التواضع و الخضوع و الرأفه أمام المؤمنين،بينما هم أشداء أقوياء أمام الأعداء الظالمين-حيث تقول الآيه: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ... .

۴-إنّ شغلهم الشاغل هو الجهاد فی سبيل اللّه،إذ تقول الآيه: يُجاهِدُونَ فِی سَبِيلِ اللّهِ .

۵-و آخر صفه تذكرها الآيه لهؤلاء العظام،هی أنّهم لا يخافون لوم اللائمين فی طريقهم لتنفيذ أوامر اللّه و الدفاع عن الحق،حيث تقول الآيه: وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ... فهؤلاء بالإضافه إلى امتلاكهم القدره الجسمانيه،يمتلكون الجرأه و الشّجاعه لمواجهه التقاليد الخاطئه،و الوقوف بوجه الأغلبيه المنحرفه التی اعتمدت على كثرتها فی الاستهزاء بالمؤمنين.

و هناك الكثير من الأفراد المعروفين بصفاتهم الطيبه،لكنّهم يبدون الكثير من التحفظ أمام الفوضى السائده فی المجتمع و هجوم الأفكار الخاطئه لدى سواد الناس أو من الأغلبيه المنحرفه،و يتملكهم الخوف و الجبن،و سرعان ما يتركون الساحه و يخلونها للمنحرفين،فی حين أنّ القائد المصلح و من معه من الأفراد بحاجه إلى الجرأه و الشهامه لتطبيق أفكارهم و اصلاحاتهم.و على عكس هؤلاء فالذين لا يمتلكون هذه الصفات الروحيه الرفيعه،يقفون سدّا و حائلا دون حصول الإصلاحات المطلوبه.

و تؤكّد الآيه فی الختام-على أنّ اكتساب أو نيل مثل هذه الامتيازات الساميه(بالإضافه إلى الحاجه لسعی الإنسان نفسه) مرهون بفضل اللّه الذی يهبها لمن يشاء،و لمن يراه كفؤا لها من عباده،حيث تقول الآيه فی هذا المجال: ذلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ... .

و فی النهایه تبیّن الآیه أنّ مجال فضل اللّه و کرمه واسع،و هو یعرف الأکفاء و المؤهلین من عباده،و کما تقول الآیه: وَ اللّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ .

لقد نقلت الرّوایات الإسلامیه التی أوردها المفسّرون أقوالا کثیره حول هویه الأشخاص المعنیین بهذه الآیه،فمن هم أنصار الإسلام هؤلاء الذین مدحهم اللّه بهذه الصفات؟ فی الکثیر من الرّوایات الوارده عن طرق الشیعه و السنه نقرأ أن هذه الآیه نزلت فی حقّ(علی بن أبی طالب علیه السّلام)و قتاله للناکثین و القاسطین و المارقین (مثیری حرب الجمل،و جیش معاویه،و الخوارج)،و ممّا یدل علی ذلک قول النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین رأی عجز قاده جیش الإسلام عن فتح حصن خیبر،حیث وجه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لهم الخطاب فی إحدی اللیالی و فی مقر جیش الإسلام قائلا:

لأعطین الرایه غدا رجلا یحبّ اللّه و رسوله و یحبّه اللّه و رسوله،کرارا غیر فرار،لا یرجع حتی یفتح اللّه علی یده» (1) .

و نقرأ فی روایه أخری أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سئل عن هذه الآیه فوضع صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یده الشریفه علی کتف«سلمان»و قال ما مضمونه:«هذا و أنصاره و بنی قومه...» و بذلک تنبأ النّبی عن إسلام الإیرانیین و جهودهم و مساعیهم المثمره فی خدمه هذا الدین فی المجالات المختلفه،ثمّ

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لو کان الدین(و فی روایه أخری- لو کان العلم-)معلقا بالثریا لتناوله رجال من أبناء فارس» (2) .

و ذکرت روایات أخری أن هذه الآیه نزلت فی شأن أنصار المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف الذین سیواجهون الارتداد و المرتدین بکل قوّه

---

1 - 1) -و قد ورد فی تفسیر(البرهان)و(نور الثقلین)العدید من الرّوایات،منقوله عن أئمّه أهل البیت علیهم السّلام فی هذا المجال،کما نقل(الثعلبی)و هو أحد علماء السنه هذه الرّوایات(راجع کتاب إحقاق الحق،ج ۳،ص ۲۰۰).
2 - 2) - مجمع البیان،ج ۳،ص ۲۰۸-نور الثقلین،ج ۱،ص ۶۴۲-أبو نعیم الأصفهانی فی الحلیه،ج ۶،ص ۶۴ نقلوا هذا الحدیث علی الوجه التالی: «لو کان العلم منوطا بالثریا لتناوله رجال من أبناء فارس» أمّا ابن عبد البر فقد نقل الحدیث علی الصوره التّالیه: «لو کان الدین عند الثریا لناله سلمان...» و ذلک فی الإستیعاب،ج ۲،ص ۵۷۷.

و حزم،و يملؤون العالم قسطا و عدلا و إيمانا.

و ممّا لا شك فيه أنّه لا تناقض بين هذه الرّوايات الوارده فى تفسير الآيه الأخيره،لأنّ الآيه-جريا على أسلوب القرآن الكريم-تبيّن مفهوما كليا عاما، بحيث تعتبر«على بن أبى طالب عليه السّلام»أو«سلمان الفارسى»مصداقين مهمين ضمن هذا المفهوم الذى يشمل أفرادا آخرين يسيرون على نفس النهج،حتى لو لم تتطرق الرّوايات إلى أسمائهم.

إنّ الأمر الذى يثير الأسف فى هذا المجال،هو تدخل العصبيات الطائفيه و القوميه فى تفسير هذه الآيه،و التى أدخلت أفرادا لا يمتلكون أى كفاءه و لا يتمتعون بأى من الصفات المذكوره ضمن مصاديق هذه الآيه و اعتبرتهم ممّن نزلت الآيه فى شأنهم،و من هؤلاء الأفراد«أبو موسى الأشعرى» الذى ارتكب تلك الحماقه التّأريخيه المعروفه التى دفعت بالإسلام نحو هاويه السقوط، و وضعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى أحرج موقف (۱) .

و الغريب فى هذا الأمر هو انتقال آثار التطرف الذى نلاحظه فى الكتب العلميه-بشكل رهيب-إلى سواد الناس،بل إلى متعلميهم،و كأن هناك يدا خفيه تسعى الى تشتيت صفوف المسلمين،و تحول دون اتحاد كلمتهم،و قد سرى هذا التطرف ليشمل تاريخ ما قبل الإسلام،بحيث نرى هؤلاء المتطرفين و قد سمّوا شارعا فخما يقع بجوار بيت اللّه الحرام باسم«أبى سفيان»و هذا الشارع هو أكبر و أفخم بكثير من شارع«إبراهيم الخليل عليه السّلام»مؤسس الكعبه الشريفه.

و أخذ أمثال هؤلاء المتطرفين يصمون كثيرا من المسلمين و بكل بساطه بالشرك،لا لشيء إلّا لأنّ تحرك هؤلاء المسلمين لا يتفق مع أهوائهم و طريقتهم

---

۱ - ۱) -تفسير الطبرى،ج ۶،ص ۱۸۴-إلاّ أنّ بعض الرّوايات ذكرت فقط«قوم أبى موسى»للإشاره إلى أهل اليمن الذين هبوا لنصره الإسلام فى أحرج اللحظات،و استثنى أبو موسى تلميحا إلى قومه،بينما تصرح الرّوايات الأخرى بأن(سلمان الفارسى)و قومه هم المشمولون بهذه الآيه.

الخاصه،و كأن الإسلام ينحصر فی هذه الطريقه،أو كأنّهم-وحدهم-سدنه القرآن و حفظته دون غيرهم،أو كأنّهم هم المكلفون-دون غيرهم-ببيان من هو المسلم و من هو الكافر،فيشيرون بكلمه واحده إلی هذا بأنّه مشرك و إلی ذاك بأنّه مسلم، وفق ما تشتهيه أهواؤهم و رغباتهم.

فی حين أنّنا نقرأ فی الرّوايات الوارده فی تفسير الآيات الأخيره،أنّ الإسلام حين يصبح غريبا بين أهله يبرز أشخاص كسلمان الفارسی لإعاده مجد الإسلام و عظمته،و هذه بشاره وردت علی لسان النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم لقوم سلمان.

و المثير للدهشه و الحيره أن كلمه التوحيد التی هی رمز لوحده المسلمين، أصبحت اليوم تستخدم من قبل جهات معلومه للتفريق بين المسلمين و اتهامهم بالشرك و الوثنيه،و قد خاطب أحد العلماء هؤلاء المتطرفين بقوله:إنّكم قد وصلت بكم الحاله إلی درجه أن إسرائيل إذا تسلطت علی جماعه منكم فرحت جماعه أخری بهذا التسلط،و إذا ضربت إسرائيل الجماعه الأخری فرحت الجماعه الاولی بهذا العمل،أو ليس هذا هو ما يبتغيه و يهدف إليه أعداء الإسلام؟ و من الإنصاف القول بأن اللقاءات المتكرره التی حصلت بيننا و بين عدد من علماء هؤلاء المتعصبين المتطرفين،كشفت القناع عن أنّ الواعين منهم كثيرا ما لا يرضون بهذا الوضع،و قد التقيت بأحد علماء اليمن فی المسجد الحرام فقال أمام جمع من كبار مدرسی الحرم المكی:إنّ اتهام أهل القبله بالشرك يعتبر ذنبا كبيرا، استقبحه السلف الصالح كثيرا،و قد صدر هذا القول منه حين كان الحديث يدور حول مسأله حدود الشرك،و قد أعرب هذا العالم عن استيائه لما يقوم به بعض الجهلاء من اتهام الناس بالشرك مشيرا إلی أن هؤلاء يتحملون بعملهم هذا مسئوليه عظيمه.

الآيه [سوره المائده (۵): آيه ۵۵]

اشاره

إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ اَلصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ اَلزَّكٰاةَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ (۵۵)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر مجمع البیان-و تفاسیر و کتب أخری-نقلا عن عبد اللّه بن عباس قوله:أنّه کان فی أحد الأیّام جالسا إلی جوار بئر زمزم،و یروی للناس أحادیث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فتقرب إلیهم-فجأه-رجل کان یرتدی عمامه،و یضع علی وجهه نقابا،و کان کلما تلا ابن عباس حدیثا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تلا هو حدیثا عن النّبی مستهلا قوله بعباره:«قال رسول اللّه...»فأقسم علیه ابن عباس أن یعرف نفسه،فرفع هذا الشخص النقاب عن وجهه و صاح أیّها الناس من عرفنی فقد عرفنی و لم یعرفنی فأنا جندب بن جناده البدری أبو ذر الغفاری،سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهاتین و إلاّ صمتا،و رأیته بهاتین و إلاّ فعمیتا،

یقول: «علی قائد البرره،و قاتل الکفره منصور من نصره،مخذول من خذله».

و

أضاف أبو ذر: أمّا إنّی صلیت مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یوما من الأیّام صلاه الظهر فسأل سائل فی المسجد فلم یعطه أحد فرفع السائل یده الی السماء و قال:اللّهم أشهد بأنّی سألت فی مسجد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلم یعطنی أحد شیئا،و کان علی علیه السّلام

راكعا فأومى إليه بخنصره اليمنى و كان يختتم فيها فاقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره و ذلك بعين النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلمّا فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء و قال:«اللّهم موسى سألك فقال: رَبِّ اشْرَحْ لِی صَدْرِی وَ یَسِّرْ لِی أَمْرِی وَ احْلُلْ عُقْدَهً مِنْ لِسانِی یَفْقَهُوا قَوْلِی وَ اجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی هارُونَ أَخِی اشْدُدْ بِهِ أَزْرِی وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی ،فأنزلت علیه قرآنا ناطقا: سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ وَ نَجْعَلُ لَکُما سُلْطاناً فَلا یَصِلُونَ إِلَیْکُما... اللّهم و أنا محمّد نبیّک و صفیک اللّهمّ فاشرح لی صدری و یسّر لی أمری و اجعل لی وزیرا علیّا أشدد به ظهری».

قال أبو ذر رحمه اللّه:فما استتم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کلامه حتی نزل جبرائیل من عند اللّه عزّ و جلّ فقال علیه السّلام:یا محمّد اقرأ،قال:و ما اقرأ؟قال:اقرأ: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاهَ وَ هُمْ راکِعُونَ (۱) .

و طبیعی أنّ سبب النّزول هذا قد نقل عن طرق مختلفه(کما سیأتی تفصیله) بحیث تختلف الرّوایات أحیانا بعضها عن البعض الآخر فی جزئیات و خصوصیات الموضوع،لکنها جمیعا متفقه من حیث الأساس و المبدأ.

التّفسیر

اشاره

ابتدأت هذه الآیه بکلمه«إنّما»التی تفید الحصر،و بذلک حصرت ولایه أمر المسلمین فی ثلاث هم:اللّه و رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و الذین آمنوا و أقاموا الصّلاه و أدوا الزّکاه و هم فی حاله الرکوع فی الصّلاه کما تقول الآیه: إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاهَ وَ هُمْ راکِعُونَ .

و لا شک أنّ الرّکوع المقصود فی هذه الآیه هو رکوع الصّلاه و لا یعنی الخضوع،لأنّ الشارع المقدس اصطلح فی القرآن علی کلمه الرّکوع للدلاله علی الرکن الرّابع للصلاه.

۱- ۱) -تفسیر مجمع البیان:ج ۲،ص ۲۱۰،فی ذیل الآیه البحوثه.

و بالإضافه إلى الرّوايات الوارده فی شأن نزول الآیه،و التی تتحدث عن تصدق علی بن أبی طالب علیه السّلام بخاتمه فی الصّلاه-و سنتطرق إلیها بالتفصیل-فإنّ جمله یُقِیمُونَ الصَّلاهَ تعتبر دلیلا علی هذا الأمر،و لیس فی القرآن أثر عن ضروره أداء الزّکاه مقرونه بالخضوع،بل ورد التأکید علی دفع الزّکاه بنیّه خالصه و بدون منه.

کما لا شک فی أنّ کلمه«الولی»الوارده فی هذه الآیه،لا تعنی الناصر و المحب،لأنّ الولایه التی هی بمعنی الحب أو النصره لا تنحصر فی من یؤدون الصّلاه و یؤتون الزّکاه و هم راکعون،بل تشمل کل المسلمین الذین یجب أن یتحابوا فیما بینهم و ینصر بعضهم البعض،حتی أولئک الذین لا زکاه علیهم،أو لا یمتلکون-أساسا-شیئا لیؤدوا زکاته،فکیف یدفعون الزّکاه و هم فی حاله الرکوع؟!هؤلاء کلهم یجب أن یکونوا أحباء فیما بینهم و ینصر بعضهم البعض الآخر.

و من هنا یتّضح لنا أنّ المراد من کلمه«ولی»فی هذه الآیه، هو ولایه الأمر و الإشراف و حق التصرف و الزعامه المادیه و المعنویه،خاصّه و قد جاءت مقترنه مع ولایه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ولایه اللّه حیث جاءت الولایات الثلاث فی جمله واحده.

و بهذه الصوره فإن الآیه تعتبر نصّا قرآنیا یدل علی ولایه و إمامه علی بن أبی طالب علیه السّلام للمسلمین.

شهاده الأحادیث و المفسّرین و المؤرخین:

لقد قلنا أنّ الکثیر من الکتب الإسلامیه و مصادر أهل السنّه تشتمل علی العدید من الرّوایات القائله بنزول هذه الآیه فی شأن الإمام علی بن أبی طالب علیه السّلام،و قد ذکرت بعض هذه الرّوایات قضیه تصدق الإمام علی علیه السّلام بخاتمه علی السائل و هو فی حاله الرکوع،کما لم تذکر روایات أخری مسأله التصدق

هذه،بل اكتفت بتأييد نزول هذه الآيه فى حق على عليه السّلام.

و قد نقل هذه الرّوايات كل من ابن عباس،و عمار بن ياسر،و عبد اللّه بن سلام،و سلمه بن كهيل،و أنس بن مالك،و عتبه بن حكيم،و عبد اللّه بن أبى،و عبد اللّه بن غالب،و جابر بن عبد اللّه الأنصارى،و أبى ذر الغفارى (۱) .

و بالإضافه إلى الرواه العشره المذكورين،فقد نقلت كتب الجمهور(أهل السنه)هذه الروايه عن على بن أبى طالب عليه السّلام نفسه (۲) .

و الطّريف أنّ كتاب(غايه المرام)،قد نقل ۲۴ حديثا عن طرق أهل السنه و ۱۹ حديثا عن طرق الشّيعه (۳) .

و قد تجاوز عدد الكتب التى أوردت هذه الرّوايات الثلاثين كتابا،كلها من تأليف علماء أهل السنه،منهم:محب الدين الطبرى فى ذخائر العقبى ص ۸۸، و العلامه القاضى الشوكانى فى تفسير فتح القدير ج ۲،ص ۵۰،و من هذه المصادر المعتمده أيضا:جامع الأصول، ج ۹، ص ۴۷۸،و فى أسباب النّزول للواحدى ص ۱۴۸،و فى لباب النقول للسيوطى ص ۹۰،و فى تذكره سبط ابن الجوزى ص ۱۸، و فى نور الأبصار للشبلنجى ص ۱۰۵،و فى تفسير الطبرى ص ۱۶۵،و فى كتاب الكافى الشافى لابن حجر العسقلانى ص ۵۶،و فى مفاتيح الغيب للرازى ج ۳، ص ۴۳۱،و فى تفسير الدرّ المنثور ج ۲،ص ۳۹۳،و فى كتاب كنز العمال ج ۶، ص ۳۹۱،و فى مسند ابن مردويه و مسند ابن الشيخ،بالاضافه إلى صحيح النسائى،و كتاب الجمع بين الصحاح السته،و كتب عديده أخرى نقلت حديث الولايه (۴) .

اذن كيف يمكن-و الحاله هذه-انكار هذه الأحاديث و المصادر التى نقلتها،

۱- ۱) -راجع كتاب إحقاق الحق،ج ۲،ص ۳۰۹-۴۱۰.

۲- ۲) -راجع كتاب(المراجعات)للسيد عبد الحسين شرف الدين،ص ۱۵۵.

۳- ۳) -منهاج البراعه،ج ۲،ص ۳۵۰.

۴- ۴) -راجع كتاب إحقاق الحق،ج ۲،و كتاب(الغدير)ج ۲،و كتاب المراجعات للاطلاع على تفاصيل أكثر بهذا الشأن.

فی حین أنّها اکتفت فی مجال أسباب نزول آیات أخری بحدیث واحد أو حدیثین؟!العل التطرف الطائفی هو سبب تجاهل کل هذه الأحادیث و الشهادات التی أدلی بها العلماء فی مجال سبب نزول هذه الآیه.

فلو أمکن التغاضی عن کل الرّوایات التی وردت فی تفسیر هذه الآیه،و هی روایات کثیره للزم أن لا نعتمد علی أی روایه فی تفسیر النصوص القرآنیه،لأنّنا قلما نجد أسبابا لنزول آیه أو آیات قرآنیه جاءت مدعومه بهذا العدد الکبیر من الرّوایات،کما ورد فی هذه الآیه الکریمه.

إنّ هذه القضیه کانت بدرجه من الوضوح بحیث أنّ حسان بن ثابت الشاعر المعروف الذی عاصر و اصطحب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-جاء بمضمون آیه الولایه فی قالب شعری من نظمه الذی قاله فی حق علی بن أبی طالب علیه السّلام حیث یقول:

فأنت الذی أعطیت إذ کنت راکعا

زکاه فدتک النفس یا خیر راکع

فأنزل فیک اللّه خیر ولایه

و بیّنها فی محکمات الشرائع

و قد وردت هذه الأشعار باختلافات طفیفه فی کتب کثیره،منها کتاب تفسیر (روح المعانی)للآلوسی،و کتاب(کفایه الطالب)للکنجی الشافعی،و کتب کثیره أخری.

الرّد علی اعتراضات ثمانیه:

لقد أصرت جماعه من المتطرفین من أهل السنّه علی تکرار الاعتراضات حول نزول هذه الآیه فی حق علی بن أبی طالب علیه السّلام،و کذلک علی تفسیر(الولایه) الوارده فی الآیه الکریمه بمعنی الإشراف و التصرف و الإمامه،و فیما یلی نعرض أهم هذه الاعتراضات للبحث و النقد،و هی:

١-قالوا:أنّ عباره«الذین»المقترنه بکلمه«آمنوا»الوارده فی الآیه:لا یمکن أن تطبق علی المفرد،و ذلک ضمن اعتراضهم علی الرّوایات التی تقول

بنزول هذه الآيه فى حق على بن أبى طالب عليه السّلام و قالوا:أنّ الآيه أشارت بصيغه الجمع قائله اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰهَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاهَ وَ هُمْ رٰاكِعُونَ فكيف يمكن أن تكون هذه الآيه فى حق شخص واحد كعلى عليه السّلام؟ الجواب:

لقد زخرت كتب الأدب العربى بجمل تمّ التعبير فيها عن المفرد بصيغه الجمع، و قد اشتمل القرآن الكريم على مثل هذه الجمل، كما فى آيه المباهله،حيث وردت كلمه«نساءنا»بصيغه الجمع مع أنّ الرّوايات التى ذكرت سبب نزول هذه الآيه أكّدت أن المراد من هذه الكلمه هى فاطمه الزهراء عليها السّلام وحدها،و كذلك فى كلمه(أنفسنا)فى نفس الآيه و هى صيغه جمع،فى حين لم يحضر من الرجال فى واقعه المباهله مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غير على عليه السّلام.

و كذلك نقرأ فى الآيه(۱۷۲)من سوره آل عمران فى واقعه أحد قوله تعالى:

اَلَّذِينَ قٰالَ لَهُمُ النّٰاسُ إِنَّ النّٰاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزٰادَهُمْ إِيمٰاناً... .

و قد بيّنا فى الجزء الثّالث من تفسيرنا هذا عند تفسير هذه الآيه،أن بعض المفسّرين ذكروا أنّها نزلت بشأن(نعيم بن مسعود)الذى لم يكن إلاّ واحدا.

و نقرأ فى الآيه(۵۲)من هذه السّوره-أيضا-قوله تعالى: ...يَقُولُونَ نَخْشىٰ أَنْ تُصِيبَنٰا دٰائِرَهٌ... فى حين أن هذا الجزء من الآيه نزل فى شخص واحد، كما جاء فى سبب النّزول،و هو(عبد اللّه بن أبى)و قد مضى تفسير ذلك.

و كذلك فى الآيه الاولى من سوره الممتحنه،و الآيه الثامنه من سوره (المنافقون)و الآيتين(۲۱۵ و ۲۷۴)من سوره البقره،نقرأ فيها كلها عبارات جاءت بصيغه الجمع،بينما الذى ذكر فى أسباب نزول هذه الآيات هو أنّ المراد فى كل منها شخص واحد.

و التعبير بصيغه الجمع عن شخص واحد فى القرآن الكريم إمّا أن يكون بسبب أهميه موقع هذا الشخص و لتوضيح دوره الفعال،أو لأجل عرض الحكم القرآنى

بصيغه كليه عامّه حتى إذا كان مصداقه منحصرا فى شخص واحد،و قد ورد فى كثير من آى القرآن ضمير الجمع للدلاله على اللّه الواحد الأحد،و ذلك تعظيما له جلّ شأنه.

و بديهى أنّ استخدام صيغه الجمع للدلاله على الواحد يعتبر خلافا للظاهر، و لا يجوز بدون قرينه و لكن مع وجود الرّوايات الكثيره الوارده فى شأن نزول الآيه تكون لدينا قرينه واضحه على هذا التّفسير و قد اكتفى فى موارد أخرى بأقل من هذه القرينه؟! ۲-و قال الفخر الرّازى و متطرفون آخرون:أنّ عليّا عليه السّلام بما عرف عنه من خشوع و خضوع إلى اللّه،بالأخص فى حاله الصّلاه(إلى درجه،أنّهم استلوا أثناء صلاته سهما كان مغروزا فى رجله،دون أن يحس بالألم كما فى(الروايه المعروفه)فكيف يمكن القول بأنّه سمع أثناء صلاته كلام السائل و التفت إليه؟! الجواب:

إنّ الذين جاؤوا بهذا الاعتراض قد غفلوا عن أن سماع صوت السائل و السعى لمساعدته لا يعتبر دليلا على الانصراف و التوجه إلى النفس،بل هو عين التوجه إلى اللّه،و على عليه السّلام كان أثناء صلاته يتجرد عن ذاته و ينصرف بكله إلى اللّه، و معروف أن التنصل عن خلق اللّه يعتبر تنصلا أيضا عن اللّه،و بعباره أوضح:أن أداء الزّكاه أثناء الصّلاه يعد عباده ضمن عباده أخرى،و ليس معناه القيام مباح ضمن العباده،بعباره ثالثه:إنّ ما يلائم روح العباده هو الانشغال و الانصراف أثناءها إلى الأمور الخاصّه بالحياه و الشخصيه،بينما التوجه إلى ما فيه رضى اللّه تعالى يتلائم بصوره تامّه مع روح العباده و يؤكّدها.

و من الضرورى أن تؤكّد هنا أن الذوبان فى التوجه إلى اللّه،ليس معناه أن يفقد الإنسان الإحساس بنفسه،و لا أن يكون بدون إراده،بل الإنسان بإرادته يصرف عن نفسه التفكير فى أى شىء لا صله له باللّه.

و الطّريف فى الأمر أنّ الفخر الرازى قد أوصله تطرّفه إلى الحدّ الذى اعتبر فيه ايماءه الإمام على عليه السّلام إلى السائل بأصبعه-لكى يأخذ الخاتم-مصداقا للفعل الكثير المنافى للصلاه،فى حين أن هناك أفعالا يمكن القيام بها أثناء الصّلاه أكثر بكثير من تلك الإيماءه التى قام بها الإمام عليه السّلام،و فى نفس الوقت لا تضر و لا تمس الصّلاه بشىء،و من هذه الأفعال قتل الحشرات الضاره كالحيه و العقرب،و رفع الطفل من محله و وضعه فيه،و إرضاع الطفل الرضيع،و كل هذه الأفعال لا تعتبر من الفعل الكثير فى نظر الفقهاء،فكيف يمكن القول بأن تلك الإيماءه تعتبر من الفعل الكثير؟! و قد لا يكون هذا الخطأ غريبا عن عالم استولى عليه التطرف! ٣-أمّا الاعتراض الآخر فى هذا المجال،فهو أنّ كلمه(ولى)الوارده فى الآيه تعنى الصديق و الناصر و أمثالهما،و ليست بمعنى المتصرف أو المشرف أو ولى الأمر.

الجواب:لقد بيّنا فى تفسير هذه الآيه أن كلمه(ولى)-الوارده فيها-لا يمكن أن تكون بمعنى الصديق أو الناصر،لأنّ هاتين الصفتين قد ثبتت شموليتهما لكل المسلمين المؤمنين،و ليستا منحصرتين بالمؤمنين المذكورين فى الآيه و الذين يقيمون الصّلاه و يؤتون الزّكاه أثناء الركوع،و بعباره أخرى:إنّ الصداقه و النصره حكمان عامان،بينما الآيه-موضوع البحث-تهدف إلى بيان حكم خاص بشخص واحد.

۴-و قالوا-أيضا-أنّ عليّا عليه السّلام لم يكن يمتلك شيئا من حطام الدنيا حتى تجب عليه الزّكاه،و لو قلنا بأنّ المراد فى الآيه هو الصداقه المستحبه فهى لا تسمى زكاه؟! الجواب:

أوّلا:إنّ التّأريخ ليشهد على امتلاك على عليه السّلام المال الوفير الذى حصل عليه

من كدّ يمينه و عرق جبينه و تصدق به فى سبيل اللّه،و قد نقلوا فى هذا المجال أنّ عليّا عليه السّلام أعتق و حرر ألف رقبه من الرقيق،كان قد اشتراهم من ماله الخاص الذى كان حصيله كدّه و معاناته،أضف إلى ذلك فقد كان عليه السّلام يحصل-أيضا-على حصته من غنائم الحرب،و على هذا الأساس فقد كان على عليه السّلام يمتلك ذخيره بسيطه من المال،أو من نخلات التمر ممّا يتعين فيهما الزّكاه.

و نحن نعلم-أيضا-ان الفوريه الواجبه فى أداء الزّكاه هى«فوريه عرفيه»لا تتنافى مع أداء الصّلاه،أى لا فرق فى أداء الزّكاه سواء كان وقت الأداء قبل وقت الصّلاه أو أثناءها.

ثانيا:لقد أطلق القرآن الكريم فى كثير من الحالات كلمه الزّكاه على الصدقه المستحبه،و بالأخص فى السور المكيه،حيث وردت هذه الكلمه للدلاله على الصدقه المستحبه،لأنّ وجوب الزّكاه كان قد شرع بعد هجره النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينه،كما فى(الآيه ۳ من سوره النمل،و الآيه ۳۹ من سوره الروم،و الآيه ۴ من سوره لقمان،و الآيه ۷ من سوره فصلت و غيرها).

۵-و يقولون:إنّهم حتى لو أذعنوا بأن عليا عليه السّلام هو الخليفه بعد النّبى مباشره، فهذا لا يعنى أن يكون على عليه السّلام وليا فى زمن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،لأنّ ولايته فى زمن النّبى لم تكن ولايه فعليه،بل كانت ولايه بالقوه،و أن ظاهر الآيه-موضوع البحث -يدل على الولايه الفعليه.

الجواب:

نلاحظ كثيرا فى كلامنا اليومى-و كذلك فى النصوص الأدبيه-اطلاق اسم معين أو صفه خاصّه على أفراد لا يتمتعون بمزاياها الفعليه،بل يمتلكون المزيه أو المزايا بالقوه،و هذا مثل أن يوصى انسان فى حياته و يعين لنفسه وصيا و قيما على أطفاله فيكون الشخص الثّانى فور اقرار الوصيه من قبل الشخص الأوّل وصيا و قيما،و يدعى بهذين العنوانين حتى لو كان الإنسان الموصى باقيا على قيد

الحیاه.

و نحن نقرأ فی الرّوایات التی نقلت فی أسانید الشّیعه و السنّه عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بحقّ علی علیه السّلام أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعا علیا:وصیه و خلیفته،فی حین أن هذین العنوانین لم یکونا لیتحققا فی زمن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و القرآن المجید-أیضا-یشتمل علی مثل هذه التعابیر،و من ذلک ما ورد عن (زکریا)الذی توسل إلی اللّه بقوله: ..فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ.. (۱) و المعروف أنّ المراد-هنا-من کلمه(ولی)المشرف الذی یتولی شؤون الإشراف بعد الموت کما یعیّن الکثیر من الناس فی حیاتهم من یقوم مقامهم بعد الموت،و یسمّی الشخص المعین منذ لحظه تعیینه بالنائب أو الخلیفه مع کون هذه الصفات بالقوه،و لیست بالفعل.

۶-و احتجّوا-أیضا-بقولهم:لماذا لم یعتمد علی علیه السّلام علی هذا الدلیل الواضح للدفاع عن حقّه؟ الجواب:

لقد لاحظنا-من خلال البحث الذی تناول الرّوایات فی سبب نزول هذه الآیه-أن هذا الحدیث قد نقل فی کتب عدیده عن الإمام علی علیه السّلام نفسه،و من ذلک ما جاء فی مسند«ابن مردویه»و«ابن الشّیخ»و«کنز العمال»و هذا بذاته دلیل علی استدلال الامام علی علیه السّلام بهذه الآیه الشریفه.

و نقل فی کتاب(الغدیر)القیم عن کتاب(سلیم بن قیس الهلالی)حدیث مفصل مفاده أنّ علیّا علیه السّلام حین کان منشغلا بحرب صفین،تحدث فی میدان الحرب امام جمع من الناس مستدلا بدلائل عدیده فی إثبات حقّه،و کان من جمله ما استدل به الإمام علیه السّلام هذه الآیه الکریمه (۲) .

۱- ۱) -مریم،۵.

۲- ۲) -الغدیر،ج ۱،ص ۱۹۶.

و جاء فی کتاب(غایه المرام)نقلا عن أبی ذر رضی اللّه عنه أنّ علیّا علیه السّلام استدل فی یوم الشوری بهذه الآیه (۱) .

۷-و قد ادعوا-أیضا-أنّ هذا التّفسیر الذی أوردناه موضوع البحث لا یتناسب أو لا یتلاءم مع الآیات الوارده قبل و بعد هذه الآیه،لأن تلک الآیات جاءت فیها کلمه«الولایه»بمعنی الصداقه.

الجواب:

لقد قلنا مرارا-أنّ الآیات القرآنیه بسبب نزولها بصوره تدریجیه،و بحسب الوقائع المختلفه تکون دائما ذات صله بالأحداث التی نزلت الآیات فی شأنها، أی أنّ الآیات الوارده فی سوره واحده أو الآیات المتعاقبه،لیست دائما ذات مفهوم مترابط،کما لا تشیر دائما إلی معنی واحد،و لذلک یحصل کثیرا أن تروی لآیتین متعاقبتین حادثتان مختلفتان أو سببان للنزول،و تکون النتیجه أن ینفصل مسیر و اتجاه کل آیه-لصلتها بحادثه خاصّه-عن مسیر الآیه التّالیه لها لاختلاف الحادثه التی نزلت بشأنها، و بما أنّ آیه إِنَّمٰا وَلِیُّکُمُ اللّٰهُ... بدلاله سبب نزولها جاءت فی شأن تصدق الإمام علی علیه السّلام أثناء الرکوع،أمّا الآیات السابقه و اللاحقه لها-کما رأینا و سنری-فقد نزلت فی أحداث أخری،لذلک لا یمکن الاعتماد- هنا کثیرا علی مسأله ترابط المفاهیم فی الآیات.

و هناک نوع من التناسب بین الآیه-موضوع البحث-و الآیات السابقه و اللاحقه لها،لأنّ الآیات الأخری تضمنت الحدیث عن الولایه بمعنی النصره و الإعانه،بینما الآیه-موضوع البحث-تحدثت عن الولایه بمعنی القیاده و التصرف،و بدیهی أنّ القائد و الزعیم و المتصرف فی أمور جماعه معینه،یکون فی نفس الوقت حامیا و ناصرا و صدیقا و محبا لجماعته،أی أن مسأله النصره و الحمایه تعتبر من مستلزمات و شؤون الولایه المطلقه.

۱- ۱) -عن کتاب(منهاج البراعه)،ج ۲،ص ۳۶۳.

۸-و أخيرا قالوا:من أين أتى على عليه السّلام بذلك الخاتم النفيس؟ و سألوا أيضا:ألا يعتبر ارتداء خاتم بتلك القيمه العاليه نوعا من الإسراف؟ ألا تعتبر هذه الأمور دليلا على عدم صحه التّفسير المذكور.

الجواب:

إنّ المبالغات الوارده بشأن قيمه الخاتم الذى تصدق به على عليه السّلام أثناء الركوع لا أساس لها مطلقا،و لا يقوم عليها أى دليل مقبول-و ما جاء فى قيمه ذلك الخاتم من أنّه كان يعادل خراج الشام مبالغه أقرب إلى الأسطوره منه إلى الحقيقه،و قد جاء ذلك فى روايه ضعيفه (۱) و لعل هذه الروايه وضعت لتشويه حقيقه القضيه الأصليه و إظهارها بمظهر الأمر التافه،و قد خلت الرّوايات الصحيحه-التى وردت حول سبب نزول هذه الآيه-من أى أثر لمثل هذه الأسطوره.

و على هذا الإساس لم يتمكن أحد من تهميش هذه الواقعه التّأريخيه التى أشارت إليها الآيه الكريمه-بمثل هذه الحكايه التافهه.

ص :۵۶

۱- ۱) -جاءت هذه الروايه مرسله فى تفسير البرهان،ج ۱،ص ۴۸۵.

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۵۶]

اشاره

وَ مَنْ یَتَوَلَّ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اَللّٰهِ هُمُ اَلْغٰالِبُونَ (۵۶)

التّفسیر

جاءت هذه الآیه مکمله لمضمون الآیه السابقه،و هی تؤکّد و تتابع الهدف المقصود فی تلک الآیه،و تعلن للمسلمین أنّ النصر سیکون حلیف أولئک الذین یقبلون القیاده المتمثله فی اللّه و رسوله و الذین آمنوا،الذین أشارت إلیهم الآیه السابقه.

و تصف الآیه الذین قبلوا بهذه القیاده بأنّهم من حزب اللّه المنصورون دائما، حیث تقول وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْغٰالِبُونَ .

و تشتمل هذه الآیه-أیضا-علی قرینه أخری تؤکّد المعنی المذکور فی تفسیر الآیه السابقه لکلمه(الولایه)و هو الإشراف و التصرف و الزعامه،لأنّ عباره (حزب اللّه)و التأکید علی أنّ الغلبه تکون لهذا الحزب-فی الآیه-لهما صله بالحکومه الإسلامیه،و لا علاقه لهما بقضیه الصداقه التی هی أمر بسیط و عادی، و هذا یؤکّد بنفسه أنّ الولایه-الوارده فی الآیه-تعنی الأشرف و الحکم القیاده بالإسلام و المسلمین،لأنّ معنی الحزب یتضمن التنظیم و التضامن

ص: ۵۷

و الاجتماع لتحقيق أهداف مشتركه.

و يجب الانتباه إلى نقطه مهمّه و هى أنّ المراد بعباره اَلَّذِينَ آمَنُوا الوارده فى هذه الآيه ليسوا جميع الأفراد المؤمنين،بل ذلك الشخص الذى ذكر فى الآيه السابقه و أشير إليه بأوصاف معينه.

أمّا قضيه الغلبه أو الإنتصار كفلته الآيه لحزب اللّه فهل هو الإنتصار المعنوى وحده،أم يشمل الإنتصار على كل الأصعده و فى جميع المجالات الماديه و المعنويه؟ لا شك أنّ الإطلاق فى الآيه الكريمه يدل على الإنتصار الشامل فى جميع الجبهات،و بديهى أنّ أى جماعه تنضوى تحت لواء حزب اللّه،أى تتحلى بالإيمان القوى و تلتزم التقوى و تدأب على العمل الصالح و تسعى إلى الاتحاد و التكافل و التضامن و تتمتع بالوعى الكافى،فهى لا شك ستنال النصر فى كل المجالات و على جميع الأصعده،و العجز الذى نشهده اليوم بين المسلمين عن نيل مثل هذا الإنتصار إنّما هو بسبب افتقارهم-فى الغالب-إلى الصفات التى ذكرناها أعلاه،و التى هى صفات الأفراد المنضوين تحت لواء حزب اللّه،و لذلك فهم بدلا من أن يستخدموا قواهم و طاقاتهم فى طرد الأعداء و حل مشاكلهم الاجتماعيه يصرفون هذه القوى فى إضعاف بعضهم البعض.

و قد ذكرت الآيه(٢٢)من سوره المجادله-أيضا-قسما من صفات حزب اللّه،سنأتى على شرحها بإذن اللّه عند تفسير هذه السوره.

ص :٥٨

الآیتان [سوره المائده (۵): الآیات ۵۷ الی ۵۸]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا دِینَکُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ اَلْکُفّٰارَ أَوْلِیٰاءَ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۵۷) وَ إِذٰا نٰادَیْتُمْ إِلَی اَلصَّلاٰهِ اِتَّخَذُوهٰا هُزُواً وَ لَعِباً ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ یَعْقِلُونَ (۵۸)

سبب النّزول

جاء فی تفاسیر(مجمع البیان)و(أبو الفتوح الرازی)و(الفخر الرازی)أن اثنین من المشرکین یدعیان(رفاعه)و(سوید)تظاهرا بإعلان الإسلام ثمّ انضما إلی المنافقین،و کان لبعض المسلمین صحبه مع هذین الشخصین و یظهرون لهما التودد،فنزلت الآیتان الأخیرتان و نهت هؤلاء المسلمین من عملهما ذلک (و یتّضح هنا أنّه حین تتحدث هاتان الآیتان عن الولایه فالمقصود هو الصّحبه و الصداقه و الموده لأنّ سبب نزولهما یختلف عن سبب نزول الآیتین السابقتین، و لا یمکن اعتبار إحداهما قرینه للأخری).

أمّا بخصوص سبب نزول الآیه الثّانیه من الآیتین الأخیرتین،فنقل أنّ جماعه من الیهود و بعضا من النصاری حین کانوا یسمعون صوت الأذان،أو

حینما یرون المسلمین و هم یقیمون الصّلاه یبادرون إلی الاستهزاء بهم،لذلک حذر القرآن المجید المسلمین عن التودد إلی هؤلاء و أمثالهم.

التّفسیر

اشاره

یحذر القرآن فی الآیه المؤمنین من اتّخاذ أصدقاء لهم من بین المنافقین و الأعداء،إلاّ أنّه لأجل استثاره عواطف المؤمنین و استقطاب انتباههم إلی فلسفه هذا الحکم خاطبهم بهذا الأسلوب،کما تقول الآیه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الَّذِینَ اتَّخَذُوا دِینَکُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ الْکُفّٰارَ أَوْلِیٰاءَ و لتأکید التحذیر تقول الآیه فی الختام: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ بمعنی أنّ التودد مع الأعداء و المنافقین لا یتناسب و التقوی و الإیمان أبدا.

«الهزو»هو الکلام المصحوب بحرکات تصور السخریه،و یستخدم للاستخفاف و الاستهانه بشیء أو شخص معین،و فسّر«الراغب»فی کتابه (المفردات)الهزو بأنّه یقال لفعل المزاح و الاستخفاف الذی یصدر بشأن شخص فی غیابه،کما یطلق فی حالات نادره علی المزاح أو الاستخفاف الذی یحصل بشخص معین فی حضوره.

أمّا«اللعب»فهو الذی یصدر عبثا و بدون هدف صحیح،أو خالیا من أی هدف و سمّیت بعض أفعال الصبیان لعبا لنفس السبب.

و الآیه الثّانیه من الآیتین الأخیرتین تتابع البحث فی النهی عن التودد إلی المنافقین و جماعه من أهل الکتاب الذین کانوا یستهزئون بأحکام الإسلام، و تشیر إلی واحد من ممارساتهم الاستهزائیه دلیلا و شاهدا علی هذا الأمر،فتقول:

إِذٰا نٰادَیْتُمْ إِلَی الصَّلاٰهِ اتَّخَذُوهٰا هُزُواً وَ لَعِباً...

(۱)

.

۱- ۱) -اختلف المفّسرون فی الضمیر الوارد فی کلمه(اتّخذوها)هل یعود إلی الصّلاه أو إلی النداء و تفید أسباب النّزول-التی

بعـد ذلک تبیّن الآیه الکریمه دوافع هذا الاسـتهزاء،فتذکر أنّ هذه الجماعه إنّما تفعل ذلک لجهلها و ابتعادها عن الحقائق،فتقول: ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ یَعْقِلُونَ

الأذان شعار اسلامی کبیر:

إنّ لکـل أمّه-فی أی عصـر أو زمـان کـانت-شـعار خـاص بهـا تنـادی به أفرادهـا و تسـتحث به هممهم للقیام بواجباتهم الفردیه و الاجتماعیه،و یشاهد هذا الأمر فی عالمنا الحاضر بصوره أوسع.

فالمسیحیون ینادون قومهم و یدعونهم لحضور الصّلاه فی الکنائس بدق الناقوس و هذه هی طریقتهم و شعارهم سابقا و حاضرا.

و الإسـلام جـاء بالأـذان شـعارا لـدعوه المسـلمین،حیث یعتبر هـذا الشـعار أکثر تـأثیرا و جـاذبیه فی نفوس الناس قیاسا بشـعارات الـدیانات و الأمم الأخری،فقد ذکر صاحب تفسـیر(المنار)أنّ بعض المسـیحیین المتطرفین حین یسـتمعون إلی أذان المسـلمین لا یجـدون بـدأ من یعترفوا بتأثیره المعنوی العظیم فی نفوس سامعیه،و ینقل صاحب المنار-أیضا-أنّ بعضـهم فی إحدی مدن مصـر شاهد جماعه من النصاری کانوا قد اجتمعوا أثناء أذان المسلمین للاستماع إلی هذا اللحن السماوی.

فأی شعار أقرب إلی الذوق و آنس إلی الأسماع من شعار یبدأ بذکر اسم اللّه و یشهد بتوحیده و وحدانیته و بنبوه رسول الإسلام صلّی اللّه علیـه و آلـه و سـلّم،و یـدعو إلی الفلاـح و العمـل الصالـح،و ینتهی-کـذلک-بـذکر اللّه!!فبـدایته اسـم«اللّه»و ختـامه اسم(اللّه)فی جمل موزونه متناغمه،ذات عبارات قصیره واضحه المعنی و ذات محتوی تربوی بنّاء.

و لذلک أکّدت الرّوایات الإسلامیه کثیرا علی ضروره أداء الأذان،فقد ورد

(۱)

أشیر إلیها سابقا-صـحه الاحتمالین،لأنّ المنافقین و الکفار کانوا یسـتهزئون بالآذان و الصّیلاه معا،لکن ظاهر الآیه یعزز الاحتمال الأوّل،أی أن الضمیر یعود علی الصّلاه.

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حدیث معروف فی هذا المجال،أنّه قال: المؤذنون أطول الناس أعناقا یوم القیامه (۱) و هذا العلو هو نفس علو منزله القیاده التی تدعو الناس إلی اللّه و إلی عباده کالصّلاه.

إنّ صوت الأذان الذی ینطلق فی أوقات الصّلاه من مآذن المدن الإسلامیه بمثابه نداء الحریه و النسیم الذی یهب الحیاه لروح الاستقلال و المجد،و یدغدغ أذان المسلمین الأبرار و یثیر الرعب و الخوف فی نفوس الأعداء الحاقدین،و یعتبر رمزا من رموز بقاء الإسلام،و الدلیل علی هذا الأمر اعتراف أحد رجالات انجلترا المعروفین الذی قال أمام جمع من المسیحیین:ما دام اسم النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یرفع علی المآذن،و ما دامت الکعبه باقیه و ما دام القرآن یهدی و یوجه المسلمین،فلا یمکن أن تترسخ قواعد سیاسه الإنجلیز فی الأراضی الإسلامیه (۲) .

و بالرّغم من ذلک فانّ بعض المسلمین البؤساء أزاحوا مؤخرا هذا الشعار الإسلامی العظیم-الذی هو سند و مستمسک حیّ علی صمود و مقاومه دینهم و ثقافتهم علی مر العصور-من إذاعاتهم و وضعوا مکانه برامج رخیصه،نسأل اللّه أن یهدی هؤلاء للعوده إلی صفوف المسلمین.

و من الطبیعی أنّ الأذان-لفحواه و محتواه الجمیل البدیع-یحتاج أدائه إلی صوت مقبول،لکی لا یشوّه الأداء غیر المستساغ هذا المحتوی الجمیل الجذاب.

نزول الأذان وحیا علی النّبی:

وردت فی بعض الرّوایات المنقوله من طرق أهل السنه قصص غریبه حول تشریع الأذان لا تتناسب و لا تتلاءم مع المنطق الإسلامی،و ممّا نقلوا فی هذا الباب أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد أن سأله أصحابه عن إیجاد طریقه لمعرفه أوقات الصّلاه،

۱- ۱) -الوسائل:ج ۵،ص ۳۷۶،باب ۲،ح ۲۱.

۲- ۲) -صاحب هذا القول«کلودستون»الذی یعتبر من السیاسیین المتفوقین فی عصره.

استشار الصحابه،فقدم كل منهم اقتراحا،و من ذلك رفع علم خاص فى أوقات الصّلاه أو إشعال نار،أو دق ناقوس،لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يوافق على أى من هذه الاقتراحات،ثمّ أن عبد اللّه بن زيد و عمر بن الخطاب-رأيا فى المنام-شخصا يأمرهما بأداء الأذان لإعلان وقت الصّلاه،و علمهما كيفيه هذا الأذان،فقبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلك (۱) .

إنّ هذه الروايه المختلقه تعتبر اهانه لمنزله النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الرفيعه،حيث تدّعى أن النّبى-بدلا من أن يعتمد على الوحى-استند على حلم رآه أفراد من أصحابه فى تشريع الأذان.

و الصحيح فى هذا الباب ما

ورد فى روايات أهل البيت عليهم السّلام من أن الأذان نزل وحيا على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،يحدثنا الإمام الصّادق عليه السّلام أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان واضعا رأسه فى حجر على عليه السّلام حين نزل جبرائيل بالأذان و الإقامه،فعلّمهما للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثمّ رفع النّبى رأسه و سأل عليّا إن كان قد سمع صوت أذان جبرائيل،فردّ على عليه السّلام بالإيجاب،فسأله النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّه ثانيه إن كان قد حفظ ذلك،فردّ على عليه السّلام بالإيجاب أيضا-ثمّ طلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من على عليه السّلام أن ينادى بلالا-الذى كان يتمتع بصوت جيد-و يعلمه الأذان و الإقامه،فاستدعى على عليه السّلام بلالا و علمه الأذان و الإقامه (۲) .

و للاستزاده من التفاصيل فى هذا الباب يمكن مراجعه كتاب(النص و الاجتهاد)للسيد عبد الحسين شرف الدين-ص ۱۲۸.

۱- ۱) -تفسير القرطبى.

۲- ۲) -الوسائل،ج ۴،ص ۶۱۲.

الآيتان [سوره المائده (۵): الآيات ۵۹ الی ۶۰]

اشاره

قُلْ یٰا أَهْلَ اَلْکِتٰابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّٰا إِلاّٰ أَنْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَکْثَرَکُمْ فٰاسِقُونَ (۵۹) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُکُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِکَ مَثُوبَهً عِنْدَ اَللّٰهِ مَنْ لَعَنَهُ اَللّٰهُ وَ غَضِبَ عَلَیْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ اَلْقِرَدَهَ وَ اَلْخَنٰازِیرَ وَ عَبَدَ اَلطّٰاغُوتَ أُولٰئِکَ شَرٌّ مَکٰاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَوٰاءِ اَلسَّبِیلِ (۶۰)

سبب النّزول

اشاره

نقل عن عبد اللّه بن عباس أنّ جماعه من الیهود جاؤوا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و طلبوا منه أن یشرح لهم معتقداته،فأخبرهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه یؤمن باللّه الواحد الأحد، و یؤمن بأنّ کل ما نزل علی إبراهیم و إسماعیل و إسحاق و یعقوب و موسی و عیسی و جمیع الأنبیاء هو الحقّ، و أنّه لا یفرق بین أنبیاء اللّه،فأجابوه بأنّهم لا یعرفون عیسی و لا یؤمنون بنبوّته،ثمّ قالوا للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّهم لا یعرفون دینا أسوأ من دینه! فنزلت هاتان الآیتان ردّا علی هؤلاء الحاقدین.

التّفسير

فى هذه الآيه يأمر اللّه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يسأل أهل الكتاب عن سبب اعتراضهم و انتقادهم للمسلمين،و هل أنّ الإيمان باللّه الواحد الأحد و الإعتقاد بما أنزل على نبى الإسلام و الأنبياء الذين سبقوه يجابه بالاعتراض و الانتقاد،حيث تقول الآيه:

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّا إِلاّ أَنْ آمَنّا بِاللّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ...

(۱)

.

و تشير هذه الآيه-أيضا-إلى جانب آخر من جوانب صلف و وقاحه اليهود و تطرفهم غير المبرر،و نظرتهم الضيقه الآحاديه الجانب التى دفعت بهم إلى الاستهانه بكل شخص و دين غير أنفسهم و دينهم،و هم لتطرفهم ذلك كانوا يرون الحقّ باطلا و الباطل حقّا.

و تأتى فى آخر الآيه عباره تبيّن علّه الجمله السابقه،حيث تبيّن أن اعتراض اليهود و انتقادهم للمسلمين الذين آمنوا باللّه و بكتبه،ما هو إلاّ لأنّ أكثر اليهود من الفاسقين الذين انغمسوا فى الذنوب،و لذلك فهم-لانحرافهم و تلوثهم بالآثام- يعيبون على كل انسان ظاهر اتباعه للصواب و سيره فى طريق الحقّ حيث تؤكّد الآيه: وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ .

و بديهى أنّ المقاييس فى محيط موبوء بالفساد و الفسق،تنقلب-أحيانا- بحيث يصبح الحقّ باطلا و الباطل حقا،و يصبح العمل الصالح و الإعتقاد النزيه شيئا قبيحا مثيرا للاعتراض و الانتقاد،بينما يعتبر كل عمل قبيح شيئا جميلا جديرا بالاستحسان و المديح،و هذه هى طبيعه المسخ الفكرى الناتج عن الانغماس فى الخطايا و الذنوب إلى درجه الإدمان.

و تجدر الإشاره إلى أنّ هذه الآيه تنتقد جميع أهل الكتاب،و واضح أنّها

---

۱ – ۱) -إنّ كلمه«تنقمون»مشتقه من المصدر«نقمه»و تعنى فى الأصل إنكار شىء معين نطقا أو فعلا- كما تأتى بمعنى إيقاع العقاب أو الجزاء.

عزلت حساب الأقليه الصالحه بدقه عن الأكثريه الآثمه باستخدام كلمه(أكثركم) في العباره الأخيره منها.

الآيه الثّانيه تقارن المعتقدات المحرفه و أعمال أهل الكتاب و العقوبات التى تشملهم بوضع المؤمنين الأبرار من المسلمين لكى يتبيّن أى الفريقين يستحق النقد و التقريع،و هذا بذاته جواب منطقى للفت انتباه المعاندين و المتطرفين فى عصبيتهم.

و فى هذه المقارنه تطلب الآيه من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يسأل هؤلاء:هل أنّ الإيمان باللّه الواحد و بكتبه التى أنزلها على أنبيائه أجدر بالنقد و الاعتراض،أم الأعمال الخاطئه التى تصدر من أناس شملهم عقاب اللّه؟ فتخاطب الآيه النّبى بأن يسأل هؤلاء:إن كانوا يريدون التعرف على أناس لهم عند اللّه أشد العقاب جزاء ما اقترفوه من أعمال،حيث تقول: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللّٰهِ... (١) .

و لا شك أنّ الإيمان باللّه و كتبه ليس بالأمر غير المحمود،و أن المقارنه الجاريه فى هذه الآيه بين الإيمان و بين أعمال و أفكار أهل الكتاب،هى من باب الكنايه،كما ينتقد انسان فاسد إنسانا تقيا فيسأل الإنسان التقى ردا على هذا الفاسد:أيّهما أسوأ الأتقياء أم الفاسدون.

بعد هذا تبادر الآيه إلى شرح الموضوع،فتبيّن أنّ أولئك الذين شملتهم لعنه اللّه فمسخهم قرودا و خنازير،و الذين يعبدون الطاغوت و الأصنام،إنّما يعيشون فى هذه الدنيا و فى الآخره وضعا أسوأ من هذا الوضع،لأنّهم ابتعدوا كثيرا عن طريق الحقّ و عن جاده الصواب،تقول الآيه الكريمه:

١- ١) -إن كلمه(مثوبه)و كذلك كلمه(ثواب)تعنيان-فى الأصل-الرجوع أو العوده إلى الحاله الأولى،كما تطلقان-أيضا- لتعنيا المصير و الجزاء(الأجر أو العقاب)لكنهما فى الغالب تستخدمان فى مجال الجزاء الحسن،و أحيانا تستخدم كلمه (الثواب)بمعنى العقاب و فى الآيه جاءت بمعنى المصير أو العقاب.

مَنْ لَعَنَهُ اللّٰهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَهَ وَ الْخَنٰازِيرَ وَ عَبَدَ الطّاغُوتَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكٰاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَوٰاءِ السَّبِيلِ

(۱)

.

و سنتطرق إلى معنى المسخ الذى يتغير بموجبه شكل الإنسان،و هل أنّ هذا التغير فى الشكل يشمل صورته الجسميه،أم المراد التغير الفكرى و الأخلاقى؟ و ذلك عند تفسير الآيه(۱۶۳)من سوره الأعراف،و بصوره مفصله بإذن اللّه.

۱- ۱) -إنّ كلمه(سواء)تعنى فى اللغه(المساواه و الاعتدال و التساوى)و ان وجه تسميه الصراط المستقيم فى الآيه: سَوٰاءِ السَّبِيلِ لأنّ جميع أجزاء هذا الطريق مستويه و لأن طرفيه متساويان و ممهدان،كما تطلق هذه التسميه على كل طريقه تتسم بالاعتدال و تخلو من الانحراف،و يجب الانتباه هنا-أيضا-إلى أن عباره عَبَدَ الطّاغُوتَ عطف على جمله مَنْ لَعَنَهُ اللّٰهُ و كلمه(عبد)فعل ماض و ليست صيغه جمع لعبد مثلما احتمله البعض من المفسّرين و إطلاق تسميه عَبَدَ الطّاغُوتَ على أهل الكتاب،إمّا أن يكون إشاره إلى عباده العجل من قبل اليهود،أو إشاره إلى انقياد أهل الكتاب الأعمى لزعمائهم و كبارهم المنحرفين.

الآيات [سوره المائده (۵): الآيات ۶۱ الی ۶۳]

اشاره

وَ إِذٰا جٰاؤُكُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا كٰانُوا يَكْتُمُونَ (۶۱) وَ تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسٰارِعُونَ فِى اَلْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ أَكْلِهِمُ اَلسُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۶۲) لَوْ لاٰ يَنْهٰاهُمُ اَلرَّبّٰانِيُّونَ وَ اَلْأَحْبٰارُ عَنْ قَوْلِهِمُ اَلْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ اَلسُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ (۶۳)

التّفسير

الآيه الاولى من هذه آيات الثلاث-و استكمالا للبحث الذى تناولته الآيات السابقه حول المنافقين-تكشف عن ظاهره الازدواجيه النفاقيه عند هؤلاء،و تنبّه المسلمين إلى أنّ المنافقين حين يأتونهم يتظاهرون بالإيمان و قلبهم يغمره الكفر، و يخرجون من عندهم المسلمين و لا يزال الكفر يملأ قلوبهم،حيث لا يترك منطق المسلمين و استدلالهم و كلامهم فى نفوس هؤلاء المنافقين أى أثر يذكر،تقول الآيه الكريمه:

وَ إِذٰا جٰاؤُكُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ...

و لذلك يجب على المسلمين أن لا ينخدعوا بهؤلاء الذين يتظاهرون بالحقّ و الإيمان،

ص :۶۸

و يبدون القبول لأقوال المسلمين رياء و كذبا.

و تؤكّد الآيه أنّ المنافقين مهما تستروا على نفاقهم،فإنّ اللّه يعلم ما يكتمون.

ثمّ تبيّن الآيه الأخرى علائم من نوع آخر للمنافقين،فتشير إلى أنّ كثيرا من هؤلاء فى انتهاجهم طريق العصيان و الظلم و أكل المال الحرام،يتسابقون بعضهم مع بعضهم الآخر تقول الآيه: وَ تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسٰارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ... (۱) أى أن هؤلاء يسرعون الخطى فى طريق المعاصى و الظلم، و كأنّهم يسعون إلى أهداف تصنع لهم الفخر و المجد،و يتسابقون فيما بينهم فى هذا الطريق دون خجل أو حياء.

و تجدر الإشاره-هنا-إلى أنّ كلمه«إثم»قد وردت بمعنى(الكفر)كما وردت لتعنى جميع أنواع الذنوب أيضا،و بما أنّها اقترنت فى هذه الآيه بكلمه (العدوان)قال بعض المفسّرين:أنّها تعنى الذنوب التى تضرّ صاحبها فقط،على عكس العدوان الذى يتعدى طوره صاحبه إلى الآخرين،كما يحتمل أن يكون مجىء كلمه(العدوان)بعد كلمه(الإثم)فى هذه الآيه،من باب ما يصطلح عليه بذكر العام قبل الخاص،و أن مجىء كلمه«السحت»بعدهما هو من قبيل ذكر الأخص.

و عليه فالقرآن قد ذم المنافقين،أوّلا لكل ذنب اقترفوه،ثمّ خصص ذنبين كبيرين لما فيهما من خطر-و هما الظلم و أكل الأموال المحرمه،سواء كانت ربا أم رشوه أم غير ذلك.

و خلاصه القول أن القرآن الكريم قد ذم هذه الجماعه من المنافقين من أهل الكتاب،لوقاحتهم و صلفهم و تعنتهم فى ارتكاب أنواع الآثام و بالأخص الظلم

۱- ۱) -لقد بيّنا معنى(السحت)فى تفسير الآيه(۴۲)من هذه السوره،و شرحنا معنى(يسارعون)فى تفسير الآيه(۴۱)من هذه السوره أيضا،فى هذا الجزء. أمّا كلمه(إثم)فقد شرحنا معانيها فى تفسير الآيه(۲۱۹)من سوره البقره،فى المجلد الأوّل.

و أكل المال الحرام،و لكى يؤكّد القرآن قبح هذه الأعمال،قالت الآيه: لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ... .

و تدل عباره كٰانُوا يَعْمَلُونَ على أنّ هذه الذنوب لم تكن تصدر عن هؤلاء صدفه،بل كانوا يمارسونها دائما مع سبق إصرار.

بعد ذلك تحمل الآيه الثالثه على علمائهم الذين أيّدوا قومهم على ارتكاب المعاصى بسكوتهم،فتقول: لَوْ لاٰ يَنْهٰاهُمُ الرَّبّٰانِيُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ... .

و قد أشرنا سابقا إلى أنّ كلمه(ربّانيون)هى صيغه جمع لكلمه(ربّانى)المشتقه من كلمه(رب)و تعنى العالم أو المفكر الذى يدعو الناس إلى اللّه،لكنّها قد أطلقت فى كثير من الحالات على علماء المسيحيين،أى رجال الدين المسيحى.

أمّا كلمه(أحبار)فهى صيغه جمع لكلمه(حبر)و هى تعنى العلماء الذين يخلفون أثارا حسنه فى المجتمع،لكنّها أطلقت فى موارد كثيره على رجال الدين اليهود.

أمّا خلو هذه الآيه من كلمه(العدوان)التى وردت فى الآيه قبلها،فقد استدل بعضهم من ذلك على أن كلمه(الإثم)الوارده هنا تشمل جميع المعانى التى تدخل فى إطار هذه الكلمه و من ضمنها(العدوان).

لقد وردت فى هذه الآيه عباره قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ التى تختلف عمّا ورد فى الآيه السابقه،و لعل هذه إشاره إلى أن العلماء مكلفون بردع الناس عن النطق بما يشوبه الذنب من قول،كما هم مكلّفون بمنع الناس عن ارتكاب العمل السيء،و لربّما تكون كلمه(قول)الوارده هنا بمعنى(العقيده)أى أن العلماء الذين يهدفون إلى إصلاح أى مجتمع فاسد،عليهم أوّلا أن يصلحوا أو يغيروا المعتقدات الفاسده التى تشيع فى هذا المجتمع،فما لم يحصل التغيير الفكرى لا يمكن توقع حصول اصلاحات جذريه فى الجوانب العمليه،و بهذه الصوره تبيّن الآيه للعلماء أنّ الثوره

الفکریه هی الأساس و المنطلق لکل إصلاح یراد تحقیقه فی کل مجتمع فاسد.

و فی الختام،یمارس القرآن الکریم نفس أسلوب الذم الذی اتّبعه مع أهل المعاصی الحقیقیین،فیذم العلماء الساکتین الصامتین التارکین للأمر بالمعروف و النهی عن المنکر،و یقبح صمتهم هذا،کما تقول الآیه: لَبِئْسَ مٰا کٰانُوا یَصْنَعُونَ .

و هکذا تبیّن أنّ مصیر الذین یتخلون عن مسئولیه الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر العظیمه و خاصه إن کانوا من العلماء یکون کمصیر أصحاب المعاصی، و هؤلاء فی الحقیقه شرکاء فی الذنب مع العاصین.

و نقل عن ابن عباس المفسّر المعروف قوله:بأنّ هذه الآیه أعنف آیه و بخت العلماء المتجاهلین لمسؤولیاتهم الصامتین عن المعاصی.

و بدیهی أنّ هذا الحکم لا ینحصر فی علماء الیهود و النصاری،بل یشمل کل العلماء مهما کانت دیاناتهم إن هم سکتوا و صمتوا أمام تلوث مجتمعاتهم بالذنوب و تسابق الناس فی الظلم و الفساد،ذلک لأنّ حکم اللّه واحد بالنسبه لجمیع البشر.

و ورد عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام فی إحدی خطبه، أنّ سبب هلاک الأقوام السابقه هو ارتکابهم للمعاصی و سکوت علمائهم علیهم و امتناعهم عن النهی عن المنکر فکان ینزل علیهم-لهذا السبب-البلاء و العذاب من اللّه،و أن علی الناس أن یأمروا بالمعروف و ینهوا عن المنکر لکی لا یتورطوا بمصیر أولئک الأقوام (1) .

کما ورد بنفس هذا المضمون

کلام للإمام علی علیه السّلام فی(نهج البلاغه)فی آخر خطبته القاصعه(الخطبه ۱۹۲)قوله علیه السّلام: «فإنّ اللّه سبحانه لم یلعن القرن الماضی بین أیدیکم إلاّ لترکهم الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر فلعن السفهاء لرکوب المعاصی و الحلماء لترک التناهی...».

۱- ۱) -نور الثقلین،ج ۱،ص ۶۴۹.

و يلفت الانتباه هنا أيضا أنّ الآيه السابقه حين كانت تتحدث عن سواد الناس جاءت بعباره(يعملون)بينما حين صار الحديث فى هذه الآيه عن العلماء جاءت بعباره(يصنعون)و الصنع هو كل عمل استخدمت فيه الدقه و المهاره،بينما العمل يطلق على جميع الأفعال حتى لو كانت خاليه من الدقه،هكذا فإن هذه العباره (يصنعون)تتضمن بحدّ ذاتها ذما أكبر،و ذلك لأنّ سواد الناس إن ارتكبوا ذنبا يكون ارتكابهم هذا-غالبا-بسبب جهلهم،بينما العالم الذى لا يؤدى واجبه فهو يرتكب إثما عن درايه و علم و تفكير،و لهذا يكون عقابه أشد و أعنف من عقاب الجاهل.

ص :٧٢

الآيه [سوره المائده (۵): آیه ۶۴]

اشاره

وَ قالَتِ اَلْيَهُودُ يَدُ اَللّهِ مَغْلُولَهٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ اَلْعَداوَهَ وَ اَلْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ اَلْقِيامَهِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اَللّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِی اَلْأَرْضِ فَساداً وَ اَللّهُ لا يُحِبُّ اَلْمُفْسِدِينَ (۶۴)

التّفسير

تبرز هذه الآيه واحدا من المصاديق الواضحه للأقوال الباطله التی كان اليهود يتفوهون بها،و قد تطرقت الآيه السابقه إليها-أيضا-و لكن على نحو كلی.

و يتحدث لنا التّأريخ عن فتره من الوقت كان اليهود فيها قد وصلوا إلی ذروه السلطه و القدره،و كانوا يمارسون الحكم على قسم مهم من المعموره،و يمكن الاستشهاد بحكم سليمان و داود كمثال على حكم الدوله اليهوديه،و قد استمر حكم اليهود بعدهما بين رقی و انحطاط حتی ظهر الإسلام،فكان إيذانا بأفول الدوله اليهوديه،و بالأخص فی الحجاز،إذ أدی قتال النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليهود بنی النضير و بنی قريظه و يهود خيبر إلی إضعاف سلطتهم بصوره نهائيه.

ص: ۷۳

و فی ذلک الوضع کان البعض من الیهود حین یتذکرون سلطتهم القویه السابقه،کانوا یقولون استهزاء و سخریه-إنّ ید اللّه أصبحت مقیده بالسلاسل (و العیاذ باللّه)و أنّه لم یعد یعطف علی الیهود!و یقال:أنّ المتفوه بهذا الکلام کان الفخاس بن عازوراء رئیس قبیله بنی القینقاع،أو النباش بن قیس کما ذکر بعض المفسّرین.

و بما أنّ سائر أبناء الطائفه الیهودیه أظهروا الرضی عن أقوال کبار قومهم هؤلاء،لذلک جاء القرآن لینسب هذه الأقوال إلی جمیعهم،کما تقول الآیه: قٰالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَهٌ... .

و یجب الانتباه إلی أنّ کلمه(الید)تطلق فی اللغه العربیه علی معان کثیره و منها(الید العضویه)کما أن معانیها(النعمه)و(القدره)و(السلطه)و(الحکم)، و بدیهی أنّ المعنی الشائع لها هو الید العضویه.

و لما کان الإنسان ینجز أغلب أعماله المهمّه بیده،فقد أطلقت من باب الکنایه علی معان أخری.

و تفیدنا الکثیر من الرّوایات الوارده عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ هذه الآیه تشیر إلی ما کان الیهود یعتقدون به حول القضاء و القدر و المصیر و الإراده،حیث کانوا یذهبون إلی أنّ اللّه قد عین کل شیء منذ بدء الخلیقه،و أنّ کل ما یجب أن یحصل قد حصل،و أنّ اللّه لا یستطیع من الناحیه العملیه إیجاد تغییر فی ذلک (۱) .

و بدیهی أنّ تتمه الآیه التی تتضمن عباره بَلْ یَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ -کما سیأتی شرحه-تؤید المعنی الأوّل،کما یمکن أن یقترن المعنی الثّانی بالمعنی الأوّل فی مسیر واحد،لأنّ الیهود حین أفل نجم سلطانهم،کانوا یعتقدون أن هذا الأفول هو مصیرهم المقدر،و أنّ ید اللّه مقیده لا تستطیع فعل شیء أمام هذا المصیر.

و اللّه تعالی یرد علی هؤلاء توبیخا و ذما لهم و لمعتقدهم هذا بقوله:

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۱،ص ۶۴۹،تفسیر البرهان،ج ۱،ص ۴۸۶.

غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا...

ثمّ لكى يبطل هـذه العقيـده الفاسـده يقول سبحانه و تعالى بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ... فلا إجبار فى عمل اللّه كما أنّه ليس محكوما بالجبر الطبيعى و لا الجبر التّأريخى،بل أنّ إرادته فوق كل شىء و تعمل فى كل شىء.

و الملفت للنظر هنا أنّ اليهود ذكروا اليد بصيغه المفرد كما جاء فى الآيه موضوع البحث،لكن اللّه تعالى من خلال رده عليهم قد ثنّى كلمه اليد فقال: بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ و هذا بالإضافه إلى كونه تأكيدا للموضوع،هو كنايه لطيفه تظهر عظمه جود اللّه و عفوه،و ذلـك لأنّ الكرماء جـدّا يهبون ما يشاءون للغير بيـدين مبسوطتين،أضف إلى ذلك أنّ ذكر اليـدين كنايه عن القـدره الكامله،أو ربّما يكون إشاره إلى النعم الماديه و المعنويه،أو الدنيويه و الأخرويه.

ثمّ تشير الآيه إلى أنّ آيات اللّه التى تفضـح أقوال و معتقـدات هؤلاء تجعلهم يوغلون أكثر فى صـلفهم و عنادهم و يتمادون فى طغيانهم و كفرهم بدلا من تأثيرها الايجابى فى ردعهم عن السير فى نهجهم الخاطئ حيث تقول الآيه الكريمه:

وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيٰاناً وَ كُفْراً...

.

بعـد ذلـك تؤكّـد الآيه على أن صـلف هؤلاء و طغيـانهم و كفرهم سيجر عليهم الوبال،فينالهم من اللّه عـذاب شديـد فى هـذه الـدنيا،من خلال تفشـى العـداء و الحقد فيما بينهم حتى يوم القيامه،فتقول الآيه الكريمه: وَ أَلْقَيْنٰا بَيْنَهُمُ الْعَدٰاوَهَ وَ الْبَغْضٰاءَ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ... .

و قد اختلف المفسّرون فى معنى عباره اَلْعَدٰاوَهَ وَ الْبَغْضٰاءَ الوارده فى هذه الآيه،لكنّنا لو تغاضـينا عن الوضع الاستثنائى غير الدائم الـذى يتمتع به اليهود فى الوقت الحاضـر،و نظرنا إلى تاريخ حياتهم المقترن بالتشـتت و التشـرد،لثبت لدينا أنّ هناك عامل واحد لهـذا الوضع التّأريخى الخـاص لهؤلاء،و هو انعـدام الاتحاد و الإخلاص فيما بينهم على الصـعيد العالمى،فلو كان هؤلاء يتمتعون بالوحده

ص: ۷۵

و الصدق فيما بينهم،لما عانوا طيله تاريخ حياتهم من ذلك التشرد و الضياع و التشتت و التعاسه.

و قد شرحنا قضيه العداوه و البغضاء الدائمه بين أهل الكتاب بشيء من التفصيل عند تفسير الآيه(۱۴)من نفس هذه السوره.

و تشير الآيه-في الختام-إلى المساعى و الجهود التى كان يبذلها اليهود لتأجيج نيران الحروب،و عنايه اللّه و لطفه بالمسلمين فى انقاذهم من تلك النيران المدمره الماحقه،فتقول كُلَّمٰا أَوْقَدُوا نٰاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّٰهُ... .

و تعتبر هذه الظاهره إحدى معاجز حياه النّبى الأكرم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،لأنّ اليهود كانوا الأقوى بين أهل الحجاز و الأعرف بمسائل الحرب،بالإضافه إلى ما كانوا يمتلكون من قلاع حصينه و خنادق منيعه،ناهيك عن قدرتهم الماليه الكبيره التى كانت لهم عونا فى كل صراع بحيث أن قريشا كانوا يستمدون العون منهم،و كان الأوس،و الخزرج يسعى كل منهما إلى التحالف معهم و كسب صداقتهم و نيل العون منهم فى المجال العسكرى،لكنّهم فقدوا فجأه قدرتهم المتفوقه-هذه-و طويت صفحه جبروتهم دفعه واحده،بشكل لم يكن متوقعا لديهم،فاضطر يهود بنى النضير و بنى قريظه و بنى القينقاع إلى ترك ديارهم،كما استسلم نزلاء قلاع خيبر الحصينه و سكان فدك من اليهود خاضعين للمسلمين،و حتى أولئك الذين كانوا يقطنون فى فيافى الحجاز منهم اضطروا إلى الخضوع أمام عظمه الإسلام،فهم بالإضافه إلى عجزهم عن نصره المشركين اضطروا إلى ترك ميدان النزال و الصراع.

ثمّ تبيّن الآيه-أيضا-أنّ هؤلاء لا يكفون عن نشر بذور الفتنه و الفساد فى الأرض فتقول: وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسٰاداً... و تؤكّد أيضا قائله: وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

و يستدلّ من هذا على أن أسلوب المواجهه القرآنى لليهود لم يكن يتركز على

أساس عنصری مطلقا،بل أن المعیار الذی استخدمه القرآن فی توجیه النقد إلیهم، هو معیار الأعمال التی یمکن أن تصدر من أی جنس و عنصر أو طائفه،و سنلاحظ فی الآیات القادمه أنّ القرآن علی الرغم من کل ما صدر من هؤلاء،قد ترک باب التوبه مفتوحا أمامهم.

الآيتان [سوره المائده (۵): الآيات ۶۵ الی ۶۶]

اشاره

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ اَلْكِتابِ آمَنُوا وَ اِتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنّاتِ اَلنَّعِيمِ (۶۵) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا اَلتَّوْراةَ وَ اَلْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (۶۶)

التّفسير

بعد أن وجهت الآيات السابقه النقد لنهج و أسلوب أهل الكتاب،جاءت هاتان الآيتان وفقا لما تقتضيه مبادئ التربيه الإنسانيه لتفتحا باب العوده و التوبه أمام المنحرفين من أهل الكتاب،لكی يعودوا إلی الطريق القويم،و لتريهم الدرب الحقيقی الذی يجب أن يسيروا فيه،و لتثمن دور تلک الأقليه من أهل الكتاب التی عاشت فی ذلک العصر لكنّها لم تواكب الأكثريه فی أخطائها ،فتقول الآيه الاولی فی البدء: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ .

بل ذهبت إلی أبعد من هذا فوعدتهم بالجنّه و نعيمها،إذ قالت: وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنّاتِ النَّعِيمِ ،و هذه إشاره إلی النعم المعنويه الأخرويه.

ثمّ تشير الآيه الثّانيه إلى الأثر العميق الذى يتركه الإيمان و التقوى-فى الحياه الدنيويه للإنسان،فتؤكّد أنّ أهل الكتاب لو طبقوا التّوراه و الإنجيل و جعلوهما منهاجا لحياتهم و عملوا لكل ما نزل عليهم من ربّهم،سواء فى الكتب السماويه السابقه أو فى القرآن،دون تمييز أو تطرف لغمرتهم النعم الإلهيه من السماء و الأرض،فتقول الآيه: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ.. .

و بديهى أنّ المراد من اقامه التّوراه و الإنجيل هو اتّباعهم لما بقى من التّوراه و الإنجيل الحقيقيين فى أيديهم فى ذلك العصر،و لا يعنى اتّباع ما حرّف منهما و الذى يمكن معرفته من خلال القرائن.

و المراد بجمله ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ هو كل الكتب السماويه و الأحكام الإلهيه،لأنّ هذه الجمله يفهم منها الإطلاق،و هى فى الحقيقه إشاره إلى النهى عن خلط العصبيات القوميه بالوسائل الدينيه الإلهيه،فليس المهم كون هذا الكتاب عربيا أو ذلك الكتاب يهوديا،بل المهم هو الأحكام الإلهيه الوارده فيهما و فى كل الكتب السماويه،أى أنّ القرآن أراد أن يطفئ-ما أمكنه ذلك-نار العصبيه القوميه عند هؤلاء،و يمهد السبيل إلى التغلغل فى أعماق نفوسهم و قلوبهم،لذلك فالضمائر الوارده فى هذه الآيه تعود إلى أهل الكتاب و هى:(إليهم،من ربّهم،من فوقهم،و من تحت أرجلهم)و ما ذلك إلاّ لكى يترك هؤلاء عنادهم و صلفهم،و لكى لا يتصوروا أنّ الخضوع و الاستسلام أمام القرآن يعنى استسلام اليهود للعرب،بل هو استسلام و خضوع لربّهم العظيم.

و لا شك أنّ المراد باقامه التّوراه و الإنجيل هو العمل بالمبادئ السماويه الوارده فيهما،لأنّ جميع المبادئ و التعاليم كما أسلفنا سابقا-التى جاء بها الأنبياء أينما كانوا-واحده لا فرق بينها غير الفرق بين الكامل و الأكمل،و لا يتنافى هذا مع النسخ الذى ورد فى بعض الأحكام الوارده فى الشريعه اللاحقه

لأحكام وردت فى شريعه سابقه.

و مجمل القول هو أن الآيه الأخيره تؤكّد مرّه أخرى هذا المبدأ الأساسى القائل بأن اتباع التعاليم السماويه التى جاء بها الأنبياء،ليس لأعمار الحياه الآخره التى تأتى بعد الموت فحسب،بل أنّ لها-أيضا-انعكاسات واسعه على الحياه الدنيويه الماديه للإنسان،فهى تقوى الجماعات و تعزز صفوفها و تكثف طاقاتها،و تغدق عليها النعيم و تضاعف امكانياتها و تضمن لها الحياه السعيده المقترنه بالأمن و الاستقرار.

و لو ألقينا نظره على الثروات الطائله و الطاقات البشريه الهائله التى تهدر اليوم فى عالم الإنسان نتيجه للانحراف عن هذه التعاليم،و فى صنع و تكديس أسلحه فتّاكه،و فى صراعات لا مبرر لها و مساع هدامه لرأينا أن ذلك كله دليل حىّ على هذه الحقيقه،حيث أنّ الثروات التى تستخدم لإشاعه الدمار فى هذا العالم- إذا أمعنا النظر جيدا-إن لم تكن أكثر حجما من الثروات التى تنفق فى سبيل البناء،فهى ليست بأقلّ منها.

إنّ العقول المفكره التى تسعى و تعمل جاهده-اليوم-لإكمال و توسيع انتاج الأسلحه الحربيه،و لتوسيع بقعه النزاعات الاستعماريه،إنّما تشكل جزءا مهما من الطاقات البشريه الخلاقه التى طالما احتاجها المجتمع البشرى لرفع احتياجاته، و كم سيصبح وجه الدنيا جميلا و جذابا لو كانت كل هذه الطاقات تستغل فى سبيل الإعمار؟ و جدير بالانتباه هنا-أيضا-إلى أن عبارتى مِنْ فَوْقِهِمْ و مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ الواردتان فى الآيه الأخيره،معناهما أن نعم السماء و الأرض ستغمر هؤلاء المؤمنين،كما يحتمل أن تكونا كنايه عن النعم بصوره عامّه كما ورد فى الآثار الأدبيه العربيه و غيرها قولهم:(إنّ فلانا غرق فى النعمه من قمه رأسه حتى

ص :٨٠

أخمص قدمه).

كما أنّ هذه الآيه تعد جوابا على أحد أقوال اليهود الذى ورد ذكره فى الآيات السابقه،حيث تؤكّد أنّ سبب انقطاع نعم اللّه عنهم،ليس هو ما زعموه من أن ذات اللّه المقدسه المنزهه قد شابها البخل(و العياذ باللّه)أو أن يده أصبحت مغلوله،بل لأنّ أعمالهم الخبيثه قد انعكست آثارها فى حياتهم الماديه و المعنويه فسودتهما،فإن لم يتوبوا لن ينقذهم اللّه من آثار هذه الأعمال.

و فى الختام تشير الآيه الكريمه إلى الأقليه الصالحه من أهل الكتاب الذين اختاروا طريق الاعتدال فى حياتهم خلافا لنهج الأغلبيه المنحرفه،فعزل اللّه حسابهم عن حساب هذه الأكثريه الضاله،حيث تقول الآيه: مِنْهُمْ أُمَّهٌ مُقْتَصِدَهٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سٰاءَ مٰا يَعْمَلُونَ .

و قد وردت عبارات مشابهه عن الأقليه الصالحه من أهل الكتاب،فى الآيتين(۱۵۹ و ۱۸۱)من سوره الأعراف،و الآيه(۷۵)من سوره آل عمران.

ص:۸۱

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۶۷]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ وَ اَللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ اَلنّٰاسِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْکٰافِرِینَ (۶۷)

التّفسیر

اشاره

اختیار الخلیفه مرحله انتهاء الرساله:

إنّ لهذه الآیه نفسا خاصا یمیزها عمّا قبلها و عمّا بعدها من آیات،إنّها تتوجه بالخطاب إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وحده و تبیّن له واجبه،فهی تبدأ بمخاطبه الرّسول:

یٰا أَیُّهَا الرَّسُولُ

و تأمره بکل جلاء و وضوح أن بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ (۱) .

ثمّ لکی یکون التوکید أشد و أقوی-تحذره و تقول: وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ .

ثمّ تطمئن الآیه الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-و کأن أمرا یقلقه-و تطلب منه أن یهدئ من روعه و أن لا یخشی الناس:فیقول له: وَ اللّٰهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النّٰاسِ .

و فی ختام الآیه إنذار و تهدید بمعاقبه الذین ینکرون هذه الرساله

۱- ۱) -عباره«بلّغ»کما یقول الراغب فی«المفردات»أکثر توکیدا من«أبلغ».

الخاصّه و يكفرون بها عنادا،فتقول: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ .

أسلوب هـذه الآيه،و لحنها الخاص،و تكرر توكيداتها،و كذلك ابتداؤها بمخاطبه الرّسول يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ التى لم ترد فى القرآن الكريم سوى مرّتين، و تهديـده بأنّ عـدم تبليغ هـذه الرساله الخاصّه إنّما هو تقصـير-و هـذا لم يرد إلاّ فى هذه الآيه وحدها-كل ذلك يدل على أنّ الكلام يدور حول أمر مهم جدا بحيث أن عدم تبليغه يعتبر عدم تبليغ للرساله كلها.

لقد كان لهذا الأمر معارضون أشداء إلى درجه أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قلقا لخشيته من أنّ تلك المعارضه قد تثير بعض المشاكل بوجه الإسلام و المسلمين، و لهذا يطمئنه اللّه تعالى من هذه الناحيه.

هنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالى-مع الأخذ بنظر الإعتبار تأريخ نزول هذه الآيه-و هو قطعا فى أواخر حياه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:ترى ما هـذا الموضوع المهم الـذى يأمر اللّه رسوله-مؤكّدا-أن يبلّغه للناس؟ هل هو ممّا يخص التوحيد و الشرك و تحطيم الأصنام،و هو ما تمّ حله للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و للمسلمين قبل ذلك بسنوات؟ أم هو ممّا يتعلق بالأحكام و القوانين الإسلاميه،مع أنّ أهمها كان قد سبق نزوله حتى ذلك الوقت؟ أم هو الوقوف بوجه أهل الكتاب من اليهود و النصارى،مع أنّنا نعرف أنّ هـذا لم يعـد مشكله بعـد الانتهاء من حوادث بنى النضير و بنى قريظه و بنى قينقاع و خيبر و فدك و نجران؟ أم كان أمرا من الأمور التى لها صله بشأن المنافقين،مع أنّ هؤلاء قد طردوا من المجتمع الإسلامى بعد فتح مكّه،و امتداد نفوذ المسلمين و سيطرتهم على أرجاء الجزيره العربيه كافه،فتحطمت قوتهم،و لم يبق عندهم إلاّ ما كانوا يخفونه مقهورين؟

فما هذه المسأله المهمّه-یا تری-التی برزت فی الشهور الأخیره من حیاه رسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بحیث تنزل هذه الآیه و فیها کل ذلک التوکید؟ لیس ثمّه شک أنّ قلق رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن لخوف علی شخصه و حیاته،و إنّما کان لما یحتمله من مخالفات المنافقین و قیامهم بوضع العراقیل فی طریق المسلمین.

هل هناک مسأله تستطیع أن تحمل کل هذه الصفات غیر مسأله استخلاف النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تعیین مصیر مستقبل الإسلام؟! سوف نرجع إلی مختلف الرّوایات الوارده فی الکثیر من کتب السنه و الشیعه بشأن هذه الآیه،لکی نتبیّن إن کانت تنفعنا فی إثبات الاحتمال الذی أوردناه آنفا، ثمّ نتناول بالبحث الاعتراضات و الانتقادات التی أوردها بعض المفسّرین من السنه حول هذا التّفسیر.

نزول آیه التبلیغ:

علی الرغم من أنّ الأحکام المتسرعه،و التعصبات المذهبیه قد حالت-مع الأسف- دون وضع الحقائق الخاصّه بهذه الآیه فی متناول أیدی جمیع المسلمین بغیر تغطیه أو تمویه،إلاّ أن هناک مختلف الکتب التی کتبها علماء من أهل السنه فی التّفسیر و الحدیث و التّأریخ،أوردوا فیها روایات کثیره تقول جمیعها بصراحه.

إنّ الآیه المذکوره قد نزلت فی علی علیه السّلام.

هذا الرّوایات ذکرها الکثیرون من الصحابه،منهم«زید بن أرقم»و«أبو سعید الخدری»و«ابن عباس»و«جابر بن عبد اللّه الأنصاری»و«أبو هریره» و«البراء بن عازب»و«حذیفه»و«عامر بن لیلی بن ضمره»و«ابن مسعود»و قالوا:

إنّها نزلت فی علی علیه السّلام و بشأن یوم الغدیر.

بعض هذه الأحادیث نقل بطریق واحد مثل روایه زید بن أرقم.

و بعضها نقل بأحد عشر طريقا،مثل روايه أبی سعید الخدری و روایه ابن عباس.

و بعضها نقل بثلاثه طرق،مثل روايه البراء بن عازب،أمّا العلماء الذين أوردوا هذه الرّوايات في كتبهم فهم كثيرون،من بينهم:

الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه«ما نزل من القرآن في على»(نقلا عن «الخصائص»الصفحه ۲۹).

و أبو الحسن الواحدی النیسابوری فی«أسباب النّزول»الصفحه ۱۵۰.

و الحافظ أبو سعيد السجستاني في كتابه«الولايه»(نقلا عن كتاب «الطرائف»).

و ابن عساكر الشافعي(انظر«الدر المنثور»المجلد ۳ من الصفحه ۲۹۸).

و الفخر الرازي في«تفسير الكبير»المجلد ۳ الصفحه ۶۳۶.

و أبو إسحاق الحمويني في«فرائد السمطين».

و ابن الصباغ المالكي في«الفصول المهمّه»الصفحه ۲۷.

و جلال الدين السيوطي في«الدر المنثور»المجلد ۳ الصفحه ۲۹۸.

و القاضي الشوكاني في«فتح القدير»المجلد ۳ الصفحه ۵۷.

و شهاب الدين الآلوسي الشافعي في«روح المعاني»المجلد ۶ الصفحه ۱۷۲.

و الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في«ينابيع الموده»الصفحه ۱۲۰.

و بدر الدين الحنفي في«عمده القارئ في شرح صحيح البخاري»المجلد ۸،الصفحه ۵۸۴.

و الشيخ محمّد عبده المصري في تفسير«المنار»المجلد ۶ الصفحه ۴۶۳.

و الحافظ ابن مردويه(المتوفى سنه ۴۱۶)(عن السيوطي في«الدر المنثور»).

و جماعه كثيرون غيرهم أشاروا إلى سبب نزول هذه الآيه.

و نحن لا نعنی-طبعا-أنّ العلماء و المفسّرین الذین مرّ ذکرهم قد قبلوا نزول الآیه فی علی علیه السّلام،بل نقصد أنّهم ذکروا-فقط-الرّوایات الخاصّه بذلک فی کتبهم، و لکنّهم بعد أن نقلوا تلک الرّوایات المعروفه،امتنعوا عن قبولها،إمّا خوفا من الظروف التی کانت تحیط بهم،و إمّا لأنّ التسرع فی الحکم وقف حائلا دون إصدار حکم سلیم فی أمثال هذه الأمور،بل لقد سعوا-قدر إمکانهم-أن یعتموا الرؤیه الصحیحه لها و یظهروها بشکل هامشی.

فهذا الرازی-مثلا-و هو المعروف بتعصبه المذهبی فی مسائل خاصّه،أدرج سبب نزول هذه الآیه کاحتمال عاشر بعد إیراده تسعه احتمالات أخری کلها واهیه و ضعیفه و لا قیمه لها.

و لیس هذا بمستغرب من الرازی،فهذا شأنه فی کل المواضیع.لکنّنا نتعجب من کتّاب مثقفین أمثال سید قطب،فی تفسیره«فی ظلال القرآن»و محمّد رشید رضا فی تفسیره«المنار»،الذین أهملوا-کلیا-الإشاره إلی سبب نزول هذه الآیه المذکور فی أمهات المصادر الإسلامیه،أو ضعّفوا أهمیته بحیث أصبح بتصویرهم لا یستلفت نظرا.

هل کانت الظروف المحیطه بهؤلاء لا تسمح لهم بذکر الحقیقه؟أم أنّ حجب التعصب أکثف من أن تخترقها أشعه التنویر؟!لا ندری!! و هناک آخرون اعتبروا نزول الآیه فی علی علیه السّلام أمرا مسلّما به،و لکنّهم ترددوا فی الإقرار بأنّها تدل علی الولایه و الخلافه.و سنردّ-إن شاء اللّه-علی إشکالات هؤلاء.

علی کل حال،إنّ الرّوایات المنقوله فی کتب أهل السنّه المعروفه-دع عنک کتب الشیعه-فی هذا الموضوع من الکثره بحیث لا یمکن إنکارها أو تجاوزها بسهوله.

لسنا ندری لماذا یکتفی فی أسباب نزول سائر الآیات بحدیث واحد أو

حـديثين إثنين فقط،و لا تكون كل هذه الرّوايات الوارده بشأن نزول هذه الآيه كافيه؟! أفي هذه الآيه من الخصوصـيه ما ليس في الآيـات الأخرى؟ ترى هل هناك دليل منطقي يسوّغ كل هـذا التصـلّب؟ ثمّه موضوع آخر لا بـدّ من الإشاره إليه،هو أنّ الرّوايات التي ذكرناهـا فيمـا سـبق تتعلق كلهـا بنزول هـذه الآيه في علي عليه السّلام،أي الرّوايات الخاصّه بسـبب نزول هـذه الآيه فقط،أم الرّوايـات الوارده عن حـادثه غـدير خم و خطبه الرّسول الكريم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و إعلانه وصايه على عليه السّلام و ولايـته،فإنّهـا أكثر بكثير من تلك،حتى أنّ العلاّمه الأميني رحمه اللّه ينقل في كتابه«الغـدير»حـديث الغـدير عن ١١٠ من صحابه رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع اسنادها،و عن ٨۴ من التابعين،و عن ٣۶٠ من العلماء و الأدباء المسلمين المعروفين بما لا يـدع مجالا للشك في أنّ حـديث الغـدير واحـد من أوثق الأحاديث المتواتره،و لئن شك أحـد في تواتر هذه الرّوايات فإنّه لا يمكنه أن يقبل أي حديث متواتر آخر.

و لمّا كانت دراسه كل هـذه الرّوايات الخاصّه بشأن نزول هذه الآيه،و كذلك البحث في الرّوايات الخاصّه بحادث الغدير،يتطلب تـأليف كتـاب ضـخم يخرجنـا عن طريقتنا في التّفسـير،فإنّنا نكتفي بهـذا القـدر،و نحيل طالب الاستزاده حول هـذا الموضوع الى الكتب التّاليه:«الدر المنثور» للسـيوطي،و«الغدير»للعلاّمه الأميني، و«إحقاق الحقّ»للقاضـي نور الدين التستري،و«المراجعات»للسـيد عبد الحسين شرف الدين،و«دلائل الصدق»للشيخ محمّد حسن المظفر.

حادثه الغدير بايجاز:

على الرغم من أنّ الرّوايات التي تذكر هذه الحادثه كثيره و هي تصف واقعه

بعینها،فإنّ الرّوایات التی عبّرت عنها متنوعه،فبعض هذه الرّوایات مسهب مطوّل،و بعضها الآخر موجز مکثف،و بعضها یتناول جانبا معینا من الحادثه،و من مجموع تلک الرّوایات و من التّأریخ الإسلامی و من ملاحظه القرائن و الظروف المحیطه بوقوعها و بمکانها یتبیّن ما یلی:

أنّه فی السنه الأخیره من حیاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أدّی المسلمون مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حجّه الوداع فی عظمه و جلال،و کان لهذه الحجه أثر کبیر فی النفوس،و بعد انتهائها أحاطت بالقلوب هاله من السموّ الروحی،و تشرّبت فی الأعماق لذّه هذه العباده الکبری.

و کانت الجموع الغفیره (1) من المسلمین المشارکین فی تلک الحجّه یکادون یطیرون فرحا لهذه السعاده الکبری التی شرفهم اللّه بها.

لم یکن أهل المدینه وحدهم قد رافقوا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذه الحجه،بل التحق برکبه مسلمون توافدوا من سائر أنحاء الجزیره العربیه لینالوا شرف الصحبه فی هذه الحجّه.

کانت الشمس ترسل أشعتها اللافحه المحرقه علی الودیان و السهول لکن لذّه هذا السفر الروحی یسّرت کل شیء.اقترب وقت الظهیره،و اقترب الرکب الکبیر من أرض الجحفه، و ظهرت من بعید أرض«غدیر خم»القاحله الجافه المحرقه.

کانت المنطقه،فی الحقیقه تقع علی مفترق طرق أربع حیث کان علی الحجیج أن یتفرقوا إلی الوجهه التی یقصدونها فطریق یتجه إلی المدینه نحو الشمال،و آخر یوصل إلی العراق شرقا،و طریق الغرب یتجه إلی مصر،و طریق الجنوب یصل إلی الیمن.هاهنا کان لا بدّ أن یتحقق أهم فصل من فصول هذه الرحله و آخر ذکریاتها.و کان علی المسلمین أن یتلقوا آخر تکلیف لهم،أو المرحله النهائیه من المهمات الناجحه التی اضطلع بها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،قبل أن

۱- ۱) -قیل أنّ عددهم ۹۰ ألفا،و قیل ۱۲۰ ألفا،و قیل ۱۲۴ ألفا.

يتفرقوا إلى حال سبيلهم.

كان يوم الخميس من السنه العاشره للهجره،و قد مضت ثمانيه أيّام على عيد الأضحى،و إذا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يصدّر أمره للحجيج بالتوقف،فراح المسلمون يتنادون الذين فى مقدمه الركب أن يعودوا،و انتظروا حتى يلتحق بهم من كان فى المؤخره أيضا.كان الشمس قد تخطت نقطه الزوال،و صعد مؤذن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ينادى فى الناس لصلاه الظهر،و أخذ الناس يستعدون-مسرعين-لأداء الصّلاه.

كانت الرياح لافحه محرقه،حتى اضطر بعضهم إلى أن يضع قسما من عباءته تحت قدميه و قسما منها فوق رأسه كى يتقى حراره الحصى و أشعه الشمس.

ما كان فى تلك الصحراء ما يستظل به،و لا ما تستريح إليه العين من خضره الأعشاب،اللّهم إلاّ بضع شجيرات عجاف عاريه تصارع حراره الجو صراعا مريرا.

كان جمع قد لجأ إلى هذه الشجيرات و نشر رداءه عليها ليستظل به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،إلاّ أنّ الرياح الساخنه كانت تعصف بتلك المظله فتنشر تحتها حراره الشمس الحارقه.

انتهت صلاه الظهر.و هرع الحجيج يريدون نصب خيامهم الصغيره التى كانوا يحملونها معهم يلوذون بها من حر الهاجره.إلاّ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخبرهم أنّ عليهم أن يستعدوا لسماع رساله إلهيه،جديده فى خطبته،و كان الذين يقفون على مسافه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يستطيعون رؤيته،لذلك

صنعوا له منبرا من أحداج الإبل ارتقاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:

«الحمد للّه و نستعينه و نؤمن به،و نتول عليه،و نعوذ به من شرور أنفسنا،و من سيئات أعمالنا الذى لا هادى لمن ضلّ،و لا مضلّ لمن هدى،و أشهد أن لا إله إلاّ اللّه،و أنّ محمّدا عبده و رسوله.

أمّا بعد:أيّها الناس قد نبّأنى اللطيف الخبير أنّه لم يعمر نبىّ إلاّ مثل نصف عمر

الذی قبله،و إنّی أوشک أن أدعی فأجیب،و إنی مسئول و أنتم مسئولون،فما ذا أنتم قائلون؟ قالوا:نشهد أنک بلّغت و نصحت و جهدت فجزاک اللّه خیرا.

قال:ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ اللّه،و أن محمّدا عبده و رسوله،و أن جنّته حقّ،و ناره حقّ،و أن الموت حقّ،و أن الساعه آتیه لا ریب فیها،و أنّ اللّه یبعث من فی القبور؟ قالوا:بلی نشهد بذلک.

قال:اللّهم اشهد،ثمّ قال:

أیّها الناس ألا تسمعون؟قالوا:نعم.

ثمّ ساد الجوّ صمت عمیق،و لم یسمع فیه سوی أزیز الریاح..قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم«...فانظروا کیف تخلفونی فی الثقلین».

فنادی مناد:و ما الثقلان،یا رسول اللّه؟ قال:الثقل الأکبر کتاب اللّه طرفٌ بید اللّه عزّ و جلّ،و طرف بأیدیکم فتمسکوا به لا تضلّوا،و الآخر الأصغر عترتی،و إنّ اللطیف الخبیر نبّأنی أنّهما لن یتفرّقا حتی یردا علیّ الحوض،فسألت ذلک لهما ربّی،فلا تقدّموهما فتهلکوا،و لا تقصروا عنهما فتهلکوا.

ثمّ أخذ بید علی فرفعها حتی رؤی بیاض آباطهما،و عرفه القوم أجمعون، فقال:

أیّها النّاس:من أولی الناس بالمؤمنین من أنفسهم؟ قالوا:اللّه و رسوله أعلم.

قال:إنّ اللّه مولای،و أنا مولی المؤمنین،و أنا أولی بهم من أنفسهم فمن کنت مولاه فعلیّ مولاه،«یقولها ثلاث مرات»، و فی لفظ الإمام أحمد إمام الحنابله:

«أربع مرات».ثمّ قال:«اللّهم و ال من والاه،و عاد من عاداه،و أحبّ من أحبّه،

و أبغض من أبغضه،و انصر من نصره،و اخذل من خذله،و أدر الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ثمّ لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحی اللّه بقوله: اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِی... الآيه.فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«اللّه أكبر على إكمال الدين،و إتمام النعمه،و رضى الرّب برسالتی و الولايه لعلی من بعدی».

ثمّ طفق القوم يهنئون أمير المؤمنين عليه السّلام و ممن هنّأه أبو بكر و عمر كلّ يقول:بخّ بخّ لك يا ابن أبی طالب،أصبحت و أمسيت مولای و مولى كل مؤمن و مؤمنه.

و قال ابن عباس:وجبت و اللّه فی أعناق القوم.

و انبرى حسان بن ثابت،شاعر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يستأذنه فی تخليد ذكرى هذه الحادثه فی شعره،فقال:

يناديهم يوم الغدير نبيّهم

بخم و أسمع بالرّسول مناديا

فقال:فمن مولاكم و نبيّكم؟

فقالوا،و لم يبدوا هناک التعاميا

إلهک مولانا و أنت نبيّنا

و لم تلق منا فی الولايه عاصيا

فقال له:قم يا علیّ فإنّنی

رضيتک من بعدی إماما و هاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليه

فكونوا له أتباع صدق و واليا

هناک دعا:اللّهم وال وليه

و كن للذی عادى عليا معاديا (۱)

محاورات و شبهات:

اشاره

ليس ثمّه شك فى أنّ هذه الآيه،لو لم تكن قد نزلت فى خلافه على عليه السّلام،

۱- ۱) -نقل هـذه الأبيات جمع من كبار علماء أهل السـنه،منهم:الحافظ أبو نعيم الأصـفهانى،و الحافظ أبو سـعيد السجسـتانى، و الخوارزمى المالكى،و الحافظ أبو عبـد اللّه المرزبانى،و الكنجى الشافعى،و جلال الـدين السـيوطى،و سـبط بن الجوزى، و صـدر الدين الحموى،و غيرهم.

لأـكتفى فيهـا-كمـا قلنـا-بأقل ممّا ورد فيها من روايات و من قرائن موجوده فى الآيه نفسـها،فكثير من كبار المفسّـرين المسـلمين يكتفون فى تفسـير سائر الآيات القرآنيه حتى بعشر الرّوايات الموجوده بشأن هذه الآيه،أو أقل من ذلك.و لكن ممّا يؤسف له أنّ حجاب التعصب قد حال دون قبول كثير من الحقائق.

إنّ الـذين يحملون لواء المخـالفه تجـاه تفسـير هـذه الآـيه و الرّوايـات الكثيره الوارده بشأن نزولها،و الرّوايات المتواتره بخصوص أصل حادثه الغدير، ينقسمون إلى قسمين:

قسم حمل منذ البدايه روح العناد و التعنت،و حمل بشدّه على الشيعه بالإهانه و السب و الشتم.

و آخرون حـافظوا-إلى حـد مـا-على الروح العلميه فى البحث و التحقيـق، و تـابعوا القضـيه عن طريـق الاسـتدلال،و لـذلك فهم يعترفون بجـانب من الحقـائق، و لكنّهم بعـد إيرادهم بعض الإشـكالات-التى ربّما كانت نتيجه لظروفهم الفكريه الخاصّه يتركون الوقوف عند الآيه و الرّوايات المرتبطه بها.

و النموذج البارز الذى يمثل القسم الأوّل هو ابن تيميه فى كتابه«منهاج السـنه»حيث يبدو فيه كمن يغمض عينيه فى رابعه النهار و يضع أصابعه فى أذنيه بشدّه،ثمّ ينادى:أين الشمس؟فلا هو مستعد أن يفتح طرفا من عينه ليرى بعض الحقائق،و لا هو يرضى برفع أصابعه عن أذنيه كى يستمع الى ضجيج المحدثين و المفسّرين المسلمين،بل يستمر فى سبه و شتمه و إهاناته.

إنّ دافع هؤلاـء هو الجهـل و عـدم الاطلاـع و التعصب المقرون بالعنـاد،ممّـا دفع بهم إلى إنكار البـديهيات و الواضـحات التى لا تخفى على أحد.

لـذلك فنحن لاـ نجشم أنفسـنا عنـاء نقـل أقوالهم،و لاـ نحمـل القراء عناء سـماع إجاباتهم،فما ذا يمكن أن يقال لمن ينبرى بكل وقاحه لتجاهل هذا الحشد الكبير من كبار علماء الإسلام و المفسّرين-و معظمهم من أهل السنه-من الذين أعلنوا

أن تلک الآیه قـد نزلت بشأن علی علیه السّـلام فیـدعی-متعامیا عن الحقّ-أن أحـدا من العلماء لم یقل شـیئا کهذا فی کتابه!!و ما قیمه قوله هـذا لیسـتحق البحث فیه؟! من الجـدیر بالـذکر أنّ ابن تیمیه،فی محـاولته تبرئه نفسه قبال کل هـذه الکتب المعتبره التی تقول بنزول هذه الآیه بحق علی علیه السّلام،یلجأ إلی تعبیر مضحک،و یکتفی بقوله:«إن العلماء الذین یعرفون ما یقولون لا یرون أن هـذه الآیه قـد نزلت فی علی»!! فالظاهر«أنّ العلماء الـذین یعرفون ما یقولون»هم أولئک الذین یضـمون أصواتهم إلی أصوات ابن تیمیه و عناده المفرط.أمّا من لا یضمّ صوته إلیه فإنّه عالم لا یـدرک ما یقول.و هـذا منطق من ألقی العناد و حبّ الذات علی عقله ظلالا مشؤومه،فلندع هؤلاء.

أمّا الشبهات التی أوردها القسم الثّانی من العلماء،فمنها ما یجدر بالبحث، و سوف نتناولها فیما یلی:

۱-هل معنی«المولی»هو«الأولی بالتصرف»؟

إنّ أهم اعتراض یورد علی حادثه الغـدیر هو أنّ من معانی«مولی»الصدیق و النصیر و المحب،و من الممکن أن تکون الکلمه هنا بهذا المعنی أیضا.

لیس رد هـذا الاـعتراض بصـعب،لأـنّ کـل نـاظر منصف یـدرک أن تـذکیر الناس بمحبّه علی علیه السّـلام لا یقتضـی کل تلک المقـدمات،لاـ إلقـاء خطبه فی تلـک الصـحراء القـاحله و تحت ذلـک الحر المحرق،و إیقـاف تلـک الجموع و انتزاع الاعترافات المتوالیه منهم.إنّ حب المسلم لأخیه المسلم من المفاهیم الإسلامیه الواضحه التی تقررت منذ بدایه الدعوه.

ثمّ إنّ هذا الأمر لم یکن من الأمور التی لم یبلغها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتی ذلک الوقت،بل ثبّته و أعلنه مرارا.

كما إنّه لم يكن من الأمور التى تثير قلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تخوفه حتى يطمئنه اللّه تعالى بشأنه.

و لا كان أمرا على هـذا القـدر من الأهميه بحيث تتخذ الآيه هذا الأسـلوب الشديد فى مخاطبه رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ .

كل هذه تدل على أنّ الأمر كان أكثر من مجرّد محبّه عاديه تلك المحبّه التى كانت من أوليات الأخوه الإسـلاميه منذ بزوغ فجر الدعوه الإسلاميه.

ثـمّ،إذا كـان القصـد هـو تبيـان مثـل هـذه المحبه العـاديه،فلمـا ذا يعمـد رسـول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إلى اسـتخلاص الاعترافات من الحاضرين قبل بيان قصده، فيسألهم:

«أ لست أولى بكم من أنفسكم» (١) ؟أ يتناسب هذا مع بيان محبّه عاديه؟ ثمّ إنّ المحبّه العاديه لا تسـتدعى من الناس،و حتى من عمر نفسه،أن يهنئ عليا عليه السّلام بقوله:

«أصبحت مولاى و مولى كل مؤمن و مؤمنه» (٢) .

حبّ المسـلم واجب،و علىّ كسـائر المسـلمين،و يجب حبّه،و ليس فى ذلك شـىء جديـد يسـتوجب التهنئه فى ذلك اليوم و فى آخر سنه من حياه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ إنّ هناك ارتباطا بين حديث«الثقلين» (٣) و عبارات وداع رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و موالاه على عليه السّلام،و إلاّ فإنّ حبّ على عليه السّلام حبّا عاديا لا يسـتدعى أن يجعله رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى مصافّ القرآن! أ فلا يرى المنصف المحايد فى التعبير الوارد فى حديث الثقلين أنّ المسأله

١- ١) -وردت هذه العباره فى روايات كثيره.

٢- ٢) -هـذا القسم من الحـديث يعرف بحـديث«التهنئه»و قـد أورده كثير من كبار علماء الحـديث و التّفسـير و التّأريخ من أهل السـنه،عن طريق عدد من الصـحابه،مثل:ابن عباس،و أبى هريره،و البراء بن عازب،و زيد بن أرقم.و قد نقل العلاّمه الأمينى رحمه اللّه هذا الحديث فى المجلد الأوّل من كتابه«الغدير»عن ستين عالما من علماء أهل السنه!

٣- ٣) -«حديث الثقلين»من الأحاديث المتواتره التى وردت فى كتب أهل السنه عن جمع من الصحابه،منهم:أبو سعيد الخدرى،و زيـد بن أرقم،و زيـد بن ثـابت،و أبو هريره،و حـذيفه بن أسـيد،و جـابر بن عبـد اللّه الأنصارى،و عبـد اللّه بن حنطب، و عبـد بن حميد،و جبير بن مطعم و ضمره الأسلمى،و أبو ذر الغفارى،و أبو رافع،و أم سلمه،عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

تتعلق بالقياده،لأنّ القرآن هو القائد الأوّل للمسلمين بعد رحيل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل البيت عليهم السّلام هو القائد الثّانى؟

۲-ترابط الآيات

قد يقال أحيانا إنّ الآيات السابقه و اللاحقه على هذه الآيه تخص أهل الكتاب و مخالفاتهم.و هذا ما يقول به صاحب تفسير«المنار»فى المجلد ۶ صفحه ۴۶۶ و يصر على ذلك.

و لكن لا ضير فى ذلك-كما قلنا فى تفسير الآيه نفسها- لأنّ اختلاف لحن الآيه يختلف عن مواضيع الآيات التى قبلها و بعدها.و ثانيا سبق أن قلنا مرارا أن القرآن ليس كتابا أكاديميا يلتزم فى مواضيعه أسلوب التبويب و التقسيم إلى فصول و فقرات معينه،بل إنّ آياته نزلت بحسب الحاجات و الحوادث و الوقائع المختلفه الطارئه.

لذلك نلاحظ أنّ القرآن فى الوقت الذى يتكلم عن إحدى الغزوات،ينتقل إلى ذكر حكم من الأحكام الفرعيه-مثلا-و فى الوقت الذى يتحدث عن اليهود و النصارى،يخاطب المسلمين و يذكرهم بأحد القوانين الإسلاميه السابقه.(راجع بحثنا فى بدايه تفسير هذه الآيه لزياده التوضيح).

من العجيب أنّ بعض المتعصبين يصرّون على القول بأنّ هذه الآيه قد نزلت فى أوائل البعثه،مع أن سوره المائده نزلت فى أواخر عمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.فإذا قالوا:إن هذه الآيه وحدها نزلت فى مكّه فى أوائل البعثه،ثمّ أدخلت فى هذه الآيه للتناسب نقول:إن هذا على عكس ما تبحثون عنه تماما،لأننا نعرف أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أوائل البعثه لم يصطدم باليهود و لا بالنصارى.و عليه فإن ارتباط هذه الآيه ينقطع بما قبلها و ما بعدها من آيات(تأمل بدقّه).

هذه كلها أدله على أن هذه الآيه قد تعرضت إلى هبوب عواصف التعصب،

ص :۹۵

فأحـاطت بها بعض علامات الاسـتفهام ممّا لا يعتور آيات مشابهه أخرى أبـدا.أمّا هـذه الآيه فكل يحاول من جهه أن يتشـبث بما حرفها عن مسيرها.

٣-أتذكر الصّحاح كلّها هذا الحديث؟

يقـول بعضــهم:كيـف يمكـن قبـول هـذا الحـديث مع أنّـه لـم يرد فى صـحيحى مسـلم و البخـارى؟ و هـذا مـن عجـائب القـول أيضا:فهناك:

أوّلا:كثير من الأحاديث المعتبره التى قبل بها أهل السـنّه مع أنّها ليست فى صـحيحى مسـلم و البخارى،فهـذا الحديث ليس الأوّل من نوعه فى هذه الحاله.

ثانيـا:هـل أنّ هـذين الصـحيحين هما الكتابان الوحيـدان الموثقان عنـدهم،مع أنّ هـذا الحـديث قـد ورد فى سائر الكتب الأخرى المعتبره عندهم،و حتى فى بعض الصـحاح السـته(و هى التى يعتمدها أهل السنه)،مثل«سنن ابن ماجه» (١) و«مسند أحمد» (٢) .و هناك علماء مثل«الحاكم النيسابورى»و«الـذهبى»و«ابن حجر» اعترفوا بصـحه الكثير من طرق هـذا الحـديث،على الرغم ممّا عرف عنهم من التعصب.

لذلك فلا يسـتبعد أن يقع البخارى و مسلم تحت ضغط السياسه الذى ساد زمانهما،فلم يستطيعا،أو لم يشاءا أن يقولا ما لا يتلاءم و رغبه سلطات زمانهما فى كتابيهما.

۴-لم لم يستدل على و أهل البيت عليهم السّلام بهذا الحديث؟

يقول بعض:لو كان حديث الغدير-على عظمته-صحيحا فلما ذا لم يستدل به

١- ١) -المجلد الأوّل،ص ۵۵ و ۵۸.

٢- ٢) -مسند أحمد،المجلد الأول،الصفحات ۸۴ و ۸۸ و ۱۱۸ و ۱۱۹ و ۱۵۲ و ۳۳۱ و ۲۸۱ و ۳۷۰.

على عليه السّلام و أهل البيت عليهم السّلام و أصحابهم و محبّوهم عند اقتضاء الضروره؟ألم يكن من الخير لو أنّهم استندوا إلى مثل هذا السند المهم لإثبات حق على عليه السّلام؟ هذا أيضا قول آخر ينبع من عدم الإحاطه بالمصادر الإسلاميه فى حقل الحديث و التّفسير و التّأريخ،إذ أنّ كثيرا من كتب علماء السنه قد ذكرت أن عليّا عليه السّلام و أئمّه أهل البيت عليهم السّلام و أتباعهم قد استدلوا فعلا بحديث الغدير.

فهذا الخطيب الخوارزمى الحنفى

فى«المناقب» يروى عن عامر بن واثله، قال:

كنت على الباب يوم الشورى مع على عليه السّلام فى البيت و سمعته يقول:«لأحتجنّ عليكم بما لا يستطيع عربيكم و لا عجميكم تغيير ذلک»ثمّ قال:«أنشدكم اللّه أيّها النفر جميعا أ فيكم أحد وحّد اللّه قبلى؟»قالوا:لا(ثمّ استمر فى تعديد مناقبه و فضائله)...إلى أن قال:«فانشدكم باللّه هل فيكم أحد قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:من كنت مولاه فعلى مولاه،اللهم وال من والاه،و عاد من عاداه،و انصر من نصره، ليبلّغ الشاهد الغائب،غيرى؟».

قالوا:اللهم لا...»الحديث (۱) .

هذه الروايه يذكرها الحموينى فى«فرائد السمطين»فى الباب ۵۸،و ابن حاتم فى«الدر النظيم»و الدار قطنى،و ابن عقده،و ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه.

كذلک نقرأ فى«فرائد السمطين»فى الباب ۵۸ أن عليا عليه السّلام استشهد بحديث الغدير أمام جمع من الناس فى المسجد على عهد عثمان،و فى الكوفه أيضا استند إلى هذا الحديث لتفنيد رأى الذين أنكروا خلافته بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مباشره.

يقول صاحب كتاب«الغدير»:إنّ أربعه من الصحابه و أربعه عشر من التابعين قد رووا هذا الحديث حسب ما نقلته مصادر أهل السنه المعروفه.

۱- ۱) -«المناقب»،ص ۲۱۷.

و كما يقول الحاكم النيسابورى-فى الصفحه ۳۷۱ من المجلد الثّالث-من «المستدرك»فإنّ عليا عليه السّلام قد استشهد بهذا الحديث يوم حرب الجمل أمام طلحه.

كذلك فى حرب صفين-كما يقول سليم بن قيس الهلالى-إنّ عليا كان فى عسكره و أمام جمع من المهاجرين و الأنصار و القادمين من أطراف البلاد، فاستشهد بهذا الحديث فقام إثنا عشر من الذين أدركوا بدرا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أكّدوا أنّهم سمعوا الحديث من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بعد على عليه السّلام استند إلى هذا الحديث سيده الإسلام فاطمه الزّهراء عليها السّلام و الإمامان الحسن و الحسين عليهما السّلام و عبد اللّه بن جعفر،و عمّار بن ياسر،و قيس بن سعد،و عمر بن عبد العزيز،و المأمون الخليفه العباسى.

بل أنّ عمرو بن العاص فى رساله له إلى معاويه أراد أن يثبت لمعاويه فيها أنّه على علم تام بالحقائق الخاصّه بمكانه كل من على عليه السّلام و معاويه بالنسبه للخلافه، فاستشهد صراحه بحديث الغدير،و قد نقله الخطيب الخوارزمى الحنفى فى كتابه «المناقب»صفحه ۱۲۴(على الذين يرغبون فى المزيد من التوضيح بشأن استدلال على عليه السّلام و أهل البيت و بعض الصحابه و غير الصحابه بحديث الغدير،أن يرجعوا إلى الصفحات ۱۵۹-۲۱۳،من المجلد الأوّل من كتاب«الغدير»فقد أورد العلاّمه الأمينى رحمه اللّه أسماء ۲۲ من الصحابه،و غير الصحابه ممن استدلوا بهذا الحديث).

۵-مفهوم الجمله الأخيره من الآيه

يقولون:لو كانت الآيه تخص تنصيب على عليه السّلام فى الخلافه و الولايه و ترتبط بحديث غدير خم،فما علاقه كلّ هذا بما جاء فى آخر الآيه: إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكافِرِينَ .

للردّ على هذا الاعتراض يكفى أن نعرف أنّ لفظه«الكفر»فى اللغه و فى

القرآن تعنى الإنكار و المخالفه و الترك.فمرّه يقصد بها إنكار اللّه و نبوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و مرّه يراد بها إنكار بعض الأحكام أو مخالفتها،ففى الآيه(٩٧) من سوره آل عمران فيما يرتبط بالحج نقرأ: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ و الآيه(١٠٢)من سوره البقره تصف السحره و الذين تلوثوا بالسحر بأنّهم كفّار:

وَ مٰا يُعَلِّمٰانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّٰى يَقُولاٰ إِنَّمٰا نَحْنُ فِتْنَهٌ فَلاٰ تَكْفُرْ ،و فى الآيه(٢٢)من سوره إبراهيم نرى أنّ الشيطان ينددد يوم القيامه بأولئك الذين أطاعوه و اتبعوه و يقول لهم:إنكم بعد إطاعتكم أوامر اللّه قد جعلتمونى شريكا له،و إنى اليوم أكفر بعملكم ذاك: إِنِّي كَفَرْتُ بِمٰا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ،و عليه،فلا عجب أن يطلق القرآن صفه الكفر على الذين يخالفون مسأله الولايه و الخلافه.

۶-هل يمكن وجود وليّين فى وقت واحد؟

من الذرائع الأخرى التى تذرعوا بها للنكوص عن هذه الحديث المتواتر و الآيه المذكوره،هى أنّه إذا كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد نصب عليا عليه السّلام يوم الغدير للخلافه و الولايه،فإن ذلك يعنى وجود وليّين و قائدين فى وقت واحد.

إلاّ أنّ الالتفات إلى الظروف الزمانيه الخاصّه بنزول الآيه و ورود الحديث، و كذلك القرائن المستوحاه من خطبه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تنفى هذه الذريعه أيضا،إنّنا نعلم أنّ هذا الحدث قد جرى فى أواخر عمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إنّه كان يبلغ الناس بآخر الأوامر لأنّه

قال «و إنّى أوشك أن أدعى فأجيب».

إنّ من يقول هذا لا شك فى أنّه بصدد تعيين خليفته،و إنّه يضع الخطط للمستقبل،لا للحاضر،كذلك من الواضح،إنّه لا يقصد إعلان وجود قائدين أو وليّين فى وقت واحد.

و ممّا يلفت النظر أنّ بعض علماء أهل السنه الذين يطرحون هذا الاعتراض، يتقدم بعضهم برأى يناقض ذلك تماما،و هو أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد عين عليا عليه السّلام فى

الخلافه و الولايه،و لكنّه لم يعين تأريخ التعيين،فما المانع أن يأتى ذلك بعد ثلاثه خلفاء؟ إنّه لأمر محير حقّا!يتشبثون بألوان المتناقضات لكى يبتعدوا عن حقيقه القضيه!ألا يسأل هؤلاء أنفسهم:إذا أراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يعين خليفته الرابع ضمانا لمستقبل المسلمين،فلما ذا لم يعين الخليفه الأوّل و الثّانى و الثّالث فى يوم الغدير،و هم يتقدمون الرّابع و تنصيبهم مقدم على الأوّل؟! و مرّه أخرى نكرر مقولتنا السابقه لنختم به بحثنا هذا،و هى أنّه لو لا وجود نظرات خاصّه فى الأمر،لما حدثت كل هذه الاعتراضات و الإشكالات بشأن هذه الآيه و هذا الحديث،كما لم يحدث شىء من ذلك فى غيرهما.

الآیتان [سوره المائده (۵): الآیات ۶۸ الی ۶۹]

اشاره

قُلْ یٰا أَهْلَ اَلْکِتٰابِ لَسْتُمْ عَلیٰ شَیْءٍ حَتّٰی تُقِیمُوا اَلتَّوْرٰاهَ وَ اَلْإِنْجِیلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ وَ لَیَزِیدَنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ طُغْیٰاناً وَ کُفْراً فَلاٰ تَأْسَ عَلَی اَلْقَوْمِ اَلْکٰافِرِینَ (۶۸) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ اَلَّذِینَ هٰادُوا وَ اَلصّٰابِئُونَ وَ اَلنَّصٰاریٰ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ (۶۹)

سبب النّزول

اشاره

جاء فی تفسیر«مجمع البیان»و تفسیر القرطبی،عن ابن عباس قال: جاء جماعه من الیهود إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقالوا:أ لست تقرّ بأن التّوراه من عند اللّه؟ قال:«بلی».

قالوا:فإنّا نؤمن بها و لا نؤمن بما عداها(و فی الحقیقه فانّ التّوراه تعتبر القدر المشترک بیننا و بینکم،و لکنّ القرآن کتاب مختص بکم).

فنزلت الآیه الاولی.

ص:۱۰۱

لاحظنا فى ما سبق من تفسير آيات هذه السوره أنّ قسما كبيرا منها يدور حول العقبات التى كان يضعها أهل الكتاب«اليهود و النصارى»فى طريق المسلمين و ما كانوا يوردونه من مجادله و تساؤل،هذه الآيه-أيضا-تشير إلى جانب آخر من ذلك الموضوع،ترد فيها على منطقهم الواهى الداعى إلى اعتبار التّوراه كتابا متفقا عليه بين المسلمين و اليهود،و ترك القرآن باعتباره موضع خلاف.

لذلك فالآيه تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائله: قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ حَتّٰى تُقِيمُوا التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .

و ذلك لأنّ هذه الكتب-كما قلنا-صادره عن مبدأ واحد و أصولها واحده، و لمّا كان آخر هذه الكتب السماويه أكملها و أجمعها فإنّه هو الأجدر بالعمل به،كما أنّ الكتب السابقه تحمل بشائر و ارشادات إلى آخر الكتب،و هو القرآن،فإذا كانوا -حسب زعمهم-يقبلون التّوراه و الإنجيل،و كانوا صادقين فى زعمهم،فلا مندوحه لهم عن القبول بتلك البشائر أيضا،و إذ وجدوا تلك العلامات فى القرآن، فإن عليهم أن يحنوا رؤوسهم خضوعا لها.

هذه الآيه تقول أنّ الادعاء لا يكفى،بل لا بدّ من إتباع ما جاء فى هذه الكتب السماويه عمليا، ثمّ أن القضيه ليست«كتابنا»و«كتابكم»،بل هى الكتب السماويه و ما أنزل من اللّه،فكيف تريدون بمنطقكم الواهى هذا أن تتجاهلوا آخر كتاب سماوى؟ و يعود القرآن ليشير إلى حاله أكثريتهم،فيقرّر أنّ أكثرهم لا يأخذون العبره و العظه من هذه الآيات و لا يهتدون بها،بل أنّهم-لمّا فيهم من روح العناد- يزدادون فى طغيانهم و كفرهم وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيٰاناً وَ كُفْراً .

و هكذا يكون التأثير المعكوس للآيات الصادقه و القول المتزن فی النفوس المملوءه عنادا و الجاجا.

و فی ختام الآیه یخفف اللّه من حزن رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إزاء تصلب هذه الأكثريه من المنحرفین و عنادهم،فیقول له فَلاٰ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكٰافِرِينَ (۱) .

هذه الآیه لیست مقصوره علی الیهود-طبعا-فالمسلمون أیضا إذا اکتفوا بادعاء الإسلام و لم یقیموا تعالیم الأنبیاء،و خاصه ما جاء فی کتابهم السماوی، فلن تکون لهم منزله و مکانه لا عند اللّه،و لا فی حیاتهم الفردیه و الاجتماعیه،بل سیظلون دائما أذلاء و مغلوبین علی أمرهم.

الآیه التّالیه تعود لتقرر مرّه أخری هذه الحقیقه،و تؤکّد أنّ جمیع الأقوام و أتباع کل المذاهب دون استثناء،مسلمین کانوا أم یهودا أم صابئین (۲) أم مسیحیین،لا ینجون و لا یأمنون الخوف من المستقبل و الحزن علی ما فاتهم إلاّ إذا آمنوا باللّه و بیوم الحساب و عملوا صالحا: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰادُوا وَ الصّٰابِئُونَ وَ النَّصٰارىٰ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ .

هذه الآیه،فی الحقیقه ردّ قاطع علی الذین یظنون النجاه فی ظل قومیه معینه، و یفضلون تعالیم بعض الأنبیاء علی بعض،و یتقبلون الدعوه الدینیه علی أساس من تعصب قومی،فتقول الآیه إن طریق الخلاص ینحصر فی نبذ هذه الأقوال.

و کما أشرنا فی تفسیر الآیه(۶۲)من سوره البقره،التی تقترب فی مضمونها من مضمون هذه الآیه سعی بعضهم بجد لیثبت أنّ هذه الآیه تعتبر دلیلا علی «السلام العام»و علی أنّ أتباع جمیع الأدیان ناجون،و أن یتجاهل فلسفه نزول الکتب السماویه بالتتابع الذی یدل علی تقدم الإنسان فی مسیرته التکاملیه

۱- ۱) -«فلا تأس»من الأسی،بمعنی الغم و الحزن.

۲- ۲) -الصابئون هم أتباع یحیی أو نوح أو إبراهیم،و قد ذکرناهم بتفصیل أکثر فی المجلد الأول.

التدریجیه.

و لکن-کما قلنا-تضع الآیه حدّا فاصلا بقولها وَ عَمِلَ صٰالِحاً لکل قول، و تشخص الحقیقه،بخصوص تباین الأدیان،فتوجب العمل بآخر شریعه إلهیه، لأنّ العمل بقوانین منسوخه لیس من العمل الصالح،بل العمل الصالح هو العمل بالشرائع الموجوده و بآخرها(لمزید من الشرح و التوضیح بهذا الشأن انظر المجلد الأوّل ص ۲۱۷.

ثمّ إنّ هناک احتمالا-مقبولا-فی تفسیر عباره مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً و هو إنّها تختص بالیهود و النصاری و الصابئین،لأنّ اَلَّذِینَ آمَنُوا فی البدایه لا تحتاج إلی مثل هذا القید،و علیه،فإن معنی الآیه یصبح هکذا:

إنّ المؤمنین من المسلمین-و کذلک الیهود و النصاری و الصابئین،بشرط أن یؤمنوا و أن یتقبلوا الإسلام و یعملوا صالحا-سیکونون جمیعا من الناجین و إن ماضیهم الدینی لن یکون له أی أثر فی هذا الجانب،و إن الطریق مفتوح للجمیع (تأمل بدقّه).

ص :۱۰۴

الآيتان [سوره المائده (۵): الآيات ۷۰ الی ۷۱]

اشاره

لَقَدْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمٰا جٰاءَهُمْ رَسُولٌ بِمٰا لاٰ تَهْوىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (۷۰) وَ حَسِبُوا أَلاّٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تٰابَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اَللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا يَعْمَلُونَ (۷۱)

التّفسير

فی آيات سابقه من سوره البقره،و فی أوائل هـذه السوره أيضا إشاره إلی عهـد و ميثاق أخـذه اللّه تعالی علی بنی إسـرائيل و فی هذه الآيه تذكير بهذا الميثاق:

لَقَدْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمْ رُسُلاً

.

يبـدو أنّ هـذا الميثاق هو الـذی جاءت الإشاره إليه فی الآيه(۹۳)من سوره البقره،أی العمـل بمـا أنزل اللّه! ثمّ يضـاف إلی ذلك القول بأنّهم،فضلا عن كونهم لم يعملوا بذاك الميثاق، كُلَّمٰا جٰاءَهُمْ رَسُولٌ بِمٰا لاٰ تَهْوىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ .

هـذه هی طرائق المنحرفين الأنانيين و سـبلهم،فهم بدلا من إتباع قادتهم، يصـرون علی أن يكون القاده هم التابعين و لا هوائهم،و إلّا فليس لهؤلاء الهداه

ص:۱۰۵

و الأنبياء حتى حق الحياه.

فى هذه الآيه جاء الفعل«كذبوا»بصيغه الماضى بينما جاء الفعل«يقتلون» بصيغه المضارع،و لعل السبب-بالإضافه إلى المحافظه على التناسب اللفظى فى أواخر الآيات السابقه و التّاليه و كلها بصيغه المضارع-هو كون الفعل المضارع يدل على الاستمرار،و القصد من ذلك الإشاره إلى استمرار هذه الروح فيهم،و أن تكذيب الأنبياء و قتلهم لم يكن حدثا عارضا فى حياتهم،بل كان طريقا و اتجاها لهم (۱) .

فى الآيه التّاليه إشاره إلى غرورهم أمام كل ما اقترفوه من طغيان و جرائم:

وَ حَسِبُوا أَلاّ تَكُونَ فِتْنَهٌ

أى ظنوا مع ذلك أن البلاء و الجزاء لن ينزل بهم، و اعتقدوا-كما صرحت الآيات الأخرى-أنّهم من جنس أرقى،و أنّهم أبناء اللّه! و أخيرا استحال هذا الغرور الخطير و التكبر إلى ما يشبه حجابا غطى أعينهم و آذانهم: فَعَمُوا وَ صَمُّوا عن رؤيه آيات اللّه و عن سماع كلمات الحقّ.

و لكنّهم عند ما أصابتهم مظاهر من عقاب اللّه و شاهدوا نتائج أعمالهم المشؤومه،ندموا و تابوا بعد أن أدركوا أن وعد اللّه حق،و أنّهم ليسوا عنصرا متميزا فائقا.

و تقبل اللّه توبتهم: ثُمَّ تابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ .

إلاّ أنّ حاله الندم و التوبه لم تلبث طويلا،فسرعان ما عاد الطغيان و التجبر و سحق الحقّ و العداله،و عادت أغشيه الغفله الناتجه عن الانغماس فى الإثم تحجب أعينهم و آذانهم مرّه أخرى ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ فلم يعودوا يرون آيات أو يسمعوا كلمه الحقّ،و عمت الحاله الكثير منهم.

و لعل تقديم«عموا»على«و صمّوا»يعنى أن عليهم أوّلا أن يبصروا آيات اللّه

۱- ۱) -فى الواقع و كما جاء فى تفسير«مجمع البيان»و فى غيره إنّ عباره،«فريقا كذبوا و فريقا يقتلون»فى الأصل«كذبوا و قتلوا»و«يكذبون و يقتلون».

و معجزات رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،ثمّ يستمعوا إلى تعاليمه و يستوعبوها.

و ورود عباره كَثِيرٌ مِنْهُمْ بعد تكرار عَمُوا وَ صَمُّوا جاء لتوضيح أنّ حاله الغفله و الجهل و العمى و الصمم تجاه الحقائق لم تكن عامّه،بل كان بينهم بعض الأقليه من الصالحين،و فى هذا دليل على أن تنديد القرآن باليهود لا ينطوى على أى جانب عنصرى أو طائفى،بل هو موجّه إلى أعمالهم فحسب.

هل أن تكرار عباره عَمُوا وَ صَمُّوا ذو طابع عام تأكيدى،أم للإشاره إلى حادثتين مختلفتين؟ يرى بعض المفسّرين أنّ التكرار يشير إلى واقعتين مختلفتين حدثتا لبنى إسرائيل،الاولى:الغزو البابلى لهم،و الثّانيه:غزو الإيرانيين و الروم،و القرآن أشار إليها بشكل عابر فى بدايه سوره بنى إسرائيل.

و لا يستبعد-أيضا-أنّ بنى إسرائيل قد تعرضوا مرات عديده لهذه الحالات فحينما يشاهدون نتائج أعمالهم الشريره،كانوا يتوبون،ثمّ ينقضون توبتهم،و قد حدث هذا عدّه مرّات لا مرّتين فقط.

فى نهايه الآيه جمله قصيره عميقه المعنى تقول:إنّ اللّه لا يغفل أبدا عن أعمالهم،إذ أنّه يرى كل ما يعملون: وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ .

ص :107

الآيات [سوره المائده (۵): الآيات ۷۲ الی ۷۴]

اشاره

لَقَدْ كَفَرَ اَلَّذِينَ قالُوا إِنَّ اَللّهَ هُوَ اَلْمَسِيحُ اِبْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ اَلْمَسِيحُ يا بَنِى إِسْرائِيلَ اُعْبُدُوا اَللّهَ رَبِّى وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اَللّهُ عَلَيْهِ اَلْجَنَّهَ وَ مَأْواهُ اَلنّارُ وَ ما لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۷۲) لَقَدْ كَفَرَ اَلَّذِينَ قالُوا إِنَّ اَللّهَ ثالِثُ ثَلاثَهٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاّ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۳) أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اَللّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اَللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۴)

التّفسير

تعقيبا على البحوث الماضيه بشأن انحرافات اليهود التى مرّت فى الآيات السابقه،تتحدث هذه الآيات و التى تليها عن انحرافات المسيحيين،فتبدأ أولا بأهم تلك الانحرافات،أى«تأليه المسيح»«تثليث المعبود»: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ .

و أىّ كفر أشدّ من أن يجعلوا اللّه اللامحدود من جميع الجهات متحدا مع مخلوق محدود من جميع الجهات،و أن يصفوا الخالق بصفات المخلوق.مع أنّ

ص :۱۰۸

المسیح علیه السّلام نفسه یعلن صراحه لبنی إسرائیل: یا بَنِی إِسْرائِیلَ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ و بهذا یستنکر کل لون من ألوان الشرک،و یفرض الغلوّ فی شخصه،و یعتبر نفسه مخلوقا کسائر مخلوقات اللّه.

و لکی یشدد المسیح التوکید علی هذا الأمر،و لیزیل کل إبهام و خطأ،یضیف قائلا: إِنَّهُ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَیْهِ الْجَنَّهَ وَ مَأْواهُ النّارُ .

و یمضی فی التوکید و إثبات أنّ الشرک و الغلو ضرب من الظلم الواضح،فیقول أیضا: وَ ما لِلظّالِمِینَ مِنْ أَنْصارٍ .

سبق أن أشرنا إلی أنّ تاریخ المسیحیه یؤکّد بأنّ التثلیث لم یکن معروفا فی القرون الاولی من المسیحیه،و لا حتی علی عهد المسیح علیه السّلام،بل أن الأناجیل الموجوده-علی الرغم من کل ما فیها من تحریفات و إضافات-لیس فیها أدنی إشاره إلی التثلیث،و هذا ما یعترف به المحققون المسیحیون أنفسهم،و علیه فإن ما ورد فی الآیه المذکوره عن إصرار المسیح علیه السّلام علی مسأله التوحید إنّما ینسجم مع المصادر المسیحیه الموجوده،و یعتبر من دلائل عظمه القرآن (1) .

و ینبغی الالتفات إلی أنّ الموضوع الذی تتناوله الآیه هو الغلو و وحده المسیح باللّه.أو بعباره أخری،هو«التوحید فی التثلیث»،و لکن الآیه التّالیه تشیر إلی مسأله«تعدد الآلهه»فی نظر المسیحیین،أی«التثلیث فی التوحید»،و تقول:

إنّ الذین قالوا أن اللّه ثالث الأقانیم (2) الثلاثه لا ریب أنّهم کافرون: لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قالُوا إِنَّ اللّهَ ثالِثُ ثَلاثَهٍ .

اعتقد کثیر من المفسّرین،و منهم الطبرسی فی«مجمع البیان»،و الشیخ الطوسی فی«التبیان»،و الفخر الرازی و القرطبی فی تفسیریهما،أنّ الآیه السابقه تشیر إلی فرقه من المسیحیین باسم«الیعاقبه»یعتقدون أن اللّه متحد بالمسیح علیه السّلام،

1- 1) -للمزید من توضیح التثلیث و الوحده فی التثلیث أنظر المجلد الثالث من هذا التّفسیر.

2- 2) -«الأقنوم»بمعنی الأصل و الذات،جمعها«أقانیم».

و هذه الآیه وردت بشأن فرقه أخری هی«الملکانیه»و«النسطوریه»الذین یقولون بالأقانیم الثلاثه،أو الآلهه الثلاثه.

غیر أنّ هـذه النظره عن المسـیحیه کمـا سـبق أن قلنـا-لاـ تطـابق مع الواقع،لأن الإعتقاد بالتثلیث عام بین المسـیحیین کافه،کما أن التوحیـد بیننـا نحن المسـلمین عقیـده عامّه قطعیه،و لکنّهم فی الوقت الـذی یعتقـدون حقا بتثلیث الأرباب،یؤمنون أیضا بالوحـده الحقیقیه،قـائلین أن ثلاـثه حقیقیین یؤلفون واحـدا حقیقیـا! الظـاهر أنّ الآـیتین المـذکورتین تشـیران إلی جـانبین مختلفین لهاتین القضـیتین:فی الاـولی إشاره إلی وحـده الآلهه الثلاثه،و فی الثّانیه إشاره إلی تعـددها،و توالی المسألتین هو فی الحقیقه إشاره الی واحـد من الأدله الواضـحه علی بطلان عقیـدتهم،فکیف یمکن للّه أن یکون واحـدا مع المسـیح و روح القدس مرّه،و مرّه أخری یکون ثلاثه أشـیاء؟أمن المعقول أن یتساوی الثلاثه مع الواحد؟! إنّ ما یؤید هذه الحقیقه هو أنّنا لا نجد بین المسیحیین أیه طائفه لا تؤمن بالآلهه الثلاثه! (۱) .

و یرد القرآن علیهم ردا قاطعا فیقول: وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاّٰ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ و فی ذکر «من»قبل«إله»نفی أقوی لأی معبود آخر.

ثمّ ینذرهم بلهجه قاطعه: وَ إِنْ لَمْ یَنْتَهُوا عَمّٰا یَقُولُونَ لَیَمَسَّنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ .

یقول بعضـهم أن«من»فی«منهم»بیانیه،و لکن الظاهر أنّها تبعیضـیه تشـیر إلی الـذین بقوا علی کفرهم حتی بعد أن دعا القرآن إلی التوحید،لا الذین تابوا و رجعوا.

یذکر صاحب«المنار»قصّه فی المجال تکشف عن غموض تثلیث النصاری

۱- ۱) -ورد فی بعض الرّوایـات،و کـذلک بعض التواریـخ أنّ بین المسـیحیین أقلیه لا تؤمن بالتثلیث،بل یعتقـدون اتحاد عیسـی باللّه،و لکننا لا نری لهؤلاء فی هذا العصر اسم و لا رسم.

و توحیدهم نقلا عن صاحب(إظهار الحقّ)قال:

«نقل أنّه تنصر ثلاثه أشخاص،و علمهم بعض القسیسین العقائد الضروریه، سیما عقیده التثلیث و کانوا فی خدمته،فجاء أحد المسیحیین إلی هذا القسیس، و سأله عمن تنصّر.فقال:ثلاثه أشخاص تنصّروا فسأله:هل تعلموا شیئا من العقائد الضروریه؟فقال:نعم،و استدعی واحدا منهم لیریه ذلک فسأله القسیس عن عقیده التثلیث،فقال:إنّک علمتنی أن الآلهه ثلاثه،أحدهم فی السماء،و الثّانی تولد من بطن مریم العذراء،و الثّالث الذی نزل فی صوره الحمامه علی الإله الثّانی بعد ما صار ابن ثلاثین سنه،فغضب القسیس و طرده و قال:هذا جاهل.

ثمّ طلب الآخر منهم سأله فقال:إنّک علمتنی أن الآلهه کانوا ثلاثه و صلب واحد منهم فالباقی إلهان،فغضب علیه القسیس-أیضا- و طرده.

ثمّ طلب الثّالث و کان ذکیا بالنسبه إلی الأولین و حریصا فی حفظ العقائد، فسأله،فقال:یا مولای،حفظت ما علمتنی حفظا جیدا،و فهمت فهما کاملا بفضل السید المسیح:أن الواحد ثلاثه و الثلاثه واحد،و صلب واحد منهم و مات،فمات الکل لأجل الاتحاد،و لا إله الآن،و إلاّ یلزم نفی الاتحاد! فی الآیه الثالثه یدعوهم القرآن إلی أن یتوبوا عن هذه العقیده الکافره لکی یغفر لهم اللّه تعالی،فیقول: أَ فَلاٰ یَتُوبُونَ إِلَی اللّٰهِ وَ یَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ .

الآيات [سوره المائده (۵): الآيات ۷۵ الى ۷۷]

اشاره

مَا اَلْمَسِيحُ اِبْنُ مَرْيَمَ إِلاّٰ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ اَلرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَهٌ كٰانٰا يَأْكُلاٰنِ اَلطَّعٰامَ اُنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ اَلْآيٰاتِ ثُمَّ اُنْظُرْ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ (۷۵) قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ اَللّٰهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۷۶) قُلْ يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ اَلْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا أَهْوٰاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوٰاءِ اَلسَّبِيلِ (۷۷)

التّفسير

تواصل هذه الآيات البحث الذى جاء فى الآيات السابقه حول غلو المسيحيين فى المسيح عليه السّلام و اعتقادهم بألوهيته،فتفند فى بضع آيات قصار اعتقادهم هذا،و تبدأ متسائله عمّا وجدوه فى المسيح من اختلاف عن باقى الأنبياء حتى راحوا يؤلهونه،فالمسيح ابن مريم قد بعثه اللّه كما بعث سائر الأنبياء من قبله: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاّٰ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .

إذا كان بعثه من قبل اللّه سببا للتأليه و الشرك،فلما ذا لا تقولون القول نفسه بشأن سائر الأنبياء؟

و لكنّنا نعلم أنّ المسيحيين المنحرفين لا يقنعون باعتبار عيسى عليه السّلام مجرّد مبعوث من اللّه،فاعتقادهم العام فى الوقت الحاضر هو اعتباره ابن اللّه،و أنه هو اللّه بمعنى من المعانى و أنّه جاء ليفتدى ذنوب البشر(و لم يأت لهدايتهم و قيادتهم) لذلك أطلقوا عليه اسم«الفادى»أى الذى افتدى بنفسه آثام البشر.

و لمزيد من التوكيد،يقول: وَ أُمُّهُ صِدِّيقَهٌ أى أنّ من تكون له أمّ حملته فى رحمها،و من يكون محتاجا إلى كثير من الأمور،كيف يمكن أن يكون إلها؟!ثمّ إذا كانت أمّه صديقه فذلك لأنّها هى-أيضا-على خط رساله المسيح عليه السّلام،منسجمه معه، و تدافع عن رسالته،لهذا فقد كان عبدا من عباد اللّه المقربين،فينبغى ألاّ يتخذ معبودا كما هو السائد بين المسيحيين الذين يخضعون أمام تمثاله إلى حدّ العباده.

و مرّه أخرى يشير القرآن إلى دليل آخر ينفى الربوبيه عن المسيح عليه السّلام،فيقول:

كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ

.

فهذا الذى يحتاج إلى الطعام،و لو لم يتناول طعاما لعدّه أيّام يضعف عن الحركه،كيف يمكن أن يكون ربّا أو يقرن بالربّ؟! و فى ختام الآيه إشاره وضوح هذه الدلائل من جهه،و إلى عناد أولئك و جهلهم من جهه أخرى،فيقول: اُنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ (1) .

تكرر كلمه«انظر»فى الآيه توجيه للنظر إلى جهتين:إلى الدلائل الواضحه الكافيه لكل شخص،و إلى رد الفعل السلبى المحير المثير للعجب الصادر من هؤلاء.

و لكى يكمل الاستدلال السابق تستنكر الآيه التّاليه عبادتهم المسيح مع أنّهم يعلمون أن له احتياجات بشريه،و إنّه لا قدره له على دفع الضرر عن نفسه أو

1- 1) -الإفک:كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه،و المأفوك:المصروف عن الحقّ،و إن كان عن تقصيره،و من هنا يسمّى إفكا،لأنّه يصد الإنسان عن الحقّ.

نفعها،فکیف یتسنی له دفع الضرر عن الغیر أو نفعهم؟ قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ ما لا یَمْلِکُ لَکُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً ؟ فکثیرا ما تعرّض هو و أتباعه للأذی علی أیدی أعدائهم،و لو لا أنّ اللّه شمله بلطفه لما استطاع أن یخطو خطوه واحده.

و فی النهایه یحذرهم من أن یظنوا أنّ اللّه لا یسمع ما یتقولونه أو لا یعلم ما یکنونه: وَ اللّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ .

ممّا یلفت النظر أنّ مسأله کون المسیح علیه السّلام بشرا ذا حاجات مادیه جسمانیه- و هی ما یستند إلیها القرآن فی هذه الآیه و فی آیات أخری-کانت من أکبر المعضلات بوجه المسیحیین الذین یدعون ألوهیته،فسعوا إلی تبریر ذلک بشتی الأسالیب،حتی أنّهم اضطروا أحیانا إلی القول بثنائیه المسیح:اللاهوت و الناسوت،فهو من حیث لاهوتیته ابن اللّه،بل هو اللّه نفسه و من حیث ناسوتیته فهو جسم و مخلوق من مخلوقات اللّه،و أمثال ذلک من التبریرات التی هی خیر دلاله علی ضعف منطقهم و خطله.

لا بدّ من الالتفات-أیضا-أنّ الآیه استعملت«ما»بمکان«من»و التی تشیر عاده إلی غیر العاقل،و لعل ذلک یفید الشمول بالنسبه للمعبودات و الأصنام المصنوعه من الحجر أو الخشب،فیکون المقصود هو أنّه إذا جاز أن یعبد الناس مخلوقا،جازت کذلک عبادتهم الأصنام،لأنّ هذه المعبودات تتساوی من حیث کونها جمیعا مخلوقات،و أنّ تألیه المسیح علیه السّلام ضرب من عباده الأصنام،لا عباده الإله.

الآیه التّالیه تأمر رسول اللّه علیه السّلام،بعد اتضاح خطأ أهل الکتاب فی الغلو أن یدعوهم بالأدله الجلیه إلی الرجوع عن السیر فی هذا الطریق: قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ لا تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ غَیْرَ الْحَقِّ (۱) .

ص: ۱۱۴

۱- ۱) -«لا تغلو»من ماده«الغلو»و هی بمعنی تجاوز الحدّ،إلاّ أنّها تستعمل للإشاره تجاوز الحدّ بالنسبه لمقام شخص من

إنّ غلو النصارى معروف،إلاّ أنّ غلو اليهود،الذى يشملهم تعبير يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ قد يكون إشاره إلى ما كانوا يقولونه عن العزير و قد اعتبروه ابن اللّه،و لما كان الغلو ينشأ-أكثر ما ينشأ-عن إتباع الضالين أهواءهم،لذلك يقول اللّه سبحانه وَ لاٰ تَتَّبِعُوا أَهْوٰاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوٰاءِ السَّبِيلِ .

و فى هذا إشاره-أيضا-إلى ما انعكس فى التّأريخ المسيحى،إذ أنّ موضوع التثليث و الغلو فى أمر المسيح عليه السّلام لم يكن له وجود خلال القرون الاولى من المسيحيه،و لكن عند ما اعتنق بعض الهنود و أمثالهم من عبده الأصنام المسيحيه أدخلوا فيها شيئا من دينهم السابق،كالتثليث و الشرك.

إنّ الثالوث الهندى(الإيمان بالآلهه الثلاثه:برهما،و فيشنو،و سيغا)،كان تاريخيا أسبق من التثليث المسيحى الذى لا شك أنّه انعكاس لذاك،ففى الآيه الثلاثين من سوره التوبه و بعد ذكر غلو اليهود و النصارى فى مسأله العزير و المسيح عليه السّلام يقول سبحانه يُضٰاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ .

و قد وردت كلمه«ضلوا»فى هذه الآيه مرّتين بالنسبه للكفار الذين اقتبس منهم أهل الكتاب الغلو،و لعل هذا التكرار من باب التوكيد،إذ أنّهم كانوا قبل ذلك من الضّالين،ثمّ لمّا أضلّوا لآخرين بدعواهم وقعوا فى ضلال آخر،و من يسعى لتضليل الآخرين يكون أضلّ منهم فى الواقع،لأنّه يكون قد استهلك قواه لدفع نفسه و دفع الآخرين إلى طريق التعاسه و لحمل آثام الآخرين-أيضا-على كاهله، و هل يرتضى المرء السائر على الطريق المستقيم أن يضيف إلى آثامه آثام غيره أيضا؟

١)

الأشخاص و منزلته،و بالنسبه للأسعار و تستعمل كلمه«الغلاء»و«غلو»السهم على وزنه«دلو»ارتفاعه و تجاوزه مداه،و فى الماء يقال«غليان»و«الغلواء»جموح فى الحيوان،و هى جميعا من أصل واحد،و يرى بعضهم أن الغلو يعنى الإفراط و التفريط معا،و يحصر بعضهم معناه بالتفريط فقط،و يقابله التقصير.

الآيات [سوره المائده (۵): الآيات ۷۸ الی ۸۰]

اشاره

لُعِنَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِی إِسْرائِيلَ عَلیٰ لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَی ابْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (۷۸) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (۷۹) تَریٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ فِی اَلْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (۸۰)

التّفسير

تشير هذه الآيات إلى المصير المشؤوم الذى انتهى إليه الكافرون السابقون، لكى يعتبر به أهل الكتاب فلا يتبعونهم اتباعا أعمى ،فيقول: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِی إِسْرائِيلَ عَلیٰ لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَی ابْنِ مَرْيَمَ .

أمّا لماذا ورد اسما هذين النّبيين دون غيرهما،فللمفسّرين فى ذلك أقوال، فمن قائل:إنّ السبب هو أنّهما كانا أشهر الأنبياء بعد موسى عليه السّلام،و قيل:إنّ السبب هو أنّ كثيرا من أهل الكتاب كانوا يفخرون بأنّهم من نسل داود.

و تذكر الآيه أوّلا أنّ داود كان يلعن السائرين على طريق الكفر و الطغيان.

و يقول بعض:إنّ فى الآيه إشاره إلى حادثتين تأريخيتين أثارتا غضب هذين

النّبيين،فلعنا جمعا من بنى إسرائيل،فداود قد لعن سكان مدينه(أيله)الساحليه المعروفين باسم(أصحاب السبت)،و سيأتى تفصيل تأريخهم فى سوره الأعراف، و عيسى عليه السّلام لعن جمعا من اتباعه ممن أصروا على اتباع طريق الإنكار و المعارضه حتى بعد نزول المائده من السماء.

على كل حال،فالآيه تشير إلى أنّ مجرّد كون الإنسان من بنى إسرائيل،أو من أتباع المسيح دون أن ينسجم مع خط سيرهما،لا يكون مدعاه لنجاته،بل أنّ هذين النّبيين قد لعنا من كان على هذه الشاكله من الناس.

و فى آخر الآيه توكيد لهذا الأمر و بيان للسبب: ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَ كٰانُوا يَعْتَدُونَ .

الآيه التّاليه تؤكّد أنّ هؤلاء لم يعترفوا أبدا بأنّ عليهم يتحملوا أيه مسئوليه اجتماعيه،و لا هم كانوا يتناهون عن المنكر،بل أنّ بعضا من صلحائهم كانوا بسكوتهم و ممالاتهم يشجعون العصاه عمليا كٰانُوا لاٰ يَتَنٰاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لذلك فقد كانت أعمالهم سيئه و قبيحه: لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ .

هنالك فى تفسير هذه الآيه روايات منقوله عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن أهل البيت عليهم السّلام ذات دلالات تعليميه.

ففى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لتأمرن بالمعروف و لتنهون عن المنكر و لتأخذون على يد السفيه و لتأطرنه على الحقّ اطرا،أو ليضربن اللّه قلوب بعضكم على بعض و يلعنكم كما لعنهم» (1) .

و

فى حديث آخر عن الامام الصّادق عليه السّلام فى تفسير كٰانُوا لاٰ يَتَنٰاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ أنّه قال:«أمّا أنّهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم و لا يجلسون مجالسهم،و لكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا فى وجوههم و أنسوا بهم» (2) .

١- ١) -تفسير(مجمع البيان)لهذه الآيه،و فى تفسير القرطبى،ج ۴،ص ٢٢۵٠ حديث مشابه منقول عن الترمذى.

٢- ٢) -تفسير البرهان:ج ١،ص ۴٩٢،و تفسير نور الثقلين:ج ١،ص ۶۶١.

الآیه الثّالثه تشیر إلی معصیه أخری من معاصیهم: تَریٰ کَثِیراً مِنْهُمْ یَتَوَلَّوْنَ الَّذِینَ کَفَرُوا .

من البـدیهی أنّ صداقتهم لأولئک لم تکن صداقه عادیه،بل کانت ممتزجه بأنواع المعاصـی،و کانوا یشـجعون الأعمال و الأفکار الخـاطئه،لـذلک أدانت الآیه فی عباراتهـا الأخیره الأعمـال التی قـدموها لیوم المعاد،تلک الأعمال التی اسـتوجبت غضب اللّه و عذابه الدائم: لَبِئْسَ مٰا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ وَ فِی الْعَذٰابِ هُمْ خٰالِدُونَ .

أمّا من هم المقصودون بتعبیر اَلَّذِینَ کَفَرُوا فإنّ بعضا یقول:إنّهم کانوا مشرکی مکّه الذین صادقوا الیهود.

و یری بعض أنّهم الجبارون و الظالمون الذین کان الیهود قدیما یمدون إلیهم ید الصداقه،و هذا الرأی یؤکّده

الحدیث المنقول عن الإمام الباقر علیه السّلام إذ قال:

«یتولون الملوک الجبارین و یزینون لهم أهواءهم لیصیبوا من دنیاهم» (۱) .

و لیس ثمّه ما یمنع أن تشمل الآیه کلا المعنیین،بل و تکون أعم منهما أیضا.

۱- ۱) -(مجمع البیان)فی تفسیر الآیه المذکوره.

الآيه [سوره المائده (۵): آيه ۸۱]

اشاره

وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ اَلنَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اِتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (٨١)

التّفسير

هـذه الآيه تبيّن لهم طريق النجاه من نهجهم الخاطئ، و هو أنّهم لو كانوا حقا يؤمنون باللّه و برسوله و بما أنزل عليه،لما عقدوا أواصر الصداقه مع أعداء اللّه و لا اعتمدوهم أبدا:

وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ

و لكن الذى يؤسف له هو أنّ الذين يطيعون أوامر اللّه قلّه،و معظمهم خارجون عن نطاق إطاعته و سائرون على طريق الفسق وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ .

من الواضح أنّ كلمه«النّبى»هنا تعنى«رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم»و ذلك لأنّ هذه الكلمه قد استعملت فى القرآن المجيد فى آيات متعدده بهذا المعنى،و هذا الموضوع يتكرر فى عشرات الآيات.

ثمّه احتمال آخر فى تفسير هذه الآيه،هو أنّ الضمير فى«كانوا»يعود على المشركين و عبده الأصنام،أى لو أنّ هؤلاء المشركين الذين يعتمدهم اليهود و يثقون بهم،قد آمنوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن،لما اختارهم اليهود أصدقاء لهم،

و هـذا دليل بيّن على على ضـلال هؤلاء و فسـقهم،و ذلك لأنّهم-على الرغم من زعمهم أنّهم يتبعون الكتب السـماويه-يتخذون عبده الأصنام أصدقاء لهم ما دام هؤلاء مشركين،و لكنّهم يبتعدون عنهم إذا توجهوا إلى اللّه و الكتب السماويه.

بيد أنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى ظاهر الآيات،حيث الضمائر كلّها تعود إلى مرجع واحد هو اليهود.

ص:١٢٠

الآیات [سوره المائده (۵): الآیات ۸۲ الی ۸۶]

اشاره

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ اَلنّاسِ عَداوَةً لِلَّذِینَ آمَنُوا اَلْیَهُودَ وَ اَلَّذِینَ أَشْرَکُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِینَ آمَنُوا اَلَّذِینَ قالُوا إِنّا نَصاری ذلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا یَسْتَکْبِرُونَ (۸۲) وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَی اَلرَّسُولِ تَری أَعْیُنَهُمْ تَفِیضُ مِنَ اَلدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ اَلْحَقِّ یَقُولُونَ رَبَّنا آمَنّا فَاکْتُبْنا مَعَ اَلشّاهِدِینَ (۸۳) وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ ما جاءَنا مِنَ اَلْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ یُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ اَلْقَوْمِ اَلصّالِحِینَ (۸۴) فَأَثابَهُمُ اَللّهُ بِما قالُوا جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها وَ ذلِکَ جَزاءُ اَلْمُحْسِنِینَ (۸۵) وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولئِکَ أَصْحابُ اَلْجَحِیمِ (۸۶)

سبب النّزول

اشاره

المهاجرون الأوّل فی الإسلام:

کثیر من المفسّرین-و منهم الطبرسی فی«مجمع البیان»،و الفخر الرازی،

ص:۱۲۳

و صاحب«المنار»ينقلون فى تفاسيرهم عن المفسّرين السابقين أنّ هذه الآيات قد نزلت بحقّ«النّجاشى»صاحب الحبشه على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أتباعه،و فى تفسير«البرهان»حديث يشرح هذا الموضوع شرحا وافيا.

يمكن تلخيص الرّوايات الإسلاميه و التواريخ و أقوال المفسّرين بهذا الخصوص فى ما يلى:

فى السنوات الاولى من بعثه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعوته العامّه كان المسلمون أقليه ضعيفه،و كانت قريش قد تواصت أن تضيق الخناق على مواليها و أتباعها الذين يؤمنون برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و على هذا فقد أصبح كلّ مسلم واقعا تحت ضغط عشيرته و قومه يومئذ لم يكن عدد المسلمين يكفى للقيام بجهاد تحررى.

و لكى يحافظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على حياه هذه الجماعه القليله،و يهيئ قاعده للمسلمين خارج الحجاز،اختار لهم الحبشه و أمرهم بالهجره إليها قائلا:

«إنّ بها ملكا صالحا لا يظلم و لا يظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل اللّه عزّ و جلّ للمسلمين فرجا».

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقصد النجاشى(النجاشى اسم عام لجميع سلاطين الحبشه،مثل كسرى لملوك إيران،أمّا النجاشى المعاصر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو (أصحمه)،أى العطيه و الهبه بلغه الأحباش).

فهاجر أحد عشر رجلا و أربع نساء من المسلمين إلى الحبشه بحرا على ظهر سفينه صغيره استأجروها،كان ذلك فى شهر رجب من السنه الخامسه من البعثه، و قد أطلق عليها اسم الهجره الاولى.

و لم يمض على ذلك وقت طويل حتى لحقهم جعفر بن أبى طالب و جمع من المسلمين،فكانوا مع السابقين جمعا مؤلفا من ۸۲ رجلا سوى النساء و الصبيان، و شكلت هذه المجموعه النواه الاولى للتجمع الإسلامى المنظم.

كان لفكره هذا الهجره وقع شديد على عبده الأصنام،لأنّهم أدركوا جيدا أنّه

لن یمضی زمن طویل حتی یکون علیهم أن یواجهوا جمعا قویا من المسلمین الذین اعتنقوا الإسلام-بالتدریج-دینا لهم فی أرض الحبشه حیث الأمن و الأمان.

فشمروا عن ساعد الجد لإحباط تلک الفکره،فاختاروا اثنین من فتیانهم الأذکیاء المعروفین بالدهاء و المکر،و هما(عمرو بن العاص)و(عماره بن الولید) و حملوهما مختلف الهدایا و التحف إلی النجاشی لیوغروا صدره علی المسلمین فیطردهم من بلاده،و علی ظهر السفینه التی أقلت هذین إلی الحبشه سکرا و تخاصما إلاّ أنّهما-لکی ینفذا المهمّه التی جاءا من أجلها-نزلا إلی البر الحبشی، و حضرا مجلس النجاشی بکثیر من الأبهه،و خاصّه بعد أن اشتریا ضمائر حاشیه النجاشی بالکثیر من الهدایا و الرشاوی،فوعدهم هؤلاء بالوقوف إلی جانبهما و تأییدها.

بدأ عمرو بن العاص کلامه للنجاشی قائلا:«أیّها الملک،إنّ قوما خالفونا فی دیننا و سبوا آلهتنا،و صاروا إلیک فردهم إلینا».

ثمّ قدما ما حملاه من هدایا إلی النجاشی.

فوعدهم النجاشی أن یبت بالأمر بعد استجواب ممثلی اللاجئین و بعد التشاور مع حاشیته.

و فی یوم آخر عقدت جلسه حافله حضرتها حاشیه النجاشی و جمع من العلماء المسیحیین،و ممثل المسلمین جعفر بن أبی طالب،و مبعوثا قریش،و بعد أن استمع النجاشی إلی أقوال مبعوثی قریش،التفت إلی جعفر و طلب منه بیان ما لدیه.

قال جعفر:یا أیّها الملک سلهم،أ نحن عبید لهم؟ فقال عمرو:لا،بل أحرار کرام.

جعفر:سلهم ألهم علینا دیون یطالبوننا بها؟ عمرو:لا،ما لنا علیکم دیون.

جعفر:فلکم فی أعناقنا دماء تطالبونا بذخول بها؟ عمرو:لا.

جعفر:فما تریدون منّا؟آذیتمونا فخرجنا من دیارکم،ثمّ قال:

«نعم أیّها الملک خالفناهم بعث اللّه فینا نبیّا أمرنا بخلع الأنداد و ترک الاستقسام بالأزلام،و أمرنا بالصّلاه و الزّکاه،و حرّم الظلم و الجور و سفک الدّماء بغیر حقّها،و الزنا و الربا و المیته و الدّم و لحم الخنزیر،و أمرنا بالعدل و الإحسان و إیتاء ذی القربی،و نهانا عن الفحشاء و المنکر و البغی».

فقال النّجاشی:بهذا بعث اللّه عیسی،ثمّ قال النجاشی لجعفر:

هل تحفظ ممّا أنزل اللّه علی نبیّک شیئا؟ قال جعفر:نعم،فقرأ سوره مریم،فلمّا بلغ قوله: وَ هُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ النَّخْلَهِ تُسٰاقِطْ عَلَیْکِ رُطَباً جَنِیًّا قال:هذا و اللّه هو الحقّ.

فقال عمرو:إنّه مخالف لنا فردّه إلینا.

فرفع النجاشی یده و ضرب بها وجه عمرو و قال:اسکت،و اللّه لئن ذکرته بعد بسوء لأفعلنّ بک و قال:ارجعوا إلی هذا هدیته،و قال لجعفر و أصحابه:امکثوا فإنّکم آمنون.

کان لهذا الحدث أثر بالغ بعید المدی،ففضلا عمّا کان له من أثر إعلامی عمیق فی تعریف الإسلام لجمع من أهل الحبشه،فإنّه شد من عزیمه المسلمین فی مکّه و حملهم علی الاطمئنان و الثقه بقاعدتهم فی الحبشه لإرسال المسلمین الجدد إلیها،إلی أن یشتد ساعدهم و تقوی شوکتهم.

و مضت سنوات،و هاجر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المدینه،و ارتفع شأن الإسلام، و تمّ التوقیع علی صلح الحدیبیه،و توجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لفتح خیبر،و فی ذلک الیوم الذی کان فیه المسلمون یکادون یطیرون فرحا لتحطیمهم أکبر قلعه للأعداء الیهود،فإذا بهم یشهدون من بعید قدوم جمع من الناس صوبهم،ثمّ ما لبثوا حتی عرفوا أن أولئک لم یکونوا سوی المهاجرین الأوائل إلی الحبشه و قد عادوا فی

ذلك اليوم إلى أوطانهم بعد أن تحطمت قوى الأعداء الشيطانيه،و قويت جذور شجيره الإسلام الناميه.

و إذ شاهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مهاجرى الحبشه،قال قولته التّأريخيه:«لا أدرى أنا بفتح خيبر أسر أم بقدوم جعفر»؟! يروى أنّ جعفر و أصحابه جاؤوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معهم سبعون رجلا، اثنان و ستون من الحبشه و ثمانيه من أهل الشام فيهم بحيراء الراهب،فقرأ عليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سوره«يس»إلى آخرها فبكوا حتى سمعوا القرآن و آمنوا و قالوا:

ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى،فأنزل اللّه فيهم هذه الآيات.

و روى عن سعيد بن جبير فى سبب نزول الآيه أنّ النجاشى أرسل ثلاثين شخصا من أخلص أتباعه إلى المدينه لإظهار حبّه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و للإسلام، أولئك هم الذين استمعوا إلى آيات سوره«يس»فأسلموا،فنزلت الآيات المذكوره تقديرا لأولئك المؤمنين.

(لا يتعارض سبب النّزول هذا مع كون سوره المائده قد نزلت فى أواخر عمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)،إذ أنّ هذا القول يرجع إلى معظم آيات السوره،و ليس ثمّه ما يمنع أن تكون بعض تلك الآيات قد نزلت فى حوادث سابقه،ثمّ وضعت-لأسباب-بأمر من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذه السّوره.

التّفسير

اشاره

حقد اليهود و مودّه النصارى:

تقارن هذه الآيات بين اليهود و النصارى الذين عاصروا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فى الآيه الاولى وضع اليهود و المشركون فى طرف واحد و المسيحيون فى طرف آخر: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنّا نَصارى .

يشهد تاريخ الإسلام،بجلاء على هذه الحقيقه،ففى كثير من الحروب التى

أثيرت ضد المسلمين كان لليهود ضلع فيها،بصوره مباشره أو غير مباشره،و لم يتورعوا عن التوسل بأيه وسيله للتآمر،و قليل منهم اعتنق الإسلام،و لكننا قلّما نجد المسلمين يواجهون المسيحيين فى غزواتهم،كما أنّ الكثيرين منهم التحقوا بصفوف المسلمين.

ثمّ يعزوا القرآن هذا الاختلاف فى السلوك الفردى و الاجتماعى إلى وجود خصائص فى المسيحيين المعاصرين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم تكن موجوده فى اليهود:

فأوّلا كان بينهم نفر من العلماء لم يسعوا-كما فعل علماء اليهود-إلى إخفاء الحقائق ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ (1) .

ثمّ كان منهم جمع من الزهاد الذين تركوا الدنيا،و هى النقطه المناقضه لما-كان يفعله بخلاء اليهود الجشعين.

و على الرغم من كلّ انحرافاتهم كانوا على مستوى أرفع بكثير من مستوى اليهود:«و رهبانا».

و كثير منهم كانوا يخضعون للحق،و لم يتكبروا،فى حين كان معظم اليهود يرون أنّهم عنصر أرفع،فرفضوا قبول الإسلام الذى لم يأت على يد عنصر يهودى:

وَ أَنَّهُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ

.

ثمّ إنّ نفرا منهم كانوا إذا استمعوا لآيات من القرآن تنحدر دموعهم مثل من صحب جعفر من الأحباش لأنّهم يعرفون الحقّ إذا سمعوه: وَ إِذٰا سَمِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّٰا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .

فكانوا ينادون بكل صراحه و شجاعه، يَقُولُونَ رَبَّنٰا آمَنّٰا فَاكْتُبْنٰا مَعَ الشّٰاهِدِينَ .

لقد كان تأثرهم بالآيات القرآنيه من الشده بحيث أنّهم كانوا يقولون: وَ مٰا لَنٰا لاٰ نُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ مٰا جٰاءَنٰا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنٰا رَبُّنٰا مَعَ الْقَوْمِ الصّٰالِحِينَ .

سبق أن قلنا إنّ هذه المقارنه كانت بين اليهود و النصارى المعاصرين لرسول

ص: ١٢٨

١- ١) -«القسيس»تعريب لكلمه سريانيه تعنى الزعيم و الموجه الدينى عند المسيحيين.

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فاليهود-و إن كانوا من أصحاب الكتب السماويه-بلغت شده تعلقهم بالماده و حبّهم لها أن انخرطوا فى سلك المشركين الذين لم يكن يربطهم بهم أى وجه شبه مشترك،مع أن اليهود فى البدايه كانوا من المبشرين بمجىء الإسلام و لم تكن قد دخلتهم انحرافات كالتثليث و الغلو اللذين كانا عند المسيحيين،غير أن حبّهم للدنيا حبّ عباده قد أبعدهم عن الحقّ،بينما معاصروهم المسيحيون لم يكونوا على هذه المشاكله.

إلاّ أنّ التّأريخ القديم و المعاصر يقول لنا:أنّ المسيحيين فى القرون التى أعقبت ذلك قد ارتكبوا بحق الإسلام و المسلمين جرائم لا تقل عمّا فعله اليهود فى هذا المجال.

إنّ الحروب الصليبيه الطّويله و الدّمويه فى القرون الماضيه،و الاستفزازات الكثيره التى يقوم بها الاستعمار ضد الإسلام و المسلمين اليوم غير خافيه على أحد،لذلك ليس لنا أن نأخذ الآيات المذكوره مأخذ قانون عام بالنسبه لجميع المسيحيين،بل إنّ الآيه: إِذٰا سَمِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ... و ما بعدها دليل على إنّها نزلت بحق جمع من المسيحيين الذين كانوا يعاصرون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الآيتان الأخيرتان فيهما إشاره إلى مصير هاتين الطائفتين و إلى عقابهما و ثوابهما،أولئك الذين أظهروا الموده للمؤمنين و خضعوا لآيات اللّه و أظهروا إيمانهم بكل شجاعه و صراحه: فَأَثٰابَهُمُ اللّٰهُ بِمٰا قٰالُوا جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ ذٰلِكَ جَزٰاءُ الْمُحْسِنِينَ (۱) .

و أمّا أولئك الذين ساروا فى طريق العداء و العناد فتقول الآيه عنهم: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ الْجَحِيمِ .

ص :۱۲۹

۱- ۱) -«أثابهم»من الثواب،و هى فى الأصل بمعنى العوده و ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله.

الآیات [سوره المائده (۵): الآیات ۸۷ الی ۸۹]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا طَیِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اَللّٰهُ لَکُمْ وَ لاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ اَلْمُعْتَدِینَ (۸۷) وَ کُلُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اَللّٰهُ حَلاٰلاً طَیِّباً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ اَلَّذِی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۸۸) لاٰ یُؤٰاخِذُکُمُ اَللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِی أَیْمٰانِکُمْ وَ لٰکِنْ یُؤٰاخِذُکُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ اَلْأَیْمٰانَ فَکَفّٰارَتُهُ إِطْعٰامُ عَشَرَهِ مَسٰاکِینَ مِنْ أَوْسَطِ مٰا تُطْعِمُونَ أَهْلِیکُمْ أَوْ کِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِیرُ رَقَبَهٍ فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیٰامُ ثَلاٰثَهِ أَیّٰامٍ ذٰلِکَ کَفّٰارَهُ أَیْمٰانِکُمْ إِذٰا حَلَفْتُمْ وَ اِحْفَظُوا أَیْمٰانَکُمْ کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اَللّٰهُ لَکُمْ آیٰاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۸۹)

سبب النّزول

اشاره

لا تتجاوزوا الحدود!

ثمّه روایات متعدده وردت بشأن نزول هذه الآیات منها:فی أحد الأیّام أخذ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یصف بعض ما یجری یوم القیامه و حال الناس فی تلک المحکمه الإلهیه العظمی،فهزّ الوصف نفوس الناس و راح بعضهم یبکی،و علی أثر ذلک عزم بعض أتباع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی ترک بعض لذائذ الحیاه و رفاهها،و أن ینصرف

بدلا من ذلک إلى العباده،فأقسم أمیر المؤمنین علیه السّلام أن ینام من اللیل أقلّه و یصرفه فی العباده،و أقسم بلال أن یصوم أیّامه کلّها،و أقسم عثمان بن مظعون أن یترک إتیان زوجته و أن ینقطع إلى العباده.

جاءت زوجه عثمان بن مظعون-و کانت امرأه جمیله-یوما إلى عائشه فعجبت عائشه من حالها فقالت:ما لی أراک متعطله؟فقالت:لمن أتزین؟فو اللّه ما قاربنی زوجی منذ کذا و کذا فانّه قد ترهب و لبس المسوح و زهد فی الدنیا،فبلغ ذلک رسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم،فجاء إلیهم و أخبرهم أن ذاک خلاف سنّته و قال:«فمن رغب عن سنتی فلیس منی»ثمّ جمع الناس و خطبهم و قال:

«ما بال أقوام حرموا النساء و الطعام و الطیب و النوم و شهوات الدنیا، أمّا إنّی لست آمرکم أن تکونوا قسیسین و رهبانا،فإنّه لیس فی دینی ترک اللحم و لا النساء و لا اتّخاذ الصوامع،و إنّ سیاحه أمّتی الصوم و رهبانیتهم الجهاد،اعبدوا اللّه و لا تشرکوا به شیئا و حجوا و اعتمروا و أقیموا الصّلاه و آتوا الزّکاه و صوموا رمضان،و استقیموا یستقم لکم،فإنّما هلک من کان قبلکم بالتشدید،شددوا على أنفسهم فشدّد اللّه علیهم...».

فقام الذین کانوا قد أقسموا على ترک تلک الأمور و قالوا:یا رسول اللّه،لقد أقسمنا على ذلک،فما ذا نفعل؟فنزلت الآیات المذکوره جوابا لهم (1) .

لا بدّ من القول بأنّ قسم البعض مثل قسم عثمان بن مظعون لم یکن مشروعا لما فیه من غمط لحقوق زوجته،و لکن فیما یتعلق بقسم الإمام علی علیه السّلام بإحیاء اللیل بالعباده،فإنّه کان أمرا مباحا،و لکن المستفاد من الآیات هو أنّ الاولى أن لا یکون ذلک بصوره مستمره و دائمه،و لا یتعارض مع عصمه علی علیه السّلام،لأننا نقرأ بما

1- 1) -ما ذکر أعلاه فی سبب النّزول،قسم منه مأخوذ من تفسیر علی بن إبراهیم،و قسم من تفسیر مجمع البیان و تفاسیر أخرى.

يشبه ذلک بالنسبه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآيه الاولى من سوره التحريم: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَکَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِکَ .

التّفسير

اشاره

القسم و كفارته:

فى هـذه الآـيه و الآيـات التّـاليه لها مجموعه من الأحكام الإسـلاميه المهمّه، بعضـها يشـرع لأوّل مرّه،و بعض آخر جاء توكيـدا و توضـيحا لأحكـام سـابقه وردت فى آيات اخرى من القرآن،لأنّ هـذه السوره-كما سـبق أن قلنا-نزلت فى أواخر عمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكان لا بدّ من التأكيد فيها على أحكام اسلاميه مختلفه.

فى الآيه الاولى إشاره إلى قيام بعض المسلمين بتحريم بعض النعم الإلهيه.

فنهاهم اللّه عن ذلک قائلا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ (1) .

إنّ ذكر هـذا الحكم،مع أخـذ سـبب النّزول بنظر الإعتبار،قد يكون إشاره إلى أنّه إذا كان فى الآيات السابقه شـىء من الثناء على فريق من علمـاء المسـيحيه و رهبانهـا لتعـاطفهم مع الحقّ و التسـليم له،لا ـلـتركهم الـدنيا و تحريم الطيبـات،و ليس للمسـلمين أن يقتبسـوا منهـم ذلـک،فبــذكر هــذا الحكـم يعلـن الإســلام صــراحه اســتنكار الرهبنـه و هجر الــدنيا كمـا يفعـل المســيحيون و المرتاضون(ثمّه شرح أوفى لهذا الموضوع فى تفسير الآيه(٢٧)من سوره الحديد: ...وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا .

ثمّ لتوكيد هذا الأمر تنهى الآيه عن تجاوز الحدود،لأنّ اللّه لا يحبّ الذين يفعلون ذلک وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

و فى الآـيه التى تليها آخر للأمر،إلّا أنّ الآيه السابقه كان فيها نهى عن التحريم،و فى هـذه الآيه أمر بالانتفاع المشـروع من الهبات الإلهيه،فيقول:

١- ١) -فى معنى«الحلال»و«الطيب»أنظر المجلد الأول من هذا التفسير.

وَ کُلُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اللّٰهُ حَلاٰلاً طَیِّباً

.

و الشرط الوحید لذلک هو الاعتدال و التقوی عند التمتع بتلک النعم: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ أی أنّ إیمانکم باللّه یوجب علیکم احترام أوامره فی التمتع و فی الاعتدال و التقوی.

هناک احتمال آخر فی تفسیر هذه الآیه،و هو أنّ الأمر بالتقوی یعنی إن تحریم المباحات و الطیبات لا یأتلف مع درجات التقوی المتکامله الرفیعه، فالتقوی تستلزم أن لا یتجاوز الإنسان حد الاعتدال من جمیع الجهات.

و الآیه التی بعدها تتناول القسم الذی یقسم به الإنسان فی حاله تحریم الحلال و فی غیره من الحالات بشکل عام،و یمکن القول أنّ القسم نوعان:

فالاولی:هو القسم اللغو،فیقول: لاٰ یُؤٰاخِذُکُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِی أَیْمٰانِکُمْ .

فی تفسیر الآیه(۲۲۵)من سوره البقره-التی تتناول موضوع عدم وجود عقاب علی اللغو فی الأیمان-قلنا:إنّ المقصود باللغوّ فی الأیمان-کما یقول المفسّرون و الفقهاء-الأیمان التی لیس لها هدف معین و لا تصدر عن وعی و عزم إرادی،و إنما هی قسم یحلف به المرء من غیر تمعن فی الأمر فیقول:و اللّه و باللّه، أو لا و اللّه و لا باللّه،أو إنّه فی حاله من الغضب و الهیاج یقسم دون وعی.

و یقول بعضهم:إنّ الإنسان إذا کان واثقا من أمر فاقسم به،ثمّ ظهر أنّه قد أخطأ،فقسمه-یعتبر أیضا-من نوع اللغو فی الأیمان،کأن یتیقن أحدهم من خیانه زوجته علی أثر سعایه بعض الناس و وشایتهم،فیقسم علی طلاقها،ثمّ یتّضح له أن ما سمعه بحقّها کان کذبا و افتراء،فإنّ قسمه ذاک لا اعتبار له،إننا نعلم أیضا أنّه بالإضافه إلی توفر القصد و الإراده و العزم فی القسم الجاد،یجب أن یکون محتواه غیر مکروه و غیر محرم،و علیه إذا أقسم أحدهم مختارا أن یرتکب عملا محرما أو مکروها ،فإن قسمه لا قیمه له و لا یلزمه الوفاء به،و یحتمل أن یکون مفهوم«اللغو»فی هذه الآیه مفهوما واسعا یشمل هذا النوع من الأیمان

أيضا.

و القسم الثّانی:هو القسم الجاد الإرادی الـذی قرره المرء بوعی منه،هـذا النوع من القسم هو الـذی یعاقب علیه اللّه إذا لم یف به الإنسان: وَ لٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ .

کلمه«العقد»تعنی فی الأصل-کما قلنا فی بدایه سوره المائده-جمع أطراف الشیء جمعا محکما.

و منه تسـمیه ربط طرفی الحبل ب«العقـده»ثمّ انتقل هذا المعنی إلی الأمور المعنویه،فأطلق علی کل اتفاق و عهد اسم العقد،فعقد الأیمان-کما فی الآیه- یعنی التعهد بکل جد و عزم و تصمیم علی أمر ما بموجب القسم.

بدیهی أن الجد وحده فی القسم لا یکفی لصـحته،بل لا بدّ أیضا من صحه محتواه-کما قلنا-و أن یکون أمرا مباحا فی الأقل،کما لا بدّ من القول بأنّ القسم بغیر اسم اللّه لا قیمه له.

و علیه إذا أقسم إمرؤ بـاللّه أن یعمـل عملاـ محمودا،أو مباحـا علی الأقـل، فیجب علیه أن یعمل بقسـمه،فإن لم یفعل،فعلیه کفاره التخلف.

و کفاره القسم هی ما ورد فی ذیل الآیه المذکوره،و هی واحده من ثلاثه:

الأولی: فَكَفّٰارَتُهُ إِطْعٰامُ عَشَرَةِ مَسٰاكِينَ ،و لکیلا یؤخـذ هـذا الحکم علی إطلاقه بحیث یصار إلی أی نوع من الطعام الـدنیء و القلیل،فقد جاء بیان نوع الطعام بما لا یقل عن أوسط الطعام الذی یعطی لأفراد العائله عاده: مِنْ أَوْسَطِ مٰا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ .

ظـاهر الآـیه یـدل علی النوعیه المتوسـطه،و لکن یحتمـل أنّه إشاره إلی الکمیه و الکیفیه کلیهما،فقـد جاء عن الإمام الصادق علیه السّـلام أنّه الحـد الوسط من الکیفیه،و عن الإمام الباقر علیه السّـلام أنّه الحدّ الوسط من الکمیه،الأمر الذی یدل علی أن المطلوب هو

الحد الوسط من كليهما (۱) .

و لا حاجه للقول بأنّ«الحدّ الوسط»سواء فى الكميه أو الكيفيه،يختلف باختلاف المدن و القرى و الأزمنه.

و قد احتمل بعضهم تفسيرا آخر للأوسط،و هو أنّه يعنى الجيد الرفيع،و هما من معانى«الأوسط»كما نقرأ فى الآيه(۲۸)من سوره القلم: قٰالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لاٰ تُسَبِّحُونَ .

الثّانيه: أَوْ كِسْوَتُهُمْ .

من الطبيعى أنّ ذلك يعنى الملابس التى تغطى الجسم حسب العاده،لذلك ورد فى بعض الرّوايات أنّ الإمام الصادق عليه السّلام بيّن أنّ المقصود بالكسوه فى هذه الآيه قطعتا اللباس(الثوب و السروال)،أمّا الروايه المنقوله عن الإمام الباقر عليه السّلام بأن ثوبا واحدا يكفى،فربّما تكون إشاره إلى الثوب العربى الطويل المعروف و الذى يكسو الجسم كلّه،أمّا بشأن النسوه فلا شك أنّ ثوبا واحدا لا يكفى،بل لا بدّ من غطاء للرأس و الرقبه،و هذا هو الحدّ الأدنى لكسوه المرأه لذلك لا يستبعد أن تكون الكسوه التى تعطى كفاره تختلف أيضا باختلاف الفصول (۲) و الأمكنه و الأزمنه.

أمّا من حيث الكيفيه،و هل يكفى الحد الأدنى،أم ينبغى مراعاه الحد الأوسط؟فإن للمفسرين رأيين فى ذلك:

۱-إن كل كسوه تكفى إذا أخذت الآيه على إطلاقها.

۲-إنّه ما دمنا قد راعينا الحدّ الأوسط فى الإطعام،فلا بدّ أن نراعى هذا الحد فى الكساء أيضا،غير أن الرأى الأوّل أكثر انسجاما مع إطلاق الآيه.

الثّالثه: أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .

۱- ۱) -«نور الثقلين»،ج ۱،ص ۶۶۶ و تفسير«البرهان»،ج ۱،ص ۴۹۶.

۲- ۲) -ثمّه حديث بهذا الشأن عن الإمام الباقر عليه السّلام أو الإمام الصادق عليه السّلام أنظر تفسير«البرهان»،ج ۱،ص ۴۹۶.

و إن كانت الآيه مطلقه فی الظاهر.

و هذا ما يدل على أنّ الإسلام يتوسل بطرق مختلفه لتحرير العبيد،أمّا فی الوقت الحاضر حيث يبدو أنّه لا وجود للرق،فإنّ على المسلمين أن يختاروا واحده من الكفارتين المتقدمتين.

ليس ثمّه شک فی أنّ هذه المواضيع الثلاثه متباينه من حيث قيمتها تباينا كبيرا،و لعل القصد من هذا التباين هو حريه الإنسان فی إختيار الكفاره التی تناسبه و تناسب إمكاناته الماديه.

و لكن قد يوجد من لا قدره له على أیّ منها،لذلک فإنّه بعد بيان تلک الأحكام يقول سبحانه و تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيّامٍ .

إذن،فصيام ثلاثه أيّام مقصور على الذين لا قدره لهم على تحقيق أی من الكفارات الثلاث السابقه، ثمّ يؤكّد القول ثانيه: ذٰلِکَ كَفّارَةُ أَيْمٰانِكُمْ إِذٰا حَلَفْتُمْ .

و مع ذلک،فلکی لا يظن أحد أنّه بدفع الكفاره يجوز للمرء أن يرجع عن قسم صحيح أقسمه،يقول تعالى: وَ احْفَظُوا أَيْمٰانَكُمْ .

و بعباره أخرى:إنّ الالتزام بالقسم واجب تكليفی،و عدم تنفيذه حرام، و الكفاره تأتی بعد الرجوع عن القسم.

فی ختام الآيات يبيّن القرآن أنّ هذه الآيات توضح لكم الأحكام التی تضمن سعاده الفرد و المجتمع و سلامتها لتشكروه على ذلک: كَذٰلِکَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

الآیات [سوره المائده (۵): الآیات ۹۰ الی ۹۲]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنَّمَا اَلْخَمْرُ وَ اَلْمَیْسِرُ وَ اَلْأَنْصابُ وَ اَلْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ اَلشَّیْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۹۰) إِنَّما یُرِیدُ اَلشَّیْطانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمُ اَلْعَداوَهَ وَ اَلْبَغْضاءَ فِی اَلْخَمْرِ وَ اَلْمَیْسِرِ وَ یَصُدَّکُمْ عَنْ ذِکْرِ اَللّهِ وَ عَنِ اَلصَّلاهِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (۹۱) وَ أَطِیعُوا اَللّهَ وَ أَطِیعُوا اَلرَّسُولَ وَ اِحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلی رَسُولِنَا اَلْبَلاغُ اَلْمُبِینُ (۹۲)

سبب النّزول

تذکر التفاسیر الشیعیه و السنّیه روایات متعدده عن سبب نزول الآیه الاولی تکاد تکون متشابهه،من ذلک أنّه جاء فی تفسیر«الدر المنثور»عن سعد بن أبی وقاص أنّه قال:إنّ هذه الآیه قد نزلت بشأنی.کان أنصاری قد أعد طعاما دعانا إلیه مع جمع من الناس،فتناولوا الطعام و شربوا الخمر،و کان هذا قبل تحریمها فی الإسلام،و عند ما صعدت النشوه إلی رؤوسهم أخذوا یتفاخرون و ارتفع بینهم الکلام شیئا فشیئا حتی وصل الأمر بأحدهم أن تناول عظم بعیر فضربنی به علی أنفی فشجه فقمت إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و حکیت له ما جری،فنزلت الآیه المذکوره.

ص: ۱۳۷

و فی«مسند أحمد»و«سنن أبی داود»و«النسائی»و«الترمذی»أنّ عمر (و کان یکثر من الخمر کما جاء فی تفسیر«فی ظلال القرآن»ج ۳،ص ۳۳)کان یدعو اللّه أن ینزل حکما واضحا فی الخمر،و عند ما نزلت الآیه(۲۱۹)من سوره البقره یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ.. قرأها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و لکنّه ظل یکرر دعاءه و یطلب مزیدا من التوضیح حتی نزلت الآیه(۴۳)من سوره النساء:

یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَقْرَبُوا الصَّلاٰهَ وَ أَنْتُمْ سُکٰاریٰ فقرأها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا،غیر أنّه استمر فی دعاءه،حتی نزلت الآیه التی نحن بصددها موضحه الحکم بشکل کامل،و عند ما قرأها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی عمر،فقال:انتهینا انتهینا (۱) !

التّفسیر

اشاره

مراحل تحریم الخمر و حکمها النهائی:

سبق أنّ ذکرنا فی المجلد الثّالث من هذا التّفسیر فی ذیل الآیه(۴۳)من سوره النساء،إنّ معاقره الخمر فی الجاهلیه و قبیل الإسلام کانت منتشره انتشارا أشبه بالوباء العام،حتی قیل:أنّ حبّ عرب الجاهلیه کان مقصورا علی ثلاثه:

الشعر و الخمر و الغزو.

و یستفاد من بعض الرّوایات،أنّه حتی بعد تحریم الخمر فإن الإقلاع عنها کان شاقّا علی بعض المسلمین،حتی قالوا:ما حرم علینا شیء أشد من الخمر (۲) ! من الواضح أنّ الإسلام لو أراد أن یحارب هذا البلاء الکبیر الشامل بغیر أن یأخذ الأوضاع النفسیه و الاجتماعیه بنظر الإعتبار لتعذر الأمر و شق تطبیق التحریم،لذلک اتخذ أسلوب التحریم التدریجی و إعداد الأفکار و الأذهان لاقتلاع

۱- ۱) -تفسیر«المنار»،ج ۷،ص ۵۰.

۲- ۲) -نفس المصدر،ج ۷،ص ۵۱.

هـذه الآـفه من جـذورها،و هى العـاده التى كانت قـد تأصـلت فى نفوسـهم،و عروقهم، ففى أوّل الأمر وردت إشارات فى الآيات المكيه تستقبح شرب الخمر،كما فى الآيه(۶۷)من سوره النحل: وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنٰابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً .

فهنا«سـكر»و تعنى الشـراب المسـكر الذى كانوا يسـتخرجونه من التمر و العنب، قد وضع فى قبال الرزق الحسن،فاعتبره شرابا غير طيب بخلاـف الرزق الحسن،إلاّ أنّ تلك العاده الخبيثه-عاده معاقره الخمره-كانت أعمق من أن تسـتأصل بهـذه الإشارات،ثمّ أنّ الخمر كانت تؤلف جانبا من دخلهم الاقتصادى لذلك،عند ما هاجر المسلمون إلى المدينه و أسسوا أولى الحكومات الإسلاميه، نزلت آيه ثـانيه أشـد فى تحريم الخمر من الاـولى،لكى تهيئ الأذهـان أكثر إلى التحريم النهـائى،تلـك هى الآيه(۲۱۹)من سوره البقره: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمٰا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنٰافِعُ لِلنّٰاسِ وَ إِثْمُهُمٰا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمٰا .

فها هنا إشاره إلى منافع الخمر الاقتصاديه لبعض المجتمعات،كالمجتمع الجاهلى،مصحوبه بإشاره إلى أخطارها الكبيره و مضارها التى تفوق كثيرا منافعها الاقتصاديه.

ثمّ فى الآيه(۴۳)من سوره النسـاء: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَقْرَبُوا الصَّلاٰهَ وَ أَنْتُمْ سُـكٰارىٰ حَتّٰى تَعْلَمُوا مٰا تَقُولُونَ يأمر اللّه المسـلمين أمرا صريحا بأن لا يقيموا الصّلاه و هم سكارى حتى أدركوا ما يقولونه أمام اللّه.

واضـح أنّ هـذا لم يكن يعنى أنّ شـرب الخمر فى غير الصّـلاه جايز،بل هى مسأله التدرج فى تحريم الخمر مرحله مرحله،أى أنّ هذه الآيه كأنّها تلتزم الصمت و لا تقول شيئا صراحه فى غير مواقع الصّلاه.

إنّ تقدم المسـلمين فى التعرف على أحكام الإسلام و استعدادهم الفكرى لاستئصال هذه المفسده الاجتماعيه الكبيره التى كانت متعمقه فى نفوسهم،أصبحا

سببا فی نزول آیه صریحه تماما فی تحریم الخمر حتی سدت الطریق أمام الذین کانوا یتصیدون الأعذار و المسوغات،و هذه الآیه هی موضوع البحث.

و إنّه لمما یستلفت النظر أنّ تحریم الخمره یعبر عنه فی هذه الآیه بصوره متنوعه:

۱-فالآیه تبدأ بمخاطبه المؤمنین: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أی أنّ عدم الصدوع بهذا الأمر لا ینسجم مع روح الإیمان.

۲-استعمال«إنّما»التی تعنی الحصر و التوکید.

۳-وضعت الخمر و القمار إلی جانب الأنصاب (۱) (و هی قطع أحجار لا صوره لها کانت تتخذ کالأصنام)للدلاله علی أنّ الخمر و القمار لا یقلان ضررا عن عباده الأصنام،و لهذا

جاء فی حدیث شریف أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «شارب الخمر کعابد الوثن» (۲) .

۴-الخمر و القمار و عباده الأصنام،و الاستقسام و الأزلام(ضرب من الیانصیب) (۳) کلها قد اعتبرها القرآن رجسا و خبثا: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَیْسِرُ وَ الْأَنْصٰابُ وَ الْأَزْلاٰمُ رِجْسٌ .

۵-و هذه الأعمال القبیحه کلّها من أعمال الشیطان: مِنْ عَمَلِ الشَّیْطٰانِ .

۶-و أخیرا یصدر الأمر القاطع الواجب الإتباع: فَاجْتَنِبُوهُ .

لا بدّ من التنویه بأنّ لتعبیر«فاجتنبوه»مفهوما أبعد،إذ أنّ الاجتناب یعنی الابتعاد و الانفصال و عدم الاقتراب،ممّا یکون أشد و أقطع من مجرّد النهی عن شرب الخمر.

۷-و فی الختام یقول تعالی أن ذلک: لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ أی لا فلاح لکم بغیر

۱- ۱) -انظر المجلد الثّالث،من هذا التّفسیر بشأن الأنصاب و النصیب.

۲- ۲) -هامش تفسیر الطبری،ج ۷،ص ۳۱،و قد جاء هذا الحدیث فی تفسیر«نور الثقلین»،ج ۱،ص ۶۹ عن الإمام الصادق علیه السّلام.

۳- ۳) -انظر شرح کیفیه الأزلام فی المجلد الثالث من هذا التّفسیر.

ذلک.

۸-و فی الآیه التّالیه لها یعدد بعضا من أضرار الخمر و القمار،التی یرید الشیطان أن یوقعها بهم: إِنَّما یُرِیدُ الشَّیْطانُ أَنْ یُوقِعَ بَیْنَکُمُ الْعَداوَهَ وَ الْبَغْضاءَ فِی الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ وَ یَصُدَّکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللّهِ وَ عَنِ الصَّلاهِ .

۹-و فی ختام هذه الآیه یتقدم باستفهام تقریری: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ أی بعد کل هذا التوکید و التوضیح،ثمّه مکان لخلق المبررات أو للشک و التردد فی تجنب هذین الإثمین الکبیرین؟لذلک نجد أنّ عمر الذی کان شدید الولع بالخمر(کما یقول مفسرو أهل السنه)و الذی کان-لهذا السبب-لا یری فی الآیات السابقه ما یکفی لمنعه،قال عند ما سمع هذه الآیه:انتهینا،انتهینا!لأنّه رأی فیها الکفایه.

۱۰-فی الآیه الثالثه التی تؤکّد هذا الحکم،یأمر المسلمین: وَ أَطِیعُوا اللّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا .

ثمّ یتوعد المخالفین بالعقاب،و أنّ مهمّه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هی الإبلاغ: فَإِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلی رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِینُ .

الآثار المهلکه للخمر و المیسر:

علی الرغم من أننا أشرنا فی تفسیر الآیه(۲۱۹)من سوره البقره فی المجلد الثّانی من هذا التّفسیر إشاره موجزه أضرار هاتین الآفتین الاجتماعیتین،إلاّ أنّنا لتوکید الأمر-اقتداء بالقرآن الکریم-نضیف هنا أمورا أخری هی مجموعه من الإحصاءات المختلفه کل واحده منها تعتبر شهاده وافیه تدل علی عظم تلک الأضرار و عمق تأثیرها.

۱-فی إحصائیه صدرت فی بریطانیا بشأن الجنون الکحولی و مقارنته بالجنون العادی،جاء أنّه فی مقابل(۲۲۴۹)مجنونا بسبب الإدمان علی الخمر

هناک(۵۳)مجنونا فقط لأسباب مختلفه أخری (۱) .

۲-و فی إحصاء آخر من أمریکا أنّ ۸۵٪من المصابین بأمراض نفسیه هم من المدمنین علی الخمر (۲) .

۳-یقول عالم إنجلیزی اسمه(بنتام):أنّ المشروبات الکحولیه تحول أهالی الشمال إلی أناس حمقی و بله،و أهالی الجنوب إلی مجانین،ثمّ یضیف:إنّ الدین الإسلامی یحرم جمیع أنواع المسکرات،و هذا واحد من ممیزات الإسلام (۳) .

۴-لو أجری إحصاء عن السکاری الذین انتحروا،أو ارتکبوا الجرائم و حطموا العوائل،لکان لدینا رقم رهیب (۴) .

۵-فی فرنسا یموت کلّ یوم ۴۴۰ شخصا ضحیه للخمور (۵) .

۶-تقول إحصائیه أخری من أمریکا:أنّ عدد المرضی النفسانیین خلال سنه واحده بلغ ضعف قتلاها فی الحرب العالمیه الثّانیه،و یری العلماء الأمریکان أنّ السببین الرئیسیین لهذا هما المشروبات الکحولیه و التدخین (۶) .

۷-جاء فی إحصائیه وضعها عالم یدعی(هوگر) نشرها فی مجله(العلوم) بمناسبه عید تأسیسها العشرین،قال فیها:أنّ ۶۰٪من القتل المتعمد،۷۵٪من الضرب و الجرح و ۳۰٪من الجرائم الأخلاقیه(بما فیها الزنا بالمحارم!)و ۲۰٪ من جرائم السرقه،سببها المشروبات الکحولیه،و عن هذا العالم نفسه أنّ ۴۰٪من الأطفال المجرمین قد ورثوا آثار الکحول (۷) .

۸-إنّ الخسائر التی تصیب الإقتصاد البریطانی من جراء تغیب العمال عن

۱- ۱) -کتاب«ندوه الکحول»،ص ۶۵.

۲- ۲) -کتاب«ندوه الکحول»،۶۵.

۳- ۳) -تفسیر الطنطاوی،ج؟،۱۶۵.

۴- ۴) -دائره المعارف فرید و جدی،ج ۳،ص ۷۹۰.

۵- ۵) -الآفات الاجتماعیه فی قرننا،ص ۲۰۵.

۶- ۶) -مجموعه منشورات الجیل الجدید.

۷- ۷) -ندوه الکحول،ص ۶۶.

العمل بسبب إدمانهم على الخمر تبلغ سنويا نحو ۵۰ مليون دولار،و هو مبلغ يكفى لإنشاء الآلاف من رياض الأطفال و المدارس الابتدائيه و الثانويه.

۹-الإحصاءات التى نشرت عن خسائر الإدمان على الكحول فى فرنسا تقول:أنّ الخزينه الفرنسيه تتحمل سنويا مبلغ(۱۳۷)مليارد فرنك،إضافه إلى الأضرار الأخرى كما يلى:

۶۰ مليار فرنك للصرف المحاكم و السجون.

۴۰ مليار فرنك للصرف على الإعانات العامّه و المؤسسات الخيريه.

۱۰-مليارات من الفرنكات للصرف على المستشفيات الخاصّه لمعالجه المدمنين على المسكرات.

۷۰ مليار فرنك للصرف على الأمن الاجتماعى.

و هكذا يتّضح أنّ عدد المرضى النفسانيين و مصحات الأمراض العقليه و جرائم القتل و المخاصمات الدمويه و السرقه و الاغتصاب و حوادث المرور، تتناسب تناسبا طرديا مع عدد حانات الخمور.

۱۰-أثبتت الدوائر الاحصائيه فى أمريكا أنّ القمار كان السبب المباشر فى ۳۰٪من الجرائم،و فى إحصائيه أخرى عن جرائم القمار نرى و للأسف الشديد أن ۹۰٪من جرائم السرقه و ۵۰٪من الجرائم الجنسيه و ۱۰٪من فساد الأخلاق و ۳۰٪من الطلاق و ۴۰٪من الضرب و الجرح و ۵٪من حوادث الانتحار إنما هى بسبب القمار (۱) .

۱- ۱) -ندوه الكحول،ص ۶۶.

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۹۳]

اشاره

لَيْسَ عَلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اِتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ ثُمَّ اِتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اِتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اَللّهُ يُحِبُّ اَلْمُحْسِنِينَ (۹۳)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر«مجمع البیان»و تفسیر«الطبری»و تفسیر«القرطبی»و غیرها من التفاسیر أنّه بعد نزول آیه تحریم الخمر و المیسر،قال بعض أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:إذا کان هذان العملان علی هذا القدر من الإثم،فما حال المسلمین الذین توفاهم اللّه قبل نزول هذه الآیه و کانوا ما یزالون یمارسونهما؟ فنزلت هذه الآیه جوابا لهم.

التّفسیر

تجیب هذه الآیه الذین یتساءلون عن الماضین قبل نزول آیه تحریم الخمر و المیسر،أو الذین لم یسمعوا بعد تلک الآیه لبعد مناطقهم التی یعیشون فیها،

فتقول: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا (۱) و لكنّها تشترط لتلك التقوى و الإيمان و العمل الصالح: إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ ،ثمّ تكرر ذلك ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا و للمرّه الثالثه تكرر الآيه بقليل من الاختلاف ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا ،و تنتهى بالتوكيد وَ اللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

هنالك كلام كثير بين المفسّرين القدامى و المحدثين حول هذا التكرار،فبعض يراه للتوكيد و يقول:أنّ أهميه التقوى و الإيمان و العمل الصالح تقتضى الإعاده و التكرار و التوكيد.

إلاّ أنّ جمعا آخر من المفسّرين يعتقدون أنّ كلّ جمله من هذه الجمل المكرره تشير إلى حقيقه منفصله عن الأخرى،و أنّ هناك احتمالات متعدده بشأن اختلاف كل جمله عن الأخرى،و لكن معظم هذه الاحتمالات لا يقوم عليها دليل أو شاهد.

و لعل خير ما قيل بهذه الخصوص هو قولهم:أنّ المقصود بالتقوى فى المرّه الاولى هو ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤوليه و الذى يسوق الإنسان نحو البحث و التدقيق فى الدين،و مطالعه معجزه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و البحث عن اللّه،فتكون نتيجه ذلك الإيمان و العمل الصالح،و بعباره أخرى:إذا لم يكن فى الإنسان شيء من التقوى فإنّه لا يتجه إلى البحث عن الحقيقه،و عليه فإن ورد كلمه«التقوى» لأوّل مرّه فى هذه الآيه إشاره إلى هذا المقدار من التقوى،و ليس فى هذا تناقض مع بدايه الآيه التى تقول: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ... لأنّ الإيمان هنا يمكن أن يكون بمعنى التسليم الظاهرى،بينما الإيمان الذى يحصل بعد التقوى هو الإيمان الحقيقى.

و تكرار التقوى للمرّه الثّانيه إشاره إلى التقوى التى تنفذ إلى أعماق الإنسان

۱- ۱) -تطلق كلمه عام«الطعام»على المأكولات غالبا،و لكنّها قد تطلق على المشروبات أيضا،كما جاء فى الآيه(۲۴۹)من سوره البقره: فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى .

فيزداد تأثيرها،و تكون نتيجتها الإيمان الثابت الوطيد الذى يؤدى إلى العمل الصالح،و لذلك لم يرد«العمل الصالح»بعد«الإيمان»فى الجمله الثّانيه: ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا أى أنّ هذا الإيمان من الثبوت و النفاذ بحيث لا حاجه معه لذكر العمل الصالح.

و فى المرحله الثّالثه يدور الكلام على التقوى التى بلغت حدّها الأعلى بحيث أنّها فضلا عن دفعها إلى القيام بالواجبات،تدفع إلى الإحسان أيضا،أى إلى الأعمال الصالحه التى ليست من الواجبات.

و عليه فإنّ هذه الضروب الثلاثه من التقوى تشير إلى ثلاث مراحل من الإحساس بالمسؤوليه و كأنّها تمثل المرحله(الابتدائيه)و المرحله(المتوسطه) و المرحله(النهائيه)،و لكل مرحله قرينه تدل عليها فى الآيه.

أمّا ما ذهب إليه مفسّرون آخرون بشأن تناول الآيه ثلاثه أنواع من التقوى و ثلاثه أنواع من الإيمان فلا قرينه عليه و لا شاهد فى الآيه.

ص :۱۴۶

الآیات [سوره المائده (۵): الآیات ۹۴ الی ۹۶]

اشاره

یٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اَللّٰهُ بِشَيْءٍ مِنَ اَلصَّيْدِ تَنٰالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمٰاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اَللّٰهُ مَنْ يَخٰافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اِعْتَدىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (۹۴) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَقْتُلُوا اَلصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزٰاءٌ مِثْلُ مٰا قَتَلَ مِنَ اَلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بٰالِغَ اَلْكَعْبَةِ أَوْ كَفّٰارَةٌ طَعٰامُ مَسٰاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيٰاماً لِيَذُوقَ وَبٰالَ أَمْرِهِ عَفَا اَللّٰهُ عَمّٰا سَلَفَ وَ مَنْ عٰادَ فَيَنْتَقِمُ اَللّٰهُ مِنْهُ وَ اَللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو اِنْتِقٰامٍ (۹۵) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ اَلْبَحْرِ وَ طَعٰامُهُ مَتٰاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيّٰارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ اَلْبَرِّ مٰا دُمْتُمْ حُرُماً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ اَلَّذِی إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۹۶)

سبب النّزول

جاء فی کتاب الکافی و فی کثیر من التفاسیر أنّه فی سنه الحدیبیه،عند ما قصد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و من معه من المسلمین العمره و هم محرمون،صادفوا فی

طریقهم کثیرا من الحیوانات البریه و کانوا قادرین علی صیدها بالید أو بالرمح، لقد کان الصید من الکثره بحیث قیل أنّ الحیوانات کانت تجوس بین الخیام و تمر بین الناس،الآیه الاولی من هذه الآیات فنزلت فی هذا الوقت تحذر المسلمین من صیدها،و تعتبر امتناعهم عن صیدها ضربا من الامتحان لهم.

التّفسیر

اشاره

أحکام الصّید عند الإحرام:

تبیّن هذه الآیات أحکام صید البر و البحر أثناء الإحرام للحج أو للعمره.

فی البدایه إشاره إلی ما حدث للمسلمین فی عمره الحدیبیه،فیقول سبحانه و تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَیَبْلُوَنَّکُمُ اللّٰهُ بِشَیْءٍ مِنَ الصَّیْدِ تَنٰالُهُ أَیْدِیکُمْ وَ رِمٰاحُکُمْ .

یستفاد من تعبیر الآیه أنّ اللّه تعالی یرید إنباء الناس عن قضیه سوف تقع فی المستقبل،کما یظهر أیضا أنّ وفره الصید فی ذلک المکان لم یکن أمرا مألوفا، فکان هذا امتحانا للمسلمین،علی الأخص إذا أخذنا بنظر الإعتبار حاجتهم الماسه إلی الحصول علی طعامهم من لحوم ذلک الصید الذی کان موفورا و فی متناول أیدیهم،إنّ تحمل الناس فی ذلک العصر الحرمان من ذلک الغذاء القریب یعتبر امتحانا کبیرا لهم.

قال بعضهم:أنّ المقصود من عباره: تَنٰالُهُ أَیْدِیکُمْ هو أنّهم کانوا قادرین علی صیدها بالشباک أو بالفخاخ،و لکن ظاهر الآیه یشیر إلی أنّهم کانوا حقّا قادرین علی صیدها بالید.

ثمّ یقول من باب التوکید: لِیَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ یَخٰافُهُ بِالْغَیْبِ سبق أن أوضحنا فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر فی ذیل الآیه(۱۴۳)من سوره البقره أنّ تعبیر «لنعلم»أو«لیعلم»و أمثالها لا یقصد بها،أن اللّه لم یکن یعلم شیئا،و أنّه یرید أن

یعلمه عن طریق اختبار الناس،بل المقصود هو البأس الحقیقه المعلومه لدی اللّه لباس العمل و التحقق الخارجی،و ذلک لأنّ الاعتماد علی نوایا الأشخاص الداخلیه و استعدادهم غیر کاف للتکامل و للمعاقبه و الإثابه،بل یجب أن ینکشف کل ذلک خلال أعمال خارجیه لکی یکون لها تلک الآثار(لمزید من التوضیح انظر ذیل الآیه المذکوره).

و الآیه فی الخاتمه تتوعد الذین یخالفون هذا الحکم الإلهی بعذاب شدید:

فَمَنِ اعْتَدیٰ بَعْدَ ذٰلِکَ فَلَهُ عَذٰابٌ أَلِیمٌ

.

علی الرّغم من أنّ الجمله الأخیره فی الآیه تدل علی تحریم الصید أثناء الإحرام،و لکن الآیه التّالیه لها تصدر حکما قاطعا و صریحا و عاما بشأن تحریم الصید أثناء الإحرام،إذ تقول: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَقْتُلُوا الصَّیْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ .

و هل تحریم الصید(و هو صید البر بدلاله الآیه التی تلیها)یشمل جمیع أنواع الحیوانات البریه،سواء أ کان لحمها حلالا أم حراما،أم أنّه یختص بحلال اللحم منها؟ لا تتفق آراء المفسّرین و الفقهاء بهذا الشأن،إلاّ أنّ المشهور بین فقهاء الإمامیه و مفسریهم أنّ الحکم عام،و یؤید ذلک الرّوایات المرویه عن أئمّه أهل البیت علیهم السّلام،أمّا فقهاء أهل السنه فمنهم-مثل أبی حنیفه-من یتفق مع الإمامیه فی ذلک،و منهم-کالشافعی-من یری الحکم مقصورا علی الحیوانات المحلله اللحوم و لکن الحکم،علی کل حال،لا یشمل الحیوانات الأهلیه،لأنّ الحیوانات الأهلیه لا توصف بالصید،إنّ ممّا یستلفت النظر فی روایاتنا هو أنّ الصید لیس وحده المحرم أثناء الإحرام،بل التحریم یشمل حتی الإعانه علی الصید،و الإشاره أو الدلاله علیه أیضا.

قد یظن بعض أنّ الصید لا یشمل ذوات اللحم الحرام،إلاّ أنّ الأمر لیس کذلک،لأنّ الغرض من صید الحیوان متنوع،فمرّه یکون الغرض لحمها،و أخری

ص:۱۴۹

جلدها،و ثالثه لدفع أذاها،ثمّه بيت ينسب إلى الإمام على عليه السّلام من الممكن أن يكون شاهدا على هذا التعميم:يقول:

صيد الملوک أرانب و ثعالب

و إذا رکبت فصيدى الأبطال

و للاستزاده من المعرفه بشأن أحکام الصيد الحلال و الحرام يمکن الرجوع إلى الکتب الفقهيه.

ثمّ بعد ذلک يشار إلى کفاره الصيد فى حال الإحرام،فيقول: وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزٰاءٌ مِثْلُ مٰا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ .

فهل المقصود من«مثل»هو التماثل فى الشکل و الحجم أى إذا قتل أحد حيوانا وحشيا کبيرا مثل النعامه-مثلا-فهل يجب عليه أنّ يختار الکفاره من الحيوانات الکبيره،کالبعير مثلا-أو إذا صاد غزالا-فهل کفارته تکون شاه تقاربه فى الحجم و الشکل؟أم أنّ«مثل»هو التماثل فى القيمه؟ إنّ المشهور و المعروف بين الفقهاء و المفسّرين هو الرأى الأوّل،کما أنّ ظاهر الآيه أقرب إلى هذا المعنى،و ذلک لأنّه بالنظر لعموميه الحکم على الحيوانات ذوات اللحم الحلال و ذوات اللحم الحرام،فإنّ أکثر هذه الحيوانات ليس لها قيمه ثابته لکى يمکن إختيار مثيلاتها من الحيوانات الأهليه.

و هذا-على کلّ حال-قد يکون ممکنا فى حاله وجود المثيل من حيث الشکل و الحجم،أمّا حاله انعدام المثيل،فلا مندوحه من تقدير قيمه للصيد بشکل من الأشکال،و ليمکن إختيار حيوان أهلى حلال اللحم يقاربه فى القيمه.

و لمّا کان من الممکن أن تکون قضيه التماثل موضع شک عند بعضهم فقد أصدر القرآن حکمه بأن ذلک ينبغى أنّ يکون بتحکيم شخصين مطلعين و عادلين:

يَحْكُمُ بِهِ ذَوٰا عَدْلٍ مِنْكُمْ

.

أمّا عن مکان ذبح الکفاره،فيبيّن القرآن أنّه يکون بصوره«هدى»يبلغ أرض الکعبه: هَدْياً بٰالِغَ الْكَعْبَةِ .

و المشهور بين فقهائنا هو أنّ«كفاره الصيد أثناء الإحرام للعمره»يجب أنّ تذبح فى«مكّه»و«كفاره الصيد أثناء الإحرام للحج»يجب أن تذبح فى«منى»،و هذا لا يتعارض مع الآيه المذكوره،لأنّها نزلت فى إحرام العمره،كما قلنا.

ثمّ يضيف أنّه ليس ضروريا أنّ تكون الكفاره بصوره أضحيه،بل يمكن الاستعاضه عنها بواحد من اثنين آخرين: أَوْ كَفّارَهٌ طَعامُ مَساكِينَ و أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِياماً .

مع أنّ الآيه لا تذكر عدد المساكين الذين يجب إطعامهم،و لا عدد الأيّام التى يجب أنّ تصام،فإن اقتران الاثنين معا من جهه،و التصريح بلزوم الموازنه فى الصيام،يدل على أنّ المقصود ليس إطلاق عدد المساكين الذين يجب إطعامهم بحسب رغبتنا،بل المقصود تحديد ذلك بمقدار قيمه الأضحيه.

أمّا كيف يتمّ التوازن بين الصيام و إطعام المسكين،فيستفاد من بعض الرّوايات أنّ مقابل كلّ«مدّ»من الطعام(ما يعادل نحو ٧٥٠ غراما من الحنطه و أمثالها)يصوم يوما واحدا،و يستفاد من روايات أخرى أنّه يصوم يوما واحدا فى مقابل كلّ«مدّين»من الطعام،و هذا يعود فى الواقع إلى أن الذى لا يستطيع صوم رمضان يكفّر عن كل يوم منه بمدّ واحد أو بمدّين اثنين من الطعام للمحتاجين(لمزيد من الاطلاع بهذا الخصوص انظر الكتب الفقهيه).

أمّا إذا ارتكب محرم صيدا فهل له أن يختار أيّا من هذه الكفارات الثلاث،أو أنّ عليه أن يختار بالترتيب واحده منها،أى الذبيحه أوّلا،فإن لم يستطع فإطعام المسكين،فإنّ لم يستطع فالصيام،فالفقهاء مختلفون فى هذا،و لكن ظاهر الآيه يدل على حريه الإختيار.

إنّ الهدف من هذه الكفارات هو لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ (١) .

١- ١) -فى«مفردات الراغب»أنّ«وبال»من«الوبل و الوابل»و هو المطر الغزير،ثمّ أطلق على العمل الشاق الجسيم،و لمّا كان العقاب شديدا و ثقيلا عاده،فقد وصف بأنّه«و بال».

ثمّ لما لم يكن لأى حكم أثر رجعى يعود إلى الماضى،فيقول: عَفَا اللّهُ عَمّا سَلَفَ .

أمّا من لم يعتن بهذه التحذيرات المتكرره و لم يلتفت إلى أحكام الكفاره و كرر مخالفاته لحكم الصيد و هو محرم فإنّ اللّه سوف ينتقم منه فى الوقت المناسب: وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَ اللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ .

ثمّه نقاش بين المفسّرين عمّا إذا كانت كفاره صيد المحرم تتكرر بتكرره،أو لا،ظاهر الآيه يدل على أنّ التكرار يستوجب انتقام اللّه،فلو استلزم تكرار الكفاره لوجب أنّ لا يكتفى بذكر الانتقام الإلهى،و للزم ذكر تكرار الكفاره صراحه،و هذا ما جاء فى الرّوايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام.

بعد ذلك يتناول الكلام صيد البحر: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ .

لكن ما المقصود من الطعام؟فإن بعض المفسّرين يرون أنّه ذلك النوع من السمك الذى يموت بدون صيد و يطفو على سطح الماء،مع أنّنا نعلم أنّ هذا الكلام ليس صحيحا،لأنّ السمك الميت بهذا الشكل حرام مع أنّ بعض الرّوايات التى يرويها أهل السنّه تدل على حليته.

إنّ ما يستفاد من التعمق فى ظهور الآيه هو أنّ القصد من الطعام ما يهيأ للأكل من سمك الصيد إذ أنّ الآيه تريد أن تحلل أمرين،الأوّل هو الصيد،و الثّانى هو الطعام المتخذ من هذا الصيد.

و بهذه المناسبه،ثمّه فتوى معروفه بين فقهائنا تعتمد مفهوم هذا التعبير،و ذلك فيما يتعلق بصيد البر،فإن هذا الصيد ليس وحده حراما،بل أنّ طعامه حرام أيضا.

ثمّ تشير الآيه إلى الحكمه فى هذا الحكم و تقول: مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيّارَهِ ،أى لكيلا تعانوا المشقّه فى طعامكم و أنتم محرومون،فلكم أن تستفيدوا من نوع واحد من الصيد،ذلك هو صيد البحر.

و لمّا كان من المألوف أن يكون السمك الذى يحمله المسافر معه هو السمك

المملح،فقد ذهب بعض المفسّرين إلى تفسير العباره المذكوره فى الآيه بأنّه يجوز «للمقيمين»أن يطعموا السمك الطازج و«للمسافرين»السمك المملح.

و لا-بدّ من التنبيه إلى أنّ حكم أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ ليس حكما مطلقا و عاما فى حلّيه صيد البحر كافه كما يظن بعضهم،و ذلك لأنّ الآيه ليست فى معرض بيان أصل حكم صيد البحر،بل هدف الآيه هو أنّ تبيّن للمحرم أنّ صيد البحر(الذى كان حلالا-قبل الإحرام له أن يطعمه فى حال الإحرام أيضا)،و بعباره أخرى:لتبيّن الآيه أصل تشريع القانون،و إنّما تشير إلى خصائص قانون سبق تشريعه فليست الآيه فى معرض عموميه الحكم،بل هى تبيّن حكم المحرم فحسب.

و للتوكيد تعود الآيه إلى الحكم السابق مرّه أخرى و تقول: وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً .

و لتوكيد جميع الأحكام التى ذكرت،تقول الآيه فى الخاتمه: وَ اتَّقُوا اللّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

حكمه تحريم الصّيد حال الإحرام:

معلوم أنّ الحج و العمره من العبادات التى تفصل الإنسان عن عالم الماده و تنقله إلى محيط ملىء بالمعنويات،فخصوصيات الحياه الماديه،و الجدال الخصام،و الرغبات الجنسيه،و اللذائذ الماديه كلّها تنفصل عن الإنسان فى مناسك الحج و العمره،و يبدأ الإنسان ضربا من الرياضه الإلهيه المشروعه،و يبدو أن تحريم صيد البرّ فى حال الإحرام يرمى إلى الهدف نفسه.

ثمّ لو أحل الصيد لزائرى بيت اللّه الحرام،مع الأخذ بنظر الإعتبار كثره الزوار و كثره ترددهم فى كلّ سنه على هذه الأرض المقدسه،لقضى على وجود الكثير من الحيوانات القليله أصلا فى تلك الأرض القاحله الخاليه من الماء و الزرع،

فجاء هذا التشريع لضمان بقاء حيوانات تلك المنطقه و الحفاظ عليها من الانقراض.

و إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنّه حتى فى غير حال الإحرام يمنع صيد الحرم، و كذلك قطع أشجاره و حشائشه،تبيّن لنا أنّ لهذا التشريع ارتباطا وثيقا بقضيه الحفاظ على البيئه و على النبات و الحيوان فى تلك المنطقه،و صيانتها من الإباده.

إنّ هذا التشريع من الدّقه و الإحكام بحيث أنّه يمنع فيه حتى هدايه الصياد إلى مكان الصيد،فقد جاء فى بعض الرّوايات من طرق أهل البيت عليهم السّلام

أنّ الإمام الصادق عليه السّلام قال لأحد أصحابه: «لا تستحلن شيئا من الصيد و أنت حرام و لا أنت حلال فى الحرم و لا تدلن محلا و لا محرما فيصطاده،و لا تشر إليه فيستحل من أجلك،فإنّ فيه فداء لمن تعمّده» (۱) .

۱- ۱) -«وسائل الشيعه»ج ۵،ص ۷۵.

الآیات [سوره المائده (۵): الآیات ۹۷ الی ۹۹]

اشاره

جَعَلَ اَللّٰهُ اَلْكَعْبَهَ اَلْبَيْتَ اَلْحَرٰامَ قِيٰاماً لِلنّٰاسِ وَ اَلشَّهْرَ اَلْحَرٰامَ وَ اَلْهَدْىَ وَ اَلْقَلاٰئِدَ ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا فِى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى اَلْأَرْضِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (۹۷) اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ وَ أَنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۸) مٰا عَلَى اَلرَّسُولِ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا تَكْتُمُونَ (۹۹)

التّفسیر

اشاره

بعد الکلام فی الآیات السابقه علی تحریم الصید فی حال الإحرام،یشیر القرآن الکریم فی هذه الآیه إلی أهمیه«مکّه»و أثرها فی بناء حیاه المسلمین الاجتماعیه،فیقول أوّلا: جَعَلَ اللّٰهُ الْكَعْبَهَ الْبَيْتَ الْحَرٰامَ قِيٰاماً لِلنّٰاسِ .

فهذا البیت المقدس رمز وحده الناس و مرکز لتجمع القلوب حوله،و مؤتمر عظیم لتوثیق الرّوابط المختلفه،فهم فی ظل هذا البیت المقدس و فی مرکزیته و معنویته المستمده من جذور تاریخیه عمیقه یستطیعون إصلاح الکثیر ممّا یستوجب الإصلاح و الترمیم فی حیاتهم،و إقامه سعادتهم علی قواعده المتینه، لذلک فقد وصف هذا البیت فی سوره آل عمران(الآیه ۹۶): إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ

لِلنّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ مُبارَکاً وَ هُدیً لِلْعالَمِینَ .

فی الحقیقه إنّ المسلمین یستطیعون-انطلاقا من المفهوم الواسع لقوله: قِیاماً لِلنّاسِ -أن یصلحوا کل أمورهم بالرکون إلی هذا البیت و فی إطار تعالیم الحج البناءه.

و لما کانت هذه المناسک یجب أنّ تجری فی جو آمن و خال من الحروب و المنازعات و المخاصمات،فقد أشارت الآیه إلی أثر الأشهر الحرم(و هی الأشهر التی تمنع فیها الحرب مطلقا)و قالت: وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ (۱) کما أشارت إلی الأضاحی الفاقده للعلامه(الهدی)و الأضاحی ذات العلامه(القلائد)التی منها یطعم الناس فی موسم الحج،و تؤمن جانبا من احتیاجات الحاج للقیام بمناسکه، فقالت: وَ الْهَدْیَ وَ الْقَلائِدَ .

و لمّا کان مجموع هذه الأحکام و القوانین و التشریعات بشأن الصید،و کذلک بشأن حرم مکّه و الشهر الحرام و غیر ذلک،یحکی عمق تدبیر الشارع وسعه علمه تقول الآیه: ذلِکَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ یَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللّهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ .بناء علی ما مرّ بناء فی تفسیر هذه الآیه یتّضح الارتباط بین بدایتها و نهایتها، إذ أنّ هذه الأحکام التشریعیه لا یستطیع أن ینظمها إلاّ من کان علیما بأعماق القوانین التکوینیه،فالذی لا علم له بدقائق شؤون السماء و الأرض و بما استقرّ فی روح الإنسان و جسمه عند خلقه،لا تکون له القدره علی تقریر أحکام کهذه، فالقانون الصحیح السلیم هو ذاک الذی ینسجم مع قانون الخلق و الفطره.

الآیه التّالیه تؤکّد تلک التشریعات،و تحث الناس علی إتباعها و تهدد المخالفین و العاصین فتقول: اِعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ .

و لعل تقدیم شَدِیدُ الْعِقابِ علی غَفُورٌ رَحِیمٌ إشاره إلی أنّ عقاب اللّه الشدید یمکن إطفاؤه بماء التوبه و الدخول فی رحمه اللّه و غفرانه.

و مرّه أخری تؤکّد الآیه علی أنّ الناس هم المسؤولون عن أعمالهم،و أنّ

۱- ۱) -مرّ ذکر الأشهر الحرم فی تفسیر الآیه(۱۹۴)من سوره البقره،ارجع إلی المجلد الثّانی من هذا التّفسیر.

النّبى مسئول عن تبليغ الرّساله لا غير مٰا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ و فى الوقت نفسه: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا تَكْتُمُونَ .

أهميه الكعبه:

إنّ«الكعبه»-التى ذكرت فى هذه الآيه و فى الآيات السابقه مرّتين-من ماده«كعب»أى بروز خلف القدم،ثمّ أطلق على كل بروز،و المكعب كذلك لأنّه بارز من جهاته الأربع،و الكاعب(و جمعها كواعب)هى الأنثى التى برز صدرها.

و الظاهر أنّ تسميه بيت اللّه بالكعبه يرجع أيضا،إلى ارتفاعه الظاهرى و بروزه،كما هو رمز لارتفاع مقامه و عظمه مكانته.

إنّ للكعبه تاريخا عريقا حافلا بالحوادث و الوقائع،و كلّ هذه الحوادث تنطلق من عظمتها و مكانتها المهمّه.

أهميه الكعبه تبلغ حدا بحيث أنّ الأحاديث الإسلاميه تعتبر هدمها فى مصاف قتل النّبى و الإمام و النظر إليها عباده،و الطواف بها من أفضل الأعمال،و قد

جاء فى روايه عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «لا ينبغى لأحد أن يرفع بناءه فوق الكعبه» (۱) .

طبيعى أنّ أهميه الكعبه و احترامها لم يأتيا من بنائها،

فقد قال أمير المؤمنين على عليه السّلام فى الخطبه القاصعه: «ألا ترون أنّ اللّه،سبحانه،اختبر الأولين من لدن آدم صلوات اللّه عليه،إلى الآخرين من هذا العالم،بأحجار لا تضر و لا تنفع و لا تبصر و لا تسمع،فجعلها بيته الحرام(الذى جعله للنّاس قياما)ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا،و أقل نتائق الدنيا مدرا...» (۲) .

أهميه مكانه الكعبه عند اللّه تعود إلى أنّها أقدم مراكز العباده و التوحيد،و نقطه تجتذب إليها أنظار الشعوب و الأقوام المختلفه.

۱- ۱) -«سفينه البحار»،ج ۲،ص ۴۸۲.

۲- ۲) -«نهج البلاغه»،الخطبه القاصعه،رقم ۱۹۲.

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۱۰۰]

اشاره

قُلْ لاٰ یَسْتَوِی اَلْخَبِیثُ وَ اَلطَّیِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَکَ کَثْرَهُ اَلْخَبِیثِ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ یٰا أُولِی اَلْأَلْبٰابِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰۰)

التّفسیر

اشاره

الأکثریه لیست دلیلا علی الطهاره:

دار الحدیث فی الآیات السّابقه حول تحریم الخمر و القمار و الأنصاب و الأزلام و صید البر فی حال الإحرام،و لکن قد نجد أناسا یتذرعون لارتکاب هذه المعاصی بالکثره الکاثره من الذین یرتکبونها فی بعض الأمصار،فیقولون مثلا:أنّ أکثر أهل المدینه الفلانیه یعاقرون الخمره،أو أنّهم یمارسون القمار،أو أنّ أکثریه الناس فی ظروف خاصّه لا یقیمون وزنا لتحریم الصید و لغیره لذلک،فهم أیضا یحذون حذوهم و یهملون العمل بتلک التشریعات،فلکیلا یتذرع الناس بأمثال هذه الأعذار،یضع اللّه سبحانه قاعده کلیه عامّه و رئیسیه فی عباره قصیره شامله یخاطب بها رسوله الکریم: قُلْ لاٰ یَسْتَوِی الْخَبِیثُ وَ الطَّیِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَکَ کَثْرَهُ الْخَبِیثِ .

و علیه فإن الخبیث و الطبیب-فی الآیه-یشملان کل ما یرتبط بالإنسان، طعاما کان ذلک أم فکرا.

ص:۱۵۸

و فى الختام يخاطب العلماء و أصحاب العقول و الأذكياء فيقول: فَاتَّقُوا اللّهَ يٰا أُولِي الْأَلْبٰابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

أمّا أنّ مدلول الآيه من قبيل توضيح الواضحات،فذلك لأن ثمّه من يظن أنّ أمورا عارضه،مثل كثره إتباع الخبيث،أو ما يسمى ب«الأكثريه»تجعل ذلك الخبيث فى مصاف الطيب،كما يحدث أحيانا أن نرى بعضهم يقع تحت تأثير الجماعه و اتجاه أهواء الأكثريه،ظانا أنّه حيثما مالت الأكثريه كان ذلك دليلا قاطعا على صحه ما مالت إليه،بينما الأمر ليس كذلك،و القضايا التى أيدتها الأكثريه و ظهر بطلانها كثيره جدا.

فى الواقع إنّ ما يميز الخبيث من الطيب هو الأكثريه الكيفيه لا الكميه،أى أنّ المطلوب هو أفكار أقوى و أرفع و أسمى و أنقى لا كثره المؤيدين.

هذه القضيه لا تلاءم أذواق بعض الناس فى العصر الحاضر،بعد أنّ تشبعت أذهانهم على أثر التلقين و وسائل الأعلام بأن الأكثريه هى معيار معرفه الخبيث من الطيب،إلى حدّ الإيمان بأن«الحقّ»هو ما أرادته الأكثريه،و«الطيب»هو ما مالت إليه الأكثريه،و ليس كذلك.إن معظم مشاكل العالم ناتجه عن هذا اللون من التفكير.

نعم،إذا تمتعت الأكثريه بقياده صادقه و تعليمات صحيحه،بحيث تؤلف أكثريه ناضجه بما للكلمه من معنى،فيمكن حينئذ اعتبار هذه الأكثريه و اتجاهاتها مقياس تمييز الخبيث عن الطيب،لا الأكثريه الفجه غير الناضجه.

على كل حال،يشير القرآن إلى هذا الأمر فى هذه الآيه،و يحذر الناس من الانجراف مع أكثريه الخبثاء،و فى مواضع أخرى تكاد تبلغ العشره يقول تعالى:

وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ أمّا تقديم«الخبيث»على«الطيب»فى الآيه، فذلك لأنّ الكلام موجه إلى الذين يحسبون كثره الخبيث دليلا على صحه ما يذهبون إليه،فلا بدّ من الردّ على هؤلاء،و تعريفهم بأن معيار الخباثه و الطيبه لم

یکون فی یوم من الأیّام هو الأکثریه أو الأقلیه،بل فی کل زمان و مکان کان «الطیب»خیرا من«الخبیث»و أن أصحاب الحجی و التبصر لا ینخدعون بالکثره، فهم یتجنبون الخبیث دائما حتی و إن تلوث به جمیع المحیطین بهم،و یندفعون نحو الطّیب حتی و إن ابتعد عنه الجمیع.

ص :۱۶۰

الآیتان [سوره المائده (۵): الآیات ۱۰۱ الی ۱۰۲]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْیٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَکُمْ تَسُؤْکُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْهٰا حِینَ یُنَزَّلُ اَلْقُرْآنُ تُبْدَ لَکُمْ عَفَا اَللّٰهُ عَنْهٰا وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ حَلِیمٌ (۱۰۱) قَدْ سَأَلَهٰا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِکُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا کٰافِرِینَ (۱۰۲)

سبب النّزول

الأقوال فی سبب نزول هاتین الآیتین مختلف فی مصادر الحدیث و التّفسیر، و لکن الذی ینسجم أکثر مع سبب نزول هاتین الآیتین،هو ما

جاء فی تفسیر «مجمع البیان»عن علی بن أبی طالب علیه السّلام قال: خطب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال:«إنّ اللّه کتب علیکم الحج»فقام عکاشه بن محصن و قیل سراقه بن مالک فقال:أفی کلّ عام یا رسول اللّه؟فأعرض عنه حتی عاد مرّتین أو ثلاثا،فقال رسول اللّه:«ویحک ما یؤمنک أن أقول:نعم،و اللّه لو قلت نعم لوجبت،و لو وجبت ما استطعتم،و لو ترکتم لکفرتم،فاترکونی کما ترکتکم،فإنّما هلک من کان قبلکم بکثره سؤالهم و اختلافهم علی أنبیائهم،فإذا أمرتکم بشیء فأتوا منه ما استطعتم،و إذا نهیتکم عن

شیء فاجتنبوه» (۱) .

ینبغی ألاـ یظن أحد بأن سبب نزول هاتین الآیتین-کما سنتطرق إلی ذلک فی تفسیرهما-یعنی غلق أبواب السؤال و باب تفهم الأمور بوجوه الناس،لأنّ القرآن فی آیاته یأمر الناس صراحه بالرجوع إلی أصحاب الخبره فی فهم الأمور:

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّکْرِ إِنْ کُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ

(۲)

بل المقصود هو الأسئله التافهه و التحجج،و الإلحاح المؤدی غالبا إلی تشویش أفکار الناس و قطع التسلسل الفکری للخطیب.

التّفسیر

اشاره

الأسئله الفضولیه:

لا شک أنّ السّؤال مفتاح المعرفه،و لذلک من قلّت أسئلته قلت معرفته،و فی القرآن و فی الرّوایات الکثیر من التوکید علی الناس أن یسألوا عمّا لا یعرفون، و لکن لکل قاعده استثناء،و لهذا المبدأ التربوی الأساس استثناءاته أیضا،منها أن هناک أحیانا بعض المسائل التی یکون إخفاؤها أفضل لحفظ النظام الاجتماعی و لمصلحه أفراد المجتمع،ففی أمثال هذه الحالات لا یکون الإلحاح فی السؤال عنها و السعی لکشف النقاب عن حقیقتها بعیدا عن الفضیله فحسب،بل یکون مذموما أیضا مثلا:

یری معظم الأطباء ضروره کتمان الأمراض الصعبه الشفاء و المخیفه عن المریض نفسه،و قد یخبرون أهله شریطه أنّ یلتزموا کتمان الأمر عن المریض، و السبب هو أن التجارب قد دلت علی أنّ المریض إذا عرف أنّ مرضه لا یشفی بسرعه انتابه الرعب و الهلع و قد یؤخر ذلک شفاءه،إن لم یکن مرضه مهلکا فعلی

۱- ۱) -تفسیر«مجمع البیان»و تفسیر«الدر المنثور»و«المنار»فی ذیل الآیه المذکوره مع بعض الاختلاف.

۲- ۲) -النحل،۴۳.

المریض أنّ لا- یلح فی إلقاء الأسئله علی طبیبه العطوف،لأنّ هذا الإلحاح قد یحرج الطبیب، فیصرّح للمریض بما لا ینبغی أنّ یصارحه به تخلصا من هذا الإصرار و اللجاج.

کذلک الناس عموما،فهم فی التعامل فیما بینهم یحتاجون إلی أن یحسن بعضهم الظن ببعض،فللحفاظ علی هذا الرصید الهام خیر لهم ألاّ- یعرفوا خفایا الآ-خرین،إذ أن لکل امرئ نقاط ضعیفه،فانکشاف نقاط ضعف الناس یضرّ بالتعاون فیما بینهم فقد یکون امرؤ ذو شخصیه مؤثره قد ولد فی عائله واطئه و منحطه،و إذا انکشف هذا فقد تتزلزل آثاره الوجودیه فی المجتمع،لذلک ینبغی علی الناس ألا یلحوا فی السؤال و التفتیش فی هذا المجال.

کما أنّ الکثیر من الخطط و المناهج الاجتماعیه یلزمها الکتمان حتی یتمّ تنفیذها،فالإعلان عنها یعتبر ضربه تؤخر سرعه إنجاز العمل.

هذه و أمثالها نماذج لما لا یصح فیه الإلحاح فی السؤال،و علی القاده أن لا یفشوا أمثال هذه الأسرار ما لم یقعوا تحت ضغط شدید.

و القرآن فی هذه الآیه یشیر إلی الموضوع نفسه و یقول: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْیٰاءَ إِنْ تُبْدَ لَکُمْ تَسُؤْکُمْ .

و لکن إلحاح بعض الناس بالسؤال من جهه،و عدم الإجابه علی أسئلتهم من جهه أخری،قد یثیر الشکوک و الریب عند الآخرین بحیث یؤدی الأمر إلی مفاسد أکثر،لذلک تقول الآیه: وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْهٰا حِینَ یُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَکُمْ فیشق علیکم الأمر.

أمّا قصر افشائها علی وقت نزول القرآن،فذلک لأنّ تلک التساؤلات کانت متعلقه بمسائل ینبغی أن تنزل أجوبتها عن طریق الوحی.

ثمّ لا تحسبوا اللّه غافلا عن ذکر بعض الأمور إن سکت عنها،فقد عَفَا اللّٰهُ عَنْهٰا وَ اللّٰهُ غَفُورٌ حَلِیمٌ .

يقول علی علیه السّلام: «إنّ اللّه افترض علیكم فرائض فلا تضیعوها،و حدّ لكم حدودا فلا تعتدوها،و نهی عن أشیاء فلا تنتهكوها،و سكت لكم عن أشیاء و لم یدعها نسیانا فلا تتكلفوها» (۱) .

سؤال:

قد یسأل سائل:إذا كان إفشاء هذه الأمور یتعارض مع مصلحه الناس،فلما ذا یماط اللثام عنها علی أثر الإلحاح؟

الجواب:

السبب هو ما قلناه من قبل،فالقائد إذا لزم الصمت رغم الإلحاح بالسؤال، فقد تنجم عن ذلك مفاسد أخطر،و یثار سوء ظن یشوب أذهان الناس،مثل صمت الطبیب إزاء إلحاح المریض فی السؤال عن مرضه،فإن ذلك یثیر شكوك المریض، و قد یحمله علی الظن بأن الطبیب لم یشخص مرضه بعد،فیهمل استعمال ما یصفه له من علاج،عندئذ لا یسع الطبیب إلاّ أن یفشی له سرّ مرضه،و لو سبب له ذلك بعض المشاكل.

الآیه التی بعدها تؤكّد هذه الحقیقه،و تبیّن أنّ أقواما سابقین كانت لهم أسئله كهذه،و بعد أن سمعوا أجوبتها خالفوها و عصوا: قَدْ سَأَلَهٰا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا كٰافِرِينَ .

و للمفسّرین أقوال مختلفه بشأن تلك الأقوام،منهم من ذهب إلی أن الأمر یخص تلامذه عیسی علیه السّلام عند ما طلبوا مائده من السماء،فعند ما تحقق لهم ما أرادوا عصوا،و یقول بعض:إنّها حكایه مطالبه النّبی صالح علیه السّلام بمعجزه،و لكن الظاهر أن هذه الاحتمالات بعیده عن الصواب،لأنّ الآیه تتحدث عن«سؤال»عن مجهول یراد الكشف عنه،لا عن«طلب»شیء،و لعل استعمال كلمه«سؤال»فی كلا الحالین هو سبب هذا الخطأ.

۱- ۱) -«مجمع البیان»،ذیل الآیه المذكوره.

قد تكون تلك الأقوام من بنى إسرائيل أمروا بذبح بقره للتحقيق فى أمر جريمه(انظر شرح ذلك فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير)فراحوا يمطرون موسى بالأسئله عن خصائص البقره و مميزاتها ممّا لم يكن قد نزل بشأنها أى شىء، و لكنّهم بسؤالاتهم المتكرره التى لم تكن ضروريه أخذوا يشقون على أنفسهم، بحيث أن العثور على تلك البقره الموصوفه أصبح من الصعوبه بمكان و تحملوا الكثير من النفقات فى سبيل ذلك،حتى كادوا أن ينصرفوا عن التنفيذ.

فى تفسير قوله تعالى: ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهٰا كٰافِرِينَ احتمالان:

الأوّل:أنّ المقصود بالكفر هو العصيان،كما سبقت الإشاره إليه.

و الثّانى:هو أنّ الكفر قصد بمعناه المعروف،و ذلك لأن سماع الإجابات المزعجه التى تثقل على السامع قد تدفع به إلى إنكار أصل الموضوع و صلاحيه المجيب،كأن يسمع مريض جوابا لا يروقه من طبيبه،فيؤدى ردّ الفعل به إلى إنكار صلاحيه الطبيب و اتهامه بعدم الفهم مثلا أو بالهرم و نسيان المعلومات.

فى ختام هذا البحث نجد لزاما أن نكرر ما قلناه فى بدايته،و هو أنّ هذه الآيات لا تمنع أبدا إلقاء الأسئله المنطقيه التربويه و البناءه،بل تتحدد بالأسئله التى لا لزوم لها،و بالتعمق فى أمور لا ضروره للتعمق فيها و التى من الأفضل بل من اللازم-أحيانا-بقاؤها فى طى الكتمان.

ص :١۶۵

الآیتان [سوره المائده (۵): الآیات ۱۰۳ الی ۱۰۴]

اشاره

مٰا جَعَلَ اَللّٰهُ مِنْ بَحِيرَهٍ وَ لاٰ سٰائِبَهٍ وَ لاٰ وَصِيلَهٍ وَ لاٰ حٰامٍ وَ لٰكِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ (۱۰۳) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلىٰ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ إِلَى اَلرَّسُولِ قٰالُوا حَسْبُنٰا مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ (۱۰۴)

التّفسیر

فی الآیه الاولی إشاره إلی أربعه«بدع»کانت سائده فی الجاهلیه،فقد کانوا یضعون علی بعض الحیوانات علامات و أسماء لأسباب معینه و یحرمون أکل لحومها و لا یجیزون شرب لبنها أو جز صوفها أو حتی امتطاءها،کانوا أحیانا یطلقون سراح هذه الحیوانات تسرح و تمرح دون أن یعترضها أحد،أی أنّهم کانوا یطلقونها سائبه دون أن یستفیدوا منها شیئا،لذلک یقول اللّه تعالی: مٰا جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِيرَهٍ وَ لاٰ سٰائِبَهٍ وَ لاٰ وَصِيلَهٍ وَ لاٰ حٰامٍ .

بحوث

اشاره

۱-«البحيره»هی النّاقه التی ولدت خمسه أبطن خامسها أنثی-و قيل ذكر- فيشقون أذنها،و تترك طليقه و لا تذبح.

«البحيره»من ماده«بحر»بمعنی الواسع العريض،و لهذا سمی البحر بحرا، و تسميه الناقه بالبحيره جاءت من شق أذنها شقا واسعا عريضا.

۲-«السائبه»هی الناقه التی تكون قد ولدت اثنی عشر بطنا-و قيل عشره أبطن-فيطلقونها سائبه و لا يمتطيها أحد،و لها أن ترعی حيثما تشاء و ترد حيثما تشاء دون أن يعترضها أحد،و قد يحلبونها أحيانا لإطعام الضيف،و«السائبه»من ماده«سيب»أی جريان الماء أو المشی بحرّيه.

۳-«الوصيله»هی الشاه التی ولدت سبعه أبطن-و قيل أنّها التی تلد التوائم، من ماده«وصل»و كانوا يحرمون ذبحها.

۴-«الحام»و اللفظه اسم فاعل من ماده«حمی»،و يطلق علی الفحل الذی يتخذ للتلقيح،فإذا استفيد منه فی تلقيح الأناث عشر مرات و ولدن منه،قالوا:لقد حمی ظهره،فلا يحق لأحد ركوبه،و من معانی«الحمايه»المحافظه و الحيلوله و المنع.

هناك احتمالات أخری وردت عند المفسّرين و فی الأحاديث بشأن تحديد هذه المصطلحات الأربعه،لكن القاسم المشترك بين كل هذه المعانی هو أنّها تدل جميعا علی حيوانات قدّمت خدمات كبيره لأصحابها فی«النتاج»فكان هؤلاء يحترمونها و يطلقون سراحها لقاء ذلك.

صحيح أنّ عملهم هذا ضرب من العرفان بالجميل و مظهر من مظاهر الشكر، حتی نحو الحيوانات،و هو بهذا جدير بالتقدير و الإجلال،و لكنّه كان تكريما لا معنی له لحيوانات لا تدرك ذلك.

كما كان-فضلا عن ذلك-مضيعه للمال و إتلافا لنعم اللّه و تعطيلها عن

الاستثمار النافع،ثمّ أنّ هذه الحيوانات،بسبب هذا الاحترام و التكريم،كانت تعانی من العذاب و الجوع و العطش لأنّه قلما يقدم أحد علی تغذيتها و العنايه بها.

و لما كانت هذه الحيوانات كبيره فی السن عاده،فقد كانت تقضی بقيه أيّامها فی كثير من الحرمان و الحاجه حتی تموت ميته محزنه،و لهذا كله وقف الإسلام بوجه هذه العاده! إضافه إلی ذلك،يستفاد من بعض الرّوايات و التفاسير أنّهم كانوا يتقربون بذلك كله،أو بقسم منه إلی أصنامهم،فكانوا فی الواقع ينذرون تلك الحيوانات لتلك الأصنام،و لذلك كان إلغاء هذه العادات تأكيدا لمحاربه كل مخلفات الشرك.

و العجيب فی الأمر،أنّهم كانوا يأكلون لحوم تلك الحيوانات إذا ما ماتت موتا طبيعيا (و كأنّهم يتبركون بها)و كان هذا عملا قبيحا آخر (۱) .

ثمّ تقول الآيه: وَ لٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَی اللّٰهِ الْكَذِبَ قائلين أنّ هذه قوانين إلهيه دون أن يفكروا فی الأمر و يعقلوه،بل كانوا يقلدون الآخرين فی ذلك تقليدا أعمی: وَ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ .

الآيه الثّانيه تشير إلی منطقهم و دليلهم علی قيامهم بهذه الأعمال: وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلیٰ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ إِلَی الرَّسُولِ قٰالُوا حَسْبُنٰا مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا .

فی الواقع،كان كفرهم و عبادتهم الأصنام ينبع من نوع آخر من الوثنيه،هو التسليم الأعمی للعادات الخرافيه التی كان عليها أسلافهم،معتبرين ممارسات أجدادهم لها دليلا قاطعا علی صحتها،و يرد القرآن بصراحه علی ذلك بقوله: أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ .

أی لو كان أجدادكم الذين يستندون إليهم فی العقيده و العمل من العلماء و المهتدين لكان اتباعكم لهم إتباع جاهل لعالم،لكنكم تعلمون أنّهم،لا يعلمون أكثر منكم و لعلهم أكثر تخلفا منكم،و من هنا فإنّ تقليدكم إيّاهم تقليد جاهل

۱- ۱) -تفسير«نور الثقلين»،ج ۱،ص ۶۸۴.

لجاهل،و هو فوض و مذموم فی میزان العقل.

ترکیز القرآن فی هـذه الآیه علی کلمه«أکثر»یـدل علی أنّه کانت فی ذلک المحیط الجاهلی المظلم فئه-و إن قلت-علی قـدر من الفهم بحیث تنظر بعین الاحتقار و الاشمئزاز إلی تلک الممارسات.

وثن اسمه«الأسلاف»:

من الأـمور التی کـانت سائـده فی الجـاهلیه و التی تکررت الإشاره إلیها فی القرآن التفاخر بالآباء و الأجـداد و إجلالهم إلی حدّ التقـدیس الأـعمی و إتبـاع أفکـارهم و عـاداتهم و تقالیـدهم.و لیس هـذا مقصورا علی الجاهلیه الاولی،فهو موجود بین کثیر من الأـقوام المعاصـره،و لعلّه أحـد أسـباب اشـاعه الخرافـات و انتقالهـا من جیل إلی جیل،و کان«الموت»یضـفی هاله من القدسـیه و الاحترام و الإجلال علی الأسلاف.

لاـ شـک أنّ روح الاـعتراف بالجمیـل و رعـایه المبادئ الإنسانیه توجب علینا احترام الماضـین من آبائنا و أجـدادنا،و لکن لا أن نعتبرهم معصومین عن کـل خطأ و مصونین عن کـل نقـد و تجریـح لأفکارهم و سـلوکهم فنتبع خرافاتهم و نقلـدهم فیها تقلیـدا أعمی،لیس هـذا فی الواقع سـوی لـون من ألـوان الـوثنیه و المنطـق الجـاهلی، إنّنـا من الممکن أن نحـترم أفکـارهم و تقالیـدهم المفیـده،و نحطم فی الـوقت نفسه عـاداتهم غیر الصـحیحه،خـاصّه و أن الأجیـال الحـدیثه أوسع علمـا و أعمق معرفه من الأجیـال السابقه بسبب مضی الزمن و تقدم العلم و التجربه،و ما من عقل رصین یجیز تقلید الماضین تقلیدا أعمی.

و من العجیب أن نری بعض العلماء و أساتذه الجامعه یعیشون هذا اللون من التقدیس الأعمی لعادات السلف، فیبلغ بهم التعصب القومی إلی التمسک بعادات و تقالید ما أنزل اللّه بها من سلطان متبعین بذلک منطق العرب فی جاهلیتهم الاولی.

تناقض بلا مبرّر:

جاء فی تفسیر«المیزان»و«الدر المنثور»عن عدد من الرواه منهم الحکیم الترمذی فی«نوادر الأصول»و عن غیره،عن أبی الأحوص عن أبیه،قال: أتیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی خلقان من الثیاب،فقال لی:«هل لک من مال؟»قلت:نعم، قال:«من أی المال؟»قلت:من کل المال،من الإبل و الغنم و الخیل و الرقیق،قال:

«فإذا أتاک اللّه،فلیر علیک».أی لا ینبغی أن تعیش کالمساکین مع انک صاحب ثروه.

ثمّ قال:«تنتج إبلک وافیه آذانها؟»قلت:نعم و هل تنتج الإبل إلاّ کذلک؟قال:

«فلعلک تأخذ موسی فتقطع آذان طائفه منها و تقول:هذه بحر،و تشق آذان طائفه منها و تقول:هذه الصرم؟»قلت:نعم،قال:«فلا تفعل،إن کل ما أتاک اللّه لک حل، ثمّ قال:ما جعل اللّه من بحیره و لا سائبه و لا وصیله و لا حام» (۱) .

نفهم من هذه الروایه أنّهم کانوا یجمدون قسما من أموالهم،و لکنّهم فی الوقت نفسه کانوا یقتصدون فی ملبسهم،بل و یبخلون فیه،و هذا نوع من التناقض الذی لا مسوغ له.

ص: ۱۷۰

۱- ۱) -تفسیر«المیزان»،ج ۶،ص ۱۷۲.

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۱۰۵]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اِهْتَدَيْتُمْ إِلَى اَللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵)

التّفسیر

اشاره

کلّ امرئ مسئول عن عمله:

دار الحدیث فی الآیه السابقه حول تقلید الجاهلیین آباءهم الضالین، فأنذرهم القرآن بأن تقلیدا کهذا لا ینسجم مع العقل و المنطق،فمن الطبیعی أن یتبادر إلی أذهانهم السؤال:إنّنا إذا کان علینا أن ننفصل عن أسلافنا فی هذه الأمور،فما ذا سیکون مصیرهم؟ثمّ إذا نحن أقلعنا عن هذه التقالید فما مصائر الکثیر من الناس الذین ما یزالون متمسکین بها و واقعین تحت تأثیرها فکان جواب القرآن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .

ثمّ یشیر إلی موضوع البعث و الحساب و مراجعه حساب کل فرد: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

ص :۱۷۱

ردّ على اعتراض:

أثار بعضهم شبهه حول هذه الآيه،فظن أنّ بين هذه الآيه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر-و هو من التشريعات الإسلاميه الصريحه المسلم بها-ضرب من التضاد أو التناقض،إذ أن هذه الآيه تقول عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .

هناك أحاديث و روايات تدل على أنّ هذا الموضوع أثار شبهه حتى فى عصر نزول الآيه يقول(جبير بن نفيل):كنت فى جمع من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جالسين بحضرته،و كنت أحدثهم سنا،و كان الحديث يدور حول الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فقاطعتهم و قلت:ألم يأت فى القرآن يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (أى بهذه الآيه لا يبقى ما يوجب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر)و إذا بالحاضرين يجمعون على توبيخى و تقريعى قائلين:كيف تقتبس آيه من القرآن دون أن تعرف معناها و تفسيرها؟ فندمت على ما قلت أشد الندم،و عادوا إلى بحثهم السابق.

و عند انفضاض المجلس التفتوا إلى قائلين:إنّك شاب حدث السن،قمت بتفصيل آيه من القرآن عما حولها بغير أن تعرف معناها.

و قد يطول بك العمر حتى ترى كيف يحيط البخل بالناس و يسيطر عليهم، و تسيطر عليهم أهواؤهم و يعتدّ كل منهم برأيه،فلتحذر يومئذ من أن يضرّك من ضل منهم(أى أنّ الآيه تشير إلى ذلك الزمان).

و اليوم نجد الراكنين إلى الدعه و طلاب الراحه،عند ما يدور الحديث حول القيام بهاتين الفريضتين الإلهيتين الكبيرتين-الأمر بالمعروف-و النهى عن المنكر -يتذرعون بهذه الآيه و يحرفونها عن موضعها،مع أنّنا بقليل من الدقّه فى النظر ندرك ألاّ تضاد بين هاتين الفريضتين و ما جاء فى هذه الآيه:

فأوّلا:تبيّن الآيه أنّ كل امرئ يحاسب على انفراد،و أنّ ضلال الآخرين من

الأسلاف و غير الأسلاف لا يؤثر فى هدايه الذين اهتدوا،حتى و إن كانوا قريبين قرب الأخ أو الأب أو الابن،لذلک فلا تتبعوهم و انجوا بأنفسكم(لاحظ بدقّه).

و ثانيا:تشير هذه الآيه إلى الحاله التى لا يكون للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر أى أثر،أو تكون شروط فاعليتهما غير متوفره،ففى أمثال هذه الحالات يشعر بعض المؤمنين بالألم،و يتساءلون عمّا ينبغى لهم أن يفعلوه،فتجيبهم الآيه:

لا تثريب عليكم،فقد أديتم واجبكم،إذ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .

نجد هذا المعنى فى الحديث الذى ذكرناه أعلاه،و كذلک

فى بعض الأحاديث الأخرى فقد سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن هذه الآيه فقال:«ائتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر،فإذا رأيت دنيا مؤثره وشحا مطاعا و هوى متبعا و إعجاب كل ذى رأى برأيه،فعليک بخويصه نفسک و ذر عوامهم» (۱) .

و هناک روايات أخرى بالمضمون نفسه و تفيد هذه الحقيقه ذاتها.

فخر الدين الرازى-حسب عادته-يذكر عده أوجه فى الإجابه على السؤال المذكوره،و لكنّها تكاد تعود كلها إلى الأمر الذى ذكرناه،و لعله ذكرها جميعا لبيان كثره عددها.

على كلّ حال،لا شک أنّ مسأله الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من أركان الإسلام التى لا يمكن التغاضى عنها بأى شكل من الأشكال،و لا تسقط إلّا عند اليأس من تأثيرها أو من توفر شروطها.

ص:۱۷۳

۱- ۱) -تفسير«نور الثقلين»،ج ۱،ص ۶۸۴.

الآيات [سوره المائده (۵): الآيات ۱۰۶ الی ۱۰۸]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ اَلْمَوْتُ حِينَ اَلْوَصِيَّةِ اِثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي اَلْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ اَلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ اَلصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللّهِ إِنِ اِرْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اَللّهِ إِنّا إِذاً لَمِنَ اَلْآثِمِينَ (۱۰۶) فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اِسْتَحَقّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ اَلَّذِينَ اِسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ اَلْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اِعْتَدَيْنا إِنّا إِذاً لَمِنَ اَلظّالِمِينَ (۱۰۷) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَ اِتَّقُوا اَللّهَ وَ اِسْمَعُوا وَ اَللّهُ لا يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلْفاسِقِينَ (۱۰۸)

سبب النّزول

جاء فی«مجمع البیان»و بعض التفاسیر الأخری فی سبب نزول هذه الآیات أنّ أحد المسلمین،و یدعی(ابن أبی ماریه)و معه اخوان مسیحیان من العرب

ص: ۱۷۴

یدعیان(تمیم)،(عدی)خرجوا من المدینه للتجاره،و فی الطریق مرض(ابن أبی ماریه)المسلم،فکتب وصیه أخفاها فی متاعه،و عهد بمتاعه إلی رفیقیه- النصرانیین-فی السفر،و طلب منهما أن یسلماه،إلی أهله،ثمّ مات ففتح النصرانیان متاعه و استولیا علی الثمین و النفیس فیه،و سلما الباقی إلی الورثه،و عند ما فتح الورثه متاعه لم یجدا فیه بعض ما کان ابن أبی ماریه قد أخذه معه عند سفره و فجأه عثروا علی الوصیه،و وجدوا فیها ثبتا بکل الأشیاء المسروقه،ففاتحوا المسیحیین بالموضوع،فأنکرا و قالا:لقد سلمناکم کل ما سلمه لنا،فشکوا الرجلین إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فنزلت هذه الآیات تبیّن حکم القضیه.

غیر أن سبب النّزول المذکور فی«الکافی»یقول:إنّهما أنکرا أوّلا وجود متاع آخر،و وصل الأمر إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لما لم یکن هناک دلیل ضدهما طلب منهما رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یحلفا الیمین،و برأهما،و لکن بعد أیّام قلیله ظهر بعض المتاع المسروق عند الرجلین فثبت کذبهما،فبلغ ذلک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فانتظر حتی نزلت الآیات المذکوره،عندئذ أمر أولیاء المیت بالقسم،و أخذ الأموال دفعها إلیهم.

التّفسیر

من أهم المسائل التی یؤکّدها الإسلام هی مسأله حفظ حقوق الناس و أموالهم و تحقیق العداله الاجتماعیه هذه الآیات تبیّن جانبا من التشریعات الخاصّه بذلک،فلکیلا تغمط حقوق ورثه المیت و أیتامه الصغار،یصدر الأمر للمؤمنین قائلا: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا شَهٰادَهُ بَیْنِکُمْ إِذٰا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ حِینَ الْوَصِیَّهِ اثْنٰانِ ذَوٰا عَدْلٍ .

المقصود بالعدل هنا العداله،و هی تجنب الذنوب الکبیره و نظائرها،و لکن یحتمل من معنی الآیه أیضا أنّ یکون المقصود من العداله:الأمانه فی الشؤون

ص: ۱۷۵

المالیه،إلاّ إذا ثبت بدلائل أخری ضروره توفر شروط أخری فی الشاهد.

و«منکم»تعنی من المسلمین بإزاء غیر المسلمین، الذین تأتی الإشاره إلیهم فی العباره التّالیه من الآیه.

لا بدّ من القول بأنّ القضیه هنا لا تتعلق بالشهاده العادیه المألوفه،بل هی شهاده مقرونه بالوصایه،أی أن هذین وصیان و شاهدان فی الوقت نفسه،أمّا الاحتمال القائل باختیار شخص ثالث کوصی بالإضافه إلی الشاهدین هنا،فإنه خلاف ظاهر الآیه و یخالف سبب نزولها،لأنّنا لاحظنا أنّ ابن أبی ماریه لم یکن یرافقه فی السفر غیر اثنین اختارهما وصیین و شاهدین.

ثمّ تأمر الآیه:إذا کنتم فی سفر و وافاکم الأجل و لم تجدوا وصیّا و شاهدا من المسلمین فاختاروا اثنین من غیر المسلمین: أَوْ آخَرٰانِ مِنْ غَیْرِکُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ فَأَصٰابَتْکُمْ مُصِیبَهُ الْمَوْتِ .

و علی الرغم من عدم وجود ما یفهم من الآیه أنّ اختیار الوصی و الشاهد من غیر المسلمین مشروط بعدم وجودهما من المسلمین،فهو واضح،لأنّ الاستعاضه تکون عند ما لا تجد من المسلمین من توصیه،کما أنّ ذکر قید السفر یفید هذا المعنی أیضا،و علی الرغم من أنّ(أو)تفید«التخییر»عاده،إلاّ أنّها هنا-و فی کثیر من المواضع الأخری-تفید«الترتیب»،أی اخترهما أوّلا من المسلمین،فإن لم تجد،فاخترهما من غیر المسلمین.

و غنی عن القول أنّ المقصود من غیر المسلمین هم أهل الکتاب من الیهود و النصاری طبعا،لأنّ الإسلام لم یقم وزنا فی أیه مناسبه للمشرکین و عبده الأصنام مطلقا.

ثمّ تقرر الآیه حمل الشاهدین عند الشهاده علی القسم باللّه بعد الصّلاه،فی حاله الشک و التردد: تَحْبِسُونَهُمٰا مِنْ بَعْدِ الصَّلاٰهِ فَیُقْسِمٰانِ بِاللّٰهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ .

و یجب أنّ تکون شهادتهما بما مفاده:إنّنا لسنا علی استعداد أن نبیع الحقّ

بمنافع ماديه،فنشهد بغير الحقّ حتى و إن كانت الشهاده ضد أقربائنا: لاٰ نَشْتَرِی بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبیٰ و إننا لن نخفی أبدا الشهاده الإلهيه،و إلاّ فسنكون من المذنبين: وَ لاٰ نَكْتُمُ شَهٰادَةَ اللّٰهِ إِنّٰا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ .

و لا بدّ أن نلاحظ ما يلی:

أوّلا:إنّ هذه التفاصيل فی أداء الشهاده إنّما تكون عند الشک و التردد.

و ثانيا:لا فرق بين المسلم و غير المسلم فی هذا كما يبدو من ظاهر الآيه، و إنّما هو فی الحقيقه-وسيله لإحكام أمر حفظ الأموال فی إطار الاتهام،و ليس فی هذا ما يناقض القبول بشهاده عدلين بغير تحليف،لأنّ هذا يكون عند انتفاء الشک فی الشاهدين،لذلک فلا هو ينسخ الآيه و لا هو مختص بغير المسلمين(تأمل بدقّه).

ثالثا:الصّلاه بالنسبه لغير المسلمين يقصد بها صلاتهم التی يتوجهون فيها إلی اللّه و يخشونه،أمّا بالنسبه للمسلمين فيقول بعض:إنّها خاصّه بصلاه العصر،و فی بعض الرّوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام إشاره إلی ذلک،إلاّ أنّ ظاهر الآيه هو الإطلاق و يشمل الصلوات جميعها،و لعل ذكر صلاه العصر فی رواياتنا يعود إلی جانبه الاستحبابی،إذ أنّ الناس يشتركون أكثر فی صلاه العصر،ثمّ ان وقت العصر كان الوقت المألوف للتحكيم و القضاء بين المسلمين.

رابعا:اختيار وقت الصّلاه للشهاده يعود إلی أنّ المرء فی هذا الوقت يعيش آثار الصّلاه التی تَنْهیٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْكَرِ (۱) و أنّه فی هذا الظرف الزمانی و المكانی يكون أقرب إلی الحقّ،بل قال بعضهم:إنّ من الأفضل أن تكون الشهاده فی«مكّه»عند الكعبه و بين«الركن»و«المقام»باعتباره من أقدس الأمكنه،و فی المدينه تكون جنب قبر رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم.

و فی الآيه التّاليه يدور الكلام علی ثبوت خيانه الشاهدين إذا شهدا بغير

۱- ۱) -العنكبوت،۴۵.

الحقّ،كما جاء فی سبب نزول الآیه،فالحکم فی مثل هـذه الحاله-أی عند الاطلاع علی أن الشاهدین قد ارتکبا إثمّ العدوان علی الحقّ و اضاعته-هو أن تستعیضوا عنهما باثنین آخرین ممن ظلمهما الشاهدان الأولان(أی ورثه المیت) فیشهدان لإحقاق حقهما: فَإِنْ عُثِرَ عَلیٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقّا إِثْماً فَآخَرانِ یَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِینَ اسْتَحَقَّ عَلَیْهِمُ الْأَوْلَیانِ .

یـذهب العلّامه الطبرسـی فی«مجمع البیان»إلی أنّ هذه الآیه تعتبر من حیث المعنی و الإعراب من أعقد الآیات و أصـعبها،و لکن بالالتفات إلی نقطتین نجد أنّها لیست بتلک الصعوبه و التعقید.

فالنّقطه الاولی:هی أن معنی«استحق»هنا بقرینه کلمه«إثم»هو إثمّ العدوان علی حق الآخرین.

و النّقطه الثّانیه:هی أنّ«الأولیان»تعنی هنا«الأولان»أی الشاهدان اللذان کانا علیهما أنّ یشهدا أوّلا و لکنّهما انحرفا عن طریق الحقّ.

و علیه یکون المعنی:إذا ثبت أنّ الشاهـدین الأولین ارتکبـا مخـالفه،فیقوم مقامهمـا اثنـان آخران ممن وقع علیهم ظلم الشاهـدین الأولین (1) .

ثمّ تبیّن ما ینبغی علی هذین الشاهدین أن یفعلاه فَیُقْسِمانِ بِاللّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَیْنا إِنّا إِذاً لَمِنَ الظّالِمِینَ .

لمّا کان أولیاء المیت علی علم بالأموال و الأمتعه التی أخـذها معه عنـد سـفره أو التی یملکها عموما،فیمکن أن یشـهدوا علی أنّ الشاهدین الأولین قد خانا و ظلما،و تکون هذه الشهاده حسیه مبنیه علی القرائن،لا حدسیه.

و الآیه الأخیره،فی الحقیقه،بیان لحکمه الأحکام التی جاءت فی الآیات السابقه بشأن الشهاده و هی أنّه إذا أجریت الأمور بحسب التعالیم،أی إذا طلب

---

١ - ١) -علی هـذا یکون إعراب«آخران»مبتـدأ،و جمله«یقومـان مقامهمـا»خبر،و«أولیـان»فاعل«اسـتحقا»و«من الـذین»أی من ورثه المیت الذین وقع علیهم الظلم،و الجار و المجرور صفه«آخران»«تأمل بدقّه».

الشاهدان للشهاده بعد الصّلاه بحضور جمع،ثمّ ظهرت خيانتهما،و قام اثنان آخران من الورثه مقامهما للكشف عن الحقّ،فذلك يحمل الشهود على أن يكونوا أدق فى شهادتهم،خوفا من اللّه أو خوفا من الناس: ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهٰادَةِ عَلىٰ وَجْهِهٰا أَوْ يَخٰافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمٰانٌ بَعْدَ أَيْمٰانِهِمْ .

فى الواقع سيكون هذا سببا فى الخشيه من المسؤوليه أمام اللّه و أمام الناس، فلا ينحرفان عن محجه الصواب.

و لتوكيد الأحكام المذكوره يأمر الناس قائلا: اِتَّقُوا اللّٰهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ .

ص :۱۷۹

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۱۰۹]

اشاره

یَوْمَ یَجْمَعُ اَللّٰهُ اَلرُّسُلَ فَیَقُولُ مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ قٰالُوا لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ اَلْغُیُوبِ (۱۰۹)

التّفسیر

هذه الآیه،فی الحقیقه،تکمله للآیات السابقه،ففی ذیل تلک الآیات الخاصّه بالشهاده الحقّه و الشهاده الباطله،کان الأمر بالتقوی و الخشیه من عصیان أمر اللّه، و فی هذه الآیه تذکیر بذلک الیوم الذی یجمع اللّه الرسل فیه و یسألهم عن رسالتهم و مهمتهم و عمّا قاله الناس ردا علی دعواتهم یَوْمَ یَجْمَعُ اللّٰهُ الرُّسُلَ فَیَقُولُ مٰا ذٰا أُجِبْتُمْ .

لقد نفوا عن أنفسهم العلم،و أوکلوا جمیع الحقائق إلی علم اللّه و قٰالُوا لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ و علیه فإنکم أمام علام الغیوب و أمام محکمه هذا شأنها،فاحذروا أن تنحرف شهادتکم عن الحقّ و العدل (۱) .

هنا یبرز سؤالان:الأوّل:إنّ ما یستفاد من الآیات القرآنیه أنّ الأنبیاء شهداء

۱- ۱) -یتّضح من هذا أن یَوْمَ... مفعول به لفعل محذوف تفسیره الآیه السابقه و تقدیر«اتقوا یوم».

على أممهم،بينما نجدهم فى هذه الآيه ينكرون كل علم و يوكلون كل شىء إلى اللّه.

و لكن ليس فى هذا اختلاف و لا تضاد،بل هو يحكى عن مرحلتين،فى المرحله الاولى و هى التى تشير إليها الآيه التى نحن بصددها،يظهر الأنبياء الأدب بإزاء سؤال اللّه،فينفون العلم عن أنفسهم،و يوكلون كل شىء إلى علم اللّه،و لكنّهم فى المراحل التّاليه يبيّنون ما يعرفونه عن أممهم و يشهدون،و هذا يكاد يشبه المعلم الذى يطلب من تلميذه أن يجيب على سؤال فيظهر التلميذ التأدب أوّل الأمر و يقول:أن علمه لا شىء بالنسبه لعلم المعلم،ثمّ بعد ذلك يدلى بما يعرف.

و السؤال الآخر:كيف ينفى الأنبياء العلم عن أنفسهم مع أنّهم إضافه إلى العلوم العاديه يعلمون الكثير من الحقائق الخفيه التى علمها اللّه لهم.

رغم أنّ للمفسّرين كلاما كثيرا فى جواب هذا السؤال،نرى أنّ الموضوع واضح و هو أنّ الأنبياء يرون علمهم لا شىء بالنسبه لعلم اللّه،و الحقّ كذلك، فوجودنا لا شىء بالنسبه لوجود اللّه الأبدى و علمنا لا وزن له بإزاء علم اللّه،فمهما يكن«الممكن»فإنّه لا يكون شيئا بإزاء«الواجب»،و بعباره أخرى:إنّ علم الأنبياء،و إن كان فى حد ذاته غزيرا،لكنه لا شىء بالقياس إلى علم اللّه.

فى الحقيقه،العالم الحقيقى هو الذى يكون حاضرا و ناظرا فى كل مكان و زمان،و عارفا بتركيب كل ذره من ذرات العالم،و بكل أجزاء هذا العالم المترابط فى وحده واحده،و هذه صفه تختص باللّه سبحانه.

يتّضح ممّا قلنا أنّ هذه الآيه ليست دليلا على نفى كل علم بالغيب عن الأنبياء و الأئمّه كما زعم بعضهم،و ذلك لأن«علم الغيب»بالذات يختص بمن يكون حاضرا فى كل مكان و زمان،و أمّا غيره تعالى فإنّه لا علم له بالغيب سوى ما يعلمه اللّه.

و هذا مأخوذ من آيات عديده فى القرآن،منها الآيه(۲۶)من سوره الجن:

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ و الآيه(۴۹)من سوره هود: تِلْكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهٰا إِلَيْكَ .

يستفاد من هذه الآيات و أمثالها أنّ علم الغيب مختص بذات اللّه،و لكنّه يعلّمه لمن يشاء و بالقدر الذى يشاء.

ص :۱۸۲

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۱۱۰]

اشاره

إِذْ قٰالَ اَللّٰهُ یٰا عِیسَی اِبْنَ مَرْیَمَ اُذْکُرْ نِعْمَتِی عَلَیْکَ وَ عَلیٰ وٰالِدَتِکَ إِذْ أَیَّدْتُکَ بِرُوحِ اَلْقُدُسِ تُکَلِّمُ اَلنّٰاسَ فِی اَلْمَهْدِ وَ کَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُکَ اَلْکِتٰابَ وَ اَلْحِکْمَهَ وَ اَلتَّوْرٰاهَ وَ اَلْإِنْجِیلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ اَلطِّینِ کَهَیْئَهِ اَلطَّیْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِیهٰا فَتَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِی وَ تُبْرِئُ اَلْأَکْمَهَ وَ اَلْأَبْرَصَ بِإِذْنِی وَ إِذْ تُخْرِجُ اَلْمَوْتیٰ بِإِذْنِی وَ إِذْ کَفَفْتُ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَنْکَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ فَقٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِینٌ (۱۱۰)

التّفسیر

اشاره

نعم اللّه علی المسیح:

هذه الآیه و الآیات التّالیه لها حتی آخر سوره المائده تختص بسیره حیاه السید المسیح علیه السّلام و النعم التی أسبغها اللّه علیه و علی أمّته،یبیّنها اللّه هنا لتوعیه المسلمین و ایقاظهم فتقول الآیه: إِذْ قٰالَ اللّٰهُ یٰا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ اذْکُرْ نِعْمَتِی عَلَیْکَ وَ عَلیٰ وٰالِدَتِکَ .

ص:۱۸۳

و معنى«إذ قال»:و اذكر إذ قال.

و حسب هذا التّفسير،تشرع هذه الآيات ببحث مستقل له جانبه التربوى للمسلمين و يرتبط بهذه الدنيا،إلاّ أن عددا من المفسّرين-كالطبرسى و البيضاوى و أبى الفتوح و الرازى-يرون أنّ هذه الآيه تابعه للآيه السابقه و تتعلق بالحوار الذى يدور بين اللّه و الأنبياء يوم القيامه،و على هذا يكون الفعل الماضى«قال» بمعنى«يقول»المضارع،غير أنّ هذا يخالف ظاهر الآيه،خاصّه و أنّ تعداد النعم التى أنزلت على شخص ما يستهدف إحياء روح الاعتراف بالجميل و الشكر فيه، و هذا لإمكان له يوم القيامه.

ثمّ تشرع الآيه بذكر النعم: إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ .

لقد بحثنا معنى«روح القدس»فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير بحثا مستفيضا و أحد الاحتمالات المقصوده هو أنّه إشاره إلى ملك الوحى،جبرائيل، و الاحتمال الآخر هو تلك القوه الغيبيه التى كانت تعين عيسى على إظهار المعجزات و على تحقيق رسالته المهمّه،و هذا المعنى موجود فى غير الأنبياء أيضا بدرجه أضعف.

من نعم اللّه الأخرى: تُكَلِّمُ النّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً أى أنّ كلامك فى المهد، مثل كلامك و أنت كهل،كلام ناضج و محسوب،لا كلام طفل غر.

ثمّ أيضا: وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ إنّ ذكر التّوراه و الإنجيل بعد ذكر كلمه كتاب مع أنّهما من الكتب السماويه،إنّما هو من باب التفصيل بعد الإجمال.

و من النعم الأخرى: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي .

و مع ذلك فإنّك تشفى بإذن اللّه الأعمى بالولاده و المصاب بالمرض الجلدى البرص: وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي .

ثمّ وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتىٰ بِإِذْنِی .

و أخیرا کان من نعمی علیک بأن منعت عنک أذی بنی إسرائیل یوم قام الکافرون منهم بوجهک و وسموا ما تفعل بأنّه السحر،فدفعت أذی أولئک المعاندین اللجوجین عنک و حفظتک حتی تسیر بدعوتک: وَ إِذْ کَفَفْتُ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَنْکَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ فَقٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِینٌ .

یستلفت النظر فی هذه الآیه أنّها تکرر«باذنی»أربع مرات لکیلا یبقی مکان للغلو فی المسیح علیه السّلام و ادعاء الألوهیه له،أی أنّ ما کان یحققه المسیح علیه السّلام بالرغم من إعجازه و إثارته الدهشه و مشابهته للأفعال الإلهیه،لم یکن ناشئا منه،بل کان من اللّه و باذنه،فما کان عیسی سوی عبد من عبید اللّه،مطیع لأوامره،و ما کان له إلاّ ما یستمده من قوه اللّه الخالده.

و قد یسأل سائل:إنّ کانت هذه النعم کلها قد أسبغت علی عیسی علیه السّلام فلما ذا تعتبر الآیه هذه النعم قد أسبغت علی أمّه أیضا؟ لا شک أنّ کل موهبه تصل الابن تکون قد وصلت الأم أیضا،فکلاهما من اصل واحد،و من شجره واحده.

و کما ذکرنا فی ذیل الآیه(۴۹)من سوره آل عمران،فإن هذه الآیه و الآیات المشابهه دلائل علی ولایه أولیاء اللّه التکوینیه،ففی تاریخ حیاه المسیح علیه السّلام ینسب إلیه إحیاء الموتی و إبراء الأکمه و الأبرص،و لکن بأمر اللّه و إذنه.

یتّضح من هذا أنّ من الممکن أن ینعم اللّه علی من یشاء قدره کهذه تمکنه من التصرف بعالم التکوین و القیام بأمثال هذه الأعمال أحیانا،إنّ تفسیر هذه الآیه بأنّها تشیر إلی دعاء الأنبیاء و استجابه اللّه لدعائهم هو خلاف ظاهر الآیه،و أنّ ما نقصده بولایه أولیاء اللّه التکوینیه هو هذا الذی قلناه آنفا،إذ لیس ثمّه دلیل علی أکثر من هذا المقدار(انظر تفسیر سوره آل عمران الآیه(۴۹)لمزید من التوضیح).

الآيات [سوره المائده (۵): الآيات ۱۱۱ الی ۱۱۵]

اشاره

وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى اَلْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنّا وَ اِشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (۱۱۱) إِذْ قالَ اَلْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى اِبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ اَلسَّماءِ قالَ اِتَّقُوا اَللّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۱۲) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ اَلشّاهِدِينَ (۱۱۳) قالَ عِيسَى اِبْنُ مَرْيَمَ اَللّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ اَلسَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَةً مِنْكَ وَ اُرْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ اَلرّازِقِينَ (۱۱۴) قالَ اَللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ اَلْعالَمِينَ (۱۱۵)

التّفسير

اشاره

قصّه نزول المائده على الحواريين:

تعقيبا على ما جاء فى الآيات السابقه من بحث حول ما أنعم اللّه به على المسيح عليه السّلام و أمّه يدور الحديث هنا حول النعم التى أنعم اللّه بها على الحواريين، أى أصحاب المسيح عليه السّلام.

ففى البدايه تشير الآيه إلى ما أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا باللّه و برسوله

ص :۱۸۶

المسیح علیه السّلام فاستجابوا وَ إِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوارِیِّینَ أَنْ آمِنُوا بِی وَ بِرَسُولِی قالُوا آمَنّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ .

إن للوحی فی القرآن معنی واسعا لا ینحصر فی الوحی الـذی ینزل علی الأنبیاء،بل أن الإلهام الذی ینزل علی قلوب الناس یعتبر من مصادیقه أیضا، لـذلک جاء هـذا المعنی فی الآیه(۷)من سوره القصـص بشأن أم موسـی التی أوحی إلیها (۱) بل إن الکلمه تطلق فی القرآن حتی علی الغرائز التکوینیه عند الحیوان، کالنحل.

و هناک احتمال أن یکون المقصود هو الإیحاء الذی کان یلقیه المسیح علیه السّلام بواسطه المعاجز فی نفوسهم.

لقد تناولنا الحواریین و أصحاب المسیح علیه السّلام بالبحث فی تفسیر آیه(۵۲)آل عمران هذا التّفسیر.

ثمّ تذکر الآیه نزول المائده من السماء: إِذْ قالَ الْحَوارِیُّونَ یا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ هَلْ یَسْتَطِیعُ رَبُّکَ أَنْ یُنَزِّلَ عَلَیْنا مائِدَهً مِنَ السَّماءِ .

«المائده»تعنی فی اللغه الخوان و السفره و الطبق،کما تعنی الطعام الذی یوضع علیها و أصلها من«مید»بمعنی التحرک و الاهتزاز،و لعل سبب إطلاق لفظه المائده علی السفره و الطعام هو ما یلازمها من تحریک و انتقال.

شعر المسیح علیه السّـلام بـالقلق من طلب الحواریین هـذا الـذی یـدل علی الشـک و التردد،علی الرغم من کـل تلـک الأدله و الآیات،فخاطبهم و قالَ اتَّقُوا اللّهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ .

و لکنّهم سرعان ما أکّدوا للمسیح علیه السّلام أن هدفهم بریء،و أنّهم لا یقصدون العناد و اللجاج،بل یریدون الأکل منها(مضافا إلی الحاله النّورانیه فی قلوبهم المترتبه علی تناول الغـذاء السـماوی لأنّ للغذاء و نوعیته اثر مسلّم فی روح الإنسان) قالُوا نُرِیدُ أَنْ نَأْکُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا،وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَکُونَ عَلَیْها مِنَ الشّاهِدِینَ .

۱- ۱) - وَ أَوْحَیْنا إِلی أُمِّ مُوسی أَنْ أَرْضِعِیهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَیْهِ فَأَلْقِیهِ فِی الْیَمِّ... .

فبيّنوا قصدهم أنّهم طلبوا المائده للطعام،و لتطمئن قلوبهم به لما سيكون لهذا الطعام الإلهى من أثر فى الروح و من زياده فى الثقه و اليقين.

و لمّا أدرک عيسى عليه السّلام حسن نيّتهم فى طلبهم ذاک،عرض الأمر على اللّه: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَهً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَهً مِنْکَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ .

من الواضح هنا أنّ الأسلوب الذى عرض به عيسى بن مريم الأمر على اللّه كان أليق و أنسب،و يحكى عن روح البحث عن الحقيقه و رعايه الشؤون العامّه للمجتمع.

فاستجاب اللّه لهذا الطلب الصادر عن حسن نيه و إخلاص، قالَ اللّهُ إِنِّى مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ .

فبعد نزول المائده تزداد مسئوليات هؤلاء و تقوى الحجه عليهم،و لذلک فإنّ العقاب سيزداد أيضا فى حاله الكفر و الانحراف.

ملاحظات:

اشاره

هنا لا بدّ من التحقيق فى عدّه نقاط من هذه الآيات الكريمه:

۱-ما القصد من طلب المائده؟

لا شک أنّ الحواريين لم يكونوا مدفوعين بقصد شىء فى طلبهم هذا،و لا هم كانوا يريدون المشاكسه و المعانده،بل كانوا يرغبون فى بلوغ مرحله الاطمئنان الأقوى و إبعاد ما بقى من رواسب الشک و الوسوسه من أعماقهم،فكثيرا ما يحدث أنّ إنسانا يتأكد من أمر بالمنطق و حتى بالتجربه،و لكن إذا كان الأمر مهما جدّا فإنّ بقايا من الشک و التردد تظل فى ثنايا قلبه،لذلک فهو شديد الرغبه فى أن تتكرر تجاربه و اختباراته،أو أن تتبدل استدلالاته المنطقيه و العلميه إلى مشاهدات عينيه تقتلع من أعماق قلبه جذور تلک الشكوک و الوساوس،و لهذا

نری إبراهیم علیه السّلام،علی ما کان علیه من مقام و یقین یسأل اللّه أن یری المعاد رأی العین لکی یتبدل إیمانه العلمی إلی«عین الیقین»و إلی«شهود».

و لکن أسلوب طلب الحواریین تمیز بشیء من الفضاضه لذلک ظن عیسی علیه السّلام أنّهم بصدد البحث عن الأعذار و الحجج،فاعترضهم و بعد أن شرحوا له حقیقه موقفهم وافق علی طلبهم.

۲-ما المقصود بعباره هَلْ یَسْتَطِیعُ رَبُّکَ ؟

لا شک أنّ ظاهر هذا الکلام یوحی بأنّ الحواریین کانوا یشکون فی قدره اللّه علی إنزال مائده،إلاّ أنّ المفسّرین المسلمین لهم آراء أخری فی تفسیرها،منها أنّ هذا الطلب وقع فی بدایه أمرهم و قبل أن یتعرفوا علی جمیع صفات اللّه.

و رأی آخر یقول:إنّ سؤالهم یعنی:هل یری اللّه أن من المصلحه أن ینزل علیهم مائده من السماء؟کأن یقول شخص:لا أستطیع أن أعهد إلی فلان بکل ثروتی،و لا یعنی أنّه لیس بقادر علی ذلک،بل یعنی أنّه لا یری مصلحه فی الأمر.

و رأی ثالث یقول:أن«یستطیع»تعنی«یستجیب»لأن ماده(طوع)تعنی الانقیاد،فإذا وردت من باب(الاستفعال)فیمکن أن تفید المعنی نفسه،فیکون المعنی:هل یستجیب اللّه لطلبنا بشأن إنزال مائده من السماء؟

۳-ما هی تلک المائده السماویه؟

لم یذکر القرآن شیئا عن محتویاتها،و لکن یستفاد من بعض الأحادیث، و خاصه الحدیث المروی عن الإمام الباقر علیه السّلام،أن تلک المائده کانت تحوی أرغفه من الخبر و مقدارا من السمک،و لعل سبب طلب هذه المعجزه کان ما سمعوه عن المائده السماویه التی نزلت علی بنی إسرائیل باعجاز من موسی علیه السّلام فطلبوا هم أیضا من عیسی علیه السّلام مثل ذلک.

۴-هل نزلت علیهم مائده؟

رغم أنّ الآیات المذکوره تکاد تصرح بنزول المائده،فاللّه لا یخلف وعده، و لکن العجیب أنّ بعض المفسّرین یشکون فی نزول المائده،و یقولون:أنّ

الحواريين حين عرفوا عظم المسؤوليه التى سوف تقع عليهم بعد نزول المائده، تخلوا عن طلبهم،و لكن الواقع أنّ المائده قد نزلت فعلا.

۵-ما العيد؟

«العيد»فى اللغه من«العود»أى الرجوع،لذلك فذكرى الأيّام التى تنداح فيها المشاكل عن قوم أو مجتمع و تعود أيام الفوز و الهناء الأوّل تكون عيدا.كذلك هى الأعياد الإسلاميه فبعد شهر من طاعه اللّه فى صوم رمضان،أو بعد أداء فريضه الحج العظيمه،يعود إلى النفس طهرها و صفاؤها الأولين الفطريين،و يزول التلوث عن الفطره،فيكون العيد،و لما كان يوم نزول المائده يوم العوده إلى الفوز و الطهاره و الإيمان باللّه،فقد سمّاه المسيح عليه السّلام عيدا.

و قد ورد فى الأخبار أنّ نزول المائده كان فى يوم الأحد،و لعل هذا هو سبب الاحترام الذى يكنه المسيحيون لهذا اليوم.

إنّنا

نقرأ لأمير المؤمنين على عليه السّلام قوله: «و كل يوم لا يعصى اللّه فيه فهو يوم عيد» (۱) .

و فى هذا إشاره إلى الموضوع نفسه،لأنّ يوم ترك المعصيه هو يوم فوز و طهاره و عوده إلى الفطره الاولى.

۶-لماذا العقاب الشديد؟

هنا أمر مهم ينبغى ألا نغفل عنه،و ذلك أنّه عند ما يبلغ الإيمان مرحله الشهود و عين اليقين أى عند ما ترى الحقيقه رأى العين،و لا يبقى مكان لأى شك أو تردد، فإنّ مسئوليه المرء تزداد و تثقل،لأنّ هذا المرء لم يعد ذلك الذى كانت تنتابه الوساوس و الشكوك من قبل،بل هو امرؤ ورد مرحله جديده من الإيمان و تحمل المسؤوليه،فأقل تقصير أو غفله من جانبه يستدعى العقاب الشديد،و لهذا فإنّ مسئوليه الأنبياء و أولياء اللّه أشد و أثقل،بحيث أنّهم كانوا فى خشيه دائمه منها، إننا فى الحياه اليوميه نصادف نماذج من هذا القبيل أيضا،فمثلا يعلم كل شخص

۱- ۱) -نهج البلاغه،الكلمات القصار،الكلمه ۴۲۸.

أنّ فی بلده أو مدینته جیاعا یتحمل مسئولیتهم،و لکنه عند ما یری بعینیه إنسانا بریئا یتضور جوعا و یتألم سغبا،فلا شک أنّ درجه مسئولیته تکون عندئذ أعلی.

٧-«العهد الجدید»و المائده.

فی الأناجیل الأربعه الموجوده حالیا لا نجد کلاما عن المائده کما فی القرآن،عدا ما جاء فی إنجیل یوحنا،فی الباب(٢١)،حول استضافه المسیح الإعجازیه جمعا من الناس بالخبز و السمک،و لکننا بقلیل من التفحص ندرک أنّ ذلک لا علاقه له بالمائده التی نزلت من السماء للحواریین (١) .

ثمّه کلام فی کتاب«أعمال الرسل»و هو من کتب العهد الجدید،یدور حول نزول مائده علی أحد الحواریین و اسمه بطرس،و لکن هذا أیضا لیس هو الموضوع الذی نحن بصدده،غیر أنّنا نعلم أن کثیرا من الحقائق التی نزلت علی عیسی علیه السّلام لا أثر لها فی الأناجیل السائده،کما أن کثیرا ممّا نراه فی هذه الأناجیل لم ینزل علی المسیح علیه السّلام (٢) .

١- ١) -«الهدی إلی دین المصطفی»،ج ٢،ص ٢٣٩.

٢- ٢) -نفس المصدر.

الآيات [سوره المائده (۵): الآيات ۱۱۶ الی ۱۱۸]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ اَللّٰهُ يٰا عِيسَى اِبْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اِتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قٰالَ سُبْحٰانَكَ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مٰا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِي وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ اَلْغُيُوبِ (۱۱۶) مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ اَلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۱۷) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۱۱۸)

التّفسير

اشاره

براءه المسيح من شرك أتباعه:

هذه الآيات تشير إلى حديث يدور بين اللّه و المسيح يوم القيامه،بدليل أنّنا بعد بضع آيات نقرأ: هٰذٰا يَوْمُ يَنْفَعُ الصّٰادِقِينَ صِدْقُهُمْ و لا شك أنّه يوم القيامه.

ثمّ أنّ جمله فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ دليل آخر على أنّ الحوار

ص: ۱۹۲

قـد جرى بعـد عهد نبوه المسـيح عليه السّـلام،و الفعل«قال»الماضـى لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه،لأنّ القرآن ملىء بذكر أمور عن يوم القيـامه اسـتعمل فيهـا الزمن الماضـى،و هو إشـاره إلى أنّ وقوعه حتمى،أى أنّ مجيئه فى المسـتقبل على درجه من الثبوت و الحتميه بحيث أنّه يبدو و كأنّه قد وقع فعلا،فيستعمل له صيغه الماضى.

على كل حال تقول الآيه الاولى: وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ .

لا ريب أنّ المسـيح عليه السّلام لم يقل شيئا كهذا،بل دعا إلى التوحيد و عباده اللّه،أنّ القصد من هذا الاستفهام هو استنطاقه أمام أمّته و بيان إدانتها.

فيجيب المسيح عليه السّلام بكل احترام ببضع جمل على هذا السؤال:

۱-أوّلا ينزّه اللّه عن كل شرك و شبهه: قٰالَ سُبْحٰانَكَ .

۲-ثمّ يقول: مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مٰا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ أى ما لا يحق لى قوله و لا يليق بى أن أقوله.

فهو فى الحقيقه لا ينفى هذا القول عن نفسه فحسب،بل ينفى أن يكون له حق فى قول مثل هذا القول الذى لا ينسجم مع مقامه و مركزه.

۳-ثمّ يستند إلى علم اللّه الـذى لا تحـده حدود تأكيدا لبراءته فيقول: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِي وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُيُوبِ (۱) .

۴- مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ ،لا أكثر من ذلك.

۵- وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۲) .

۱- ۱) -إطلاق كلمه«نفس»على اللّه لا يعنى الروح،فمن معانى النفس الذات.

۲- ۲) -فى معنى«توفى»و كونها لا تعنى موت المسيح عليه السّلام أنظر ذيل الآيه(۵۵)من سوره آل عمران فى المجلد الثّانى.

أی کنت أحول دون سقوطهم فی هاویه الشرک مدّه بقائی بینهم،فکنت الرقیب و الشاهد علیهم،و لکن بعد أن رفعتنی إلیک،کنت أنت الرقیب و الشاهد علیهم.

۶- إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُکَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ ،أی علی کل حال فالأمر أمرک و الإراده إرادتک،إن شئت أن تعاقبهم علی انحرافهم الکبیر فهم عبیدک و لیس بامکانهم أن یفروا من عذابک،فهذا حقّک بإزاء العصاه من عبیدک،و إن شئت أن تغفر لهم ذنوبهم فإنّک أنت القوی الحکیم،فلا عفوک دلیل ضعف،و لا عقابک خال من الحکمه و الحساب.

هنا یتبادر إلی الذهن سؤالان:

۱-هل یوجد فی تاریخ المسیحیه ما یدل علی أنّهم اتّخذوا من(مریم) معبوده؟أم أنّهم إنّما قالوا فقط بالتثلیث أو الآلهه الثلاثه:(الإله الأب)و(الإله الابن)و(روح القدس)علی اعتبار أن(روح القدس)هو الوسیط بین(الإله الأب) و(الإله الابن)و هو لیس(مریم).

للإجابه علی هذا السؤال نقول:صحیح أنّ المسیحیین لم یؤلهوا مریم، و لکنّهم کانوا یؤدون أمام تمثالها طقوس العباده،کالوثنیین الذی لم یکونوا یعتبرون الأصنام آلهه،و لکنّهم کانوا یعتبرونها شریکه للّه فی العباده.

و هناک فرق بین«اللّه»بمعنی الخالق،و ال«إله»بمعنی المعبود،و کانت(مریم) عند المسیحیین(آلهه)لا أنّها بمثابه«اللّه».

یقول أحد المفسّرین:إنّ المسیحیین علی اختلاف فرقهم،و إن لم یطلقوا کلمه (إله)أو معبود علی مریم،و اعتبروها أم الإله لا غیر،فهم فی الواقع یقدمون لها

طقوس الـدعاء و العباده،سواء أطلقوا عليها هـذا الاسم أم لم يطلقوه،ثمّ يضـيف قائلا:قبل مـدّه صـدر فى بيروت العدد التاسع من السـنه السـابقه من مجله(المشـرق) المسـيحيه بمناسـبه الـذكرى الخمسـين للبابـا(بيوس التـاسع)و فيهـا مواضـيع مـثيره عن السـيده مريم،منها تصريح بأنّ كلتا الكنيستين الشرقيه و الغربيه تعبدان(مريم).

و فى العدد الرّابع عشر من السنه الخامسه من الجمله نفسها مقال بقلم(الأب انستانس الكرملى)حاول فيه أن يعثر عن أصول عباده مريم حتى فى العهد القديم،فراح يفسر حكايه الأفعى(الشيطان)و المرأه(حواء)باعتبارها حكايه مريم (۱) .

و عليه فإنّ عباده مريم موجوده بينهم.

۲-السؤال الثّانى:كيف يتحدث المسيح عليه السّلام عن مشركى أمّته بعبارات يشم منها رائحه الشفاعه لهم فيقول: وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَکِيمُ ؟أ يكون المشـرك أهلاـ للشـفاعه و الغفران؟ فى الجواب نقول:لو كان قصـد عيسـى عليه السّـلام هو الشفاعه لهم لكان عليه أن يقول:

فإنك أنت الغفور الرحيم لأن غفران اللّه و رحمته هما اللذان يناسـبان مقام الشـفاعه،و لكنّنا نراه يقول فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَکِيمُ من هذا يتّضح أنّه لم يكن فى مقام الشفاعه لهم،بل كان يريد أن ينفى عن نفسه أى اختيار و أن يوكل الأمر كلّه إلى اللّه،إن شاء عفا،و إن شاء عاقب،و كل مشيئه منه سبحانه تستند إلى حكمه.

ثمّ ربّما كما بينهم جماعه أدركت خطأها و سارت على طريق التوبه،فتكون هذه الجمله قد قيلت بحقها.

۱- ۱) -تفسير«المنار»،ج ۷،ص ۲۶۳.

الآيتان [سوره المائده (۵): الآیات ۱۱۹ الی ۱۲۰]

اشاره

قٰالَ اَللّٰهُ هٰذٰا يَوْمُ يَنْفَعُ اَلصّٰادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً رَضِیَ اَللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۱۱۹) لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلیٰ كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ (۱۲۰)

التّفسیر

اشاره

الفوز العظیم:

بعد الحوار الذی جری بین اللّه و المسیح علیه السّلام یوم القیامه-کما شرحناه فی تفسیر الآیات السابقه-تقول الآیه قٰالَ اللّٰهُ هٰذٰا يَوْمُ يَنْفَعُ الصّٰادِقِينَ صِدْقُهُمْ .

طبیعی أنّ المقصود من هذا هو أنّ الصدق فی القول و العمل فی هذه الدنیا هو الذی ینفع فی الآخره،لأنّ الصدق فی الآخره-التی لا تکلیف فیها-لا ینفع شیئا ثمّ أنّ الوضع فی تلک الحیاه مختلف بحیث لا یستطیع أحد إلاّ أن یقول الصدق، حتی المذنبون یعترفون بسیئات ما عملوا،و علی هذا فلا وجود للکذب یوم القیامه.

و علیه،فإنّ الذین أنجزوا ما کلّفوا من مسئولیه و رساله و لم یسیروا إلاّ فی

و علیه،فإنّ الذین أنجزوا ما کلّفوا من مسئولیه و رساله و لم یسیروا إلاّ فی طریق الصدق،مثل المسیح علیه السّلام و أتباعه الصادقین،أو أتباع سائر الأنبیاء الآخرین الذین التزموا الصدق سینالون ثوابهم.

یتّضح لنا من هذا بأنّ جمیع الأعمال الصالحات یمکن أن تنطوی تحت عنوان الصدق فی القول و الفعل،و أنّه الرصید الذی ینفع یوم القیامه لا غیر.

و هؤلاء الصادقون: لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها و خیر من هذه النعمه المادیه أنّهم: رَضِیَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ و لا شک أنّ هذه النعمه الکبری التی تجمع بین النعم المادیه و النعم المعنویه شیء عظیم: ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ .

یلفت النظر أنّ الآیه،بعد ذکر بساتین الجنّه و نعمها الکثیره،تذکر نعمه رضی اللّه عن عباده،و رضی عباده عنه و تصف ذلک بأنّه الفوز العظیم،و هذا یدل علی مدی أهمیه هذا الرضی المتبادل،فقد یکون امرؤ غارقا فی أرفع نعم اللّه،و لکنّه إذا أحس بأنّ مولاه و معبوده و محبوبه لیس راضیا عنه،فإن جمیع تلک النعم و الهبات تصیر علقما فی ذائقه روحه.

کما یمکن أن یتوفر لامرئ کل شیء،و لکنه لا یکون راضیا و لا قانعا بما عنده،فمن الواضح أنّ هذه النعم بأجمعها غیر قادره علی إسعاد تلک الروح،بل تکون دائما معرضه لعذاب قلق غامض و اضطراب نفسی مستمر یقضیان علی الراحه النفسیه التی هی من أعظم نعم اللّه.

ثمّ إذا کان اللّه راضیا عن امرئ فإنّه یعطیه کل ما یرید،فإذا أعطاه کل ما یرید فإنّه یکون راضیا عن ربّه أیضا،من هنا فإنّ أعظم النعم هی أن یرضی اللّه عن الإنسان و یرضی الإنسان عن ربّه.

و فی آخر الآیه إشاره إلی امتلاک اللّه کل شیء و سیطرته علی السموات و الأرض و ما فیها،و أنّ قدرته عامّه تشمل کل شیء: لِلّهِ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

وَ مٰا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

.

هذه الآيه،فی الواقع،تعتبر سبب رضی عباد اللّه عن اللّه،و ذلک لأنّ الذی يملک کل شیء فی عالم الوجود له القدره أن يعطی عباده ما يريدون و أن يغفر لهم و أن يفرحهم و يرضيهم،کما تتضمن إشاره إلی عدم صدق أعمال النصاری فی عباده مريم،لأنّ العباده جديره بأن تکون لمن يحکم عالم الخليقه بأکمله،لا مريم التی لا تزيد عن کونها مخلوقه مثلهم.

ص :١٩٨

سوره الأنعام

اشاره

مكيّه و فيها مائه و خمس و ستون آيه

ص :۱۹۹

سوره محاربه أنواع الشرک و الوثنیه

قیل أنّ سوره الأنعام مکیه،و هی السوره التاسعه و الستون فی تسلسل نزول السور القرآنیه،إلاّ أنّ هناک اختلافا بشأن عدد من آیاتها،یعتقد بعض أنّ تلک الآیات نزلت فی المدینه،لکن الأخبار الواصله إلینا من أئمّه أهل البیت علیهم السّلام تفید بأن واحده من ممیزات هذه السوره هی أنّ آیاتها جمیعا نزلت فی مکان واحد، و علیه فکل آیاتها مکیه.

هدف هذه السوره الرئیسی-مثل أهداف السور المکیه-توکید الأصول الثلاثه:«التوحید»و«النبوه»و«المعاد»،و لکنها تؤکّد أکثر ما تؤکّد قضیه عباده اللّه الواحد و محاربه الشرک و الوثنیه،بحیث أنّ معظم آیات هذه السوره یخاطب المشرکین و عبده الأصنام،و بهذا یتناول البحث فی أکثر المواضع أعمال المشرکین و بدعهم.

علی کل حال،فإن تدبر آیات هذه السوره و التفکیر فی استدلالاتها الحیه الجلیه،یحیی روح التوحید و عباده اللّه فی الإنسان،و یحطم قواعد الشرک و یقتلع جذوره،و لعل السبب فی نزول هذه السوره فی مکان واحد هو هذا التماسک المعنوی و إعطاء الأولویه لمسأله التوحید.

و لعل هذا أیضا هو السبب لما نقرؤه من روایات عن فضل هذه السوره،و إنّها عند نزولها رافقها سبعون ألف ملک،و أنّ من یقرأها و ترتوی روحه من ینبوع

التوحيد يستغفر له كل أولئك الملائكه.

إنّ التمعن فى آيات هذه السوره يقضى على روح النفاق و التشتت بين المسلمين، و يجعل الآذان سميعه،و الأعين بصيره،و القلوب عارفه.

و لكن العجيب أن نرى بعضهم يكتفى من هذه السوره بقراءه ألفاظها فقط، و يعقد الجلسات لتلاوه آياتها من أجل حل المشاكل الشخصيه،فلو اهتمت هذه الجلسات بمحتوى السوره،فلا تنحل المشاكل الخاصّه وحدها،بل تنحل جميع مشاكل المسلمين العامّه أيضا،و من المؤسف جدا أنّ جمعا من الناس يعتبرون القرآن مجموعه من(الأوراد)التى لها خواص غامضه و مجهوله فيقرءونها بغير تمعن فى مضامينها،مع أن القرآن كلّه مدرسه و دروس و منهج و يقظه،و رساله و وعى.

ص:٢٠٢

الآیتان [سوره الأنعام (۶): الآیات ۱ الی ۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ جَعَلَ اَلظُّلُمٰاتِ وَ اَلنُّورَ ثُمَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱) هُوَ اَلَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضىٰ أَجَلاً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (۲)

التّفسیر

اشاره

تبدأ السّوره بالحمد للّه و الثناء علیه،ثمّ تشرع بتوعیه الناس علی مبدأ التوحید،عن طریق خلق العالم الکبیر(السموات و الأرض)أولا،ثمّ عن طریق خلق العالم الصغیر(الإنسان)ثانیا: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ اللّه الذی هو مبدأ الظّلمه و النّور،و بخلاف ما یعتقده الثنویون،و هو وحده خالق کل شیء: وَ جَعَلَ الظُّلُمٰاتِ وَ النُّورَ .

غیر أنّ الکافرین و المشرکین،بدلا من أن یتعلموا من هذا النظام الواحد درس التوحید،یصطنعون للّه الشریک و الشبیه: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱) .

نلاحظ أنّ القرآن یذکر عقیده المشرکین بعد حرف العطف«ثم»الذی یدل فی اللغه العربیه علی الترتیب و التراخی،و هذا یدل علی أن التوحید کان فی أوّل الأمر مبدأ فطریا و عقیده عامّه للبشر،بعد ذلک حصل الشرک کانحراف عن الأصل الفطری.

أمّا لماذا استعملت الآیه کلمه«الخلق»بشأن السموات و الأرض،و کلمه

۱- ۱) -«یعدلون»من«عدل»علی وزن«حفظ»بمعنی التساوی،و هی هنا بمعنی(العدیل)أی الشریک و الشبیه و المثیل.

«جعـل»بشـأن النّور و الظلمه،فـإنّ للمفسّـرين فی ذلک کلاما کثیرا،و لکن أقربه إلی الـذهن هو القول بأنّ«الخلق»یکون فی أصـل وجود الشـیء،و«الجعـل»یکون بشـأن الخصـائص و الآثـار و الکیفیـات التی هی نتیجه لخلق تلـک المخلوقـات،و لما کان النّور و الظلمه حالتین تابعتین فقد عبّر عنهما بلفظه«جعل».

و

روی عن أمیر المؤمنین علی علیه السّـلام فی تفسـیر هـذه الآـیه قوله:«و کـان فی هـذه الآـیه ردّ علی ثلاثه أصـناف منهم،لما قال: اَلْحَمْـدُ لِلّهِ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فکان ردّا علی الـدهریه الـذین قالوا:إنّ الأشـیاء لا بدء لها و هی دائمه، ثمّ قال: وَ جَعَلَ الظُّلُمٰاتِ وَ النُّورَ فکان ردّا علی الثنویه الذین قالوا:إنّ النّور و الظلمه هما المدبران.

ثمّ قال: ثُمَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ یَعْدِلُونَ فکان ردّا علی مشرکی العرب الذین قالوا:إنّ أوثاننا آلهه» (۱) .

هل الظّلمه من المخلوقات؟

تفیـد الآـیه إنّه مثلمـا أن«النّور»من مخلوقات اللّه،فإنّ«الظلمه»کـذلک من مخلوقاته،مع أنّ الفلاسـفه و المختصـین بالعلوم الطبیعیه یعرفون أنّ الظلمه هی انعـدام النّور،و لهذا فلا یمکن اطلاق صـفه«المخلوق»علی المعدوم إذن،کیف تعتبر الآیه المذکوره الظلمه من المخلوقات؟ فی ردّ هذا الاعتراض نقول.

أوّلاـ:الظّلمه لیس تعنی دائمـا الظلاـم المطلق،بـل کثیرا مـا تطلق علی النّور الضـعیف جـدا بالمقـارنه مع النّور القوی،فنحن جمیعا نقول،مثلاـ،لیـل مظلم،مع العلم بـأنّ ظلام اللیل لیس ظلاما مطلقا،بل هو مزیـج من نور النجوم الضـعیف أو مصادر أخری للنور،و علی هـذا یکون مفهوم الآیه هو أنّ اللّه جعل لکم نور النهار و ظلام اللیل،فالأوّل نور قوی و الآخر نور ضـعیف جـدا و واضح أنّ الظلمه،بهذا المعنی،تکون من المخلوقات.

و ثانیا:صحیح أنّ الظلمه المطلقه أمر عدمی،و لکن الأمر العدمی-فی ظروف

۱- ۱) -تفسیر«نور الثقلین»ج ۱،ص ۷۰۱.

خاصّه-یکون نابعا من أمر وجودی،أی أنّ یوجد الظلمه المطلقه فی ظروف خاصه لهدف معین ،لا بدّ أن یکون قد استعمل لذلک وسائل وجودیه،فإذا أردنا أنّ نجعل الغرفه مظلمه لتحمیض صوره-مثلا-فعلینا أن نمنع النّور لکی تحصل الظلمه فی تلک اللحظه المعینه،و ظلمه هذا شأنها ظلمه مخلوقه(مخلوقه بالتبع).

و إذا لم یکن(العدم المطلق)مخلوقا،فإن(العدم الخاص)له نصیب من الوجود،و هو مخلوق.

النّور رمز الوحده،و الظلمه رمز التشتت:

الأمر الآخر الذی ینبغی الالتفات إلیه هنا هو أنّ لفظه(نور)ترد فی القرآن بصیغه المفرد،بینما الظلمه تأتی بصیغه الجمع(ظلمات).

و قد یکون هذا إشاره لطیفه إلی حقیقه کون الظلام(المادی و المعنوی) مصدرا دائما للتشتت و الانفصال و التباعد،بینما النّور رمز التوحد و التجمع طالما شاهدنا أنّنا فی اللیله الصیفیه الظلماء نوقد سراجا فی فناء الدار،ثمّ لا تمضی إلاّ دقائق حتی نری مختلف أنواع الحشرات تتجمع حول السراج مؤلفه تجمعا حیا حول النّور،و لکننا إذا أطفأنا السراج تفرقت الحشرات کل إلی جهه، کذلک الحال فی الشؤون المعنویه و الاجتماعیه.فنور العلم و القرآن و الإیمان أساس الوحده،و ظلام الجهل و الکفر و النفاق أساس التفرق و التشتت.

قلنا:إنّ هذه السوره تسعی إلی لفت نظر الإنسان إلی العالم الکبیر لتثبیت قواعد عباده اللّه و التوحید فی القلوب،توجه نظره أوّلا إلی العالم الکبیر،و الآیه التّالیه تلفت نظره إلی العالم الصغیر(الإنسان)فتشیر إلی أعجب أمر،و هو خلقه من الطین فتقول هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ طِینٍ .

صحیح أنّنا ولدنا من أبوینا،لا من الطین،و لکن بما أنّ خلق الإنسان الأوّل کان من الطین،فیصح أن نخاطب نحن أیضا علی أننا مخلوقین من الطین.

و تستمر السوره فتشیر إلی مراحل تکامل عمر الإنسان فتقول:إنّ اللّه بعد ذلک عین مدّه یقضها الإنسان علی هذه الأرض للنمو و التکامل: ثُمَّ قَضیٰ أَجَلاً .

«الأجل»فی الأصل بمعنی«المدّه المعینه»و«قضاء الأجل»یعنی تعیین تلک

المدّه أو إنهاءها،و لكن كثيرا ما يطلق على الفرصه الأخيره اسم«الأجل»،فتقول، مثلا:جاء أجل الدّين،أى أنّ آخر موعد التسديد الدّين قد حل.و من هنا أيضا يكون التعبير عن آخر لحظه من لحظات عمر الإنسان بالأجل لأنّها موعد حلول الموت.

ثمّ لاستكمال البحث تقول: وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ .

بعد ذلك تخاطب الآيه المشركين و تقول لهم: ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ أى تشكون فى قدره الخالق الذى خلق الإنسان من هذه الماده التافهه(الطين)و اجتاز به هذه المراحل المدهشه،و تعبدون من دونه موجودات لا قيمه لها كالأصنام.

ما معنى الأجل المسمى؟

لا شك أنّ«الأجل المسمى»و«أجلا»فى الآيه مختلفتان فى المعنى،أمّا اعتبار الإثنين بمعنى واحد فلا ينسجم مع تكرار كلمه«أجل»خاصّه مع ذكر القيد:

«مسمى»فى الثّانى.

لذلك بحث المفسّرون كثيرا فى الاختلاف بين التعبيرين،و القرائن الموجوده فى القرآن و الرّوايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام تفيد أنّ«أجل»وحدها تعنى غير الحتمى من العمر و الوقت و المدّه،و«الأجل المسمى»بمعنى الحتمى منها،و بعباره أخرى«الأجل المسمى»هو«الموت الطبيعى»و«الأجل»هو الموت غير الطبيعى.

و لتوضيح ذلك نقول:إنّ الكثير من الموجودات لها من حيث البناء الطبيعى و الذاتى الاستعداد القابليه للبقاء مدّه طويله،و لكن قد تحصل خلال ذلك موانع تحول بينها و بين الوصول إلى الحد الطبيعى الأعلى،افترض سراجا نفطيا يستطيع أنّ يبقى مشتعلا مدّه عشرين ساعه مع الأخذ بنظر الإعتبار سعته النفطيه،غير أن هبوب ريح قويه،أو هطول المطر عليه أو عدم العنايه به،يكون سببا فى قصر مدّه الإضاءه،فإذا لم يصادف السراج أى مانع،و ظل مشتعلا حتى آخر قطره من نفطه ثمّ انطفأ نقول:إنّه وصل إلى أجله المحتوم،و إذا أطفأته الموانع قبل ذلك،فيكون عمره«أجل»غير محتوم.

و الحال كذلك بالنسبه للإنسان،فإذا توفرت جميع ظروف بقائه و زالت جميع الموانع من طريق استمرار حياته،فإن بنيته تضمن بقاءه مدّه طويله إلى حد معيّن، و لكنّه إذا تعرض لسوء التغذيه،أو ابتلى بنوع من الإدمان،أو إذا انتحر،أو أعدم لجريمه و مات قبل تلك المدّه،فإنّ موته فى الحاله الاولى يكون أجلا محتوما، و فى الحاله الثّانيه أجلا غير محتوم.

و بعباره أخرى:الأجل الحتمى يكون عند ما ننظر إلى«مجموع العلل التامّه».

و الأجل غير الحتمى يكون عند ما ننظر إلى«المقتضيات»فقط.

استنادا إلى هذين النوعين من الأجل يتّضح لنا كثير من الأمور،من ذلك مثلا ما نقرؤه فى الرّوايات و الأحاديث من أن صله الرحم تطيل العمر،و قطعها يقصر العمر،و واضح أنّ العمر هنا هو الأجل غير الحتمى.

أمّا قوله تعالى: فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (۱) .

فهو الأجل المحتوم،أى أنّ الإنسان قد وصل إلى نهايه عمره،و هو لا يشمل الموت غير المحتوم السابق لأوانه.

و لكن علينا أن نعلم-على كل حال-أنّ الأجلين يعينهما اللّه،الأوّل بصوره مطلقه،و الثّانى بصوره معلقه أو مشروطه،و هذا يشبه بالضبط قولنا:إنّ هذا السراج ينطفئ بعد عشرين ساعه بدون قيد و لا شرط،و نقول إنّه ينطفئ بعد ساعتين إذا هبت عليه ريح،كذلك الأمر بالنسبه للإنسان و الأقوام و الملل،فنقول:إنّ اللّه شاء أن يموت الشخص الفلانى أو أن تنقرض الأمّه الفلانيه بعد كذا من السنين،و نقول إنّ هذه الأمّه إذا سلكت طريق الظلم و النفاق و التفرقه و الكسل و التهاون فإنّها ستهلك فى ثلث تلك المدّه،كلا الأجلين من اللّه،الأوّل مطلق و الآخر مقيد بشروط.

جاء عن الإمام الصادق عليه السّلام تعقيبا على هذه الآيه قوله:«هما أجلان:أجل محتوم و أجل موقوف» كما جاء عنه فى أحاديث أخرى أنّ الأجل الموقوف قابل للتقديم و التأخير،و الأجل الحتمى لا يقبل التغيير (۲) .

۱- ۱) -الأعراف،۳۴.

۲- ۲) -تفسير«نور الثقلين»،ج ۱،ص ۵۰۴.

الآيه [سوره الأنعام (۶): آيه ۳]

اشاره

وَ هُوَ اَللّٰهُ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ فِي اَلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُونَ (٣)

التّفسير

هـذه الآـيه تكمل البحث السابق في التوحيـد و وحـدانيه اللّه،و ترد على الـذين يقولون بوجود إله لكل مجموعه من الكائنات،أو لكـل ظـاهره من الظـواهر، فيقولـون:إله المطر،و إله الحرب،و إله السـلم،و إله السـماء،و مـا إلى ذلـك،تقـول الآـيه: وَ هُوَ اللّٰهُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ فِي الْأَرْضِ (١) أي كما أنّه خالق كل شيء فهو مدبر كل شيء أيضا،و بذلك ترد الآيه على مشركي الجاهليه الذين كانوا يعتقدون أنّ الخالق هو«اللّه»لكنّهم كانوا يؤمنون أنّ تدبير الأمور بيد الأصنام.

هنالك احتمال آخر في تفسير الآيه،و هو أنّها تعني حضور اللّه في كل مكان، في السموات و الأرض،و لا يخلو منه مكان،فليس هو بجسم ليشغل حيزا معينا، بل هو المحيط بكل الأمكنه.

١- ١) -ثمّه اختلاف بين المفسّرين حول إعراب هـذه العباره القرآنيه و الظاهر أنّ«هو»مبتدأ و«اللّه»خبر.و فِي السَّمٰاوٰاتِ... جار و مجرور متعلقان بفعل تدل عليه كلمه«اللّه»و التقدير:(هو المتفرد في السموات و الأرض بالألوهيه).

من الطبیعی أن یکون الحاکم علی کل شیء و المدبر لکل الأمور و الحاضر فی کل مکان عارفا بجمیع الأسرار و الخفایا و لهذا تقول الآیه:إنّ ربّا کهذا یَعْلَمُ سِرَّکُمْ وَ جَهْرَکُمْ وَ یَعْلَمُ مٰا تَکْسِبُونَ .

قد یقال بأنّ(السرّ)و(الجهر)یشملان أعمال الإنسان و نوایاه،و علی ذلک فلا حاجه لذکر وَ یَعْلَمُ مٰا تَکْسِبُونَ .

و لکن ینبغی الالتفات إلی أنّ«الکسب»هو نتائج العمل و الحالات النفسیه الناشئه عن الأعمال الحسنه و الأعمال السیئه،أی أنّ اللّه یعلم أعمالکم و نوایاکم، کما یعلم الآثار التی تخلفها تلک الأعمال و النوایا فی نفوسکم،و علی کل حال، فانّ ذکر العباره هذه یفید التوکید بشأن أعمال الإنسان.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۴ الی ۵]

اشاره

وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَهٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ (۴) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبٰاءُ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۵)

التّفسیر

قلنا:إنّ معظم الخطاب فی سوره الأنعام موجه إلی المشرکین،و القرآن یستخدم شتی السبل لإیقاظهم و توعیتهم،فهذه الآیه و الآیات الکثیره التی تلیها تواصل هذا الموضوع.

تشیر هذه الآیه إلی روح العناد و اللامبالاه و التکبر عند المشرکین تجاه الحقّ و تجاه آیات اللّه فتقول: وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَهٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ (۱) .

أی أنّ أبسط شروط الهدایه-و هو البحث و التقصی-غیر موجود عندهم، و لیس فیهم أی اندفاع لطلب الحقیقه،و لا یحسّون بعطش إلیها لیبحثوا عنها،

ص: ۲۱۰

۱- ۱) -کلمه«آیه»نکره،و وردت فی سیاق النفی،فیکون المعنی:إنّهم یعرضون عن کل آیه و لا یفکرون فیها.

و حتی لو تـدفّق ینبـوع المـاء الزلال عنـد عتبـات بیـوتهم لأعرضوا عنه و لما نظروا الیه ...و کـذلک فهـم یعرضـون عن آیات«ربّهم»النازله لتربیتهم و تکاملهم.

مثل هذه النفسیه لا یقتصر وجودها علی عهود الجاهلیه و مشرکی العرب، فالیوم أیضا نجد من بلغ الستین من عمره و مع ذلک لم یجشم نفسه عناء ساعه واحده من البحث و التحقیق فی اللّه و الدین،و إن وقع بیده کتاب أو بحث فی هذا الموضوع لم ینظر إلیه،و إن تحدث إلیه أحد بهذا الشأن لم یصغ إلیه،هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذین قد یظهرون أحیانا أمام الناس بمظهر العالم المتجبر! ثمّ تشیر الآیه إلی نتیجه أعمالهم،و هی:أنّهم عند ما رأوا الحقیقه کذبوها،و لو أنّهم دققوا فی آیات اللّه جیدا لرأوا الحقیقه و أدرکوها و آمنوا بها: فَقَدْ کَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ ،و لسوف تصلهم نتیجه هذا التکذیب و السخریه: فَسَوْفَ یَأْتِیهِمْ أَنْباءُ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ .

فی هاتین الآیتین إشاره إلی ثلاث مراحل من الکفر تتزاید فی الشدّه علی التوالی،المرحله الاولی هی مرحله الإعراض،ثمّ مرحله التکذیب،و أخیرا مرحله الاستهزاء بآیات اللّه.

یدل هذا علی أنّ الإنسان فی کفره لا یتوقف فی مرحله واحده،بل یزداد باستمرار إنکارا للحق و عدواه له و ابتعادا عن اللّه.

المقصود من التهدید المذکور فی آخر الآیه أنّ أوزار عدم الإیمان ستحیق بهم عاجلا-أو آجلا فی الدنیا و الآخره،و الآیات التّالیه تؤکّد هذا التّفسیر.

ص :211

الآيه [سوره الأنعام (۶): آيه ۶]

اشاره

أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِی اَلْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا اَلسَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا اَلْأَنْهارَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۶)

التّفسير

اشاره

مصير الطّغاه:

ابتداء من هذه الآيه و ما بعدها يشرع القرآن بعرض خطّه تربويه مرحليه لإيقاظ عبده الأصنام و المشركين تتناسب مع اختلاف الدوافع عند الفريقين،يبدأ أوّلا بمكافحه عامل(الغرور)و هو من عوامل الطغيان و العصيان و الانحراف المهمّه،فيذكرهم بالأمم السالفه و مصائرهم المؤلمه،و بذلك يحذر هؤلاء الذين غطت أبصارهم غشاوه الغرور،و يقول: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِی الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً (۱) وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمْ .

ص: ۲۱۲

۱- ۱) -«المدرار»فی الأصل من«در»اللبن،ثم انتقل إلی ما يشبهه فی النزول كالمطر و الكلمه صيغه مبالغه،و جمله«أرسلنا

و لكنّهم لمّا استمروا على طريق الطغيان،لم تستطع هذه الإمكانات إنقاذهم من العقاب الإلهى: فَأَهْلَكْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ .

أ فلا ينبغى أنّ يكون علمهم بمصائر الماضين عبره لهم،توقظهم من نوم غفلتهم،و من سكرتهم؟أليس اللّه الذى أهلك السابقين بقادر على أن يهلك هؤلاء أيضا؟ هاهنا بضع نقاط نلفت إليها الانتباه:

۱-على الرّغم من أن«قرن»تعنى فتره طويله من الزمن(مائه،أو سبعين أو ثلاثين سنه)،و لكنّها قد تعنى أيضا-كما يقول اللغويون- القوم و الجماعه فى زمان معين(القرن من الاقتران بمعنى التقارب،و بالنظر لأنّ أهل العصر الواحد أو العصور المتقاربه قريبون من بعضهم فقد يطلق عليهم و على زمانهم اسم القرن).

۲-يتكرر فى القرآن القول بأنّ الإمكانات الماديه الكثيره تبعث على الغرور و الغفله لدى ضعفاء النفس من الناس كقوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَيَطْغىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنىٰ (۱) لأنّهم بتوفر تلك الإمكانات عندهم يرون أنفسهم فى غنى عن اللّه، غافلين عن العنايه الإلهيه و الإمدادات الربانيه المغدقه عليهم فى كل لحظه و ثانيه،و لولاها لما استمروا على قيد الحياه.

۳-ليس هذا التحذير مختصا بعبده الأصنام،فالقرآن يخاطب-أيضا-اليوم العالم الصناعى الثرى الذى أثملته الإمكانات الماديه و ملأته بالغرور،و يحذره من نسيان الأقوام السابقه و ممّا حاق بهم نتيجه ما ارتكبوه من ذنوب،و كأنى بالقرآن يقول للمغرورين فى عالمنا اليوم:إنّكم ستفقدون كل شىء بانطلاق شراره حرب عالميه أخرى،لتعودوا إلى عصر ما قبل التمدن الصناعى اعلموا أنّ سبب

۱)

السماء»للزياده فى المبالغه.

۱- ۱) -العلق،۶ و ۷.

تعاسه أولئك لم يكن شيئا سوى إثمهم و ظلمهم و اضطهادهم الناس و عدم إيمانهم و هذه عوامل ظاهره فى مجتمعكم أيضا.

حقا إنّ دراسه تاريخ فراعنه مصر،و ملوك سبأ و سلاطين كلده و آشور، و قياصره الرّوم،و معيشتهم الباذخه الأسطوريه و ما كانوا يتقلبون فيه من نعم لا- تعد و لا- تحصى،ثمّ رؤيه عواقب أمورهم المؤلمه التى حاقت بهم بسبب ظلمهم الذى قوض أركان حياتهم،فيها أعظم العبر و الدروس.

ص: ۲۱۴

الآيه [سوره الأنعام (۶): آيه ۷]

اشاره

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْکَ کِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ (۷)

التّفسير

اشاره

منتهى العناد!

من عوامل انحرافهم الأخرى التكبر و العناد اللـذين تشـير إليهما،هذه الآيه، أنّ المتكبر المكابر انسان عنيد فى العاده،لأنّ التكبر لا يسـمح لهم بالاستسـلام للحق و الحقيقه،و الأفراد المتصـفون بهـذه الصـفه يكونون عاده معانـدين مكابرين، ينكرون حتى الأمور الواضحه القائمه على الدليل و البرهان،بل ينكرون حتى البديهيات،كما نراه بأمّ أعيننا فى المتكبرين من أبناء مجتمعاتنا.

يشـير القرآن هنا إلى الطلب الـذى تقدم به جمع من عبده الأصـنام(يقال أنّ هؤلاء هم نضـر بن الحارث و عبد اللّه بن أبى أميه،و نوفل بن خويلد الذين قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:لن نؤمن حتى ينزل اللّه كتابا مع أربعه من الملائكه!)و يقول:

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْکَ کِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ

.

أى أنّ عنادهم قد وصل حدّا ينكرون فيه حتى ما يشاهدونه بأعينهم و يلمسونه بأيديهم فيعتبرونه سحرا لكيلا يستسلموا للحقيقه،مع أنّهم فى حياتهم اليوميه يكتفون بعشر هذه الدلائل للإيمان بالحقائق و يقتنعون بها،و ما هذا بسبب ما فيهم من أنانيه و تكبر و عناد.

و بهذه المناسبه فإنّ«القرطاس»هو كل ما يكتب عليه،سواء أ كان ورقا أو جلدا أو ألواحا،أمّا إطلاقه اليوم على الورق فذلك لانتشار تداول الورق أكثر من غيره للكتابه.

ص :٢١۶

الآیات [سوره الأنعام (۶): الآیات ۸ الی ۱۰]

اشاره

وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنٰا مَلَكاً لَقُضِيَ اَلْأَمْرُ ثُمَّ لاٰ يُنْظَرُونَ (۸) وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنٰا عَلَيْهِمْ مٰا يَلْبِسُونَ (۹) وَ لَقَدِ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحٰاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۰)

التّفسیر

اشاره

خلق المبررات:

من عوامل الکفر و الإنکار الأخری،روح التحجج و البحث عن المبررات، و علی الرغم من أنّ لهذه الروح عوامل أخری،مثل التکبر و الأنانیه،و لکنّه ینقلب بالتدریج إلی حاله نفسیه سلبیه،تصبح بدورها عاملا من عوامل عدم التسلیم للحق.

و من جمله الحجج التی احتج بها المشرکون علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أشار إلیها القرآن فی کثیر من آیاته-و منها هذه الآیه-هی أنّهم کانوا یقولون:لماذا یقوم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وحده بهذا الأمر العظیم؟لماذا لا یقوم معه بهذا الأمر أحد من غیر

جنس البشر،من جنس الملائكه؟أ يمكن لإنسان من جنسنا أنّ يحمل بمفرده هذه الرساله على عاتقه؟ وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ .

و لا مجال لهذا التحجج على نبوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع كل هذه الدلائل الواضحه و الآيات البيّنات،ثمّ إنّ الملك ليس أقدر من الإنسان و لا يملك قابليه لحمل رساله أكثر من قابليه الإنسان بل انّ قابليه الإنسان أكثر بكثير.

يرد القرآن عليهم بجملتين فى كل منهما برهان:

الاولى: وَ لَوْ أَنْزَلْنٰا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لاٰ يُنْظَرُونَ .

أى لو نزل ملك لمعاونه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهلك الكافرون،و سبب ذلك ما مرّ فى آيات سابقه،و هو أنّه إذا اتخذت النبوه جانب الشهود و الحس،أى إذا تحول الغيب بنزول الملك إلى شهود،بحيث يرى كل شىء عيانا،غدت المرحله هى المرحله النهائيه فى إتمام الحجه،إذ لا يكون ثمّه دليل أوضح منها،و على ذلك فإن العصيان فى هذه الحاله يستوجب العقاب القاطع،و لكن اللّه للطفه و رحمته بعباده،و لكى يمنحهم فرصه التأمل و التفكير،لا يفعل ذلك إلاّ فى حالات خاصّه يكون فيها طالب الدليل على أتمّ استعداد،أو فى حالات يستحق فيها طالب الدليل الهلاك،أى أنّه ارتكب ما يستوجب معه العقاب الإلهى، فى هذه الحاله يحقق له طلبه،ثمّ إذا لم يستسلم صدر أمر هلاكه.

الثّانيه:هى أنّ الرّسول الذى يبعثه اللّه لقياده الناس و تربيتهم و ليكون أسوه لهم،لا بدّ أن يكون من جنس الناس أنفسهم و على شاكلتهم من حيث الصفات و الغرائز البشريه،أمّا الملك فلا يظهر لعيون البشر كما أنّه ليس بإمكانه أنّ يكون قدوه عمليه لهم،لأنّه لا يدرى شيئا عن حاجاتهم و آلامهم و لا عن غرائزهم و متطلباتها،لذلك فإن قيادته لجنس يختلف عنه كل الاختلاف لا يحقق الهدف.

لذلك فالقرآن فى الجواب الثّانى يقول:لو شئنا أن يكون رسولنا ملكا حسبما يريدون،لوجب أن يتصف هذا الملك بصفات الإنسان و أن يظهر فى هيئه إنسان:

وَ لَوْ جَعَلْنٰاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً

(١)

.

يتّضح ممّا قلنا أنّ جمله لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً لا تعنى:أنّنا سنجعله على هيئه انسان،كما تصور بعض المفسّرين،بل تعنى:أنّنا نجعله على هيئه البشر فى الصفات الظاهريه و الباطنيه،ثمّ يستنتج من ذلك أنّهم-فى هذه الحاله أيضا-كانوا سيعترضون الاعتراض نفسه،و هو:لماذا أوكل اللّه مهمّه القياده إلى بشر و أخفى عنّا وجه الحقيقه: وَ لَلَبَسْنٰا عَلَيْهِمْ مٰا يَلْبِسُونَ .

«اللبس»بمعنى خلط الأمر و جعله مشتبها بغيره خافيا،و«اللبس»بمعنى ارتداء اللباس، و من الواضح أنّ الآيه تقصد المعنى الأوّل،أى أنّنا لو أردنا أن نرسل ملكا لوجب أن يكون فى صوره الإنسان و سلوكه،و فى هذه الحاله سيعتقدون أنّنا خلطنا الأمر على الناس و أوقعناهم فى الاشتباه،و لكانوا يشكلون علينا الإشكالات السابقه،بمثل ما يوقعون الجهله من الناس فى الخطأ و الاشتباه و يلبسون وجه الحقيقه عنهم،و عليه فإنّ نسبه«اللبس»و الإخفاء إلى اللّه إنّما هى من وجهه نظرهم الخاصه.

و فى الختام يهون الأمر على رسوله و يقولون له: وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحٰاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ .

هذه الآيه فى الواقع تسليه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يطلب اللّه فيها منه أن لا تزعزعه الزعازع،و يهدد فى الوقت نفسه المخالفين و المعاندين و يطلب منهم أن يتفكروا فى عاقبه أمرهم المؤلمه (٢) .

١- ١) -الضمير«جعلناه»يمكن أن يعود على الرّسول،أو على من يرسل معه لإعانته على تثبيت النبوه و على الاحتمال الثّانى يكون اقتراحهم قد تحقق،و على الأوّل قد تحقق أكثر ممّا طلبوه.

٢- ٢) -«حاق»بمعنى أحاط به و حل به،و «مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» أى ما كانوا يستهزئون به من تهديد و إنذار يسمعونه من أنبياء اللّه مثل إنذار نوح و قومه بوقوع الطوفان،فكان قومه من عبده الأصنام يسخرون من ذلك.و عليه فلا ضروره لتقدير كلمه «جزاء»كما يقول بعضهم،إذ يكون المعنى:العقوبات التى كانوا يستهزئون بها حلت بهم.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۱]

اشاره

قُلْ سِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ ثُمَّ اُنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلْمُکَذِّبِینَ (۱۱)

التّفسیر

لکی یوقظ القرآن هؤلاء المعاندین المغرورین یسلک فی هذه الآیه سبیلا آخر فیأمر رسوله أن یوصیهم بالسیاحه فی أرجاء الأرض لیروا بأعینهم مصائر أولئک الذین کذبوا بالحقائق،فلعل ذلک یوقظهم من غفلتهم قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ الْمُکَذِّبِینَ .

لا شک أنّ لرؤیه آثار السابقین و الأقوام التی هلکت بسبب إنکارها الحقائق تأثیرا أعمق من مجرّد قراءه کتب التّأریخ،لأنّ هذه الآثار تجسد الحقیقه ناطقه ملموسه،و لهذا استعمل جمله«أنظروا»و لم یقل«تفکروا».

و لعل استعمال«ثم»لعاطفه التی تفید عاده التراخی الزمنی یراد منه أن لا یتعجلوا فی سیرهم و فی اطلاق أحکامهم،علیهم أن یمعنوا النظر فی تلک الآثار التی خلفتها الأقوام السالفه و یفکروا فیها ثمّ یأخذوا منها العبر و یروا عاقبه أعمال تلک الأمم.

فیما یتعلق بالسیر و السیاحه فی الأرض و تأثیره فی إیقاظ الأفکار انظر تفسیر الآیه(۱۳۷)من سوره آل عمران فی هذا التّفسیر.

ص :۲۲۱

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۲ الی ۱۳]

اشاره

قُلْ لِمَنْ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ کَتَبَ عَلیٰ نَفْسِهِ اَلرَّحْمَهَ لَیَجْمَعَنَّکُمْ إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۱۲) وَ لَهُ مٰا سَکَنَ فِی اَللَّیْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۱۳)

التّفسیر

اشاره

یواصل القرآن مخاطبه المشرکین،ففی الآیات السابقه دار الکلام حول التوحید و عباده اللّه الأحد و هنا یدور الحدیث عن المعاد،و بالإشاره إلی مبدأ التوحید یواصل القول عن المعاد بطریقه رائعه،هی طریقه السؤال و الجواب، و السائل و المجیب کلاهما واحد،و هو من الأسالیب الأدبیه الجمیله.

یتکون الاستدلال هنا علی المعاد من مقدمتین:

أوّلا:یقول: قُلْ لِمَنْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .ثمّ یقول مباشره:أجب أنت بلسان فطرتهم و روحهم: قُلْ لِلّٰهِ ،فبموجب هذه المقدمه یکون کل عالم الوجود ملکا للّه و بیده و تدبیره.

ثانیا:إنّ اللّه هو وحده مصدر کل رحمه،و هو الذی أوجب علی نفسه الرحمه، و یفیض بنعمه علی الجمیع: کَتَبَ عَلیٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَهَ .

أ یمکن لربّ هذا شأنه أن یقطع سلسله حیاه البشر نهائیا بالموت فیوقف التکامل و استمرار الحیاه؟أ یتفق هذا مع مبدأ کون اللّه«فیاضا»و«ذا رحمه واسعه»؟أ یمکن أن یکون قاسیا علی عباده بهذا الشکل،و هو مالکهم و مدبر شؤونهم،بحیث أنّهم بعد مدّه یفنون و یتبدلون إلی لا شیء؟ طبعا لا-إذ أنّ رحمته الواسعه توجب علیه أن یسیر بالکائنات-و خاصه البشر-فی طریق التکامل،بمثل ما یجعل برحمته من البذره الصغیره الزهیده شجره ضخمه قویه،أو یحیلها إلی شجیره ورد جمیله،کما أنّه بفیض رحمته یبدل النطفه التافهه إلی انسان کامل،هذه الرحمه نفسها توجب أن یرتدی الإنسان- الذی عند امکانیه الخلود-لباس حیاه جدیده بعد موته فی عالم أوسع،تدفعه ید الرحمه فی سیره التکاملی الأبدی،لذلک یقول بعد هاتین المقدمتین: لَیَجْمَعَنَّکُمْ إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ .

إنّ الآیه تبدأ بالاستفهام التقریری الذی یراد به انتزاع الإقرار من السامع، و لمّا کان هذا الأمر مسلما به بالفطره،کما کان المشرکون یعترفون بأنّ مالک عالم الوجود لیس الأصنام،بل اللّه،فإنّ الجواب یرد مباشره، و هذا أسلوب جمیل فی عرض مختلف المسائل.

فی مواضع أخری من القرآن یستدل علی المعاد بطرق أخری،بطریق قانون العداله،و قانون التکامل،و الحکمه الإلهیه،و لکن الاستدلال بالرحمه استدلال جدید جاءت به هذه الآیه.

فی نهایه الآیه إشاره إلی مصیر المشرکین المعاندین و عاقبتهم،فهؤلاء الذین أضاعوا رأس مال وجودهم فی سوق تجاره الحیاه،لا یؤمنون بهذه الحقائق:

اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ

.

ما أعجب هـذا التعبير!فقـد يخسـر المرء أحيانا ثروته أو مركزه أو أى نوع آخر من أنواع رأس المال،ففى هذه الحالات يكون قد خسـر شـيئا،و لكن هذا الشـىء الذى خسره لا يكون جزءا من وجوده،أى أنّه خارج وجوده،أمّا أعظم الخسائر التى هى فى الواقع الخساره الحقيقيه،فهى عند ما يخسر الإنسان أصل وجوده.

إنّ أعـداء الحقيقه و المعانـدين يخسـرون تماما رأس مال العمر و رأس مال الفكر و العقل و الفطره و جميع المواهب الروحيه و الجسـميه الـتى كـان ينبغى لهم أن يسـتخدموها فى طريـق الحقّ للوصول إلى مرحله التكامـل،و عندئـذ لاـ يبقى رأس المـال و لا صاحبه.

لقـد ورد هـذا التعـبير فى عـدد من آيـات القرآن الكريـم،و هى تعبيرات مرعبه عن المصـير المؤلم الـذى ينتظر منكرى الحقيقه و المذنبين الملوثين.

سؤال:

قد يقال:إنّ الحياه الأبديه تكون مصداقا للرّحمه بالنسبه للمؤمنين فقط،أمّا لغيرهم فهى لا تعدو أن تكون شقاء و تعاسه.

الجواب:

لا شك أنّ اللّه هو الـذى يوفر فرص الرحمه،فهو الـذى خلق الإنسان،و وهب له العقل،و أرسل له الأنبياء لقيادته و هدايته،و منحه مختلف أنواع النعم،و فتح أمامه طريقا للحياه الخالده،فهذه كلّها ألوان من الرحمه.

و الإنسان فى غضون مسـيرته للوصول إلى ثمرات هذه الرحمه إذا انحرف عن طريق و حول هذه الرحمه إلى عذاب و شـقاء،فإنّ ذلك لا يخرجها عن كونها رحمه،بل الإنسان هو الملوم على الانحراف عنها و تبديلها إلى عذاب و ألم.

الآيه الثّانيه تكمل فى الواقع الآيه السابقه،فالآيه السابقه تشـير إلى أنّ اللّه مالك كلّ شىء يستوعبه ظرف«المكان»: قُلْ لِمَنْ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ... ؟

أمّا هذه الآيه فتشير إلى ملكيه اللّه لما يستوعبه ظرف«الزمان»الوسيع، و تقول: وَ لَهُ مٰا سَكَنَ فِی اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ .

فى الواقع،عالم الماده هذا يتحدد بالزمان و المكان،فكل الكائنات التى تقع ضمن ظرف المكان و الزمان-أى عالم الماده كله-ملك للّه.

و ليس الليل و النهار مختصين-طبعا-بالمنظومه الشمسيه،فإنّ لجميع كائنات السماوات و الأرض ليلا و نهارا،بعضها له نهار دائم بلا ليل،و لبعضها ليل بلا نهار،ففى الشمس-مثلا-نهار دائم،فهناك ضوء دائم بلا ظلام،و فى بعض الكواكب الخامده،التى لا نور فيها و لا تجاوز النجوم،ليل دائم سرمدى،و هذه كلّها مشموله بالآيه المذكوره.

لا بدّ هنا أن نلاحظ أنّ«سكن»و السكونه تعنى التوقف و الاستقرار فى مكان ما،سواء أ كان ذلك الموجود الساكن فى حاله حركه أو سكون،نقول مثلا:فلان «ساكن»فى المدينه الفلانيه،أى أنّه مستقر هناك،مع أنّه يمكن أن يكون متحركا فى شوارعها.

كما يحتمل أن تقابل«السكون»فى هذه الآيه«الحركه»،و لمّا كان السكون و الحركه من الحالات النسبيه،فإنّ ذكر أحدهما يغنينا عن ذكر الآخر،و عليه يصبح معنى الآيه هكذا:كل ما هو كائن فى الليل و النهار و ظرف الزمان ساكنا كان أم متحركا،ملك للّه.

و بهذا يمكن أن تكون الآيه إشاره إلى أحد أدله التوحيد،لأنّ«الحركه» و«السكون»حالتان عارضتان و حادثتان طبعا،فلا يمكن أن تكونا قديمتين أزليتين،لأنّ الحركه تعنى وجود الشىء فى مكانين مختلفين خلال زمانين، و السكون يعنى وجود الشىء فى مكان واحد خلال زمانين،و عليه فإنّ الالتفات إلى الحاله السابقه كامن فى ذات الحركه و السكون.و نحن نعلم أنّ الشىء إذا كانت له حاله سابقه لا يمكن أن يكون أزليا.

نستنتج من هذا الكلام أنّ الأجسام لا تخلو من الحركه و السكون،و أنّ ما لا يخلو من الحركه و السكون لا يمكن أن يكون أزليا،و عليه فكل جسم حادث، و كل حادث لا بدّ من محدث(خالق).

و لكن اللّه ليس جسما،فلا حركه له و لا سكون،و لا زمان و لا مكان،و لذلك فهو أبدى أزلى.

و فى نهايه الآيه،و بعد ذكر التوحيد،تشير الآيه إلى صفتين بارزتين فى اللّه فتقول: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ،أى أنّ اتساع عالم الوجود،و الكائنات فى آفاق الزمان و المكان لا تحول أبدا دون أن يكون اللّه عليما بأسرارها،بل إنّه يسمع نجواها،و يعلم حركه النمله الضعيفه على الصخره الصمّاء فى الليله الظّلماء فى أعماق واد سحيق صامت،و إنّه ليدرك حاجاتها و حاجات غيرها،و يعلم ما تفعل.

ص :۲۲۶

الآیات [سوره الأنعام (۶): الآیات ۱۴ الی ۱۶]

اشاره

قُلْ أَ غَیْرَ اَللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِیًّا فٰاطِرِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ یُطْعِمُ وَ لاٰ یُطْعَمُ قُلْ إِنِّی أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لاٰ تَکُونَنَّ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۱۴) قُلْ إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱۵) مَنْ یُصْرَفْ عَنْهُ یَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذٰلِکَ اَلْفَوْزُ اَلْمُبِینُ (۱۶)

التّفسیر

اشاره

لا ملجأ غیر اللّه!

من المفسّرین من یذکر أنّ سبب نزول الآیه هو أنّه جاء جمع من أهل مکّه إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا:یا محمّد،إنّک ترکت دین قومک،و لم یکن ذلک إلاّ بسبب فقرک،فاقبل منّا نصف أموالنا تکن غنیا علی أن نترک آلهتنا و شأنها و تعود إلی دیننا،فنزلت هذه الآیه ترد علیهم (۱) .

سبق أن قلنا:إنّ آیات هذه السوره نزلت مرّه واحده فی مکّه،کما جاء فی

۱- ۱) -تفسیر أبی الفتوح الرازی و تفسیر«مجمع البیان»فی ذیل تفسیر الآیه.

الأخبار المرویه،لذلک لا یمکن أن یکون لکل منها سبب نزول خاص،غیر أنّ أحادیث کانت قد جرت قبل نزول هذه السوره بین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المشرکین و بعض هذه الآیات تشیر إلی تلک الأحادیث،لذلک لیس ثمّه ما یمنع أن تکون أحادیث من هذا القبیل أیضا قد جرت بین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المشرکین،فیشیر القرآن فی هذه الآیات إلی أحادیثهم و یرد علیهم.

علی کلّ حال،الهدف من نزول هذه الآیات هو إثبات التوحید و محاربه الشرک و عباده الأصنام فالمشرکون،و إن اعتقدوا أنّ اللّه هو خالق العالم،کانوا یتخذون من الأصنام ملجأ لأنفسهم،و لربّما اتخذوا صنما لکل حاجه معینه،فلهم إله للمطر،و إله للظلام،و إله للحرب و السلم،و إله للرزق،و هذا هو تعدد الأرباب الذی ساد الیونان القدیم.

و لکی یزیل القرآن هذا التفکیر الخاطئ،یأمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن قُلْ أَ غَیْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِیًّا فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ یُطْعِمُ وَ لاٰ یُطْعَمُ .

فإذا کان هو خالق عالم الوجود کله دون الاستناد إلی قدره أخری،و هو الذی یرزق مخلوقاته،فما الذی یدعو الإنسان إلی أن یتخذ من دونه ولیا و ربّا؟ و إنّ کل الأشیاء غیره مخلوقات و هی بحاجه إلیه فی کل لحظات وجودها،فکیف یمکن لها أن تقضی حاجه الآخرین؟ هذه الآیه تستعمل کلمه«فاطر»فی حدیثها عن خالق السموات و الأرض، و أصل«الفطر»و«الفطور»هو الشق،یروی عن ابن عباس أنّه قال:ما عرفت معنی فاطر السموات و الأرض إلاّ عند ما رأیت اعرابیین یتنازعان علی بئر قال أحدهما:«أنا فطرتها»أی أنا أحدثتها و أوجدتها.

و لكننا اليوم أقدر من ابن عباس على معرفه معنى«فاطر»بالاستعانه بالعلوم الحديثه،أنّه تعبير ينسجم مع أدق النظريات العلميه الحديثه عن تكون العالم،لقد أظهرت دراسات العلماء أنّ العالم الكبير(الكون)و العالم الصغير(المنظومه الشمسيه)كانت كلها كتله واحده تشققت على أثر الإنفجارات المتتاليه،و تكونت المجرات و المنظومات و الكرات،و فى الآيه(۳۰)من سوره الأنبياء بيان أوضح لهذا الأمر: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ كٰانَتٰا رَتْقاً فَفَتَقْنٰاهُمٰا .

و النقطه الأخرى التى ينبغى ألا نغفل عنها فى هذه الآيه هو أنّها تقتصر على توكيد اتصاف اللّه باطعام مخلوقاته و رزقهم،و لعل ذلك إشاره إلى أنّ أقوى حاجات الإنسان فى حياته الماديه هى حاجته إلى«لقمه العيش»كما يقال،و هذه اللقمه هى التى تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال و القوّه،و قد يصل خضوعهم لأولئك حدّ العبوديه،ففى هذا يقرر القرآن رزق الناس بيد اللّه لا بيد هؤلاء و لا بيد الأصنام،فأصحاب المال و القوّه هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام، و أنّ اللّه هو وحده الذى يطعم الناس و لا يحتاج إلى طعام.

و فى آيات أخرى نرى القرآن يؤكّد مالكيه اللّه و رزاقيته بإنزال الأمطار و إنبات النباتات،و ذلك لكى يزيل من أذهان البشر كليا فكره اعتمادهم على مخلوقات مثلهم.

ثمّ للردّ على أولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول اللّه إلى الانضمام إليهم،يؤكّد القرآن على ضروره رفض دعوه هؤلاء انطلاقا من مبدأ نهى الوحى الإلهى عن ذلك،إضافه إلى نهى العقل: قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱) .

۱- ۱) -جمله إِنِّى أُمِرْتُ.. من قبيل الخطاب غير المباشر،و جمله«و لا تكونن»خطاب مباشر،و لعل هذا الانتقال يقصد به القول بأنّ الابتعاد عن الشرك و استنكاره أهم بكثير من أن يكون المرء أول المسلمين،و لذا جاء موضوع تجنب الشرك فى خطاب مباشر و مؤكد بنون التوكيد الثقيله.

لا ـ شک أنّ أنبیاء اللّه و الصالحین من أقوامهم سبقوا النّبی الخاتم فی استسلامهم لأمر اللّه و علیه فإن قوله تعالی: إِنِّی أَمِرْتُ أَنْ أَکُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ یعنی أوّل مسلم من أمّه الرساله الخاتمه.

کما أنّ هذا إشاره إلی أمر تربوی مهم أیضا،و هو أنّ کل قائد ینبغی أن یکون فی تطلیق تعالیم دینه قدوه و طلیعه،علیه أن یکون أوّل المؤمنین برسالته،و أوّل العاملین بها،و أکثر الناس اجتهادا فیها،و أسرعهم إلی التضحیه فی سبیلها.

الآیه التّالیه فیها توکید أشدّ لهذا النهی الإلهی عن إتّباع المشرکین: قُلْ إِنِّی أَخافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبِّی عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ (۱) أی یأمر اللّه رسوله أن یقول بأنّه لیس مستثنی من القوانین الإلهیه،و أنّه یخاف-إن رکن إلی المشرکین-عذاب یوم القیامه.

و من هذه الآیه نفهم أیضا أنّ شعور الأنبیاء بالمسؤولیه یفوق شعور الآخرین بها.

و لکی یتّضح أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یستطیع شیئا بغیر الاستناد إلی لطف اللّه و رحمته،فکل شیء بید اللّه و بأمره،و حتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه یترقب بعین الرجاء رحمه اللّه الواسعه،و منه یطلب النجاه و الفوز: مَنْ یُصْرَفْ عَنْهُ یَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذٰلِکَ الْفَوْزُ الْمُبِینُ .

هذه الآیات تبیّن منتهی درجات التوحید،و ترد علی الذین کانوا یرون للأنبیاء سلطانا مستقلا عن اراده اللّه،کما فعل المسیحیون عند ما جعلوا من المسیح علیه السّلام المخلّص و المنقذ،فتقول لهم:إنّ الأنبیاء أنفسهم یحتاجون إلی رحمه اللّه مثلکم.

ص: ۲۳۰

---

۱ – ۱) -یلاحظ أنّ ترکیب عباره الآیه یقتضی أن تأتی جمله«أخاف»بعد جمله«إن عصیت ربی»لأنّها جواب الشرط،غیر أنّ تقدیمها یفید التأکید علی عظم إحساس رسول اللّه بالمسؤولیه أمام أوامر اللّه تعالی.

الآیتان [سوره الأنعام (۶): الآیات ۱۷ الی ۱۸]

اشاره

وَ إِنْ یَمْسَسْکَ اَللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ کٰاشِفَ لَهُ إِلاّٰ هُوَ وَ إِنْ یَمْسَسْکَ بِخَیْرٍ فَهُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۷) وَ هُوَ اَلْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ وَ هُوَ اَلْحَکِیمُ اَلْخَبِیرُ (۱۸)

التّفسیر

اشاره

قدره اللّه القاهره:

قلنا إنّ هدف هذه السّوره هو استئصال جذور الشرک و عباده الأصنام، و هاتان الآیتان تواصلان تحقیق ذلک.

فالقرآن یتساءل أوّلا:لماذا تتوجهون إلی غیر اللّه،و تلجأون إلی معبودات تصطنعونها لحل مشاکلکم و دفع الضر عن أنفسکم و استجلاب الخیر لها؟بینما لو أصابک أدنی ضرر فلا یرفعه عنک غیر اللّه،و إذا أصابک الخیر و البرکه و الفوز و السعاده فما ذلک إلاّ بقدره اللّه،لأنّه هو القادر القوی: وَ إِنْ یَمْسَسْکَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ کٰاشِفَ لَهُ إِلاّٰ هُوَ وَ إِنْ یَمْسَسْکَ بِخَیْرٍ فَهُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱) .

۱- ۱) -«الضر»هو کل نقیصه یتعرض لها الإنسان إمّا فی الجسم مثل نقص عضو و المرض،و إمّا فی النفس مثل الجهل و السفاهه و الجنون،و إمّا فی أمور أخری مثل ذهاب المال أو المقام أو الأبناء.

فى الواقع إنّ سبب الاتجاه إلى غير اللّه إمّا لتصورهم أنّ ما يتجهون إليه مصدر الخيرات،و إمّا لاعتقادهم بقدرته و أنّه يدرأ عنهم المصائب و يحل لهم مشاكلهم، و الخضوع إلى حد العباده لذوى السلطان و المال و القوه ينشأ من أحد هذين الدافعين،هذه الآيه تبيّن أنّ إراده اللّه حاكمه على كل شيء،فإذا منع عن أحد نعمه،أو منح أحدا نعمه،فما من قدره فى العالم تستطيع أن تغير ذلك،فلما ذا إذن يطأطئون رؤوسهم خضوعا لغيره؟ إنّ استعمال«يمسسك»فى الخير و الشر،و هى من«مسّ»،تشير إلى أنّ الخير و الشر-مهما قلّ-لا يكون إلاّ بإرادته و قدرته.

ثمّ إنّ الآيه المذكوره تدحض فكره«الثنويين»القائلين بمبدأى«الخير» و«الشر»و عبادتهما،و تقول إنّ الإثنين كليهما من جانب اللّه،و لكننا سبق أن قلنا أن ليس ثمّه شيء اسمه«الشر المطلق».

و عليه فعند ما ينسب الشر إلى اللّه فإنّما يقصد به على الظاهر«سلب النعمه» و هو بحدّ ذاته«خير»،فهو إمّا أن يكون للإيقاظ و التربيه و التعليم و كبح حالات الغرور و الطغيان و الذاتيه،أو لمصالح أخرى.

و فى الآيه التى تليها إكمال للبحث،فيقول: وَ هُوَ الْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ .

«القاهر»و«الغالب»و إن كانا بمعنى واحد،إلاّ أنّهما من جذرين مختلفين، «القهر»يطلق على ذلك النصر الذى يتحقق دون أن يتمكن الطرف المقهور من إبداء أيه مقاومه،و فى كلمه«الغلبه»لا يوجد هذا المعنى،و قد تحصل بعد المقاومه،و بعباره أخرى:القاهر يقال لمن يكون تسلطه على الطرف الآخر من الشمول بحيث إنّه لا يستطيع المقاومه مطلقا كصبّ سطل من الماء على جذوه صغيره من النّار فيطفؤها فورا.

يرى بعض المفسّرين أنّ«القهر»تستعمل حيث يكون المقهور كائنا عاقلا،

و لكن«الغلبه»أوسع منها و تشمل النصر على الكائنات غير العاقله أيضا (١) .

و عليه إذا كانت الآيه السابقه تشير إلى شمول قدره اللّه إزاء المعبودات الزائفه الأخرى و أصحاب القوّه،فذلك لا يعنى أنّه مضطر إلى الدخول مدّه فى صراع مع تلك القوى كى يتغلب عليها،بل يعنى أنّ قدرته قاهره،و قد جاء تعبير فَوْقَ عِبٰادِهِ لتأكيد هذا المعنى.

و على هذا،كيف يمكن لإنسان واع أن يعرض عن ربّ العالمين و يتجه إلى كائنات و أشخاص لا يملكون بذواتهم أيه قدره،و ما يملكونه من قوّه زهيده إنّما مصدرها اللّه أيضا.

و لإزاله كل و هم قد يخطر لأحدهم بأنّ اللّه قد يسيء استعمال قدرته غير المتناهيه كما هو الحال فى ذوى القدره من البشر،يقول القرآن: وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ أى أنّه صاحب حكمه و كل أعماله محسوبه،لأنه خبير و عالم و لا يخطئ فى استعمال قدرته أبدا.

و نقرأ فى حالات«فرعون»أنّه عند ما هدد بقتل بنى إسرائيل، قال: وَ إِنّٰا فَوْقَهُمْ قٰاهِرُونَ (٢) أى أنّه اتّخذ من قدرته القاهره-و إن تكن ضعيفه-وسيله للظلم و غمط حقوق الآخرين،إلاّ أنّ اللّه الحكيم الخبير بتلك القدره القاهره منزّه عن أن يظلم حتى أصغر مخلوقاته.

و من نافله القول أنّ تعبير فَوْقَ عِبٰادِهِ هو التفوق فى المقام لا فى المكان، إذ ليس للّه مكان محدد.

و من العجيب جدا أنّ بعض ذوى العقول المتحجره اتّخذ من هذه الآيه دليلا على تجسيم اللّه سبحانه،على الرغم من عدم وجود أى شك فى أنّ هذا التعبير معنوى يدل على تفوق اللّه من حيث القدره على عبيده و حتى فرعون-مع كونه

١- ١) -تفسير«الميزان»ج ٧،ص ٣۴.

٢- ٢) -الأعراف،١٢٧.

بشرا ذا جسم-يستعمل الكلمه نفسها لإظهار تفوقه السلطوى،لا تفوقه المكانى (تأمل بدقّه).

ص :۲۳۴

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشاره

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهٰادَةً قُلِ اَللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا اَلْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اَللّٰهِ آلِهَةً أُخْرىٰ قُلْ لاٰ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ (۱۹) اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمُ اَلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۲۰)

التّفسير

اشاره

أعظم الشّاهدين:

يذكر جمع من المفسّرين أنّ عددا من مشركى مكّه جاؤوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا:كيف تكون نبيّا و لا نرى أحدا يؤيدك؟ و حتى اليهود و النصارى الذين سألناهم،لم يشهدوا بصحه أقوالك بحسب ما عندهم فى التّوراه و الإنجيل،فهات من يشهد لك على رسالتك،و الآيتان المذكورتان تشيران إلى هذه الواقعه.

فى مواجهه هؤلاء المخالفين المعاندين الذين يغمضون أعينهم عن رؤيه كل تلك الدلائل على صدق الرساله،و يطلبون مزيدا من الشواهد،يؤمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهٰادَةً .

أهناك شهاده أعظم من شهاده ربّ العالمين؟ قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ و هل هناك دليل أكبر من هذا القرآن؟: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ ،هذا القرآن الذى لا يمكن أن يكون وليد فكر بشرى،خاصّه فى تلك الظروف الزّمانيه و المكانيه، هذا القرآن الذى يضمّ مختلف الشواهد على إعجازه،فألفاظه معجزه،و معانيه معجزه،أليس هذا الشاهد الكبير وحده كاف لأن يكون تصديقا إلهيا للدعوه!!.

يستفاد من هذه العباره أيضا أنّ القرآن أعظم معجزه و أكبر شاهد على صدق دعوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ يشير إلى هدف نزول القرآن و يقول: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أى أنّ القرآن قد نزل علىّ لكى أنذركم ،و أنذر جميع الذين يصل إليهم-عبر تاريخ البشر،و على امتداد الزمان و فى أرجاء العالم كافه-كلامى،و أحذرهم من عواقب عصيانهم.

يلاحظ هنا أنّ الكلام مقتصر على الإنذار مع أنّ خطابات القرآن تجمع غالبا بين الإنذار و البشرى،و السبب فى ذلك يعود إلى أنّ الكلام موجه هنا إلى أفراد معاندين مصرين على المكابره،و لا يمكن أن نتصور فى الواقع عباره أوجز و أشمل لبيان المقصود من هذه العباره،و ما فيها من دقّه و سعه يزيل كل إيهام فى عدم اختصاص دعوه القرآن بالعرب أو بزمان أو مكان معينين.

بعض العلماء استدلوا بهذا التعبير و أمثاله على ختم النّبوه برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فهذه الجمله تعنى أنّ الرّسول قد بعث إلى جميع الذين تصلهم دعوته،و هذا يشمل جميع الذين يردون الحياه حتى نهايه العالم.

و تفيد الأحاديث الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ مفهوم إبلاغ القرآن لا يعنى مجرّد وصول نصوصه إلى الأقوام الأخرى فحسب،بل أنّ المفهوم يشمل وصول ترجماته بمختلف اللغات إلى تلك الأقوام.

جاء عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه عند ما سئل عن هذه الآيه قال:«بكل

لسان» (۱) .

كما أنّ من أصول الفقه المسلم بها هو مبدأ«قبح العقاب بلا بيان»و هذا ما تفيده الآيه المذكوره.

فقد ثبت فی أصول الفقه أنّه ما دام الحكم لم يبلغ شخصا،فإنّه لا يتحمل مسئوليه تنفيذه(إلاّ إذا كان مقصرا فی استيعاب الحكم)،فهذه الآيه تقول بأنّ الذين تصلهم الدعوه يتحملون مسئوليتها،أمّا الذين لم تصلهم الدعوه،بدون تقصير،فلا مسئوليه عليهم.

فی تفسير(المنار)روايه عن أبیّ بن كعب قال: أتی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بأساری فقال لهم:هل دعيتم إلی الإسلام؟قالوا:لا،فخلی سبيلهم،ثمّ قرأ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ ،ثمّ قال:خلوا سبيلهم حتی يأتوا مأمنهم من أجل أنّهم لم يدعوا (۲) .

و من هذه الآيه نفهم-أيضا أنّ إطلاق كلمه«شیء»علی اللّه جائز،إلاّ أنّه شیء لا كالأشياء المخلوقه المحدوده،بل هو خالق و لا تحده حدود.

ثمّ أمر اللّه رسوله أن يسألهم: أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّٰهِ آلِهَةً أُخْرىٰ .

و يأمره أن: قُلْ لاٰ أَشْهَدُ،قُلْ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ .

ذكر العبارات الأخيره فی الآيه له هدف نفسی هام،و هو أنّ المشركين قد يتصورون حدوث تزلزل فی نفس النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم علی أثر كلامهم،فيتركون المجلس آملين،و يبشرون أصحابهم بإمكان أن يعيد محمّد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم النظر فی دعوته.

فهذه الجمل الصريحه الحاسمه تقضی علی أمل المشركين و تحيله إلی يأس، و تبيّن لهم أنّ الأمر أعظم ممّا يظنون،و أنّه لم يداخله أدنی شك فی دعوته،و لقد دلت التجارب علی أنّ ذكر أمثال هذه العبارات الجازمه و الحاسمه فی ختام كل

۱- ۱) -تفسير«البرهان»،و تفسير«نور الثقلين»،ج ۱،ص ۷۰۷ ذيل الآيه.

۲- ۲) -تفسير«المنار»،ج ۷،ص ۳۴۱.

بحث له أثر عميق فی تحقیق الهدف النهائی.

أمّا الذین قالوا:إنّ أهل الکتاب لم یشهدوا لنبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فإنّ الآیه التی بعدها ترد علیهم و تقول: اَلَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ الْکِتٰابَ یَعْرِفُونَهُ کَمٰا یَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمُ أی أن معرفتهم به لا تقتصر علی مبدأ ظهوره و دعوته فحسب،بل إنّهم یعرفون حتی التفاصیل و الخصائص و علاماته الدقیقه أیضا،و علیه،إذ قال جمع من أهل مکّه:إنّهم رجعوا إلی أهل الکتاب فلم یجدوا عندهم علما بالنّبی،فإنّهم إمّا أن یکونوا قد کذبوا و لم یتحققوا من الأمر،أو أنّ أهل الکتاب قد أخفوا عنهم الحقائق و لم یطلعوهم علیها،و هذا الکتمان تشیر إلیه آیات أخری من القرآن(لمزید من التوضیح انظر المجلد الأوّل من هذا التّفسیر فی ذیل الآیه(۱۴۶)من سوره البقره).

و الآیه تعلن فی آخر مقاطعها النتیجه النهائیه: اَلَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ أی أنّ الذین لا یؤمنون بالنّبی-مع کل ما تحیطه من دلائل و علامات واضحه-هم فقط أولئک الذین خسروا کل شیء فی تجاره الحیاه.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۲۱ الی ۲۴]

اشاره

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ اَلظّٰالِمُونَ (۲۱) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكٰاؤُكُمُ اَلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۲۲) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا وَ اَللّٰهِ رَبِّنٰا مٰا كُنّٰا مُشْرِكِينَ (۲۳) اُنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (۲۴)

التّفسير

اشاره

أشدّ الظّلم:

تواصل هذه الآيات المنهج القرآنی فی مقارعه الشرك و عباده الأصنام بشكل شامل،تقول الآيه الاولى بصراحه و بصوره استفهام استنكاری: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ ؟ الجمله الأولى-فی الواقع-إشاره إلى إنكار التوحيد،و الثّانيه إشاره إلى إنكار النّبوه...حقّا لا ظلم أكبر من أن يتخذ المرء قطعه جماد لا قيمه لها،أو إنسانا ضعيفا مثله شريكا لربّ لا تحدّه،حدود،و له الحكم على كل عالم الوجود،فهذا ظلم من جهات ثلاث:ظلم لذات اللّه بالقول بوجود شريك له،و ظلم للشخص

نفسه بالحط من قدره إلى حد السجود و الخضوع لقطعه حجر أو خشب،و ظلم بحق المجتمع الذى يسبب له الشرك و التشتت و التفرق و الابتعاد عن روح الوحده و التوحد.

فلا شك إذن فى أنّ أى ظالم-و على الأخص أولئك الذين لظلمهم جوانب متعدده-لا يمكن أن يرى السعاده و الفلاح: إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ .

إنّ لفظه«الشّرك»لم ترد صراحه فى الآيه،و لكن بأخذ الآيات السابقه و اللاّحقه لها بنظر الاعتبار التى تدور حول الشرك،يتّضح أنّ القصد من كلمه «افتراء»هو القول بوجود شريك للّه سبحانه.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يصف فى خمسه عشر موضعا بعض الناس بأنّهم من أظلم الناس فى سياق الاستفهام:«و من أظلم...»أو«فمن أظلم...»و على الرغم من أنّ معظم تلك الآيات تتناول الشرك و عباده الأصنام و إنكار آيات اللّه، أى أنّها تدور حول التوحيد،فإنّ بعضا آخر منها يدول حول أمور أخرى،مثل وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ (۱) .

و قول سبحانه وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّهِ (۲) .

هنا يثار هذا السّؤال:كيف يمكن أن تكون كل طائفه من هؤلاء أظلم الناس، فى حين أنّ صفه(الأظلم)لا يمكن أن تنطبق إلاّ على طائفه واحده منها؟ نقول فى الجواب:كل هذه الحالات تستقى-فى الحقيقه-من منبع واحد، و هو الشرك و الكفر و العناد.فمنع الناس من ذكر اللّه فى المساجد و السعى فى خرابها دليل على الكفر و الشرك،و كتمان الشهاده أى كتمان الحقائق المؤدى إلى حيره الناس و ضلالهم،هو معلم من معالم الشرك و إنكار وحدانيه اللّه.

الآيه التّاليه تشير إلى مصير المشركين يوم القيامه مبيّنه أنّهم باعتمادهم على

۱- ۱) -البقره،۱۱۴.

۲- ۲) -البقره، ۱۴۰.

مخلوقات ضعيفه كالأصنام،لا هم حققوا لأنفسهم الراحه فى هذا العالم،و لا هم ضمنوا ذلك فى الحياه الآخره،فتقول الآيه: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ،أين هم،لماذا لا يأتون اليوم لإنقاذهم؟لماذا لا يظهر أى حول و لا يبدون أيه قوّه؟ ألم تكونوا تتوقعون منهم أن يعينوكم على حل مشكلاتكم؟فلما ذا-إذن-لا نرى لهم أثرا؟ فيستولى على هؤلاء الرعب و الخوف و يبهتون و لا يحيرون جوابا،سوى أن يقسموا باللّه إنّهم لم يكونوا مشركين،ظنا منهم أنّهم هناك أيضا قادرون على إخفاء الحقائق: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّ أَنْ قالُوا وَ اللّهِ رَبِّنا ما كُنّا مُشْرِكِينَ .

حول معنى«فتنه»ثمّه كلام بين المفسّرين،منهم من قال:إنّها بمعنى الاعتذار،و قال آخرون:إنّها بمعنى الجواب:و قالوا أيضا:إنّها الشرك (1) .

هنالك احتمال آخر فى تفسير هذه الآيه،و هو القول بأنّ«الفتنه»من «الافتتان»أى الوله بالشيء،فيكون المعنى أن افتتانهم بالشرك و عباده الأصنام، بشكل يغشى عقولهم و أفكارهم،قد أدى إلى أن يدركوا يوم القيامه-يوم يزاح الستر-خطأهم الكبير،و يستقبحوا أعمالهم و ينكروها تماما.

يقول الراغب فى«المفردات»:أن أصل«الفتن»إدخال الذهب النّار لتظهر جودته من رداءته،فقد يكون هذا المعنى ممّا تفسر به الآيه المذكوره،أى أنّهم عند ما تحيط بهم شدّه يوم القيامه يستيقظون و يقفون على خطأهم،فينكرون أعمالهم طلبا للنجاه.

الآيه الثّالثه،و من أجل أن يعتبر الناس بمصير هؤلاء الأفراد تقول: اُنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ .

1- 1) -إذا أخذناها على إنّها بمعنى الاعتذار و الجواب،فلا حاجه فيهما للتقدير،أمّا إذا أخذت بمعنى الشرك،فينبغى أن نقدر كلمه «نتيجه»أى أنّ نتيجه شركهم كانت أن يقسموا إنّهم لم يكونوا مشركين.

و تنهار المسانك التى اختاروا الاستناد عليها و جعلوها شريكه للّه،و خابوا فى مسعاهم وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ .

لا بدّ هنا من ملاحظه النقاط التّاليه:

۱-لا شك أنّ المقصود بعباره«انظر»هو النظر بعين العقل،لا بالعين الباصره إذا لا يمكن أن ترى مشاهد يوم القيامه رأى العين فى هذه الدنيا.

۲-و قوله سبحانه كَذَبُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ إمّا أن يعنى أنّهم خدعوا أنفسهم فى الدنيا و خرجوا عن طريق الحقّ،و إمّا أن يراد منه يوم القيامه حيث يقسمون على أنّهم لم يكونوا مشركين،و الحقيقه أنّهم بهذا يكذبون على أنفسهم،فقد كانوا مشركين فعلا.

۳-يبقى سؤال آخر،و هو أنّ الآيه المذكوره تفيد أنّ المشركين ينكرون شركهم يوم القيامه مع أنّ ظروف يوم القيامه لا يمكن أن تسمح لأحد أن يجانب الصدق و هو يرى تلك الحقائق الحسيه،كما لو كان أحد يريد أن يغطى على الشمس فى رابعه النهار،ليقول كذبا:إنّ الدنيا ظلام،ثمّ إن هناك آيات أخرى تفيد بأنّهم يوم القيامه يعترفون صراحه بشركهم و لا يخفون أمرا: وَ لاٰ يَكْتُمُونَ اللّٰهَ حَدِيثاً (۱) .

يمكن أن نذكر لهذا السؤال جوابين:

أوّلا-ليوم القيامه مراحل،ففى المراحل الأولى يظن المشركون أنّهم بالكذب يستطيعون التملص من عذاب اللّه الأليم ،لذلك يرجعون إلى عادتهم القديمه فى التوسل بالكذب،و لكن فى المراحل التّاليه يدركون أن لا مهرب لهم أبدا،

ص :۲۴۲

۱- ۱) -النساء،۴۲.

فيعترفون بأعمالهم.

يبدو أنّ الأستار يوم القيامه ترفع-بالتدريج-عن عين الإنسان، و فى البدايه-عند ما لا يكون المشركون قد درسوا ملفات أعمالهم جيدا بعد- يركنون إلى الكذب،و لكن فى المراحل التّاليه حيث ترتفع فيها الأستار أكثر و يرون كل شىء حاضرا،لا يجدون مندوحه عن الاعتراف تماما،مثل المجرمين الذين ينكرون كل شىء فى بدايه التحقيق،حتى معرفتهم بأصدقائهم...و لكنّهم عند ما يرون الأدله الماديه و المستندات الحيّه التى تفضح جريمتهم،يدركون أنّ الأمر من الوضوح بحيث لا يحتمل الإنكار،فيعترفون و يدلون بإفاده كامله،و قد ورد هذا الجواب فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام (۱) .

و ثانيا:إنّ الآيه المذكوره تتحدث عمّن لا يرى نفسه مشركا مثل المسيحيين الذين قالوا بالآلهه الثلاثه و اعتقدوا أنّهم موحدون،أو مثل الذين يدّعون التوحيد، لكن أعمالهم ملوثه بالشرك،لأنّهم كانوا يعرضون عن تعاليم الأنبياء،و يعتمدون على غير اللّه و ينكرون ولايه أولياء اللّه...هؤلاء يقسمون يوم القيامه على أنّهم كانوا موحدين،و لكنّهم سرعان ما يدركون أنّهم فى الباطن كانوا مشركين،هذا الجواب أيضا قد ورد فى عدد من الرّوايات نقلا عن الإمام على عليه السّلام و الإمام الصادق عليه السّلام (۲) .

و كلا الجوابين مقبولان.

ص: ۲۴۳

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۱،ص ۷۰۸.

۲- ۲) -تفسير«نور الثقلين»،ج ۱،ص ۷۰۸.

الآیتان [سوره الأنعام (۶): الآیات ۲۵ الی ۲۶]

اشاره

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتّٰى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذا إِلاّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲۵) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۲۶)

التّفسير

اشاره

حجب لا تقبل الاختراق:

فی هذه الآیه إشاره إلی الوضع النفسی لبعض المشرکین،فهم لا یبدون أیه مرونه تجاه سماع الحقائق،بل أکثر من ذلک-یناصبونها العداء،و یقذفونها بالتهم، فیبعدون أنفسهم و غیرهم عنها،عن هؤلاء تقول الآیه: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً (۱) .

فی الواقع کانت عقولهم و أفکارهم منغمسه فی التعصب الجاهلی الأعمی، و فی المصالح المادیه و الأهواء،بحیث أصبحت و کأنّها واقعه تحت الأستار

ص: ۲۴۴

۱- ۱) -«أکنه»جمع«کنان»و هو کل ستار أو حاجز،و«الوقر»بمعنی ثقل السمع.

و الحواجز،فلا هم يسمعون حقيقه من الحقائق،و لا هم يدركون الأمور إدراكا صحيحا.

سبق أن قلنا مرارا أنّ نسبه هذه الأمور إلى اللّه،إنّما هو إشاره إلى قانون «العله و المعلول»و خاصيه«العمل»،أی أنّ أثر الاستمرار فی الانحراف و الإصرار على المعانده و التشاؤم يظهر فی اتصاف نفس الإنسان بهذه المؤثرات، و فی تحولها إلى مثل المرآه المعوجه التی تعكس صور الأشياء معوجه منحرفه، لقد أثبتت التجربه أنّ المنحرفين و المذنبين يحسون أوّل الأمر بعدم الرضا عن حالهم،و لكنّهم يعتادون ذلك بالتدريج،و قد يصل بهم الأمر إلى اعتبار أعمالهم القبيحه لازمه و ضروريه،و بتعبير آخر:هذا واحد من أنواع العقاب الذی يناله المصّرون على العصيان و معاداه الحقّ.

و هؤلاء وصلوا حدّا تصفه الآيه فتقول: وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَهٍ لاٰ يُؤْمِنُوا بِهٰا ،بل الأكثر من ذلك أنّهم عند ما يأتون إليك،لا يفتحون نوافذ قلوبهم أمام ما تقول،و لا يأتون-على الأقل-بهيئه الباحث عن الحقّ الذی يسعى للعثور على الحقيقه و التفكير فيها،بل يأتون بروح و فكر سلبيين،و لا هدف لهم سوى الجدل و الاعتراض: حَتّٰى إِذٰا جٰاؤُكَ يُجٰادِلُونَكَ أنّهم عند سماعهم كلامك الذی يستقی من ينابيع الوحی و يجری على لسانك الناطق بالحقّ،يبادرون إلى اتهامك بأنّ ما تقوله إنّما هو خرافات اصطنعها أناس غابرون: يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

الآيه التّاليه تذكر أنّ هؤلاء لا يكتفون بهذا،فهم مع ضلالهم يسعون جاهدين للحيلوله دون سلوك الباحثين عن الحقيقه هذا الطريق بما يشيعونه و يروجونه من مختلف الأكاذيب،و يمنعونهم أن يقتربوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ، و يبتعدون عنه بأنفسهم: وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ (1) ،دون أن يدركوا أنّ من يصارع الحقّ

١- ١) -«ينأون»من«نأی»بمعنى ابتعد.

يكن صريعه،و أخيرا،و بحسب قانون الخلق الثابت،يظهر وجه الحقّ من وراء السحب،و ينتصر بماله من قوّه،و يتلاشى الباطل كما يتلاشى الزبد الطافى على سطح الماء،و عليه فإنّ مساعيهم سوف تتحطم على صخره الإخفاق و الخيبه و ما يهلكون غير أنفسهم،و لكنّهم لا يدركون الحقيقه: وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ .

الصاق تهمه عظيمه بأبى طالب مؤمن قريش:

يتّضح ممّا قيل فى تفسير هذه الآيه أنّها تتابع الكلام على المشركين المعاندين و أعداء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الألداء،و الضمير«هم»يعود بموجب قواعد الأدب و اللغه-إلى الذين تتناولهم الآيه بالبحث،أى الكفار المتعصبين الذين لم يدخروا وسعا فى إيذاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وضع العثرات فى طريق الدعوه إلى الإسلام.

و لكن-لشديد الأسف-نرى بعض المفسّرين من أهل السنه يخالفون جميع قواعد اللغه العربيه،فيقطعون الآيه الثّانيه من الآيه الاولى و يقولون:إنّها نزلت فى أبى طالب والد أمير المؤمنين على عليه السّلام.

أنّهم يفسرون الآيه هكذا:هناك فريق يدافعون عن رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّهم فى الوقت نفسه يبتعدون عنه: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ و هم يستشهدون فى توكيد رأيهم ببعض الآيات الأخرى من القرآن،ممّا سنتناوله فى موضعه،مثل الآيه(۱۱۴)من سوره التوبه و الآيه(۵۶)من سوره القصص.

لكن جميع علماء الشيعه و جمع من علماء أهل السنه،و مثل ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغه و القسطلانى فى«إرشاد السارى»و زينى دحلان فى حاشيه السيره الحلبيه،و يعتبرون أبا طالب من مؤمنى الإسلام،و هناك فى المصادر الإسلاميه الأصيله دلائل كثيره على هذا.

و من يطالع هذه الأدله يندفع للتساؤل بدهشه:ما السبب الذى حدا ببعضهم

إلى كره أبى طالب و توجيه مثل هذا الاتهام الكبير إليه؟! كيف يكون هدفا لمثل هذا الاتهام من كان يدافع بكل كيانه و وجوده عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لطالما وقف هو و ابنه فى مواقع الخطر يدر آن عن حياه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كل خطر؟! هنا يرى المحققون المدققون أنّ التيار المناوئ لأبى طالب تيار سياسى ينطلق من عداء«شجره بنى أميه الخبيثه»لمكانه على عليه السّلام.

ذلك لأنّ أبا طالب ليس الوحيد الذى تعرض لمثل هذه الهجمات بسبب قرابته من أمير المؤمنين على عليه السّلام،بل إنّنا نلاحظ على امتداد تاريخ الإسلام أنّ كل من كان له بأى شكل من الأشكال نوع من القرابه من أمير المؤمنين على عليه السّلام لم ينج من هذه الحملات اللئيمه،و فى الحقيقه كان ذنب أبى طالب الوحيد أنّه والد الشخصيه الإسلاميه الكبرى على عليه السّلام.

و نذكر هنا بإيجاز مختلف الأدله التى تثبت إيمان أبى طالب، تاركين التفاصيل للكتب المختصه فى الموضوع.

۱-كان أبو طالب يعلم،قبل بعثه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،أنّ ابن أخيه سوف يصل إلى مقام النبوه،فقد كتب المؤرخون أنّه فى رحلته مع قافله قريش إلى الشام اصطحب معه ابن أخيه محمّدا البالغ يومئذ الثّانيه عشره من العمر،و فى غضون الرحله رأى منه مختلف الكرامات،ثمّ عند ما مرّت القافله بالراهب(بحيرا)الذى أمضى سنوات طوالا-فى صومعته على طريق القوافل التجاريه،استلف محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نظر الراهب الذى راح يدقق فى وجهه و ملامحه،ثمّ التفت إلى الجمع سائلا:من منكم صاحب هذا الصبى؟فأشار الجمع إلى أبى طالب الذى قال له:هذا ابن أخى،فقال بحيرا:إنّ لهذا الصبى شأنا،إنّه النّبى الذى أخبرت به و برسالته الكتب السماويه،و قد قرأت فيها تفاصيل ذلك كله (۱) .

۱- ۱) -ملخص ما ورد فى سيره ابن هشام،ج ۱،ص ۱۹۱،و سيره الحلبى،ج ۱،ص ۱۳۱،و كتب أخرى.

و لقد كان أبو طالب قبل ذلک قد أدرک من الوقائع و القرائن التی رآها من ابن أخیه أنّه سیکون نبی هذه الأمّه.

و بموجب ما یذکره الشهرستانی صاحب«الملل و النحل»و غیره من علماء السنه أنّ سماء مکّه قد جست برکتها عن أهلها سنه من السنین،فواجه الناس سنه- جفاف شدید،فأمر أبو طالب أنّ یأتوه بابن أخیه محمّد، فأتوه به و هو رضیع فی قماطه،فوقف تجاه الکعبه،و فی حاله من التضرع و الخشوع أخذ یرمی بالطفل ثلاث مرات إلی أعلی ثمّ یتلقفه و هو یقول:یا ربّ بحق هذا الغلام اسقنا غیثا مغیثا دائما هطلا،فلم یمض إلاّ بعض الوقت حتی ظهرت غمامه من جانب الأفق و غطت سماء مکّه کلّها و هطل مطر غزیر کادت معه مکّه أن تغرق.

ثمّ یقول الشهرستانی:هذه الواقعه،التی تدل علی علم أبی طالب بنبوه ابن أخیه و رسالته منذ طفولته تؤکّد إیمانه به،و هذا أبیات أنشدها أبو طالب بعد ذلک بتلک المناسبه:

و أبیض یستسقی الغمام بوجهه

ثمال الیتامی عصمه للأرامل

یلوذ به الهلاک من آل هاشم

فهم عنده فی نعمه و فواضل

و میزان عدل لا یخیس شعیره

و وزان صدق وزنه غیر عائل

إنّ حکایه إقبال قریش علی أبی طالب رحمه اللّه عند الجفاف،و استشفاع أبی طالب إلی اللّه بالطفل قد ذکرها غیر الشهرستانی عدد آخر من کبار المؤرخین،و قد أورد العلاّمه الامینی قدس سرّه صاحب کتاب«الغدیر»هذه الحکایه و ذکر أنّه نقلها من«شرح البخاری»و«المواهب اللدنیه»و«الخصائص الکبری»و«شرح بهجه المحافل» و«السیره الحلبیه»و«السیره النبویه»و«طلبه الطالب» (۱) .

۲-إضافه إلی کتب التّأریخ المعروفه،فإنّ بین أیدینا شعرا لأبی طالب جمع فی«دیوان أبی طالب»،و منه الأبیات التّالیه:

۱- ۱) -«الغدیر»،ج ۷،ص ۳۴۶.

و اللّه لن يصلوا إليک بجمعهم

حتی أوسد فی التراب دفینا

فاصدع بأمرک ما علیک غضاضه

و ابشر بذاک و قر منک عیونا

و دعوتنی و علمت أنک ناصحی

و لقد دعوت و کنت ثمّ أمینا

و لقد علمت بأنّ دین محمّد

من خیر أدیان البریه دینا

کما قال أیضا:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمّدا

رسولا کموسی خط فی أوّل الکتب

و إنّ علیه فی العباد محبّه

و لا حیف فی من خصّه اللّه بالحبّ (۱)

یذکر ابن أبی الحدید طائفه کبیره من أشعار أبی طالب(التی یقول عنها ابن شهر آشوب فی«متشابهات القرآن»أنّها تبلغ ثلاثه آلاف بیت)ثمّ یقول:إن هذه الأشعار لا تدع مجالا للشک أنّ أبا طالب کان یؤمن برساله ابن أخیه.

۳-ثمّه أحادیث منقوله عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تؤکّد شهادته بإیمان عمه الوفی أبی طالب،من ذلک ما ینقله لنا صاحب کتاب«أبو طالب مؤمن قریش»فیقول:

عند ما توفی أبو طالب رثاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو علی قبره،قائلا:

«وا أبتاه!وا أبا طالباه وا حزناه علیک!کیف أسلو علیک یا من ربیتنی صغیرا،و اجبتنی کبیرا،و کنت عندک بمنزله العین من الحدقه و الروح من الجسد» (۲) .

و کثیرا ما

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «ما نالت منّى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب» (۳) .

۴-من المتفق عليه أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أمر بقطع كل رابطه صحبه له بالمشركين،و كان ذلك قبل وفاه أبى طالب بسنوات،و عليه فإنّ ما أظهره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الحبّ و التعلق بأبى طالب يدل على أنّه كان يرى فى أبى طالب

۱- ۱) -هاتان القطعتان وردتا فى«خزانه الأدب»و«و تاريخ ابن كثير»و«شرح ابن أبى الحديد»و«فتح البارى»و«بلوغ الارب»و«تاريخ أبى الفداء»و«السيره النبويه»و غيرها نقلا عن«الغدير»،ج ۸.

۲- ۲) -«شيخ الأباطح»نقلا عن«أبو طالب مؤمن قريش».

۳- ۳) -الطبرى،نقلا عن«أبو طالب مؤمن قريش».

تابعا لمدرسه التوحید،و إلاّ فکیف ینهی الآخرین عن مصاحبه المشرکین،و یبقی هو علی حبّه العمیق لأبی طالب؟ ۵-فی الأحادیث التی وصلتنا عن أهل البیت علیهم السّلام أدله وافره علی إیمان أبی طالب و إخلاصه،و لا یسع المجال هنا لذکرها،و هی أحادیث تستند إلی الاستدلال المنطقی و العقلی،کالحدیث

المنقول عن الإمام زین العابدین علیه السّلام الذی قال- بعد أن سئل عن إیمان أبی طالب و أجاب الإیجاب-:«إنّ هنا قوما یزعمون أنّه کافر..وا عجبا کل العجب!أ یطعنون علی أبی طالب أو علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد نهاه اللّه أن تقرّ مؤمنه مع کافر فی غیر آیه من القرآن(أی فی أکثر من آیه) و لا یشک أحد أن فاطمه بنت أسد رضی اللّه تعالی عنها من المؤمنات السابقات، فإنّها لم تزل تحت أبی طالب حتی مات أبو طالب رضی اللّه عنه» (۱) .

۶-و إذا ترکنا کل هذا جانبا،فاننا قد نشک فی کل شیء إلاّ فی حقیقه کون أبی طالب کان علی رأس حماه الإسلام و رسول الإسلام،و کانت حمایته تتعدی الحدود المألوفه بین أبناء العشیره و العصبیات القبلیه و لا یمکن تفسیرها بها.

و من الأمثله الحیّه علی ذلک حکایه(شعب أبی طالب)یجمع المؤرخون علی أنّه عند ما حاصرت قریش النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین محاصره اقتصادیه و اجتماعیه و سیاسیه شدیده و قطعت علائقها بهم،ظل أبو طالب الحامی و المدافع الوحید عنهم مدّه ثلاث سنوات ترک فیها کل أعماله،و سار ببنی هاشم إلی واد بین جبال مکّه یعرف بشعب أبی طالب فعاشوا فیه،و قد بلغت تضحیاته حدا أنّه،فضلا عن بنائه الأبراج الخاصّه للوقوف بوجه أی هجوم قد تشنه قریش علیهم،کان فی کل لیله یوقظ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من نومه و یأخذه إلی مضجع آخر یعده له و یجعل ابنه الحبیب إلیه علیا علیه السّلام فی مکانه،فإذا ما

قال له ابنه علی علیه السّلام: یا أبه،إنّ هذا سیوردنی موارد الهلکه، أجابه أبو طالب علیه السّلام:ولدی علیک بالصبر،کل حی إلی ممات،لقد

۱- ۱) -کتاب«الحجه»و«الدرجات الرفیعه»نقلا عن«الغدیر»ج ۸،ص ۳۸۰.

جعلت فداء ابن عبد اللّه الحبيب،

فيرد على عليه السّـلام: يا أبه،ما قلت لک ذلک خوفا من الموت فی سبیل محمّـد صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم،بل کنت أریدک أن تعلم مدی طاعتی لک و استعدادی للوقوف إلی جانب محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (۱) .

إنّنا نری أن من یترک التعصب،و یقرأ-بغیر تحیز-ما کتبه التّأریـخ بحروف من ذهب عن أبی طالب،سـیرفع صوته مع صوت ابن أبی الحدید منشدا:

و لو لا أبو طالب و ابنه

لما مثل الدین شخصا و قاما

فذاک بمکّه آوی و حامی

و هذا بیثرب جس الحماما (۲)

۱- ۱) -الغدیر،ج ۷،ص ۳۵۷-۳۵۸ بتصرف.

۲- ۲) -الغدیر،ص ۸۶.

الآیتان [سوره الأنعام (۶): الآیات ۲۷ الی ۲۸]

اشاره

وَ لَوْ تَریٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَی اَلنّٰارِ فَقٰالُوا یٰا لَیْتَنٰا نُرَدُّ وَ لاٰ نُکَذِّبَ بِآیٰاتِ رَبِّنٰا وَ نَکُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۲۷) بَلْ بَدٰا لَهُمْ مٰا کٰانُوا یُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعٰادُوا لِمٰا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ (۲۸)

التّفسیر

اشاره

یقظه عابره عقیمه:

فی هاتین الآیتین إشاره إلی بعض مواقف عناد المشرکین،و فیهما یتجسد مشهد من مشاهد نتائج أعمالهم لکی یدرکوا المصیر المشؤوم الذی ینتظرهم فیستیقظون،أو تکون حالهم-علی الأقل-عبره لغیرهم،فتقول الآیه: وَ لَوْ تَریٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَی النّٰارِ... (۱) لتبیّن لک مصیرهم السیئ المؤلم.

إنّهم فی تلک الحال علی درجه من الهلع بحیث أنّهم یصرخون:لیتنا نرجع إلی الدنیا لنعوض عن أعمالنا القبیحه،و نعمل للنجاه من هذا المصیر المشؤوم.

و نصدق آیات ربّنا،و نقف إلی جاب المؤمنین:

۱- ۱) -«لو»شرطیه،و قد حذف الجواب لوضوحه.

فَقٰالُوا یٰا لَیْتَنٰا نُرَدُّ وَ لاٰ نُکَذِّبَ بِآیٰاتِ رَبِّنٰا وَ نَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ

(۱)

.

الآیه التّالیه تؤكّد أن ذلک لیس أکثر من تمن کاذب،و إنّما تمنوه لأنّهم رأوا فی ذلک العالم کل ما کانوا یخفونه-من عقائد و نیات و أعمال سیئه-مکشوفا أمامهم،فاستیقظوا یقظه مؤقته عابره: بَلْ بَدٰا لَهُمْ مٰا کٰانُوا یُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ .

غیر أن هذه الیقظه لیست قائمه ثابته،بل إنّها قد حصلت لظروف طارئه، و لذلک فحتی لو افترضنا المستحیل و عادوا إلی هذه الدنیا مرّه أخری لفعلوا ما کانوا یفعلونه من قبل و ما نهوا عنه: وَ لَوْ رُدُّوا لَعٰادُوا لِمٰا نُهُوا عَنْهُ لذلک فهم لیسوا صادقین فی تمنیاتهم و مزاعمهم وَ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ .

ملاحظات:

۱-یتبیّن من ظاهر بَدٰا لَهُمْ أنّهم لم یکونوا یخفون کثیرا من الحقائق عن الناس فحسب،بل کانوا یخفونها حتی عن أنفسهم،فتبدوا لهم جلیه یوم القیامه، و لیس فی هذا ما یدعو إلی العجب،فالإنسان کثیرا ما یخفی عنه نفسه الحقائق و یغطی علی ضمیره و فطرته لکی ینال شیئا من الراحه الکاذبه.

إنّ قضیه مخادعه النفس و إخفاء الحقائق عنها من القضایا التی تعالجها البحوث الخاصّه بنشاط الضمیر،فقد نجد الکثیرین من الذین یتبعون أهواءهم یتنبهون إلی أضرار ذلک علیهم،و لکنّهم لکی یواصلوا أعمالهم تلک بغیر أن تنغصها علیهم ضمائرهم-یحاولون إخفاء هذا الوعی فیهم بشکل من الأشکال.

غیر أنّ بعض المفسّرین-دون الالتفات إلی هذه النکته-فهموا من(لهم)ما

---

۱ – ۱) -ینبغی الانتباه إلی نقطه مهمّه فی الآیه:فی القراءه المشهوره التی بین أیدینا«نردّ»مرفوعه و«و لا نکذب»و«نکون» منصوبتان،مع أنّ الظاهر یدل علی أنّهما معطوفتان علی«نردّ»و خیر تعلیل لذلک هو القول بأنّ«نردّ»جزء من التمنی،و«و لا نکذب»جواب التمنی،و«الواو»هنا بمنزله«الفاء»و معلوم أن جواب التمنی إذا وقع بعد الفاء کان منصوبا،إن مفسرین کالفخر الرازی و المرحوم الطبرسی و أبی الفتوح الرازی أوردوا تعلیلات أخری،و لکن الذی قلناه أوضح الوجوه،و علیه فهذه الآیه تکون شبیهه بالآیه(۵۸)من سوره الزمر: لَوْ أَنَّ لِی کَرَّهً فَأَکُونَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ .

ينطبق على الأعمال التى أخفاها المشركون عن الناس(تأمل بدقّه).

٢-قد يقال أنّ التمنى ليس من الأمور يصح فيها أن تكون صادقه أو كاذبه، فهى مثل«الإنشاء»الذى لا يحتمل الصدق و الكذب،إلاّ أنّ هذا القول بعيد عن الصواب،و ذلك لأنّ«الإنشاء»كثيرا ما يصاحبه«الإخبار»ممّا يحتمل الصدق و الكذب،فقد يقول قائل أتمنى أن يعطينى اللّه مالا وفيرا فأعينك،هذا من باب التمنى بالطبع،و لكن مفهومه هو أنّه إذا أعطانى اللّه مالا وفيرا فانى سوف أساعدك،و هذا مفهوم خبرى يحتمل أن يكون صادقا أو كاذبا،فإذا كنت تعرف بخل المتمنى و ضيق نظرته فأنت تعرف أنّه كاذب حتى إن أعطاه اللّه ما يشاء من المال(هذا الموضوع مشهور كثيرا فى الجمل الإنشائيه).

٣-إنّ سبب ذكر الآيه أنّهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى تكرار أعمالهم السابقه هو أن كثيرا من الناس عند ما يشاهدون نتائج أعمالهم بأعينهم،أى حينما يصلون إلى مرحله الشهود،يستنكرون ما فعلوا و يندمون آنيا و يتمنون لو يتاح لهم أن يجبروا ما كسروا،إلاّ أنّ هذه تمنيات عارضه تنشأ من مشاهده نتائج الأعمال عيانا،و تعرض لكل إنسان يشهد بأم عينه ما ينتظره من عذاب و عقاب، و لكن ما أن تغيب تلك المشاهد عن نظره حتى يزول تأثيرها عنه،و يعود إلى سابق عهده.

شأنهم فى ذلك شأن عبده الأصنام الذين دهمهم طوفان عظيم فى البحر و رأوا أنفسهم على عتبه الهلاك،فنسوا كل شىء سوى اللّه،و لكن ما أن هدأت العاصفه و وصلوا إلى ساحل الأمان حتى عاد كل شىء إلى ما كان عليه (١) .

۴-ينبغى الالتفات إلى أنّ هذه الحالات تخص جمعا من عبده الأصنام الذين مرّت الإشاره إليهم فى الآيات السابقه لا كلهم،لذلك كان لا بدّ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يواصل نصح الآخرين لإيقاظهم و هدايتهم.

١- ١) -يونس،٢٢.

الآیات [سوره الأنعام (۶): الآیات ۲۹ الی ۳۲]

اشاره

وَ قٰالُوا إِنْ هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا اَلدُّنْیٰا وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ (۲۹) وَ لَوْ تَریٰ إِذْ وُقِفُوا عَلیٰ رَبِّهِمْ قٰالَ أَ لَیْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلیٰ وَ رَبِّنٰا قٰالَ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ (۳۰) قَدْ خَسِرَ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اَللّٰهِ حَتّٰی إِذٰا جٰاءَتْهُمُ اَلسّٰاعَهُ بَغْتَهً قٰالُوا یٰا حَسْرَتَنٰا عَلیٰ مٰا فَرَّطْنٰا فِیهٰا وَ هُمْ یَحْمِلُونَ أَوْزٰارَهُمْ عَلیٰ ظُهُورِهِمْ أَلاٰ سٰاءَ مٰا یَزِرُونَ (۳۱) وَ مَا اَلْحَیٰاهُ اَلدُّنْیٰا إِلاّٰ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدّٰارُ اَلْآخِرَهُ خَیْرٌ لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۳۲)

التّفسیر

اشاره

فی تفسیر الآیه الأولی احتمالان:

الأوّل:أنّها استئناف لأقوال المشرکین المعاندین المتصلبین الذین یتمنون-عند ما یشاهدون أهوال یوم القیامه-أن یعودوا إلی دار الدنیا لیتلافوا ما فاتهم، و لکن القرآن یقول إنّهم إذا رجعوا لا یتجهون إلی جبران ما فاتهم،بل یستمرون علی ما کانوا علیه،و أکثر من ذلک فإنّهم یعودون إلی إنکار یوم القیامه وَ قٰالُوا إِنْ هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا الدُّنْیٰا وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ (1) .

الاحتمال الثّانی:أنّ الآیه تشرع بکلام جدید یخصّ نفرا من المشرکین ممّن

۱- ۱) -بحسب هذا الاحتمال«و قالوا»معطوفه علی«عادوا»و هذا ما یقول به صاحب تفسیر«المنار».

كفروا بالمعاد كليا،فقد كان بين مشركى العرب فريق لا يؤمنون بالمعاد،و فريق آخر يؤمنون بنوع من المعاد.

الآيه التّاليه تشير إلى مصيرهم يوم القيامه،يوم يقفون بين يدى اللّه: وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ قٰالَ أَ لَيْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ ،فيكون جوابهم أنّهم يقسمون بأنّه الحقّ: قٰالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنٰا .

عندئذ: قٰالَ فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ لا شك أنّ«الوقوف بين يدى اللّه»لا يعنى إنّ للّه مكانا،بل يعنى الوقوف فى ميدان الحساب للجزاء،كما يقول بعض المفسّرين،أو أنّه من باب المجاز،مثل قول الإنسان عند أداء الصّلاه أنّه يقف بين يدى اللّه و فى حضرته.

الآيه التى بعدها فيها،إشاره إلى خسران الذين ينكرون المعاد،فتقول: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اللّٰهِ ،إنّ المقصود بلقاء اللّه هو-كما قلنا من قبل-اللقاء المعنوى و الإيمان الشهودى(الشهود الباطنى)،أو هو لقاء مشاهد يوم القيامه و الحساب و الجزاء.

ثمّ تبيّن الآيه أنّ هذا الإنكار لن يدوم،بل سيستمر حتى قيام يوم القيامه، حين يرون أنفسهم فجأه أمام مشاهده الرهيبه،و يشهدون بأعينهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالندم على ما قصروا فى حق هذا اليوم: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَتْهُمُ السّٰاعَةُ بَغْتَةً قٰالُوا يٰا حَسْرَتَنٰا عَلىٰ مٰا فَرَّطْنٰا فِيهٰا .

و«الساعه»هى يوم القيامه،و«بغته»تعنى فجأه و على حين غره،إذ تقوم القيامه دون أن يعلم بموعدها أحد سوى اللّه تعالى،و سبب إطلاق«الساعه»على يوم القيامه إمّا لأنّ حساب الناس يجرى سريعا فيها،أو للإشاره إلى فجائيه حدوث ذلك،حيث ينتقل الناس بسرعه خاطفه من عالم البرزخ إلى عالم القيامه.

و«التحسر»هو التأسف على شىء،غير أنّ العرب عند تأثرهم الشديد يخاطبون«الحسره»فيقولون:«يا حسرتنا»،فكأنّهم يجسدونها أمامهم و يخاطبونها.

ثمّ يقول القرآن الكريم وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ .

«الأوزار»جمع«وزر»و هو الحمل الثقيل،و تعنى الأوزار هنا الذنوب، و يمكن أن تتخذ هذه الآيه دليلا على تجسد الأعمال،لأنّها تقول إنّهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم،و يمكن أيضا أن يكون الاستعمال مجازيا كنايه عن ثقل حمل المسؤوليه،إذ أنّ المسؤوليات تشبه دائما بالحمل الثقيل.

و فى آخر الآيه يقول اللّه تعالى: أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ .

فى هذه الآيه جرى الكلام على خسران الذين ينكرون المعاد،و الدليل على هذا الخسران واضح،فالإيمان بالمعاد،فضلا عن كونه يعد الإنسان لحياه سعيده خالده،و يحثه على تحصيل الكمالات العلميه و العمليه،فان له تأثيرا عميقا على وقايه الإنسان من التلوث بالذنوب و الآثام،و هذا ما سوف نتناوله-إن شاء اللّه- عند بحث الإيمان بالمعاد و أثره البناء فى الفرد و المجتمع.

ثمّ لبيان نسبه الحياه الدنيا إلى الحياه الآخره،يقول اللّه تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاّ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ فهؤلاء الذين اكتفوا بهذه الحياه،و لا يطلبون غيرها،هم أشبه بالأطفال الذين يودون أن لو يقضوا العمر كلّه فى اللعب و اللهو غافلين عن كل شىء.

إن تشبيه الحياه الدنيا باللهو و اللعب يستند إلى كون اللهو و اللعب من الممارسات الفارغه السطحيه التى لا ترتبط بأصل الحياه الحقيقيه،سواء فاز اللاعب أم خسر،إذ كل شىء يعود إلى حالته الطبيعيه بعد اللعب.

و كثيرا ما نلاحظ أنّ الأطفال يتحلقون و يشرعون باللعب،فهذا يكون «أميرا»و ذاك يكون«وزيرا»و آخر«لصا»و رابع يكون«قافله»،ثمّ لا تمضى ساعه حتى ينتهى اللعب و لا يكون هناك«أمير»و لا«وزير»و لا«لص»و لا

ص: ۲۵۷

«قافله»!أو كما يحدث فی المسرحيات أو التمثيلات،فنشاهد مناظر للحرب أو الحبّ أو العداء تتجسد علی المسرح،ثمّ بعد ساعه يتبدد كل شیء.

و الدنيا أشبه بالتمثيليه التی يقوم فيها الناس بتمثيل أدوار الممثلين،و قد تجتذب هذه التمثيليه الصبيانيه حتی عقلاءنا و مفكرينا،و لكن سرعان ما تسدل الستاره و ينتهی التمثيل.

«لعب»علی وزن«لزج»من«اللعاب»علی وزن«غبار»و هو الماء الذی يتجمع فی الفم و يسيل منه،فإطلاق لفظه«اللعب»علی اللهو و التسليه جاء للتشابه بينه و بين اللعاب الذی يسيل دون هدف.

ثمّ تقارن الآيه حياه العالم الآخر بهذه الدنيا،فتقول: وَ لَلدّارُ الْآخِرَهُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ .

فتلك حياه خالده لا تفنی فی عالم أوسع و علی أرفع،عالم يتعامل مع الحقيقه لا المجاز و مع الواقع،لا الخيال،عالم لا يشوب نعمه الألم و العذاب،عالم كلّه نعمه خالصه لا ألم فيه و لا عذاب.

و لكن إدراك هذه الحقائق و تمييزها عن مغريات الدنيا الخداعه غير ممكن لغير المفكرين الذين يعقلون،لذلك اتجهت الآيه إليهم بالخطاب فی النهايه.

فی حديث رواه هشام بن الحكم عن الامام موسی بن جعفر عليه السّلام قال: «يا هشام إنّ اللّه وعظ أهل العقل و رغبهم فی الآخره فقال: وَ مَا الْحَيٰاهُ الدُّنْيٰا إِلاّ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدّارُ الْآخِرَهُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (١) .

غنی عن القول أنّ هدف هذه الآيات هو محاربه الانشداد بمظاهر عالم الماده و نسيان الغايه النهائيه،أمّا الذين جعلوا الدنيا وسيله للسعاده فهم يبحثون- فی الحقيقه-عن الآخره،لا الدنيا.

١- ١) -تفسير«نور الثقلين»،ج ١،ص ٧١١.

الآیتان [سوره الأنعام (۶): الآیات ۳۳ الی ۳۴]

اشاره

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُکَ اَلَّذِی يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاٰ يُكَذِّبُونَکَ وَ لٰكِنَّ اَلظّٰالِمِينَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ يَجْحَدُونَ (۳۳) وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ فَصَبَرُوا عَلىٰ مٰا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتّٰى أَتٰاهُمْ نَصْرُنٰا وَ لاٰ مُبَدِّلَ لِكَلِمٰاتِ اَللّٰهِ وَ لَقَدْ جٰاءَکَ مِنْ نَبَإِ اَلْمُرْسَلِينَ (۳۴)

التّفسیر

اشاره

المصلحون یواجهون الصعاب دائما:

لا شک أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی نقاشاته المنطقیه و محاوراته الفکریه مع المشرکین المعاندین المتصلبین،کان یواجه منهم المعانده و اللجاجه و التصلب و التعنت،بل کانوا یرشقونه بتهمهم،و لذلک کله کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یشعر بالغم و الحزن،و اللّه تعالی فی مواضع کثیره من القرآن یواسی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یصبّره علی ذلک،لکی یواصل مسیرته بقلب أقوی و جأش أربط،کما جاء فی هذه الآیه: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُکَ الَّذِی يَقُولُونَ ،فاعلم أنّهم لا ینکرونک أنت،بل هم ینکرون آیات اللّه،و لا یکذبونک بل یکذبون اللّه: فَإِنَّهُمْ لاٰ يُكَذِّبُونَکَ وَ لٰكِنَّ الظّٰالِمِينَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ يَجْحَدُونَ .

و مثل هذا القول شائع بیننا،فقد یری«رئیس»أنّ«مبعوثه»إلی بعض الناس عاد غاضبا،فیقول له:«هوّن علیک،فان ما قالوه لک إنّما کان موجها إلیّ،و إذا

حصلت مشكله فأنّا المقصود بها،لا أنت»و بهذا يسعى إلى مواساه صاحبه و التهوين عليه.

ثمّه مفسّرون يرون للآيه تفسيرا آخر،لكن ظاهر الآيه هو هذا الذى قلناه، و لكن لا بأس من معرفه هذا الاحتمال القائل بأن معنى الآيه هو:إنّ الذين يعارضونك هم فى الحقيقه مؤمنون بصدقك و لا يشكون فى صحه دعوتك، و لكن الخوف من تعرض مصالحهم للخطر هو الذى يمنعهم من الرضوخ للحق، أو أنّ الذى يحول بينهم و بين التسليم هو التعصب و العناد.

يتبيّن من كتب السيره أنّ الجاهليين-بما فيهم أشدّ المعارضين للدّعوه- كانوا يعتقدون فى أعماقهم بصدق الدعوه،و من ذلك ما

روى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لقى أبا جهل فصافحه أبو جهل،فقيل له فى ذلك،فقال:و اللّه إنى لأعلم أنّه صادق، و لكنا متى كنّا تبعا لعبد مناف!(أى أنّ قبول دعوته سيضطرنا إلى اتباع قبيلته).

و ورد فى كتب السيره أنّ أبا جهل جاء فى ليله متخفيا يستمع قراءه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،كما جاء فى الوقت نفسه أبو سفيان و الأخنس بن شريق،و لا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوا إلى الصباح،فلمّا فضحهم الصبح تفرقوا،فجمعتهم الطريق،فقال كل منهم للآخر ما جاء به،ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا،لما يخافون من علم شبان قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم،فلمّا كانت الليله الثّانيه جاء كل منهم ظانا أنّ صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود،فلمّا أصبحوا جمعتهم الطريق مرّه ثانيه فتلاوموا،ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا،فلمّا كانت الليله الثالثه جاؤوا أيضا،فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودا لمثلها،ثمّ تفرقوا فلمّا أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثمّ خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته،فقال:اخبرنى-يا أبا حنظله-عن رأيك فيما سمعت من محمّد؟ قال:يا أبا ثعلبه،و اللّه لقد سمعت أشياء أعرفها،و أعرف ما يراد بها، و سمعت أشياء،ما عرفت معناها و لا ما يراد بها.

قال الأخنس:و أنا و الذى حلفت به.

ص :۲۶۰

ثمّ خرج من عنده حتى أتى أبا جهل،فدخل عليه بيته فقال:يا أبا الحكم،ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟ قال:ماذا سمعت؟تنازعنا نحن و بنو عبد المناف الشرف،أطعموا فأطعمنا، و حملوا(أى أعطوا الناس ما يركبونه)فحملنا،و أعطوا فأعطينا،حتى إذا تجاثينا على الركب و كنّا كفرسى رهان،قالوا:منا نبى يأتيه الوحى من السماء،فمتى ندرك هذه؟و اللّه لا نؤمن به أبدا،و لا نصدقه،فقام عنه الأخنس و تركه.

و روى أنّه التقى أخنس بن شريق،و أبو جهل بن هشام فقال له:يا أبا الحكم، اخبرنى عن محمّد أصادق هو أم كاذب،فإنّه ليس هاهنا أحد غيرى و غيرك يسمع كلامنا،فقال أبو جهل:ويحك و اللّه إنّ محمّدا لصادق و ما كذب قط،و لكن إذا ذهب بنو قصى باللواء و الحجابه و السقايه و الندوه و النّبوه فما ذا يكون لسائر قريش؟! (1) .

يتبيّن من هذه الرّوايات و أمثالها أنّ كثيرا من أعداء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الألداء كانوا فى باطنهم يعترفون بصدق ما يقول،إلاّ أنّ التنافس القبلى و ما إلى ذلك،لم يكن يسمح لهم بإعلان ما يعتقدون،أو لم تكن لديهم الشجاعه على ذلك.

إنّنا نعلم أنّ مثل هذا الإعتقاد الباطنى ما لم يصاحبه التسليم، لن يكون له أى أثر،و لا يدخل الإنسان فى زمره المؤمنين الصادقين.

الآيه الثّانيه تستأنف مواساه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تبيّن له حال من سبقه من الأنبياء،و تؤكّد له أنّ هذا ليس مقتصرا عليه وحده،فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلك أيضا: وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ .

و لكنّهم صبروا و تحملوا حتى انتصروا بعون اللّه: فَصَبَرُوا عَلىٰ مٰا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتّٰى أَتٰاهُمْ نَصْرُنٰا و هذه سنه إلهيه لا قدره لأحد على تغييرها: وَ لاٰ مُبَدِّلَ لِكَلِمٰاتِ اللّٰهِ .

و عليه،فلا تجزع و لا تبتئس إذا ما كذبك قومك و آذوك،بل اصبر على

۱- ۱) -الرّوايات المذكوره مستفاده من تفسير«المنار»و«مجمع البيان»فى ذيل الآيه المذكوره.

معانـده الأعـداء و تحمل أذاهم،و اعلم أنّ الإمـدادات و الألطاف الإلهيه سـتنزل بساحتک بموجب هذه السـنه،فتنتصـر فی النهایه علیهم جمیعا،و إنّ ما وصـلک من أخبار الأنبیاء السابقین عن مواجهتهم الشدائـد و المصاعب و عن ثباتهم و صبرهم و انتصارهم فی النهایه،لهو شهاده بیّنه لک: وَ لَقَدْ جاءَکَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِینَ .

تشـیر هـذه الآیه-فی الواقع-إلی مبـدأ عام هو أنّ قاده المجتمع الصالحین الـذین یسـعون لهـدایه الشـعوب عن طریق الـدعوه إلی مبادئ و تعالیم بناءه، و بمحاربه الأفکار المنحطه و الخرافات السائـده و القوانین المغلوطه فی المجتمع، یواجهون معارضه شدیده من جـانب فریق الانتهـازیین الـذین یرون فی انتشار تلک التعالیم و المبادئ البناءه خطرا یتهـدد مصالحهم،فلا یترکون وسـیله إلاّ اسـتخدموها لترویـج أهـدافهم المشؤومه،و لا ـ یتورعون حتی عن التوسـل بالتکـذیب و الاتهام،و الحصار الاجتماعی،و الإیـذاء و التعذیب،و السلب و النهب، و القتل،و بکل ما یخطر لهم من سلاح لمحاربه أولئک المصلحین.

إلاّ ـ أنّ الحقیقه،بما فیها من قوه الجاذبیه و العمق،و بموجب السـنه الإلهیه، تعمل عملها و تزیل من الطریق کل تلک الأشواک،إلاّ أنّ شرط هذا الإنتصار هو الصبر و المقاومه و الثبات.

تعبر هـذه الآـیه عن السـنن بعبـاره«کلمـات اللّه»،لأـنّ الکلم و الکلاـم فی الأصـل التـأثیر المـدرک بإحـدی الحـاستین،السـمع أو البصـر،فالکلاـم مـدرک بحـاسه السـمع، و الکلـم بحـاسه البصـر،و کلمتـه:جرحتـه جراحـه بـان تأثیرهـا،ثـمّ کـان توسـع فی إطلاق«الکلمه»علی الألفاظ و المعانی و حتی علی العقیده و السلوک و السنه و التعالیم.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۳۵ الی ۳۶]

اشاره

وَ إِنْ كٰانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرٰاضُهُمْ فَإِنِ اِسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي اَلْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي اَلسَّمٰاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى اَلْهُدىٰ فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلْجٰاهِلِينَ (۳۵) إِنَّمٰا يَسْتَجِيبُ اَلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ اَلْمَوْتىٰ يَبْعَثُهُمُ اَللّٰهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (۳۶)

التّفسير

اشاره

الأموات المتحركون:

هاتان الآيتان استمرار لمواساه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم التی بدأت فی الآیات السابقه لقد کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یشعر بالحزن العمیق لضلال المشرکین و عنادهم،و کان یود لو أنّه استطاع أن یهدیهم جمیعا إلی طریق الإیمان بأیه وسیله کانت.

فیقول اللّه تعالی: وَ إِنْ كٰانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرٰاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمٰاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ (۱) .أی إذا کان إعراض هؤلاء المشرکین یصعب و یثقل علیک،فشق أعماق الأرض أو ضع سلّما یوصلک إلی السماء للبحث عن آیه-إن استطعت-و لکن اعلم أنّهم مع ذلک لن یؤمنوا بک.

ص :۲۶۳

۱- ۱) -جمله فَإِنِ اسْتَطَعْتَ... جمله شرطیه جوابها محذوف،تقدیره«إن استطعت..فافعل و لکنّهم لا یؤمنون».

«النفق»فی الأصل«النقب»و هو الطریق النافذ،و السرب فی الأرض النافذ فیها،و منه النفاق،و هو الدخول فی الشرع من باب و الخروج عنه من باب،أی أنّ للمنافق سلوکا ظاهرا و آخر خفیا.

فی هذه الآیه یخبر اللّه نبیّه بأن لیس فی تعلیماتک و دعوتک و سعیک أی نقص،بل النقص فیهم لأنّهم هم الذین رفضوا قبول الحقّ،لذلک فانّ أی مسعی من جانبک لن یکون له أثر فلا تقلق.

و لکن لکیلا یظن أحد أنّ اللّه غیر قادر علی حملهم علی التسلیم یقول: وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَی الْهُدیٰ أی لو أراد حملهم علی الاستسلام و الرضوخ لدعوتک و الإیمان باللّه لکان علی ذلک قدیرا.

غیر أنّ الإیمان الإجباری لا طائل تحته،إنّ خلق البشر للتکامل مبنی علی أساس حریه الإختیار و الإراده،ففی حاله حریه الإختیار وحدها یمکن تمییز «المؤمن»من«الکافر»،و«الصالح»من«غیر الصالح»و«المخلص»من «الخائن»و«الصادق»من«الکاذب».أمّا فی الإیمان الإجباری فلن یکن ثمّه اختلاف بین الطیب و الخبیث،و علی صعید الإجبار تفقد کل هذه المفاهیم معانیها تماما.

ثمّ یقول سبحانه لنبیّه: فَلاٰ تَکُونَنَّ مِنَ الْجٰاهِلِینَ ،أی لقد قلت هذا لئلا تکون من الجاهلین،أی لا تفقد صبرک و لا تجزع،و لا یأخذک القلق بسبب کفرهم و شرکهم.

و ما من شک أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یعلم هذه الحقائق و لکن اللّه ذکرها له من باب التطمین و تهدئه الروع،تماما کالذی نقوله نحن لمن فقد ابنه:لا تحزن فالدنیا فانیه،سنموت جمیعا،و أنت ما تزال شابا و لسوف ترزق بابن آخر،فلا تجزع کثیرا.

فلا ریب أنّ فناء دار الدنیا،أو کون المصاب شابا لیسا مجهولین عنده،

و لكنها أمور تقال للتذكير.

على الرّغم من أنّ هذه الآيه من الآيات التى تنفى الإجبار و الإكراه،فإنّ بعض المفسّرين كالرّازى،يعتبرها من الأدله على«الجبر»و يستند إلى وَ لَوْ شاءَ... و يقول:يتّضح من هذه الآيه أنّ اللّه لا يريد للكفار أن يؤمنوا!و لكنّه غفل عن أنّ الإراده و المشيئه فى هذه الآيه هما الإجباريتان،أى أنّ اللّه لا يريد الناس أن يؤمنوا بالإجبار و الإكراه،بل يريدهم أن يؤمنوا باختيارهم و إرادتهم،و عليه فانّ هذه الآيه دليل قاطع يدحض مقوله«الجبريين».

فى الآيه التى تليها استكمال لما سبق و مزيد من المواساه للرسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فتقول الآيه إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ .

أمّا الذين هم فى الواقع أشبه بالأموات فأنّهم لا يؤمنون حتى يبعثهم اللّه يوم القيامه: وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (1) .

يومئذ،و بعد أن يروا مشاهد يوم القيامه يؤمنون،إلاّ أنّ إيمانهم ذاك لا ينفعهم شيئا،لأنّ رؤيه مناظر يوم القيامه العظيمه تحمّل كل مشاهد على الإيمان فيكون نوعا من الإيمان الاضطرارى.

و من نافله القول أنّ«الموتى»فى هذه الآيه لا تشير إلى الموت الجسمانى فى الأفراد،بل الموت المعنوى،فالحياه و الموت نوعان:حياه و موت عضويان، و حياه و موت معنويان،كذلك أيضا السمع و البصر،عضويان و معنويان فكثير ما نصف المبصرين السامعين الأحياء الذين لا يدركون الحقائق بأنّهم عمى أو صم أو حتى أموات،إذ إنّ رد الفعل الذى يصدر عاده من الإنسان الحى البصير السامع إزاء الحقائق لا يصدر من هؤلاء.

أمثال هذه التعبيرات كثيره فى القرآن،و لها عذوبه،و جاذبيه خاصّه،بل إنّ

۱- ۱) -من حيث الاعراب«الموتى»مبتدأ،و«يبعثهم اللّه»خبر،و معنى ذلك هو أنّ هؤلاء لا يطرأ على حالهم أى تغيير حتى يبعثهم اللّه يوم القيامه فيرون الحقائق.

القرآن لاـ یعیر أهمیه کبیره للحیاه المادیه البایلوجیه التی تتمثل فی«الأکل و النوم و التنفس»و إنّما یعنی أشد العنایه بالحیاه الإنسانیه المعنویه التی تتمثل فی تحمل التکالیف و المسؤولیه و الإحساس و الیقظه و الوعی.

لاـ بدّ من القول أیضا:إنّ المعنوی من العمی و الصمم و الموت ینشأ من ذات الأفراد،لأنّهم-لاستمرارهم فی الإثم و إصرارهم علیه و عنادهم-یصلون إلی تلک الحاله.

إنّ من یغمض عینیه طویلا یصل إلی حاله یفقد فیها تدریجیا قوه البصر،و قد یبلغ به الأمر إلی العمی التام،کذلک الذی یغمض عین روحه عن رؤیه الحقائق طویلا یفقد بصیرته المعنویه شیئا فشیئا.

ص :۲۶۶

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۳۷]

اشاره

وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اَللّٰهَ قٰادِرٌ عَلىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۳۷)

التّفسیر

اشاره

تشیر هذه الآیه إلی واحد من الأعذار التی یتذرع بها المشرکون،فقد جاء فی بعض الرّوایات أنّه عند ما عجز بعض رؤساء قریش عن معارضه القرآن و مقابلته،قالوا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:کل هذا الذی تقوله لا فائده فیه،إذا کنت صادقا فیما تقول:فأتنا بمعجزات کعصا موسی و ناقه صالح،یقول القرآن بهذا الشأن:

وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

.

من الواضح أنّ أولئک لم یکونوا جادین فی بحثهم عن الحقیقه،لأنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد جاء لهم من المعاجز بما یکفی،و حتی لو لم یأت بمعجز سوی القرآن الذی تحداهم فی عده آیات منه و دعاهم بصراحه إلی أن یأتوا بمثله فعجزوا عن ذلک،لکان فیه الکفایه لإثبات نبوته،غیر أنّ هؤلاء المزیفین کانوا یبحثون عن عذر یتیح لهم إهانه القرآن من جهه،و التملص من قبول دعوه الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من جهه أخری،لذلک کانوا لا یفتأون یطالبونه بالمعجزات،و لو أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم استجاب لمطالیبهم لأنکروا کل ذلک بقولهم هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ .

كمـا جاء فى آيات أخرى من القرآن،لـذلك يأمر اللّه رسوله أنّ: قُلْ إِنَّ اللّهَ قٰادِرٌ عَلىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً إلاّ أنّ فى ذلك أمرا أنتم عنه غـافلون،و هـو أنّـه إذا حقـق اللّـه مطـاليبكم الـتى يـدفعكم إليهـا عنـادكم،ثـمّ بقيتـم على عنـادكم و لم تؤمنـوا بعـد مشاهـدتكم للمعاجز،فسوف يقع عقاب اللّه عليكم جميعا،و تفنون عن آخركم، لأنّ ذلك سيكون منتهى الاستهتار بمقام الألوهيه المقدس و بمبعوثه و آياته و معجزاته،و لهذا تنتهى الآيه بالقول: وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ .

إشكال:

يتبيّن من تفسير«مجمع البيان»أنّ بعض مناوئى الإسلام قد اتّخذوا من هذه الآيه-منذ قرون عديده- دليلا يستندون إليه فى الزعم بـأنّه لم تكن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيه معجزه،لأنّه كلمـا طلبوا منه معجزه كان يكتفى بالقول:إنّ اللّه قادر على ذلك،و لكن أكثركم لا تعلمون،و هذا ما نهجه بعض الكتاب المتأخرين فأحيوا هذه الفكره الباليه مرّه أخرى.

الجواب:

أوّلا:يبـدو أنّ هؤلاء لم يمعنوا النظر فى الآيات السابقه و التّاليه لهـذه الآيه، و إلاّ لأدركوا أنّ الكلام يـدور مع المعاندين الذين لا يستسلمون للحق مطلقـا،و إنّ موقف هؤلاء هو الـذى منع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من إجابه طلبهم،فهل نجـد فى القرآن أنّ طلاب الحقيقه سألوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يحقق لهم معجزه فـامتنع؟الآيه(١١١) من هـذه السوره نفسـها تتحـدث عن أمثال هؤلاء فتقول: وَ لَوْ أَنَّنٰا نَزَّلْنٰا إِلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتىٰ وَ حَشَرْنٰا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا .

ثانيـا:تفيـد الرّوايـات أنّ هـذا الطلب تقـدم به بعض رؤسـاء قريش،و كـان هـدفهم من ذلـك إهـانه القرآن و الإعراض عنه،فمن الطبيعى أن لا يستجيب

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لطلب يكون دافعه بهذا الشكل.

ثالثا:إنّ أصحاب هذا الإشكال قد أغفلوا سائر آيات القرآن الأخرى التى تصرّح بأنّ القرآن نفسه معجزه خالده،و كثيرا ما دعت المخالفين إلى معارضته، و أثبتت ضعفهم و عجزهم عن ذلك، كما أنّهم نسوا الآيه الأولى من سوره الإسراء التى تقول بكل وضوح:إنّ اللّه أسرى بنبيّه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى ليله واحده.

رابعا:ليس من المعقول أن يكون القرآن مليئا بذكر معاجز الأنبياء و خوارق عاداتهم و يدّعى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّه خاتم الأنبياء و أرفعهم منزله،و أنّ دينه أكمل من أديانهم ثمّ ينكص عن إظهار معجزه استجابه لطلب الباحثين عن الحقّ و الحقيقه، أ فلا يكون هذا نقطه غامضه فى دعوته فى نظر المحايدين و طلاب الحقيقه؟ فلو لم تكن له أيه معجزه،لكان عليه أن يسكت عن ذكر معاجز الأنبياء الآخرين لكى يتمكن من تمرير خطّته و يغلق طريق الاعتراض و الانتقاد عليه، و لكنّه لا يفتأ يتحدث عن إعجاز الآخرين و يعدد خوارق العادات عند موسى بن عمران و عيسى بن مريم و إبراهيم و صالح و نوح عليهم السّلام،و هذا دليل بيّن على ثقته التامّه بمعاجزه،إنّ كتب التّأريخ الإسلامى و الرّوايات المعتبره و نهج البلاغه تشير بما يشبه التواتر إلى خوارق عادات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الآيه [سوره الأنعام (۶): آيه ۳۸]

اشاره

وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِی اَلْأَرْضِ وَ لاٰ طٰائِرٍ يَطِيرُ بِجَنٰاحَيْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُكُمْ مٰا فَرَّطْنٰا فِی اَلْكِتٰابِ مِنْ شَیْءٍ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (۳۸)

التّفسير

لاتساع البحث حول هذه الآيه،سنبدأ بشرح ألفاظها،ثمّ نفسّرها بصوره إجماليه،ثمّ نتناول سائر جوانبها بالبحث.

«الدّابه»من«دبّ»و الدبيب المشى الخفيف،و يستعمل ذلك فى الحيوان و الحشرات أكثر،و قد ورد فى الحديث«لا يدخل الجنّه ديبوب»و هو النمام الذى يمشى بين الناس بالنميمه.

«الطائر»كل ذى جناح يسبح فى الهواء،و قد يوصف بها بعض الأمور المعنويه التى تتقدم بسرعه و اندفاع،و الآيه تقصد الطائر الذى يطير بجناحيه.

«أمم»جمع أمّه،و هى كل جماعه يجمعهم أمر ما،كالدين الواحد أو الزمان الواحد أو المكان الواحد.

«يحشرون»من«حشر»بمعنى«الجمع»،و المعنى الوارد فى القرآن يقصد به يوم القيامه،و خاصه لأنّه يقول: إِلىٰ رَبِّهِمْ .

هذه الآیه تستأنف ما جاء فی الآیات السابقه من الکلام مع المشرکین و تحذیرهم من مصیرهم یوم القیامه،فتتحدث عن«الحشر»و بعث عام یشمل جمیع الکائنات الحیه و الحیوانات،فتقول أولا: وَ مٰا مِنْ دَابَّهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ طٰائِرٍ یَطِیرُ بِجَنٰاحَیْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُکُمْ .

یتّضح من هذا أنّ فصائل الحیوان و الطیور أمم مثل البشر،غیر أنّ للمفسّرین أقوالا مختلفه بشأن وجه الشبه فی هذا التمثیل.

بعض یقول:إنّ التشابه یختص بأسرار خلقتها العجیبه التی تدل علی عظمه الخالق سبحانه.

و بعض آخر یری التشابه فی حاجاتها الحیاتیه المختلفه و فی طرق سد تلک الحاجات و إشباعها.

و منهم من یعتقد أنّ التشابه کائن فی تشابه الإدراک و الفهم و المشاعر،أی أنّ للحیوان و الطیر أیضا-إدراکه و مشاعره فی عالمه الخاص،و یعرف اللّه و یسبح له و یقدسه بحسب طاقته،و إن تکن قوّه إدراکه أدنی ممّا فی الإنسان،ثمّ إنّ ذیل هذه الآیه-کما سیأتی بیانه-یؤید هذا الرأی الأخیر.

ثمّ تقول الآیه: مٰا فَرَّطْنٰا فِی الْکِتٰابِ مِنْ شَیْءٍ .

لعل المقصود بالکتاب هو القرآن الذی یضم کل شیء(ممّا یتعلق بتربیه الإنسان و هدایته و تکامله)یبیّنه مرّه بیانا عاما،کالحث علی طلب العلم مطلقا، و مرّه بیانا تفصیلیا کالکثیر من الأحکام الإسلامیه و القضایا الأخلاقیه.

ثمّه احتمال آخر یقول:إنّ المقصود بالکتاب هو«عالم الوجود»إذ أنّ عالم الخلیقه مثل الکتاب الضخم،یضم کلّ شیء و لا ینسی شیئا.

لیس ثمّه ما یمنع من أن تشمل الآیه کلا التّفسیرین،فالقرآن لم یترک شیئا تربویا إلاّ و ذکره بین دفتیه،کما أنّ عالم الخلیقه یخلو من کل نقص و عوز.

و تختم الآیه بالقول: ثُمَّ إِلیٰ رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ .

یظهر أنّ ضمیر(هم)یعود إلی الدواب و الطیر علی اختلاف أنواعها و أصنافها،أی أنّ لها-أیضا بعثا و نشورا،و ثوابا و عقابا،و هذا ما یقول به معظم المفسّرین،إلاّ أنّ بعض المفسّرین ینکرون هذا،و یفسّرون هذه الآیه و الآیات المشابهه تفسیرا آخر،کقولهم:إنّ معنی«الحشر إلی اللّه»هو الموت و الرجوع إلی نهایه الحیاه (۱) .

ظاهر الآیه یشیر-کما قلنا-إلی البعث و الحشر یوم القیامه.

من هنا تنذر الآیه المشرکین و تقول لهم:إنّ اللّه الذی خلق جمیع الحیوانات و وفر لها ما تحتاجه،و رعی کل أفعالها،و جعل لها حشرا و نشورا،قد أوجد لکم دون شک بعثا و قیامه،و لیس الأمر کما تقول تلک الفئه من المشرکین من أنّه لیس ثمّه شیء سوی الحیاه الدنیا و الممات.

ملاحظات:

اشاره

۱-هل هناک بعث للحیوانات؟

ما من شک أنّ الشّرط الاوّل للمحاسبه و الجزاء هو«العقل و الإدراک» و یستتبعهما(التکلیف و المسؤولیه).

یقول أصحاب هذا الرأی:إنّ لدیهم ما یثبت أن للحیوانات إدراکا و فهما بمقدار ما تطیق،و من ذلک أن حیاه کثیر من الحیوانات تجری وفق نظام دقیق و مثیر للعجب،و یدلّ علی ارتفاع مستوی إدراکها و فهمها،فمن ذا الذی لم یسمع بالنمل و النحل و تمدّنها العجیب و نظامها المحیر فی بناء بیوتها و خلایاها،و لم یستحسن فهمها و إدراکها؟فعلی الرغم من أنّ بعضهم یعزوا ذلک کله إلی نوع من

۱- ۱) -نقل هذا الاحتمال صاحب المنار عن ابن عباس.

الإلهام الغريزى،فليس ثمّه دليل على أنّ هذه الأعمال تجرى بصوره غريزيه لا عقليه.

ما الدليل على أنّ هذه الأعمال-حسبما يدل ظاهرها-ليست ناشئه عن تعقل و إدراك؟كثيرا ما يحدث أنّ الحيوان يبتكر-استجابه لظرف من الظروف- شيئا لم يسبق له أن مرّ به و جربه،فالشاه التى لم يسبق لها أن رأت ذئبا فى حياتها تفرغ منه أوّل ما تراه و تدرك خطره عليها،و تتوسل بكل حيله لدرء خطره عنها.

إن العلاقه التى تتكون بين الحيوان و صاحبه تدريجيا دليل آخر على هذا الأمر،فكثير من الكلاب المفترسه الخطره تعامل أصحابها-بل و حتى أطفالهم- كما يعاملهم الخادم العطوف.

و يحكى الكثير عن وفاء الحيوانات و عن تقديمها كثيرا من الخدمات الإنسانيه و لا شك أنّ هذه أمور ليس من السهل اعتبارها ناشئه بدافع الغريزه،إذ إنّ الغريزه تنشأ عنها أعمال رتيبه من طراز واحد باستمرار،أمّا الأعمال التى تقع فى ظروف خاصّه كردود فعل لحوادث طارئه غير متوقعه،فهذه تكون إلى التعقل و الإدراك أقرب منها إلى الغريزه.

نشاهد اليوم أنّ حيوانات مختلفه يجرى تدريبها لأغراض متنوعه، فالكلاب البوليسيه تدرب للقبض على المجرمين،و الحمام الزاجل لنقل الرسائل،و حيوانات أخرى ترسل لابتياع بعض الحوائج من السوق،و حيوانات أخرى للصيد،و هى كلها تؤدى مهماتها بكل دقه و إتقان(حتى أنّهم افتتحوا مؤخرا مدارس خاصّه لتعليم مختلف الحيوانات)! فضلا عن ذلك كلّه،فإنّ هناك بعض الآيات التى تدل-بوضوح-على أنّ للحيوانات فهما و إدراكا،من ذلك حكايه هروب النمل من أمام جيش سليمان، و حكايه ذهاب الهدهد إلى منطقه سبأ باليمن و رجوعه بأخبار مثيره لسليمان.

ثمّه أحاديث إسلاميه كثيره حول بعث الحيوانات،من ذلك ما

روى عن

أبی ذر قال: بیّنا أنا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذ انتطحت عنزان،فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «أ تدرون فیما انتطحتا؟»فقالوا:لا ندری،قال:«و لکن اللّه یدری و سیقضی بینهما» (۱) .

و

فی روایه بطرق أهل السنه عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر هذه الآیه أنّه قال: «إنّه یحشر هذه الأمم یوم القیامه و یقتص من بعضها لبعض حتی یقتص للجماء من القرناء» (۲) .

و فی الآیه(۵)من سوره التکویر یقول سبحانه: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ و هی دلیل آخر علی ذلک.

۲-الحشر و التکلیف:

تطرح هنا مسأله یتوقف فهم الآیه علیها،و هی هل أن مقوله تکلیف الحیوانات معقوله،مع أنّ من شروط التکلیف العقل،و لهذا لا یکون الطفل و المجنون مکلّفین؟فهل للحیوانات ذلک العقل الذی یؤهلها للتکلیف؟و هل یمکن أن نعتبر الحیوان أکثر عقلا و إدراکا من الصبی غیر البالغ و من الجنون؟فإذا لم یکن له مثل هذا العقل و الإدراک،فکیف یجوز أن یکلّف،و بأی تکلیف؟ للجواب علی هذه السؤال نقول:إنّ للتکلیف مراحل و درجات،و کل مرحله تناسب درجه معینه من العقل و الإدراک،و انّ التکالیف الکثیره المفروضه فی القوانین الإسلامیه علی الإنسان تتطلب مستوی رفیعا من العقل و الإدراک لإنجازها،و لا یمکن أن نفرض مثل تلک التکالیف علی الحیوانات طبعا،لأنّ الشرط المطلوب لإنجازها غیر متوفر فی الحیوانات،إلاّ أنّ مرحله من التکالیف

۱- ۱) -تفسیر مجمع البیان،و نور الثقلین فی تفسیر الآیه المذکوره.

۲- ۲) -تفسیر المنار،ذیل الآیه،و الجماء عکس القرناء:الحیوان الفاقد للقرن.

البسيطه التى يكفى لها ما يناسبها من الفهم و الإدراك يمكن تصورها و قبولها فى الحيوان و لا يمكن إنكارها،بل من الصعب أن نرفض كل تكليف بشأن الأطفال و المجانين القادرين على فهم بعض المسائل،فالصبى الذى لم يبلغ سن الرشد- كأن يكون عمره ۱۴-سنه مثلا-لو ارتكب جريمه قتل،و هو عالم بكل أضرار هذا العمل،فلا يمكن اعتباره بريئا،و القوانين الجزائيه فى العالم تضع عقوبات على بعض جرائم الأطفال غير البالغين،و إن كانت العقوبات أخف طبعا.

و عليه،فإنّ البلوغ و اكتمال العقل من شروط التكليف فى المراحل العليا المتكامله،أمّا فى المراحل الأدنى،أى فى الذنوب التى لا يخفى قبحها حتى على من هم أدنى مرتبه،فان البلوغ و التكامل العقلى ليسا شرطا لازما.

فإذا أخذنا اختلاف مراحل التكليف و اختلاف مراتب العقل بنظر الاعتبار، يمكن حل قضيه الحيوانات أيضا بهذا الشأن.

۳-هل تدل هذه الآيه على التناسخ؟

من العجيب أن بعض مؤيدى فكره«التناسخ»الخرافيه يتخذون من هذه الآيه دليلا على صحه فكرتهم،و يقولون:يفهم من الآيه أنّ الحيوانات أمم مثلكم، مع أنّنا نعلم أنّها ذاتيا ليست مثلنا،فيمكن إذن القول بأن أرواح البشر التى تفارق أبدانها تحل فى أبدان الحيوانات،و بهذا الشكل تنال الأرواح المذنبه العقاب.

و لكن على الرغم من أنّ فكره التناسخ تناقض«قانون التكامل»و لا تتفق مع منطق العقل،و تستوجب إنكار«المعاد»(كما سبق شرحه فى موضعه)،فإنّ هذه الآيه لا تدل على التناسخ مطلقا،إذ إنّ المجتمعات الحيوانيه-كما قلنا-تشبه المجتمعات البشريه،و هو شبه بالفعل لا بالقوّه،لأن للحيوانات نصيبها من الفهم

و الإدراك،و نصيبها من المسؤوليه أيضا،و من ثمّ نصيبها من البعث و الحساب، أنّها تشبه الإنسان فی هذه الحالات.

ينبغی أن نعرف أنّ التكاليف و المسؤوليات الملقاه على الحيوانات فی مرحله خاصّه لا تعنی أنّ لها إماما و قائدا و شريعه و دينا كما ذهب إليه بعض أصحاب التصوف،فهی لا يقودها سوی إدراكها الباطنی،أی أنّها تدرك بعض الأمور،فتكون مسئوله عنها بقدر إدراكها لها.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۳۹]

اشاره

وَ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا صُمٌّ وَ بُکْمٌ فِی اَلظُّلُماتِ مَنْ یَشَأِ اَللّهُ یُضْلِلْهُ وَ مَنْ یَشَأْ یَجْعَلْهُ عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۳۹)

التّفسیر

اشاره

الصّم و البکم:

مرّه أخرى یعود القرآن لیتطرق إلى المنکرین المعاندین،فیقول: وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا صُمٌّ وَ بُکْمٌ فِی الظُّلُماتِ فهم لا یملکون آذانا صاغیه لکی یستمعوا إلى الحقائق،و لا ألسنا ناطقه بالحقّ توصل إلى الآخرین ما یدرکه الإنسان من الحقائق،و لمّا کانت ظلمات الأنانیه و عباده الذات و المعانده و الجهل تحیط بهم من کل جانب،فهم لا یستطیعون رؤیه وجه الحقیقه،و لذلک فهم محرومون من النعم الثلاث التی تربط الإنسان بالعالم الخارجی(أی السمع و البصر و النطق).

یرى بعض المفسّرین أنّ المقصود بالصمّ هم المقلّدون الذین یتبعون قادتهم الضالین دون اعتراض،و یصمون آذانهم عن سماع دعوات الهداه الإلهیین،و إنّ المقصود بالبکم هم أولئک القاده الضالون الذین یدرکون الحقائق جیدا،و لکنّهم حفاظا على مصالحهم و مراکزهم الدنیویه-یکمون أفواههم،و لا ینطقون بالحقّ،

فکلا الفریقین غریقان فی ظلمات الجهل و عباده الذات (۱) .

و بعد ذلک یقول القرآن الکریم: مَنْ یَشَأِ اللّهُ یُضْلِلْهُ وَ مَنْ یَشَأْ یَجْعَلْهُ عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ .

سبق أن قلنا إنّ نسبه الهدایه و الضلاله إلی مشیئه اللّه و إرادته نسبه تفسرها آیات أخری فی القرآن یقول سبحانه: یُضِلُّ اللّهُ الظّالِمِینَ و یقول: وَ ما یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِینَ و فی موضع آخر یقول: وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا یتّضح من هذه الآیات و غیرها من الآیات القرآنیه أنّ الهدایه و الضلاله اللتین تنسبان فی هذه الحالات إلی مشیئه اللّه إنّما هما فی الحقیقه ثواب اللّه و عقابه لعباده علی أفعالهم الحسنه أو السیئه.

و بعباره أخری:قد یرتکب الإنسان أحیانا إثما کبیرا یؤدی به إلی أن یحیط بروحه ظلام مخیف،فتفقد عینه القدره علی رؤیه الحقّ،و تفقد أذنه القدره علی سماع صوت الحقّ، و یفقد لسانه القدره علی قول الحقّ.

و قد یکون الأمر علی عکس ذلک،أی قد یعمل الإنسان أعمالا صالحات کثیره بحیث أن عالما من النّور و الضوء یشع فی روحه،فیتسع بصره و بصیرته، و تزداد أفکاره إشعاعا،و یکون لسانه ابلغ فی إعلان الحقّ،ذلکم هو مفهوم الهدایه و الضلاله اللتین تنسبان إلی إراده اللّه و مشیئته.

۱- ۱) -«المیزان»ج ۷،ص ۸۴.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۴۰ الی ۴۱]

اشاره

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اَللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ اَلسّاعَهُ أَ غَيْرَ اَللّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۰) بَلْ إِيّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (۴۱)

التّفسير

اشاره

التّوحيد الفطرى:

يعود الكلام مرّه أخرى إلى المشركين،و يدور الاستدلال حول وحدانيّه اللّه و عباده اللّه الواحد الأحد عن طريق تذكيرهم باللحظات الحرجه و المؤلمه التى تمر بهم فى الحياه،و يستشهد بضمائرهم،فهم فى مثل تلك المواقف ينسون كل شىء، و لا يجدون غير اللّه ملجأ لهم.

يأمر اللّه سبحانه نبيّه أن: قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السّاعَهُ أَ غَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱) .

---

۱ - ۱) -يقول علماء العربيه:إنّ«ك»فى«أ رأيتك»و«كم»فى«أ رأيتكم»ليستا اسما و لا ضميرا،و لكنّهما حرفا خطاب يفيدان التوكيد،و الفعل فى مثل هذه الحالات يكون مفردا إنّما الافراد و التثنيه و الجمع تظهر على حرف الخطاب هذا،ففى«أ رأيتكم» المخاطبون جماعه و لكن الفعل«رأيت»مفرد،و«كم»هو الذى يدل على أنّ المخاطبين جماعه،و قيل:أنّ هذا التعبير من حيث

الحاله النفسيه التی تصوّرها هذه الآيه لا تنحصر فی المشرکين،بل فی کل إنسان حين يتعرّض إلی الشده و حوادث الخطر و قد لاـ يلجأ الإنسان فی الحوادث الصغيره و المألوفه إلی اللّه،إلاّ أنّه فی الحوادث الرهيبه و المخيفه ينسی کل شیء و إن ظل فی أعماقه يحس بأمل فی النجاه ينبع من الإيمان بوجود قوه غامضه خفيه،و هذا هو التوجه إلی اللّه و حقيقه التوحيد.

حتی المشرکون و عبده الأصنام لاـ يخطر لهم التوسل بأصنامهم،بل ينسونها فی مثل هذه الظروف تماما،فتقول الآيه: بَلْ إِيّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ .

بحوث

هنا يحسن الالتفات إلی النقاط التّاليه:

۱-إنّ الاستدلال المطروح فی هاتين الآيتين هو الاستدلال علی التوحيد الفطری الذی يمکن الاستفاده منه فی مبحثين:الأوّل:فی إثبات وجود اللّه، و الثّانی:فی إثبات وحدانيته،لذلک استشهدت الرّوايات الإسلاميه و العلماء المسلمون بهاتين الآيتين للرد علی منکری وجود اللّه،و کذلک للردّ علی المشرکين.

۲-من الملاحظ أنّ الاستدلال المذکور تطرق إلی(قيام الساعه)،و قد يقال:

إنّ المخاطبين لا يؤمنون بالقيامه أصلا،فکيف يمکن طرح مثل هذا الاستدلال أمام هؤلاء؟

(۱)

المعنی يساوی قولک:(أخبرنی)أو(أخبرونی)،و لکن الحقّ أنّ الجمله تحتفظ بمعناها الاستفهامی،و(أخبرونی)ملازم للمعنی،لا المعنی نفسه،و المعنی يساوی«أعلمتم»؟

نقول أوّلا:إنّ هؤلاء لم يكونوا جميعا ينكرون يوم القيامه،فقد كان فريق منهم يؤمنون بنوع من البعث.

و ثانيا:قد يكون المعنى بالساعه هى ساعه الموت،أو الساعه الرهيبه التى تنزل فيها على الإنسان مصيبه تضعه على شفا الهلاك.

و ثالثا:قد يكون هذا تعبيرا مجازيا عن الحوادث المخيفه،فالقرآن يكرر القول بأنّ يوم القيامه يقترن بسلسله من الحوادث المروعه،كالزلازل و العواصف و الصواعق و أمثالها.

٣-إنّنا نعلم أنّ يوم القيامه و ما يصحبه من وقائع و أمور حتميه الوقوع،و لا يمكن تغييرها إطلاقا،فكيف تقول الآيه: بَلْ إِيّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مٰا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شٰاءَ ؟فهل القصد هو إظهار قدره اللّه،أم أنّ هناك قصد آخر؟ فى جواب هذا السؤال نقول:لا يعنى هذا أنّ اللّه سوف يلغى بالدعاء البعث و قيام الساعه أصلا،بل الآيه تقصد القول بأنّ المشركين-و حتى غير المشركين عند مشاهدتهم الحوادث الرهيبه عند قيام الساعه و بالأهوال و العذاب الذى ينتظرهم،يستولى عليهم الفزع و الجزع،فيدعون اللّه ليخفف عنهم تلك الأهوال، و ينجيهم من تلك الأخطار،فدعاؤهم يكون لنجاتهم من أهوال يوم القيامه الرهيبه،لا للإلغاء ذلك اليوم من الأساس.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۴۲ الی ۴۵]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ اَلضَّرّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (۴۲) فَلَوْ لاٰ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَ لٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۴۳) فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّٰى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (۴۴) فَقُطِعَ دابِرُ اَلْقَوْمِ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعالَمِينَ (۴۵)

التّفسير

اشاره

مصير الذين لا يعتبرون:

تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضّالين و المشركين،و يتخذ القرآن فيها طريقا آخر لإيقاظهم و ذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفه و الأزمان الماضيه، يشرح لهم حال الأمم الضاله و الظالمه و المشركه،و يبيّن لهم كيف أتيح لها جميع عوامل التربيه و التهذيب و الوعى،غير أنّ جمعا منهم لم يلقوا بالا إلى أى من تلك العوامل،و لم يعتبروا بما حاق بهم من(بأساء)و(ضراء) (۱)

---

۱ - ۱) -«البأساء»الشده و المكروه،و تطلق على الحرب أيضا،و كذلك القحط و الجفاف و الفقر،أما«الضراء»فأكثر ما تعنى العذاب

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِکَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرّاءِ لَعَلَّهُمْ یَتَضَرَّعُونَ

.

أما کان من الأجدر بهؤلاء أن یستیقظوا عند ما جاءهم البأس و أحاطت بهم الشدائد؟! فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا أنّهم لم یستیقظوا،و لذلک سببان:

الأوّل:إنّهم لکثره آثامهم و عنادهم فی الشرک زایلت الرحمه قلوبهم و اللیونه أرواحهم: وَ لکِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ .

و الثّانی:إنّ الشیطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزیّن فی نظرهم أعمالهم، فکل قبیح ارتکبوه أظهره لهم جمیلا،و لکل خطأ فعلوه جعله فی عیونهم صوابا:

وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ ما کانُوا یَعْمَلُونَ

.

ثمّ تذکر الآیه الثّانیه أنّه لمّا لم تنفع معهم تلک المصائب و المشاکل و الضغوط عاملهم اللّه تعالى بالعطف و الرحمه،ففتح علیهم أبواب أنواع النعم،لعلهم یستیقظون و یلتفتون إلى خالقهم الذی وهب لهم کل تلک النعم،و یشخصوا الطریق السوی: فَلَمّا نَسُوا ما ذُکِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَیْهِمْ أَبْوابَ کُلِّ شَیْءٍ .

إلاّ أنّ هذه النعم کانت فی الواقع ذات طابع مزدوج،فهی مظهر من مظاهر المحبّه التی تستهدف إیقاظ النائمین،و هی کذلک مقدمه لنزول العذاب الألیم إذا استمرت الغفله،و الذی ینغمس فی النعمه و الرفاهیه،یشتد علیه الأمر حین تؤخذ منه هذه النعم فجأه،بینما لو أخذت منه بالتدریج،فلا یکون وقع ذلک علیه شدیدا،و لهذا یقول إنّنا أعطیناهم الکثیر من النعم حَتّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَهً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (1) .

و هکذا استؤصلت جذور أولئک الظلمه و انقطع نسلهم:

(1)

الروحی،کالهم و الغم و الاکتئاب و الجهل،أو الآلام الناشئه عن الأمراض أو عن فقدان مال أو مقام. و لعل الاختلاف بین معنیی اللفظتین ناشئ عن أن«البأساء»تشیر إلى المکروه الخارجی و«الضراء»تشیر إلى المکروه الداخلی،النفسی أو الروحی،و على هذا تکون«البأساء»من عوامل إیجاد«الضراء»فتأمل بدقه!

---

1 - 1) -«الإبلاس»الحزن المعترض من شده التألم بسبب کثره المنغصات المؤلمه،و منها اشتقت کلمه«إبلیس»،و هی هنا تدل

على شده الغم و الهم اللذين يصيبان المذنبين يومئذ.

فَقُطِعَ دٰابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا

.

و«الدابر»بمعنى المتأخر و التابع.

و لما كان اللّه قد وفر لهؤلاء كل وسائل التربيه و لم يبخل عليهم بأى شىء منها،لذلك فانّ الحمد يختص باللّه الذى يربى أهل الدنيا كافه وَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ .

ملاحظات:

لا بدّ هنا من التنبه إلى بضع نقاط:

۱-قد يبدو لبعضهم أنّ هذه الآيات تتعارض مع الآيات السابقه،فقد بيّنت الآيات السابقه أنّ المشركين إذا هاجمتهم المصاعب و الشدائد يتوجهون إلى اللّه و ينسون كل ما عداه،و لكن هذه الآيات تقول:إنّ هؤلاء لا يستيقظون حتى بعد تعرضهم للمنغصات الشديده.

هذا التباين الظاهرى يزول إذا انتبهنا إلى النقطه التّاليه،و هى أنّ اليقظه الخاطفه المؤقته عند ظهور الشدائد لا تعتبر يقظه حقيقيه،لأنّهم سرعان ما يعودون إلى الغفله السابقه.

فى الآيات السابقه كان الكلام عن التوحيد الفطرى،فكان التيقظ و التوجه العابر و نسيان كل شىء سوى اللّه فى تلك اللحظات الحساسه ما يكفى لإثبات ذلك،أمّا فى هذه الآيات فالكلام يدور عن الاهتداء و الرجوع عن الضلال إلى الطريق المستقيم، لذلك فانّ اليقظه العابره المؤقته لا تنفع شيئا.

قد يتصور أنّ الاختلاف بين الموضعين هو أنّ الآيات السابقه تشير إلى المشركين الذين عاصروا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و الآيات التى بعدها تشير إلى الأقوام

السابقين،و لذلک لا تعارض بینهما (۱) .

و لکن من المستبعد جدّا أن یکون المشرکون المعاندون المعاصرون لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خیرا من الضالین السابقین،و علیه فلا حلّ للإشکال إلاّ بما قلناه.

۲-نقرأ فی هذه الآیات أنّه عند ما لم یکن لابتلائهم بالشدائد تأثیر فی توعیتهم،فإنّ اللّه یفتح أبواب الخیرات علی أمثال هؤلاء الآثمین،فهل هذا ترغیب بعد المعاقبه،أم هو مقدمه لعقاب ألیم؟أی:هل هذه النعم نعم استدراجیه، تغمر المتمرد تدریجیا بالرفاهیه و التنعم و السرور...تغمره بنوع من الغفله،ثمّ ینتزع منه کل شیء دفعه واحده؟ ثمّه قرائن فی الآیه تؤید الاحتمال الثّانی،و لکن لیس هناک ما یمنع من قبول الاحتمالین،أی أنّه ترغیب و تحریض علی الاستیقاظ،فإن لم یؤثر، فمقدمه لسلب النعمه و من ثمّ إنزال العذاب الألیم.

جاء فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «إذا رأیت اللّه یعطی العبد من الدنیا علی معاصیه ما یحب،فإنّما هو استدراج)ثمّ تلی الآیه فَلَمّا نَسُوا... (۲) .

و

فی حدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «یا ابن آدم،إذا رأیت ربّک سبحانه یتابع علیک نعمه و أنت تعصیه فاحذره» (۳) .

و

فی کتاب(تلخیص الأقوال)عن الإمام الحسن العسکری علیه السّلام قال: «إنّ قنبر مولی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أدخل علی الحجاج،فقال:ما الذی کنت تلی من علی بن أبی طالب؟قال:کنت أوضیه،فقال له:ماذا یقول إذا فرغ من وضوئه؟فقال:کان یتلو هذه الآیه: فَلَمّا نَسُوا ما ذُکِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَیْهِمْ أَبْوابَ کُلِّ شَیْءٍ حَتّی إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَهً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ ،

۱- ۱) -یشیر الفخر الرازی فی تفسیره إلی هذه الاختلاف فی ج ۱۲،ص ۲۲۴.

۲- ۲) -تفسیر مجمع البیان و تفسیر نور الثقلین،ذیل الآیه.

۳- ۳) -نهج البلاغه،الکلمه ۲۵.

فقال الحجاج:أظنّه كان يتأولها علينا؟!قال:نعم» (۱) .

۳-يتّضح من هذه الآيات أنّ هدف الكثير من الحوادث المؤلمه هو الإيقاظ و التوعيه،و هذا جانب من فلسفه«المصائب و الآفات»التی تحدثنا بشأنها فی بحث التوحید،و لکن الملفت للنظر هو أنّه یبدأ الموضوع بکلمه«لعل»،و ذلک لأنّ نزول البلاء وحده لا یکفی للإیقاظ،بل هو تمهید للقلوب المستعده(سبق أن قلنا أنّ«لعل»فی کلام اللّه تستعمل حیثما تکون هناک شروط أخری).

هنالک أیضا کلمه«تضرع»التی تعنی أصلا نزول اللبن فی الثدی و استسلامه للرضیع،ثمّ انتقل المعنی إلی الاستسلام مع الخضوع و التواضع،أی أنّ تلک الحوادث الشدیده تهدف إلی إنزالهم عن مطیه الغرور و التمرد و الأنانیه، و الاستسلام للّه.

۴-ممّا یلفت النظر اختتام الآیه بقول: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ و هذا دلیل علی أنّ استئصال جذور الظلم و الفساد و القضاء علی شأفه الذین یمکن أن یواصلوا هذا الأمر من الأهمیه بحیث یستوجب الحمد للّه.

فی حدیث ینقله فضیل بن عیاض عن الإمام الصادق علیه السّلام یقول: «من أحبّ بقاء الظالمین فقد أحبّ أن یعصی اللّه،إنّ اللّه تبارک و تعالی حمد بنفسه بهلاک الظلمه فقال: فَقُطِعَ دٰابِرُ الْقَوْمِ الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ .

۱- ۱) -نور الثقلین،ج ۱،ص ۷۱۸.

الآیات [سوره الأنعام (۶): الآیات ۴۶ الی ۴۹]

اشاره

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اَللّٰهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصٰارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اَللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ اُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ اَلْآيٰاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (۴۶) قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُ اَللّٰهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلظّٰالِمُونَ (۴۷) وَ مٰا نُرْسِلُ اَلْمُرْسَلِينَ إِلاّٰ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ (۴۸) وَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا يَمَسُّهُمُ اَلْعَذٰابُ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ (۴۹)

التّفسیر

اشاره

اعرفوا واهب النعم!

الخطاب ما یزال موجها إلی المشرکین.

فی هذه الآیات حثّ استدلالی علی إیقاظهم ببیان آخر یعتمد غریزه دفع الضرر،فیبدأ بالقول:إنّه إذا سلب منکم اللّه النعم الثمینه التی وهبها لکم،مثل السمع و البصر،و أغلق علی قلوبکم أبواب التمییز بین الحسن و السیء،و الحقّ الباطل،فمن یا تری یستطیع أن یعید إلیکم تلک النعم؟ قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اَللّٰهُ

سَمْعَکَمْ وَ أَبْصٰارَکُمْ وَ خَتَمَ عَلیٰ قُلُوبِکَمْ مَنْ إِلٰهٌ غَیْرُ اللّٰهِ یَأْتِیکَمْ بِهِ .

فی الواقع،کان المشرکون أنفسهم یعتقدون أنّ الخالق و الرازق هو اللّه، و کانوا یعبدون الأصنام للاستشفاع بها عند اللّه.

و القرآن یحثّهم علی الاتجاه المباشر نحو اللّه مصدر کل الخیرات و البرکات بدل الاتجاه إلی أصنام لا قیمه لها.

و إضافه إلی ما کان یحمله عبده الأصنام من اعتقاد باللّه،فإنّ القرآن استجوب عقولهم هنا لإبداء رأیها و حکمها فی أمر أصنام لا تملک هی نفسها عینا و لا أذنا و لا عقلا و لا شعورا،فهل یمکنها أن تهب أمثال هذه النعم للآخرین؟! ثمّ تقول الآیه:انظر إلی هؤلاء الذین نشرح لهم الآیات و الدلائل بمختلف الوسائل،و لکنّهم مع ذلک یعرضون عنها: اُنْظُرْ کَیْفَ نُصَرِّفُ الْآیٰاتِ ثُمَّ هُمْ یَصْدِفُونَ .

و فیما یتعلق بمعنی«ختم»و سبب ورود«سمع» بصیغه المفرد،و«أبصار» بصیغه الجمع فی القرآن راجع المجلد الاوّل من هذا التّفسیر،(۹۲).

«نصرف»من«التصریف»بمعنی«التغییر»،و الکلمه هنا تشیر إلی مختلف الاستدلالات فی صور متنوعه.

و«یصدفون»من«صدف»بمعنی«الجانب»و«الناحیه»أی أنّ المعرض عن شیء یدیر وجهه إلی جانب أو ناحیه أخری.

و هذه الکلمه تستعمل بمعنی الإعراض أیضا،و لکنه«الإعراض الشدید» کما یقول الراغب الأصفهانی.

تشیر الآیه الثّانیه،بعد ذکر هذه النعم الثلاث«العین و الأذن و الإدراک»التی هی منبع جمیع نعم الدنیا و الآخره-إلی إمکان سلب هذه النعم کلها دفعه واحده، فتقول: قُلْ أَ رَأَیْتَکُمْ إِنْ أَتٰاکُمْ عَذٰابُ اللّٰهِ بَغْتَهً أَوْ جَهْرَهً هَلْ یُهْلَکُ إِلاَّ الْقَوْمُ

الظّالِمُونَ

(۱)

.

«بغته»بمعنی«فجأه»و«جهره»بمعنی«الظاهر»و العلانیه،و المألوف استعمال«سرّا»فی مقابل«جهره»لا«بغته»،و لکن لما کانت مقدمات العمل المباغت خافیه غالبا،إذ لو لا خفاؤه لما کان مباغتا،فإن فی«بغته»یکمن معنی الخفاء و السریه أیضا.

و القصد هو أنّ القادر علی إنزال مختلف العقوبات،و سلب مختلف النعم هو اللّه وحده،و إنّ الأصنام لا دور لها فی هذا أبدا، لذلک لیس ثمّه ما یدعو إلی اللجوء إلیها،لکن اللّه لحکمته و رحمته لا یعاقب إلاّ الظالمین.

و من هذا یستفاد أنّ للظلم معنی واسعا یشمل أنواع الشرک و الذنوب،بل إنّ القرآن یعتبر الشرک ظلما عظیما،کما قال لقمان لابنه: لاٰ تُشْرِکْ بِاللّٰهِ إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ (۲) .

الآیه الثالثه تشیر إلی مرکز الأنبیاء،فتقول:لیست الأصنام العدیمه الروح هی وحدها العاجزه عن القیام بأی أمر،فإن الأنبیاء العظام و القاده الإلهیین أیضا لا عمل لهم سوی إبلاغ الرساله و الإنذار و التبشیر،فکل ما هنالک من نعم إنّما هی من اللّه و بأمره،و أنّهم إن أرادوا شیئا طلبوه من اللّه: وَ مٰا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِینَ إِلاّٰ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ .

و الاحتمال الآخر فی ربط هذه الآیه بالآیات السابقه هو أنّ تلک الآیات کانت تتکلم عن البشاره و الإنذار،و هنا یدور القول علی أنّ هذا هو هدف بعثه الأنبیاء،فهم مبشرون و منذرون.

ثمّ تقول:إنّ طریق النجاه ینحصر فی أمرین،فالذین یؤمنون و یصلحون

۱- ۱) -شرحنا معنی«أ رأیتکم»عند تفسیر الآیه ۴۰ من هذه السوره و قلنا:لیس هناک ما یدعو إلی اعتبار المعنی«أخبرونی»بل المعنی هو«أعلمتم»؟

۲- ۲) -لقمان،۱۳.

أنفسهم و يَعْمَلُونَ الصّالِحاتِ فلا خوف عليهم من العقاب الإلهى،و لا حزن على أعمالهم السابقه. فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ .

أمّا أولئك الذين لا يصدقون بآياتنا،بل يكذبون بها فإنّ عقابهم على فسقهم و عصيانهم عذاب من اللّه: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا يَمَسُّهُمُ الْعَذٰابُ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ .

من الجدير بالانتباه أنّ الآيه ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات اللّه بعباره يَمَسُّهُمُ الْعَذٰابُ ،فكأنّ هذا العقاب يطاردهم فى كل مكان حتى يشملهم بأشد ما يكون من العذاب.

كذلك ينبغى القول أنّ لكلمه«فسق»معنى واسعا أيضا،يشمل كل أنواع العصيان و الخروج عن طاعه اللّه و عبوديته و حتى الكفر فى بعض الأحيان،و هذا المعنى هو المقصود فى هذه الآيه،لذلك لا محل للبحوث التى عقدها الفخر الرازى و مفسّرون آخرون بشأن معنى«الفسق»و شمولها الذنوب،و من ثمّ الدفاع عن ذلك.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۵۰]

اشاره

قُلْ لاٰ أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اَللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ اَلْغَیْبَ وَ لاٰ أَقُولُ لَکُمْ إِنِّی مَلَکٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا یُوحیٰ إِلَیَّ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی اَلْأَعْمیٰ وَ اَلْبَصِیرُ أَ فَلاٰ تَتَفَکَّرُونَ (۵۰)

التّفسیر

اشاره

معرفه الغیب:

هـذه الآیه استمرار للردّ علی اعتراضات الکفار و المشرکین المختلفه،و الرد یشمل ثلاثه أقسام من تلک الاعتراضات فی جمل قصیره:

الأوّل:هو أنّهم کانوا یریدون من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم القیام بمعجزات عجیبه و غریبه،و کان کل واحد یتقدم باقتراح حسب رغبته،بل إنّهم لم یکونوا یقنعون بمشاهده معجزات طلبها آخرون،فمرّه کانوا یطلبون بیوتا من ذهب،و مرّه یریدون هبوط الملائکه،و مرّه یریدون أن تتحول أرض مکّه القاحله المحرقه إلی بستان ملیء بالمیاه و الفواکه و غیر ذلک ممّا کانوا یطلبونه من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،ممّا سیأتی شرحه فی تفسیر الآیه(۹۰)من سوره الإسراء.

و لعلهم بطلباتهم الغریبه تلک کانوا یتوقعون أن یروا للنبی مقام الألوهیه و امتلاک الأرض و السماء،فللردّ علی هؤلاء یأتی الأمر من اللّه: قُلْ لاٰ أَقُولُ

لَکَمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اللّهِ

.

«الخزائن»جمع الخزینه،بمعنی المکان الـذی تخزن فیه الأشیاء التی یراد حفظها و إخفاؤها عن الآخرین،و استنادا إلی الآیه: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (۱) یتّضح أنّ«خزائن اللّه»تشمل مصدر و منبع جمیع الأشیاء،و هی فی الحقیقه تستقی من ذات اللّه اللامتناهیه منبع جمیع الکمالات و القدرات.

ثمّ تردّ الآیه علی الّذین کانوا یریدون من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یکشف لهم عن جمیع أسرار المستقبل،بل و یطلعهم علی ما ینتظرهم من حوادث لکی یدفعوا الضرر و یستجلبوا النفع،فتقول: وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَیْبَ .

سبق أن قلنا إنّه لا یکون أحد مطلعا علی کل شیء إلاّ إذا کان حاضرا و شاهدا فی کل مکان و زمان،و هو اللّه وحده،أمّا الذی یکون وجوده محددا بمکان و زمان معینین فلا یمکن بالطبع أن یطلع علی کل شیء،و لکن ما من شیء یحول دون أن یمنح اللّه جزءا من عمله هذا إلی الأنبیاء و القاده الإلهیین لإکمال مسیره القیاده،حسبما یراه من مصلحه،و هذا بالطبع لا یکون علما بالغیب بالذات،بل هو«علم بالغیب بالعرض»أی أنّه تعلم من عالم الغیب.

هنالک آیات عدیده فی القرآن تدل علی أنّ اللّه لا یظهر علمه هذا للأنبیاء و القاده الإلهیین وحدهم،بل قد یظهره لغیرهم أیضا،ففی الآیتین(۲۶ و ۲۷)من سوره الجن نقرأ: عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ .

لا شک أنّ مقام القیاده،و خاصه القیاده العالمیه العامه،یتطلب الاطلاع علی کثیر من المسائل الخافیه علی عامّه الناس،فإذا لم یطلع اللّه مبعوثیه و أولیاءه علی علمه،فإنّ مراکزهم القیادیه لن تکون کامله(تأمل بدقّه).

ص: ۲۹۲

۱- ۱) -الحجر،۲۱.

و إذا تجاوزنا ذلك،فإنّنا نلاحظ أنّ بعض الكائنات الحيّه لا بدّ لها أن تعلم الغيب للمحافظه على حياتها،فيهبها اللّه ما تحتاجه من علم،فنحن-مثلا-قد سمعنا عن بعض الحشرات التى تتنبأ فى الصيف بما سيكون عليه الجو فى الشتاء،أى أنّ اللّه قد وهبها هذا العلم بالغيب،لأنّ حياتها ستتعرض لخطر الفناء دون هذه المعرفه،و سوف نفصل هذه الموضوع أكثر إن شاء اللّه عند تفسير الآيه (١٨٨)من سوره الأعراف.

فى الجمله الثّالثه ردّ على الذين كانوا يتصورون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ملكا،أو أن يصاحبه ملك،و ان لا يتصف بما يتصف به البشر من تناول الطعام و السير فى الطرقات،و غير ذلك،فقال: وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّی مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا یُوحىٰ إِلَیَّ .

يتّضح من هذه الآيه بجلاء أن كل ما عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من علم،و كل ما فعله كان بوحى من السماء،و إنّه لم يكن يفعل شيئا باجتهاده و لا بالعمل بالقياس و لا بأى شىء آخر كما يرى بعض-و إنّما كان يتبع الوحى فى كل أمر من أمور الدين.

و فى الختام يؤمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ يقول لهم:هل يمكن للذين يغمضون أعينهم و يغلقون عقولهم فلا يفكرون أن ينظر إليهم على قدم المساواه مع الذين يرون الحقائق جيدا و يتفهمونها؟ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِیرُ أَ فَلاٰ تَتَفَكَّرُونَ .

إنّ ذكر هذه الجمله فى أعقاب الجملات الثلاث السابقه قد يكون لأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سبق أن قال: لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اللّٰهِ و وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَیْبَ و لاٰ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّی مَلَكٌ بل إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا یُوحىٰ إِلَیَّ ،و لكن هذا كلّه لا يعنى إنّنى مثلكم،أيّها المشركون،بل أنا إنسان بصير بالواقع بينما المشرك أشبه بالأعمى،فهل يستويان؟ ثمّه احتمال آخر لربط هذه الجمل،و هو أن الأدله و البراهين على التوحيد

و علی صدق رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم واضحه جلیه،و لکنّها تتطلب عینا بصیره لکی تراها،فإذا کنتم لا تقبلونها فلیس لأنها أدله غامضه معقده،بل لکونکم تفتقرون إلی العین البصیره،فهل یستوی الأعمی و البصیر؟

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۵۱]

اشاره

وَ أَنْذِرْ بِهِ اَلَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لاٰ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۵۱)

التّفسیر

فی ختام الآیه السابقه ذکر سبحانه عدم استواء الأعمی بالبصیر،و فی هذه الآیه یأمر نبیّه أن ینذر الذین یخشون یوم القیامه وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ أی أن هؤلاء لهم هذا القدر من البصیره بحیث یحتملون وجود حساب و جزاء،و فی ضوء هذا الاحتمال و الخوف من المسؤولیه تتولّد فیهم القابلیه علی التلقّی و القبول.

سبق أن قلنا:إنّ وجود القائد المؤهل و البرنامج التربوی الشامل لا یکفیان وحدهما لهدایه الناس،بل ینبغی أن یکون لدی هؤلاء الناس الاستعداد لتقبل الدعوه،تماما مثل أشعه الشمس التی لا تکفی وحدها لتشخیص معالم الطریق، بل لا بدّ من وجود العین الباصره أیضا،و مثل البذره السلیمه التی لا یمکن أن تنمو بغیر وجود الأرض الصالحه للزراعه.

یتّضح من هذا أنّ الضمیر فی«به»یعود علی القرآن،و هذا یتبیّن من القرائن، علی الرغم من أنّ القرآن لم یذکر فی الآیات السابقه صراحه.

ص :۲۹۵

كما أنّ المقصود من«يخافون»أى يحتملون وجود الضرر، إذ يخطر ببال كل عاقل يستمع إلى دعوه الأنبياء الإلهيين،بأنّ من المحتمل أن تكون دعوه هؤلاء صادقه،و أنّ الإعراض عنها يوجب الخسران و الضرر،و يستنتج من ذلك أنّ من الخير له أن يدرس الدعوه و يطلع على الأدله.

و هذا واحد من شروط الهدايه،و هو ما يطلق عليه علماء العقائد اسم«لزوم دفع الضرر المحتمل»و يعتبرونه دليل وجوب دراسه دعوى من يدعى النّبوه، و لزوم المطالعه لمعرفه اللّه.

ثمّ يقول:إنّ أمثال هؤلاء من ذوى القلوب الواعيه يخافون ذلك اليوم الذى ليس فيه غير اللّه ملجأ و لا شفيع: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لاٰ شَفِيعٌ .

نعم،أنذر أمثال هؤلاء الناس و ادعهم إلى اللّه،إذ أنّ الأمل فى هدايتهم موجود: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

بديهى أنّ نفى«الشفاعه»و«الولايه»فى هذه الآيه عن غير اللّه لا يتناقض مع شفاعه أولياء اللّه و ولايتهم،إذ إنّنا سبق أن أشرنا إلى أنّ المقصود هو نفى الشفاعه و الولايه بالذات،أى أنّ هذين الأمرين مختصان ذاتا باللّه،فإذا كان لأحد غيره مقام الشفاعه و الولايه فبإذن منه و بأمره،كما يصرح القرآن بذلك: مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ (۱) .

للمزيد من التوضيح بشأن الشفاعه عموما،انظر المجلد الأوّل:ص ۱۹۸.

و المجلد الثّانى من هذا التّفسير.

ص :۲۹۶

۱- ۱) -البقره،۲۵۵.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۵۲ الی ۵۳]

اشاره

وَ لاٰ تَطْرُدِ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاهِ وَ اَلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مٰا عَلَيْكَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مٰا مِنْ حِسٰابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ اَلظّٰالِمِينَ (۵۲) وَ كَذٰلِكَ فَتَنّٰا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هٰؤُلاٰءِ مَنَّ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنٰا أَ لَيْسَ اَللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِالشّٰاكِرِينَ (۵۳)

سبب النّزول

اشاره

ذكرت روايات عديده فى سبب نزول هاتين الآيتين،و لكنّها متشابهه،من ذلك ما جاء فى تفسير«الدار المنثور»:مرّت جماعه من قريش بمجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث كان«صهيب»و«عمار»و«بلال»و«خباب»و أمثالهم من الفقراء و العمال حاضرين فيه،فتعجبوا من ذلك(لأنّهم كانوا يحسبون أن شخصيه المرء مرهونه بالثروه و الجاه و المقام،و لم يستطيعوا إدراك المنزله المعنويه لهؤلاء الأشخاص،و لا ما سيكون لهم من دور بناء فى إيجاد المجتمع الإسلامى و الإنسانى الكبير)فقالوا:يا محمّد!أرضيت بهؤلاء من قومك،أ فنحن نكون تبعا لهم؟،أ هؤلاء الذين منّ اللّه عليهم؟!اطردهم عنك،فلعلك إن طردتهم اتّبعناك،

فأنزل اللّه الآيه.

بعض مفسّري أهل السنه،مثل صاحب تفسير(المنار)يورد حديثا أشبه بذاك،ثمّ يقول:إنّ عمر بن الخطاب كان حاضرا و اقترح على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقبل عرض هؤلاء الملأ من قريش،ليتبيّن مدى صدق قولهم؟فنزلت الآيتان فى رفض اقتراحه.

ينبغى ألّا يغرب عن البال أنّ ذكر سبب نزول بعض آيات هذه السوره لا يتنافى مع نزول السوره كلها فى مكان واحد،فقد سبق أن قلنا إنّ من الممكن أن تقع حوادث مختلفه فى أوقات مختلفه قبل نزول السوره،ثمّ تنزل السوره بشأن تلك الحوادث.

يلزم هنا أن نذكر أنّه جاء فى روايه أنّ الملأ من قريش-حينما رفض رسول اللّه عرضهم-اقترحوا عليه شيئا آخر،و قالوا له:لو نحيت هؤلاء حتى نخلو بك...فإذا انصرفنا،فإذا شئت أعدتهم إلى مجلسك،فأجابهم النّبى إلى ذلك،فقالوا له:اكتب لنا بهذا على نفسك كتابا،فدعا بصحيفه و أحضر عليا ليكتب،فنزل جبرائيل بالآيه تنهى عن ذلك.

غير أنّ هذه الروايه،على الرغم من كونها لا تنسجم مع روح تعاليم الإسلام التى رفضت دوما المساومه فى مثل هذه الحالات،و أكّدت باستمرار على وحده المجتمع الإسلامى،فإنّها لا تنسجم مع الآيه السابقه: إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ فكيف يمكن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبول الاقتراح دون انتظار للوحى.

ثمّ إنّ عباره وَ لاٰ تَطْرُدِ فى بدايه الآيه تدل على أنّهم قد طلبوا طرد أولئك، لا التناوب معهم،و البون شاسع بين طلب الطرد و طلب التناوب،و هذا يدل على أنّ سبب نزول الآيه هو ما أوردناه أوّلا.

مكافحه التّفكير الطّبقى:

فى هـذه الآيه إشاره إلى واحد من احتجاجات المشـركين،و هو أنّهم كانوا يريدون من النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يقرّ ببعض الامتيازات لطبقه الأغنياء و يفضـلهم على طبقه الفقراء،إذ كانوا يرون فى جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منقصه لهم أى منقصه!مع أنّ الإسـلام كان قـد جاء للقضاء على مثل هـذه الامتيازات الزائفه الجوفاء،كانوا يصـرون على هذا الطلب فى طرد أولئك عنه، غير أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستندا إلى أدله حيه،فيقول: وَ لاٰ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاهِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (١) .

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن لم يشر إلى هؤلاء الأشخاص إشاره خاصّه،بل اكتفى بصفتهم البارزه و هى أنّهم يذكرون اللّه صباح مساء،أى دائما،و انّ ذكرهم اللّه هـذا ليس فيه رياء،بل هو لـذات اللّه وحـده،فهم يريدونه وحده و يبحثون عنه، و ليس ثمّه امتياز اسمى من هذا.

يتبيّن من آيات قرآنيه مختلفه أنّ هـذا لم يكن أوّل طلب من نوعه يتقـدم به هؤلاء المشـركون الأغنياء المتكبرون إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،بل لقد تكرر اعتراضهم على النّبى بشأن اجتماع الفقراء حوله،و مطالبتهم إياه بطردهم.

فى الحقيقـه كـان هؤلاـء يسـتندون فى طلبهـم ذاك إلى سـنه قـديمه خـاطئه تقيم المرء على أسـاس ثروته،و كـانوا يعتقـدون أنّ المعايير الطبقيه القائمه على أساس الثروه يجب أن تبقى محفوظه،و يرفضون كل دعوه تستهدف إلغاء هذه القيم و المعايير.

فى سيره النّبى نوح عليه السّلام نرى أنّ أشراف زمانه كانوا يقولون له:

---

١ – ١) -معنى«الوجه»فى اللغه معروف،و لكن الكلمه قـد تعنى«الـذات»كما فى هذه الآيه،و هناك شـرح أوفى لذلك فى المجلد الثانى من هذا التفسير.

وَ مٰا نَرٰاکَ اتَّبَعَکَ إِلاَّ الَّذِینَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِیَ الرَّأْیِ

(۱)

و اعتبروا ذلک دلیلا علی بطلان رسالته.

إنّ واحدا من دلائل عظمه الإسلام و القرآن،و عظمه مدرسه الأنبیاء عموما، هو أنّها وقفت ثابته لا تتزحزح فی وجه أمثال هذه الطلبات،و راحت تحطم هذه الامتیازات الموهومه فی کل المجتمعات التی تعتبر التمایز الطبقی مسأله ثابته، لتعلن أنّ الفقر لیس نقصا فی أشخاص مثل سلمان و أبی ذر و الخباب و بلال،کما أنّ الثروه لیست امتیازا اجتماعیا،أو معنویا لهؤلاء الأثریاء الفارغین المتحجرین المتکبرین.

ثمّ تقول الآیه:إنّه لیس ثمّه ما یدعو إلی إبعاد هؤلاء المؤمنین عنک،لأنّ حسابهم لیس علیک،و لا حسابک علیهم: مٰا عَلَیْکَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَیْءٍ،وَ مٰا مِنْ حِسٰابِکَ عَلَیْهِمْ مِنْ شَیْءٍ ،و لکنّک مع ذلک إذا فعلت تکون ظالما: فَتَطْرُدَهُمْ فَتَکُونَ مِنَ الظّٰالِمِینَ .

یختلف المفسّرون فی توضیح المقصود من«الحساب»هنا.

منهم من یقول:إنّ المقصود هو حساب رزقهم،أی أنّهم و إن کانوا فقراء فإنّهم لا یثقلون علیک بشیء،لأنّ حساب رزقهم علی اللّه،کما أنّک أنت أیضا لا تحملهم ثقل معیشتک،إذ لیس من حساب رزقک علیهم من شیء.

غیر أنّ هذا الاحتمال یبدو بعیدا،لأن الظاهر أن القصد من الحساب هو حساب الأعمال،کما یقول کثیر من المفسّرین،أمّا لماذا یقول اللّه أن حساب أعمالهم لیس علیک،مع أنّهم لم یبدر منهم أی عمل سیء یستوجب هذا القول؟ فالجواب:إنّ المشرکین کانوا یتهمون أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الفقراء بالابتعاد عن اللّه بسبب فقرهم،زاعمین أنّهم لو کانت أعمالهم مقبوله عند اللّه لزمه الترفیه و التوسعه علیهم فی معیشتهم،بل کانوا یتهمونهم بأنّهم لم یؤمنوا إلاّ لضمان

۱- ۱) -هود،۲۷.

معیشتهم و الوصول إلی لقمه العیش.

فیرد القرآن علی ذلک مبینا أنّنا حتی لو فرضنا أنّهم کذلک،فان حسابهم علی اللّه،ما دام هؤلاء قد آمنوا و أصبحوا فی صفوف المسلمین،فلا یجوز طردهم بأی ثمن،و بهذا یقف فی وجه إحتجاج أشراف قریش.

و شاهد هذا التّفسیر ما جاء فی حکایه النّبی نوح علیه السّلام التی تشبه حکایه أشراف قریش،فأولئک کانوا یقولون لنوح: أَ نُؤْمِنُ لَکَ وَ اتَّبَعَکَ الْأَرْذَلُونَ فیرد علیهم نوح قائلا: وَ مٰا عِلْمِی بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ إِنْ حِسٰابُهُمْ إِلاّٰ عَلیٰ رَبِّی لَوْ تَشْعُرُونَ، وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ الْمُؤْمِنِینَ (۱) .

من هنا یجب علی الأنبیاء أن یتقبلوا کل امرئ یظهر الإیمان بدون أی تمییز و من أیه طبقه کان فکیف بالمؤمنین الأطهار الذین لا یریدون إلاّ وجه اللّه،و کل ذنبهم هو أنّهم فقراء صفر الیدین من الثروه،و لم یتلوثوا بالحیاه الدنیئه لطبقه الأشراف!

امتیاز کبیر للإسلام:

إنّنا نعلم أنّ دائره صلاحیات رجال الدین المسیحیین المعاصرین قد اتسعت اتساعا مضحکا بحیث إنّهم أعطوا أنفسهم حق غفران الذنوب،فبإمکانهم طرد الأشخاص و تکفیرهم أو قبولهم لأتفه الأمور.

إلاّ أنّ القرآن،فی هذه الآیه و فی آیات أخری ینفی صراحه أن یکون لأحد الحقّ،بل و لا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه فی أن یطرد أحدا أظهر إیمانه و لم یفعل ما یوجب إخراجه من الإسلام،و أن غفران الذنوب و الحساب بید اللّه وحده،و لا یحق لأحد التدخل فی هذا أبدا.

و الکلام هنا علی«الطرد الدینی»لا«الطرد الحقوقی»فلو کانت إحدی

۱- ۱) -الشعراء،الآیات ۱۱۱-۱۱۴.

المدارس وقفا على طبقه خاصّه من الطلاب،و قبل أحدهم فيها لتوفر شروط القبول فيه،ثمّ فقد بعض تلك الشروط،فان طرده و إخراجه من تلك المدرسه لا مانع فيه،كذلك لو أنّ مدير مدرسه أعطيت له صلاحيات معينه لغرض إداره شؤونها،فله كل الحقّ فى الاستفاده من تلك الصلاحيات لحفظ النظام و رعايه مصالح المدرسه(فما ورد فى حديث صاحب تفسير المنار عند تفسيره الآيه ممّا يخالف هذا المعنى ناشى من الاشتباه بين الطرد الدينى و الطرد الحقوقى).

الآيه الثّانيه يحذر فيها القرآن أصحاب المال و الثروه من أن هذه الأمور اختبار لهم،فإذا لم يجتازوا الامتحان فعليهم أن يتحملوا العواقب المؤلمه،فاللّه يمتحن بعضهم ببعض: وَ كَذٰلِكَ فَتَنّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ .

«الفتنه»تعنى هنا الامتحان (١) و أى إمتحان أصعب ممّا يمر به الأغنياء الذين كانوا قد اعتادوا لسنوات طويله على الترفع على الطبقات الدنيا،فلا يشاركونهم أفراحهم و أتراحهم،بل حتى أنّهم يبعدون قبور موتاهم عن قبورهم،أمّا الآن فيطلب منهم أن يتخلوا عن كل ذلك و أن يحطموا كل تلك العادات و السنن، و يكسروا القيود و السلاسل ليلتحقوا بدين طلائعه من الفقراء و من يسمون بالطبقه الدنيا.

ثمّ تضيف الآيه أنّ الأمر يصل بهؤلاء إلى أنّهم ينظرون إلى المؤمنين الصادقين نظره احتقار لِيَقُولُوا أَ هٰؤُلاٰءِ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنٰا (٢) ؟! ثمّ تجيب الآيه على المعترضين مؤكده أنّ هؤلاء الأشخاص أناس شكروا نعمه التشخيص الصحيح بالعمل،كما أنّهم شكروا نعمه دعوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقبولها،فأى نعمه أكبر،و أى شكر أرفع،و لذلك رسخ اللّه الإيمان فى قلوبهم:

أَ لَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِالشّٰاكِرِينَ

.

١- ١) -لمزيد من الشرح انظر المجلد الثّانى فى تفسير الآيتين ١٩١ و ١٩٣ من سوره البقره.

٢- ٢) -أشرنا فى تفسير الآيه ١۶۴ من سوره آل عمران إلى أنّ«المنه»تعنى فى الأصل النعمه يهبها اللّه.

الآیتان [سوره الأنعام (۶): الآیات ۵۴ الی ۵۵]

اشاره

وَ إِذٰا جٰاءَکَ اَلَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِآیٰاتِنٰا فَقُلْ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ کَتَبَ رَبُّکُمْ عَلیٰ نَفْسِهِ اَلرَّحْمَهَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْکُمْ سُوءاً بِجَهٰالَهٍ ثُمَّ تٰابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵۴) وَ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ وَ لِتَسْتَبِینَ سَبِیلُ اَلْمُجْرِمِینَ (۵۵)

التّفسیر

یری بعض المفسّرین أنّ الآیه نزلت بشأن الذین نهت الآیات السابقه عن طردهم و إبعادهم،و یری بعض آخر أنّها نزلت فی فریق من المذنبین قدموا علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا:إنّهم قد أذنبوا کثیرا،فسکت النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتی نزلت الآیه.

و مهما یکن سبب نزول الآیه،فالذی لا شک فیه أنّ معناها واسع و شامل،لأنّها تبدأ أوّلا بالطلب من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا یطرد المذنبین مهما عظمت ذنوبهم،بل علیه أن یستقبلهم و یتقبلهم: وَ إِذٰا جٰاءَکَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِآیٰاتِنٰا فَقُلْ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ .

یحتمل أن یکون هذا السّلام من اللّه بوساطه رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،أو أنّه من الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مباشره،و هو-علی کلا الاحتمالین دلیل علی القبول و الترحیب

ص:۳۰۳

و التفاهم و المحبّه.

ثمّ تقول الآیه كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَهَ .

«كتب»تأتی فی كثیر من الأحیان كنایه عن الإلزام و التعهد،إذ إنّ من نتائج الكتابه توكید الأمر و ثبوته.

و فی الجزء الأخیر من الآیه-و هو توضیح و تفسیر لرحمه اللّه-یتحدث بلهجه عاطفیه: أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهٰالَهٍ ثُمَّ تٰابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ .

و قد سبق القول (۱) أنّ«الجهاله»فی مثل هذه المواضع تعنی طغیان الشهوه و سیطرتها،و الإنسان بسبب هذه الأهواء المستفحله،لا بسبب عدائه للّه و للحق- یفقد المقدره العقلیه و السیطره علی الشهوات،مثل هذا الشخص-و إن كان عالما بالذنب و الحرمه-یسمی جاهلا،لأنّ علمه مستتر وراء حجب الأهواء و الشهوات،و هذا الشخص مسئول عن ذنوبه،و لكنّه یسعی لإصلاح نفسه و جبران أخطائه لأنّ أفعاله لم تكن عن روح عداء و خصام.

تأمر الآیه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا یطرد أی شخص مؤمن مهما تكن طبقته و ظروفه و عنصره،بل علیه أن ینظر إلی الجمیع بعین المساواه،و أن یحتضنهم و یعمل علی إصلاحهم حتی و إن كانوا ملوثین بالذنوب.

الآیه التّالیه و من أجل توكید هذا الموضوع تشیر إلی أنّ اللّه سبحانه یوضح آیاته و أوامره توضیحا بیّنا لكی یتبیّن طریق الباحثین عنه و المطیعین له،كما یتبیّن طریق الآثمین المعاندین من أعداء اللّه: وَ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآیٰاتِ وَ لِتَسْتَبِینَ سَبِیلُ الْمُجْرِمِینَ (۲) .

۱- ۱) -المجلد الثّالث من هذا التّفسیر.

۲- ۲) -جمله«و لتستبین»معطوفه فی الواقع علی جمله محذوفه تدرك بالقرینه،فیكون المعنی لتستبین سبیل المؤمنین المطیعین و لتستبین سبیل المجرمین.

من الواضح فی هذه الآیه أنّ«المجرم»لیس کل مذنب،لأنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مکلّف فی هذه الآیه أن یتقبل المذنبین الذین یقبلون علیه،مهما یکن جرمهم الذی ارتکبوه عن جهل،و علیه فان المجرمین هنا هم أولئک المذنبون المعاندون الذین لا یستسلمون للحق.

أی بعد هذه الدعوه العامّه إلی اللّه،التی تشمل حتی المجرمین النادمین یتّضح بشکل کامل طریق المعاندین الذین لا یرجعون عن عنادهم.

ص: ۳۰۵

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۵۶ الی ۵۸]

اشاره

قُلْ إِنِّی نُهِیتُ أَنْ أَعْبُدَ اَلَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قُلْ لاٰ أَتَّبِعُ أَهْوٰاءَکُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مٰا أَنَا مِنَ اَلْمُهْتَدِینَ (۵۶) قُلْ إِنِّی عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ کَذَّبْتُمْ بِهِ مٰا عِنْدِی مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ اَلْحُکْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ یَقُصُّ اَلْحَقَّ وَ هُوَ خَیْرُ اَلْفٰاصِلِینَ (۵۷) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِی مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِیَ اَلْأَمْرُ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِالظّٰالِمِینَ (۵۸)

التّفسیر

اشاره

الإصرار العقیم:

ما یزال الخطاب فی هذه الآیات موجها إلی المشرکین و عبده الأصنام المعاندین-کدأب معظم آیات هذه السوره-یبدو من سیاق هذه الآیات أنّهم دعوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی اعتناق دینهم،الأمر الذی یستدعی نزول الآیه: قُلْ إِنِّی نُهِیتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ (۱) .

ص: ۳۰۶

---

۱ – ۱) -استعمال«الذین»التی هی للجمع المذکر العاقل،لا للإشاره إلی الأصنام،یدل علی أنّ الکلام یجری وفق وجهه نظر المشرکین.

جمله«نهيت»التى وردت بصيغه الماضى و مبنيه للمجهول تشير إلى أنّ النهى عن عباده الأصنام ليس أمرا جديدا،بل كان دائما قائما و سيبقى كذلك.

ثمّ بجمله قُلْ لاٰ أَتَّبِعُ أَهْوٰاءَكُمْ يجيب بوضوح على إصرارهم العقيم، بالنظر لأنّ عباده الأصنام لا تتفق مع المنطق و لا مع الأدله العقليه،لأنّ العقل يدرك بسهوله أن الإنسان أشرف من الجماد،فكيف يمكن للإنسان أن يخضع لأى مخلوق آخر فضلا عن المخلوق الأدنى؟هذا مع أنّ هذه الأصنام هى من صنع الإنسان نفسه فكيف يتخذ الإنسان ما خلقه بنفسه معبودا يعبده و يلجأ إليه فى كل مشاكله؟و بناء على ذلك،فإنّ منشأ عباده الأصنام ليس سوى التقليد الأعمى و الإتّباع المقيت للأهواء و الشهوات.

و فى ختام الآيه يؤكّد القرآن مرّه أخرى على أنّه إذا فعل ذلك قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ .

الآيه التّاليه تتضمّن جوابا آخر،و هو: قُلْ إِنِّى عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّى وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ .

«البيّنه»أصلا ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثمّ أطلقت على الدليل و الحجه الواضحه،لأنّها تفصل بين الحق و الباطل.

و فى المصطلح الفقهى تطلق«البيّنه»على الشاهدين العدلين،غير أنّ معنى الكلمه اللغوى واسع جدا،و شهاده العدل واحد من تلك المعانى،و كذلك كانت المعجزه بيّنه لأنّها تفصل بين الحق و الباطل،و إذا قيل للآيات و الأحكام الإلهيه بينات فلكونها من مصاديق الكلمه الواسعه.

و عليه،فرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يؤمر فى هذه الآيه أن يقول:إنّ دليلى فى قضيه عباده اللّه و محاربه الأصنام واضح و بيّن،و ان تكذيبكم و إنكاركم لا يقللان من صدق الدليل.

ثمّ يشير إلى حجّه واهيه أخرى من حججهم،و هى أنّهم كانوا يقولون:إن

كنت على حق فعلا فعجل بالعقاب الذى تتوعدنا به،فيقول لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

مٰا عِنْدِی مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ

،لأنّ الأعمال و الأوامر كلها بيد اللّه: إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ .

و بعد ذلك يقول مؤكدا:إنّ اللّه هو الذى: يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفٰاصِلِينَ .

بـديهى أنّ القـادر على أن يفصـل بين الحق و الباطـل على خير وجه هو الـذى يكون أعلم الجميع،و من السـهل عليه التمييز بين الحق و الباطـل،ثمّ تكون له القـدره الكافيه على اسـتخدام علمه،و هاتان الصـفتان(العلم و القـدره)هما من صـفات الـذات الإلهيه اللامحدوده،و عليه فإنّه عزّ و جلّ خير من يقص الحق،أى يفصل الحق من الباطل.

الآـيه التّاليه تأمر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يقول لهؤلاء الجماعه الملحاحه العنيـده الجاهله:لو أن ما تطلبونه منى على عجل كان فى سعتى و قـدرتى،و أجبتكم إليه لانتهى الأمر،و لم يعـد بينى و بينكم شـىء: قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِی مٰا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِی وَ بَيْنَكُمْ .

و لكيلا يظنوا أن عقابهم قد طواه النسيان،يقول فى النهايه وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِالظّٰالِمِينَ و سوف يعاقبهم فى الوقت المناسب.

بحوث

هنا لا بدّ من ذكر بعض النقاط:

١-يسـتفاد من آيات القرآن أنّ كثيرا من الأمم الماضـيه طلبوا مثل هذا الطلب من أنبيائهم،و هو:إذا كنت صادقا فيما تقول فلما ذا لا ترسل علينا العقاب الذى تتوعدنا به؟

قوم نوح علیه السّلام طلبوا منه ذلک قالُوا یا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَکْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّادِقِینَ (۱) و نظیر ذلک جاء علی لسان قوم صالح (۲) و کذلک فعل قوم عاد مع نبیّهم هود (۳) .

و یستفاد من سوره الإسراء أنّ هذا الطلب قد تکرر لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،حتی أنّهم قالوا له:إننا لا نؤمن لک أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً (۴) .

کان الدافع إلی هذه الطلبات غیر المعقوله السخریه و الاستهزاء،أو الرغبه فی رؤیه المعجزه،و فی کلتا الحالتین کان الطلب أحمقا،إذ فی الحاله الثانیه یکون تحقق الطلب سببا فی إبادتهم،و لا یکون ثمّه مجال للاستفاده من ظهور المعجزه،و فی الحاله الأولی کان لدی الأنبیاء أدله بینه توفر-علی الأقل- احتمال التصدیق عند کل ناظر بصیر،فکیف یمکن مع هذا الاحتمال أن یطلب أحد القضاء علی نفسه،أو أن لا یأخذ المسأله مأخذ الجد،غیر أنّ التعصب و العناد بلاء عظیم یقفان بوجه کل فکر و منطق.

۲-إنّ معنی إِنِ الْحُکْمُ إِلاّ لِلّهِ واضح،أی أنّ کل أمر فی عالم الخلق و التکوین و فی عالم الأحکام و التشریع بید اللّه،و بناء علی ذلک إذا کان لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقوم بمهمّه فذلک أیضا بأمر من اللّه.

فإذا أحیا المسیح علیه السّلام میتا-مثلا-فهو بإذن اللّه،و کذلک کل منصب-بما فی ذلک القیاده الإلهیه و التحکیم و القضاء-إذا أوکل إلی أحد، فإنّما هو بأمر اللّه تعالی.

و لکنّ الذی یؤسف له أنّ هذه الآیه الواضحه استغلت علی مدی التّأریخ، فمرّه تمسک بها الخوارج فی قضیه«الحکمین»التی أرادوها هم و أمثالهم فی

۱- ۱) -هود،۳۲.
۲- ۲) -الأعراف،۷۷.
۳- ۳) -الأعراف،۷۰.
۴- ۴) -الإسراء،۹۱.

حرب«صفين»فكانت

«كلمه حق أريد بها باطل» كما قال الإمام على عليه السّلام ،حتى أصبح شعارهم(لا حكم إلاّ للّه).

لقد كانوا من الجهل و البلاهه إنّهم حسبوا أن من حكم بأمر اللّه و الإسلام فى أمر من الأمور يكون قد خالف إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ بينما كانوا يقرءون القرآن كثيرا،و لكن لا يفهمونه إلاّ قليلا،فالقرآن نفسه فى موضوع الاحتكام العائلى يصرح باختيار حكم من جانب الزوجه و حكم من جانب الزوج: فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها (۱) .

و اعتبر بعض آخر هذه الآيه-كما يقول الفخر الرازى فى تفسيره-دليلا على الجبريه،قائلين إنّنا إذا قبلنا بأنّ الأوامر فى عالم الخلق بيد اللّه،فلا يبقى لأحد مجال للاختيار.

و لكنّنا نعلم أنّ حريه إراده عباد اللّه و حريه اختيارهم هى أيضا،بأمر من اللّه الذى شاء أن يكونوا أحرارا فى إختيار ما يعملون،لكى يحملهم مسئوليه أعمالهم و التكاليف الملقاه على عواتقهم.

۳-«يقص»فى اللغه ترد بمعنى القطع،و فى القاموس:«قص الشعر و الظفر أى قطع منهما بالمقص أى المقراض»،و على هذا يكون معنى و«يقص الحق»إنّ اللّه يقطع الحق عن الباطل و يفصل بينهما،و لذلك يتلوها بقوله: هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ للتوكيد،فالفعل«يقص»هنا لا يعنى سرد حكايه،كما ظن بعض المفسّرين.

۱- ۱) -النساء،۳۵.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۵۹ الی ۶۲]

اشاره

وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ اَلْغَيْبِ لاٰ يَعْلَمُهٰا إِلاّٰ هُوَ وَ يَعْلَمُ مٰا فِي اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ وَ مٰا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاّٰ يَعْلَمُهٰا وَ لاٰ حَبَّةٍ فِي ظُلُمٰاتِ اَلْأَرْضِ وَ لاٰ
رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ (۵۹) وَ هُوَ اَلَّذِي يَتَوَفّٰاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مٰا جَرَحْتُمْ بِالنَّهٰارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى
ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۶۰) وَ هُوَ اَلْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَكُمُ اَلْمَوْتُ
تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا وَ هُمْ لاٰ يُفَرِّطُونَ (۶۱) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اَللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ اَلْحَقِّ أَلاٰ لَهُ اَلْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ اَلْحٰاسِبِينَ (۶۲)

التّفسير

اشاره

أسرار الغيب:

فی هذه الآيات يدور الكلام حول علم اللّه و قدرته وسعه حكمه و أمره،و هی تشرح ما أجملته الآيات السابقه.

ص :۳۱۱

تشرع الآيه فی الکلام علی علم اللّه فتقول: وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَیْبِ لاٰ یَعْلَمُهٰا إِلاّٰ هُوَ .

«مفاتح»جمع«مفتح»(بکسر المیم و فتح التاء)و هو المفتاح،أمّا إذا کانت بفتح المیم فهی بمعنی الخزانه التی تختزن فیها الأشیاء.

و علی الأوّل یکون المعنی:إنّ جمیع مفاتیح الغیب بید اللّه.

و علی الثّانی یکون المعنی:إنّ جمیع خزائن الغیب بید اللّه.

و یحتمل أن یکون المعنیان قد اجتمعا فی عباره واحده،و کما هو ثابت فی علم الأصول،فإن استعمال لفظه واحده لعده معان لا مانع منه، و علی کل حال فهاتان الکلمتان متلازمتان،لأنّه حیثما کانت الخزانه کان المفتاح.

و أغلب الظن أنّ«مفاتح»بمعنی«مفاتیح»لا بمعنی«خزائن»لأنّ الهدف هو بیان علم اللّه،فتکون المفاتیح وسائل لمعرفه مختلف الذخائر و هو أنسب بالآیه، و فی موضعین آخرین فی القرآن ترد کلمه«مفاتح»بمعنی المفاتیح (۱) .

ثمّ لتوکید ذلک أکثر یقول: وَ یَعْلَمُ مٰا فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ .

«البرّ»کل مکان واسع فسیح،و تطلق علی الیابسه،«و البحر»کذلک تعنی المحل الواسع الذی یتجمع فیه الماء،و تطلق علی البحار و المحیطات و علی الأنهر العظیمه أحیانا.

فالقول بأنّ اللّه یعلم ما فی البر و البحر،کنایه عن إحاطته بکل شیء،و هذه الإحاطه بما فی البرّ و البحر إنّما تمثل فی الحقیقه جانبا من علمه الأوسع.

فهو عالم بحرکه آلاف الملایین من الکائنات الحیه،الکبیره و الصغیره،فی أعماق البحار.

و هو عالم بارتعاش أوراق الأشجار فی کل غابه و جبل.

و هو عالم بمسیره کل برعمه و تفتح أوراقها.

۱- ۱) -مٰا إِنَّ مَفٰاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَهِ أُولِی الْقُوَّهِ (القصص،۷۶)و أَوْ مٰا مَلَکْتُمْ مَفٰاتِحَهُ (النّور،۶۱).

و هو عالم بجريان النسيم فى البوادى و منعطفات الوديان.

و هو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان و كريات دمه.

و هو عالم بكل الحركات الغامضه فى الإلكترونات فى قلب الذّره.

و هو عالم بكل الحركات الغامضه فى الإلكترونات فى قلب الذّره.

و هو عالم بكل الأفكار التى تمرّ بتلافيف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا...

نعم أنّه عالم بكل ذلك على حدّ سواء.

لذلك فإنّه يؤكّد ذلك مرّه أخرى فيقول: وَ مٰا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاّٰ يَعْلَمُهٰا .

أى أنّه يعلم عدد الأوراق و لحظه انفصال كل ورقه عن غصنها و طيرانها فى الهواء،حتى لحظه استقرارها على الأرض،كل هذا جلى أمام علم اللّه.

كذلك لا تختفى حبّه بين طيات التراب إلاّ و يعلمها اللّه و يعلم كل تفاصيلها:

وَ لاٰ حَبَّةٍ فِي ظُلُمٰاتِ الْأَرْضِ

.

التركيز هنا-فى الحقيقه-على نقطتين حساستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقى سلم الكمال فى صنع أجهزته و أدواته المدهشه.

ترى من ذا الذى يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها فى هبوبها على مختلف أصقاع الأرض فى الليل و النهار،من أنواع البذور المنفصله عن نباتاتها؟ و إلى أين تحملها و تنشرها،أو تدسها فى التراب حيث تبقى سنوات مختفيه، حتى يتهيأ لها الماء فتنبت و تنمو؟ من ذا الذى يعلم كم من هذه البذور فى كل أنحاء الدنيا تحمل عن طريق الإنسان أو الحشرات فى كل ساعه من نقطه إلى نقطه أخرى؟ أى دماغ الكترونى هذا الذى يستطيع أن يحصى عدد أوراق الشجر التى تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟انظر إلى غابه من الغابات فى الخريف، و خاصّه بعد مطر شديد أو ريح عاصفه،و تطلع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع،عندئذ تتكشف لك هذه الحقيقه،و هى أنّ علوما من هذا القبيل

لن تكون يوما فی متناول يد الإنسان.

إنّ سقوط الورقه-فی الحقيقه-هو لحظه موتها،بينما سقوط البذره فی مكمنها من الأرض هو لحظه بدء حياتها،و ما من أحد غير اللّه يعلم بنظام هذا الموت و هذه الحياه،و حتی أنّ كل خطوه تخطوها البذره نحو حياتها و انبعاثها و تكاملها خلال اللحظات و الساعات،جليه فی علم اللّه.

إنّ لهذا الموضوع أثرا«فلسفيا»و آخر«تربويا»:

أمّا أثره الفلسفی،فينفی رأی الذين يحصرون علم اللّه بالكليات،و يعتقدون أنّه لا يعلم عن الجزئيات شيئا،و فی الآيه هنا تأكيد علی أنّ اللّه يعلم الكليات و الجزئيات كلها.

أمّا أثره التربوی فواضح،لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع للّه يقول للإنسان:إنّ جميع أسرار وجودك،و أعمالك،و أقوالك و نياتك،و أفكارك كلّها بيّنه أمام اللّه،فإذا آمن الإنسان حقّا بهذا،فكيف يمكن له أن لا يكون رقيبا علی نفسه و يسيطر علی أعماله و أقواله و نياته! و فی ختام الآيه يقول تعالی: وَ لاٰ رَطْبٍ وَ لاٰ يٰابِسٍ إِلاّٰ فِی كِتٰابٍ مُبِينٍ .

تبيّن هذه العباره القصيره سعه علم اللّه اللامحدود و إحاطته بكل الكائنات بدون أی استثناء،إذ أن«الرطب»و«اليابس»لا يقصد بهما المعنی اللغوی،بل هما كنايه عن الشمول و العموميه.

و للمفسّرين آراء متعدده فی معنی:«كتاب مبين»،و لكنّ الأقوی أنّه كنايه عن علم اللّه الواسع،أی انّ كل الموجودات مسجله فی علم اللّه اللامحدود،كما أنّه تفسر بكونه«اللوح المحفوظ»نفسه،إذ لا يستبعد أن يكون اللوح المحفوظ هو صفحه علم اللّه.

و ثمّه احتمال آخر عن معنی«كتاب مبين»و هو أنّه عالم الخلق و سلسله العلل و المعلولات التی كتب فيها كل شیء.

جـاء فيمـا روى عـن أهـل الـبيت عليهـم السّـلام أنّ«الـورقه»السـاقطه بمعنى الجنيـن الساقـط،و«الحبّـه»بمعنى الابـن،و«ظلمـات الأرض»بمعنى رحم الأمّ، و«رطب»ما بقى حيا من النطفه،و«يابس»ما تلاشى من النطفه (۱) .

لاـ شـک أنّ هـذا التّفسـير لاـ ينسـجم مـع الجمـود على المعـانى اللغـويه للآـيه،إذ إنّ معنى«الـورقه»و«الحبّـه»و«ظلمـات الأرض»و«الرّطب»و«اليابس»معروف، و لكنّ أئمّه أهل البيت عليهم السّلام بهذا التّفسير أرادوا أن يوسعوا من آفاق نظره المسلمين إلى القرآن،و أن لا ينحصروا فى إطار الألفاظ،بل يتوسعوا فى نظرتهم حين توجد قرائن على هذا التوسع.

الرّوايه أعلاه تشير إلى أنّ معنى«الحبّه»لا ينحصر فى بذور النباتات،بل يشمل أيضا بذور النطف الإنسانيه.

فى الآيه الثانيه ينتقل الكلام إلى إحاطه علم اللّه بأعمال الإنسان و هو الهـدف الأصـلى و إلى بيان قدره اللّه القاهره،لكى يسـتنتج النـاس من هـذا البحث الـدروس التربويه اللاـزمه فتبـدأ بالقول بأنّ اللّه هو الـذى يقبض أرواحكم فى الليل،و يعلم ما تعملون فى النهار: وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ .

«توفى»تعنى استرجع،فـالقول بـأنّ النوم هو استرجـاع للروح يعود إلى أنّ النوم أخو الموت،كما هو معروف،فالموت تعطيل كامل لجهاز الـدماغ،و انقطاع تام فى ارتباط الروح بالجسـد،بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الـدماغ و ضـعف فى هـذا الارتباط،و عليه فالنوم مرحله صغيره من مراحل الموت (۲) .

«جرحتم»من«جرح»و هى هنا بمعنى الاكتساب،أى أنّكم تعيشون تحت ظل قـدره اللّه و علمه ليلا و نهارا،و انّ الذى يعلم بانفلاق الحبّه و نموها فى باطن الأرض،و يعلم بسقوط أوراق الأشجار و موتها فى أى مكان و زمان،يعلم

۱- ۱) -تفسير البرهان،ج ۱،ص ۵۲۸.

۲- ۲) -هناک شرح أو فى لهذا فى المجلد الثانى.

بأعمالكم أيضا.

ثمّ يقول:إنّ نظام النوم و اليقظه هذا يتكرر،فأنتم تنامون فى الليل ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى (۱) أى ثمّ يوقظكم فى النهار..و تستمر هذه العمليه حتى نهايه حياتكم.

و يبيّن القرآن النتيجه النهائيه لهذا المبحث بالشكل التالى: ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و فى الآيه الثّالثه توضيح أكثر لإحاطه علم اللّه بأعمال عباده و حفظها بكل دقه ليوم الحساب،بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: وَ هُوَ الْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .

سبق أن قلنا إنّ«القاهر»هو المتسلط الغالب المهيمن الذى لا تقف أمامه أيه قوّه،و يرى بعضهم هذه الكلمه تستعمل حيث يكون المقهور عاقلا.

أمّا كلمه«الغالب»فليست فيها هذه الخصوصيه،فهى عامّه واسعه المعنى.

«حفظه»جمع«حافظ»و هم هنا الملائكه الموكّلون بحفظ أعمال الناس، كما جاء فى سوره الإنفطار،الآيات ۱۰-۱۳: إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحٰافِظِينَ كِرٰاماً كٰاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مٰا تَفْعَلُونَ .

و يرى بعض المفسّرين أنّهم لا يحفظون أعمال الإنسان،بل هم مأمورون بحفظ الإنسان نفسه من الحوادث و البلايا حتى يحين أجله المعين،و يعتبرون حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ بعد«حفظه»قرينه تدل على ذلك،كما يمكن اعتبار الآيه(۱۱)من سوره الرعد دليلا عليه كذلك (۲) .

و لكنّ بالتدقيق فى مجموع الآيه التى نحن بصددها نتبيّن أنّ القصد من الحفظ هنا هو حفظ الأعمال،أمّا بشأن الملائكه الموكّلين بحفظ الناس فسوف

۱- ۱) -الضمير فى«فيه»يعود على«النهار»و«يبعثكم»بمعنى يوقظكم و ينهضكم،و«أجل مسمى»هو العمر المحدد لكل فرد.

۲- ۲) -تفسير الميزان،ج ۷،ص ۱۳۴.

نشرحه بإذن اللّه عند تفسير سوره الرعد.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم أن حفظ الأعمال يستمر حتى نهايه الأعمار و حلول الموت: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا .

و تبيّن الآيه فى النهايه أنّ هؤلاء الملائكه لا يقصرون و لا يفرطون فى مهمتهم،فلا يتقدمون لحظه و لا يتأخرون فى موعد قبض الروح.

و يحتمل أيضا أنّ هذه الصفه ترتبط بالملائكه الذين يحفظون حساب أعمال البشر،فهم فى حفظهم للحساب لا يصدر منهم أدنى تقصير أو قصور، و الآيه تركز على هذا القسم بالذات.

فى الآيه الاخيره يشير القرآن الكريم إلى آخر مراحل عمل الإنسان،فيقول:

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ الْحَقِّ

أى عادوا إلى اللّه بعد أنّ طووا مرحله حياتهم، و اختتم ملفهم الحاوى على كل شيء.

و فى تلك المحكمه يكون النظر فى القضايا و إصدار الأحكام بيد اللّه: أَلاٰ لَهُ الْحُكْمُ .

و على الرغم من كل تلك الأعمال و الملفّات المتراكمه عن أفراد البشر طوال تاريخهم الصاحب فانّ اللّه سريع فى النظر فيها: وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحٰاسِبِينَ .

لقد جاء فى بعض الرّوايات: «إنّه سبحانه يحاسب جميع عباده فى مقدار حلب شاه» أى أنّ ذلك لا يتجاوز فتره حلب شاه (۱) .

و كما قلنا فى تفسير الآيه(۲۰۲)من سوره البقره،إنّ إجراء الحساب من السرعه بحيث إنّه يمكن أن يتمّ فى لحظه واحده بالنسبه للجميع،بل إن ذكر فتره حلب شاه فى الروايه المذكوره يقصد منه بيان قصر الزمن اللازم لذلك،و على هذا نقرأ فى روايه أخرى:«إن اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح

۱- ۱) -مجمع البيان،ج ۳،ص ۳۱۳.

البصر» (۱) .

و الـدليل على ذلـک هو مـا ذکرنـاه فی تفسـیر هـذه الآیه،و هو أنّ أعمال الإنسان تؤثر فی وجوده و فی وجود الکائنات المحیطه به،تماما مثل الماکنه التی تسجل مقدار حرکتها فی عداد متصل بها.

و بتعبیر أوضح،لو کانت هناک أجهزه دقیقه جدا لاسـتطاعت أن تسجّل فی عین الإنسان عدد النظرات الآثمه،و علی الألسنه عدد الأکاذیب و الافتراءات و التهم و الطعون التی اقترفتها،أی أن کل عضو من أعضاء الجسم فیه-بالإضافه إلی روحه-جهاز حاسب یکشف الحساب فی لحظه واحده.

و إذا جاء فی بعض الرّوایات أنّ محاسبه المسؤولین و الأغنیاء تطول یوم القیامه فإن هذا لا یعنی فی الواقع طول زمن الحساب،بل هو طول زمن المحاسـبه علیهم،إذ لا بدّ لهم من الإجابه علی الأسـئله الکثیره التی تلقی علیهم بشأن الأعمال التی ارتکبوها،أی أن ثقل مسئولیاتهم و لزوم إجابتهم علی الأسئله لإتمام الحجّه علیهم هی التی تطیل زمن محاکمتهم.

یؤلف مجموع هـذه الآیات درسا تربویا کاملا لعباد اللّه فی إحاطه علمه تعالی بأصـغر ذرات هذا العالم و بأکبرها و قدرته و قهره لعباده و معرفته بجمیع أعمال البشـر،و قیام کتبه أمناء بحفظ أعمال الناس و قبض أرواحهم فی لحظات معینه بالنسبه لکل منهم،و بعثهم یوم القیامه،و من ثمّ محاسبتهم محاسبه دقیقه و سریعه.

کیف یمکن أن یؤمن الشـخص بمجموع هـذه المسائـل ثمّ لاـ یراقب أعماله، یظلم دون وازع،و یکـذب و یفتری و یعتـدی علی الآخرین؟ هل یجتمع کل هذا مع الإیمان و الاعتقاد علی صعید واحد؟

۱- ۱) -المصدر نفسه،ج ۱،ص ۲۹۸.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۶۳ الى ۶۴]

اشاره

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمٰاتِ اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجٰانٰا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلشّٰاكِرِينَ (۶۳) قُلِ اَللّٰهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهٰا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۶۴)

التّفسير

اشاره

النّور الّذی یضیء فی الظلّام:

مرّه أخرى يأخذ القرآن بيد المشركين و يتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، و هناك فى تلك الأغوار المحفوفه بالأسرار الغامضه يريهم نور التوحيد و عباده الواحد الأحد،فيقول للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قل لهم: قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمٰاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ ؟ إنّ الظلام يكون حسيا أحيانا و معنويا أحيانا أخرى،الظلام الحسى هو الذى يكون عند انقطاع النّور انقطاعا تاما،أو يضعف بحيث لا يرى شىء،أو يرى بالجهد الجهيد،و الظلام المعنوى هو المشاكل و الصعوبات ذات النهايات المظلمه الغامضه،الجهل...الاضطرابات الاجتماعيه و الاقتصاديه و الفكريه، و الانحرافات و الفساد الأخلاقى التى لا يمكن التكهن بعواقبها السيئه،أو التى تجر إلى التعاسه و الشقاء...كلّها ظلام.

إنّ الظلام بذاته مخيف مثير للأوهام و التخيلات،فهجوم الكثير من الحيوانات الخطره و سطوه اللصوص و المجرمين يقع تحت جنح الظلام،أنّ لكل امرئ ذكرياته عن هذه الحالات،فعند هبوط الظلام تنشط الأوهام و تخرج منها الأشباح المرعبه،فيستولى الخوف و الهلع على العامّه من الناس.

الظلام من العدم،و الإنسان يهرب بطبيعته من العدم و يخافه،و لهذا نراه يخاف الظلام.

و إذا حدثت فى هذا الظلام حوادث واقعيه مرعبه،كأن يكون الإنسان مسافرا فى البحر،و تحاصره فى ليله ظلماء الأمواج الهائله و الدوامات المائيه، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار،لأنّ الإنسان فى مثل هذه الظروف يجد أبواب النجاه مسدوده فى وجهه،و هكذا لو كان فى ليله حالكه الظلام يسير فى الصحراء فيضل الطريق و يسمع زمجره الوحوش المفترسه من هنا و هناك و هى تبحث عن فريسه،فى مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شىء و لا يعود يتذكر شيئا سوى نفسه،و النّور الذى يسطع فى أعماقه و يجذبه نحو المبدأ قادر على إزاله ما يعتوره من بلاء و ضيق،هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد و معرفه اللّه،لذلك يقول فى أمثال هذه الحالات: تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً .

و تعقدون-و أنتم فى تلك الحاله-عهدا و ميثاقا على أنفسكم ،و تقولون:

لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ

.

ثمّ تأمر الآيه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يخبرهم أنّ اللّه سوف ينجيهم من هذه و من غيرها من الأخطار،و قد فعل ذلك من قبل مرارا،و لكنّهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك و الكفر: قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ .

ملاحظات:

هنا لا بدّ من الالتفات إلى عدّه نقاط:

۱-لعل ذكر«التضرع»و هو الدعاء علانيه،و«الخفيه»هى الدّعاء فى السرّ، إشاره إلى أنّ المصائب تختلف،فالتى لم تصل مرحله شديده قد تستدعى الدعاء خفيه،و عند ما تكون شديده تحمل المرء على أن يرفع يديه بالدعاء جهرا،و قد يصاحب ذلك البكاء و الصراخ،أى أنّ اللّه يحل مشاكلكم خفيفها و شديدها.

۲-يرى بعضهم أنّ الآيه تشير إلى أربع حالات نفسيه فى الإنسان،كل واحده منها رده فعل معينه لظهور المشاكل:حاله«الدعاء»و حاله«التضرع» و حاله«الإخلاص»و حاله«تقديم الشكر عند النجاه من الأخطار».

و لكنّ الذى يؤسف له أن هذه الحالات تمر ببعض الناس مرورا خاطفا و كأنّه حالات اضطراريه فى مواجهه الأخطار و المشاكل،و بما أنّها ليست مصحوبه بالوعى و الإدراك،فإنّها تخفت و تنطفئ بمجرّد انتهاء الأزمه.

و بناء على ذلك،فإن هذه الحالات،و ان تكن خاطفه،تستطيع أن تكون دليلا على معرفه اللّه لمن عسر عليه ادراك الدلائل الأخرى.

۳-«الكرب»فى الأصل بمعنى حفر الأرض و قلبها، و كذلك تعنى العقده المحكمه الشد فى حبل الدلو،ثمّ أطلقت بعد ذلك على الغم و الهم و الحزن التى تقلب قلب الإنسان و تثقل عليه كالعقده.

لذلك فإنّ ذكر«الكرب»بما له من المعنى الواسع الذى يشمل أنواع المشاكل و الأزمات بعد ذكر«ظلمات البرّ و البحر»و التى تشمل جانبا من المشاكل فقط،يعتبر من قبيل ذكر مفهوم عام بعد بيان مفهوم خاص(تأمل بدقه).

و هذا يجدر بنا أنّ نذكر حديثا تورده بعض التفاسير فى هذه الآيه:

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «خير الدعاء الخفى و خير الرزق ما يكفى» (لا الثروات الضخمه التى هى حصيله حرمان الآخرين،و تكون عبئا على كاهل

الإنسان)،و

روی أیضا أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرّ بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء فقال:«إنّکم لا تدعون أصمّ و لا غائبا،و إنّما تدعون سمیعا قریبا» (1) .

یستفاد من هذا الحدیث أنّ خیر الدعاء ما کان خفیا مقترنا بتوجه و إخلاص.

1- 1) -تفسیر مجمع البیان و نور الثقلین فی تفسیر الآیه.

الآيه [سوره الأنعام (۶): آيه ۶۵]

اشاره

قُلْ هُوَ اَلْقٰادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذٰاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ اُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ اَلْآيٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (۶۵)

التّفسير

اشاره

ألوان العذاب:

فى الآيات السابقه التى تتضمن بيان التوحيد الفطرى تتجلى محبّه اللّه لعباده،و حنوه عليهم عند الشّدائد و الصعاب،و استجابته لدعواتهم.

و فى هذه الآيه تركيز على التهديد بعذاب اللّه و عقابه،من أجل إكمال طرق التربيه و التهذيب،أى أنّ اللّه و هو أرحم الراحمين و ملجأ اللاجئين،قهار منتقم مقابل الطغاه العصاه،ففى هذه الآيه يؤمر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بتهديد المجرمين بثلاثه أنواع من العقاب:عذاب من فوق،و عذاب من تحت،و عقاب يتمثل فى اختلاف الكلمه و الحرب و إراقه الدماء: قُلْ هُوَ الْقٰادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذٰاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ .

و فى الختام تقول الآيه: اُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ،أى انظر كيف نوضح لهم المعالم و الدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق و يعودا إلى اللّه.

هنا أيضا لا بدّ من الإشاره إلى بعض النقاط:

۱-هنالك اختلاف بين المفسّرين بشأن المقصود من العذاب من فوق و من تحت،و يظهر أنّ لهاتين الكلمتين معانى واسعه،فهما تشملان الجهتين الماديتين من السماء و من الأرض كالصواعق و الأمطار الغزيره و العواصف المدمّره التى يأتى من فوق،و الزلازل و الانشقاقات الأرضيه المدمره و فيضانات الأنهر و البحار من تحت.

كذلك تشمل الآلام و المصائب التى ينزلها بعض الحكام و الطبقات المتسلطه فى المجتمع على رؤوس الشعوب،و كذلك الآلام و العذاب الذى يسببه بعض الموظّفين الذين لا يعرفون واجبهم للناس ممّا قد لا يقل عما يسببه الحكام و الطّبقات العليا من المجتمع.

و كذلك يحتمل أن تشمل أسلحه الحرب المخيفه فى عصرنا التى تبيد حياه البشر بشكل وحشى من الأرض و الجو،و تحيل المدن خلال مدّه قصيره إلى ركام و انقاض عن طريق القصف الجوى و الهجوم الأرضى و زرع الألغام و الغواصات المدمّره داخل البحار.

۲-«يلبسكم»من«اللبس»بفتح اللام بمعنى الاختلاط و الامتزاج،لا من «اللبس»بضم اللام بمعنى ارتداء الملابس،و على ذلك يكون معنى الآيه:إنّه قادر على أن يجعل منكم جماعات مختلفه تختلط بعض ببعض.

يستنتج من هذا التعبير أنّ مسأله اختلاف الكلمه و التفرق فى المجتمع لا تقل خطورتها عن العذاب السماوى و الصواعق و الزلازل،و هو فى الحقيقه كذلك،بل قد يكون الخراب الناشئ من اختلاف الكلمه و التفرق أحيانا أشد وطأه و دمارا من الزلازل و الصواعق،كثيرا ما نلاحظ أنّ دولا عامره يصيبها الفناء بسبب النفاق و التفرقه،و هذه الكلمه تحذير لجميع مسلمى العالم!

هنالك أيضا احتمال آخر فى تفسير هذه الآيه،و هو-أنّ اللّه قد أشار-إلى جانب العذاب السماوى و الأرضى-إلى لونين آخرين من العذاب:أحدهما:

اختلاف العقيده و الفكر(و هو فى الواقع مثل العذاب النازل من فوق)،و الآخر:هو الاختلاف فى العمل و السلوك الاجتماعى الذى يؤدى إلى الحروب و إراقه الدماء (و هو أشبه بالعذاب الآتى من تحت).

و عليه،فالآيه تشير إلى أربعه ألوان من العذاب الطبيعى،و لونين من العذاب الاجتماعى.

٣-لا بدّ من الانتباه إلى أن قوله تعالى: أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً (١) ،لا يعنى أنّ اللّه يبتلى الناس-بدون مبرر-بالنفاق و الاختلاف،بل إنّ ذلك نتيجه سوء أعمالهم و غرورهم و أنانياتهم،و الانغماس فى منافعهم الشخصيه،ممّا يثير روح النفاق و التفرقه بينهم،و ما نسبه ذلك إلى اللّه إلّا لأنّه جعل تلك الآثار من نتائج تلك الأعمال.

٤-على الرّغم من أنّ الخطاب فى هذه الآيه موجه إلى المشركين و عبده الأصنام،فإنّنا نستنتج أنّ المجتمع المشرك و المنحرف عن طريق التوحيد و عباده اللّه،يصاب بظلم الطبقات العليا،و ظلم الطبقات الدنيا المتهاونه فى واجباتها،كما تقع البشريه بين براثن الاختلاف العقائديه و المخاصمات الدمويه فى المجتمع، كما هو حال المجتمعات المعاصره التى تعبد أوثان الصناعه و الثروه،فهى رهين مصائب لا فكاك لها من مخالبها.

بعض الشعوب المسلمه تتحدث عن التوحيد و عباده اللّه بأقوالها،و لكنّها بأفعالها مشركه تعبد الأصنام.إن مصائر شعوب كهذا لا يختلف عن مصائر المشركين.و

قد يكون حديث الإمام الباقر عليه السّلام: «كل هذا فى أهل القبله» إشاره إلى هذا الاختلاف بين المسلمين،فعند ما ينحرف المسلمون عن طريق التوحيد،

١- ١) -«شيعا»جمع«شيعه»بمعنى الجماعه.

تأخذ الأنانيه وحبّ الذات مكان الأخوه الإسـلاميه،و تتغلب المصالح الشخصـيه على المصـلحه العامّه،و لا يفكر الفرد إلاّ بنفسه و ينسى الناس أوامر اللّه و نواهيه، فيحيق بهم ما أحاق بأولئك.

ص :۳۲۶

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۶۶ الی ۶۷]

اشاره

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ اَلْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۶۶) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۶۷)

التّفسیر

تکمل هاتان الآیتان البحث الذی جری فی الآیات السابقه عن الدعوه إلی اللّه و المعاد و حقائق الإسلام و الخشیه من عقاب اللّه.

الآیه الأولی:تخبر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ قومه-أی قریش و أهل مکّه-لم یصدقوا ما یقول مع أنّه صدق و حق و تؤكّده الأدله العقلیه المختلفه و الفطریه:

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ

(۱)

ثمّ یصدر الأمر إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أی إنّما أنا رسول و لست أضمن قبولکم.

فی الآیات الکثیره المشابهه لهذه الآیه(کالآیات ۱۰۷-الأنعام،۱۰۸- یونس،۴۱-الزمر،۶-الشوری)یتبیّن أنّ المقصود من«وکیل»فی هذه المواضع هو المسؤول عن الهدایه العملیه للأفراد و الضامن لهم-لذلک فإنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول لهم فی هذه الآیه:إنّ الأمر یعود إلیکم،فأنتم الذین یجب أن تتخذوا القرار

۱- ۱) -الضمیر فی«به»یرجعه بعضهم إلی القرآن،و یرجعه آخرون إلی العذاب الذی ورد فی الآیات السابقه،و لکنّ الظاهر إنّه یرجع إلی کل هذه و إلی تعالیم الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم التی کذبوا بها،و تؤكّد ذلک الآیه التّالیه.

النهائی فی قبول الحقیقه أو ردّها،فما أنا إلاّ رسول أبلغ رساله اللّه.

و فی الآیه التّالیه القصیره ذات المعنی العمیق تحذیر لهم،و دعوه إلی إختیار الطریق الصحیح،و لِکُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱) أی أنّ کل خبر أخبرکم به الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذه الدنیا أو فی الآخره موضع و مقر،و سوف یتحقق فی موعده المقرر،و عندئذ ستعرفون ذلک.

ص: ۳۲۸

۱- ۱) -قد یکون«المستقر»المصدر المیمی بمعنی«الاستقرار»أو اسما لمکان و زمان بمعنی مکان الاستقرار،بالمعنی الأوّل یکون إخبارا عن تحقیق وعد اللّه،و بالمعنی الثانی الإخبار عن مکان تحققه و زمانه.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۶۸ الی ۶۹]

اشاره

وَ إِذٰا رَأَيْتَ اَلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيٰاتِنٰا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتّٰى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمّٰا يُنْسِيَنَّكَ اَلشَّيْطٰانُ فَلاٰ تَقْعُدْ بَعْدَ اَلذِّكْرىٰ مَعَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (۶۸) وَ مٰا عَلَى اَلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لٰكِنْ ذِكْرىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۶۹)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه عند ما نزلت الآیه الأولی و نهی المسلمون عن مجالسه الکفار و الذین کانوا یسخرون من آیات اللّه، قال فریق من المسلمین إذا کان علینا أن نلتزم بهذا النهی فی کل مکان فإنّه یمتنع علینا الذهاب إلی المسجد الحرام و الطواف به(و ذلک لأنّ أولئک کانوا منتشرین فی أطراف المسجد و لا یفتأون یتناولون الآیات القرآنیه بالکلام الباطل،فحیثما نتوقف فی أرجاء المسجد ثمّه احتمال أن یصل کلامهم الی مسامعنا).عندئذ نزلت الآیه الثانیه تأمر المسلمین فی مثل هذه الحالات أن ینصحوهم و یهدوهم و یرشدوهم قدر إمکانهم.

إنّ ورود سبب نزول لهذه الآیه لا یتعارض-کما قلنا من قبل-مع نزول

السوره کلها مرّه واحده،إذ من المحتمل أن تکون هناک حوادث مختلفه فی حیاه المسلمین،فتنزل سوره واحده تختص کل مجموعه من آیاتها ببعض تلک الحوادث.

التّفسیر

اشاره

اجتناب مجالس أهل الباطل:

بما أنّ المواضیع التی تتطرق إلیها هذه السوره تتناول حال المشرکین و عبده الأصنام،فهاتان الآیتان تبحثان موضوع آخر من المواضیع التی تتعلق بهم،ففی البدایه تقول للرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ إِذٰا رَأَیْتَ الَّذِینَ یَخُوضُونَ فِی آیٰاتِنٰا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتّٰی یَخُوضُوا فِی حَدِیثٍ غَیْرِهِ (1) .

علی الرغم من أنّ الکلام هنا موجه إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،إلاّ أنّه لا یقتصر علیه وحده،بل هو موجه إلی المسلمین کافه،إنّ فلسفه هذا الحکم واضحه،إذ لو اشترک المسلمون فی مجالسهم،لاستمر المشرکون فی خوضهم فی آیات اللّه بالباطل نکایه بالمسلمین و استهزاء بکلام اللّه و لکنّ المسلمین إذا مروا دون أن یبالوا بهم،فسیکفّون عن ذلک و یغیرون الحدیث إلی أمور أخری،لأنّهم کانوا یتقصدون إیذاء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین.

ثمّ تخاطب الآیه رسول اللّه مؤکّده أهمیه الموضوع: وَ إِمّٰا یُنْسِیَنَّکَ الشَّیْطٰانُ فَلاٰ تَقْعُدْ (2) بَعْدَ الذِّکْریٰ مَعَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ أی إذا أنساک الشیطان هذا الأمر و جلست مع هؤلاء القوم سهوا،فعلیک-حالما تنتبه-أن تنهض فورا و تترک مجالسه الظالمین.

1- 1) -«الخوض»کما یقول الراغب الأصفهانی فی«مفرداته»هو الدخول فی الماء و المرور فیه،ثمّ استعیر للورود فی أمور أخری،و أکثر ما ترد فی القرآن بشأن الدخول فی موضوع باطل ما أساس له.

2- 2) -غنی عن القول بأن(لا تقعد)لا تعنی النهی عن مجرّد الجلوس مع هؤلاء،بل تعنی النهی عن معاشرتهم فی جمیع حالات الجلوس و الوقوف أو المسیر.

سؤالان:

هنا يبرز سؤالان:

الأوّل:هل يمكن للشّيطان أن يتسلط على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يسبب له النسيان؟ و بعباره أخرى،كيف يمكن للنّبى مع عصمته و كونه مصونا عن الخطأ حتى فى الموضوعات أن يخطئ و أن ينسى؟ فى الإجابه على هذا السؤال يمكن القول بأنّ الخطاب فى الآيه و إن يكن موجها إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو يتحدث فى الواقع مع اتباعه الذين يمكن أن ينسوا فيساهموا فى اجتماعات المشركين الآثمه،فهؤلاء عليهم حال انتباههم إلى ذلك أن يتركوا المكان،أنّ مثل هذا الأسلوب كثير الحدوث فى حياتنا اليوميه و موجود فى مختلف آداب العالم،فأنت قد توجه الخطاب إلى أحدهم و لكنّ هدفك هو أن يسمع الآخرون ذلك كما يقول المثل:إياك أعنى و اسمعى يا جاره.

هناك مفسّرون آخرون مثل الطبرسى فى مجمع البيان و أبى الفتوح فى تفسيره المعروف يوردون جوابا آخر عن هذا السؤال خلاصته:إنّ السهو و النسيان فى قضايا الأحكام و مقام حمل الرساله من جانب اللّه غير جائزين بالنسبه للأنبياء،أمّا فى الحالات التى لا تؤدى إلى ضلال الناس فجائزان،إلاّ أنّ هذا الجواب لا يتفق مع ما هو مشهور عند متكلمينا من أن الأنبياء و الأئمّه معصومون عن الخطأ و مصونون عن النسيان،لا فى قضايا الأحكام وحدها،بل حتى فى القضايا العاديه أيضا.

السؤال الثّانى:يعتبر بعض علماء أهل السنه هذه الآيه دليلا على عدم جواز التقيه الدينيه للقاده الدينيين،و ذلك لأنّ الآيه تصرّح بالنهى عن اللجوء إلى التقيه أمام الأعداء و تأمر بترك مجلسهم.

و الجواب على هذا الاعتراض واضح،فالشيعه لا يقولون بوجوب التقيه دائما،بل إنّ التقيه فى بعض الأحيان حرام،إنّما ينحصر وجوبها فى الظروف التى

تکون فیها للتقیه و کتمان الحق منافع أکبر من منافع إظهاره،أو تکون سببا فی دفع خطر أو ضرر کبیر.

الآیه التّالیه فیها استثناء واحد،فإذا اشترک بعض المتقین فی جلسات هؤلاء المشرکین لکی ینهوهم عن المنکر علی أمل أن یؤدی ذلک إلی انصراف أولئک عن الإثم،فلا مانع من ذلک،و أنّ آثام أولئک لا تسجل علی هؤلاء،لأنّ قصدهم هو الخدمه و القیام بالواجب: وَ مٰا عَلَی الَّذِینَ یَتَّقُونَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَیْءٍ وَ لٰکِنْ ذِکْریٰ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ .

و هنالک تفسیر آخر لهذه الآیه،و الذی قلناه أکثر انسجاما مع ظاهر الآیه و مع سبب النّزول.

و ینبغی أن نعلم-فی الوقت نفسه-إنّ الذین لهم أن یستفیدوا من هذا الاستثناء هم الذین تنطبق علیهم شروط الآیه،فیکونون متمیزین بالتقوی،و بعدم التأثر بهم،و بالقدره علی التأثیر فیهم.

سبق فی تفسیر الآیه(۱۴۰)من سوره النساء أن تطرقنا إلی هذا الموضوع و ذکرنا مسائل أخری أیضا.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۷۰]

اشاره

وَ ذَرِ اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا دِینَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ اَلْحَیٰاهُ اَلدُّنْیٰا وَ ذَکِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمٰا کَسَبَتْ لَیْسَ لَهٰا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَلِیٌّ وَ لاٰ شَفِیعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ کُلَّ عَدْلٍ لاٰ یُؤْخَذْ مِنْهٰا أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ أُبْسِلُوا بِمٰا کَسَبُوا لَهُمْ شَرٰابٌ مِنْ حَمِیمٍ وَ عَذٰابٌ أَلِیمٌ بِمٰا کٰانُوا یَکْفُرُونَ (۷۰)

التّفسیر

اشاره

الذین اتّخذوا الدّین لعبا:

هذه الآیه تواصل ما بحثته الآیه السابقه،و تأمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یدع أولئک الذین یستهینون بأمر دینهم،و یتخذون ممّا یلهون و یلعبون به مذهبا لهم و یغترون بالدنیا و بمتاعها المادی: وَ ذَرِ الَّذِینَ اتَّخَذُوا دِینَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَیٰاهُ الدُّنْیٰا .

بدیهی أنّ الأمر بترک هؤلاء لا یتعارض مع قضیه الجهاد،فللجهاد شروط، و لإهمال الکفار شروط أخری،و کل واحد من هذین الحالین یجب أن یتحقق فی ظروفه الخاصّه،قد یستلزم الأمر-أحیانا-دفع المناوئین عن طریق عدم

الاعتناء بهم،و فی أحیان أخری قد یقتضی الأمر الجهاد و التوسل بالسلاح،أمّا القول بأنّ آیات الجهاد قد نسخت هذه الآیه فغیر صحیح.

و تشیر هذه الآیه إلی أنّ سلوکهم الحیاتی من حیث المحتوی أجوف و واه، فهم یطلقون اسم الدین علی بعض الأعمال التی هی أشبه بلعب الأطفال و مجمون الکبار،فهؤلاء غیر جدیرین بالمناقشه و المباحثه،و علیه یؤمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأن یعرض عنهم و لا یعتنی بدینهم الفارغ.

یتضح ممّا قلنا أنّ«دینهم»یعنی«دین الشرک و عباده الأصنام»الذی کانوا یدینون به،أمّا القول بأنّ المقصود هو«الدین الحق»و إنّ إضافه الدین إلیهم یستند إلی کون الدین فطریا،فیبدو بعید الاحتمال.

و الاحتمال الآخر فی تفسیر الآیه هو أن القرآن یشیر إلی جمع من الکفار الذین کانوا یتعاملون مع دینهم کألعوبه و ملهاه،و لم ینظروا أبدا إلی الدین کأمر جاد یستوجب إمعان الفکر و التأمل،أی أنّهم کانوا لا یؤمنون حقیقه حتی فی معتقدات شرکهم،و لم یقیموا وزنا حتی لدینهم الذی لا أساس له.

علی کل حال فالآیه لا تخص الکفار وحدهم،بل هی تشمل جمیع الذین یتخذون من الأحکام الإلهیه و من المقدسات وسائل للتلهی و ملء الفراغ و بلوغ الأهداف المادیه الشخصیه،أولئک الذین یجعلون الدین آله الدنیا،و الأحکام الإلهیه العوبه أغراضهم الخاصّه.

ثمّ یؤمر الرّسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن ینبّههم إلی أعمالهم هذه و إلی أنّ هناک یوما لا بدّ لهم أن یستسلموا فیه لنتائج أعمالهم و لن یجدوا من ذلک مفرا: وَ ذَکِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمٰا کَسَبَتْ (۱) .

۱ – ۱) -«البسل»هو حفظ الشیء و منعه بالقوه و القهر،و الإبسال حمل المرء علی التسلیم،کما تطلق الکلمه علی الحرمان من الثواب،أو أخذ الرهائن،و الجیش الباسل بمعنی القاهر الذی یحمل العدو علی التسلیم،و المعنی فی الآیه هو تسلیم المرء و خضوعه لأعماله السیئه.

یوم لا شفیع ینفع و لا ولی سوی اللّه: لَیْسَ لَهٰا مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِیٌّ وَ لاٰ شَفِیعٌ .

إنّهـم یؤمئـذ فی حـال صـعبه مـؤلمه یرزحـون فی قیـود أعمـالهم بحیث إنّهم یرتضـون أن یـدفعوا أیه غرامه(إن کـان عنـدهم ما یدفعونه)و لکنّها لن تقبل منهم:

وَ إِنْ تَعْدِلْ کُلَّ عَدْلٍ لاٰ یُؤْخَذْ مِنْهٰا

(۱)

.

ذلک لأنّهم یکونون بین مخالب أعمالهم،و لا فدیه تنجیهم،و لا توبه تنفعهم بعد أن فات الأوان: أُولٰئِکَ الَّذِینَ أُبْسِلُوا بِمٰا کَسَبُوا

.

ثمّ یشار إلی جانب ممّا سیصـیبهم من العذاب الألیم بسبب إعراضهم عن الحق و الحقیقه: لَهُمْ شَرٰابٌ مِنْ حَمِیمٍ وَ عَذٰابٌ أَلِیمٌ بِمٰا کٰانُوا یَکْفُرُونَ .

إنّهم یتعذّبون بالماء الحریق من الداخل،و یکتوون بنار الجحیم.

یجدر الانتباه هنا إلی أن جمله أُولٰئِکَ الَّذِینَ أُبْسِلُوا بِمٰا کَسَبُوا هی بمثابه السبب الذی یمنع من قبول الغرامه و من قبول أی شفیع و ولی،أی أن عقـابهم لیس لعلـه خـارجیه بحیـث یمکـن دفعهـا بشـکل مـن الأشـکال،بـل ینبـع مـن داخـل الـذات و سـلوکها و أعمالها،إنّهم أسری أعمالهم القبیحه،لذلک لا مفر لهم،لأنّ فرار المرء من أعماله و آثارها إنّما هو فرار من ذاته،و هو غیر ممکن.

غیر أنّنا لا بـدّ أن نعلم أنّ هذه الحاله من الشدّه و الصـعوبه و انعدام طریق العوده و رفض الشـفاعه إنّما تکون بحق الذین أصـروا علی کفرهم و استمروا علیه، کما یتبیّن من عباره: بِمٰا کٰانُوا یَکْفُرُونَ (الفعل المضارع یفید الاستمراریه).

۱- ۱) -«العدل»بمعنی«المعادل»و هو ما یدفع جزاء و غرامه لقاء التحرر،و هو أشبه فی الواقع بما یفتدی به.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۷۱ الى ۷۲]

اشاره

قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُنٰا وَ لاٰ يَضُرُّنٰا وَ نُرَدُّ عَلىٰ أَعْقٰابِنٰا بَعْدَ إِذْ هَدٰانَا اَللّٰهُ كَالَّذِي اِسْتَهْوَتْهُ اَلشَّيٰاطِينُ فِي اَلْأَرْضِ حَيْرٰانَ لَهُ أَصْحٰابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى اَلْهُدَى اِئْتِنٰا قُلْ إِنَّ هُدَى اَللّٰهِ هُوَ اَلْهُدىٰ وَ أُمِرْنٰا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۷۱) وَ أَنْ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ اِتَّقُوهُ وَ هُوَ اَلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۷۲)

التّفسير

اشاره

كان المشركون يصرّون على دعوه المسلمين إلى العوده إلى الكفر و عباده الأصنام،فنزلت هذه الآيه تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالردّ عليهم ردّا يدحض رأيهم و يفند دعوتهم فى جواب بصيغه الاستفهام الاستنكارى:أ تريدون منّا أن نشرك مع اللّه ما لا يملك لنا نفعا فنعبده لذلك،و لا يملك لنا ضررا فنخافه؟!: قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُنٰا وَ لاٰ يَضُرُّنٰا .

هذه الآيه تشير إلى أنّ أفعال الإنسان تنشأ عاده عن دافعين،فهى إمّا أن تهدف إلى استجلاب منفعه(ماديه كانت أم معنويه)،و أمّا إلى دفع ضرر(ماديا كان أم معنويا).فكيف يقدم الإنسان على أمر ليس فيه أى من هذين العاملين؟

ص:۳۳۶

ثمّ یأتی باستدلال آخر علی المشرکین،فیقول:إذا عدنا إلی عباده الأصنام، بعد الهدایه الإلهیه نکون قد رجعنا القهقهری،و هذا یناقض قانون التکامل الذی هو قانون حیاتی عام: وَ نُرَدُّ عَلیٰ أَعْقٰابِنٰا بَعْدَ إِذْ هَدٰانَا اللّٰهُ (1) .

ثمّ یضرب مثلا لتوضیح الأمر،فیقول:إنّ الرجوع عن التوحید إلی الشرک أشبه بالذی أغوته الشیاطین(أو غیلان البوادی التی کان عرب الجاهلیه یعتقدون أنّه تمکن فی منعطفات الطرق و تغوی السابله و تضلهم عن الطریق)فتاه عن مقصده و ظل حیرانا فی البادیّه: کَالَّذِی اسْتَهْوَتْهُ الشَّیٰاطِینُ فِی الْأَرْضِ حَیْرٰانَ بینما له رفاق یرشدونه إلی الصراط السوی المستقیم و ینادونه:هلم إلینا،و لکنّه من الحیره و التیه بحیث لا یسمع النداء،أو إنّه غیر قادر علی اتخاذ القرار: لَهُ أَصْحٰابٌ یَدْعُونَهُ إِلَی الْهُدَی ائْتِنٰا (2) .

و فی الختام یؤمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یقول:إنّ الهدایه من اللّه و لیس لنا إلاّ أن نسلم لأمر اللّه ربّ العالمین: قُلْ إِنَّ هُدَی اللّٰهِ هُوَ الْهُدیٰ وَ أُمِرْنٰا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعٰالَمِینَ .

و هذا دلیل آخر علی رفض دین المشرکین،إذ التسلیم لا یکون إلاّ لخالق الکون و مالکه و ربّ عالم الوجود،لا الأصنام التی لا دور لها فی إیجاد هذا العالم و إدارته.

سؤال:

یبرز هنا هذا السؤال:لم یکن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قبل البعثه من أتباع دین المشرکین فکیف تقول الآیه: نُرَدُّ عَلیٰ أَعْقٰابِنٰا و نحن نعلم أنّه لم یسجد قط

---

۱ – ۱) –«أعقاب»جمع«عقب»و هو مؤخر الرجل،و رجع علی عقبه بمعنی انثنی راجعا،و هو هنا کنایه عن الانحراف عن الهدف، و هو ما یطلق علیه الیوم اسم«الرجعیه».

۲ – ۲) –«استهوته»من«الهوی»و هو میل النفس إلی الشهوه،و استهوته بمعنی حملته علی إتباع الهوی،و«الحیره»هی التردد فی الأمر،و فی الأصل:الجیئه و الذهاب،فالآیه تشیر إلی الذین یذهبون من الإیمان إلی الشرک مستلهمین تحرکاتهم من الشیطان.

لصنم،إذ لم يرد هذا فی جميع التواريخ التی كتبت عنه،بل أن مقام العصمه لا يمكن أن يسمح بحدوثه؟

الجواب:

فی الحقيقه تعتبر هـذه الآيه ممّا جاء علی لسان جميع المسـلمين،لا علی لسان النّبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم وحـده،و لذلک جاءت الضمائر فيها بصيغه الجمع.

الآيه التّاليه،تواصل شـرح الـدعوه الإلهيه قائله:إنّنا فضـلا عن التوحيـد،فقد أمرنا بإقامه الصّـلاه و بتقوی اللّه: وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاهَ وَ اتَّقُوهُ .

و فی الختام يشار إلی المعاد و إلی أنّ الناس إلی اللّه يرجعون: وَ هُوَ الَّذِی إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

هـذه الآيات القصار تكشف عن البرنامـج الـذی يـدعو اليه الرّسول صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم و المتألف من أربعه مبادئ،تبدأ بالتوحيد و تنتهی بالمعاد،و بينهما مرحلتان متوسطتان هما:تقويه الارتباط باللّه،و الاتقاء من كل ذنب.

ص: ٣٣٨

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۷۳]

اشاره

وَ هُوَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ یَوْمَ یَقُولُ کُنْ فَیَکُونُ قَوْلُهُ اَلْحَقُّ وَ لَهُ اَلْمُلْکُ یَوْمَ یُنْفَخُ فِی اَلصُّورِ عٰالِمُ اَلْغَیْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ وَ هُوَ اَلْحَکِیمُ اَلْخَبِیرُ (۷۳)

التّفسیر

هـذه الآیه دلیل علی ما جاء فی الآیه السابقه،و علی ضروره التسلیم للّه و إتّباع رسوله،لـذلک تقول: هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ .

إنّ مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدیر بالعباده،و هو وحده الذی یجب الخضوع و التسلیم له،لأنّه خلق الأشیاء لمقاصد حقّه.

المقصود من«الحق»فی الآیه هو الأهداف و النتائج و المنافع و الحکم،أی أنّ کل مخلوق قد خلق لهدف و غایه و مصلحه،و هذه الآیه تشبه الموضوع الذی تتناوله الآیه(۷۷)من سوره ص التی جاء فیها: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا بٰاطِلاً .

ثمّ یقول:إنّه فضلا عن کونه مبدع عالم الوجود،فان یوم القیامه أیضا یقوم بأمره،و إذا ما أصدر أمره بقیام ذلک الیوم فإنّه یتحقق فورا: وَ یَوْمَ یَقُولُ کُنْ

فَيَكُونُ

(۱)

.

يحتمل بعضـهم أنّ هذه العباره تشير إلى مبدأ الخلق و إيجاد عالم الوجود، حيث خلق كل شىء بأمر اللّه،و لكن بالنظر لأنّ الفعل «يقول»مضارع،و هناك قبل هـذه الآيه إشاره إلى أصل الخلق،و كـذلك بالرجوع إلى الآيات التّاليه،يمكن القول بأنّ هذه العباره تخص البعث و يوم القيامه.

سبق فى تفسير الآيه(۱۱۷)من سوره البقره فى المجلـد الأوّل أن قلنـا إنّ كُنْ فَيَكُونُ لاـ تعنى إصـدار أمر لفظى لشـىء أن يكون فيكون،بـل تعنى إنّه إذا شـاء خلق شـىء،فـإنّ إرادته تتحقق دون حـاجه الى وجود أى عامل آخر،فإذا شاء أن يتحقق الشـىء فهو يتحقق فورا.و إذا شاء أن يتحقق تدريجيا فإنّ خطّه تحققه التدريجى تبدأ.

ثمّ يضـيف:أنّ ما يقوله اللّه هو الحق،أى أنّه مثلما كان مبدأ الخلق ذا أهداف و نتائج و مصالح،كذلك سـيكون يوم القيامه: قَوْلُهُ الْحَقُّ .

و فى ذلك اليوم الـذى ينفخ فيه فى صور و يبعث الناس يوم القيامه،يكون الحكم و الملك للّه: وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ

.

حكومه اللّه على عـالم الوجود و مـالكيته له قائمتان منـذ بـدايه الخلق حتى نهايته و فى يوم القيامه،و لا يختص ذلك بيوم القيامه وحـده،لكن هناك عوامل و أسـبابا تؤثر فى مسار هذه الدنيا و تقدمها نحو أهدافها،لذلك قد يغفل الإنسان أحيانا عن وجود اللّه وراء هـذه الأسـباب و العوامـل،أمّـا فى ذلك اليوم الـذى تتعطل فيه جميع الأسـباب و العوامل،فإنّ حكومه اللّه و مالكيته تكونان أجلى و أوضح من أى وقت سابق،كما جاء فى آيه أخرى:

---

۱ - ۱) -يختلـف المفسـرون فى متعلـق الظرف«يـوم»،فبعض يعلقه بجمله«خلـق»و بعض يعلقه بجمله«اذكروا»المحـذوفه،و لكن لا يستبعد أن يكون متعلقا بجمله«يكون»،فيصبح المعنى:يكون يوم القيامه يوم يقول له كن.

لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ

(۱)

.

فیما یتعلق بماهیه«الصور»و کیف ینفخ فیه إسرافیل فتموت الأحیاء،ثمّ یعید النفخ فی الصور فیعود الجمیع إلی الحیاه و یبدأ یوم القیامه-سوف نشرح ذلک إن شاء اللّه-فی تفسیر الآیه(۶۸)من سوره الزمر.

و فی ختام الآیه إشاره إلی ثلاث من صفات اللّه تعالی،فهو: عالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَهِ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ .

ترد هذه الصفات غالبا فی الآیات التی تخص یوم القیامه،أی أنّه بمقتضی صفه العلم المطلق عالم بأعمال عباده،و بمقتضی قدرته و حکمته یجازی کلا بما یستحقه.

۱- ۱) -غافر،۱۶.

الآيه [سوره الأنعام (۶): آيه ۷۴]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْنٰاماً آلِهَةً إِنِّی أَرٰاکَ وَ قَوْمَکَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۷۴)

التّفسير

اشاره

لما كانت هذه السوره تحارب الشرك و عباده الأصنام و يدور فيها الكلام أكثر ما يدور على المشركين و عبده الأصنام،و تستخدم مختلف الأساليب لإيقاظهم،فهى تستخدم هنا حكايه إبراهيم بطل التوحيد،و تشير إلى منطقه القوى فى تحطيم الأصنام ضمن بضع آيات.

من الجدير بالانتباه أنّ القرآن فى كثير من بحوثه عن التوحيد و محاربه عباده الأصنام يستند إلى هذه الحقيقه،لأنّ إبراهيم عليه السّلام كان يحظى باحترام الأقوام كافه،و على الأخص مشركى العرب.

يقول:إنّ إبراهيم و بخ أباه(عمّه)قائلا:أ تختار هذه الأصنام الحقيره التى لا حياه فيها آلهه للعباده: وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْنٰاماً آلِهَةً إِنِّی أَرٰاکَ وَ قَوْمَکَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ و أى ضلال أشد و أضح من أن يجعل الإنسان ما يخلقه بيده إلها يعبده،و يتخذ من كائن جامد لا روح فيه و لا إحساس ملجأ يفزع إليه و يبحث عن حل مشاكله عنده.

ص:۳۴۲

هل كان آزر أبا إبراهيم؟

تطلق كلمه«الأب»فى العربيه على الوالـد غالبا،و لكنّها قد تطلق أيضا على الجد من جهه الأمّ و على العم،و كذلك على المربى و المعلم و الذين يساهمون بشـكل ما فى تربيه الإنسان،و لكنّها إذا جاءت مطلقه فانّها تعنى الوالد ما لم تكن هناك قرينه تدلّ على غير ذلك.

فهـل الرجل الـذى تشير إليه الآيه(آزر)هو والـد إبراهيم؟أ يجوز أن يكون عابـد الأصـنام و صانعها والـد نبى من أولى العزم؟ألا يكون للوراثه من هذا الوالد تأثير شـىء فى أبنائه؟ بعض مفسّرى أهل السنّه يجيب بالإيجاب على السؤال الأوّل،و يعتبر آزر والد إبراهيـم الحقيقى،أمّا المفسّرون الشـيعه فيجمعـون على أن آزر ليس والـد إبراهيم،بـل قـال بعضـهم:إنّه كـان جـدّه لأمّه،و قـال أكثرهم:إنّه كان عمه،و هم فى ذلك يستندون إلى القرائن التّاليه:

۱-لم يرد فى كتب التّأريخ أنّ أبا إبراهيم هو آزر،بل يقول التّأريـخ إنّ اسم أبيه هو«تارخ»و هذا ما ورد أيضا فى العهدين القديم و الجديـد،و الذين يعتبرون آزر والد إبراهيم يسـتندون إلى تعليلات لا يمكن قبولها من ذلك أنّهم يقولون:إنّ اسم والد إبراهيم هو تارخ و لقبه آزر،و هذا القول لا تسنده الوثائق التّأريخيه.

أو يقولون:إنّ«آزر»اسم صـنم كان أبو إبراهيم يعبده،و هذا القول لا يأتلف مع هذه الآيه التى تقول أن أباه كان آزر،إلاّ إذا قدرنا جمله أو كلمه،و هذا أيضا خلاف الظاهر.

۲-يقول القرآن: مٰا كٰانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كٰانُوا أُولِي قُرْبىٰ... ثمّ لكيلا يتخذ أحد من استغفار إبراهيم لآزر حجّه يقول:

وَ مٰا كٰانَ اسْتِغْفٰارُ إِبْرٰاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاّٰ عَنْ مَوْعِدَهٍ وَعَدَهٰا إِيّٰاهُ فَلَمّٰا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ

تَبَرَّأَ مِنْهُ

(۱)

و ذلک لأنّ إبراهیم کان قد وعد آزر أن یستغفر له: سَأَسْتَغْفِرُ لَکَ رَبِّی (۲) بأمل رجوعه عن عباده الأصنام،و لکنّه عند ما رآه مصمما علی عباده الأصنام و معاندا،ترک الاستغفار له.

یتّضح من هذه الآیه بجلاء أن إبراهیم بعد أن یئس من آزر،لم یعد یطلب له المغفره و لم یکن یلیق به أن یفعل.

کل القرائن تدل علی أنّ هذه الحوادث وقعت عند ما کان إبراهیم شابا، یعیش فی بابل و یحارب عبده الأصنام.

و لکن آیات أخری فی القرآن تشیر إلی أن إبراهیم فی أواخر عمره،و بعد الانتهاء من بناء الکعبه،طلب المغفره لأبیه(فی هذه الآیات-کما سیأتی-لم تستعمل کلمه«أب»بل استعملت کلمه«والد»الصریحه فی المعنی)حیث یقول:

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ إِنَّ رَبِّی لَسَمِیعُ الدُّعٰاءِ ...

رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوٰالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ یَوْمَ یَقُومُ الْحِسٰابُ

(۳)

.

إذا جمعنا هذه الآیه مع آیه سوره التوبه التی تنهی المسلمین عن الاستغفار للمشرکین و تنفی ذلک عن إبراهیم،إلاّ لفتره محدوده و لهدف مقدس،تبیّن لنا بجلاء أنّ المقصود من«أب»فی الآیه المذکوره لیس«الوالد»،بل هو العم أو الجد من جانب الأمّ أو ما إلی ذلک،و بعباره أخری:إنّ«والد»تعطی معنی الأبوه المباشره،بینما«أب»لا تفید ذلک.

و قد وردت فی القرآن کلمه«أب»بمعنی العم،کما فی الآیه(۱۳۳)من سوره البقره: قٰالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَکَ وَ إِلٰهَ آبٰائِکَ إِبْرٰاهِیمَ وَ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ إِلٰهاً وٰاحِداً و الضمیر فی«قالوا»یعود علی أبناء یعقوب،و کان إسماعیل عم یعقوب،

۱- ۱) -التوبه،۱۱۳ و ۱۱۴.

۲- ۲) -مریم،۴۷.

۳- ۳) -إبراهیم،الآیتان ۳۹ و ۴۱.

لا أباه.

۳-و هناک روایات إسلامیه مختلفه تؤکّد هذا الأمر،

فقد جاء فی حدیث معروف عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لم یزل ینقلنی اللّه من أصلاب الطاهرین إلی أرحام المطهرات حتی أخرجنی فی عالمکم هذا لم یدنسنی بدنس الجاهلیه» (۱) .

و لا شک أن أقبح أدناس الجاهلیه هو الشرک و عباده الأوثان،أما القائلون أنّ أقبحها هو الزنا فلا یقوم علی قولهم دلیل.خاصّه و انّ القرآن یقول: إِنَّمَا الْمُشْرِکُونَ نَجَسٌ (۲) .

الطبری،و هو من علماء أهل السنه،ینقل فی تفسیره«جامع البیان»عن المفسّر المعروف«مجاهد»أنّه قال:لم یکن آزر والد إبراهیم (۳) .

الآلوسی فی«روح المعانی»یؤکّد عند تفسیر هذه الآیه أنّ الشیعه لیسوا وحدهم الذین یعتقدون أن آزر لم یکن والد إبراهیم،بل إن کثیرا من علماء المذاهب الأخری یرون أن آزر اسم عم إبراهیم (۴) .

و السیوطی العالم السنی المعروف،نقل فی کتابه«مسالک الحنفاء»عن أسرار التنزیل للفخر الرازی أن والدی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أجداده لم یکونوا مشرکین أبدا.مستدلا علی ذلک بالحدیث الذی نقلنا آنفا،ثمّ یستند السیوطی نفسه إلی مجموعتین من الرّوایات.

الأولی:تقول إنّ آباء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أجداده حتی آدم کان کل واحد منهم أفضل أهل زمانه(و ینقل أمثال هذه الرّوایات عن«صحیح البخاری»و«دلائل النبوه»للبیهقی و غیرهما من المصادر).

---

۱ - ۱) -یورد هذا الحدیث کثیرون من مفسّری الشیعه و السنه،کالمرحوم الطبرسی فی«مجمع البیان»و النیسابوری فی تفسیر «غرائب القرآن»و الفخر الرازی فی«التّفسیر الکبیر»و الآلوسی فی تفسیر«روح المعانی».

۲- ۲) -التوبه،۲۸.

۳- ۳) -«جامع البیان»،ج ۷،ص ۱۵۸.

۴- ۴) -تفسیر«روح المعانی»،ج ۷،ص ۱۶۹.

و الثّانيه:هی التی تقول:إنّه فی کل عصر و زمان کان هناک أناس من الموحدين الذين يعبدون اللّه،ثمّ يجمع بين هاتين المجموعتين من الرّوايات و يستنتج أنّ أجداد رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم،بما فيهم والد إبراهيم،کانوا حتما من الموحدين (۱) .

يتبيّن من هذا أنّ التّفسير المذکور لهذه الآيه مبنی علی وجود قرائن واضحه من القرآن نفسه و من مختلف الرّوايات الإسلاميه،و ليس تفسيرا مبنيا علی الرأی الشخصی فقط،کما يقول بعض مفسّری أهل السنه،مثل صاحب«المنار».

۱- ۱) -«مسالک الحنفاء»،ص ۱۷ کما جاء فی هامش«بحار الأنوار»،۱۵،۱۸ أو بعدها،الطبعه الجديده.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۷۵ الی ۷۹]

اشاره

وَ كَذٰلِكَ نُرِی إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ اَلْمُوقِنِينَ (۷۵) فَلَمّٰا جَنَّ عَلَيْهِ اَللَّيْلُ رَأیٰ كَوْكَباً قٰالَ هٰذٰا رَبِّی فَلَمّٰا أَفَلَ قٰالَ لاٰ أُحِبُّ اَلْآفِلِينَ (۷۶) فَلَمّٰا رَأَى اَلْقَمَرَ بٰازِغاً قٰالَ هٰذٰا رَبِّی فَلَمّٰا أَفَلَ قٰالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِی رَبِّی لَأَكُونَنَّ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلضّٰالِّينَ (۷۷) فَلَمّٰا رَأَى اَلشَّمْسَ بٰازِغَةً قٰالَ هٰذٰا رَبِّی هٰذٰا أَكْبَرُ فَلَمّٰا أَفَلَتْ قٰالَ يٰا قَوْمِ إِنِّی بَرِیءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ (۷۸) إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ حَنِيفاً وَ مٰا أَنَا مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۷۹)

التّفسیر

اشاره

أدله التوحید فی السموات:

علی أثر الکره الـذی کـان یحمله إبراهیم للأوثـان و طلبه من آزر أن یترک عباده الأصـنام،تشـیر هـذه الآیات إلی نضال إبراهیم المنطقی مع مختلف عبده الأصنام،و تبیّن کیفیه توصله إلی أصل التوحید عن طریق الاستدلال العقلی الواضح.

ص: ۳۴۷

تبيّن أولا أنّ اللّه كما عرّف إبراهيم على أضرار عباده الأصنام عرّفه على مالكيه اللّه و سلطته المطلقه على السموات و الأرض: وَ كَذٰلِكَ نُرِى إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ (١) .

«الملكوت»من«ملك»بمعنى المالكيه و الحكم و«الواو»و«التاء»أضيفتا للتوكيد و المبالغه، فالمقصود من الكلمه هنا حكومه اللّه المطلقه على عالم الوجود برمته.

و لعل هذه الآيه إجمال للتفصيل الوارد فى الآيات التّاليه بشأن الكواكب و القمر و الشمس و إدراك أنّها من المخلوقات لدى مشاهده أفولها.

أى أنّ القرآن بدأ بذكر مجمل تلك الحالات،ثمّ أخذ يفصلها،و بهذا يتّضح المقصود من إراءه ملكوت السموات و الأرض لإبراهيم عليه السّلام.

كما أنّه فى الختام يقول إنّ الهدف من ذلك هو أن يصبح إبراهيم من أهل اليقين: وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ .

لا شك أنّ إبراهيم كان موقنا يقينا استدلاليا و فطريا بواحدانيه اللّه،و لكنّه بدراسه أسرار الخلق بلغ يقينه حد الكمال،كما أنّه كان مؤمنا بالمعاد و يوم القيامه،و لكنّه بمشاهده الطيور المذبوحه التى عادت إليها الحياه بلغ إيمانه مرحله«عين اليقين».

الآيات التّاليه تشرح هذا المعنى،و تبيّن استدلال إبراهيم من أفول الكواكب و الشمس على عدم الوهيتها،فعند ما غطى ستار الليل المظلم العالم كلّه،ظهر أمام بصره كوكب لامع،فنادى إبراهيم:هذا ربّى!و لكنّه إذ رآه يغرب،قال:لا أحبّ الذين يغربون: فَلَمّٰا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأىٰ كَوْكَباً قٰالَ هٰذٰا رَبِّى فَلَمّٰا أَفَلَ قٰالَ لاٰ أُحِبُّ الْآفِلِينَ .

۱- ۱) -و على هذا،هناك محذوف مقدار فى الآيه يدل عليه ما فى الآيات السابقه،فيكون مضمون الآيه:كما أرينا إبراهيم قبح ما كان عليه قومه من عباده الأصنام كذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات و الأرض(تأمل بدقه).

و مرّه أخرى رفع عينيه إلى السماء فلاح له قرص القمر الفضى ذو الإشعاع و اللمعان الجذاب على أديم السماء، فصاح ثانيه:هذا ربّى:و لكنّ مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير الكواكب قبله،فقد أخفى وجهه خلف طيات الأفق.

هنا قال إبراهيم:إذا لم يرشدنى ربّى إلى الطريق الموصل إليه فسأكون فى عداد التائهين فَلَمّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هٰذا رَبِّى فَلَمّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضّالِّينَ .

عند ذاك كان الليل قد انقضى،و راح يجمع أطراف أستاره المظلمه هاربا من كبد السماء،بينما راحت الشمس تطل من المشرق و تلقى بأشعتها الجميله كنسيج ذهبى تنشره على الجبل و الوادى و الصحراء،و ما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقه على قرص الشمس الساطع صاح:هذا ربّى فإنّه أكبر و أقوى ضوءا،و لكنّه إذ رآها كذلك تغرب و تختفى فى جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم قراره النهائى قائلا:يا قوم!لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعه التى تجعلونها شريكه للّه: فَلَمّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هٰذا رَبِّى هٰذا أَكْبَرُ فَلَمّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ .

الآن بعد أن عرفت أنّ وراء هذه المخلوقات المتغيره المحدوده الخاضعه لقوانين الطبيعه إلها قادرا و حاكما على نظام الكائنات،فإنى أتجه إلى الذى خلق السموات و الأرض،و فى إيمانى هذا لن أشرك به أحدا،فانى موحد و لست مشركا: إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

للمفسّرين كلام كثير فى تفسير هذه الآيه و الآيات التّاليه بشأن ما دفع

ص :۳۴۹

بإبراهيم الموحد العابد للّه الواحد، أن يشير إلى كوكب فى السماء و يقول:هذا ربّى؟و من بين آراء المفسّرين الكثيره نقف عند تفسيرين قد اختار كلا منهما عدد من كبار المفسّرين،كما أنّهما مدعومان بشواهد من المصادر الحديثيه:

الأوّل:يقول إنّ إبراهيم كان يريد شخصيا أن يفكر فى معرفه اللّه و أن يعثر على المعبود الذى كان يجده بفطرته النقيه فى أعماق ذاته،إنّه كان يعرف اللّه بنور فطرته و دليل العقل الإجمالى إذ إنّ كل تعبيراته تدل على أنّه لم يكن يشك أبدا فى وجوده،و لكنّه كان يبحث عن مصداقه الحقيقى،بل لقد كان يعلم بمصداقه الحقيقى أيضا،و لكنّه كان يريد أن يصل عن طريق الاستدلال العقلى الأوضح إلى مرحله«حق اليقين».

و قد وقعت له هذه الحوادث قبل نبوته،و يحتمل أن تكون فى أوّل بلوغه أو قبيل ذلك.

نقرأ فى بعض التواريخ و الرّوايات أنّ هذه كانت المرّه الأولى التى يرنو فيها إبراهيم بنظره إلى السماء و إلى كواكبها الساطعه،لأن أمّه كانت منذ طفولته قد أخفته فى عار خوفا عليه من بطش نمرود الجبار و جلاوزته.

غير أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا،إذ يصعب أن نتصور إنسانا يعيش سنوات طويله فى بطن غار و لا يخلو خارجه،و لو مرّه،فى ليله ظلماء،فلعل الذى قوى هذا الاحتمال فى نظر بعض المفسّرين هو تعبير رَأىٰ كَوْكَباً الذى يوحى بأنه لم يكن قد رأى كوكبا حتى ذلك الحين،و لكن هذا التعبير لا يحمل فى الواقع مثل هذا المفهوم،بل المقصود هو أنّه،و إن كان قد رأى الكواكب و الشمس و القمر مرات حتى ذلك الوقت،فقد ألقى الأوّل مرّه نظره فاحصه مستطلعه إلى هذه الظواهر.و كان يفكر فى مغزى بزوغها و أفولها و نفى الألوهيه عنها،فى الحقيقه كان إبراهيم قد رآها مرارا،و لكن لا بتلك النظره.

لذلك فإنه عند ما يقول: هٰذٰا رَبِّى لا يقولها قاطعا جازما،بل يقولها من باب

الفرض و الاحتمال حتى يفكر فى الأمر،و هذا يشبه تماما حالنا و نحن نحاول أن نعثر على سبب حادثه ما،فنقلب مختلف الاحتمالات و الافتراضات على وجوهها واحده واحده،و نستقصى لوازم كل فرضيه حتى نعثر على العله الحقيقيه،و هذا لا يكون كفرا،بل و لا حتى دليلا على عدم الإيمان،بل هو طريق لتحقيق أكثر و لمعرفه أفضل،للوصول إلى مراحل أعلى من الإيمان،كما فعل إبراهيم فى مسأله«المعاد»إذ قام بمزيد من الدراسه يوصل إلى مرحله الشهود و الاطمئنان.

جاء فى تفسير العياشى عن محمّد بن مسلم عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السّلام أنّه قال: «إنّما كان إبراهيم طالبا لربّه،و لم يبلغ كفرا،و انّه من فكر من الناس فى مثل ذلك فإنه بمنزلته» (۱) .

و هنالك روايتان أخريان يذكرهما تفسير نور الثقلين بهذا الشأن.

أمّا التّفسير الثّانى فيقول:إن إبراهيم كان يقول هذا الكلام أثناء مخاطبته عبده النجوم و الشمس،و يحتمل أن يكون ذلك بعد مخاصماته الشديده فى بابل مع عبده الأوثان و خروجه منها إلى الشام،حيث التقى بهؤلاء الأقوام،و إبراهيم الذى كان قد خبر عناد الأقوام الجاهله فى بابل و خطأ تفكيرهم،أراد أن يحلب إليه انتباه عبده الكواكب و الشمس و القمر،فأظهر فى البدايه أنّه معهم و قال لهم:

إنكم تقولون:إنّ كوكب الزاهره هذا هو ربّى،حسنا،فلنر ما يحصل لهذا الإعتقاد فى النهايه، و لم يمض وقت طويل حتى اختفى وجه الكواكب النير خلف ستار الأفق المظلم،عندئذ اتّخذ إبراهيم من هذا الأفول سلاحا يواجههم به فقال:أنا لا يمكننى أن أتقبل معبودا كهذا.

و عليه،فإنّ عباره هٰذٰا رَبِّی تعنى:هذا ما تعتقدون أنّه ربّى،أو أنّه قالها بلهجه الاستفهام:«هذا ربّى؟».

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين:ج ۱،ص ۷۳۸.

و يؤيد هذا التّفسير أيضا روايه فى«نور الثقلين»و تفاسير أخرى عن كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السّلام».

كيفيه استدلال إبراهيم على التوحيد:

هنا يبرز هذا السؤال:كيف استطاع إبراهيم أن يستدل من غروب الشمس و القمر و الكواكب على عدم ربوبيتها؟ يمكن أن يكون هذا الاستدلال من طرق ثلاثه:

١-إنّ اللّه المربى،كما يستفاد من كلمه«رب»لا بدّ أن يكون دائما قريبا من مخلوقاته و أن لا ينفصل عنهم لحظه واحده،و عليه لا يجوز لكائن يغرب و يختفى ساعات طويله،بنوره و بركته و تنقطع صلته كليا عن الكائنات الأخرى، أن يكون ربّا و إلها.

٢-إنّ كائنا يغرب و يبزغ و يخضع للقوانين الطبيعيه،لا يمكن أن يحكم على هذه القوانين و يملكها؟إنّه هو نفسه مخلوق ضعيف يخضع لأوامرها و غير قادر على أدنى انحراف عنها...

٣-إنّ الكائن المتحرك لا يمكن إلاّ يكون كائنا حادثا،فقد أثبتت الفلسفه أنّ الحركه دليل على الحدوث،لأنّ الحركه ذاتها نوع من الوجود الحادث، و أن ما يكون فى معرض الحوادث،أى يكون ذا حركه،لا يمكن أن يكون كائنا أزليا و أبديا(تأمل بدقّه).

ملاحظات

هنا لا بدّ من الانتباه إلى النقاط التّاليه:

۱-فی الآیه الأولی من الآیات التی نحن بصددها،کلمه«کذلک...»تلفت النظر،و هی تعنی:إنّنا مثلما أوضحنا عقلا أضرار عباده الأصنام لإبراهیم، کذلک نریه مالکیه اللّه للسماوات و الأرض و حکمه علیها،یقول بعض المفسّرین:

ذلک یعنی:إنّنا کما أریناک قدره اللّه و حکمه علی السموات،أریناها لإبراهیم أیضا لکی یزداد معرفه باللّه.

۲-أصل«الجن»ستر الشیء عن الحاسه،فمعنی الآیه هو:عند ما ستر اللیل ملامح الکائنات عن إبراهیم...و إطلاق کلمه«مجنون»علی المخبول لإسدال ستار علی عقله،و إطلاق«الجن»علی الکائنات غیر المرئیه جاء من هذا الباب، و کذلک الجنین لاختفائه عن الأنظار فی رحم أمه،و«الجنّه»هی البستان التی اختفت أرضها تحت أغصان الأشجار،و قیل للقلب«الجنان»لاستتاره فی الصدر،أو لأنّه یخفی أسرار الإنسان.

۳-و بشأن تعیین الکوکب الذی رآه إبراهیم،ذهب المفسّرون مذاهب شتی، غیر أنّ معظمهم یراه«الزهره»أو«المشتری»و یذکر التّأریخ أنّ القدامی کانوا یعبدون هذین الکوکبین من بین آلهتهم،أمّا الحدیث المنقول عن الإمام الرضا علیه السّلام فی«عیون الأخبار»فیقول: إنّ ذلک الکوکب کان«الزهره»،و هذا ما جاء أیضا فی تفسیر علی بن إبراهیم عن الإمام الصادق علیه السّلام (۱)
.

یقول بعض المفسّرین أنّ أهالی کلده و بابل شرعوا فی محاربه عبده الأصنام،و راحوا یختارون السیارات باعتبار کل واحده منها تمثل إلها لنوع من أنواع الأشیاء من ذلک أنّهم اعتبروا«المریخ»إله الحرب،و«المشتری»إله العدل و العلم،و«عطارد»إلیه الوزراء و«الشمس»ملک الآلهه جمیعا (۲) .

۴-«بازغ»من«بزغ»و بزغه:شقه و أسال دمه،و لذلک تطلق علی عمل

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۱،ص ۷۳۵ و ۷۳۷.

۲- ۲) -تفسیر أبی الفتوح،ج ۴،ص ۴۶۷-الهامش.

البيطار فی الجراحه،و إطلاق هذه الکلمه علی طلوع الشمس أو القمر تعبیر بلیغ یحمل أجمل صور التشبیه،فالشمس و القمر عند الطلوع یشقان الظلام، و یسکبان عند الأفق إحمرار الشفق الذی لیس ببعید الشبه عن الدم المسفوح.

۵-«فطر»من«الفطور»بمعنی الشق،و لعل إطلاق هذه الکلمه علی خلق السماء و الأرض ناشئ-کما قلنا فی تفسیر الآیه(۱۴)من هذا السوره-من کون العالم کان فی الیوم الأوّل حسبما یقول العلم الیوم-کتله واحده،ثمّ تشققت و ظهرت الکرات و الإجرام السماویه الواحده بعد الأخری(انظر تفسیر الآیه المذکوره لمزید من الإیضاح).

۶-«الحنیف»هو الخالص،کما جاء فی تفسیر الآیه(۶۷)من سوره آل عمران.

ص: ۳۵۴

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۸۰ الی ۸۳]

اشاره

وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِّی فِی اَللَّهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لاَ أَخَافُ مَا تُشْرِکُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ یَشَاءَ رَبِّی شَیْئاً وَسِعَ رَبِّی کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً أَ فَلاَ تَتَذَکَّرُونَ (۸۰) وَ کَیْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَکْتُمْ وَ لاَ تَخَافُونَ أَنَّکُمْ أَشْرَکْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ عَلَیْکُمْ سُلْطَاناً فَأَیُّ اَلْفَرِیقَیْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۱) اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِکَ لَهُمُ اَلْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۸۲) وَ تِلْکَ حُجَّتُنَا آتَیْنَاهَا إِبْرَاهِیمَ عَلیٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّکَ حَکِیمٌ عَلِیمٌ (۸۳)

التّفسیر

اشاره

تعقیبا علی ما جری بحثه فی الآیات السابقه بشأن استدلالات إبراهیم علیه السّلام التوحیدیه،تشیر هذه الآیات إلی ما دار بین إبراهیم و الأقوام المشرکه من عبده الأصنام،الذین بدأوه بالمحاجه وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ .

فردّ علیهم إبراهیم علیه السّلام قائلا:لماذا تجادلوننی فی اللّه الواحد الأحد و تخالفوننی فیه،و هو الذی وهبنی من الدلائل المنطقیه الساطعه ما هدانی به إلی

طریق التوحید قَالَ أَ تُحَاجُّونِّی فِی اللّٰهِ وَ قَدْ هَدَانِ .

یتّضح فی هذه الآیه بجلاء أنّ قوم إبراهیم المشرکین من عبده الأصنام کانوا یحاولون جهدهم و بأی ثمن أن یبعدوا إبراهیم عن عقیدته و یرجعوه إلی عباده الأصنام،و لکنّه بکل شجاعه و جرأه ردّ علیهم بالدلائل المنطقیه الواضحه.

لا ـ تشیر هذه الآیات إلی المنطق الذی توسل به قوم إبراهیم لحمله علی ترک عقیدته،و لکن یبدو من جواب إبراهیم أنّهم قد حذروه و هددوه بغضب آلهتهم و عقابها فی محاوله لإرعابه و إخافته،لأنّنا علی أثر ذلک نسمع إبراهیم یستهین بتهدیدهم و یؤکّد لهم أنّه لا یخشی أصنامهم التی لا حول لها و لا قوّه فی إیصال أی أذی إلیه وَ لاٰ أَخٰافُ مٰا تُشْرِکُونَ بِهِ.. فما من أحد و لا من شیء بقادر علی أن یلحق بی ضررا إلاّ إذا شاء اللّه: إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ رَبِّی شَیْئاً (1) .

یظهر من هذه الآیه أنّ إبراهیم علیه السّلام سعی لاتخاذ إجراء وقائی تجاه حوادث محتمله،فیؤکّد أنّه إذا أصابه فی هذا الصراع شیء-فرضا-فلن یکون لذلک أی علاقه بالأصنام،بل یعود إلی إراده اللّه،لأنّ الصنم الذی لا روح فیه و لا قدره له علی أن ینفع نفسه أو یضرها،لا یتأتی له أن ینفع أو یضرّ غیره.

و یضیف إلی ذلک مبینا أنّ ربّه علی درجه من سعه العلم بحیث یسع بعلمه کل شیء: وَسِعَ رَبِّی کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً .

هذه العباره-فی الواقع-دلیل علی العباره السابقه التی تقول:إنّ الأصنام لا قدره لها علی النفع و الضرر،لأنّها لا تملک العلم و لا المعرفه اللازمین لمن یرید أن ینفع أو یضرّ،إنّ اللّه الذی أحاط علمه بکل شیء هو وحده القادر علی أن یکون منشأ النفع و الضرر،فلم إذن أخشی غضب غیر اللّه؟! ثمّ یحرک فیهم روح البحث و التفکیر فیخاطبهم قائلا: أَ فَلاٰ تَتَذَکَّرُونَ .

1- 1) -هذا أشبه بالاستثناء المنقطع،فقد نفی عن الأصنام کلّ قدره علی النفع و الضرر،و أثبتها للّه،و للمفسّرین آراء أخری فی تفسیر هذه الآیه،غیر أن ما قلناه أقرب.

فى الآيه التّاليه ينهج إبراهيم منطقا استدلاليا آخر،فيقول لعبده الأصنام:

كيف يمكننى أن أخشى الأصنام و يستولى علىّ الخوف من تهديدكم،مع إنّى لا أرى فى أصنامكم أثرا للعقل و الإدراك و الشعور و القوه و العلم،أمّا أنتم فعلى الرغم من إيمانكم بوجود اللّه و إقراركم له بالعلم و القدره،و معرفتكم بأنّه لم يأمركم بعباده هذه الأصنام، فانّكم لا تخافون غضبه: وَ كَيْفَ أَخٰافُ مٰا أَشْرَكْتُمْ وَ لاٰ تَخٰافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللّٰهِ مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰاناً (١)
.

إنّنا نعلم أن عبده الأصنام لم يكونوا ينكرون وجود اللّه خالق السموات و الأرض،و لكنّهم كانوا يشركون الأصنام فى عبادته و يعتبرونها شفيعه لهم عنده، كونوا منصفين إذن و قولوا: فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

يستند منطق إبراهيم عليه السّلام هنا إلى منطق العقل القائم على الواقع،إنّكم تهددوننى بغضب الأصنام،مع أن تأثيرها و هم من الأوهام،و لكنّكم بعدم خشيتكم من اللّه العظيم الذى نؤمن به جميعا،و نعتقد بوجوب اتباع أمره تكونون قد تركتم أمرا ثابتا،و تمسكتم بأمر و همى فهو لم يصدر إلينا أمرا بعباده الأصنام.

فى الآيه التّاليه جواب يدلى به إبراهيم على سؤال كان هو قد ألقاه فى الآيه السابقه(و هذا أسلوب من أساليب الاستدلال العلمى،فقد يسأل المتكلم سؤالا عن لسان المخاطب ثمّ يبادر إلى الإجابه عليه مباشره كدليل على أن الجواب من الوضوح بحيث ينبغى أن يعرفه كل شخص)، يقول:إنّ المؤمنين الذين لم يمزجوا إيمانهم بظلم،هم الآمنون و هم المهتدون اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ .

ثمّه روايه عن أمير المؤمنين على عليه السّلام تؤيد كون هذه الآيه استكمالا لحوار

١- ١) -«السلطان»بمعنى التفوق و الإنتصار،و لما كان الدليل و البرهان من أسباب الفوز و الإنتصار،فقد يوصفان بالسلطان أيضا، كما هو الحال هنا،أى لا وجود لأى دليل على السماح بعبادتها و هذا ما لم يستطع إنكاره عباد صنم،لأنّ أمرا كهذا ينبغى أن يصدر عن طريق العقل و المنطق،أو عن طريق الوحى و النبوه،و عباده الأصنام مفتقره إلى كليهما.

إبراهيم مع عبده الأصنام (۱) .

بعض المفسّرين یری أن من المحتمل أن تکون هذه الآیه بیانا إلهیا،و لیست مقوله قالها إبراهیم،إلّا أن ما ذکرناه-فضلا عن تأیید الروایه المذکوره له-أکثر انسجاما مع ترتیب الآیات و وضعها،أمّا القول بأنّ هذه الآیه لسان حال عبده الأصنام،و إنّهم قالوها بعد تیقظهم علی أثر سماع أدله إبراهیم،فأمر بعید الاحتمال جدّا.

ما معنی«الظلم»هنا؟

یری معظم المفسّرین أنّ معنی«الظلم»هنا هو«الشرک».و أنّ الآیه(۱۲)من سوره لقمان: إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ دلیل علی ذلک.

و

فی روایه منقوله عن ابن عباس أنّه عند نزول هذه الآیه شقّ علی الناس فقالوا:یا رسول اللّه و أینا لم یظلم نفسه؟(أی أنّ الآیه تشملهم جمیعا)،فقال:

رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«إنّه لیس الذی تعنون،ألم تسمعوا إلی ما قال العبد الصالح:

...یٰا بُنَیَّ لاٰ تُشْرِکْ بِاللّٰهِ إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ

(۲)

.

غیر أنّ لآیات القرآن معانی متعدده فی کثیر من الحالات بحیث یمکن أن یکون أحدها أوسع و أشمل،و هذا الاحتمال جائز فی هذه الآیه أیضا،فیحتمل أن یکون«الأمن»عاما یشمل الأمن من عقاب اللّه،و الأمن من حوادث المجتمع المؤلمه،و الأمن من الحروب و المفاسد،و الجرائم و حتی الأمن النفسی لا یتحقق إلاّ عند ما یسود المجتمع مبدءان معا:الإیمان و العداله الاجتماعیه،فإذا ما تزلزلت قاعده الإیمان باللّه،و زال الشعور بالمسؤولیه أمام اللّه،و حل الظلم محل العداله الاجتماعیه،فلن یکون فی مثل هذا المجتمع أمان.لذلک فعلی الرغم من

۱- ۱) -تفسیر مجمع البیان فی تفسیر الآیه.

۲- ۲) -المصدر السابق.

المساعی و الجهود التی یبذلها فریق من العلماء فی العالم للحیلوله دون انعدام الأمن،فإنّ الهوه بین العالم و حاله الأمن و الاستقرار تتسع یوما بعد یوم إنّ السبب هو ما جاء فی الآیه المذکوره:تزلزل أرکان الإیمان،و قیام الظلم مقام العداله.

إنّ تأثیر الإیمان فی الاطمئنان النفسی و الهدوء الروحی لا یمکن إنکاره، کما لا یخفی علی أحد حالات تبکیت الضمیر و القلق النفسی بسبب ارتکاب المظالم.

روی عن الإمام الصّادق علیه السّلام فی قوله تعالی: اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمانَهُمْ بِظُلْمٍ قال:«بما جاء به محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الولایه،و لم یخلطوها بولایه فلان و فلان» (۱) .

هذا التّفسیر یستهدف-فی الحقیقه-بیان روح الموضوع فی الآیه الشریفه، إذ أنّ الکلام یدور حول ولایه اللّه و عدم خلطها بولایه غیره،و لما کانت ولایه أمیر المؤمنین علی علیه السّلام بموجب إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ.. قبسا من ولایه اللّه و رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الولایات غیر المعینه من قبل اللّه لیست کذلک،فإنّ هذه الآیه من خلال نظره واسعه تشمل الجمیع،و علیه لیس المقصود من هذا الحدیث أن ینحصر معنی الآیه فی هذا فقط،بل إنّ هذا التّفسیر قبس من مفهوم الآیه الأصلی.

لذلک نجد فی حدیث آخر عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه جعل هذه الآیه تشمل الخوارج الذین خرجوا من ولایه اللّه و دخلوا فی ولایه الشیطان (۲) .

الآیه التّالیه فیها إشاره إجمالیه لما مضی من بحث بشأن التوحید و مجابهه الشرک کما جاء فی لسان إبراهیم:فتقول: وَ تِلْکَ حُجَّتُنا آتَیْناها إِبْراهِیمَ عَلی قَوْمِهِ .

صحیح أنّ تلک الاستدلالات کانت منطقیه توصّل إلیها إبراهیم بقوّه العقل

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۱،ص ۷۴۰.

۲- ۲) -تفسیر البرهان،ج ۱،ص ۵۳۸.

و الإلهـام الفطری غیر أن قوه العقـل و الإلهـام الفطری من اللّه،لـذلک فـإنّ اللّه ینسـبها إلی نفسه و یوقعهـا فی القلوب المسـتعده کقلب إبراهیم علیه السّلام.

و مـن الجـدیر بالملاـحظه أنّ«تلـک»اسـم إشـاره للبعیـد،غیر أنّهـا تسـتعمل أحیانـا للقریب للـدلاله علی أهمیه المشـار إلیه و علو مقامه،مثل ذلک ما جاء فی أوّل سوره البقره: ذٰلِکَ الْکِتٰابُ لاٰ رَیْبَ فِیهِ .

ثـمّ تقـول الآـیه: نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ نَشٰاءُ (۱) و لکیلاـ یخـامر بعضـهم الشـک فی أنّ اللّه یحـابی فی إعطـاء الـدرجات لمن یشاء،تقول:إن اللّه متصف بالحکمه و بالعلم،فلا یمکن أن یرفع درجه من لا یستحق ذلک: إِنَّ رَبَّکَ حَکِیمٌ عَلِیمٌ .

۱- ۱) -أنظر المجلد الثّالث،تفسیر الآیه(۱۴۵)من سوره النساء لمعرفه الفرق بین«الدرجه»و«الدرک».

الآیات [سوره الأنعام (۶): الآیات ۸۴ الی ۸۷]

اشاره

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ کُلاًّ هَدَیْنا وَ نُوحاً هَدَیْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ وَ أَیُّوبَ وَ یُوسُفَ وَ مُوسی وَ هارُونَ وَ کَذلِکَ نَجْزِی اَلْمُحْسِنِینَ (۸۴) وَ زَکَرِیّا وَ یَحْیی وَ عِیسی وَ إِلْیاسَ کُلٌّ مِنَ اَلصّالِحِینَ (۸۵) وَ إِسْماعِیلَ وَ اَلْیَسَعَ وَ یُونُسَ وَ لُوطاً وَ کلاًّ فَضَّلْنا عَلَی اَلْعالَمِینَ (۸۶) وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّیّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اِجْتَبَیْناهُمْ وَ هَدَیْناهُمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۸۷)

التّفسیر

فی هذه الآیات إشاره إلی النعم التی أسبغها اللّه علی إبراهیم،و هی تتمثل فی أبناء صالحین و ذریه لائقه،و هی من النعم الإلهیه العظیمه.

یقول سبحانه: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ و لم تذکر الآیه ابن إبراهیم الآخر إسماعیل،بل ورد اسمه خلال حدیث آیه تالیه،و لعل السبب یعود إلی أنّ ولاده إسحاق من(ساره)العقیم العجوز تعتبر نعمه عجیبه و غیر متوقعه.

ثمّ یبیّن أنّ مکانه هذین لم تکن لمجرّد کونهما ولدی نبی،بل لإشعاع نور الهدایه فی قلبیهما نتیجه التفکیر السلیم و العمل الصالح: کُلاًّ هَدَیْنا .

ثمّ لكيلا يتصور أحد أنه لم يكن هناك من يحمل لواء التوحيد قبل إبراهيم، و أنّ التوحيد بدأ بإبراهيم،يقول: وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ .

إنّنا نعلم أن نوحا هو أوّل أولى العزم من الأنبياء الذين جاؤوا بدين و بشريعه.

فالإشاره إلى مكانه نوح،و هو من أجداد إبراهيم،و الإشاره إلى فريق من الأنبياء من أبنائه و قبيلته،إنّما هى توكيد لمكانه إبراهيم المتميزه من حيث «الوراثه و الأصل»و«الذّريه».

و على أثر ذلك ترد أسماء عدد من الأنبياء من أسره إبراهيم: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ ،ثمّ يبيّن أن منزله هؤلاء ناشئه من أعمالهم الصالحه و هم لذلك ينالون جزاءهم: وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ .

هناك كلام كثير بين المفسّرين بشأن الضمير فى وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ هل يعود إلى إبراهيم،أم إلى نوح؟غير أنّ أغلبهم يرجعه إلى إبراهيم،و الظاهر أنّه لا مجال للشك فى عوده الضمير إلى إبراهيم،لأنّ الكلام يدور على ما وهبه اللّه لإبراهيم، لا لنوح عليهما السّلام،كما أنّ الرّوايات التى سوف نذكرها تؤيد هذا الرأى.

النقطه الوحيده التى حدت ببعض المفسّرين إلى إرجاع الضمير إلى نوح هى ورود ذكر«يونس»و«لوط»فى الآيات التّاليه،إذ المشهور فى التّأريخ أنّ «يونس»لم يكن من أبناء إبراهيم،كما أنّ«لوطا»كان ابن أخى إبراهيم أو ابن أخته.

غير أنّ المؤرخين ليسوا مجمعين على نسب«يونس»،فبعضهم يراه من أسره إبراهيم (۱) و آخرون يرونه من أنبياء بنى إسرائيل (۲) .

ثمّ إنّ الجارى عند المؤرخين أن يحفظوا النسب من جهه الأب،و لكن ما

۱- ۱) -تفسير الآلوسى،ج ۷،ص ۱۸۴.

۲- ۲) -دائره المعارف فريد وجدى،ج ۱۰،ص ۱۰۵۵-فى ماده«يونس».

الـذی یمنـع مـن أن ینتسب«یـونس»من جهه أمّه إلی إبراهیم،کمـا هی الحـال بالنسـبه إلی عیسـی الـذین نقرأ اسـمه فی الآیـات؟ أمّا«لوط»فهو،و إن لم یکن من أبناء إبراهیم،فقـد کان من أسـر ته،فالعرب تطلق لفظه«لأب»علی«العم»،و کـذلک تعتبر ابن الأخ أو ابن الأـخت من«ذریه» المرء.و علی هـذا لیس لنـا أن نتغاضـی من ظـاهر هـذه الآیات فنعیـد الضـمیر إلی نوح،و هو لیس موضوع القول هنا.

فی الآیه الثانیه یرد ذکر زکریا و یحیی و عیسی و الیاس علی أنّهم جمیعا کانوا من الصالحین،أی أنّ مکانتهم المرموقه لیست من باب المجامله الإجباریه،بل هی بسبب أعمالهم الصالحه فی سبیل اللّه: وَ زَکَرِیّا وَ یَحْییٰ وَ عِیسیٰ وَ إِلْیاسَ کُلٌّ مِنَ الصّالِحِینَ .

الآیه الثالثه تـذکر أربعه آخرین من الأنبیاء و القاده الإلهیین،و هم إسـماعیل و الیسع و یونس و لوط الـذین رفعهم ربّهم درجات علی أهل زمانهم: وَ إِسْماعِیلَ وَ الْیَسَعَ وَ یُونُسَ وَ لُوطاً وَ کلاًّ فَضَّلْنا عَلَی الْعالَمِینَ .

لم یتفق المفسّـرون بشـأن اسم«الیسع»فقـد قـال بعض:إنّه اسم عبری أصـله «یوشع»ثمّ أضـیفت إلیه الألف و للام و أبـدلت الشـین سینا،و بعض یری أنّه اسم عربی من الفعل المضارع«یسع»و علی کل حال هو اسم أحد الأنبیاء من نسل إبراهیم.

و فی الآیه الأخیره إشاره عامّه إلی آباء الأنبیاء المذکورین و أبنائهم و إخوانهم ممن لم ترد أسـماؤهم بالتفصیل و هم جمیعا من الصالحین الذین هداهم اللّه: وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّیّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَیْناهُمْ وَ هَدَیْناهُمْ إِلیٰ صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ .

ملاحظات

اشاره

هنا لا بدّ من الإشاره إلى بعض النقاط:

١-أبناء النّبی:

فی هـذه الآیـات اعتبر عیسی من أبنـاء إبراهیم(و باحتمـال من أبناء نوح)مع انّنا نعلم أنّ اتصاله بهما إنّما هو من جهه الأم،و هـذا دلیل علی أنّ سلسـله النسب تتقـدم من جهه الأب و الأم تقـدما متساویا،و لذلک فإنّ الأحفاد من الابن أو البنت هم ذریه المرء و أولاده.

و علی هذا فإنّ أئمّه أهل البیت علیهم السّـلام،و هو جمیعا من أحفاد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من ابنته یعتبرون أبناء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

إنّ جـاهلیه مـا قبـل الإسـلام لم تکن تعترف للمرأه بأیه مکانه أو قیمه،و کان النسب عنـدهم ما اتصل من جهه الأب فقط،غیر أنّ الإسـلام أبطل هذه العاده الجاهلیه،و من المؤسف أنّ بعض أصـحاب الأقلام الذین فی نفوسهم شیء تجاه أئمه أهل البیت علیهم السّلام،سعوا إلی إنکار هذا الموضوع،و حاولوا العوده إلی الجاهلیه بالامتناع عن نسبه أبناء فاطمه إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و رفضوا اطلاق عباره«ابن رسول اللّه»علیهم إحیاء للتقالید الجاهلیه.

هـذا الموضوع نفسه کان قـد عرض للمناقشه علی عهود الأئمّه،فکانوا یجیبونهم بهذه الآیه باعتبارها الدلیل الدامغ و الردّ الحاسـم علی ما یفترون.

من ذلک ما

جاء فی«الکافی»و فی تفسـیر العیاشـی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «و اللّه لقد نسب اللّه عیسی بن مریم فی القرآن إلی إبراهیم علیه السّلام من قبل النساء ثمّ تلا: وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ... إلی آخر الآیتین،و ذکر عیسی.

و فی تفسـیر العیاشی عن أبی الأسود قال:أرسل الحجاج إلی یحیی بن معمر قال:بلغنی أنّک تزعم أنّ الحسن و الحسین من ذریه النّبی تجدونه فی کتاب اللّه، و قد قرأت کتاب اللّه من أوّله إلی آخره فلم أجده،قال:ألیس تقرأ سوره الأنعام:

وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دٰاوُدَ وَ سُلَيْمٰانَ

حتی بلغ يَحْيىٰ وَ عِيسىٰ أليس عيسی من ذريه إبراهيم و ليس له أب؟قال:صدقت.

و فی(عيون أخبار الرضا)فی باب جمل من أخبار موسی بن جعفر عليه السّلام مع هارون الرشيد و مع موسی بن المهدی حديث طويل بينه و بين هارون و فيه... ثمّ قال:كيف قلتم:إنّا ذريّه النّبی،و النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم لم يعقب،و إنّما العقب للذكر،لا للأنثی و أنتم ولد لابنته،و لا يكون لها عقب،فقلت:«أسألك بحق القرابه و القبر و من فيه إلاّ ما اعفيتنی من هذه المسأله»فقال:لا،أو تخبرنی بحجّتكم فيه يا ولد علی،و أنت يا موسی يعسوبهم و إمام زمانهم،كذا أنهی إلی،و ليست أعفيك فی كل ما أسألك عنه حتی تأتينی فيه بحجّه من كتاب اللّه،و أنتم تدعون معشر ولد علی أنّه لا يسقط عنكم منه شیء لا ألف و لا واو،إلاّ تأويله عندكم،و احتججتم بقوله عزّ و جلّ: مٰا فَرَّطْنٰا فِی الْكِتٰابِ مِنْ شَیْءٍ و استغنيتم عن رأی العلماء و قياسهم، فقلت:«تأذن لی فی الجواب؟»قال:هات،فقلت:«أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم بسم اللّه الرحمن الرحيم: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دٰاوُدَ وَ سُلَيْمٰانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ وَ كَذٰلِكَ نَجْزِی الْمُحْسِنِينَ وَ زَكَرِيّٰا وَ يَحْيىٰ وَ عِيسىٰ من أبو عيسی يا أمير المؤمنين؟قال:ليس لعيسی أب،فقلت:«إنّما الحق بذراری الأنبياء من طريق مريم عليها السّلام،و كذلك ألحقنا بذراری النّبی من قبل أمنا فاطمه عليها السّلام» (۱) .

يلفت النظر أنّ بعض المتعصبين من أهل السنه تطرقوا إلی هذا الموضوع عند تفسيرهم لهذه الآيه،منهم الفخر الرازی فی تفسيره حيث استدل بها أن الحسن و الحسين من ذريه النّبی،لأنّ اللّه ذكر عيسی من ذريه إبراهيم مع أنّه يرتبط به عن طريق الأم فقط . (۲)

و صاحب المنار الذی لا يقل تعصبا عن الفخر الرازی يقول:بعد أن ينقل

۱- ۱) -تفسير(نور الثقلين)،ج ۱،ص ۷۴۳.

۲- ۲) -تفسير الفخر الرازی،ج ۱۳،ص ۶۶.

كلام الرازى،أنّ فى هذا الباب

حديثا كره البخارى فى صحيحه عن أبى بكر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال مشيرا إلى الحسن بن على عليه السّلام:«إنّ ابنى هذا سيد» بينما كانت لفظه(ابن)عند عرب الجاهليه لا تطلق على ابن البنت..ثمّ يضيف،لهذا السبب، اعتبر الناس أولاد فاطمه أولاد رسول اللّه و عترته و أهل بيته.

لا شک أنّ أبناء البنت و أبناء الابن هم أبناء المرء و لا فرق بينهما،و لا هى قضيه اختص بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وحده،و ما سبب الاعتراض على هذا إلاّ التعصب و إلاّ التمسك بالأفكار الجاهليه،و لهذا نجد جميع التشريعات الإسلاميه، كالزواج و الإرث،لا تفرق بينهما،إنّ الاستثناء الوحيد فى هذا الباب هو فى موضوع الخمس الذى ورد فى كتب الفقه،حيث جعل لمن تحصل فيه عنوان السياده.

٢-لماذا وردت أسماء الأنبياء فى ثلاث مجموعات فى ثلاث آيات؟

يحتمل بعض المفسّرين أنّ المجموعه الأولى:داود و سليمان و أيوب و يوسف و موسى و هارون هؤلاء السته،كانوا بالإضافه إلى نبوتهم يمسكون بيدهم القياده و زمان الحكم،و لعل ورود كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ إشاره إلى الأعمال الصالحه التى قاموا بها أثناء حكمهم.

أمّا المجموعه الثّانيه:زكريا و يحيى و عيسى و الياس،فهم بالإضافه إلى نبوتهم كانوا معروفين بالزهد و اعتزال الدنيا،فجاء تعبير: كُلٌّ مِنَ الصّٰالِحِينَ بعد ذكر أسمائهم.

و المجموعه الثّالثه:إسماعيل و اليسع و يونس و لوط،فهم يشتركون فى كونهم قاموا برحلات طويله و هاجروا فى سبيل نشر دعوه اللّه،و عباره كلاًّ فَضَّلْنٰا عَلَى الْعٰالَمِينَ (إذ اعتبرنا الإشاره إلى هؤلاء الأربعه،لا لجميع من ورد ذكرهم فى هذه الآيات الثلاث)تعتبر إشاره إلى هجره هؤلاء فى أرجاء الأرض و بين الأقوام المختلفه.

۳-أهميه الأبناء الصالحين فى تعريف شخصيه الإنسان:

و هذا موضوع آخر يستنتج من هذه الآيات،فلإضفاء الأهميه على شخصيه إبراهيم عليه السّلام بطل تحطيم الأصنام،يشير اللّه إلى شخصيات إنسانيه عظيمه كانوا من ذريّته فى العصور المختلفه،و يصفهم بصفات جليله،بحيث نجد من بين مجموع خمسه و عشرين نبيّا ورد ذكرهم فى القرآن،سته عشر منهم من ذريه إبراهيم، و واحدا من أجداده،و هذا فى الواقع درس كبير للمسلمين كافه لكى يدركوا أنّ أبناءهم جزء من كيانهم و شخصيتهم،و أنّ لقضاياهم التربويه و الإنسان أهميه كبيره جدا.

۴-جواب على اعتراض:

لعل الذين يقرءون: وَ مِنْ آبٰائِهِمْ وَ ذُرِّيّٰاتِهِمْ وَ إِخْوٰانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنٰاهُمْ وَ هَدَيْنٰاهُمْ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ يستنتجون أنّ آباء الأنبياء لم يكونوا جميعا من المؤمنين و أنّ منهم من لم يكن موحدا،كما يقول بعض المفسّرين من أهل السنه عند تفسير هذه الآيه،و لكنّنا يجب أن نلاحظ أنّ تعبير اِجْتَبَيْنٰاهُمْ وَ هَدَيْنٰاهُمْ بالقرينه الموجوده فى هذه الآيات تعنى مقام النبوه و حمل الرساله،و بهذا يتهاوى الاعتراض،أى أنّ معنى هذه الآيه سيكون هكذا:إنّنا قد اخترنا بعضا منهم لمقام النبوه،و هذا لا يعنى أنّ الآخرين لم يكونوا موحدين و فى الآيه(۹۰)من هذه السوره وردت لفظه«الهدايه»بمعنى النبوه (۱) .

۱- ۱) -«من آبائهم»جار و مجرور متعلقان أمّا بجمله«فضلنا»الوارده فى الآيه السابقه أو بمحذوف تفسره الجمله التّاليه فيكون الأصل«اجتبينا من آبائهم»ينبغى الالتفات إلى أن«من»فى الآيه تبعيضيه حسب الظاهر.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۸۸ الی ۹۰]

اشاره

ذٰلِكَ هُدَى اَللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۸۸) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحُكْمَ وَ اَلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهٰا هٰؤُلاٰءِ فَقَدْ وَكَّلْنٰا بِهٰا قَوْماً لَيْسُوا بِهٰا بِكٰافِرِينَ (۸۹) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ هَدَى اَللّٰهُ فَبِهُدٰاهُمُ اِقْتَدِهْ قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرىٰ لِلْعٰالَمِينَ (۹۰)

التّفسير

اشاره

ثلاثه امتیازات مهمّه:

بعد ذکر مجموعات الأنبیاء فی الآیات السابقه،تتناول هذه الآیات الخطوط العامّه لحیاتهم،و تبدأ القول: ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبٰادِهِ .

أی أنّ هؤلاء علی الرغم من صلاحهم و استرشادهم بقوه العقل و الفکر فی سیرهم الحثیث علی طریق الهدایه،شملتهم عنایه الهدایه الإلهیه،و أخذت بأیدیهم و إلّا فاحتمال انحرافهم و انحراف کل انسان موجود دائما.

و لکیلا یحسب البعض أنّ هؤلاء قد أجبروا علی السیر فی هذا الطریق،أو

يظن أنّ اللّه ينظر إلى هؤلاء نظره خاصّه و استثنائيه دونما سبب،يقول القرآن عنهم: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ .

فهم إذن مشمولون بهذا القانون الإلهى الذى يسرى على غيرهم بغير محاباه.

الآيه التّاليه تشير إلى ثلاثه امتيازات مهمّه هى أساس جميع امتيازات الأنبياء،و هى قوله: أُولٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّهَ .

و لا يعنى هذا أنّهم جميعا كانوا من أصحاب الكتب السماويه،و لكن الكلام يدور على المجموع،فنسب الكتاب إلى المجموع أيضا،و هذا كقولنا:الكتاب الفلانى ذكر العلماء و كتبهم،أى كتب من له تأليف منهم.

أمّا المقصود من«الحكم»فثمّه احتمالات ثلاثه:

١-الحكم بمعنى«العقل و الإدراك»،أى:إنّنا فضلا عن إنزال كتاب سماوى عليهم فقد وهبناهم القدره على التعقل و الفهم،إذ أن وجود الكتاب بغير وجود القدره على فهمه فهما كاملا عميقا لا جدوى فيه.

٢-بمعنى«القضاء»أى أنّهم باستنباط القوانين الإلهيه من تلك الكتب السماويه كانوا قادرين على أن يقضوا بين الناس بامتلاكهم لجميع شروط القاضى العادل.

٣-بمعنى«الحكومه»و الإمساك بزمان الإداره،بالإضافه إلى مقام النّبوه، إنّ الدليل على المعانى المذكوره-بالإضافه إلى المعنى اللغوى الذى ينطبق عليها -هو أنّ كلمه«الحكم»قد وردت بهذه المعانى نفسها أيضا فى آيات أخرى من القرآن (1) .

و ليس ثمّه ما يمنع من أنّ يشمل استعمال الكلمه فى هذه الآيه المعانى الثلاثه مجتمعه،فالحكم أصلا-كما يقول«الراغب»فى«مفرداته»هو المنع،

١- ١) -جاءت فى الآيه(١٢)من سوره لقمان بمعنى العلم و الفهم،و فى الآيه(٢٢)من سوره ص بمعنى القضاء،و فى الآيه(٢٦) من سوره الكهف بمعنى الحكومه.

و من ذلک العقل الـذی یمنع من وقوع الأخطاء و المخالفات،و کذلک القضاء الصـحیح یمنع من وقوع الظلم،و الحکومه العادله تقف بوجه الحکومات غیر العادله،فهی قد استعملت فی المعانی الثلاثه.

قلنا من قبل إنّ جمیع الأنبیاء لم یکونوا یحظون بهذه الامتیازات کلها، و إسناد حکم إلی الجمع لا یعنی شموله جمیع أفراد ذلک الجمع،بل قد یکون لبعض أفراده،و من ذلک مسأله إیتاء الکتاب لهؤلاء الأنبیاء.

ثمّ یقول:لئن رفضت هذه الجماعه(أی المشـرکون و أهل مکّه)تلک الحقائق،فإن دعوتک لن تبقی بغیر اسـتجابه،إذ إنّنا قد أمرنا جمعا آخر لا بقبولها فحسب،بل و بالحفاظ علیها فهم لا یسلکون طریق الکفر أبدا،بل یتبعون الحقّ:

فَإِنْ یَکْفُرْ بِهٰا هٰؤُلاٰءِ فَقَدْ وَکَّلْنٰا بِهٰا قَوْماً لَیْسُوا بِهٰا بِکٰافِرِینَ

.

جاء فی تفسـیر«المنار»و تفسـیر«روح المعانی»عن بعض المفسّرین أنّ المقصود بالقوم هم الفرس،و قد أسرعوا فی قبول الإسلام و جاهدوا فی سبیل نشره،و ظهر فیهم العلماء فی شتی العلوم و الفنون الإسلامیه و ألفوا الکثیر من الکتب (۱) .

الآیه الأـخیره تجعل من منهاج هؤلاء الأنبیاء العظام قـدوه رفیعه للهـدایه تعرض علی رسول لاسـلام صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فتقول له: أُولٰئِکَ الَّذِینَ هَدَی اللّٰهُ فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ (۲) .

تؤکّد هذه الآیه مرّه أخری علی أن أصول الدعوه التی قام بها الأنبیاء

---

۱ - ۱) -یحتمـل أیضـا أن یکون المراد من«هؤلاـء»هم الأنبیـاء أنفسـهم،أی إذا افترضـنا المسـتحیل،و قلنا أنّ هؤلاء الأنبیاء العظام تخلوا عن أداء الرسـاله الإلـهیه،فـإنّ الرساله کانت تواصل سیرها علی أیـدی قوم آخرین،هنالک تعبیرات مماثله فی القرآن،کما جاء فی الآیه(۶۵)من سوره الزمر لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ .

۲- ۲) -الهاء فی«اقتده»لیست ضمیرا،بل هی هاء السکت التی تلحق الکلمه المتحرکه عند الوقف،مثل همزه الوصل التی یؤتی بها إذا کان حرف الابتـداء فی الکلمه ساکنا،و هی تسـقط عنـد الوصل،مثل هاء السـکت غیر أنّ هـذه الهاء بقیت فی الکتابه القرآنیه من باب الاحتیاط و ارتوی الوقف هنا لکی تظهر هاء السکت.

واحده،بالرغم من وجود بعض الاختلافات الخاصّه و الخصائص اللازمه التى تقتضيها الحاجه فى كل زمان و مكان،و كل دين تال يكون أكمل من الدين السابق.بحيث تستمر مسيره الدروس العلميه و التربويه حتى تصل إلى المرحله النهايه،أى الإسلام.

و لكن ما المقصود من أمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يهتدى أولئك الأنبياء؟ يقول بعض المفسّرين:إنّ المقصود قد يكون هو الصبر و قوه التحمل و الثبات فى مواجهه المشاكل،و يقول بعض آخر إنّه«التوحيد و إبلاغ الرساله»و لكن يبدو أنّ للهدايه معنى واسعا يشمل التوحيد و سائر الأصول العقائديه،كما يشمل الصبر و الثبات و سائر الأصول الأخلاقيه و التربويه.

يتّضح ممّا سبق أنّ هذه الآيه لا تتعارض مع القول بأنّ الإسلام ناسخ الأديان و الشرائع السابقه،إذ أنّ النسخ إنّما يشمل جانبا من أحكام تلك الشرائع لا الأصول العامّه للدعوه.

ثمّ يؤمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول للنّاس إنّه مثل سائر الأنبياء لا يتقاضى أجرا لقاء عمليه تبليغ الرساله: قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً .

ليس الاقتداء بالأنبياء و بسنتهم الخالده هو وحده الذى يوجب علىّ عدم طلب الأجر،بل أنّ هذه الدين الطاهر الذى جئتكم به وديعه إلهيه أضعها بين أيديكم،و طلب الأجر على ذلك لا معنى له.

ثمّ إنّ هذا القرآن و هذه الرساله و الهدايه إن هى إلاّ إيقاظ و توعيه للناس جميعا: إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرىٰ لِلْعٰالَمِينَ .

إنّ النعم العامّه الشامله مثل نور الشمس و الهواء و الأمطار هى أمور عامّه و عالميه،لاتباع و لا تشترى،و لا أجر يعطى لقاءها،هذه الهدايه أو الرساله ليست خاصّه و مقصوره على بعض دون بعض حتى يمكن طلب الأجر عليها،(ممّا قيل فى تفسير هذه العباره يتضح الترابط بينها و بين عبارات الآيه الأخرى،و بين ما

سبقها من آيات).

كما يتّضح من هذه الآيه الأخيره أنّ الدين الإسلامى ليس قوميا و لا إقليميا، و إنّما هو دين عالمى عام.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۹۱]

اشاره

وَ مٰا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قٰالُوا مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَیْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ اَلْکِتٰابَ اَلَّذِی جٰاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَ هُدىً لِلنّٰاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرٰاطِیسَ تُبْدُونَهٰا وَ تُخْفُونَ کَثِیراً وَ عُلِّمْتُمْ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لاٰ آبٰاؤُکُمْ قُلِ اَللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ یَلْعَبُونَ (۹۱)

سبب النّزول

اشاره

الغافلون عن اللّه:

روی عن ابن عباس أنّ جمعا من الیهود قالوا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:یا محمّد أ حقا أنزل اللّه علیک کتابا؟فقال:نعم،فقالوا:قسما باللّه إنّه لم ینزل علیک کتابا من السماء (۱) .

هنالک أقوال أخری فی سبب نزول هذه الآیه،و لکنّنا سنعرف فیما بعد أنّ ما قلناه أقرب و أنسب.

۱- ۱) -تفاسیر مجمع البیان و أبی الفتوح الرازی و المنار فی تفسیر الآیه.

التّفسير

يختلف المفسّرون حول كون هذه الآيه وارده بشأن اليهود أو المشركين، و لمّا لم تكن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مباحثات مع اليهود فى مكّه،بل بدأت فى المدينه، و هذا السوره مكّيه،لذلك يرى بعضهم أنّ هذه الآيه قد نزلت فى المدينه،إلاّ أنّها وضعت فى هذه السّوره المكيه بأمر من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لهذا فى القرآن ما يشابهه.

لاتضاح الحقيقه يجب أن نتعرف أوّلا على تفسير الآيه الإجمالى،ثمّ نبحث عمن تتحدث عنه الآيه،و عمّا تستهدفه.

فى البدايه تقول الآيه:إنّهم لم يعرفوا اللّه معرفه صحيحه و أنكروا نزول كتاب سماوى على أحد: وَ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قٰالُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ .

فيأمر اللّه رسوله أن قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتٰابَ الَّذِي جٰاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَ هُدىً لِلنّٰاسِ .

ذلك الكتاب الذى جعلتموه صحائف متناثره،تظهرون منه ما ينفعكم و تخفون ما تظنونه يضرّكم: تَجْعَلُونَهُ قَرٰاطِيسَ تُبْدُونَهٰا وَ تُخْفُونَ كَثِيراً .

إنّكم تتعلمون من هذا الكتاب السماوى أمورا كثيره لم تكونوا أنتم و لا ءاباؤكم تعلمون عنها شيئا: وَ عُلِّمْتُمْ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لاٰ آبٰاؤُكُمْ .

و فى ختام الآيه يؤمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يذكر اللّه و أن يترك أولئك فى أباطيلهم و عنادهم و لعبهم: قُلِ اللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

إذا كانت هذه الآيه قد نزلت فى المدينه و كان اليهود هم المعنيين بها،يكون المعنى أنّ جمعا من اليهود كانوا ينكرون نزول كتاب سماوى على الأنبياء.

و لكن هل يمكن أن ينكر اليهود-اتباع التّوراه-نزول كتاب سماوى؟نعم، و سيزول عجبك إذا علمت المسأله التّاليه:لو أمعنا النظر فى العهد الجديد

(الإنجيل)و العهد القديم(التّوراه و الكتب الملحقه بها)نجد أنّ كل هذه الكتب تفتقر إلى المسحه السماويه،أى أنّها ليست خطابا موجها من اللّه إلى البشر،بل إنّها مقولات وردت على ألسنه تلامذه موسى و المسيح عليهما السّلام و أتباعهما على شكل سرد لحوادث تاريخيه و سير،و الظاهر أنّ اليهود و المسيحيين اليوم لا ينكرون ذلك،إذ أنّ حكايه موت موسى و عيسى و حوادث كثيره أخرى وقعت بعدهما وردت فى هذه الكتب،لا باعتبارها تنبؤات عن المستقبل،بل سردا لحوادث ماضيه،فهل يمكن لكتب مثل هذه أن تكون قد نزلت على موسى و عيسى؟! كل ما فى الأمر أنّ المسيحيين و اليهود يعتقدون أنّ هذه الكتب قد كتبت بأيدى أناس عندهم أخبار عن الوحى،فاعتبروها كتبا مقدسه خاليه من الخطأ و يمكن الاعتماد عليها.

بناء على هذا يتضح لنا لماذا كان هؤلاء ينتابهم العجب لدى سماعهم أسلوب القرآن بشكل خطاب من اللّه إلى النّبى و إلى عباد اللّه؟و كما قرأنا فى سبب نزول هذه الآيه فإنّهم قد انتابهم العجب فسألوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن كان اللّه قد أنزل عليه-حقا-كتاب،ثمّ أنكروا هذا الأمر كليا و نفوا أن يكون أى كتاب قد نزل على أحد،حتى على موسى.

غير أنّ اللّه يردّ عليهم قائلا:إنّكم-أنفسكم-تعتقدون أن ألواحا و مواضيع قد نزلت على موسى،أى إنّ الكتاب الذى بين أيديكم و ان لم يكن كتابا سماويا إلاّ أنّكم تؤمنون-على الأقل-بأنّ شيئا مثل هذا قد نزل من قبل اللّه،و أنتم تظهرون قسما منه و تخفون كثيرا منه:و على ذلك فلا يبقى مجال للشك فى إمكان إنكار اليهود نزول كتاب سماوى.

أمّا إذا كانت الآيه كسائر آيات هذه السّوره تخصّ المشركين،فيكون المعنى أنّهم أنكروا نزول أى كتاب سماوى لانكار و نفى دعوه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لكن اللّه يبيّن

لهم منطقيا أنّهم لا يستطيعون إنكار ذلك كليا بالنظر لنزول التّوراه على موسى، و أنّ المشركين-و إن لم يدينوا بدين اليهود-كانوا يعتبرون الأنبياء السابقين و إبراهيم،و موسى أيضا على أقوى احتمال-أنبياء فى عصورهم و أقاليمهم، لذلك فهم عند ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لجأوا إلى أهل الكتاب يبحثون عندهم فى كتبهم عن أمارات و دلائل تتنبأ بظهور هذا النّبى،فلو لم يكونوا يؤمنون بأنّ تلك الكتب نازله من السماء،لما لجأوا إليها يطلبون ما طلبوا،لذلك فهم بعد أن سألوا اليهود،أظهروا ما كانت فيه مصلحتهم،و أخفوا ما عداه(كعلامات ظهور النّبى الجديد المذكوره فى تلك الكتب)،و على هذا يمكن تطبيق هذه الآيه على أقوال مشركى مكّه أيضا.

لكن التّفسير الأوّل أقرب إلى سياق الآيه و سبب النّزول و ما فيها من ضمائر.

ملاحظات:

هنا لا بدّ من الإشاره إلى بضع نقاط:

۱-«قراطيس»جمع«قرطاس»من أصل يونانى حسب قول بعضهم،و هو «ما يكتب فيه» كما يقول«الراغب»فى«مفرداته»و بناء على ذلك فإن الورق العادى و جلود الحيوانات و الأشجار و أمثالها التى كانت تستخدم فى الكتابه قديما،تنضوى تحت هذه الكلمه.

۲-قد يسأل سائل:لماذا تذم الآيه اليهود كتابتهم الوحى الإلهى على القراطيس،و هل فى تلك ما يوجب الذم؟ و جوابا على ذلك نقول:إنّ الذم لم يكن لهذا السبب،إنّما السبب هو أنّهم كتبوه على قراطيس متفرقه بحيث يمكنهم أن يظهروا منه ما تقتضيه منافعهم،و أن يخفوا ما يؤدى إلى ضررهم.

۳-إنّ عباره وَ مٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ فى الواقع إشاره إلى أنّ من يعرف

اللّه معرفه صحیحه لا یمکن أن ینکر إرساله الهداه و المرشدین و معهم الکتب السماویه إلی البشر،لأنّ حکمه اللّه توجب:

أوّلا:أن یعین الإنسان فی مسیرته الملیئه بالمنعطفات لبلوغ هدفه التکاملی الذی خلق من أجله و إلاّ انتقض الهدف من الخلقه،و هذا الهدف لا یمکن تحقیقه بغیر الوحی و الکتب السماویه و التعالیم السلیمه من کل خطأ و سهو.

ثانیا:کیف یمکن لربوبیه اللّه ذات الرحمه العامّه و الخاصّه أن تترک الإنسان وحیدا فی طریق سعادته الملیء بمختلف الموانع و العقبات و المتاهات،فلا یرسل إلیه قائدا و مرشدا یحمل التعالیم الشامله للأخذ بیده و توجیهه،و علیه فإن حکمته و رحمته توجبان إرسال الرسل و إنزال الکتب السماویه.

لا شک أن معرفه حقیقه الذات الالهیه المقدسه و کنه صفاته غیر ممکنه، و هذه الآیه لا تقصد هذا الحدّ من معرفه اللّه،و إنّما ترید أن تقول:لو حصل الإنسان علی المقدار المیسور من معرفه اللّه فلا یبقی شک بأن مثل هذا الربّ لا یمکن أن یترک عباده بدون هاد و دلیل و کتاب سماوی.

ص: ۳۷۷

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۹۲]

اشاره

وَ هٰذٰا كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ مُبٰارَكٌ مُصَدِّقُ اَلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ اَلْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ يُحٰافِظُونَ (۹۲)

التّفسیر

تعقیبا علی البحث الذی دار فی الآیات السابقه حول کتاب الیهود السماوی، تشیر هذه الآیه إلی القرآن باعتباره کتابا سماویا آخر،و الواقع أنّ ذکر التّوراه مقدمه لذکر القرآن لإزاله کل عجب و تخوف من نزول کتاب سماوی علی فرد من البشر،فتبدأ بالقول: وَ هٰذٰا كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ و هو کتاب «مبارک»لأنّه مصدر کل خیر و برکه و صلاح و تقدم،ثمّ إنّه یؤکّد الکتب التی نزلت قبله: مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ،و المقصود من أنّ القرآن یصدق الکتب التی بین یدیه هو أنّ جمیع الإشارات و الإمارات التی وردت فیها تنطبق علیه.

و هکذا نجد علامتین علی أحقّیه القرآن وردتا فی عبارتین:الأولی:وجود علامات فی الکتب السابقه تخبر عنه،و الثّانیه:محتوی القرآن نفسه الذی یضم کل خیر و برکه و سعاده،و بناء علی ذلک فصدق القرآن یتجلی فی محتواه من جهه،و فی المستندات التّأریخیه من جهه أخری.

ص: ۳۷۸

ثمّ يبيّن القرآن هدف نزوله و هو توجيه الإنذار و التحذير لأم القرى(مكّه) و الساكنين حولها و تنبيههم إلى مسئولياتهم و واجباتهم: وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَ مَنْ حَوْلَهٰا (۱) .

«الإنذار»اخبار فيه تخويف من ترك الواجبات و المسؤوليات و هذا من أهم أهداف القرآن،خاصّه بالنسبه للطغاه المعاندين.

و فى الختام تقرر الآيه أنّ الذين يعتقدون بيوم القيامه،يوم الحساب و الجزاء، سيصدقون بهذا الكتاب،و يؤدون فريضه الصلاه و لا يفرطون فيها: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلىٰ صَلاٰتِهِمْ يُحٰافِظُونَ .

بحوث

اشاره

نلفت الانتباه هنا إلى النقاط التّاليه:

۱-الإسلام دين عالمى

تبيّن آيات القرآن المختلفه بما لا يدع مجالا للشك أنّ الإسلام دين عالمى، من ذلك: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ (۲) و إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ (۳) .و قُلْ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً (۴) و غيرها كثير فى القرآن،و لكلّها تؤكّد هذه الحقيقه،و إنّه لمما يثير الانتباه أنّ معظم هذه الآيات قد نزلت فى مكّه يوم لم يكن الإسلام قد تخطى حدود تلك المدينه.

و لكن فيما يخص الآيه التى نحن بصددها،يظهر لنا السؤال التالى:إنّ الآيه

---

۱ - ۱) -يختلف المفسّرون فى الجمله التى يمكن أن نعطف عليها جمله«و لتنذر»و لعلها معطوفه على جمله محذوفه بمعنى «لتبشر»أو مثلها.

۲- ۲) -الأنعام،۱۹.

۳- ۳) -الأنعام،۹۰.

۴- ۴) -الأعراف،۱۵۸.

توجه الإنذار و الهدايه إلی ام القری و من حولها،فکیف ینسجم هذا مع القول بأنّ الإسلام عالمی؟ فی الحقیقه أنّ هذا الاعتراض جاء أیضا علی لسان الیهود و غیرهم من أتباع الأدیان الأخری ظانین أنّهم قد أصابوا من عالمیه الإسلام مقتلا،باعتبار أنّ الآیه تحدد مکانه بمنطقه خاصّه هی مکّه و أطرافها (۱) .

الجواب:

یتّضح الجواب من هذا الاعتراض بالانتباه إلی نقطتین،بحیث ندرک أنّ هذه الآیه،فضلا عن کونها لا تتعارض مع عالمیه الإسلام،هی واحد من أدله عالمیته أیضا:

القریه بلغه القرآن اسم لکل موضع یجتمع فیه الناس،سواء کان مدینه کبیره أم قریه صغیره،ففی سوره یوسف-مثلا-جاء علی لسان اخوه یوسف یخاطبون أباهم: وَ سْئَلِ الْقَرْیَهَ الَّتِی کُنّٰا فِیهٰا (۲) و نحن نعلم أنّهم کانوا قد رجعوا لتوهم من عاصمه مصر حیث حجز عزیز مصر أخاهم(بنیامین)کذلک نقرأ: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُریٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بَرَکٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ (۳) .بدیهی أنّ المقصود هنا لیس القری فی الأریاف،بل هو کل منطقه مسکونه فی العالم.

و من جهه أخری هناک روایات عدیده تقول:إنّ الیابسه قد انتشرت من تحت الکعبه،و هو ما أطلق علیه اسم«دحو الأرض».

کما أنّنا نعلم أنّه فی البدایه هطلت أمطار غزیره فغطّی الماء الکره الأرضیه برمتها،ثمّ غاض الماء شیئا فشیئا و استقر فی المنخفضات،و ظهرت الیابسه من

۱- ۱) -ورد اعتراض بعض المستشرقین بهذا الشأن ذکره صاحب المنار،ج ۷،ص ۶۲۱،و فی تفسیر فی ظلال القرآن،ج ۳،ص ۳۰۵.

۲- ۲) -یوسف،۸۲.

۳- ۳) -الأعراف،۹۶.

تحت الماء،و كانت مكّه أوّل نقطه يابسه ظهرت من تحت الماء،حسب الأحاديث الإسلاميه.

و كون مكّه ليست أعلى مكـان على الكره الأرضـيه فى الوقت الحاضـر،لاـ يتعـارض أبـدا مع هـذا القول،لأـن مئات الملايين من السنين تفصلنا اليوم عن ذاك الزمان،و قد حدثت خلال ذلك تغيرات جغرافيه بدلت وجه الأرض كليا،فبعض الجبال هبطت إلى أعماق البحار،و بعض أعماق البحار ارتفع فصار جبلا،و هذا ثابت فى علم التضاريس الأرضيه و الجغرافيه الطبيعيه.

أمّا كلمه«أم»فتعنى-كما سبق أن قلنا-الأصل و الأساس و المبدأ لكل شيء.

من كل هذا يتبيّن أنه إذا أطلق مكّه اسم«أم القرى»فذلك يستند إلى أنّها كانت مبدأ ظهور اليابسه على الأرض،«و من حولها»أى جميع الناس الذين يسكنون الأرض برمتها.

و هذا ما تؤيده الآيات الأخرى التى تؤكّد عالميه الإسلام،و كذلك الرسائل الكثيره التى بعث بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى رؤساء العالم،مثل كسرى و قيصر،و قد جاء شرح ذلك فى المجلد الثانى من هذا التّفسير.

٢-العلاقه بين الإيمان بالقرآن و الإيمان بالآخره

تبيّن هـذه الآيه:إنّ الـذين يؤمنون بالآخره يؤمنون أيضا بالقرآن،أى أنّهم يعلمون أن هـذه الـدنيا ما هى إلاّ مقدمه لعالم الآخره،و إنّها أشـبه بالمزرعه أو المـدرسه أو المتجر،و الوصول إلى ذلك الهـدف الرفيع و الاسـتعداد لـذلك اليوم لا يكون إلاّ عن طريق مجموعه من القوانين و المناهج و الدساتير و إرسال الأنبياء.

بعباره أخرى،إنّ اللّه قـد أرسل الإنسان إلى هـذه الحياه ليطوى مسـيرته التكامليه و ليصل إلى مسـتقره الأصـلى فى العالم الآخر،و هذا الغرض ينتقض إذا

لـم يرسـل إليه الأنبيـاء و الكتب السـماويه،من هنـا يمكن أن نسـتنتج من الإيمـان بـاللّه و المعـاد،الإيمـان بنبـوه الأنبيـاء و الكتب السماويه(تأمل بدقّه).

۳-أهميه الصّلاه

نلاحظ فی هـذه الآيه أنّها تشـير إلی الصّـلاه من بين جميع الفرائض الـدينيه، و نعلم أنّ الصّـلاه هی مظهر الارتباط باللّه،و لذلک كانت أرفع من جميع العبادات منزله،و يری بعضـهم أنّه عنـد نزول هـذه الآيه كانت العباده الوحيده المفروضه حتی ذلک الوقت هی الصّلاه (۱) .

۱- ۱) -تفسير المنار،ج ۷،ص ۶۲۲.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۹۳]

اشاره

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً أَوْ قٰالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَ مَنْ قٰالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ اَلظّٰالِمُونَ فِي غَمَرٰاتِ اَلْمَوْتِ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ بٰاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ اَلْهُونِ بِمٰا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اَللّٰهِ غَيْرَ اَلْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آيٰاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (۹۳)

سبب النّزول

ثمّه روایات متعدده فی سبب نزول هذه الآیه وردت فی کتب الحدیث و التّفسیر،من ذلک أنّ الآیه نزلت بشأن شخص یسمی«عبد اللّه بن سعد»من کتاب الوحی،ثمّ خان فطرده رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فراح یزعم أنّه قادر علی قول مثل آیات القرآن،یقول جمع آخر من المفسّرین أنّ الآیه،أو قسما منها،نزلت بحق «مسیلمه الکذاب»الذی ادعی النبوّه،و لکن بالنظر لأنّ مسیلمه الکذاب ظهر فی أواخر حیاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و هذه السوره مکّیه،فإنّ مؤیدی هذا التّفسیر یقولون:إنّ هذه الآیه نزلت فی المدینه،ثمّ أدخلت ضمن هذه السوره بأمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

على كـل حـال هـذه الآيه،مثل سائر آيات القرآن،نزلت فى ظروف خاصّه، و هى ذات محتوى عام يشـمل كل من ادعى النبوه و أمثالهم.

التّفسير

فى الآيات السابقه مرّت الإشاره إلى مزاعم اليهود الـذين أنكروا نزول أى كتاب سـماوى على أحـد،و فى هذه الآيه يدور الكلام على اشخاص آخرين يقفون على الطرف المعاكس تماما لأولئك،فيزعمون كذبا أن الوحى ينزل عليهم.

و تتناول الآيه ثلاث جماعات من هؤلاء بالبحث،ففى البدايه تقول: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً .

و الجمـاعه الثّانيه هم الـذين يـدعون النّبوه و نزول الوحى عليهم،فلا هم أنبياء، و لا نزل عليهم وحى: أَوْ قٰالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ .

و الجماعه الثّالثه هم الذين أنكروا نبوه نبى الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم،أو زعموا ساخرين أنّهم يستطيعون أنّ يأتوا بمثل آيات القرآن،و هم فى ذلک كاذبون و لا قدره لهم على ذلک: وَ مَنْ قٰالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ .

نعم،هؤلاء كلّهم ظـالمون،بل أظلم الظالمين،لأنّهم يغلقون طريق الحق بوجه عباد اللّه و يضـلونهم فى متاهات الضـلال حائرين،و يحاربون قاده الحق، فهم ضالون مضلون،فمن أظلم ممن يدعى لنفسه القياده الإلهيه و ليست لديه صلاحيه مثل هذا المقام.

على الرغم من أنّ الآيه تخصّ أدعياء النبوه و الوحى،إلاّ أنّ روحها تشمل كل من يدعى كذبا لنفسه مكانه ليس أهلا لها.

ثمّ تبيّن العقاب الأليم الذى ينتظر أمثال هؤلاء فتقول: وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ

ص :٣٨۴

الظّالِمُونَ فِی غَمَرٰاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلاٰئِکَهُ بٰاسِطُوا أَیْدِیهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَکُمُ

(۱)

أی لو أنک-أیّها النّبی-رأیت هؤلاء الظالمین و هم یمرون بشدائد الموت و النزع الأخیر،و ملائکه قبض الأرواح ما دین أیدیهم نحوهم و یقولون لهم:هیا أخرجوا أرواحکم،لأدرکت العذاب الذی ینزل بهم.

عندئذ تخبرهم ملائکه العذاب بأنّهم سینالون الیوم عذابا مذلا لأمرین:

الأوّل:إنّهم کذبوا علی اللّه،و الآخر، إنّهم لم ینصاعوا لآیاته: اَلْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ بِمٰا کُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَی اللّهِ غَیْرَ الْحَقِّ وَ کُنْتُمْ عَنْ آیٰاتِهِ تَسْتَکْبِرُونَ .

ملاحظات:

ینبغی هنا ملاحظه النقاط التّالیه:

۱-تعتبر الآیه أدعیاء النبوه و القاده المزیفین من أشد الظالمین،بل لا ظلم أشدّ من ظلمهم،لأنّهم یسرقون أفکار الناس و یهدمون عقائدهم و یغلقون بوجوههم أبواب السعاده و یحیلونهم إلی مستعمرین فکریا لهم.

۲-جمله بٰاسِطُوا أَیْدِیهِمْ قد تعنی أنّ ملائکه قبض الأرواح تبسط أیدیها إلیهم استعدادا لقبض أرواحهم،و قد تعنی بسط أیدیهم للبدء بتعذیبهم.

۳- أَخْرِجُوا أَنْفُسَکُمُ تعنی فی الواقع ضربا من التحقیر تبدیه الملائکه نحو هؤلاء الظالمین،و إلاّ فإنّ إخراج الروح لیس من عمل هؤلاء،بل هو من واجب الملائکه،مثل ما یقال للمجرم عند إعدامه:مت!و لعل هذا التحقیر یقابل تحقیرهم لآیات اللّه و أنبیائه و عباده.

۱- ۱) -«الغمرات»جمع غمره(علی وزن ضربه)،و أصل الغمر إزاله أثر الشیء،ثمّ استعملت للماء الکثیر الذی لیستروجه الشیء تماما،کما تطلق علی الشدائد و الصعاب التی تغمر المرء.

و فی الوقت نفسه تعتبر هـذه الآیه دلیلا آخر علی استقلال الروح و انفصالها عن الجسـد،کما یسـتفاد من الآیه أنّ تعـذیب هؤلاء یبدأ منذ لحظه قبض أرواحهم.

ص :386

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۹۴]

اشاره

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونٰا فُرٰادیٰ کَمٰا خَلَقْنٰاکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ تَرَکْتُمْ مٰا خَوَّلْنٰاکُمْ وَرٰاءَ ظُهُورِکُمْ وَ مٰا نَریٰ مَعَکُمْ شُفَعٰاءَکُمُ اَلَّذِینَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِیکُمْ شُرَکٰاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَیْنَکُمْ وَ ضَلَّ عَنْکُمْ مٰا کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۹۴)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر مجمع البیان و تفسیر الطبری و تفسیر الآلوسی إنّ مشرکا اسمه النضر بن الحارث قال:إنّ اللآت و العزی(و هما من أصنام العرب المشهوره) سوف یشفعان لی یوم القیامه،فنزلت هذه الآیه جوابا له و لأمثاله.

التّفسیر

اشاره

الضّالون:

أشارت الآیه السابقه إلی أحوال الظالمین و هم علی شفا الموت،هنا فی هذه الآیه تعتبر عن خطاب اللّه لهم عند الموت أو عند الورود إلی ساحه یوم القیامه.

فیبدأ بالقول بأنّهم یأتون یوم القیامه منفردین کنا خلقوا منفردین: وَ لَقَدْ

جِئْتُمُونٰا فُرٰادیٰ کَمٰا خَلَقْنٰاکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ

.

و الأموال التی وهبناها لکم و کنتم تستندون إلیها فی حیاتکم،قد خلفتموها وراءکم،و جئتم صفر الأیدی: وَ تَرَکْتُمْ مٰا خَوَّلْنٰاکُمْ وَرٰاءَ ظُهُورِکُمْ (۱) .

و لا نری معکم تلک الأصنام التی قلتم إنّها سوف تشفع لکم و ظننتم أنّها شریکه فی تعیین مصائرکم وَ مٰا نَریٰ مَعَکُمْ شُفَعٰاءَکُمُ الَّذِینَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِیکُمْ شُرَکٰاءُ .

و لکن الواقع أنّ جمعکم قد تبدد،و تقطعت جمیع الروابط بینکم: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَیْنَکُمْ .

و کل ما ظننتموه و ما کنتم تستندون إلیه قد تلاشی و ضاع: وَ ضَلَّ عَنْکُمْ مٰا کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

کان المشرکون العرب یستندون فی حیاتهم إلی أشیاء ثلاثه:القبیله أو العشیره التی کانوا ینتمون إلیها،و الأموال التی جمعوها لأنفسهم،و الأصنام التی اعتبروها شریکه للّه فی تقریر مصیر الإنسان و شفیعه لهم عند اللّه،و الآیه فی کل جمله من جملها الثلاث تشیر إلی واحده من هذه الأمور،و إلی أنّها عند الموت تودعه و تترکه وحیدا فریدا.

هنا ینبغی الالتفات إلی نقطتین:

۱-نظرا لمجیء هذه الآیه فی أعقاب الآیه السابقه التی تحدثت عن قیام الملائکه بقبض الأرواح عند الموت،و کذلک بالنظر إلی عباره: وَ تَرَکْتُمْ مٰا خَوَّلْنٰاکُمْ وَرٰاءَ ظُهُورِکُمْ ،نفهم أنّ هذا الکلام یقال لهم عند الموت أیضا،و لکن من جانب اللّه،غیر أنّ بعض الرّوایات تقول:إنّ هذا الخطاب یوجه إلیهم یوم القیامه،علی أی حال فإنّ الهدف لا یختلف فی الحالین.

۱- ۱) -«خولناکم»من«الخول»و هو إعطاء ما یحتاج إلی التعهد و التدبیر و الإداره،و هو النعم التی یسبغها اللّه تعالی علی عباده.

۲-على الرغم من نزول هذه الآيه بشأن مشركى العرب،فهى ليست بالطبع مقصوره عليهم.

ففى ذلك اليوم تنفصم العرى و تنفصل عن البشر كل الانشدادات الماديه و المعبودات الخياليه المصطنعه و جميع ما اصطنعوه لأنفسهم فى الحياه الدنيا ليكون سندا لهم يستعينون به فى يوم بؤسهم لا- يبقى سوى الشخص و عمله، و يزول كل ما عدا ذلك،أو يضل عنهم بحسب تعبير القرآن و هو تعبير جميل يوحى بأنّ الشركاء سيكونون إلى درجه من الصغر و الحقاره و الضياع أنّهم لا يروا بالعين.

ص :۳۸۹

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۹۵ الی ۹۶]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ فٰالِقُ اَلْحَبِّ وَ اَلنَّوىٰ يُخْرِجُ اَلْحَيَّ مِنَ اَلْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ اَلْمَيِّتِ مِنَ اَلْحَيِّ ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ (۹۵) فٰالِقُ اَلْإِصْبٰاحِ وَ جَعَلَ اَللَّيْلَ سَكَناً وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ حُسْبٰاناً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ اَلْعَزِيزِ اَلْعَلِيمِ (۹۶)

التّفسیر

اشاره

فالق الإصباح:

مرّه أخری یوجه القرآن الخطاب إلی المشرکین،و یشرح لهم دلائل التوحید فی عبارات جذابه و فی نماذج حیه من أسرار الکون و نظام الخلق و عجائبه.

فی الآیه الأولی یشیر إلی ثلاثه أنواع من عجائب الأرض،و فی الآیه الثّانیه یشیر إلی ثلاثه من الظّواهر السماویه.

یقول القرآن الکریم أوّلا: إِنَّ اللّٰهَ فٰالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوىٰ .

«الفلق»شقّ الشیء و إبانه بعضه عن بعض (۱) .

و«الحب»و«الحبه»تقال لانواع الحبوب الغذائیه کالحنطه و الشعیر

۱- ۱) -الراغب الأصفهانی(المفردات)،ص ۳۸۵.

و نحوهما من المطعومات التی تحصد،کما یقال ذلک لبروز الریاحین أیضا (۱) .

و«النوی»من النّواه،قیل إنّه یخص نوی التمر،و لعل هذا یرجع إلی کثره التمر فی بیئه العرب حتی کان العربی ینصرف ذهنه إلی نوی التمر إذا سمع هذه الکلمه.

و لننظر الآن إلی ما یمکن فی هذا التعبیر:

ینبغی أن نعلم أنّ أهم لحظه فی حیاه الحبّه و النّوی هی لحظه الفلق،و هی أشبه بلحظه ولاده الطفل و انتقاله من عالم إلی عالم آخر،إذ فی هذه اللحظه یحصل أهم تحول فی حیاته.

و ممّا یلفت الانتباه أنّ الحبّه و النّواه غالبا ما تکونان صلبتین،فنظره إلی نوی التمر و الخوخ و أمثالهما،و إلی بعض الحبوب الصلبه،تکشف لنا أنّ تلک النطفه الحیاتیه التی هی فی الواقع صغیره،محصنه بقلعه مستحکمه تحیط بها من کل جانب،و انّ ید الخالق قد أعطت لهذه القلعه العصیه علی الاختراق خاصیه التسلیم و اللیونه أمام اختراق نطفه النبات،کما منحت النطفه قوه اندفاع تمکنها من فلق جدران قلعتها فتطلع النبته بقامتها المدیده،هذه حقّا حادثه عجیبه فی عالم النبات لذلک یشیر إلیها القرآن علی أنّها من دلائل التوحید.

ثمّ یقول: یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَیِّتِ مِنَ الْحَیِّ .

یتکرر هذا التعبیر کثیرا فی القرآن مشیرا إلی نظام الموت و الحیاه و تبدیل هذا بذاک،فمرّه تری الحیاه تنبعث من مواد جامده لا روح فیها فی أعماق المحیطات و مجاهل الغابات و الصحاری،فیخلق من ترکیب مواد کل واحده منها سم قاتل مواد حیویه،و أحیانا تری العکس،فبإجراء تغییر بسیط علی کائنات حیه قویه مفعمه بالحیاه تراها قد تحولت إلی کائن لا حیاه فیه.

إنّ موضوع الحیاه و الموت بالنسبه للکائنات الحیه من أعقد المسائل التی

۱- ۱) -المصدر نفسه،ص ۱۰۵.

لم تستطیع العلوم البشریه الوصول إلی کنه حقیقتها و رفع الستار عن أسرارها لتخطو إلی أعماق مجهولاتها،و لتعرف کیف یمکن لعناصر الطبیعه و موادها الجامده أن تطفر طفره عظیمه فتتحول إلی کائنات حیه.

قد یأتی ذلک الیوم الذی یستطیع فیه الإنسان أن یصنع کائنا حیا باستخدام الترکیبات الطبیعیه المختلفه و تحت ظروف معقده خاصّه،و بطریقه ترکیب أجزاء مصنعه،کما یفعلون بالمکائن و الأجهزه،غیر أن قدره البشر«المحتمله»فی المستقبل لا تستطیع أن تقلل من أهمیه مسأله الحیاه و تعقیداتها التی تبدأ من المبدع القادر.

لذلک نجد القرآن-و فی معرض إثبات وجود اللّه-کثیرا ما یکرر هذا الموضوع،کما یستدل أنبیاء عظام کإبراهیم و موسی-علی وجود مبدأ قادر حکیم بمسأله الحیاه و الموت لإقناع جبابره طغاه مثل نمرود و فرعون.

یقول إبراهیم لنمرود: رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَ یُمِیتُ (۱) ،و یقول موسی لفرعون:

وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْ نَبٰاتٍ شَتّٰی

(۲)

.

ینبغی ألاّ ننسی أنّ ظهور الحی من المیت لا یختص فی بدایه ظهور الحیاه علی الأرض فقط،بل یحدث هذا فی کل وقت بانجذاب الماء و المواد الأخری إلی خلایا الکائنات الحیه،فتکتسی کائنات غیر حیه بلباس الحیاه،و علیه فإنّ القانون الطبیعی السائد الیوم و القائل بأنّه لا یمکن فی الظروف الحالیه التی تسود الأرض لأی کائن غیر حی أن یتحول إلی کائن حی،و حیثما وجد کائن حی فثمّه بذره حیه وجد منها هو قانون لا یتعارض مع ما قلناه،(فتأمل بدقّه)! و یستفاد من روایات أئمّه أهل البیت علیهم السّلام فی تفسیر هذه الآیه و الآیات المشابهه لها،أنّ ذلک یشمل الحیاه و الموت المادیین کما یشمل الحیاه و الموت

۱- ۱) -البقره،۲۵۸.

۲- ۲) -طه،۵۳.

المعنويين أيضا (۱) فثمّه مؤمنون ولدوا لآباء غير مؤمنين،و آخرون مفسدون و أشرار ولدوا لآباء من المتقين الأخيار،ناقضين قانون الوراثه بإرادتهم و اختيارهم.

و هذا بذاته دليل آخر على عظمه الخلاق الذى أعطى الإنسان هذه القدره و الإراده.

النقطه الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها هى أنّ«يخرج»الفعل المضارع و«مخرج»اسم الفاعل،يدلان على الاستمرار،أى أنّ نظام ظهور الحى من الميت و ظهور الميت من الحى نظام دائم و عام فى عالم الخلق.

و فى ختام الآيه توكيد للموضوع: ذٰلِكُمُ اللّٰهُ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ أى هذا هو ربّكم و هذه هى قدرته و علمه اللامتناهى،فكيف بعد هذا تنحرفون عن الحق و تميلون إلى الباطل؟ ذٰلِكُمُ اللّٰهُ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ و فى الآيه الثّانيه يشير القرآن إلى ثلاث نعم سماويه:فيقول أولا: فٰالِقُ الْإِصْبٰاحِ و ذكرنا،أنّ«الفلق»هو شقّ الشيء و إبانه بعضه عن بعض، و«الإصباح»و«الصبح»بمعنى واحد.

إنّه تعبير رائع،فظلام الليل قد شبه بالستاره السميكه التى يشقها نور الصباح شقا،و هذه الحاله تنطبق على الصبح الصادق و الصبح الكاذب كليهما،لأنّ الصبح الكاذب هو الضوء الخفيف الذى يظهر فى آخر الليل عند المشرق على هيئه عمود،و كأنّه شق يبدأ من الشرق نحو الغرب فى قبه السماء المظلمه،و الصبح الصادق هو الذى يلى ذلك على هيئه شريط أبيض لامع جميل يظهر عند امتداد الأفق الشرقى،و كأنه يشق عباب الليل الأسود من الأسفل ممتدا من الجنوب إلى الشمال،متقدما فى كل الأطراف حتى يغطى السماء كلها شيئا فشيئا.

كثيرا ما يشير القرآن إلى نعمتى النّور و الظلام و الليل و النهار،و لكنّه هنا

۱- ۱) -أصول الكافى،ج ۲،باب(طينه المؤمن الكفار)،تفسير البرهان،ج ۱،ص ۵۴۳.

يتناول«طلوع الصبح»كنعمه من نعم اللّه الكبرى،فنحن نعرف أنّ هذه الظاهره تحدث لوجود جو الأرض،ذلك الغلاف الضخم من الهواء الذى يحيط بالأرض، فلو كانت الأرض-مثل القمر-عديمه الجو،لما كان هناك«طلوعان»و لا«فلق» و لا«إصباح»،و لا«غسق»و لا«شفق»بل كانت الشمس تبزغ فجأه،بدون أيه مقدمات و لسطع نورها فى العيون التى اعتادت على ظلام الليل و لم تكد تفارقه، و عند الغروب تختفى فجأه،و تعم الظلمه الموحشه فى لحظه واحده كل الأرجاء، غير أنّ الجو الموجود حول الأرض و المؤدى إلى حصول فتره فاصله بين ظلام الليل و ضياء النهار عند طلوع الشمس و غروبها يهيئ الإنسان تدريجيا لتقبل هذين الاختلافين المتضادين و الانتقال من الظلمه إلى النّور،و من النّور إلى الظلمه،شيئا فشيئا،بحيث إنّه يستطيع أن يتحمل كل منهما،فنحن نشعر بالانزعاج إذا كنّا فى غرفه مضاءه و انطفأت الأنوار فجأه و عم الظلام،ثمّ إذا استمر الظلام ساعه،و عاد النّور مرّه أخرى فجأه،عادت معها حاله الانزعاج بسبب سطوع الضوء المفاجئ الذى يؤلم العين و يجعلها غير قادره على رؤيه الأشياء،و إذا ما تكرر هذا الأمر فإنّه لا شك سيؤذى العين،غير أنّ فٰالِقُ الْإِصْبٰاحِ قد جنب الإنسان هذا الأذى بطريقه رائعه (1) .

و لكيلا يظن أحد أنّ فلق الصبح دليل على أنّ ظلال الليل أمر غير مطلوب و أنّه عقاب أو سلب نعمه،يبادر القرآن إلى القول: وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً .

من الأمور المسلم بها أنّ الإنسان يميل خلال انتشار النّور و الضياء إلى العمل و بذل الجهد،و يتجه الدم نحو سطح الجسم و تتهيأ العضلات للفعاليه و النشاط،و لذلك لا يكون النوم فى الضوء مريحا،بل يكون أعمق و أكثر راحه كلما كان الظلام أشد،حيث يتجه الدم فيه نحو الداخل،و تدخل الخلايا عموما

۱- ۱) -يقول علماء الفلك:يبدأ طلوع الصبح عند ما تصل الشمس إلى ۱۸-درجه قبل الأفق الشرقى،و يعم الظلام كل شىء و يختفى الشفق عند ما تصل إلى ۱۸-درجه تحت الأفق الغربى.

فی نوع من السکون و الراحه،لذلک نجد فی الطبیعه أنّ النوم فی اللیل لا یقتصر علی الحیوانات فقط،بل إنّ النباتات تنام فی اللیل أیضا،و عند بزوغ خیوط الصباح الأولی تشرع بفعالیتها و نشاطها،بعکس الإنسان فی هذا العصر الآلی، فهو یبقی مستیقظا إلی ما بعد منتصف اللیل،ثمّ یظل نائما حتی بعد ساعات من طلوع الشمس،فیفقد بذلک نشاطه و سلامته.

فی الأحادیث الوارده عن أهل البیت علیهم السّلام نجد التأکید علی ما ینسجم مع هذا التنظیم،من ذلک ما

جاء فی نهج البلاغه عن الإمام علی علیه السّلام أنّه قال یوصی أحد قواده«...و لا تسر أوّل اللیل فإنّ اللّه جعله سکنا و قدره مقاما لا ضعنا،فارح فیه بدنک و روح ظهرک» (۱) .

و

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «تزوج باللیل فإنّه جعل اللیل سکنا» (۲) .

و

فی کتاب الکافی عن الإمام زین العابدین علی بن الحسین علیه السّلام أنّه کان یأمر بعدم ذبح الذبائح فی اللیل و قبل طلوع الفجر،و کان یقول:«إنّ اللّه جعل اللیل سکنا لکل شیء» (۳) .

ثمّ یشیر اللّه تعالی إلی الثالث من نعمه و دلائل عظمته بجعل الشمس و القمر وسیله للحساب: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْبٰاناً .

«الحسبان»بمعنی الحساب،و لعل القصد منه أنّ الدوران المنظم لهاتین الکرتین السماویتین و سیرهما الدائب(المقصود طبعا حرکتها فی أنظارنا و هی الناشئه عن حرکه الأرض)عون لنا علی وضع مناهجنا الحیاتیه المختلفه وفق مواعید محسوبه،کما ذکرنا فی التّفسیر.

۱- ۱) -تفسیر الصافی فی تفسیر الآیه.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -المصدر السّابق.

یری بعض المفسّرین أنّ الآیه ترید أن تقول إن هاتین الکرتین السماویتین تتحرکان فی السماء وفق حساب و برنامج و نظام.

و علیه فهی فی الحاله الأولی إشاره إلی إحدی نعم اللّه علی الإنسان،و فی الحاله الثّانیه إشاره إلی واحد من أدله التوحید و إثبات وجود الخالق،و لعلها إشاره إلی کلتیهما.

علی کل حال،إنّه لموضوع مهم جدّا أن تکون الأرض منذ ملایین السنین تدور حول الشمس و القمر یدور حول الأرض،و بذلک تنتقل الشمس فی أنظارنا من برج إلی برج بین الأبراج الفلکیه الاثنتی عشره،و القمر یدور فی حرکته المنتظمه من الهلال حتی المحاق،أنّ حساب هذا الدوران من الدقه و الضبط بحیث إنّه لا یتقدم و لا یتأخر لحظه واحده،و لو لاحظنا أنّ الأرض تدور حول الشمس فی مدار بیضوی معدل شعاعه ۱۵۰-ملیون کیلومتر ضمن جاذبیه الشمس العظیمه،و القمر الذی یدور کل شهر حول الأرض فی مدار شبه دائره شعاعه نحو ۳۷۴ ألف کیلومتر و لا یخرج من جاذبیه الأرض العظیمه،فهو دائم الانجذاب نحوها،عندئذ یمکن أن ندرک مدی التعادل الدقیق بین قوه الجذب بین هذه الأجرام السماویه من جهه،و القوه الطارده عن مراکزها(القوه المرکزیه) من جهه أخری،بحیث لا یمکن أنّ تتوقف لحظه واحده أو تختلف قید شعره.

و هذا ما لا یمکن أن یکون إلاّ فی ظل علم و قدره لا نهائیتین یضعان تخطیطه و ینفذانه بدقّه،لذلک تنتهی الآیه بقولها: ذٰلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ .

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۹۷]

اشاره

وَ هُوَ اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهٰا فِی ظُلُمٰاتِ اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۹۷)

التّفسیر

بعد شرح نظام دوران الشمس و القمر فی الآیه السابقه،تشیر هذه الآیه إلی نعمه أخری من نعم اللّه علی البشر،فجعل النجوم لیهتدی بها الإنسان فی لیالی البر و البحر: وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهٰا فِی ظُلُمٰاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ .

و تختتم الآیه بالقول بأنّ اللّه قد بین آیاته لأهل الفکر و الفهم و الإدراک:و قَدْ فَصَّلْنَا الْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ .

منذ آلاف السنین و الإنسان یعرف النجوم فی السماء و نظامها،و علی الرغم من تقدم البشر فی هذا المضمار تقدما کبیرا،فإنّه ما یزال یتابع وضع النجوم قلیلا أو کثیرا،بحیث کانت له هذه النجوم خیر وسیله لمعرفه الاتجاه فی الأسفار البریه و البحریه،و علی الأخص فی المحیطات الواسعه التی کانت تخلو من کل إماره تشیر إلی الاتجاه قبل اختراع الأسطرلاب.

إنّ النجوم هی التی هدت ملایین البشر و أنقذتهم من الغرق و أوصلتهم إلی بر السلامه.

ص: ۳۹۷

لو تطلعنا إلى السماء عدّه ليال متواليه لانكشف لنا أنّ مواضع النجوم فى السماء متناسقه فى كل مكان،و كأنّها حبات لؤلؤ خيطت على قماش أسود،و إنّ هذا القماش يسحب باستمرار من الشرق إلى الغرب،و كلها تتحرك معه و تدور حول محور الأرض دون أن تتغير الفواصل بينها،إنّ الاستثناء الوحيد فى هذا النظام هو عدد من الكواكب التى تسمى بالكواكب السياره لها حركات مستقله و خاصّه،و عددها ثمانيه:خمسه منها ترى بالعين المجرّده،و هى(عطارد و الزهره،و زحل،و المريخ و المشترى)و ثلاثه لا ترى إلّا بالتلسكوب و هى (أورانوس و نبتون و پلوتو)بالإضافه إلى كوكب الأرض التى تجعل المجموع تسعه.

و لعل إنسان ما قبل التّأريخ كان يعرف شيئا عن«الثوابت»و«السيارات» لأنّه لم يكن هناك ما يمكن أن يجلب انتباهه أكثر من السماء المرصعه بالنجوم فى ليله ظلماء،فلا يستبعد أن يكون هو أيضا قد استخدم النجوم فى الاستهداء و معرفه الاتجاه.

يستفاد من بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ لهذه الآيه تفسيرا آخر،و هو أنّ المقصود بالنجوم القاده الإلهيين و الهداه إلى طريق السعاده،أى الأئمّه الذين يهتدى بهم الناس فى ظلام الحياه فينجون من الضياع،و سبق أن قلنا أنّ هذه التفاسير المعنويه لا تتنافى مع التفاسير الظاهريه،و من الممكن أن تقصد الآيه كلا التفسيرين (۱) .

ص: ۳۹۸

۱- ۱) تفسير نور الثقلين،ج ۱،ص ۷۵۰.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۹۸ الی ۹۹]

اشاره

وَ هُوَ اَلَّذِی أَنْشَأَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَفْقَهُونَ (۹۸) وَ هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ نَبٰاتَ کُلِّ شَیْءٍ فَأَخْرَجْنٰا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرٰاکِباً وَ مِنَ اَلنَّخْلِ مِنْ طَلْعِهٰا قِنْوٰانٌ دٰانِیَهٌ وَ جَنّٰاتٍ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ اَلزَّیْتُونَ وَ اَلرُّمّٰانَ مُشْتَبِهاً وَ غَیْرَ مُتَشٰابِهٍ اُنْظُرُوا إِلیٰ ثَمَرِهِ إِذٰا أَثْمَرَ وَ یَنْعِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکُمْ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۹۹)

التّفسیر

هاتان الآیتان تتابعان دلائل التوحید و معرفه اللّه،و الوصول إلی هذا الهدف یأخذ القرآن بید الإنسان و یسیح به فی آفاق العالم البعیده و قد یسیر به فی داخل ذاته و یبیّن له آثار اللّه فی جسمه و روحه،فیتیح له أن یری اللّه فی کل مکان.

فیبدأ بالقول: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ .

أی أنّکم،علی اختلاف ملامحکم و أذواقکم و أفکارکم و التباین الکبیر فی مختلف جوانب حیاتکم،قد خلقتم من فرد واحد،و هذا دلیل علی منتهی عظمه الخالق و قدرته التی أوجدت من المثال الأوّل کل هذه الوجوه المتباینه.

و جـدير بالملاـحظه أنّ هـذه الآـيه تعبر عن خلق الإنسان بالإنشاء،و الكلمه لغويا تعنى الإيجاد و الإبـداع مع التربيه،أى أنّ اللّه قد خلقكم و تعهد بتربيتكم، و من الواضح أنّ الخالق الذى يخلق شـيئا ثمّ يهمله لا يكون قد أبدى قدره فائقه، و لكنّه إذا اسـتمر فى العنايه بمخلوقاته و حمايتها،و لم يغفل عن تربيتها لحظه واحده،عندئذ يكون قد أظهر حقّا عظمته وسعه رحمته.

بهـذه المناسـبه ينبغى ألاـ نتوهّم من قراءه هـذه الآيه،أنّ أمّنا الأولى حواء قـد خلقت من آدم(كما جاء فى الفصل الثّانى من سـفر التكوين من التّوراه)، و لكن آدم و حواء خلقا من تراب واحـد،و كلاهما من جنس واحد و نوع واحد،لذلك قال:إنّهما خلقا من نفس واحده،و قد بحثنا هذا الموضوع فى بدايه تفسير سوره النساء.

ثمّ يقول:إنّ فريقا من البشر«مستقر»و فريقا آخر«مستودع» فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ .

«المستقر»أصله من«القر»(بضم القاف)بمعنى البرد،و يقتضى السكون و التوقف عن الحركه،فمعنى«مستقر»هو الثابت المكين.

و«مستودع»من«ودع»بمعنى ترك،كما تستعمل بمعنى غير المستقر و الوديعه هى التى يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتّضـح من هـذا الكلاـم أنّ الآـيه تعنى أنّ الناس بعض«مسـتقر»أى ثابت، و بعض«مسـتودع»أى غير ثابت،أمّا المقصود من هـذين التعبيرين،فالكلام كثير بين المفسّرين،و بعض التفاسير تبدو أقرب إلى الآيه كما أنّها لا تتعارض فيما بينها.

من هـذه التفاسـير القول بأنّ«مسـتقر»صـفه الذين كمل خلقهم و دخلوا «مسـتقر الرحم»أم مسـتقر وجه الأرض،و«المسـتودع»صـفه الذين لم يكتمل خلقهم بعد و إنّما هو ما يزالون نطفا فى أصلاب آبائهم.

ص:۴۰۰

تفسیر آخر یقول:إنّ«مستقر»إشاره إلی روح الإنسان الثابته و المستقره، و«مستودع»إشاره إلی جسم الإنسان الفانی غیر الثابت.

و قد جاء فی بعض الرّوایات تفسیر معنوی بهذین التعبیرین،و هو أنّ «مستقر»تعنی الذین لهم إیمان ثابت«و مستودع»تعنی من لم یستقر إیمانه (۱) .

و ثمّه احتمال أن یکون هذان التعبیران إشاره إلی الجزئین الأولین فی ترکیب نطفه الإنسان،إنّ النطفه-کما نعلم-تترکب من جزئین:الأوّل هو «البویضه»من الأنثی،و الثانی هو«الحیمن»أو«المنی»من الذکر،أنّ البویضه فی رحم الأنثی تکان تکون مستقر،و لکن حیمن الذکر حیوان حی یتحرک بسرعه نحوها،و ما أن یصل أوّل حیمن إلی البویضه حتی یمتزج بها و«یخصبها» و یصد(الحیامن)الأخری،و من هذین الجزئین تتکون بذره الإنسان الأولی.

و فی ختام الآیه یعود فیقول: قَدْ فَصَّلْنَا الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَفْقَهُونَ .

عند الرجوع إلی کتب اللغه یتبیّن لنا أنّ«الفقه»لیس کل معرفه أو فهم،بل هو التوصل إلی علم غائب بعلم حاضر (۲) ،و بناء علی ذلک فالهدف من التمعن فی خلق الإنسان و اختلاف أشکاله و ألوانه،هو أن یتوصل المرء المدقق من معرفه الخلق إلی معرفه الخالق.

الآیه الثانیه هی آخر آیه فی هذه المجموعه التی تکشف لنا عن عجائب عالم الخلق و تهدینا إلی معرفه اللّه بمعرفه مخلوقاته.

فی البدایه تشیر الآیه إلی واحده من أهم نعم اللّه التی یمکن أن تعتبر النعمه الأم و أصل النعم الأخری،و هی ظهور النباتات و نموها بفضل النعمه التی نزلت من السماء: وَ هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً .

و إنّما قال(من السماء)لأنّ سماء کل شیء أعلاه،فکل ما فی الأرض من

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۱،ص ۷۵۰.

۲- ۲) -مفردات الراغب،ص ۳۸۵.

میاه العیون و الآبار و الأنهار و القنوات و غیرها منشؤها الأمطار من السماء،و قلّه الأمطار تؤثر فی کمیه المیاه فی تلک المصادر کلها،و إذا استمر الجفاف جفّت تلک المنابع،أیضا.

ثمّ تشیر إلی أثر نزول الأمطار البارز: فَأَخْرَجْنٰا بِهِ نَبٰاتَ کُلِّ شَیْءٍ .

یری المفسّرون احتمالین فی المقصود من نَبٰاتَ کُلِّ شَیْءٍ .

الأوّل:إنّ المقصود من ذلک کل أنواع النباتات و أصنافها التی تسقی من ماء واحد،و تنبت فی أرض واحده و تتغذی من تربه واحده،و هذه واحده من عجائب الخلق،کیف تخرج کل هذه الأصناف من النباتات بأشکالها و ألوانها و أثمارها المختلفه و المتباینه أحیانا من أرض واحده و ماء واحد! و الاحتمال الثّانی:هو أنّ النباتات یحتاج إلیها کل مخلوق آخر من حشرات و طیور و حیوانات فی البحر و البر،و انّه لمن العجیب أنّ اللّه تعالی یخرج من أرض واحده و ماء واحد الغذاء الذی یحتاجه کل هؤلاء،و هذا من روائع الأعمال المعجزه کأنّ یستطیع أحد أن یصنع من ماده معینه فی المطبخ آلاف الأنواع من الأطعمه لآلاف الأذواق و الأمزجه.

و الأعجب من کل هذا أنّ نباتات الصحراء و الیابسه لیست وحدها التی تنمو ببرکه ماء المطر،بل إنّ النباتات المائیه الصغیره التی تطفو علی سطح البحر و تکون غذاء للأسماک تنمو بأشعه الشمس و قطرات المطر.

و لا أنسی ما قاله أحد سکّان المدن الساحلیه و هو یشکو قلّه الصید فی البحر،و یذکر سبب ذلک بأنّه الجفاف و قلّه نزول المطر،فکان یعتقد أنّ قطرات المطر فی البحار أشد تأثیرا منها فی الیابسه.

ثمّ تشرح الآیه ذلک و تضرب مثلا ببعض النباتات التی تنمو بفضل الماء، فتذکر أنّ اللّه یخرج بالماء سیقان النباتات الخضر من الأرض،و من تلک الحبّه الصلبه یخلق الساق الأخضر الطری اللطیف الجمیل بشکل یعجب الناظرین:

فَأَخْرَجْنٰا مِنْهُ خَضِراً

(۱)

.

و من ذلک الساق الأخضر أخرجنا الحبّ متراصفا منظما: نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرٰاكِباً (۲) .

و کذلک بالماء نخرج من النخل طلعا مغلقا،ثمّ یتشقق فتخرج الاعذاق بخیوطها الرفیعه الجمیله تحمل حبات التمر،فتتدلی من ثقلها: وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهٰا قِنْوٰانٌ دٰانِیَهٌ .

«الطلع»هو عذق التمر قبل أن ینفتح غلافه الأخضر،و إذ ینفتح الطلع تخرج منه أغصان العذق الرفیعه،و هی القنوان و مفردها قنو.

و«دانیه»أی قریبه،و قد یکون ذلک إشاره إلی قرب أغصان العذق من بعضها،أو إلی أنّها تمیل نحو الأرض لثقلها.

و کذلک بساتین فیها أنواع الأثمار و الفواکه: وَ جَنّٰاتٍ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمّٰانَ .

ثمّ تشیر الآیه إلی واحده أخری من روائع الخلق فی هذه الأشجار و الأثمار، فتقول: مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشٰابِهٍ .

انظر تفسیر الآیه(۱۴۱)من هذه السوره فی شرح المتشابه و غیر المتشابه للزّیتون و الرّمان (۳) .

إنّ شجرتی الرمان و الزیتون متشابهتان من حیث الشکل الخارجی و تکوین الأغصان و هیئه الأوراق تشابها کبیرا،مع أنّهما من حیث الثمر و طعمه و فوائده مختلفتان،ففی الزیتون ماده زیتیه قویه الأثر،و فی الرمان ماده حامضیه أو سکریه،فهما متباینان تماما،و مع ذلک فقد تزرع الشجرتان فی أرض واحده،

۱- ۱) -کلمه«أخضر»تشمل کل أخضر فی النبات،حتی براعم الأشجار،و لکن بما إنّها متبوعه مباشره بالحب المتراکب فالمقصود فی الآیه هو زراعه الحبوب.

۲- ۲) -«المتراکب»من الرکوب و ما رکب بعضه بعضا،و أکثر الحبوب بهذا الشکل.

۳- ۳) -یقول الراغب فی مفرداته:إنّ«مشتبها»و«متشابها»بمعنی یکاد یکون واحدا.

و تشربان من ماء واحد،فهما متشابهان و غير متشابهين فى آن واحد.

و من المحتمل أنّ تكون الإشاره إلى أنواع مختلفه من أشجار الفاكهه التى يتشابه بعضـها فى الشجر و فى الثمر،و يختلف بعضها عن الآخر فى ذلك،(أى أنّ كل واحده من هاتين الصـفتين تختص بمجموعه من الأشجار و الأثمار،أمّا حسب التّفسير الأوّل،فإنّ الصفتين لشىء واحد).

ثمّ تركز الآـيه من بين مجمـوع اجزاء شـجره على ثمره الشـجره و على تركيب الثمره إذا أثمرت،و كـذلك على نضـج الثمره إذا نضـجت،ففيهـا دلائـل واضـحه على قـدره اللّه و حكمته للمؤمنين من الناس: اُنْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِى ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

مـا نقرؤه اليوم فى علم النبـات عن كيفيه طلوع الثمره و نضـجها يكشف لنـا عن الأهميه الخاصّه التى يوليها القرآن للأثمار،إذ إنّ ظهـور الثمره فى عـالم النبـات أشـبه بولاـده الأبنـاء فى عـالم الحيـوان،فنطفـه الـذكر فى النبـات تخرج من أكيـاس خـاصّه بطرق مختلفه(كالريـاح أو الحيوانات)و تحط على القسم الأنثوى فى النبات،و بعـد التلقيـح و التركيب تتشـكل البيضه الملقحه الأولى،و تحيط بها مواد غـذائيه مشابهه لتركيبها،أنّ هـذه المواد الغـذائيه تختلف من حيث التركيب و كـذلك من حيث الطعم و الخواص الغـذائيه و الطبيه.فقـد تكون ثمره(مثل العنب و الرمان) فيها مئات من الحبّ،كل حبّه منها تعتبر جنينا و بذره لشـجره أخرى،و لها تركيب معقد عجيب.

إنّ شـرح بنيه الأثمار و المواد الغـذائيه و الطبيه خارج عن نطاق هذا البحث، و لكن من الحسن أنّ نضـرب مثلا بثمره الرمان التى أشار إليها القرآن على وجه الخصوص فى هذه الآيه.

إذا شـقڤنا رمانه و أخـذنا إحدى حباتها نظرنا خلالها باتجاه الشـمس أو مصدر ضوء آخر نجدها تتألف من أقسام أصـغر،و كأنّها قوارير صغيره مملوءه بماء

الرّمان قـد رصـفت الواحـده إلی جنب الأخری.ففی حبّه الرمان الواحـده قـد تکون المئات من هذه القواریر الصـغیره جدا،یجمع أطرافهـا غشـاء رقیق هو غشاء حبّه الرمان الشـفاف، ثمّ لکی یکون هـذا التغلیف أکمل و أمتن و أبعـد عن الخطر رکّب عـدد من الحبات علی قاعده فی نظام معین،و لفت فی غلاف أبیض سـمیک بعض الشـیء،و بعد ذلک یأتی القشـر الخارجی للرمانه،یلف الجمیع لیحول دون نفوذ الهواء و الجراثیم،و لمقاومه الضربات و لتقلیل تبخر ماء الرمان فی الحبات إلی أقل حدّ ممکن.

إنّ هذا الترتیب فی التغلیف لا یقتصر علی الرمان،فهناک فواکه أخری-مثل البرتقال و اللیمون-لها تغلیف مماثل،أمّا فی الأعناب و الرمان فالتغلیف أدق و ألطف.

و لعل الإنسان حـذا حذو هذا التغلیف عند ما أراد نقل السوائل من مکان إلی مکان،فهو یصف القنانی الصـغیره فی علبه و یضـع بینها ماده لینه،ثمّ یضع العلب الصغیره فی علب أکبر و یحمل مجموعها إلی حیث یرید.

و أعجب من ذلک اسـتقرار حبات الرمان علی قواعـدها الـداخلیه و أخـذ کل منها حصـتها من الماء و الغـذاء و هذا کله ممّا نراه بالعین،و لو وضعنا ذرات هذه الثمره تحت المجهر لرأینا عالما صاخبا و تراکیب عجیبه مدهشه محسوبه بأدق حساب.

فکیف یمکن لعین باحثه عن الحقیقه أن تنظر إلی هذه الثمره ثمّ تقول:إنّ صانعها لا یملک علما و لا معرفه!! إنّ القرآن إذ یقول اُنْظُرُوا إنّما یرید هذه النظره الدقیقه إلی هذا القسم من الثمره للوصول إلی هذه الحقائق.

هــذا مــن جهــه،و مــن جهــه أخری فــإن المراحــل المتعــدده الـتی تمر بهـا الثمره منــذ تولّــدها حـتی نضــجها تــثیر الانتباه،لأنّ«المختبرات»الداخلیه فی الثمره لا تنفک

عن العمـل فی تغییر ترکیبهـا الکیمیـاوی إلی أن تصـل إلی المرحله النهائیه و یثبت ترکیبها الکیمیاوی النهائی،أنّ کل مرحله من هذه المراحل دلیل علی عظمه الخالق و قدرته.

و لکن لا بـدّ من القول-بحسب تعبیر القرآن-إنّ المؤمنین الـذین یمعنون النظر فی هذه الأمور هم الذین یرون هذه الحقائق،و إلّا فعین العناد و المکابره و الإهمال و التساهل لا یمکن أن تری أدنی حقیقه.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۳]

اشاره

وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ اَلْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنٰاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يَصِفُونَ (۱۰۰) بَدِيعُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ أَنّٰى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صٰاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۰۱) ذٰلِكُمُ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۱۰۲) لاٰ تُدْرِكُهُ اَلْأَبْصٰارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ اَلْأَبْصٰارَ وَ هُوَ اَللَّطِيفُ اَلْخَبِيرُ (۱۰۳)

التّفسير

اشاره

خالق كل شيء:

هذه الآيات تشير إلى جانب من العقائد السقيمه و الخرافات التى يؤمن بها المشركون و أصحاب المذاهب الباطله،و ترد عليهم بالمنطق.

فأوّلا:قالوا:إنّ للّه شركاء من الجن وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ الْجِنَّ .

فيما يتعلق بالجن،هل المقصود بهم هو المعنى اللغوى الذى يفيد كل كائن غير مرئى و مخفى عن حس الإنسان،أم هم طائفه الجن التى يرد ذكرها مرارا فى القرآن و التى سنشير إليها قريبا؟للمفسرين فى هذا احتمالان.

ص :۴۰۷

على الاحتمال الأوّل قد تكون الآيه إشاره إلى الذين كانوا يعبدون الملائكه أو مخلوقات غير مرئيه.

و على الاحتمال الثّانى قد تكون الإشاره إلى الذين كانوا يعتبرون الجن شركاء للّه أو زوجات له.

يقول الكلبى فى كتاب«الأصنام»:إنّ إحدى الطوائف العربيه،و تدعى«بنو مليح»و هى إحدى أفخاذ قبيله«خزاعه»كانت تعبد الجن (۱) ،كما يقال إنّ عباده الجن و الاعتقاد بالوهيتها كانت منتشره بين مذاهب اليونان الخرافيه و فى الهند (۲) .

و يستدل من الآيه(۱۵۸)من سوره الصافات: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّهِ نَسَباً على أنّه كان بين العرب من يرى بين اللّه و الجن نسبا و قرابه، و يذكر بعض المفسّرين أنّ قريشا كانت تعتقد أنّ اللّه قد تزوج الجن،فكان الملائكه ثمره ذلك الزواج (۳) .

فينكر الإسلام عليهم ذلك،إذ كيف يمكن ذلك و هو الذى خلق الجن:

وَ خَلَقَهُمْ

أى كيف يمكن أن يكون المخلوق شريكا للخالق،لأنّ الشركه دليل التماثل و التساوى،مع أنّ المخلوق لا يمكن أن يكون فى مصاف خالقه أبدا! الخرافه الأخرى هى قولهم جهلا-إنّ للّه بنين و بنات: وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنٰاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

أفضل دليل على أنّ هذه العقائد ليست سوى خرافه،هو أنّها تصدر عنهم بِغَيْرِ عِلْمٍ أى أنّهم لا يملكون أى دليل على هذه الأوهام.

من الملاحظ أنّ القرآن استعمل لفظه«خرقوا»من الخرق،و هو تمزيق الشيء بغير رويه و لا حساب،و هى فى النقطه المقابله تماما«للخلق»القائم على

ص: ۴۰۸

۱- ۱) -تفسير فى ظلال القرآن،ج ۳،ص ۳۲۶-الهامش.

۲- ۲) -تفسير المنار،ج ۸،ص ۶۴۸.

۳- ۳) -تفسير معجم البيان و تفاسير أخرى.

الحساب،هاتان اللفظتان:«الخلق و الخرق»قد تستعملان فی حالات الکذب و الاختلاق،مع اختلاف بینهما هو أن(الخلق و الاختلاق)تستعمل فی الأکاذیب المدروسه و(الخرق و الاختراق)فیما لا حساب فیه من الکذب.

أی أنّهم اختلقوا تلک الأکاذیب دون أن یدرسوا جوانب الموضوع و بدون أن یعدوا له ما یلزم من الأمور.

أمّا الطوائف التی کانت تنسب للّه البنین،فإنّ القرآن یذکر فی آیات أخری اسم طائفتین من هؤلاء:

الأولی:هم المسیحیون الذین قالوا:إنّ عیسی ابن اللّه.

و الأخری:هم الیهود الذین قالوا:عزیر ابن اللّه.

یستفاد من الآیه(۳۰)من سوره التوبه،و ممّا توصل إلیه المحققون عن دراسه الجذور المشترکه بین المسیحیه و البوذیه،و علی الأخص فی موضوع التثلیث،أنّ المسیحیین و الیهود لیسوا وحدهم الذین نسبوا ابنا للّه،بل کان هذا موجودا فی المعتقدات الخرافیه القدیمه.

أمّا بشأن نسبه بنات للّه،فالقرآن نفسه یوضح ذلک فی آیات أخری:

وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِکَهَ الَّذِینَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً

(۱)

.

و کما سبقت الإشاره إلیه،جاء فی التفاسیر و التواریخ إنّ قریشا کانت تری الملائکه بنات اللّه من زواجه بالجن.

و القرآن یرفض تماما فی نهایه الآیه کل هذه الخرافات التی لا أساس لها، و بعباره حاسمه قاطعه: سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یَصِفُونَ .

و الآیه التّالیه ترد علی تلک العقائد الخرافیه فتؤکّد أنّ اللّه هو ذلک الذی أبدع خلق السموات و الأرض: بَدِیعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

هل هناک غیر اللّه من فعل ذلک أو یستطیع فعله کیما یکون شریکا له فی

۱- ۱) -الزخرف،۱۹.

عبادته؟كلا،الجميع مخلوقاته و يطيعون أمره و محتاجون إليه.

ثمّ كيف يمكن أن يكون له أبناء دون أن تكون له زوجه؟! أَنّٰى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صٰاحِبَةٌ .

و ما حاجته إلى زوجه؟ثمّ من التى تكون زوجته و هم جميعا مخلوقاته؟ و فضلا عن ذلك كلّه أنّ ذاته القدسيه منزهه عن كل الصفات الجسمانيه،بينما الحاجه إلى زوجه و أبناء من الصفات الجسمانيه الماديه.

و مرّه أخرى تؤكّد الآيه مقامه باعتباره خالقا لكل شىء،و محيطا بكل شىء:

وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

.

الآيه الثّالثه تؤكّد على سبيل الاستنتاج من كل ما سبق من ذكر خالقيه اللّه لكل شىء،و إبداعه السموات و الأرض و إيجادها،و كونه منزها عن الصفات و العوارض الجسميه و عن الحاجه إلى الزوجه و الأبناء و إحاطته العلميه بكل شىء: ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ فلا يستحق العبوديه غيره.

و لكى ينقطع كل أمل بغير اللّه،و تنقلع كل جذور الشرك و الاعتماد على غير اللّه،تختتم الآيه بالقول: وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

أى أنّ مفتاح حل مشاكلكم بيده وحده،و ما من أحد غيره قادر على حلها إذ ما من أحد-غيره-إلاّ و هو محتاج إلى إحسانه و كرمه،فلا موجب إذن لأن تطرح مشاكلك على غيره،و تطلب حلّها من غيره.

لاحظ أنّ العباره تقول: عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ و لم تقل:لكلّ شىء وكيل، و اختلاف المعنى واضح،لأنّ«على»تفيد التسلط و نفوذ الأمر،أمّا«اللام»فتفيد التبعيه،أى أن التعبير الأوّل يدل على الولايه و الرعايه،و الثّانى يدل على التمثيل و الوكاله.

الآيه الاخيره من الآيات مورد البحث،و من أجل إثبات حاكميه اللّه

ص:۴۱۰

و إحاطته بكل شـيء و حفاظه على كل شـيء،و كذلك لإثبات أنّه يختلف عن كل شـيء،تقول: لاّ تُدْرِكُهُ الْأَبْصٰارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصٰارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أى أنّه الخبير بمصالح عبيده و بحاجاتهم،و يتعامل معهم بمقتضى لطفه.

فى الحقيقه أنّ من يريد أن يكون حافظ كل شىء و مربيه و ملجأه لا بدّ أن يتصف بهذه الصفات.

كمـا أنّ الآيه تقول:إنّه يختلف عن جميع الأشـياء فى العالم،لأنّ أشـياء العالم بعضـها يرى و يرى،كالإنسان،و بعضـها لا يرى و لا يرى كصفاتنا الباطنيه،و بعض آخر يرى و لا يرى،كالجمادات،فالوحيد الذى لا يرى و لكنّه يرى كلّ شىء هو اللّه الواحد الأحد.

بحوث

اشاره

هنا نشير إلى بضع نقاط:

١-لا تدركه الأبصار:

تثبت الأدله العقليه أنّ اللّه لا يمكن أن يرى بالعين،لأنّ العين لا تستطيع أن ترى إلاّ الأجسام،أو على الأصح بعضا من كيفيات الأجسام،فإذا لم يكن الشىء جسما و لا كيفيه من كيفيات الجسم،لا يمكن أن تراه العين،و بتعبير آخر،إذا أمكنت رؤيه شىء بالعين،فلأن لهذا الشىء حيزا و اتجاها و كتله،فى حين أنّ اللّه أرفع من أن يتصف بهذه الصفات،فهو وجود غير محدود و هو أسمى من عالم الماده المحدود فى كل شىء.

فى كثير من الآيات،و على الأخص فى الآيات التى تشير إلى بنى إسرائيل و طلبهم رؤيه اللّه،نجد القرآن ينفى بكل وضوح إمكان رؤيه اللّه(سوف يأتى

شرح ذلک فی تفسیر الآیه ۱۴۳-من سوره الأعراف إن شاء اللّه).

و من العجیب أنّ کثیرا من أهل السنه یعتقدون أنّ اللّه سیری یوم القیامه، و یعبر صاحب تفسیر المنار عن ذلک بقوله:هذا من مذاهب أهل السنه و العلم بالحدیث (۱) .

و الأعجب من ذلک أنّ بعض المحققین المعاصرین الواعین یمیلون-أیضا- إلی هذا الاتجاه و یصرون علیه! أمّا الواقع فإنّ بطلان هذه الفکره إلی درجه من الوضوح بحیث لا یستوجب نقاشا،لأنّ الأمر لا یختلف بین الدنیا و الآخره(إذا قلنا بالمعاد الجسمانی)،إنّ اللّه فوق الماده،و لا یتبدل یوم القیامه إلی وجود مادی،و لا یخرج من لا محدودیته لیصبح محدودا، و لا یتحول فی ذلک الیوم إلی جسم أو إلی کیفیه من کیفیات الجسم!و هل الأدله العقلیه علی عدم إمکان رؤیه اللّه فی الدنیا هی غیرها فی الآخره»؟أم هل یتغیر حکم العقل بهذا الشأن یومذاک؟! و لا یمکن تبریر هذه الفکره بأنّ من المحتمل أن یصبح للإنسان فی الآخره نوع آخر من الرؤیه و الإدراک،لأنّ هذه الرؤیه و الإدراک إذا کانت فی الآخره فکریه و عقلانیه،فإنّنا فی هذه الدنیا أیضا نشاهد اللّه و جماله بعین القلب و قوه العقل،أمّا إذا کانت الرؤیه هی نفسها التی نری بها الأجسام،فإنّ رؤیه اللّه بهذا المعنی مستحیله فی هذه الدنیا و فی الآخره علی السواء.

و بناء علی ذلک فإنّ القول بأنّ الإنسان لا یری اللّه فی هذه الدنیا،و لکن المؤمنین یرونه یوم القیامه غیر منطقی و غیر مقبول.

إنّ ما حمل هؤلاء علی الذهاب إلی هذا المذهب و الدفاع عنه هو وجود أحادیث فی کتبهم المعروفه تقول بإمکان رؤیه اللّه یوم القیامه،و لکن ألیس من الأفضل أن نقول ببطلان هذا الرأی بالدلیل العقلی،و نحکم باختلاق أمثال هذه

۱- ۱) -تفسیر المنار،ج ۷،ص ۶۵۳.

الرّوايات و عدم اعتبار الكتب التى أوردت مثل هذه الرّوايات،(اللهم إلاّ إذا قلنا أنّ المقصود من هذه الرؤيه هى الرؤيه القلبيه)هل يصح أن نجانب حكم العقل و الحكمه من أجل أمثال هذه الأحاديث؟! أمّا الآيات القرآنيه التى يبدو منها لأوّل وهله أنّها تدل على رؤيه،مثل وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نٰاضِرَةٌ إِلىٰ رَبِّهٰا نٰاظِرَةٌ (۱) و يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (۲) فإنّها من باب الكنايه و الرمز،إنّنا نعلم أنّ أيه آيه قرآنيه لا يمكن أن تخالف حكم العقل و منطق الحكمه.

و الملفت للنظر أنّ الأحاديث و الرّوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام تستنكر هذه العقيده الخرافيه أشد استنكار،و تنتقد القائلين بها أشد انتقاد،من ذلك أنّ أحد أصحاب الإمام الصّادق عليه السّلام و اسمه(هشام)يقول:كنت عند الإمام الصّادق عليه السّلام فدخل عليه معاويه بن وهب(و هو من أصحاب الإمام أيضا)و سأله قائلا:يا بن رسول اللّه،ما قولك فى ما جاء بشأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قد رأى اللّه، فكيف رآه؟و كذلك

فى الحديث المروى عنه أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: إنّ المؤمنين فى الجنّه يرون اللّه.فبأى شكل يرونه؟فتبسم الإمام الصّادق ابتسامه ألم،و قال:«يا معاويه بن وهب!ما أقبح أن يعيش المرء سبعين أو ثمانين سنه فى ملك اللّه،و يتنعم بنعمه، ثمّ لا يعرفه حق المعرفه يا معاويه،إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم ير اللّه رأى العين أبدا،إنّ المشاهده نوعان:المشاهده القلبيه،و المشاهده البصريه،فمن قال بالمشاهده القلبيه فقد صدق،و من قال بالمشاهده البصريه فقد كذب و كفر باللّه و بآياته فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:من شبه اللّه بالبشر فقد كفر» (۳) .

و

فى(أمالى الصدوق)بإسناده إلى إسماعيل بن الفضل قال: سألت الإمام

۱- ۱) -القيامه،۲۳ و ۲۴.

۲- ۲) -الفتح،۱۰.

۳- ۳) -معانى الأخبار،نقلا عن«الميزان»،ج ۸،ص ۲۶۸.

الصّادق عليه السّلام عن اللّه تبارك و تعالى،و هل يرى فى المعاد؟فقال:«سبحان اللّه و تعالى عن ذلك علوا كبيرا،يا ابن الفضل،إنّ الأبصار لا تدرك إلاّ ما له لون و كيفيه،و اللّه تعالى خالق الألوان و الكيفيه» (1) .

من الجدير بالانتباه أنّ هذا الحديث يؤكّد كلمه«لون»و نحن اليوم نعلم أنّ الجسم بذاته لا يرى مطلقا،و إنما الذى نراه هو لونه،فإذا لم يكن للجسم أى لون فلن يرى.

(فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير بحث بهذا الشأن فى تفسير الآيه(46)من سوره البقره).

2-اللّه خالق كل شيء

بعض المفسّرين من أهل السنه،ممن يذهب إلى الجبر يتخذ من قوله تعالى خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ دليلا على صحه مذهبهم فى الجبر،فيقول:إنّ أعمالنا و أفعالنا من«أشياء»هذا العالم أيضا،لأنّ كلمه«شيء»تطلق على كل ذى وجود،ماديا كان أم غير مادى،و سواء كان من الذوات أم من الصفات،و عليه عند ما نقول:إنّ اللّه خالق كل شيء،لا بدّ لنا أن نقبل أيضا بأنّه خالق أفعالنا،و هذا هو الجبر بعينه.

بيد أنّ القائلين بحريه الإراده و الإختيار يردون بجواب واضح على أمثال هذه الاستدلالات،و هو أنّ خالقيه اللّه حتى بالنسبه لأفعالنا لا تتعارض مع حريتنا فى الإختيار،إذ أنّ أفعالنا يمكن أن تنسب إلينا و إلى اللّه،فنسبتها إلى اللّه قائمه على كونه قد وضح جميع مقدمات ذلك تحت تصرفنا،فهو الذى وهبنا القوه و القدره و الإراده و الإختيار،فما دامت جميع المقدمات من خلقه،فيمكن أن تنسب أفعالنا إليه باعتباره خالقها،و لكن من حيث اتخاذ القرار النهائى فإننا بالاستفاده ممّا وهبه اللّه لنا من القدره على الإراده و الإختيار نتخذ القرار بأداء

1- 1) -نور الثقلين،ج 1،ص 753.

الفعل أو تركه،فمن هنا تنسب هذه الأفعال إلينا و نكون مسئولين عنها.

و بتعبير الفلاسفه:لا يوجد فى هذا المقام علّتان أو خالقان للفعل فى عرض واحد.

بل هما ممتدتان طولا،لأنّ وجود علّتين تامّتين فى عرض واحد لا معنى له، لكنّهما إذا كانا طوليين فلا مانع من ذلك،و لما كانت أفعالنا تستلزم المقدمات التى وهبها اللّه لنا،فيمكن أن ننسب هذه المستلزمات إليه أيضا،إضافه إلى نسبتها إلى فاعلها.

هـذا الكلام أشبه بالـذى يريد أن يختبر عماله فيترك لهم الحريه فى عملهم و اختياراتهم،و يهىء لهم جميع ما تطلبه عملهم من مقـدمات و وسائـل،فطبيعى أن تعتبر أفعـالهم منسوبه إلى ربّ العمـل،و لكن ذلك لا يسـلبهم حريه العمل و الإختيار،بل يكونون مسئولين عن أعمالهم.

و سنبحث فكره الجبر و الإختيار-إن شاء اللّه-بالتفصيل عند تفسير الآيات المرتبطه بالموضوع.

۳-ما معنى«بديع»؟

سبق أن ذكرنا أن«بديع»تعنى موجد الشىء بغير سابق وجود،أى أنّ اللّه أوجد السموات و الأرض بغير أن يسبق ذلك وجود ماده أو خطه سابقه.

هنا يعترض بعضـهم بقوله:كيف يمكن إيجاد شىء من عدم و نحن قد بحثنا هذا فى تفسير الآيه(۱۱۷)من سوره البقره،و ذكرنا ما ملخصه:إنّنا عنـد ما نقول إنّ اللّه أوجـد الأشـياء من العـدم لا نعنى أنّ الماده الأوليه لخلقها هى«العدم»مثلما نقول:إنّ النجار صـنع الكرسى من الخشب، فهذا بالطبع مستحيل،لأنّ«العدم»لا يمكن أن يكون ماده«الوجود».

إنّما المقصود هو أنّ موجودات هذا العالم لم تكن موجوده من قبل،ثمّ وجدت،و ليس فى هذا ما يصعب فهمه،و قد ضربنا لذلک أمثله فى تفسير آيه (١١٧)من سوره البقره،و نضيف هنا قائلين:إنّنا قادرون على أن نوجد فى أذهاننا أشياء لم تكن فيها من قبل مطلقا،و لا شک أنّ لهذه الموجودات الذهنيه نوعا من الوجود و الكينونه،رغم أنّه ليس وجودا خارجيا،و لكنّها موجوده فى أفق أذهاننا،و إذا كان وجود الشيء بعد العدم مستحيلا،فما الفرق بين الوجود الذهنى و الوجود الخارجى؟ و بناء على ذلک فإنّنا كما نستطيع أن نخلق فى أذهاننا كائنات لم يكن لهم وجود من قبل،كذلک يفعل اللّه ذلک فى العالم الخارجى،انّ قليلا من التأمل فى هذا المثال أو فى الأمثله التى ضربناها هناک كاف لحل هذه المسأله.

۴-ما معنى«اللطيف»؟

«اللطيف»من ماده«لطف»و قد وردت هذه الصفه فى الآيات السابقه كاحدى الصفات الالهيه،و اللطيف (١) إذا وصف به الجسم دل على الخفيف المضاد للثقيل،و يعبر باللطافه و اللطف عن الحركه الخفيفه و عن تعاطى الأمور الدقيقه التى قد لا تدركها الحواس،و يصح أن يكون وصف اللّه تعالى باللطف على هذا الوجه لمعرفته بدقائق الأمور،و لخلقه أشياء دقيقه لطيفه غير مرئيه،و تتسم أفعاله بالدقه المتناهيه الخارجه عن قدره الإدراک.

يروى(الفتح بن يزيد الجرجانى)حديثا عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السّلام يعتبر معجزه علميه فى هذا المجال يقول:قال الإمام عليه السّلام:«..إنّما قلنا اللطيف، للخلق اللطيف و لعلمه بالشيء اللطيف،أو لا ترى-وفقک اللّه و ثبتک-إلى أثر صنعه فى النبات اللطيف و غير اللطيف و من الخلق اللطيف و من الحيوان

١- ١) -أصول الكافى،ج ١،ص ٩٣.

الصغار و من البعوض و الجرجس و ما هو أصغر منها ما لا يكاد تستبينه العيون،بل لا يكاد يستبان لصغره الذكر من الأنثى،و الحدث المولود من القديم،لما رأينا صغر ذلك فى لطفه و اهتداءه للسفاد و الهرب من الموت و الجمع لما يصلحه و ما فى لجج البحار و ما فى لحاء الأشجار و المفاوز و القفار و إفهام بعضها عن بعض منطقها و ما يفهم به أولادها عنها و نقلها الغذاء إليها ثمّ تأليف ألوانها حمره مع صفره و بياض مع حمره و أنّه ما لا تكاد عيوننا تستبينه لدمامه خلقها لا تراه عيوننا و لا تلمسه أيدينا،علمنا أنّ خالق هذا الخلق لطيف لطف بخلق ما سميناه بلا علاج و لا أداه و لا آله و أنّ كل صانع شيء فمن شيء صنعه و اللّه الخالق اللطيف الجليل خلق و صنع لا من شيء».

إنّ هذا الحديث الذى يشير إلى الجراثيم و الكائنات المجهريه قبل أن يولد (پاستور)بقرون يفسر معنى اللطيف.

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود من اللطيف هو أنّ ذاته المقدسه من اللطافه بحيث لا تدرك بالحواس،و عليه فإنّه«اللطيف»لأنّ أحدا لا علم له به، و هو«الخبير»لأنّه عالم بكل شيء.

و قد ورد هذا المعنى فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أيضا (۱) و ليس هناك ما يمنع من إراده المعنيين من هذه الكلمه.

۱- ۱) -تفسير البرهان،ج ۱،ص ۵۴۸.

الآیات [سوره الأنعام (۶): الآیات ۱۰۴ الی ۱۰۷]

اشاره

قَدْ جٰاءَکُمْ بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِیَ فَعَلَیْهٰا وَ مٰا أَنَا عَلَیْکُمْ بِحَفِیظٍ (۱۰۴) وَ کَذٰلِکَ نُصَرِّفُ اَلْآیٰاتِ وَ لِیَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَیِّنَهُ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۱۰۵) اِتَّبِعْ مٰا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ اَلْمُشْرِکِینَ (۱۰۶) وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا أَشْرَکُوا وَ مٰا جَعَلْنٰاکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً وَ مٰا أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِوَکِیلٍ (۱۰۷)

التّفسیر

اشاره

لیس من واجبک الإکراه:

تعتبر هذه الآیات نتیجه للآیات السابقه،ففی البدایه تقول: قَدْ جٰاءَکُمْ بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ .

«بصائر»جمع«بصیره»من«البصر»بمعنی الرؤیه،و لکنّها فی الغالب رؤیه ذهنیه و عقلانیه،و قد تطلق علی کل ما یؤدی إلی الفهم و الإدراک،و هذه الکلمه فی هذه الآیات تعنی الدلیل و الشاهد،و تشمل جمیع الدلائل التی وردت فی الآیات السابقه،بل إنّها تشمل حتی القرآن نفسه.

ص :۴۱۸

ثمّ لکی تبیّن أنّ هـذه الأدله و البراهین کـافیه لإظهـار الحقیقه لأنّهـا منطقیه، تقول: فَمَنْ أَبْصَـرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِیَ فَعَلَیْهٰا ،أی أنّ إبصارهم یعود بالنفع علیهم و عماهم یسبب الإضرار بهم.

و فی نهایه الآیه تقول،علی لسان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ مٰا أَنَا عَلَیْکُمْ بِحَفِیظٍ .

للمفسّرین احتمالان فی تفسیر هذا المقطع من الآیه:

الأوّل:إنّی لست أنا المسؤول عن مراقبتکم و المحافظه علیکم و ملاحظه أعمالکم،فاللّه هو الـذی یحافظ علی الجمیع،و هو الـذی یعاقب و یثیب الجمیع،أنّ واجبی لا یتعدی إبلاغ الرساله و بذل الجهد لهدایه الناس.

و الآـخر:أنا غیر مأمور لأحملکم بالجبر و الإکراه علی قبول الإیمان،إنّما واجبی هو أن أدعوکم إلی ذلک بتبیان الحقائق بالمنطق و الحجّه و أنتم الذین تتخذون قرارکم النهائی.

و لیس ما یمنع من انطواء العباره علی کلا المعنیین.

الآیه التّالیه تؤکّد أنّ اتخاذ القرار النهائی فی إختیار طریق الحقّ أو الباطل إنّما یرجع للناس أنفسهم،و تقول: وَ کَذٰلِکَ نُصَرِّفُ الْآیٰاتِ (۱) أی کذلک نبیّن الأدله و البراهین بصور و أشکال متنوعه.

لکن جمعا عارضوا،و قالوا-دونما دلیل و برهان-إنّک تلقیت هذا من الآخرین(أی الیهود و النصاری): وَ لِیَقُولُوا دَرَسْتَ (۲) .

إلاـ أنّ جمعـا آخر ممن لهم الاسـتعداد لتقبـل الحق لمـا لهم من بصـیره و فهم و علم،یرون وجه الحقیقه و یقبلونها: وَ لِنُبَیِّنَهُ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ .

إنّ اتهام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّه اقتبس تعالیمه من الیهود و النصاری قد تکرر

۱- ۱) -«نصـرف»من«التصـرف»و هو بمعنی رد الشـیء من حاله أو إبداله بغیره،أی أنّ الآیات تنزل فی صور و أشـکال متنوعه و لمختلف المستویات العقلیه و العقائدیه و الاجتماعیه.

۲- ۲) -«اللام»فی لیقولوا هی«لام العاقبه»لبیان العاقبه التی وصل إلیها الأمر دون أن تکون هی الهـدف المقصود،لقـد کانت هذه تهمه یوجهها المشرکون إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

من جانب المشركين،و ما يزال المعارضون المعاندون يتابعونهم فی ذلک، مع أنّ حياه الجزيره العربيه لم تكن فيها مدرسه و لا درس ليتعلم منها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شيئا،كما أنّ رحلاته إلى خارج الجزيره كانت قصيره لا تدع مجالا لمثل هذا الاحتمال،ثمّ إنّ معلومات اليهود و المسيحيين الذين كانوا يسكنون الحجاز كانت على درجه من التفاهه و تسطير الخرافات بحيث لا يمكن-أصلا-مقارنتها بما فی القرآن و لا بتعاليم الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و سنشرح هذا الموضوع-إن شاء اللّه- عند تفسير الآيه(۱۰۳)من سوره النحل.

ثمّ تبيّن الآيه واجب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی قبال معانده المعارضين و حقدهم و اتهاماتهم،فتقول: اِتَّبِعْ مٰا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ و من واجبک أيضا الإعراض عما يوجهه إليك المشركون من افتراءات: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ .

هذا-فی الواقع-ضرب من التسليه و التقويه المعنويه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لكيلا يتاب عزمه الراسخ الصلب أی ضعف فی مواجهه أمثال هؤلاء المعارضين.

يتبيّن ممّا قلناه بجلاء أنّ عباره وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ لا تتعارض مطلقا مع الأمر بدعوتهم إلى الإسلام و لا مع الجهاد ضدهم،فالمقصود هو أن لا يلقی اهتماما إلى أقوالهم الباطله و اتهاماتهم الكاذبه،بل يمضی فی طريقه بثبات.

الآيه الأخيره يكرر القرآن فيما-مرّه أخرى-القول بأنّ اللّه لا يريد أن يكره المشركين و يجبرهم على الإسلام،إذ لو أراد ذلك لما كان هناك أی مشرك: وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا أَشْرَكُوا كما يؤكّد القول لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:إنّک لست مسئولا عن أعمال هؤلاء،لأنّک لم تبعث لإكراههم على الإيمان: وَ مٰا جَعَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ،و لا من واجبک حملهم على عمل الخير: وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ .

«الحفيظ»هو من يراقب أمرا أو شخصا ليحفظه من أن يصاب بضرر،أمّا «الوكيل»فهو من يسعى لإحراز النفع لموكله.

ص: ۴۲۰

لعل من المفيد أن نشير إلى أنّ نفى هاتين الصفتين«الحفاظ و الوكاله»عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعنى نفى الإجبار على دفع ضرر أو اجتلاب نفع،و إلاّ فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يدعوهم-ضمن تبليغه الرساله-إلى عمل الخير و ترك الشر بصوره طوعيه و اختياريه.

إنّ الفكره التى تسود هذه الآيات تستلفت النظر،فهى تقول:إنّ الإيمان باللّه و بتعاليم الإسلام لا يكون عن طريق الإكراه و الإجبار،بل يكون عن طريق المنطق و الاستدلال و النفوذ إلى أفكار الناس و أرواحهم،فالإيمان بالإكرام لا قيمه له،لأنّ المهم هو أن يدرك الناس الحقيقه فيتقبلوها بإرادتهم و اختيارهم.

كثيرا ما يؤكّد القرآن حقيقه كون الإسلام بعيدا عن كل عنف و خشونه،كتلك الأعمال التى كانت ترتكبها الكنيسه فى القرون الوسطى (۱) ،و محاكم تفتيش العقائد.

أمّا صلابه الإسلام فى مواجهه المشركين فسوف نبحثها-إن شاء اللّه فى بدايه تفسير سوره البراءه.

۱- ۱) -«القرون الوسطى»هى فتره الألف سنه التى امتدت بين القرن السادس الميلادى حتى نهايه القرن الخامس عشر،كما يطلق عليها اسم«الفتره المظلمه»التى مرت على أوروبا و المسيحيه،و الجدير بالذكر أنّ«العصر الذهبى الإسلامى»يقع فى منتصف القرون الوسطى.

الآيه [سوره الأنعام (۶): آيه ۱۰۸]

اشاره

وَ لاٰ تَسُبُّوا اَلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ فَيَسُبُّوا اَللّٰهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذٰلِكَ زَيَّنّٰا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۱۰۸)

التّفسير

اشاره

تناولت الآيات السابقه موضوع قيام تعاليم الإسلام على أساس المنطق، و قيام دعوته على أساس الاستدلال و الإقناع لا الإكراه،و هذه الآيه تواصل نفس التوجيهات فتنهى عن سبب ما يعبد الآخرون-أى المشركون-لأنّ هذا سوف يدعوهم إلى أن يعمدوا هم أيضا-ظلما و عدوانا و جهلا-إلى توجيه السب إلى ذات اللّه المقدسه: وَ لاٰ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَيَسُبُّوا اللّٰهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ .

يروى أنّ بعض المؤمنين كانوا يتألمون عند رؤيتهم عباده الأصنام، فيشتمون أحيانا الأصنام أمام المشركين،و قد نهى القرآن نهيا قاطعا عن ذلك، و أكّد التزام قواعد الأدب و اللياقه حتى فى التعامل مع أكثر المذاهب بطلانا و خرافه.

إنّ السبب واضح،فالسّب و الشّتم لا يمنعان أحدا من المضى فى طريق

الخطأ،بل إنّ التعصب الشديد و الجهل المطبق الذى يركب هؤلاء يدفع بهم إلى التمادى فى العناد و اللجاجه و إلى التشبث أكثر بباطلهم،و يستسهلون إطلاق ألسنتهم بسبّ مقام الرّبوبيه جل و علا،لأنّ كل أمّه تتعصب عاده لعقائدها و أعمالها كما تقول العباره التّاليه من الآيه: كَذٰلِكَ زَيَّنّا لِكُلِّ أُمَّهٍ عَمَلَهُمْ .

و فى الختام تقول الآيه: ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ.

بحوث

هنا ينبغى الانتباه إلى ثلاث نقاط:

۱-هذه الآيه نسبت إلى اللّه تزيين الأعمال الحسنه و السيئه لكل شخص، و قد يثير هذا عجب بعضهم،إذ كيف يمكن أن يزين اللّه أعمال المرء السيئه فى نظره؟ سبق أن أجبنا مرات على مثل هذه الأسئله فأمثال هذه التعبيرات تشير إلى صفه العمل و أثره،أى أنّ الإنسان عند ما يقوم بعمل ما بصوره متكرره،فإنّ قبح عمله يتلاشى فى نظره شيئا فشيئا،و يتخذ شكلا جذابا، و لما كان علّه العلل و سبب الأسباب و خالق كل شيء هو اللّه،و أنّ جميع التأثيرات ترجع إليه،فإنّ هذه الآثار تنسب أحيانا فى القرآن إلى اللّه(تأمل بدقّه).

و بعباره أوضح،إنّ عباره زَيَّنّا لِكُلِّ أُمَّهٍ عَمَلَهُمْ تفسر هكذا:لقد أقحمناهم فى نتائج سوء أفعالهم إلى الحد الذى أصبح القبيح جميلا فى نظرهم.

يتضح من هذا أنّ القرآن ينسب-أحيانا-تزيين الأعمال إلى الشيطان،و هذا لا يتعارض مع ما قلناه،لأنّ الشيطان يوسوس لهم لكى يرتكبوا الأعمال القبيحه، و هم يستسلمون لوسوسه الشيطان،فتكون النتيجه أنّهم يلاقون عاقبه أعمالهم السيئه،و بالتعبير العلمى نقول:إنّ السببيه من اللّه،و لكنّ هؤلاء هم الذين يوجدون

السبب،مدفوعين بوسوسه الشيطان(تأمل بدقّه) (۱) .

۲-الأحاديث الإسلاميه-أيضا-تواصل منطق القرآن فی ترک سبّ الضالين و المنحرفين،فقد أمر كبار قاده الإسلام بضروره الاستناد إلى المنطق و الاستدلال دائما،و بلزوم تجنب شتم عقائد الآخرين،و قد جاء فی نهج البلاغه أنّ الإمام على عليه السّلام خاطب فريقا من أصحابه الذين كانوا يسبون أتباع معاويه فی حرب صفين،

فقال: «إنی أكره لكم أن تكونوا سبابين،و لكنّكم لو وصفتم أعمالهم و ذكرتم حالهم كان أصوب فی القول و أبلغ فی العذر» . (۲)

۳-قد يعترض بعضهم قائلا:كيف يمكن لعبده الأصنام أن يسبوا اللّه مع أنّهم فی الغالب يؤمنون باللّه و يعتبرون الأصنام مجرّد شفعاء إلى اللّه.

و لكنّنا إذا أمعنا النظر فی حاله العامّه المعاندين المتعصبين أدركنا أنّ هذا ممكن و لا عجب فيه،فإنّ أمثال هؤلاء إذا أثير غضبهم سعوا للانتقام و الإثاره بأی ثمن كان،حتى و إن كان ذلک بالإساءه إلى عقائد مشتركه يقول الآلوسی فی «روح المعانی»إنّ بعض العوام من الجهله عند ما سمع بعض الشيعه يسب الشّيخين أزعجه ذلک فراح يسب عليا عليه السّلام،و إذا سئل عمّا دعاه إلى سب الإمام على عليه السّلام الذی يحترمه،قال:كنت أريد أن أنتقم من ذلک الشيعی،و لم أجد ما يغضبه و يثيره خيرا من هذا،فحملوه على أن يتوب عما فعل (۳) .

۱- ۱) -فی ثمانيه مواضع من القرآن نسب تزيين الأعمال إلى الشيطان،و فی عشره مواضع جاء التعبير بصيغه-المبنی للمجهول «زين»،و فی موضعين إثنين نسب إلى اللّه،و ممّا سبق أن قلناه يتضح معنى هذه الحالات الثلاث.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الكلام ۲۰۶.

۳- ۳) -الآلوسی،«تفسير روح المعانی»،ج ۷،ص ۲۱۸.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۰۹ الی ۱۱۰]

اشاره

وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهٰا قُلْ إِنَّمَا اَلْآيٰاتُ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ مٰا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهٰا إِذٰا جٰاءَتْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۱۰۹) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ كَمٰا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱۰)

سبب النّزول

قیل فی نزول هذه الآیه: إنّ قریش قالت:یا محمّد تخبرنا أنّ موسی کانت معه عصا یضرب بها الحجر فینفجر منه اثنتا عشره عینا،و تخبرنا أنّ عیسی کان یحیی الموتی و تخبرنا أنّ ثمود کانت لهم ناقه فأتنا بآیه من الآیات کی نصدقک، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:أی شیء تحبون أن آتیکم به؟قالوا:اجعل لنا الصفا ذهبا، و ابعث لنا بعض موتانا،حتی نسألهم عنک أحق ما تقول أم باطل،و أرنا الملائکه یشهدون لک،أو ائتنا باللّه و الملائکه قبیلا!!فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«فإن فعلت بعض ما تقولون،أ تصدقوننی؟»قالوا:نعم و اللّه لئن فعلت لنتبعنک أجمعین،و سأل المسلمون رسول اللّه أن ینزلها علیهم حتی یؤمنوا.

فقام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یدعو اللّه تعالی أن یجعل الصفا ذهبا،فجاء جبرئیل علیه السّلام

فقال له:إن شئت أصبح الصفا ذهبا،و لكن إنّ لم يصدقوا عذبتهم،و إن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم،فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«بل يتوب تائبهم»فأنزل اللّه تعالى الآيتين.

التّفسير

وردت فى الآيات السابقه أدله كثيره كافيه على التوحيد،و ردّ الشرك و عباده الأصنام،و مع ذلك فإنّ فريقا من المشركين المعاندين المتعصبين لم يرضخوا للحق،و راحوا يعترضون و ينتقدون،من ذلك أنّهم أخذوا يطلبون من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم القيام بخوارق عجيبه و غريبه يستحيل بعضها أساسا(مثل طلب رؤيه اللّه)،زاعمين كذبا أنّ هدفهم من رؤيه تلك المعجزات هو الإيمان،فى الآيه الأولى،يقول القرآن: أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهٰا (١) .

و فى الردّ عليهم يشير القرآن إلى حقيقتين:يأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوّلا أن يقول لهم:

قُلْ إِنَّمَا الْآيٰاتُ عِنْدَ اللّٰهِ

،أى أن تحقيق المعجزه لا يكون وفق مشتهياتهم،بل إنّها بيد اللّه و بأمره.

ثمّ يخاطب المسلمين البسطاء الذين تأثروا بإيمان المشركين فيقول لهم:

وَ مٰا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهٰا إِذٰا جٰاءَتْ لاٰ يُؤْمِنُونَ

(٢)

مؤكدا بذلك أنّ هؤلاء المشركين كاذبون فى قسمهم.

كما أنّ مختلف المشاهد التى جرت بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تؤكّد حقيقه

۱- ۱) -«الجهد»بمعنى السعى و بذل الطاقه،و المقصود هنا الجهد فى توكيد القسم.

۲- ۲) -المفسّرون غير متفقين على«ما»،أ هى استفهاميه أم نافيه؟و كذلك فيما يتعلق بتركيب الجمله،بعضهم يقول إنّ«ما» استفهاميه استنكاريه،و لو كانت كذلك لكان معنى الآيه:أنّى لكم أن تعلموا إنّهم لا يؤمنون إن رأوا معجزه،أى إنّه قد يؤمنون، و هذا خلاف ما تريده الآيه،لذلك اعتبر بعضهم«ما»نافيه،و هو الأقرب إلى الذهن،فيكون معنى الآيه:أنتم لا تعلمون إنّهم حتى إذا تحققت لهم المعجزات لا يؤمنون،و على ذلك يكون فاعل«يشعر»مقدر بمعنى«شيء»و للفعل«يشعر»مفعولان«كم» و أَنَّهٰا... (تأمل بدقّه).

أنّهم لم يكونوا يبحثون عن الحق،بل كان هدفهم من كل ذلك أن يشغلوا الناس و يبذروا فى نفوسهم الشك و التردد.

الآيه التّاليه تبيّن سبب عنادهم و تعصبهم،فتقول: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ كَمٰا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ أى أنّهم بإصرارهم على الانحراف و السير فى طريق ملتو و تعصبهم الناشئ عن الجهل و رفض التسليم للحق،أضاعوا قدرتهم على الرؤيه الصحيحه و الإدراك السليم،فراحوا يعيشون فى متاهات الضلال و الحيره.

هنا أيضا نسب هذا الفعل إلى اللّه كما سبق من قبل،و هو فى الواقع نتيجه أعمالهم و سوء فعالهم،و ما نسبه ذلك إلى اللّه إلّا لأنّه علّه العلل و مبدأ عالم الوجود،و كل خصيصه فى أى شىء إنّما هى بإرادته،و بعباره أخرى:إنّ اللّه جعل من النتائج الحتميه للعناد و التعصب الأعمى و الانحراف أن يكون لها مثل هذا الأثر،و هو انحراف الإنسان شيئا فشيئا فى هذا الطريق،فلا يعود يدرك الأمور إدراكا سليما.

ثمّ تشير الآيه فى الخاتمه إلى أنّ اللّه،يترك أمثال هؤلاء فى حالتهم تلك لكى يشتد ضلالهم و تزداد حريتهم: وَ نَذَرُهُمْ فِى طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱) .

نسأل اللّه أن يجنبنا الابتلاء بمثل هذا الضلال و الحيره الناتجه عن أعمالنا السيئه،و أن يمنحنا النظره السليمه الكامله لكى نرى الحقيقه ناصعه لا غبش عليها.

۱- ۱) -«يعمهون»من«عمه»بمعنى الحيره و الشك.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۱۱]

اشاره

وَ لَوْ أَنَّنٰا نَزَّلْنٰا إِلَیْهِمُ اَلْمَلاٰئِکَهَ وَ کَلَّمَهُمُ اَلْمَوْتیٰ وَ حَشَرْنٰا عَلَیْهِمْ کُلَّ شَیْءٍ قُبُلاً مٰا کٰانُوا لِیُؤْمِنُوا إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اَللّٰهُ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ یَجْهَلُونَ (۱۱۱)

التّفسیر

اشاره

لماذا لا یرعوی المعاندون؟

هذه الآیه تتبع سابقاتها فی تعقیب الحقیقه نفسها،و هدف هذه الآیات هو بیان کذب أولئک الذین طلبوا تحقیق معجزات عجیبه و غریبه یستحیل تحقق بعضها کما مرّ(مثل رؤیه اللّه جهره).

فهم یظنون أنّهم بطلبهم تلک المعجزات العجیبه سوف یزعزعون أفکار المؤمنین و یزلزلون عقائد الباحثین عن الحق و یشغلونهم عن ذلک.

فیصرّح القرآن فی الآیه المذکوره قائلا: وَ لَوْ أَنَّنٰا نَزَّلْنٰا إِلَیْهِمُ الْمَلاٰئِکَهَ وَ کَلَّمَهُمُ الْمَوْتیٰ وَ حَشَرْنٰا عَلَیْهِمْ کُلَّ شَیْءٍ قُبُلاً مٰا کٰانُوا لِیُؤْمِنُوا (۱) .

---

۱ – ۱) – حَشَرْنٰا عَلَیْهِمْ کُلَّ شَیْءٍ تعنی:حققنا لهم کل طلباتهم،فالحشر بمعنی الجمع،و قبلا بمعنی أمامهم و قبالتهم،و قد تکون «قبل»جمع«قبیل»بمعنی تجمیع الملائکه و الأموات أمامهم جماعات.

ثمّ يؤكّد ذلك أنّهم لا يمكن أن يؤمنوا إلّا فى حاله واحده و هى أن يجبرهم اللّه بإرادته على الإيمان: إِلّا أَنْ يَشاءَ اللّهُ إلّا أنّ إيمانا كهذا لا ينفع فى تربيتهم و لا يؤثر فى تكاملهم و فى النهايه يقول: وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ .

هناك كلام مختلف بين المفسّرين عمّن يعود إليهم الضمير«هم»فى هذه العباره،فقد يعود إلى المؤمنين الذين أصروا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يحقق للمشركين طلباتهم و يأتيهم بكل معجزه يريدونها.

و ذلك لأنّ معظم هؤلاء المؤمنين كانوا يجهلون زيف الكفار فى دعواهم، و لكنّ اللّه كان عالما بأنّهم كاذبون،و لذلك لم يجبهم إلى طلباتهم،إلاّ أنّ دعوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يمكن أن تخلو-طبعا-من معجزه،فقد حقق اللّه فى مواضع خاصّه معجزات مختلفه على يده.

و الاحتمال الآخر هو أنّ الضمير«هم»يعود إلى الكفار أصحاب الطلبات أنفسهم،أى أنّ أكثرهم يجهل قدره اللّه على تحقيق كل أمر خارق للعاده،و لعلهم يعتبرون قدرته محدوده لذلك كانوا يصفون معاجز الرّسول بالسحر،يقول سبحانه: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (1) فهم قوم معاندون و جاهلون و ينبغى أن لا يهتم أحد بكلامهم.

1- 1) -الحجر،14 و 15.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۳]

اشاره

وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ اَلْإِنْسِ وَ اَلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ اَلْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ مٰا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مٰا يَفْتَرُونَ (۱۱۲) وَ لِتَصْغىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا مٰا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (۱۱۳)

التّفسير

اشاره

وساوس الشياطين:

تشير هذه الآيه إلى أنّ أمثال هؤلاء المعاندين اللجوجين المتعصبين الذين أشارت إليهم الآيات السابقه،لم يقتصر وجودهم على عهد نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،بل إنّ الأنبياء السابقين وقف فى وجوههم أعداؤهم من شياطين الإنس و الجن:

وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ

،لا عمل لهم سوى الكلام المنمق الخادع يستغفل به بعضهم بعضا،يلقونه فى غموض أو يهمس به بعض لبعض: يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً .

و لكن:لو أراد اللّه لمنع هؤلاء بالإكراه عن ذلك و لحال دون وقوف هؤلاء الشياطين و أمثالهم بوجه الأنبياء: وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّكَ مٰا فَعَلُوهُ .

بيد أنّ اللّه لم يشأ ذلك،لأنّه أراد أن يكون الناس أحرارا،و ليكون هناك مجال لاختبارهم و تكاملهم و تربيتهم،إنّ سلب الحريه و الإكراه لا يأتلف مع هذه

الأغراض،ثمّ إنّ وجود أمثال هؤلاء الأعداء المعاندين المتعصبين لا يضر المؤمنين الصادقين،شيئا،بل يؤدی بشكل غير مباشر إلی تكامل الجماعه المؤمنه،لأنّ التكامل يسير عبر التضاد،و وجود عدو قوی له تأثير علی تعبئه الطاقات البشريه و تقويه الإراده.

لذلك يأمر اللّه نبيّه فی آخر السوره أن لا يلقی بالا إلی أمثال هذه الأعمال الشيطانيه: فَذَرْهُمْ وَ مٰا يَفْتَرُونَ .

ملاحظات:

نسترعی الانتباه إلی النقاط التّاليه:

۱-فی هذه الآيه ينسب اللّه إلی نفسه وجود شياطين الإنس و الجن فی قبال الأنبياء بقوله: وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا... و اختلف المفسّرون فی معنی هذه العباره، و لكن كما سبق أن شرحنا جميع أعمال الناس يمكن أن تنسب إلی اللّه،لأنّ ما يملكه الناس إنّما هو من اللّه،فقدرتهم منه،و كذلك حريه اختيارهم و إرادتهم، لذلك فان أمثال هذه التعبيرات لا يمكن أن تعنی سلب حريه الإنسان و اختياره، و لا أنّ اللّه قد خلق بعض الناس ليتخذوا موقف العداء من الأنبياء،إذ لو كان الأمر كذلك لما توجهت إليهم أيه مسئوليه بشأن عدائهم للأنبياء،لأنّ عملهم فی هذه الحاله يعتبر تنفيذا لرسالتهم،و الأمر ليس كذلك...بالطبع.

و لا يمكن إنكار ما لوجود أمثال هؤلاء الأعداء-المختارين طبعا-من أثر بنّاء غير مباشر فی تكامل المؤمنين،و بتعبير آخر:يستطيع المؤمنون الصادقون أن ينتزعوا من وجود الأعداء أثرا إيجابيا متخذين منه وسيله لرفع مستواهم و وعيهم و إعدادهم للمقاومه،لأنّ وجود العدو يحفز الإنسان لاستجماع قواه.

۲-للشياطين(جمع شيطان)معنی واسع يشمل كل طاغ معاند مؤذ،لذلك يطلق القرآن علی الوضيع الخبيث الطاغی من البشر اسم الشيطان،كما نلاحظ فی هذه الآيه حيث ذكر شياطين الإنس و غير الإنس الذين لا نراهم، أمّا«إبليس»

فهو اسم خاص للشيطان الذى وقف بوجه آدم عليه السّلام و هو فى الحقيقه رئيس جميع الشياطين،و عليه فالشيطان اسم جنس،و إبليس اسم على خاص (۱) .

۳- زُخْرُفَ الْقَوْلِ يعنى الكلام المعسول الخادع الذى يعجبك ظاهره و هو فى الباطن قبيح (۲) و«الغرور»هو الغفله فى اليقظه.

۴-تعبير يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ فيه إشاره لطيفه إلى أنّهم فى أقوالهم و أفعالهم الشيطانيه يرسمون خططا غامضه يبتادلونها فيما بينهم سرّا لئلا يعرف الناس شيئا عن أعمالهم حتى ينفذوا خططهم كامله،أنّ من معانى«الوحى» الهمس فى الأذن.

الآيه التّاليه تشير إلى نتيجه كلام الشياطين المزخرف الخادع فتقول:أخيرا سيستمع الذين لا إيمان لهم-أى الذين لا يؤمنون بيوم القيامه-إلى تلك الأقوال و تميل قلوبهم إليها: وَ لِتَصْغىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ (۳) .

«لتصغى»من«الصغو»و هو الميل إلى شيء،و لكنّه فى الأغلب ميل ناشئ عن طريق السمع،فإذا استمع أحد إلى كلام مع الموافقه،فهو«الصغو» و«الإصغاء».

ثمّ يقول:إنّ نهايه هذا الميل هو الرضاع التام-بالمناهج الشيطانيه وَ لِيَرْضَوْهُ .

و ختام كل ذلك كان ارتكاب أنواع الذنوب و الأعمال القبيحه: وَ لِيَقْتَرِفُوا مٰا هُمْ مُقْتَرِفُونَ .

۱- ۱) -انظر المجلد الأوّل بهذا الشأن.

۲- ۲) -«زخرف»تعنى أصلا الزينه و الذهب الذى يستخدم للزينه،ثمّ أطلقت على الكلام ذى الظاهر الجميل المزين.

۳- ۳) -يختلف المفسّرون فى إعراب هذه الآيه،و فى ما عطفت عليه جمله«و لتصغى»أمّا الأقرب إلى مفهوم الآيه فهو أن الجمله معطوفه على«يوحى»و لامها«لام العاقبه»أى إنّ عاقبه أمر الشياطين ستكون أنّهم يوحى بعضهم إلى بعض كلاما خادعا فيميل إليه الذين لا إيمان لهم،و قد تكون معطوفه على محل«غرورا»و هى مفعول لأجله(إذ أنّ الإنسان ينخدع أوّلا ثمّ يميل إلى ما انخدع به)فتأمل بدقّه.

الآیتان [سوره الأنعام (۶): الآیات ۱۱۴ الی ۱۱۵]

اشاره

أَ فَغَيْرَ اَللّٰهِ أَبْتَغِی حَكَماً وَ هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ اَلْكِتٰابَ مُفَصَّلاً وَ اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُمْتَرِينَ (۱۱۴) وَ تَمَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لاٰ مُبَدِّلَ لِكَلِمٰاتِهِ وَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۱۱۵)

التّفسیر

هـذه الآیه فی الواقع هی نتیجه الآیـات السابقه،إذ تقول:بعـد کل تلک الأدله و الآیات الواضـحه التی تؤکّـد التوحیـد: أَ فَغَيْرَ اللّٰهِ أَبْتَغِی حَكَماً (۱) ؟و هو الـذی أنزل هـذا الکتاب السـماوی العظیم الذی فیه کل احتیاجات الإنسان التربویه،و ما یمیز بین الحق و الباطل و النّور و الظلمه،و الکفر و الإیمان: وَ هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتٰابَ مُفَصَّلاً .

و لیس الرّسول و المسـلمون وحـدهم یعلمون أنّ هـذا الکتـاب قـد نزل من اللّه، بـل إنّ أهـل الکتـاب(الیهود و النصاری)یعلمون ذلک أیضا،لأنّ علائم هذا الکتاب

ص: ۴۳۶

---

۱ – ۱) -«الحکم»القاضـی و الحاکم،و بعضـهم یراه مساویا للحاکم من حیث المعنی،و لکن یری بعضـهم،و منهم الشـیخ الطوسی رحمه اللّه، أنّ الحکم من لا یحکم بغیر الحق،أمّا الحـاکم فقـد یحکم بکلیهمـا،و یری آخرون،و منهم صاحب المنار أنّ الحکم من یختاره الطرفان للحکم،و لیس الحاکم کذلک.

السماوی قرءوها فی کتبهم و یعلمون أنّه نزل من اللّه بالحق: وَ الَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ الْکِتٰابَ یَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ .

و علی ذلک لم یبق مجال للشک فیه،و کذلک أنت أیّها النّبی لا تشک فیه أبدا، فَلاٰ تَکُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِینَ .

هنا یبرز هذا السؤال:هل کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یداخله أدنی شک لیخاطب بمثل هذا القول؟ و الجواب:هو ما سبق أن قلناه فی مثل هذه الحالات،و هو أن المخاطب فی الحقیقه هم الناس،و ما مخاطبه النّبی مباشره إلاّ لتوکید الموضوع و ترسیخه، و لیکون التحذیر للناس أقوی و أبلغ.

الآیه التّالیه تقول: وَ تَمَّتْ کَلِمَهُ رَبِّکَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لاٰ مُبَدِّلَ لِکَلِمٰاتِهِ وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ .

«الکلمه»بمعنی القول،و تطلق علی کل جمله و کل کلام مطولا-کان أم موجزا،و قد تطلق علی الوعد،کما فی الآیه: وَ تَمَّتْ کَلِمَتُ رَبِّکَ (الْحُسْنیٰ)عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ بِمٰا صَبَرُوا (1) ،لأنّ الشخص عند ما یعد یتلفظ ببعض الکلمات المتضمنه لمفهوم الوعد.

و قد یأتی بمعنی الدین و الحکم و الأمر للسبب نفسه.

أمّا بالنسبه لاستعمالها فی هذه الآیه فقیل إنّها تعنی القرآن،و قیل إنّها دین اللّه،و قیل:وعد النصر الذی وعد اللّه نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.و لیس بین هذه تعارض،فقد تکون الآیه أرادت هذه المعانی جمیعا،و لأنّ الآیات السابقه کانت تشیر إلی القرآن، فتفسیر الکلمه بالقرآن أقرب.

فیکون معنی الآیه إذن:إنّ القرآن لیس موضع شک بأیّ شکل من الأشکال، فهو کامل من جمیع الجهات و لا عیب فیه،و کل أخباره و ما فیه من تواریخ صدق،

1- 1) -الأعراف،136.

و کل أحکامه و قوانینه عدل.

و ربّما یکون معنی«کلمه»هنا هو الوعد الذی جاء فی العباره التّالیه لاٰ مُبَدِّلَ لِکَلِمٰاتِهِ إذ یتکرر هذا التعبیر فی القرآن الکریم کقوله تعالی: وَ تَمَّتْ کَلِمَهُ رَبِّکَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِینَ (۱) و قوله سبحانه وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِینَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (۲) ،فی أمثال هذه الآیات تکون الآیه التّالیه بیانا للوعد الذی ورد من قبل تحت لفظه«کلمه».

و علی ذلک یکون معنی الآیه:لقد تحقق وعدنا بالصدق و بالعدل،و هو أنّه لیس لأحد القدره علی تبدیل أحکام اللّه.

و قد تتضمن الآیه کل هذه المعانی.

و إذا کانت الآیه تعنی القرآن،فذلک لا یتعارض مع کون القرآن لم یکن قد اکتمل نزوله حینذاک،إذ المقصود هو أن ما نزل منه کان متکاملا و لا عیب فیه.

و یستند بعض المفسّرین إلی هذه الآیه لاثبات عدم تحریف القرآن،لأنّ تعبیر لاٰ مُبَدِّلَ لِکَلِمٰاتِهِ تعنی أنّ أحدا لا یستطیع أن یحدث فی القرآن تبدیلا أو تغییرا،لا فی لفظه،و لا فی إخباره،و لا فی أحکامه،و أنّ هذا الکتاب السماوی الذی یجب أن یبقی حتی نهایه العالم هادیا للناس سیبقی محفوظا و مصونا من أغراض الخائنین و المحرفین.

۱- ۱) -هود،۱۱۹.

۲- ۲) -الصافات،۱۷۱ و ۱۷۲.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۱۶ الی ۱۱۷]

اشاره

وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ یُضِلُّوکَ عَنْ سَبِیلِ اَللّهِ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاّ یَخْرُصُونَ (۱۱۶) إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ یَضِلُّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ (۱۱۷)

التّفسیر

نعلم أنّ آیات هذه السوره نزلت فی مکّه،یوم کان المسلمون قلّه فی العدد، و لعل قلّتهم هذه و کثره المشرکین و عبده الأصنام کانت مدعاه لتوهم بعضهم أنّه إذا کان دین أولئک باطلا فلم کثر أتباعه؟!و إذا کان دین الإسلام حقّا،فما سبب قلّه معتنقیه؟ و لدفع هذا التوهم یخاطب اللّه نبیّه بعد ذکر أحقیّه القرآن فی الآیات السابقه قائلا: وَ إِنْ تُطِعْ أَکْثَرَ مَنْ فِی الْأَرْضِ یُضِلُّوکَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ .

و فی الجمله التّالیه یبیّن سبب ذلک،و هو أنّهم لا یتبعون المنطق و التفکیر السلیم،بل هم یتبعون الظنون التی تخالطها الأهواء و الأکاذیب و یمتزج بها الخداع و التخمین: إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاّ یَخْرُصُونَ (۱) .

ص: ۴۳۹

۱- ۱) -«الخرص»هو کل قول أطلق عن ظن و تخمین،و أصله من تخمین کمیه الثمر علی الأشجار عند استئجار البستان،و أمثال

فیکون مفهوم الآیه الشریفه أنّ الأکثریه لا یمکن أنّ تکون وحدها الدلیل علی طریق الحق،و من هذا نستنتج أنّه یجب التوجه إلی اللّه وحده لمعرفه طریق الحق،حتی لو کان السائرون فی هذا الطریق قلّه فی العدد.

و الدلیل علی ذلک یرد فی الآیه التّالیه التی تؤکّد علی أنّ اللّه علیم بکل شیء و لا مکان للخطأ فی علمه،فهو أعرف بطریق الهدایه،کما هو أعرف بالضالین و بالسائرین علی طریق الهدایه: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ یَضِلُّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ (۱)
.

هنا یبرز سؤال:یفهم من الآیه أنّ اللّه سبحانه أعلم بطریق الهدایه،فهل هناک من یعلم طریق الهدایه بدون هدی اللّه حتی کون اللّه هو الأعلم؟! و الجواب:إنّ الإنسان قادر-بلا شک-أن یتوصل بعقله إلی بعض الحقائق، و یدرک طریق الهدایه و الضلاله إلی حد ما،غیر أنّ مدیّات ضوء العقل لها حدود، و قد یظل بعض الحقائق خارج نطاق تلک الحدود،ثمّ إنّ معلومات الإنسان قد یعتورها الخطأ،فیکون لذلک بحاجه إلی مرشدین و هداه إلهیین،لذلک فتعبیر«اللّه أعلم»صحیح،و إن یکن قیاسا مع الفارق.

لا أهمیه للکثره العددیه:

علی العکس ممّا یظنّه بعضهم بأنّ الکثره العددیه توافق الصواب دائما فإنّ القرآن ینفی هذا فی کثیر من آیاته،و لا یقیم للکثره«العددیه»أی وزن،بل یری-فی الحقیقه-إنّ الکثره«الکیفیه»هی المقیاس،لا الکثره«الکمیه»علی الرغم من أنّ المجتمعات المعاصره لم تجد لإداره الحیاه الاجتماعیه طریقا سوی

(۱)

ذلک،ثمّ أطلق علی کل ظن و تخمین قد یطابق الواقع و قد لا یطابقه،و الکلمه تستعمل فی الکذب أیضا،و قد تکون فی الآیه بکلا المعنیین.

۱- ۱) -صیغه التفضیل تتعدی عاده بالباء،فکان المفروض أن یقال«أعلم بمن یضل»و لکن الباء حذفت هنا و«من یضل» منصوبه بنزع الخافض.

الاستناد إلى الأكثريه،فلا ننس أنّ هذا-كما قلنا-نوع من الاضطرار و الوصول إلى طريق مسدود،إذ لا يمكن العثور فى مجتمع مادى على وسيله صحيحه و سليمه لاتخاذ القرارات و لسن القوانين.

لذلك نجد الكثير من العلماء مضطرين إلى القبول بفكره الأكثريه،على الرغم من اعترافهم بأنّ هذه القاعده كثيرا ما يصاحبها الخطأ،و ذلك لأنّ عيوب الوسائل الأخرى أكثر.

بيد أنّ مجتمعا مؤمنا برساله الأنبياء لا يجد نفسه مضطرا لاتباع نظر الأكثريه فى سن القوانين،لأنّ مناهج الأنبياء الصادقه و قوانينهم الإلهيه خاليه من كل عيب و نقص،و لا يمكن مقارنتها بما تستصوبه الأكثريه المعرضه للخطأ.

لو ألقينا نظره على وضع العالم اليوم و على الحكومات القائمه على أساس رأى الأكثريه،و على القوانين السقيمه التى تمليها الأهواء ثمّ تقرها الأكثريه، لرأينا أنّ الأكثريه العدديه لم تداو جرحا،بل إنّ معظم الحروب و أكثر المفاسد أقرّتها الأكثريه.

الاستعمار،و الاستغلال،و الحروب،و إراقه الدماء،و حريه تعاطى المسكرات،و القمار،و الإجهاض،و البغاء،و غير ذلك ممّا يندى له الجبين خجلا، قد أقرّتها الأكثريه فى المجالس النيابيه فى كثير من البلدان التى تصف نفسها بأنّها متقدمه باعتبارها تعكس رغبه أكثريه عامّه الناس،و هذا دليل على حقيقه ما نقول.

و من الناحيه العلميه نتساءل هل أنّ أكثريه المجتمعات صادقه؟هل الأكثريه أمينه؟أ تراها تمنع نفسها من الاعتداء على حقوق الآخرين،إذا استطاعت؟هل تنظر الأكثريه إلى منافعها و منافع الآخرين بنظره واحده؟ الإجابات ناطقه بلسان الحال لا المقال،لذلك لا بدّ من الاعتراف بأنّ استناد العالم المعاصر إلى الأكثريه نوع من الإكراه تفرضه الأوضاع القائمه،و انّه شر

مفروض على المجتمعات.

نعم،لو أنّ العقول المفكره،مصلحى المجتمعات البشريه المخلصين، و العلماء الهادين-و هم أقليه دائما-شنوا حمله شامله لتنوير أفكار عامّه الناس بحيث تنال المجتمعات قسطا من الوعى و الرشد الفكرى و الاجتماعى،لاقتربت وجهات نظر أكثريه كهذه إلى الحقيقه اقترابا كبيرا،غير أنّ أكثريه غير راشده و غير واعيه،بل فاسده و منحرفه و ضاله،لا تستطيع أن تقيل عثره نفسها أو غيرها!لذلك فالأكثريه وحدها لا تكفى،و إنّها الأكثريه المهتديه هى القادره على حل مشاكل المجتمع إلى الحد الذى يستطيعه بشر.

و إذا كان القرآن فى كثير من المواضع يذم الأكثريه،فالمقصود هو الأكثريه غير الرشيده دون شك.

ص :۴۴۲

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۱۸ الی ۱۲۰]

اشاره

فَکُلُوا مِمّٰا ذُکِرَ اِسْمُ اَللّٰهِ عَلَیْهِ إِنْ کُنْتُمْ بِآیٰاتِهِ مُؤْمِنِینَ (۱۱۸) وَ مٰا لَکُمْ أَلاّٰ تَأْکُلُوا مِمّٰا ذُکِرَ اِسْمُ اَللّٰهِ عَلَیْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَکُمْ مٰا حَرَّمَ عَلَیْکُمْ إِلاّٰ مَا اُضْطُرِرْتُمْ إِلَیْهِ وَ إِنَّ کَثِیراً لَیُضِلُّونَ بِأَهْوٰائِهِمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِینَ (۱۱۹) وَ ذَرُوا ظٰاهِرَ اَلْإِثْمِ وَ بٰاطِنَهُ إِنَّ اَلَّذِینَ یَکْسِبُونَ اَلْإِثْمَ سَیُجْزَوْنَ بِمٰا کٰانُوا یَقْتَرِفُونَ (۱۲۰)

التّفسیر

اشاره

لا بدّ من إزاله آثار الشرک:

هـذه الآیات فی الحقیقه واحـده من نتائـج البحوث التی سـبقت فی التوحید و الشـرک، لذلک تبدأ الآیه الأولی بفاء التفریع التی یؤتی بعدها بالنتیجه.

الآیات السابقه تناولت بأسالیب متنوعه حقیقه التوحید و إثبات بطلان الشرک و عباده الأصنام.

و من نتائـج ذلک أنّ علی المسـلمین أن یمتنعوا عن أکل لحوم القرابین التی تذبح باسم الأصـنام،بل علیهم أن یأکلوا من لحم ما ذکر اسم اللّه علیه،حیث کان

من عاده العرب أن يذبحوا القرابين لأصنامهم،و يأكلوا من لحومها للتبرك بها، و كان هذا جزءا من عبادتهم الأصنام،لذلك يبدأ القرآن بالقول: فَكُلُوا مِمّٰا ذُكِرَ اسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيٰاتِهِ مُؤْمِنِينَ .

أى أنّ الإيمان ليس مجرّد قول و ادعاء و عقيده و نظريه،بل لا بدّ أن يظهر على صعيد العمل أيضا،فالذى يؤمن باللّه يأكل من هذه اللحوم فقط.

بديهى أنّ الفعل«كلوا»لا يعنى الوجوب،بل يعنى إباحه أكلها و حرمه أكل ما عداها.

و من هذا يتبيّن أنّ حرمه الذبائح التى لم يذكر اسم اللّه عليها،ليست من وجهه النظر الصحيحه حتى يقال:ما الفائده الصّحيحه من ذكر اسم اللّه على الذبيحه بل لها خلفيه أخلاقيه و معنويه و تستهدف تثبيت قواعد التوحيد و عبوديه اللّه الواحد الأحد.

الآيه التّاليه تورد هذا الموضوع نفسه بعباره مغايره مع مزيد من الاستدلال، فتقول:لم لا تأكلون من اللحوم التى ذكر اسم اللّه عليها،فى الوقت الذى بيّن اللّه لكم ما حرم عليكم؟ وَ مٰا لَكُمْ أَلاّٰ تَأْكُلُوا مِمّٰا ذُكِرَ اسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ .

مرّه أخرى نشير إلى أنّ التوبيخ و التوكيد ليسا من أجل ترك أكل اللحم الحلال،بل الهدف هو أنّ هذه هى التى ينبغى أن تأكلوا منها،لا من غيرها،و بعباره أخرى:التوكيد يكون هنا على النقطه المقابله لمفهوم العباره،من هنا استدل على ذلك بالقول: قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ .

أمّا موضع هذا التفصيل فقد يتصوّر البعض أنّه فى سوره المائده،أو فى آيات من هذه السوره(الأنعام،١۴۵).

و لما كانت هذه السوره قد نزلت فى مكّه،و سوره المائده نزلت بالمدينه، و الآيات التّاليه من هذه السوره لم تكن قد نزلت بعد فإنّ أيّا من هذين

الاحتمالين غير صحيح،فالموضوع إمّا أن يكون الآيه(۱۱۵)من سوره النحل التی تذکر بعض اللحوم المحرم أکلها،و خاصّه التی لم یذکر علیها اسم اللّه،أو أن یکون المراد التعالیم التی کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بینها بشأن اللحوم،لأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن یتحدث إلاّ بوحی.

ثمّ یستثنی من ذلک حاله واحده: إِلاّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ سواء کان هذا الاضطرار ناشئا من وجود الإنسان فی البیداء و تحت ضغط الجوع الشدید،أو الوقوع تحت سیطره المشرکین الذین قد یجبرونه علی أکل لحومهم.

ثمّ تشیر الآیه إلی أنّ کثیرا من الناس یحاولون أن یضلوا الآخرین عن جهل أو عن إتباع الهوی: وَ إِنَّ کَثِیراً لَیُضِلُّونَ بِأَهْوٰائِهِمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ .

و علی الرغم من أنّ إتباع الهوی مصحوب دائما بالجهل،و لکنّه یکرر ذلک للتوکید فیقول: ...بِأَهْوٰائِهِمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ .

یستفاد من هذا التعبیر أیضا أنّ العلم الصحیح لا یقترن باتّباع الهوی و الانسیاق مع الخیال،و حیثما اقترن فهو الجهل لا العلم.

یلزم القول أنّ الجمله المذکوره ربّما تکون إشاره إلی ما کان سائدا بین المشرکین العرب الذین کانوا یسوغون لأنفسهم أکل لحوم الحیوانات المیته بالقول:أ یجوز أن تعتبر لحوم الحیوانات التی نقتلها بأنفسنا حلالا،و لحوم الحیوانات التی یقتلها اللّه حراما؟ بدیهی أنّ هذا لم یکن سوی سفسطه فارغه،لأنّ الحیوان المیت لیس حیوانا ذبحه اللّه لیمکن مقارنته بالحیوانات المذبوحه،إذ إنّ الحیوان المیت بؤره الأمراض،و لحمه فاسد،و لهذا حرم اللّه أکله،و أخیرا یقول: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِینَ الذین یحاولون بهذه الأدله الواهیه تنکّب طریق الحق،بل یسعون إلی إضلال الآخرین.

الآیه الثّالثه تذکر قانونا عاما،لاحتمال أن یرتکب بعضهم هذا الإثم فی

الخفاء،و تقول: وَ ذَرُوا ظٰاهِرَ الْإِثْمِ وَ بٰاطِنَهُ .

يقال إنّهم فی الجاهليه كانوا يعتقـدون أن الزنا إذا ارتكب فی الخفاء فلا بأس به،أما إذ ارتكب علنا فهو الإثم!و اليوم-أيضا-نجد أناسـا يسـيرون وفق هـذا المنطق الجـاهلی فيخشون ارتكـاب الإـثم علانيه،و لكنّهم يرتكبون فی الخفاء ما يشاءون من الآثام دون رادع من ضمير.

إنّ هذه الآيه لا تدين هذا المنطق فحسب،بل تحمل مفاهيم واسعه،فهی بالإضافه إلی ما قلناه آنفا تتضمن الكثير من التفاسير التی وردت للإـثم الظـاهر و البـاطن،من ذلـك مثلاـ-قولهم:انّ الإثم الظاهر هو ما يرتكب بوساطه أعضاء الجسم،و الإثم الباطن هو ما يرتكب فی القلب و فی النيّه و العزم.

ثمّ من باب تهديد المذنبين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم و تذكيرهم بذلك، تقول الآيه: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمٰا كٰانُوا يَقْتَرِفُونَ .

عباره يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ تعبير رائع يشـير إلی أن الإنسان فی هذه الدنيا أشـبه بأصحاب رؤوس الأموال الذين يدخلون سوقا كبيره،أنّ رؤوس أموالهم الذكاء و العقل و العمر و الشـباب و الطاقات المختلفه التی هی مواهب اللّه،فالمسـكين ذاك الذی«يكتسب»الإثم بدل أن يكتسب السعاده و الشخصيه الإنسانيه و التقوی و القرب إلی اللّه.

و«سـيجزون»أی ينالون الجزاء فی المستقبل القريب...قد يشير إلی يوم القيامه،و أنّه و إن بدا فی نظر بعضهم بعيدا،فهو فی الحقيقه قريب جدا،و إن هذا العالم سرعان ما تنطوی أيّامه و يحين المعاد.

و قد يكون إشاره إلی أنّ أغلب أفراد البشـر ينالون فی هذه الدنيا بعض ما يسـتحقونه من نتائج أعمالهم السـيئه بشكل ردود فعل فرديه و اجتماعيه.

الآيه [سوره الأنعام (۶): آيه ۱۲۱]

اشاره

وَ لاٰ تَأْكُلُوا مِمّٰا لَمْ يُذْكَرِ اِسْمُ اَللّٰهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ اَلشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰائِهِمْ لِيُجٰادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

التّفسير

دار الكلام فى الآيات السابقه حول الجانب الإيجابى من مسأله اللحوم،أى أكل اللحوم الحلال،و فى هذه الآيه تأكيد للجانب السلبى من المسأله:

وَ لاٰ تَأْكُلُوا مِمّٰا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ

ثمّ فى جمله واحده يدين هذا العمل:

وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ

و إثم و خروج عن طريق العبوديه و إطاعه اللّه.

و لكيلا يقع بعض البسطاء من المسلمين تحت تأثير وسوسه الشيطان، تخاطبهم الآيه:إنّ الشياطين يوسوسون فى الخفاء لأتباعهم لكى يدخلوا معكم فى جدل و نقاش: وَ إِنَّ الشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰائِهِمْ لِيُجٰادِلُوكُمْ و لكن كونوا على حذر،و لا تطيعوهم: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

لعل هذا الجدل و الوسوسه إشاره إلى ما كان سائدا بين المشركين بشأن أكل الميته(و ذهب البعض إلى أنّ العرب المشركين أخذوه من المجوس) و قولهم:إنّنا نأكل الميته لأنّ اللّه أماتها،و هى لذلك أفضل ممّا نقتله بأيدينا،معتقدين أن عدم

أكـل الميته نوع من الجفاء لعمل اللّه!غافلين أنّ الحيوان الميت موتا طبيعا،إضافه إلى مرضه غالبا،يضم بين لحمه دما قـذرا فاسـدا يفسد معه اللحم،بسـبب عدم انقطاع أوداجه،و لذلک أمر اللّه أن تؤكل-فقط-لحوم الحيوانات المذبوحه بطريقه خاصّه،و المراق دمها خارج بدنها.

و يسـتفاد من هـذه الآيه-ضـمنيا-حرمه الـذبيحه غير الإسـلاميه،لأنّها إضافه إلى الجهات الأخرى-لم يتقيـد ذابحها بذكر اسم اللّه عليها.

ص :۴۴۸

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۲۲ الی ۱۲۳]

اشاره

أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی اَلنّٰاسِ کَمَنْ مَثَلُهُ فِی اَلظُّلُمٰاتِ لَیْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا کَذٰلِکَ زُیِّنَ لِلْکٰافِرِینَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۲۲) وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰا فِی کُلِّ قَرْیَهٍ أَکٰابِرَ مُجْرِمِیهٰا لِیَمْکُرُوا فِیهٰا وَ مٰا یَمْکُرُونَ إِلاّٰ بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا یَشْعُرُونَ (۱۲۳)

سبب النّزول

قیل فی نزول الآیه الأولی إنّ أبا جهل الـذی کان من ألد أعداء الإسـلام و الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم آذی یوما رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم إیذاء شدیدا،و کان«حمزه»عم النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم-ذاک الرجل الشجاع-لم یسلم بعد،بل کان ما یزال یقلب الأمر فی ذهنه،و قد خرج فی ذلک الیوم کعادته للصـید فی الصـحراء،و عند عودته سمع بما جری بین أبی جهل و ابن أخیه،فغضب غضـبا شدیـدا و ذهب إلی أبی جهل و صـفعه صـفعه أسالت الـدم من أنفه،و علی الرغم من مکانه أبی جهل و نفوذه فی عشیرته،فإنّ لم یرد علیه لما یعرفه عن شجاعه حمزه.

و عاد حمزه إلی الرّسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أعلن إسلامه،و منذ ذلک الیوم أصبح

جنديا من جنود الإسلام،و دافع عنه حتى استشهد بين يدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

هذه الآيه نزلت بشأن هذه الحادثه و بيّنت إسلام حمزه،و إصرار أبى جهل على الكفر و الفساد.

و تفيد بعض الرّوايات الأخرى أنّ الآيه نزلت بشأن إسلام عمار بن ياسر و إصرار أبى جهل على الكفر.

و مهما يكن،فإنّ هذه الآيه-مثل الآيات الأخرى-لا تختص بواقعه نزولها، بل هى ذات مفهوم واسع يصدق على كل مؤمن صادق و كل معاند لجوج.

التّفسير

اشاره

الإيمان و الرّؤيه الواضحه:

ترتبط هذه الآيه بالآيات السابقه من حيث كون الآيات السابقه أشارت إلى طائفتين من الناس:المؤمنين المخلصين،و الكافرين المعاندين الذين لا يكتفون بضلالهم،بل يسعون حثيثا إلى تضليل الآخرين،هنا أيضا يتجسد وضع هاتين الطائفتين من خلال ضرب مثل واضح.

يشير المثال إلى طائفه من الناس كانوا من الضّالين،ثمّ غيروا مسيرتهم باعتناق الإسلام فهؤلاء أشبه بالميت الذى يحييه اللّه بإرادته: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ .

كثيرا ما يستعمل القرآن«الموت»و«الحياه»بالمدلول المعنوى لهما لتمثيل الكفر و الإيمان،و هذا يدل على أنّ الإيمان ليس مجرّد معتقدات جافه و أوراد و طقوس،بل هو بمثابه الروح التى تحل فى النفوس الميته غير المؤمنه،فتؤثر عليها فى جميع شؤونها،و تمنح العيون الرؤيه،و الآذان قدره السمع،و اللسان قوه البيان،و الأطراف العزم على أداء النشاطات البناءه...الإيمان يغير الأفراد، و يشمل هذا التغيير كل جوانب الحياه،و تبدو آثاره فى كل الحركات و السكنات.

و تفید جمله فَأَحْيَيْنٰاهُ أنّ الإیمان-و إن استلزم سعی الإنسان لنیله-لا یتم إلاّ بهدایه من اللّه!ثمّ تقول الآیه عن أمثال هؤلاء: وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ .

علی الرغم من وجود الاختلاف فی تفسیر هذا«النّور»فالظاهر أنّ المقصود لیس القرآن و تعالیم الشرع فحسب،بل أکثر من ذلک،حیث یمنح الإیمان باللّه الإنسان رؤیه و إدراکا جدیدین...یمنحه رؤیه واضحه و یوسع من آفاق نظرته لتتجاوز إطار حیاته المادیه و جدران عالم الماده الضیق إلی عالم أرحب و أوسع.

و لما کان الإیمان یدعو الإنسان إلی أن یبنی نفسه،فانه یزیح عن عینیه أغشیه الأنانیه و التعصب و المعانده و الأهواء،و یریه حقائق ما کان قادرا علی إدراکها من قبل.

إنّه فی ضوء هذه النّور یستطیع أن یمیز مسیره حیاته بین الناس،و أنّ یصون نفسه و یحافظ علیها و یحصنها ضد ما یقع فیه الآخرون من أخطار الطمع و الجشع و الأفکار المادیه المحدوده،و الوقوف بوجه أهوائه و کبح جماحها.

إنّ ما نقرأه فی الأحادیث الإسلامیه من أنّ«المؤمن ینظر بنور اللّه»إشاره إلی هذه الحقیقه،إنّ مجرّد الوصف غیر قادر علی تبیان خصائص هذه الرؤیه الإیمانیه التی یمنحها اللّه للإنسان،بل ینبغی أن یذوق الإنسان طعمها لکی یدرک بنفسه مغزی هذا القول و یحس به.

ثمّ تقارن الآیه بین هذا الإنسان الحی،الفعال،النیر،و المؤثر،بالإنسان العدیم الإیمان و المعاند،فتقول: كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا .

نلاحظ أنّ الآیه لا تقول:«کمن فی الظّلمات»بل تقول: كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ یقول بعضهم:إنّ الهدف من هذا التعبیر هو إثبات أنّ هؤلاء الأفراد غارقون فی الظّلمات و التعاسه إلی الحد الذی جعلهم مثلا یعرفه المدرکون.

ص :۴۵۱

و قـد يكون ذلـك إشاره إلى معنى أدق هو:أنّه لم يبق من وجود هؤلاء الأفراد سوى شـبح،أو قالب،أو مثال أو تمثال،لهم هياكل خاليه من الروح و أدمغه معطله عن العمل.

لا بدّ من القول-أيضا-إنّ«النّور»الذى يهدى المؤمنين جاء بصـيغه المفرد، بينما«الظّلمات»التى يعيش فيها الكافرون جاءت بصـيغه الجمع،و ذلك لأنّ الإيمان ليس سوى حقيقه واحـده،و هو يرمز إلى الوحده و التوحيد،بينما الكفر و عدم الإيمان مدعاه للتشـتت و التفرقه.

و فى الختام تشير الآيه إلى سبب مصير هؤلاء المشؤوم فتقول: كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكٰافِرِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ .

سبق أن قلنـا:إنّ من خصـائص تكرار العمـل القبيـح أنّ قبحه يتضـاءل فى عين الفاعـل حتى يبـدو له أخيرا و كـأنّه عمل جميل،و يتحول إلى مثل القيـد يشـد أطرافه،و يمنعه من الخروج من هـذا الفخ،إنّ مطالعه بسيطه لحال المجرمين تكشف لنا هذه الحقيقه بجلاء.

و لمّا كان بطل هـذه المشاهـد فى جانبها السـلبى هو«أبو جهل»الذى كان من كبار مشـركى قريش و مكّه،فالآيه الثّانيه تشـير إلى حال هؤلاء الزعماء الضالين و قاده الكفر و الفساد،فتقول: وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا فِى كُلِّ قَرْيَهٍ أَكٰابِرَ مُجْرِمِيهٰا لِيَمْكُرُوا فِيهٰا .

كررنـا القـول من قبـل:أنّ سـبب نسـبه أمثـال هـذه الأفعـال إلى اللّه،لكونه تعـالى هو علّه العلـل و مسـبب الأسـباب و مصـدر كل القدرات،و الإنسان يستخدم ما وهبه اللّه من إمكانات طالحا كان هذا الفعل أم صالحا.

جمله«ليمكروا»تشير إلى عاقبه أعمالهم،و لا تعنى الهدف من خلقهم (۱) أى أنّه عاقبه عصيانهم و كثره ذنوبهم أدت بهم إلى أن يصبحوا سدا على طريق الحق،

۱- ۱) -«اللام»هنا هى لام«العاقبه»و ليست اللام الغائيه،و قد وردت فى القرآن كثيرا.

و عاملا-على جر النـاس نحو الانحراف و الابتعاد عن طريق الحق،فالمكر فى الأصل هو اللف و الـدوران،ثمّ أطلق على كل عمل منحرف مقرون بالإخفاء.

و فى الختام تقول الآيه: وَ مٰا يَمْكُرُونَ إِلاّٰ بِأَنْفُسِهِمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ .

و أى مكر و خديعه أعظم من أن يقوم هؤلاء باستخدام كل رؤوس أموال وجودهم،بما فى ذلك فكرهم و ذكاؤهم و ابتكاراتهم و أعمارهم و وقتهم و أموالهم،فى صفقه لا تعود عليهم بأى ربح،بل تثقل ظهورهم بأحمال الذنوب و الآثام الثقيله،ظانين أنّهم قد أحرزوا الربح و الإنتصار! كما يستفاد من هـذه الآيه أنّ النكبات و التعاسه التى تصيب المجتمع إنّما تنشأ من كباره و قادته،إذ إنّهم هم الذين يتوسلون بالمكر و الحيله لتغيير معالم الطريق إلى اللّه،و يخفون وجه الحق عن الناس.

ص :۴۵۳

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۲۴]

اشاره

وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اَللّهِ اَللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ اَلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اَللّهِ وَ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (۱۲۴)

سبب النّزول

يقول العلاّمه الطّبرسى فى«مجمع البيان»:نزلت هذه الآيه بشأن«الوليد بن المغيره»(الذى كان من زعماء عبده الأصنام دماغهم المفكر)كان هذا يقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إذا كانت النّبوه حقّا،فأنا أولى منك بها لكبر سنى و لكثره مالى.

و قيل:إنّها نزلت بشأن«أبى جهل»لأنّه كان يقول:مقام النّبوه يجب أن يكون موضع تنافس،فنحن و بنو عبد مناف(قبيله رسول اللّه)كنّا نتنافس على كل شىء،و نجرى كفرسى رهان كتفا لكتف،حتى قالوا:إنّ نبيا قام فيهم،و أنّه ينزل عليه الوحى فنحن لا نؤمن به إلاّ إذا نزل علينا الوحى كما ينزل عليه.

التّفسير

اشاره

اللّه أعلم حيث يجعل رسالته:

تشير هذه الآيه بإيجاز إلى طريقه تفكير هؤلاء الأكابر أَكابِرَ مُجْرِمِيها و إلى

ص: ۴۵۴

مزاعمهم المضحكه الباطله،فتقول: وَ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ آيَةٌ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتىٰ مِثْلَ مٰا أُوتِيَ رُسُلُ اللّٰهِ كأنّ الوصول إلى مقام النبوه و هدايه الناس يعتمد على سن الشخص و ماله،أو هو ميدان للمنافسه الصبيانيه بين القبائل!و كأنّ على اللّه أن يراعى هذه الأمور المضحكه الباطله التى لا تدل إلاّ على منتهى الانحطاط الفكرى و عدم إدراك معنى النبوه و قياده الخليقه! إنّ القرآن يرد على هؤلاء بوضوح قائلا: اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ .

بديهى أنّ الرساله لا علاقه لها بالسن و لا بالمال و لا بمراكز القبائل،لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحى،و طهاره الضمير،و السجايا الإنسانيه الأصيله،و الفكر السامى،و الرأى السديد ثمّ التقوى إلى درجه العصمه...إنّ هذه الصفات،و خصوصا الاستعداد لمقام العصمه لا يعلم بها غير اللّه،فما أبعد الفرق بين هذه الشروط و ما كان يدور بخلد أولئك.

كما إنّ من يخلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا بدّ أن تكون له جميع تلك الصفات عدا الوحى و التشريع،أى أنّه حامى الشرع و الشريعه،و الحارس على قوانين الإسلام،و القائد المادى و المعنوى للناس،لذلك لا بدّ له أن يكون معصوما عن الخطأ و الإثم،لكى يكون قادرا على أن يوصل الرساله إلى أهدافها،و أن يكون قائدا مطاعا و قدوه يعتمد عليها.

و بناء على ذلك،يكون إختياره من اللّه أيضا،فهو وحده الذى يعلم أن يضع هذا المقام،فلا يمكن أن يترك ذلك للناس و لا للانتخابات و الشورى.

و فى النهايه تشير الآيه إلى المصير الذى ينتظر أمثال هؤلاء المجرمين و الزّعماء الذين يدعون الباطل،فتقول: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغٰارٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا كٰانُوا يَمْكُرُونَ (۱) .

ص: ۴۵۵

۱- ۱) -«الإجرام»من«جرم»و أصله القطع،و المجرم هو الذى يقطع العهود و ارتباطه باللّه بعدم إطاعته،و لذلك أطلقت كلمه

کـان هؤلاـء الأنـانيون بمـواقفهم العـدائيه يريـدون أن يحـافظوا على مراكبهم، و لكنّ اللّه سـينزلهم إلى أدنى درجـات الصـغار و الحقاره بحيث إنّهم سـيتعذبون بذلك عذابا روحيا شديدا،مضافا إلى أنّهم سـيلاقون العذاب الشديد فى الآخره لأنّ سـعيهم على طريق الباطل كان شديدا أيضا.

۱)

«الجرم»على الإثم و الـذنب،فى هـذا إشاره لطيفه إلى أنّ هناك فى ذات الإنسان اتفاق مع الحق و الطهاره و العداله،و الإجرام هو قطع هذه الاتفاق الفطرى الإلهى.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۲۵ الی ۱۲۷]

اشاره

فَمَنْ يُرِدِ اَللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي اَلسَّمٰاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اَللّٰهُ اَلرِّجْسَ عَلَى اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۱۲۵) وَ هٰذٰا صِرٰاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا اَلْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) لَهُمْ دٰارُ اَلسَّلاٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۷)

التّفسير

اشاره

الإمدادات الإلهيه:

تعقيبا على الآيات السابقه التى دارت حول المؤمنين الصادقين و الكافرين المعاندين تشرح هذه الآيه النعم الإلهيه الكبيره التى تنتظر الفريق الأوّل،و الشقاء الذى سيصيب الفريق الثانى، فتقرر أنّ اللّه ينعم بالهدايه على من يشاء،و ذلك بأن يفتح صدره لتقبل الإسلام،أمّا الذى لا يريد اللّه أن يوفقه لذلك-لسوء أعماله- يضيق صدره بحيث يجعله و كأنّه يريد أن يصعد إلى السماء. فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي السَّمٰاءِ .

ص: ۴۵۷

و لتوكيد هذه الأمر تضيف الآيه: كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ .فيسلبهم التوفيق و يركسهم فى التعاسه و الشقاء.

ملاحظات

اشاره

هنا يبغى أن نلاحظ النقاط التّاليه:

۱-ما المقصود من«الهدايه»و«الضلاله»؟

سبق لنا أن قلنا مرات عديده أن المقصود من لفظى«الهدايه»و«الضلاله» الإلهيين هو توفير الظروف و المقدمات المؤديه إلى الهدايه بالنسبه للذين لهم الاستعداد لذلك،و سلبها عن الذين لا استعداد لهم لذلك،بالنظر إلى أعمالهم.

إنّ السالكين طريق الحق و الباحثين عن الإيمان المتعطشين إليه،يضع اللّه فى طريقهم مصابيح مضيئه لكيلا يضيعوا فى ظلمات الطريق،و ليصلوا إلى منبع إكسير الحياه،أمّا الذين أثبتوا تماهلهم تجاه هذه الحقائق فهم محرومون من هذه الإمدادات الإلهيه،و سوف يتعثرون فى طريقهم بالكثير من المشاكل،و لا يوفّقون لهدايه.

و بناء على ذلك،فلا الفريق الأوّل مجبور على السير فى هذا الطريق،و لا الفريق الثانى فى أعمالهم،و فى الواقع أنّ الهدايه و الضلال يكملان ما أرادوه هم بأنفسهم و اختاروه.

۲-المقصود من«الصّدر»

هنا هو الروح و الفكر،و هذه الكنايه ترد كثيرا، و المقصود من«الشرح»هو بسط الروح و ارتفاع الفكر و اتساع أفق العقل البشرى،لأنّ تقبّل الحق يستدعى التنازل عن الكثير من المصالح الشخصيه،ممّا لا يقدر عليه إلاّ ذوو الأرواح العاليه و الأفكار الساميه.

۳-«الحرج»بمعنى الضيق الشديد

،و هذه هى حال المعاندين و فاقدى الإيمان،ففكرهم قاصر و روحهم ضيقه صغيره،و لا يتنازلون فى حياتهم عن شىء.

۴-معجزه قرآنیه علمیه:

إنّ تشبیه أمثال هؤلاء بالـذی یرید أن یصـعد إلی السـماء،جاء لأنّ الصـعود إلی السـماء صـعب جدّا،فکذلک هو قبول الحق عند هؤلاء.

إنّنا فی کلامنا الیومی نتمثل بهذا التشبیه،فإذا أردنا أن نقول أنّ الوصول إلی الأمر الفلانی صعب نقول:أن تصل إلی السماء أقرب إلیک من ذلک.

بـالطّبع لم یکن الطیران فی السـماء للبشـر آنـذاک أکثر من تصور،و لکن علی الرغم من تحقق ذلـک الیوم،فهو ما یزال صـعبا،و کثیرا ما یصادف رواد الفضاء المشاکل فی طیرانهم.

و یخطر فی الـذهن معنی ألطف من ذلـک یکمـل البحث السـابق،و هو أنّه ثبت الیوم علمیـا أنّ الهواء المجاور للأرض مضـغوط بشـکل یصـلح لتنفس الإنسـان، و لکنّنـا کلما ارتفعنا قلت کثافه الهواء و نسـبه وجود الأوکسـجین فیه،بحیث إنّنا إذا ارتفعنا بضـع کیلومترات أصـبح من الصـعب أن نتنفس بسـهوله(بغیر قنـاع الأوکسـجین)،و إذا ما واصـلنا صـعودنا ازداد ضـیق تنفسـنا و أصـبنا بالإغماء، إن ذکر هذا التشبیه فی ذلک الزمن قبل أن تثبت هذه الحقیقه العملیه یعتبر واحده من معجزات القرآن العلمیه.

۵-ما هو شرح الصدر؟

فی هذه الآیه یعتبر«شـرح الصدر»من نعم اللّه الکبری و«ضـیق الصدر»من عقاب اللّه،کما جاء ذکر هذه النعمه فی قوله تعالی: أَ لَمْ نَشْـرَحْ لَکَ صَدْرَکَ (۱) و یتضـح هـذا أکثر عنـد دراسه الأشـخاص،فأنت تری بعضـهم علی درجه من سـعه الصدر بحیث إنّهم قـادرون علی استیعـاب کل حقیقه مهما کبرت،و علی العکس منهم نری صـدر بعضـهم من الضـیق بحیث لا تکاد تنفـذ إلیها أیه حقیقه،فأفق

۱- ۱) -الإنشراح،۱.

رؤيتهم الفكريه محدود جدّا و مقتصر على الحياه اليوميه،فلو تهيأ لهم الأكل و النوم فكل شيء على ما يرام،و إذا اختل ذلك فقد انهارت حياتهم و انتهى كل شيء.

عند ما نزلت الآيه المذكوره أعلاه،

سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن معنى شرح الصدر،فقال:«نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء فينشرح له صدره و ينفسح».

فسألوه:أ لذلك علامه يعرف بها؟ قال:«نعم،الإنابه إلى دار الخلود،و التجافى عن دار الغرور،و الاستعداد للموت قبل نزول الموت» (۱) بالإيمان و العمل الصالح السعى فى سبيل اللّه.

الآيه التّاليه تؤكّد البحث السابق فتقول:إنّ المدد الإلهى الذى يشمل السالكين سبيل اللّه و يسلب عن الذين يتنكبون عن سبيل اللّه،إنّما هو سنه إلهيه مستقيمه ثابته لا تتبدل وَ هٰذٰا صِرٰاطُ رَبِّکَ مُسْتَقِیماً .

كما يحتمل أن يكون«هذا»إشاره إلى الإسلام أو القرآن،إذ إنّ الصراط المستقيم هو الطريق المستقيم المستوى.

و فى ختام الآيه توكيد آخر: قَدْ فَصَّلْنَا الْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أى لمن يملكون قلوبا واعيه و آذانا سامعه.

الآيه الثّالثه تشير إلى نعمتين من أكبر النعم التى يهبها اللّه للذين يطلبون الحق،إحداهما: لَهُمْ دٰارُ السَّلاٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ،و الثّانيه: وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ ،أى ناصرهم و حافظهم،و كل ذلك لما قاموا به من الأعمال الصالحات: بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ .

فأى فخر أجل و أرفع من أن يتولى اللّه أمور الإنسان و يتكفل بها فيكون حافظه و وليه،و أيه نعمه أعظم من أن تكون له دار السلام،دار الأمن و الأمان، حيث لا حرب و لا سفك دماء،و لا نزاع و لا خصام،و لا عنف و لا تنافس قاتل

۱- ۱) -مجمع البيان،ج ۴،ص ۳۶۳.

و مميت،و لا ـ تضارب مصالح،و لا كذب و لا افتراء،و لا اتهام و لا حسد و لا حقد، و لا هم و لا غم،بل الهدوء و الطمأنينه و الهناء؟ و لكن الآيه تقول أيضا:إنّ هذه النعم لا تأتى بمجرّد الكلام،بل هى تعطى لقاء العمل...نعم العمل!

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۲۸ الى ۱۲۹]

اشاره

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ اَلْجِنِّ قَدِ اِسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ اَلْإِنْسِ وَ قَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ اَلْإِنْسِ رَبَّنَا اِسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنَا أَجَلَنَا اَلَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ اَلنَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اَللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۲۸) وَ كَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ اَلظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۱۲۹)

التّفسير

تعود هاتـان الآيتـان إلى بيـان مصـير المجرمين الضـالين و المضـلين فتكملان ما بحث فى السابق،فتـذكّران بيوم يقفون فيه وجها لوجه أمـام الشـياطين الـذين كـانوا يسـتلهمون منهم،فيواجه التـابعون و المتبوعون سؤالا ـ لا ـ جواب لـديهم عليه،و لا ينالون سوى التحسر و الحزن،إنّها تحذيرات للإنسان كيلا ينظر فقط إلى أيّامه المعدودات على الأرض،بل عليه أن يفكر بالعاقبه.

تـذكر الآـيه فى البـدايه بـذلك اليوم الـذى يجتمع فيه الجن و الإـنس،ثمّ يقال يا أيّها المضـلون من الجن لقـد أضـللتم كثيرا من الناس: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا

مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ

(۱)

.

«الجن»هنا هم الشياطين،لأن كلمه الجن-كما سبق أن قلنا-تشمل كل كائن غير مرئى و الآيه(۵۰)من سوره الكهف تذكر عن رئيس الشياطين،إبليس إنّه كٰانَ مِنَ الْجِنِّ .

الآيات السابقه التى تحدثت عن وسوسه الشياطين الهامسه إِنَّ الشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰائِهِمْ ،و كذلك الآيه التّاليه التى تحدثت عن سيطره بعض الظالمين على الآخرين،قد تكون إشاره إلى هذا الموضوع.

و يبدو أنّ الشياطين المضلين لا جواب لديهم على هذا السؤال و يطرقون صامتين،غير أنّ أتباعهم من البشر يقولون:ربّنا،هؤلاء استفادوا منّا كما إنّنا استفدنا منهم حتى جاء أجلنا: وَ قٰالَ أَوْلِيٰاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنٰا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنٰا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنٰا .

أى كان شياطيننا فرحين بسيطرتهم علينا و كنّا نتبعهم مستسلمين،أمّا نحن فكنّا مستمتعين بمباهج الحياه و لذائذها غير متقيدين بشيء و لا ملتفتين إلى سرعه زوالها،لما كان الشياطين يوسوسون به فى آذاننا و يظهرونه فى صور جميله جذابه.

هنا تختلف آراء المفسّرين بشأن المقصود من كلمه«أجل»،هل هى نهايه عمر الإنسان،أم يوم القيامه؟و لكن الظاهر أنّ المقصود نهايه العمر لأنّ«الأجل» كثيرا ما استعمل فى القرآن بهذا المعنى.

غير أنّ اللّه يخاطب التابعين و المتبوعين الفاسدين و المفسدين جميعا: قٰالَ النّٰارُ مَثْوٰاكُمْ خٰالِدِينَ فِيهٰا إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ .

إنّ الجمله الاستثنائيه إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ إمّا أن تكون إشاره إلى أن خلودهم فى العذاب و العقاب،و فى هذه الحالات لا يسلب القدره من اللّه على تغيير

ص:۴۶۳

۱- ۱) -«يوم»ظرف متعلق بجمله«يقول»المحذوفه فيكون أصل الجمله: يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ .

الحکم،فهو قادر فی أی وقت یشاء أن یغیر ذلک،و إن أبقاه خالدا لجمع منهم.

و إمّا أن تکون إشاره إلی الذین لا یستحقون الخلود فی العذاب،أو الجدیرون بنیل العفو الإلهی،فیجب استثناؤهم من الخلود فی العذاب.

و فی الختام تقول الآیه: إِنَّ رَبَّکَ حَکِیمٌ عَلِیمٌ ،فعقابه مبنی علی حساب دقیق،و کذلک عفوه،لأنّه عالم بمن یستحقهما.

الآیه التّالیه تشیر إلی سنّه إلهیه ثابته بشأن هؤلاء الأشخاص،و تقرر أنّ هؤلاء الطغاه و الظالمین سیکون وضعهم فی الآخره کما کانوا علیه فی الدنیا یجر بعضهم بعضا نحو التهلکه و سوء المصیر و الانحراف: کَذٰلِکَ نُوَلِّی بَعْضَ الظّٰالِمِینَ بَعْضاً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ و کما ذکرنا فی البحوث الخاصّه بالمعاد فان یوم القیامه مشهد ردود الفعل فی صور مکبره،و ما یوجد هناک انعکاس عن أعمالنا فی هذه الدنیا.

جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم القمی عن الإمام علیه السّلام فی معنی هذه الآیه قال:

«أی نولی کل من تولی أولیاءهم فیکونون معهم یوم القیامه».

و من الجدیر بالملاحظه أنّ جمیع هؤلاء قد وصفوا بالظلم فی هذه الآیه،و لا شک أنّ الظلم بمعناه الواسع یشملهم جمیعا،فأی ظلم أکبر من أن یخرج الإنسان نفسه من ولایه اللّه لیداخل فی ولایه المستکبرین و یتّبعهم فیکون فی العالم الآخر تحت ولایتهم أیضا.

ثمّ إنّ هذا التعبیر،و کذلک تعبیر بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ یشیران إلی أنّ هذا المصیر السیء إنّما هو بسبب أعمالهم،و هذه سنه إلهیه و قانون الخلیقه القاضی بأنّ السائرین فی الظلام لا بدّ أن یسقطوا فی هوه التعاسه و الشقاء.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۳۰ الی ۱۳۲]

اشاره

يا مَعْشَرَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا قالُوا شَهِدْنا عَلىٰ أَنْفُسِنا وَ غَرَّتْهُمُ اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيا وَ شَهِدُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (۱۳۰) ذٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ اَلْقُرىٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ (۱۳۱) وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ (۱۳۲)

التّفسير

اشاره

إتمام الحجه:

ورد وصف مصير الظالمين من أتباع الشياطين يوم القيامه في الآيات السابقه و لكيلا يظن أحد أنّهم في حاله من الغفله ارتكبوا ما ارتكبوه من إثم، تبيّن هذه الآيات أن تحذيرهم قد تمّ بما فيه الكفايه و تمّت عليهم الحجه،لذلك يقال لهم يوم القيامه: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا .

«معشر»من العدد«عشره»،و بما أن العشره تعتبر عددا كاملا،فالمعشر هي

ص: ۴۶۵

الجماعه الكامله التى تضم مختلف الطوائف و الأصناف،أمّا بشأن الرسل الذين بعثوا إلى الجن هل كانوا منهم،أم من البشر؟فهناك كلام بين المفسّرين،و لكن الذى يستفاد من آيات سوره الجن يدل بجلاء على أنّ الإسلام و القرآن للجميع بما فيهم الجن،و أنّ نبى الإسلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الجميع،و لكن هذا لا يمنع أن يكون لهم رسل و ممثلون من جنسهم عهد إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدعوتهم إلى الإسلام(سيأتى شرح ذلك بالتفصيل،و كذلك المعنى العلمى للجن فى تفسير سوره الجن فى الجزء ٢٩ من القرآن الكريم).

و لكن ينبغى أن نعلم أنّ«منكم»لا تعنى أن أنبياء كل جنس يكونون من الجنس نفسه،لأنّنا عند ما نقول:«نفر منكم...»يمكن أن يكون هؤلاء من طائفه واحده أو من عدّه طوائف.

ثمّ تقول الآيه: قٰالُوا شَهِدْنٰا عَلىٰ أَنْفُسِنٰا لأنّ يوم القيامه ليس يوم الكتمان، بل إنّ دلائل كل شىء تكون باديه للعيان،و ما من أحد يستطيع أن يخفى شيئا، فالجميع يعترفون أمام هذا السؤال الإلهى قائلين:إنّنا نشهد ضد أنفسنا و نعترف أنّ الرسل قد جاؤونا و أبلغونا رسالاتک و لكنّنا خالفناها.

نعم...لقد كانت أمامهم آيات و دلائل كثيره من اللّه،و كان يميزون الخطأ من الصواب،إلاّ أنّ الحياه الدنيا ببريقها و مظاهرها قد خدعتهم و أضلتهم: وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا .

هذه الآيه تدل بوضوح على أنّ العقبه الكبرى فى طريق سعاده البشر هى الحبّ اللامحدود لعالم الماده و الخضوع له بلا قيد و لا شرط،ذلک الحبّ الذى كبل الإنسان بقيود الأسر و دفعه إلى ارتكاب كل ألوان الظلم و العدوان و الإجحاف و الأنانيه و الطغيان.

مرّه أخرى يؤكّد القرآن أنّهم شهدوا على أنفسهم بألسنتهم بأنّهم قد ساروا فى طريق الكفر و وقفوا إلى جانب منكرى اللّه: وَ شَهِدُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كٰانُوا

كٰافِرِينَ

.

الآیه التّالیه تعید المضمون السابق بصوره قانون عام و سنه ثابته،و هی:أنّ اللّه لا یأخذ الناس فی المدن و المناطق المسکونه بظلمهم إذا کانوا غافلین،إلاّ بعد أن یرسل إلیهم الرسل لینبهوهم إلی قبیح أعمالهم،و یحذروهم من مغبه أفعالهم:

ذٰلِکَ أَنْ لَمْ یَکُنْ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُریٰ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهٰا غٰافِلُونَ

.

قد تعنی«بظلم»أنّ اللّه لا یعاقب أحدا بسبب ظلمه و هو غافل عنه،و قبل أن یرسل الرسل،و قد تکون بمعنی أنّ اللّه لا یظلم أحدا بأن یعاقبه عمّا فعل و هو غافل،لأنّ معاقبتهم بهذه الصوره تعتبر ظلما،و اللّه أرفع من أن یظلم أحدا (۱) .

و تذکر الآیه الثالثه خلاصه ما ینتظر هؤلاء من مصیر و تقرر أنّ لکل من هؤلاء-الأخیار و الأشرار،المطیعین و العصاه،طالبی العداله و الظالمین-درجات و مراتب یوم القیامه تبعا لأعمالهم،و إن ربک لا یغفل عن أعمالهم،بل یعلمها جمیعا،و یجزی کلا بقدر ما یستحق: وَ لِکُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا وَ مٰا رَبُّکَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا یَعْمَلُونَ .

هذه الآیه تؤکّد مرّه أخری الحقیقه القائله بأنّ جمیع«الدّرجات» و«الدّرکات»التی یستحقها الإنسان إنّما هی ولیده أعماله،لا غیر.

۱- ۱) -فی الحاله الأولی فاعل«ظلم»هم الکافرون،و فی الحاله الثانیه یکون نفی الظلم عن اللّه تعالی.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۳۳ الی ۱۳۵]

اشاره

وَ رَبُّکَ اَلْغَنِیُّ ذُو اَلرَّحْمَهِ إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ مٰا یَشٰاءُ کَمٰا أَنْشَأَکُمْ مِنْ ذُرِّیَّهِ قَوْمٍ آخَرِینَ (۱۳۳) إِنَّ مٰا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ (۱۳۴) قُلْ یٰا قَوْمِ اِعْمَلُوا عَلیٰ مَکٰانَتِکُمْ إِنِّی عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عٰاقِبَهُ اَلدّٰارِ إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ اَلظّٰالِمُونَ (۱۳۵)

التّفسیر

الآیه الأولی تستدل علی ما سبق فی الآیات التی مرّت بشأن عدم ظلم اللّه تعالی،و یؤکّد أنّ اللّه لا حاجه له بشیء و هو عطوف و رحیم،و علیه لا دافع له علی أن یظلم أحدا أبدا،لأن من یظلم لا بدّ أن یکون محتاجا،أو أن یکون قاسی القلب فظا: وَ رَبُّکَ الْغَنِیُّ ذُو الرَّحْمَهِ کما أنّه لا حاجه له بطاعه البشر،و لا یخشی من ذنوبهم،بل إنّه قادر علی إزاله کل جماعه بشریه و وضع آخرین مکانها کما فعل بمن سبق تلک الجماعه: إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ مٰا یَشٰاءُ کَمٰا أَنْشَأَکُمْ مِنْ ذُرِّیَّهِ قَوْمٍ آخَرِینَ .

بناء علی ذلک فهو غنی لا حاجه به إلی شیء،و رحیم،و قادر علی کل شیء،فلا یمکن إذن أن نتصوره ظالما.

ص :۴۶۸

و إذا أدركنا قدرته التى لا حدود لها يتّضح لنا أنّ ما وعده بشأن يوم القيامه و الجزاء سوف يتحقق فى موعده بدون أى تخلف: إِنَّ مٰا تُوعَدُونَ لَآتٍ .

كما أنّكم لا تستطيعون أن تخرجوا عن نطاق حكمه و لا أن تهربوا من قبضته العادله: وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۱) .

ثمّ يؤمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يهددهم: قُلْ يٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنِّى عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عٰاقِبَةُ الدّٰارِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ الظّٰالِمُونَ .

هنا أيضا نلاحظ أنّ كلمه«الكفر»استعيض عنها بكلمه«ظلم»،و هذا يعنى أنّ الكفر و إنكار اللّه نوع من الظلم الصريح،فهو ظلم بحق النفس،و ظلم بحق المجتمع،و لما كان الظلم يناقض العداله العامّه فى عالم الوجود،فهو محكوم بالإخفاق و الهزيمه.

ص: ۴۶۹

---

۱ - ۱) -«معجزين»من«أعجز»أى جعله عاجزا،فالآيه تقول:إنّكم لا تستطيعون أن تجعلوا اللّه عاجزا عن بعث الناس و تحقيق العداله،و بعباره أخرى:أنتم لا تستطيعون مقاومه قدره اللّه.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۳۶]

اشاره

وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ اَلْحَرْثِ وَ اَلْأَنْعٰامِ نَصِیباً فَقٰالُوا هٰذٰا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هٰذٰا لِشُرَکٰائِنٰا فَمٰا کٰانَ لِشُرَکٰائِهِمْ فَلاٰ یَصِلُ إِلَی اَللّٰهِ وَ مٰا کٰانَ لِلّٰهِ فَهُوَ یَصِلُ إِلیٰ شُرَکٰائِهِمْ سٰاءَ مٰا یَحْکُمُونَ (۱۳۶)

التّفسیر

لاقتلاع جذور الشرک و عباده الأصنام من الأذهان یعود القرآن إلی ذکر العادات و التقالید و العبادات الخرافیه السائده بین المشرکین،و یثبت فی بیان واضح أنّها خرافیه و لا أساس لها،فقد کان کفّار مکّه و سائر المشرکین یخصصون للّه سهما من مزارعهم و أنعامهم،کما کانوا یخصصون سهما منها لأصنامهم أیضا،قائلین:هذا القسم یخص اللّه،و هذا القسم یخص شرکاءنا أی الأصنام: وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعٰامِ نَصِیباً فَقٰالُوا هٰذٰا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هٰذٰا لِشُرَکٰائِنٰا .

علی الرغم من أنّ الآیه تشیر إلی نصیب اللّه فقط،و لکن العبارات التّالیه تدل علی أنّهم کانوا یخصصون نصیبا للأصنام أیضا،جاء فی بعض الرّوایات:أنّهم کانوا یصرفون ما یخصصونه للّه علی الأطفال و الضیوف،و النصیب المخصص للأصنام من الزرع و الأنعام کانوا یصرفونه علی خدم الأصنام و القائمین علی

معابدها و الأضاحی و علی أنفسهم أیضا (۱) .

سبب اعتبارهم الأصنام شرکاءهم یعود إلی کونهم یرونها شریکه لهم فی أموالهم و حیاتهم.

و تعبیر مِمّا ذَرَأَ أی ممّا خلق،یشیر إلی بطلان مزاعمهم،إذ إنّ کل أموالهم و ما یملکون هو ممّا خلق اللّه فکیف یجعلون نصیبا منه للّه و نصیبا منه للأصنام؟! ثمّ تشیر الآیه إلی واحد من أحکامهم العجیبه و هو الحکم بأنّ ما خصصوه لشرکائهم لا یصل إلی اللّه،و لکن ما خصصوه للّه یصل إلی شرکائهم فَما کانَ لِشُرَکائِهِمْ فَلا یَصِلُ إِلَی اللّهِ وَ ما کانَ لِلّهِ فَهُوَ یَصِلُ إِلی شُرَکائِهِمْ .

اختلف المفسّرون بشأن المقصود من هذه الآیه،و لکن آراءهم کلها تدور حول حقیقه واحده،هی أنّه إذا أصاب نصیب اللّه ضرر علی أثر حادثه قالوا:هذا لا أهمیه له لأنّ اللّه لا حاجه به إلیه،و لکن إذا أصاب الضرر نصیب أصنامهم عوضوا عنه من نصیب اللّه،قائلین:إنّ الأصنام أشد حاجه إلیه.

کما أنّهم إذا نفذ الماء المار بمزرعه اللّه إلی مزرعه الأصنام قالوا:لا مانع من ذلک،فاللّه لیس محتاجا،و لکن إذا حدث العکس منعوا الماء المتسرب إلی مزرعه اللّه،قائلین:إنّ الأصنام أحوج! و فی الختام تدین الآیه هذه الخرافات فتقول: ساءَ ما یَحْکُمُونَ .

إنّ قبح عملهم-فضلا عن قبح عباده الأصنام-یتبیّن فی الأمور التّالیه.

۱-علی الرغم من أنّ کل شیء هو من خلق اللّه،و ملک له دون منازع،و أنّه هو الحاکم علی کل الکائنات و هو مدبرها و حافظها فإنّهم إنّما کانوا یخصصون جانبا من ذلک کله للّه،و کأنّهم هم المالکون الأصلیون،و کأنّ حق التقسیم بیدهم، (إنّ جمله مِمّا ذَرَأَ تشیر إلی هذا کما قلنا).

۲-لقد کانوا فی هذا التقسیم یلزمون جانب الأصنام و یفضلون ما لها علی ما

۱- ۱) -تفسیر المنار،ج ۸ص ۱۲۲.

للّه،لذلک لم یکونوا یهتمون بما یصیب نصیب اللّه من ضرر،و لکنّهم کانوا یجبرون کل ضرر یصیب نصیب الأصنام من نصیب اللّه،فکان هذا تحیزا إلی جانب الأصنام ضد اللّه! ۳-یتبیّن من بعض الرّوایات أنّهم کانوا یهتمون اهتماما کبیرا بحصه الأصنام،فقد کان خدم الأصنام و القائمون علی معابدها و کذلک المشرکون یأکلون من حصه الأوثان،بینما کانوا یخصصون حصه اللّه للأطفال و للضیوف، و تدل القرائن علی أنّ الأغنام السمینه و المحاصیل الزارعیه الجیده کانت من نصیب الأصنام،أی لمصلحه السدنه الخاصّه.

کل هذا دل علی أنّهم فی هذا التقسیم لم یکونوا یعترفون للّه حتی بمنزله مساویه لمنزله الأصنام.

فأی حکم أقبح و أدعی إلی العار من أن یعتبر إنسان قطعه من الحجر أو الخشب الذی لا قیمه له أرفع من خالق عالم الوجود،هل هناک هبوط فکریّ أحط من هذا؟

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۳۷]

اشاره

وَ کَذٰلِکَ زَیَّنَ لِکَثِیرٍ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ قَتْلَ أَوْلاٰدِهِمْ شُرَکٰاؤُهُمْ لِیُرْدُوهُمْ وَ لِیَلْبِسُوا عَلَیْهِمْ دِینَهُمْ وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مٰا یَفْتَرُونَ (۱۳۷)

التّفسیر

یشیر القرآن فی هذه الآیه إلی عمل قبیح آخر من أعمال عبده الأصنام القبیحه و جرائمهم الشائنه،و یذکر أنّه کما ظهر لهم أنّ تقسیمهم الحصص بین اللّه و الأصنام عمل حسن بحیث إنه اعتبروا هذا العمل القبیح و الخرافی،بل و المضحک،عملا محمودا،کذلک زین الشرکاء قتل الأبناء فی أعین الکثیرین من المشرکین بحیث إنّهم راحوا یعدون قتل الأولاد نوعا من«الفخر»و«العباده»:

وَ کَذٰلِکَ زَیَّنَ لِکَثِیرٍ مِنَ الْمُشْرِکِینَ قَتْلَ أَوْلاٰدِهِمْ شُرَکٰاؤُهُمْ

.

«الشّرکاء»هنا هم الأصنام،فقد کانوا أحیانا یقدمون أبناءهم قرابین لها،أو کانوا ینذرون أنّهم إذا وهبوا ابنا یذبحونه قربانا لأصنامهم،کما جاء فی تاریخ عبده الأصنام القدامی و علیه فان نسبه«التزیین»للأصنام تعود إلی أن شده تعلقهم بأصنامهم و حبهم لها کان یحدو بهم إلی ارتکاب هذه الجریمه النکراء و استنادا إلی هذا التّفسیر،فإنّ قتل الأولاد هذا لا علاقه له بوأد البنات أو قتل

الأولاد خشيه الإملاق.

يحتمل أيضا أن يكون المقصود بتزيين الأصنام هذه الجريمه،هو أن القائمين على أمر الأصنام و المعابد هم الذين كانوا يحرضونهم على هذا العمل و يزينونه لهم،باعتبارهم الألسنه الداعيه باسم الأصنام،فقد جاء فى التّأريخ أنّ العرب كانوا إذا عزموا على السفر أو الأعمال المهمّه،طلبوا الإذن من«هبل»كبير أصنامهم،و ذلك بأن يضربوا بالقداح،أى بأسهم الميسر،فقد كان هناك كيس معلق بجانب هبل فيه سهام كتب على مقابضها«افعل»أو«لا تفعل»،فكانوا يخلطون السهام ثمّ يسحبون واحدا منها،فما كتب عليه يكون هو الأمر الصادر من هبل،و بهذه الطريقه كانوا يتصورون أنّهم يكتشفون آراء أصنامهم،فلا يستبعد أنّهم فى مسأله قتل أولادهم قرابين للأصنام كانوا يلجأون إلى أولياء المعابد ليأتوهم بما تأمر به الأصنام.

هنالك أيضا الاحتمال القائل بأن وأد البنات-الذى كان سائدا،كما يقول التّأريخ بين قبائل بنى تميم لرفع العار-كان أمرا صادرا عن الأصنام،فقد جاء فى التّأريخ أنّ«النعمان بن المنذر»هاجم بعض العرب و أسر نساءهم و فيهن ابنه «قيس بن عاصم»ثمّ أقرّ الصلح بينهم و عادت كل امرأه إلى عشيرتها،عدا ابنه قيس التى فضلت البقاء عند العدو لعلها تتزوج أحد شبانهم،فكان وقع هذا شديدا على قيس،فاقسم بالأصنام انّه إذا رزق بابنه أخرى فانه سوف يئدها حيه،ثمّ لم يمض زمن طويل حتى أصبح هذا العمل الشائن سنّه بينهم،و باسم الدفاع عن العرض راحوا يرتكبون أفظع جريمه بقتلهم أولادهم الأبرياء (1) .

و عليه،فإنّ وأد البنات يمكن أن يكون مشمولا بمفهوم هذه الآيه.

هنالك أيضا احتمال آخر فى تفسير هذه الآيه و ان لم يتطرق إليه المفسّرون، .

ص:474

1- 1) -يتصور بعض أنّ كلمه«أولاد»فى الآيه لا تنسجم مع هذا التّفسير،غير أنّ لهذه الكلمه معنى واسعا يشمل الأبناء و البنات، و كما جاء فى الآيه(223)من سوره البقره: وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ

و هو أنّ عرب الجاهليه كانوا على درجه من التقدير و الاحترام لأصنامهم بحيث إنّهم كانوا يصرفون أموالهم الثمينه على تلك الأصنام و على خدامها المتنفذين الأثرياء،و يبقون هم فى فقر مدقع إلى الحد الذى كان يحملهم هذا الفقر و الجوع على قتل بناتهم.

فهذا التعلق الشديد بالأصنام كان يزين لهم عملهم الشنيع ذاك.

و لكن التّفسير الأوّل،أى التضحيه بأولادهم قربانا للأصنام،أقرب إلى نص الآيه.

ثمّ يوضح القرآن أنّ نتيجه تلك الأفعال القبيحه هى أنّ الأصنام و خدامها ألقوا بالمشركين فى مهاوى الهلاك،و شككوهم فى دين اللّه،و حرموهم من الوصول إلى الدين الحق: لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ .

و مع ذلك كله،فإنّ اللّه قادر على أن يوقفهم عند حدهم بالإكراه،و لكن الإكراه خلاف سنه اللّه،إنّ اللّه يريد أن يكون عباده أحرارا لكى يمهد أمامهم طريق التربيه و التكامل،و ليس فى الإكراه تربيه و لا تكامل: وَ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا فَعَلُوهُ .

و ما دام هؤلاء منغمسين فى أباطيلهم و خرافاتهم دون أن يدركوا شناعتها، بل الأدهى من ذلك أنّهم ينسبونها أحيانا إلى اللّه،إذن فاتركهم و اتهاماتهم و التفت إلى تربيه القلوب المستعده: فَذَرْهُمْ وَ مٰا يَفْتَرُونَ .

ص:۴۷۵

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۳۸ الی ۱۳۹]

اشاره

وَ قٰالُوا هٰذِهِ أَنْعٰامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لاٰ يَطْعَمُهٰا إِلاّٰ مَنْ نَشٰاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعٰامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهٰا وَ أَنْعٰامٌ لاٰ يَذْكُرُونَ اِسْمَ اَللّٰهِ عَلَيْهَا اِفْتِرٰاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳۸) وَ قٰالُوا مٰا فِي بُطُونِ هٰذِهِ اَلْأَنْعٰامِ خٰالِصَةٌ لِذُكُورِنٰا وَ مُحَرَّمٌ عَلىٰ أَزْوٰاجِنٰا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكٰاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۳۹)

التّفسير

تشير هـذه الآيات إلى بعض الأحكام الخرافيه لعبـده الأوثان،و التى تـدل على قصـر نظرتهم و ضـيق تفكيرهم،و تكمل ما مر فى الآيات السابقه.

تذكر فى البدايه أقوال المشـركين بشأن من لهم الحق فى نصـيب الأصنام من زرع و أنعام،و تبيّن أنّهم كانوا يرون أنّها محرمه إلّا على طائفه معينه: وَ قٰالُوا هٰذِهِ أَنْعٰامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لاٰ يَطْعَمُهٰا إِلاّٰ مَنْ نَشٰاءُ بِزَعْمِهِمْ .

و مرادهم المتولّون أمور الأصنام و المعابد،و المشركون كانوا يذهبون إلى أنّ لهؤلاء وحدهم الحق فى نصيب الأصنام.

ص: ۴۷۶

يتّضح من هذا أنّ القسم الأوّل من الآيه يشير إلى كيفيه تصرفهم فيما يخصصونه للأصنام من الزرع و الأنعام.

«الحجر»هو المنع،و لعلها مأخوذه كما يقول الراغب الأصفهانى فى «المفردات»من الحجر،و هو أنّ يبنى حول المكان بالحجاره ليمنع عما وراءه، و حجر إسماعيل سمى بذلك لأنّه مفصول عن سائر أقسام المسجد الحرام بجدار من حجر،و على هذا الاعتبار يطلق على«العقل»اسم«الحجر»،أحيانا،لكونه يمنع المرء من ارتكاب الأعمال القبيحه،و إذا ما وضع أحد تحت رعايه أحد و حمايته قيل:إنّه فى حجره، و المحجور هو الممنوع من التصرف فى ماله (1) .

ثمّ تشير الآيه إلى واحده أخرى من خرافاتهم تقضى بمنع ركوب بعض الدواب: وَ أَنْعٰامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهٰا .

الظاهر أنّها هى الحيوانات التى مرّ ذكرها فى تفسير الآيه(١٠٣)من سوره المائده،و هى«السائبه»و«البحيره»و«الحام»(انظر التفسير المذكور لمزيد من التوضيح).

ثمّ تشير إلى القسم الثّالث من الأحكام الباطله فتقول: وَ أَنْعٰامٌ لاٰ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهَا .

و لعلها إشاره إلى الحيوانات التى كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عليها فقط عند ذبحها،أو هى المطايا التى كانوا يحرمون ركوبها للذهاب إلى الحج،كما جاء ذلك فى تفسير«مجمع البيان»و«التّفسير الكبير»و«المنار»و«القرطبى»نقلا عن بعض المفسّرين،و فى كلتا الحالتين كان الحكم خرافيا لا أساس له.

و الأعجب من ذلك أنّهم لم يقنعوا بتلك الأحكام الفارغه،بل راحوا ينسبون إلى اللّه كل ما يخطر لهم من كذب: اِفْتِرٰاءً عَلَيْهِ .

و فى ختام الآيه،و بعد ذكر تلك الأحكام المصطنعه،تقول إنّ اللّه:

١- ١) -«حجر»فى هذه الآيه وصفيه،بمعنى محجور،و يستوى فيها المذكر و المؤنث.

سَيَجْزِيهِمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ

.

نعم،إذا أراد الإنسان-بفكره الناقص القاصر-أن يضع القوانين و الأحكام، فلا شك أنّ كل طائفه سوف تضع من القوانين ما ينسجم و أهواءهم و مطامعهم، فيحرمون على أنفسهم أنعم اللّه دون سبب،أو يحللون على أنفسهم أفعالهم القبيحه،و هذا هو سبب قولنا إنّ اللّه وحده هو الذى يسنّ القوانين لأنّه يعلم كل شيء و يعرف دقائق الأمور،و هو سبحانه بمعزل عن الأهواء.

الآيه التّاليه تشير إلى حكم خرافى آخر بشأن لحوم الحيوانات،يقضى بأنّ حمل هذه الأنعام يختص بالذكور،و هو حرام على الزوجات،أمّا إذا خرج ما في بطونها ميتا،فكلهم شركاء فيه: وَ قٰالُوا مٰا فِي بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعٰامِ خٰالِصَةٌ لِذُكُورِنٰا وَ مُحَرَّمٌ عَلىٰ أَزْوٰاجِنٰا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكٰاءُ .

و لا بدّ من الإشاره إلى أنّ هٰذِهِ الْأَنْعٰامِ هى الحيوانات التى ذكرناها من قبل.

يرى بعض المفسّرين أنّ عباره مٰا فِي بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعٰامِ تشمل لبن هذه الأنعام،و لكن عباره وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً تبيّن أنّ المقصود هو الجنين الذى إذا ولد حيّا فهو للذكور،و إنّ ولد ميتا-و هو ما لم يكن مرغوبا عندهم-فهم جميعا شركاء فيه بالتساوى.

هذا الحكم لا يقوم-أوّلا-على أى دليل،و هو-ثانيا-قبيح و بشع فيما يتعلق بالجنين الميت،لأنّ لحم الحيوان الميت يكون فى الغالب فاسدا و مضرا، ثمّ هو-ثالثا-نوع من التمييز بين الرجل و المرأه، بجعل الطيب للرجال فقط، و بجعل المرأه شريكه فى الفاسد فقط.

ينهى القرآن هذا الحكم الجاهلى،و يقرر أنّ اللّه سوف يعاقبهم على هذه الأوصاف، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ .

«الوصف»هنا يشير إلى ما كانوا ينسبونه إلى اللّه،كأنّ ينسبون إليه تحريم

هـذه اللحـوم بـالرغم من أنّ المقصـود هـو الصـفه أو الحـاله الـتى تسـتولى على المـذنب على أثر تكرار،الإـثم و تجعله مسـتحقا للعقاب،و ختاما تقول: إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

فهو عليم بأعمالهم و أقوالهم و اتهاماتهم الكاذبه،كما أنّه يعاقبهم وفق حساب و حكمه.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۴۰]

اشاره

قَدْ خَسِرَ اَلَّذِینَ قَتَلُوا أَوْلاٰدَهُمْ سَفَهاً بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مٰا رَزَقَهُمُ اَللّٰهُ اِفْتِرٰاءً عَلَی اَللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مٰا کٰانُوا مُهْتَدِینَ (۱۴۰)

التّفسیر

تعقیبا علی الآیات السابقه التی تحدثت عن بعض الأحکام التافهه و التقالید القبیحه فی عصر الجاهلیه الشائن،کقتل الأبناء قربانا للأصنام،و وأد البنات خشیه العار،و تحریم بعض نعم اللّه الحلال،تدین هذه الآیه کل تلک الأعمال بشده،فی سبعه تعبیرات و فی جمل قصیره نافذه توضح حالهم.

ففی البدایه تقول: قَدْ خَسِرَ الَّذِینَ قَتَلُوا أَوْلاٰدَهُمْ سَفَهاً بِغَیْرِ عِلْمٍ ،فعملهم وصف هنا بأنّه خسران بالمنظار الإنسانی و الأخلاقی،و بالمناظر العاطفی و الاجتماعی،و الخساره الکبری هی الخساره المعنویه فی العالم الآخر.فهذه الآیه تعتبر عملهم أوّلا«خسرانا»ثمّ«سفاهه»و خفه عقل،ثمّ«جهلا»و کل صفه من هذه الصفات الثلاث کافیه لإظهار قبح أعمالهم،فأی عقل یجیز للأب أن یقتل أولاده بیده؟أو لیس هذا من السفاهه و خفه العقل أن یفعل هذا ثمّ لا یخجل من فعلته،بل یعتبرها نوعا من الفخر و العباده؟أی علم یجیز للإنسان أن یعتبر هذه الأعمال قانونا اجتماعیا؟

من هنا نفهم ما قاله ابن عباس بشأن ضروره قراءه سوره الأنعام لمن شاء أن يدرك مدى تخلف الأقوام الجاهليين.

ثمّ يـذكر القرآن أنّ هؤلاء قد حرموا على أنفسـهم ما رزقهم اللّه و أحله لهم و كذبوا على اللّه و نسـبوا هذه الحرمه له سـبحانه: وَ حَرَّمُوا مٰا رَزَقَهُمُ اللّٰهُ افْتِرٰاءً عَلَى اللّٰهِ .

فى هـذه العبـاره إدانه أخرى لأعمـالهم،فهم-أوّلا-حرموا على أنفسـهم النعمه التى«رزقهم»إيّاهـا و أباحها لهم و كانت ضـروريه لحياتهم،فنقضوا بذلك قانون اللّه.

و هم-ثانيا- «افتروا»على اللّه قائلين إنّه هو الذى أمر بذلك.

فى ختـام الآيه و فى جملتين قصيرتين إدانه أخرى لهم،فهم: قَدْ ضَلُّوا ،ثمّ إنّهم لم يسلكوا يومـا الطريق المستقيم: وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ .

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۴۱]

اشاره

وَ هُوَ اَلَّذِی أَنْشَأَ جَنّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَیْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ اَلنَّخْلَ وَ اَلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُکُلُهُ وَ اَلزَّیْتُونَ وَ اَلرُّمّانَ مُتَشابِهاً وَ غَیْرَ مُتَشابِهٍ کُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ یَوْمَ حَصادِهِ وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا یُحِبُّ اَلْمُسْرِفِینَ (۱۴۱)

التّفسیر

اشاره

درس عظیم علی درب التوحید:

لقد جاءت الإشاره فی هذه الآیه إلی عدّه مواضیع،کل واحد منها متفرع عن الآخر،و نتیجه عنه.

فهو تعالی یقول أوّلا:إنّ اللّه تعالی هو الـذی خلق أنواع البساتین و المزارع الحاویه علی أنواع الأشـجار و النباتات،فمنها ما یعتمد فی موقفه علی الأعمـده و العروش حیث تحمـل مـا لـذّ و طـاب من الفواکه و الثمار،و تخلب بمنظرها الساحر العیون و الألباب،و منهـا مـا لاـ یحتـاج إلی عریش،بـل هو قـائم علی سوقه یلقی بظلاـله الوارفه علی رؤوس الآـدمیّین،و یسـدّ بثمـاره المتنوعه حاجه الإنسان إلی الغذاء: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَ جَنّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَیْرَ مَعْرُوشاتٍ .

لقد ذهب المفسّرون فی تفسیر کلمه«معروش»و«غیر معروش»إلی ثلاثه احتمالات:

۱-ما أشرنا إلیه قبل قلیل،فالمعروش هو الأشجار و النباتات التی لا تقوم علی سوقها بل تحتاج إلی عروش و سقف،و غیر المعروش هو الأشجار و النباتات التی تقوم علی سوقها و لا تحتاج إلی عروش و سقف،(لأنّ العرش یدلّ علی ارتفاع فی شیء،و لهذا یقال لسقف البیت عرش،و یقال للسریر المرتفع عرش).

۲-إنّ المراد من«المعروش»هو الأشجار المنزلیه و ما یزرعه الناس و یحفظ بواسطه الحیطان فی البساتین،و من«غیر المعروش»الأشجار البرّیه و النباتات الصحراویه و الجبلیه و ما ینبت فی الغابات.

۳-«المعروش»هو ما یقوم علی ساقه من الأشجار أو یرتفع علی الأرض، و«غیر المعروش»هو الأشجار التی تمتد علی الأرض.

و لکن یبدو أنّ المعنی الأوّل أنسب،هنا،و لعلّ ذکر«المعروشات»فی مطلع الحدیث إنّما هو لأجل بنیان هذا النوع من الأشجار و ترکیبها العجیب،فإنّ نظره عابره إلی شجره الکرم و قضبان العنب و سیقانها الملتویه العجیبه،و المزوّده بکلالیب و مقابض خاصّه،و کیفیه التفافها بکل شیء حتی تستطیع أن تنمو، و تثمر،خیر شاهد علی هذا الزعم.

ثمّ إنّ الآیه تشیر إلی نوعین من البساتین و المزارع إذ تقول: وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ .

و ذکر هذین النوعین بالخصوص إنّما هو لأهمیتهما الخاصّه فی حیاه البشر، و دورهما فی نظامه الغذائی(و لا بدّ أن تعرف أن الجنّه کما تطلق علی البستان، کذلک تطلق علی الأرض التی غطّاها الزرع).

ثمّ إنّه تعالی یضیف قائلا:إنّ هذه الأشجار مختلفه و متنوعه من حیث الثمر

و الطعم.فمع أنّ جميعها ينبت من أرض واحده و يسقى بماء واحد فإن لكل واحده منها رائحه خاصّه،و نكهه معينه،و خاصيه تختص بها،و لا توجد فى غيرها: مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ (۱) .

ثمّ يشير سبحانه إلى قسمين آخرين من الثمار عظيمى الفائده،جليلى النفع فى مجال التغذيه البشريه إذ يقول: وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمّانَ .

إن إختيار هاتين بالذكر من بين أشجار كثيره إنّما هو لأجل أن هاتين الشجرتين:(شجره الزيتون و شجره الرمان)رغم تشابههما من حيث الظاهر و المظهر تختلفان اختلافا شاسعا من حيث الثمره،و من حيث الخاصيه الغذائيه، و لهذا عقّب على قوله ذلك بهاتين الكلمتين: مُتَشابِهاً،وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ (۲) .

و بعد ذكر كلّ هذه النعم المتنوّعه يقول سبحانه: كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ،وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ .

ثمّ ينهى فى نهايه المطاف عن الإسراف إذ يقول تعالى: وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

«الإسراف»تجاوز حدّ الاعتدال فى كل فعل يفعله الإنسان.و هذه الجمله يمكن أن تكون إشاره إلى عدم الإسراف فى الأكل،أو عدم الإسراف فى الإنفاق و البذل،لأنّ البعض قد يسرف فى البذل و الإنفاق إلى درجه أنّه يهب كل ما عنده إلى هذا و ذاك،فيقع هو و أبناؤه و أهله فى عسر و فقر و حرمان!!

بحوث

اشاره

۱-ارتباط هذه الآيه بالآيات السابقه

فى الآيات السابقه من هذه السوره جرى حديث عن الأحكام الخرافيه التى

۱- ۱) -الأكل:بضم الألف و ضم أو سكون الكاف يعنى ما يؤكل.

۲- ۲) -تقدم لنا توضيح فى هذا المجال عند تفسير الآيه(۹۹)من نفس هذه السوره.

كانت سائده بين الوثنيين،الذين كانوا يجعلون نصيبا من الزرع و الأنعام للّه، و كانوا يعتقدون بأنّ ذلك النصيب يجب أن يصرف على نحو خاص،كانوا يحرّمون ركوب بعض الأنعام،و يقدّمون أولادهم قرابين إلى بعض الأصنام و الأوثان!! إنّ الآيه الحاضره،و الآيه اللاحقه تحملان ردّا على جميع هذه الأحكام و المقررات الخرافيّه الجاهليه إذ تقولان بصراحه،إنّ اللّه تعالى هو خالق جميع هذه النعم،فهو الذى أنشأ جميع هذه الأشجار و الأنعام و الزروع،كما أنّه هو الذى أمر بالانتفاع بها،و عدم الإسراف فيها،و على هذا الأساس فليس لغيره أى حق لا فى«التحريم»،و لا فى«التحليل».

۲-ماذا تعنى جمله

إِذٰا أَثْمَرَ

مع ذكر«ثمره»قبل ذلك؟فقد وقع فيه كلام بين المفسّرين،و لكن الظاهر أن هذه الجمله تهدف إلى تقرير و بيان أنّ بمجرد ظهور الثمار على هذه الأشجار،و ظهور سنابل القمح،و الحبوب فى الزرع يجوز الانتفاع بها حتى إذا لم يعط منها حقوق الفقراء بعد،و إنما يجب إيتاء هذا الحق لأهله حين حصاد الزرع، و قطاف الثمر(يوم الحصاد)كما يقول تعالى: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصٰادِهِ .

۳-ما هو المراد من الحقّ الذى يجب إعطاؤه؟

يرى البعض أنّها هى الزّكاه الواجبه المفروضه،أى عشر أو نصف عشر المحصول البالغ حدّ النصاب الشرعى.

بيد أنه مع الالتفات إلى أنّ هذه السوره قد نزلت فى مكّه،و أن حكم الزّكاه نزل فى السنه الثانيه من الهجره أو بعد ذلك فى المدينه المنوره، يبدو مثل هذا الاحتمال بعيدا.

و قـد عرّف هـذا الحق فی روایات عدیده وصـلتنا من أهل البیت علیهم السّـلام،و کذا فی روایات عدیده وردت فی مصادر أهل السنه بغیر الزّکاه.

و جاء فیها أنّ المراد منه هو یعطی من المحصول إلی الفقیر عند حضوره عملیه الحصاد أو القطاف،و لیس له حدّ معین ثابت (۱)
.

و فی هـذه الحـاله،هل هـذا الحکم وجوبی أم اسـتحبابی؟ یری البعض أنه حکم وجوبی،أی أنّ إعطاء هـذا الحق کان واجبا علی المسلمین قبل تشریع حکم«الزّکاه»و لکنّه نسخ بعد نزول آیه الزّکاه،فحلّت الزّکاه بحدودها الخاصّه محل ذلک الحق.

و لکن یسـتفاد من أحـادیث أهل البیت علیهم السّـلام أن هـذا الحکم لم ینسـخ،بل هو باق فی صوره الحکم الاسـتحبابی،و هـذا یعنی أنه یستحبّ الآن إعطاء شیء من المحاصیل الزراعیه إلی من یحضر عند حصادها و قطافها من الفقراء.

۴-یمکن أن یکون التعبیر بکلمه«یوم»إشـاره إلی أنه یحبّـذ أن یوقع حصـاد الزرع،و قطاف الثمر فی النهار حتی إذا حضـر الفقراء یعطی إلیهم شیء منها،لا فی اللیل کما یفعل بعض البخلاء لکیلا یعرف أحد بهم.

و قد أکّدت الرّوایات الواصله إلینا من أهل البیت علیهم السّلام علی هذا الأمر أیضا (۲) .

۱- ۱) -الأحادیث المـذکوره ذکرها صاحب الوسائل فی کتاب الزّکاه فی أبواب زکاه الغلات فی الباب ۱۳،و البیهقی فی کتاب السنن،ج ۴،ص ۱۳۲.

۲- ۲) -راجع بهـذا الصـدد کتاب وسائل الشیـعه کتاب الزّکاه،أبواب زکاه الغلات،باب کراهه الحصاد و الجذاذ باللیل،ج ۶،ص ۱۳۶.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۴۲ الی ۱۴۴]

اشاره

وَ مِنَ اَلْأَنْعٰامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً كُلُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اَللّٰهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ اَلشَّيْطٰانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۴۲) ثَمٰانِيَةَ أَزْوٰاجٍ مِنَ اَلضَّأْنِ اِثْنَيْنِ وَ مِنَ اَلْمَعْزِ اِثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ اَلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اِشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحٰامُ اَلْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۱۴۳) وَ مِنَ اَلْإِبِلِ اِثْنَيْنِ وَ مِنَ اَلْبَقَرِ اِثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ اَلْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اِشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحٰامُ اَلْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدٰاءَ إِذْ وَصّٰاكُمُ اَللّٰهُ بِهٰذٰا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً لِيُضِلَّ اَلنّٰاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۴۴)

التّفسير

إنّ هذه الآيات-كما أشرنا إلى ذلك-بصدد إبطال أحكام خرافيّه جاهليّه كان المشركون يدينون بها فى مجال الزراعه و الأنعام.

ففى الآيه المتقدمه جرى الحديث حول أنواع المزروعات و الثمار التى

أنشأها اللّه،و فی هذه الآیات یدور الحدیث حول الحیوانات المحلّله اللحم،و ما تؤدیه من خدمات،و ما یأتی منها من منافع.

یقول أوّلا:إنّ اللّه هو الذی خلق لکم حیوانات کبیره للحمل و النقل،و أخری صغیره: وَ مِنَ الْأَنْعٰامِ حَمُولَهً وَ فَرْشاً (۱) .

و«حموله»جمع و لیس لها مفرد-کما قال علماء اللغه-و تعنی الحیوانات الکبیره التی تستخدم للحمل و النقل کالإبل و الفرس و نظائرها.

و«فرش»هو بنفس المعنی المتعارف،و لکن فسّر هنا بالغنم و ما یشابهه من الحیوانات الصغیره،و الظاهر أنّ العله فی ذلک هو أنّ هذا النوع من الأنعام لصغرها و اقترابها من الأرض کالفراش فی مقابل الأنعام و الحیوانات الکبیره الجثه-التی تقوم بعملیه الحمل و النقل،کالإبل-فعند ما نشاهد قطعیا من الأغنام و هی مشغوله بالرعی فی الصحاری و المراعی بدت لنا و کأنّها فرش ممدوده علی الأرض،فی حین أن قطیع الإبل لا یکون له مثل هذا المنظر.

ثمّ إنّ تقابل«الحموله»«الفرش»أیضا یؤید هذا المعنی.

و قد ذهب بعض المفسّرین إلی احتمال آخر أیضا،و هو أن المراد من هذه الکلمه هی الفرش التی یتخذها الناس من هذه الأنعام و الحیوانات،یعنی أن الکثیر من هذه الحیوانات تستخدم للحمل و النقل،کما یستفاد منها فی صنع الفرش.و لکن الاحتمال الأوّل أقرب إلی معنی الآیه.

ثمّ إنّ الآیه الشریفه تخلص إلی القول بأنه لمّا کانت جمیع هذه الانعام قد خلقها اللّه تعالی و حکمها بیده،فإنّه یأمرکم قائلا: کُلُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اللّٰهُ .

أمّا أنّه لماذا لا یقول:کلوا من هذه الأنعام و الحیوانات،بل یقول: کُلُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اللّٰهُ ؟فلأن الحیوانات المحلّله اللحم لا تنحصر فی ما ذکر فی هذه الآیات،بل هناک حیوانات أخری محلّله اللحم أیضا و لکنّها لم تذکر فی الآیات

۱- ۱) -الواو فی صدر الآیه هی واو العاطفه و ما بعدها عطف علی الجنات فی الآیه السابقه.

السابقه.

و لتأكيـد هـذا الكلام و إبطال أحكام المشـركين الخرافيه يقول: وَ لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ الشَّيْطٰانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ فهو الـذى أعلن الحرب على آدم منذ بدايه الخلق.

و هذه العباره إشاره إلى أن هذه الأحكام و المقررات العاريه عن الدليل، و التى تنبع فقط من الهوى و الجهل،ما هى إلاّ وساوس شيطانيه من شأنها أن تبعدكم عن الحق خطوه فخطوه،و تؤدى بكم إلى متاهات الحيره و الضلاله.

هذا و قد مرّ توضيح أكثر لهذه العباره عند تفسير الآيه(۱۶۸)من سوره البقره.

الآيه الثانيه تبيّن قسـما من الحيوانات المحلّله اللحم،و بعض الأنعام التى يسـتفاد منها فى النقل،كما يسـتفاد منها فى تغذيه البشر و طعـامهم أيضـا فيقول:إنّ اللّه خلق لكم ثمـانيه أزواج من الأنعـام:زوجين من الغنم(ذكر و أنثى)،و زوجين من المعز: ثَمٰانِيَهَ أَزْوٰاجٍ (۱) مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ .

و بعد ذكر هذه الأزواج الأربعه يأمر تعالى نبيّه فورا بأن يسألهم بصراحه:

هـل أن اللّه حرّم الـذكور منهـا أم الإناث: قُلْ آلـذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ؟!أم أنّه حرّم عليهم ما فى بطون الإناث من الأغنام،أم ما فى بطون الإناث من المعز؟:

أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحٰامُ الْأُنْثَيَيْنِ

؟! ثمّ يضيف قائلا:إذا كنتم صادقين فى أنّ اللّه حرّم شيئا ممّا تدعونه،و كان لديكم ما يدلّ على تحريم أى واحد من هذه الأنعام فهاتوا دليلكم على ذلك:

ص: ۴۸۹

۱- ۱) -أزواج جمع«زوج»تعنى فى اللغه مـا يقابل الفرد،و لكن يجب الانتباه إلى أنّه ربّما يراد منه مجموع الـذكر و الأنثى،و ربّما يطلق على كل واحـد من الزوجين،و لهـذا يطلق على الـذكر و الأنثى معا:زوجين،و اسـتعمال لفظ الأزواج الثمانيه فى الآيه إشاره إلى الذكور الأربعه من الأصـناف الأربعه،و الإناث الأربع من تلك الأصناف. و يحتمل أيضا أن يكون المراد من الأزواج الثمانيه فى الآـيه:الأليف من تلك الأصـناف الأربعه و ما يقابلها من الوحشـى،أى الـذكر و الأنثى من الغنم الأليف،و الـذكر و الأنثى من الغنم الوحشى،و هكذا...فتكون الأزواج حينئذ ثمانيه.

نَبِّئُونِی بِعِلْمٍ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ

.

ثمّ فی الآیه اللاحقه یبیّن الأزواج الأربعه الأخری من الأنعام التی خلقها اللّه للبشر،إذ یقول:و خلق من الإبل ذکرا و أنثی،و من البقر ذکرا و أنثی،فأی واحد من هذه الأزواج حرّم اللّه علیکم:الذکور منها أم الإناث؟أم ما فی بطون الإناث من الإبل و البقر: وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَیْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَیْنِ قُلْ آلذَّکَرَیْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَیَیْنِ،أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَیْهِ أَرْحٰامُ الْأُنْثَیَیْنِ ؟! و حیث أن الحکم بتحلیل هذه الأنعام و تحریمها إنّما هو بید اللّه خالقها و خالق البشر و خالق العالم کله،من هنا یتوجّب علی کلّ من یدّعی تحلیل أو تحریم شیء منها،إمّا أن یثبت ذلک عن طریق شهاده العقل،و إمّا أن یکون قد أوحی له بذلک،أو یکون حاضرا عند النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند صدور هذا الحکم منه.

و لقد صرّح فی الآیه السابقه بأنّه لم یکن لدی المشرکین أی دلیل علمیّ أو عقلیّ علی تحریم هذه الأنعام،و حیث أنّهم لو یدّعوا أیضا نزول الوحی علیهم،أو النبوه،فعلی هذا یبقی الاحتمال الثالث فقط،و هو أن یدّعوا أنّهم حضروا عند أنبیاء اللّه و رسله یوم أصدروا هذه الأحکام،و لهذا یقوم اللّه لهم فی مقام الإحتجاج علیهم:هل حضرتم عند الأنبیاء و شهدتم أمر اللّه لهم بتحلیل أو تحریم شیء من هذه الأنعام: أَمْ کُنْتُمْ شُهَدٰاءَ إِذْ وَصّٰاکُمُ اللّٰهُ بِهٰذٰا ؟! و حیث إنّ الجواب علی هذا السؤال هو الآخر بالنفی و السلب،یثبت أنّهم ما کانوا یمتلکون فی هذا المجال إلاّ الافتراء،و لا یستندون إلاّ إلی الکذب.

و لهذا یضیف فی نهایه الآیه قائلا: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً، لِیُضِلَّ النّٰاسَ بِغَیْرِ عِلْمٍ،إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ (۱) .

فیستفاد من هذه الآیه أن الافتراء علی اللّه من أکبر الذنوب و الآثام،إنّه ظلم

---

۱ – ۱) -ثمّه احتمالات عدیده حول ما هو متعلق بالجار و المجرور فی قوله:«بغیر علم»،و لکن لا یبعد أن یکون هذا الظرف متعلقا بفعل:«یضل»یعنی أنّهم بسبب جهلهم یضلون الناس.

للّه تعـالى و لمقـامه الربوىّ العظيم،و ظلم لعبـاد اللّه،و ظلم النفس،و للتعبير ب«أظلم» فى مثـل هـذه الموارد كمـا قلنا سابقا،جانب نسبىّ،و على هذا فلا مانع من استعمال نفس هذا التعبير بالنسبه إلى بعض الذنوب الكبيره الأخرى.

كما و يسـتفاد من هـذه الآيه أيضا أن الهـدايه و الإضـلال الإلهيين لا يكونان بالجبر،بل إن لهما مقدمات و عللا تبدأ من الإنسان نفسه و تتحقق بفعله هو، فعنـد مـا يعمـد أحـد باختياره إلى ممارسه الظلم و الجور يحرمه اللّه حينئـذ من عنايته و حمايته،و يتركه يضيع فى متاهات الحيره و الضلاله.

ص :۴۹۱

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۴۵]

اشاره

قُلْ لاٰ أَجِدُ فِی مٰا أُوحِیَ إِلَیَّ مُحَرَّماً عَلیٰ طٰاعِمٍ یَطْعَمُهُ إِلاّٰ أَنْ یَکُونَ مَیْتَهً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِیرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَیْرِ اَللّٰهِ بِهِ فَمَنِ اُضْطُرَّ غَیْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۴۵)

التّفسیر

اشاره

بعض الحیوانات المحرّمه:

ثمّ إنّه تعالی-بهدف تمییز المحرمات الإلهیه عن البدع التی أحدثها المشرکون و أدخلوها فی الدین الحق-أمر نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذه الآیه بأن یقول لهم بکل صراحه،و من دون إجمال أو إبهام: لاٰ أَجِدُ فِی مٰا أُوحِیَ إِلَیَّ من الشریعه أی شیء من الأطعمه یکون مُحَرَّماً عَلیٰ طٰاعِمٍ یَطْعَمُهُ من ذکر أو أنثی،و صغیر أو کبیر.

اللّهم إِلاّٰ عدّه أشیاء،الأوّل: أَنْ یَکُونَ مَیْتَهً .

أو یکون دَماً مَسْفُوحاً و هو ما خرج من الذبیحه عند التزکیه بالقدر المتعارف(لا الدّماء التی تبقی فی جسم الذبیحه فی عروقها الشعریه الدقیقه،بعد

خروج قدر كبير منها بعد الذبح).

أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ

.

لأنّ جميع هذه الأشياء رجس و منشأ لمختلف الأضرار فَإِنَّهُ رِجْسٌ .

إنّ الضمير فى«فإنّه»و إن كان ضمير الإفراد،إلّا أنّه يرجع-حسب ما يذهب إليه أكثر المفسّرين-إلى الأقسام الثلاثه المذكوره فى الآيه(الميته،الدم،لحم الخنزير)فيكون معنى الجمله الأخيره هى:فإنّ كل ما ذكر رجس (۱) .و هذا هو المناسب لظاهر الآيه و هو عوده الضمير إلى جميع تلك الأقسام،إذ لا شك فى أن الميته و الدم هما أيضا رجس كلحم الخنزير.

ثمّ أشار تعالى إلى نوع رابع فقال: أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ (۲) أى التى لم يذكر اسم اللّه عليها عند ذبحها.

و الجدير بالتأمل أنّه ذكرت لفظه«فسقا»بدلا عن كلمه«الحيوان».

و«الفسق»كما أسلفنا يعنى الخروج عن طاعه اللّه و عن رسم العبوديه،و لهذا يطلق على كل معصيه عنوان الفسق.

و أمّا ذكر هذه اللفظه فى هذا المورد فى مقابل الرجس الذى أطلق على الموارد الثلاثه المذكوره سابقا،فيمكن أن يكون إشاره إلى أنّ اللحوم المحرمه على نوعين:

اللحوم المحرّمه لخباثتها بحيث تنفر منها الطباع،و توجب أضرارا جسديه، و يطلق عليها وصف الرجس(أى النجس).

اللحوم التى لا تعدّ من الخبائث،و لا تستتبع أضرارا جسميّه و صحيّه،و لكنّها -من الناحيه الأخلاقيه و المعنويه-تدلّ على الابتعاد عن اللّه و عن جاده التوحيد،

۱- ۱) -و فى الحقيقه يكون معنى كلمه«فإنّه»هو«فإن ما ذكر».

۲- ۲) -«أهلّ»أصله«الإهلال»،و هو مأخوذ فى الأصل من الهلال،و الإهلال يعنى رفع الصوت عند رؤيه الهلال،ثمّ استعمل لكل صوت رفيع،كما أنّه يطلق على بكاء الصبى عند الولاده الاستهلال،و حيث أنّهم كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوت عال عند ذبح الأنعام عبرّ عن فعلهم هذا بالإهلال.

و لهذا حرّمت أيضا.

و على هذا الأساس لا يجب أن نتوقع أن تنطوى اللحوم المحرمه دائما على أضرار صحيّه،بل ربّما حرّمت لأجل أضرارها المعنويه و الأخلاقيه،و من هنا يتضح أنّ الشروط الإسلاميه المقرّره فى الذبح على نوعين أيضا:

بعضها-مثل قطع الأوداج الأربعه،و خروج القدر المتعارف من دم الذبيحه- لها جانب صحّى.

و بعضها الآخر-مثل توجيه مقاديم الذبيحه نحو القبله عند الذبح،و ذكر اسم اللّه عنده،و كون الذابح مسلما-لها جانب معنوىّ.

ثمّ إنّه سبحانه استثنى-فى آخر الآيه-من اضطر إلى تناول شىء ممّا ذكر من اللحوم المحرّمه،كما لو لم يجد أىّ طعام آخر و توقفت حياته على تناول شىء من تلك اللحوم،إذ قال: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱) يعنى أنّ من اضطرّ إلى أكل شىء ممّا ذكر من المنهيّات فلا إثم عليه، بشرط أن يكون للحفاظ على حياته،لا للذه،و لا مستحلاّ لما حرّمه اللّه،أو متجاوزا حدّ الضروره،ففى هذه الصوره فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و إنّما اشترط هذان الشرطان لكى لا يتذرع المضطرون بهذه الإباحه فيتعدّوا حدود ما قرّره اللّه بحجه الاضطرار،و يتخذوا من ذلك ذريعه لتجاهل حمى القوانين الإلهيه.

و لكنّنا نقرأ فى بعض الأحاديث الوارده عن آل البيت عليهم السّلام،مثل

الحديث المنقول عن الإمام الصادق عليه السّلام: «الباغى:الظالم،و العادى:الغاصب» (۲) .

كما نقرأ

فى حديث آخر منقول عن الإمام عليه السّلام أنّه قال: «الباغى:الخارج على

۱- ۱) -«الباغى»من«البغى»و هو يعنى الطلب،«و العادى»من«العدو»و هو يعنى التجاوز.

۲- ۲) -بحار الأنوار،ج ۶۵،ص ۱۳۶ و ۱۳۷.

الإمام،و العادی:اللص» (۱) .

هذه الرّوایات و نظائرها تشیر إلی أنّ الاضطرار إلی تناول اللحوم المحرمه یتفق عاده فی الأسفار،فإذا أقدم أحد علی السفر فی سبیل الظلم أو الغصب أو السرقه ثمّ فقد الطعام الحلال فی خلال السفر لم یجز له تناول اللحوم المحرّمه، و إن کانت وظیفته-للحفاظ علی حیاته من التلف-هو التناول من تلک اللحوم، و لکنّه یعاقب علی إثمه هذا،لأنّه أوجد بنفسه المقدمات لمثل هذا السفر الحرام، و علی کل حال فإنّ هذه الرّوایات تنسجم مع المفهوم الکلیّ للآیه انسجاما کاملا.

جواب علی سؤال:

و هنا و یطرح سؤال هو:کیف حصرت جمیع المحرمات الإلهیه-فی مجال الأطعمه-فی أربعه أشیاء،مع أنّنا نعلم بأنّ الأطعمه المحرمه لا تنحصر فی هذه الأشیاء،مثل لحوم الحیوانات المفترسه،و لحوم الحیوانات البحریه(إلاّ ما کان له فلس من الأسماک)و ما شابه،فهذه کلّها حرام،فی حین لم یجیء فی الآیه أی ذکر عن تلک اللحوم،بل حصرت المحرمات فی هذه الأشیاء الأربعه؟! قال البعض فی مقام الإجابه علی هذا السؤال،بأنّ هذه الآیات نزلت فی مکّه و حکم الأطعمه المحرمه الأخری لم ینزل بعد.

غیر أنّ هذه الإجابه تبدو غیر صحیحه،و الشاهد علی ذلک أنّ نفس هذا التعبیر أو نظیره قد ورد فی السور المدنیه مثل الآیه(۱۷۳)من سوره البقره.

و الظاهر أنّ هذه الآیه ناظره-فقط-إلی نفی الأحکام الخرافیه التی کانت شائعه و سائده فی أوساط المشرکین،فالحصر«حصر إضافی»لا حقیقیّ.

و بعباره أخری:کأنّ الآیه تقول:المحرمات الإلهیه هذه،و لیس ما نسجته أوهامکم.

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۶۵،ص ۱۳۶ و ۱۳۷.

و لکی تتضح هذه الحقیقه لا بأس بأنّ نضرب لذلک مثلا.

یسألنا أحد:لها جاء الحسن و الحسین کلاهما،فنجیب:کلا-بل جاء الحسن فقط،لا شک أننا هنا نرید نفی مجیء الشخص الثانی(أی الحسین)و لکن لا مانع من أن یکون آخرون-ممن لم یکونوا محور حوارنا أصلا-قد جاؤوا أیضا، و هذا هو ما یسمی بالحصر الإضافی(أو النسبیّ).

نعم،لا-بدّ من الانتباه إلی نقطه مهمّه،و هی أنّ ظاهر الحصر عاده-الحصر الحقیقی إلاّ فی الموارد التی یوجد فیها قرائن صارفه عن مدلول الظاهر مثل ما نحن فیه الآن.

الآيتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۴۶ الی ۱۴۷]

اشاره

وَ عَلَى اَلَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ اَلْبَقَرِ وَ اَلْغَنَمِ حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمٰا إِلاّٰ مٰا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمٰا أَوِ اَلْحَوٰايٰا أَوْ مَا اِخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذٰلِكَ جَزَيْنٰاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ (۱۴۶) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وٰاسِعَةٍ وَ لاٰ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ اَلْقَوْمِ اَلْمُجْرِمِينَ (۱۴۷)

التّفسير

اشاره

ما حرّم على اليهود:

فی الآيات السابقه حصرت المحرمات من الحيوان فی أربعه،غير أنّ هاتين الآيتين تشيران إلى بعض ما حرم على اليهود ليتبيّن أن أحكـام الوثنيين الخرافيه و المجهوله لا تنطبق لا على أحكام الإسـلام،و لا على دين اليهود(بل و لا على دين المسيح الـذی يتبع فی أكثر أحكامه الدين اليهودی).

ثمّ إنّه قد صـرح فی هذه الآيات أن هذا النوع من المحرمات على اليهود كان له طابع المعاقبه و صـفه المجازاه،و لو أنّ اليهود لم يرتكبوا الجنايات و المخالفات لما حرّم عليهم هذه الأمور،و على هذا الأساس لسائل أن يسأل الوثنيين:من أين

أتيتم بهذه الأحكام المصطنعه؟ و لهذا يقول سبحانه فى البدايه: وَ عَلَى الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ .

و«الظفر»هو فى الأصل المخلب،و لكنّه يطلق أيضا على ظلف الحيوانات من ذوات الأظلاف(من الحيوانات التى لها أظلاف غير منفرجه الأصابع كالحصان لا كالغنم و البقر التى لها أظلاف منفرجه)لأنّ أظلافها تشبه الظفر،كما أنّه يطلق على خف البعير الذى يكون منتهاه مثل الظفر،و لا يكون فيه انشقاق و انفراج مثل انفراج الأصابع.

و على هذا الأساس فإنّ المستفاد من الآيه المبحوثه هو أنّ جميع الحيوانات التى لا تكون ذات أظلاف-دوابا كانت أو طيورا-كانت محرّمه على اليهود.

و يستفاد هذا المعنى-على نحو الإجمال أيضا-من سفر اللاويين من التّوراه الحاضره الإصحاح ١١ حيث يقول:

«و أمر الربّ موسى و هارون:أوصيا بنى إسرائيل:هذه هى الحيوانات التى تأكلونها من جميع بهائم الأرض:تأكلون كل حيوان مشقوق الظّلف و مجتر،أمّا الحيوانات المجتره فقط ذو المشقوقه الظلف فقط،فلا تأكلوا منها،فالجمل غير طاهر لكم لأنّه مجتر و لكنّه غير مشقوق الظلف» (١) .

كما أنّه يمكن أن يستفاد من العباره التّاليه فى الآيه المبحوثه التى تحدثت عن خصوص البقر و الغنم فقط حرمه لحم البعير على اليهود بصوره كليه أيضا.

(تأمل بدقّه).

ثمّ يقول سبحانه: وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمٰا .

ثمّ يستثنى بعد هذا ثلاثه موارد:أوّلها الشحوم الموجوده فى موضوع الظهر من هذين الحيوانين إذ يقول: إِلاّٰ مٰا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمٰا .

۱- ۱) -الكتاب المقدس،سفر اللاّويين،الاصحاح ۱۱،ص ۱۴۲.

و ثانیا:الشّحوم الموجوده علی جنبیها،أو بین أمعائها: أَوِ الْحَوٰایٰا (۱) .

و ثالثا:الشحوم التی امتزجت بالعظم و التصقت به أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ .

و لکنّه صرّح فی آخر الآیه بأنّ هذه الأمور لم تکن محرّمه علی الیهود-فی الحقیقه-و لکنّهم بسبب ظلمهم و بغیهم حرموا-بحکم اللّه و أمره-من هذه اللحوم و لشحوم التی کانوا یحبّونها ذٰلِکَ جَزَیْنٰاهُمْ بِبَغْیِهِمْ .

و یضیف-لتأکید هذه الحقیقه-قوله: وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ و إن ما نقوله هو عین الحقیقه.

بحثان

اشاره

۱-ماذا کان یقترف بنو إسرائیل؟

لا بدّ أن نری هنا أی ظلم کان یقترفه بنو إسرائیل أوجب أن یحرّم اللّه تعالی علیهم هذه النعم التی کانوا یحبّونها؟! هناک مذاهب متباینه للمفسّرین فی هذا الصعید،و لکن ما یستفاد من الآیه (۱۶۰ و ۱۶۱)من سوره النساء،هو أنّ علّه التحریم المذکور کان عده أمور:

ظلمهم للضعفاء،و معارضتهم للأنبیاء،و منعهم من هدایه الناس،و أکل الربا، و أکل أموال الناس بالباطل،إذ یقول:

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَیْهِمْ طَیِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ،وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ کَثِیراً وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا،وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ .

۲-ما معنی«إنّا لصادقون»؟

إنّ عباره وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ التی جاءت فی آخر الآیه یمکن أن تکون إشاره إلی هذه النقطه و هی:أنّ الصدق و الحق فی مسأله تحریم هذه الأطعمه هو ما قلناه لا ما قاله الیهود فی بعض کلامهم،و هو أنّ تحریم هذه الأطعمه و اللحوم إنّما

۱- ۱) -«الحوایا»جمع«حاویه»و هی مجموعه ما یوجد فی بطن الحیوان و التی تکون علی هیئه کره تتضمّن الأمعاء.

کان من جانب إسرائيل(يعقوب)،لأن يعقوب-كما جاء فى الآيه(۹۳)من سوره آل عمران-لم يحكم بحرمه هذه الأشياء أبدا،و ليس هذا سوى تهمه ألصقتها اليهود به.

و لما كان عناد اليهود المشركين أمرا بيّنا،و كان من المحتمل أن يتصلّبوا و يتمادوا فى تكذيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،أمر اللّه تعالى نبيّه فى الآيه الاخرى أنّهم إن كذّبوه يقول لهم:إنّ ربّكم ذو رحمه واسعه فهو لا يسارع إلى عقوبتكم و مجازاتكم،بل يمهلكم لعلكم تؤوبون إليه،و ترجعون عن معصيتكم،و تندمون من أفعالهم و تعودون إلى اللّه، فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وٰاسِعَةٍ .

و لكن إذا أساؤوا فهم أو استخدام هذا الإمهال الإلهى،و استمروا فى كيل التهم فيجب أن يعلموا أنّ عقاب اللّه إيّاهم حتمىّ لا مناص منه،و سوف يصيبهم غضبه فى المال: وَ لاٰ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

إنّ هذه الآيه تكشف-بوضوح-عن عظمه التعاليم القرآنيه،فإنّه بعد شرح و بيان كل هذه المخالفات التى ارتكبها اليهود و المشركون لا يعمد إلى التهديد بالعذاب فورا،بل يترك طريق الرجعه مفتوحا، و ذلك بذكر عبارات تفيض بالحب مثل قوله:«ربّكم»«ذو رحمه»«واسعه»أوّلا-حتى إذا كان هناك أدنى استعداد للرجوع و الإنابه فى نفوسهم شوّقتهم هذه العبارات العاطفيه على العوده إلى لطريق المستقيم.

و لكن حتى لا تبعث سعه الرحمه الإلهيه هذه على التمادى فى غيهم، و تتسبّب فى تزايد جرأتهم و طغيانهم،و حتى يكفوا على العناد و اللجاج هدّدهم فى آخر جمله من الآيه بالعقوبه الحتميه.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۴۸ الی ۱۵۰]

اشاره

سَيَقُولُ اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا أَشْرَكْنٰا وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّٰى ذٰاقُوا بَأْسَنٰا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنٰا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ تَخْرُصُونَ (۱۴۸) قُلْ فَلِلّٰهِ اَلْحُجَّةُ اَلْبٰالِغَةُ فَلَوْ شٰاءَ لَهَدٰاكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۴۹) قُلْ هَلُمَّ شُهَدٰاءَكُمُ اَلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اَللّٰهَ حَرَّمَ هٰذٰا فَإِنْ شَهِدُوا فَلاٰ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱۵۰)

التّفسير

اشاره

التملّص من المسؤوليه بحجه«الجبر»:

عقيب الكلام المتقدم عن المشركين فی الآيات السابقه،أشار فی هذه الآيات إلی طائفه من استدلالاتهم الواهيه،مع ذكر الأجوبه عنها.

فيقول أوّلا:إنّ المشركين سيقولون فی معرض الإجابه عن اعتراضاتک عليهم فی مجال الإشراک باللّه،و تحريم الأطعمه الحلال:إنّ اللّه لو أراد أن لا نكون

مشركين،و أن لا يكون آباؤنا و ثنيين،و أن لا نحرّم ما حرّمنا لفعل: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لاَ آبَاؤُنَا وَ لاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ .

و يلاحظ نظير هذه العباره فى آيتين أخريين من الكتاب العزيز،فى سوره النحل الآيه ۳۵: وَ قَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لاَ آبَاؤُنَا وَ لاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ .و فى سوره الزخرف الآيه(۲۰): وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ .

و هذه الآيات تفيد أن المشركين-مثل كثير من العصاه الذين يريدون التملص من مسئوليه العصيان تحت ستار الجبر-كانوا يعتقدون بالجبر،و كانوا يقولون:كلّ ما نفعله فإنّما هو بإراده اللّه و مشيئته و إلاّ لما صدرت منّا مثل هذه الأعمال.

و فى الحقيقه أرادوا تبرئه أنفسهم من جميع هذه المعاصى،و إلاّ فإنّ ضمير كل إنسان عاقل يشهد بأن الإنسان حرّ فى أفعاله و غير مجبور،و لهذا إذا ظلمه أحد انزعج منه،و أخذه و وّبخه،بل و عاقبه إذا قدر.

و كل ردود الفعل هذه تفيد أنّه يرى المجرم حرّا فى عمله و مختار،فهو ليس على استعداد لأنّ يغض الطرف عن ردود الفعل هذه بحجّه أنّ الظلم الواقع عليه من قبل ذلك الشخص مطابق لإراده اللّه و مشيئته (تأمل بدقه).

نعم هناك احتمال فى هذه الآيه،و هو أنّهم كانوا يدّعون أنّ سكوت اللّه على عبادتهم للأصنام و تحريمهم لطائفه من الحيوانات دليل على رضاه،لأنّه إذا لم يكن راضيا بها وجب أن يمنعهم عنها بنحو من الأنحاء.

و كانوا يريدون-بذكر عباره وَ لاَ آبَاؤُنَا -أن يسبغوا على عقائدهم الفارغه لون القدم و الدوام،و يقولون:إنّ هذه الأمور ليست بجديده ندعيها نحن بل كان ذلك دائما.

و لكن القرآن تصدّى لجوابهم و ناقشهم بشكل قاطع،فهو يقول أوّلا:ليس

هؤلاء وحدهم يفترون على اللّه مثل هذه الأكاذيب: كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (۱) و لكنّهم ذاقوا جزاء افتراءاتهم: حَتّٰى ذٰاقُوا بَأْسَنٰا .

فهؤلاء-فى الحقيقه-كانوا يكذبون فى كلامهم هذا،كما أنّهم يكذّبون الأنبياء،لأنّ الأنبياء الإلهيين نهوا البشريه-بصراحه-عن الوثنيه و الشرك و تحريم ما أحلّه اللّه،فلا آباؤهم سمعوا ذلك و لا هؤلاء،مع ذلك كيف يمكن أن نعتبر اللّه راضيا بهذه الأعمال؟..و لو كان سبحانه راضيا بهذه الأمور فكيف بعث أنبياءه للدعوه إلى التوحيد؟! إنّ دعوه الأنبياء-فى الأساس-أقوى دليل على حريه الإراده الإنسانيه، و إختيار البشر.

ثمّ يقول سبحانه:قل لهم يا محمّد:هل لكم برهان قاطع و مسلّم على ما تدّعونه؟هاتوه إن كان قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنٰا .

ثمّ يضيف فى النهايه: إنّكم ما تتبعونه ليس سوى أوهام و خيالات فجه: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ تَخْرُصُونَ .

و فى الآيه اللاحقه يذكر دليلا آخر لإبطال ادعاء المشركين،و يقول:قل:إنّ اللّه أقام براهين جليه و دلائل واضحه و صحيحه على وحدانيته،و هكذا أقام أحكام الحلال و الحرام سواء بواسطه أنبيائه أو بواسطه العقل،بحيث لم يبق أى عذر لمعتذر: قُلْ فَلِلّٰهِ الْحُجَّهُ الْبٰالِغَهُ .

و على هذا الأساس لا يمكن أن يدعى أحد أبدا أنّ اللّه أمضى-بسكوته- عقائدهم و أعمالهم الباطله،و كذلك يسعهم قط أن يدّعوا أنّهم كانوا مجبورين، لأنّهم لو كانوا مجبورين لكان إقامه الدليل و البرهان،و إرسال الأنبياء و تبليغهم و دعوتهم لغوا،إنّ إقامه الدليل دليل على حريه الإراده.

على أنّه يجب الانتباه إلى أنّ«الحجه»الذى هو من«حجّ»يعنى القصد،

ص :۵۰۳

۱- ۱) -«كذب»فى اللغه تأتى بمعنيين تكذيب الغير،و كذلك فعل الكذب.

و تطلق«الحجه»على الطريق الذى يقصده الإنسان،و يطلق على البرهان و الدليل«الحجه»أيضا،لأنّ القائل يقصد إثبات مدعاه للآخرين عن طريقه.

و مع ملاحظه لفظه«بالغه»يتّضح أنّ الأدله التى أقامها اللّه للبشر عن طريق العقل و النقل و بواسطه العلم و الفكر،و كذا عن طريق إرسال الأنبياء واضحه لا لبس فيها من جميع الجهات،بحيث لا يبقى أى مجال للترديد و الشك لأحد، و لهذا السبب نفسه عصم اللّه سبحانه أنبياءه من كل خطأ ليبعدهم عن أى نوع من أنواع التردد و الشك فى الدعوه و الإبلاغ.

ثمّ يقول فى ختام الآيه:و لو شاء اللّه أن يهديكم جميعا بالجبر لفعل: فَلَوْ شٰاءَ لَهَدٰاكُمْ أَجْمَعِينَ .

و فى الحقيقه فإنّ هذه الجمله إشاره إلى أنّ فى مقدور اللّه تعالى أن يجبر جميع أبناء آدم على الهدايه،بحيث لا يكون لأحد القدره على مخالفته،و لكن فى مثل هذه الصوره لم يكن لمثل هذا الإيمان و لا-للأعمال التى تصدر فى ضوء هذا الإيمان الجبرى القسرى أيه قيمه،إنّما فضيله الإنسان و تكامله فى أن يسلك طريق الهدايه و التقوى بقدميه و بإرادته و إختياره.

و على هذا الأساس لا منافاه أصلا بين هذه الجمله و الآيه السابقه التى ورد فيها نفى الجبر.

إنّ هذه الجمله تقول:إنّ إجبار الناس الذى تدّعونه أمر ممكن و مقدور للّه تعالى،و لكنّه لن يفعله قط،لأنّه يخالف الحكمه و ينافى المصلحه الإنسانيه.

و كان المشركون قد تذرّعوا بالقدره و المشيئه الإلهيتين لاختيار مذهب الجبر،على حين أن القدره و المشيئه الآلهيتين حق لا شبهه فيهما،بيد أنّ نتيجتهما ليست هى الجبر و القسر،بل إنّ اللّه تعالى أراد أن نكون أحرارا،و أن نسلك طريق الحق باختيارنا و بمحض إرادتنا.

جاء فى كتاب الكافى عن الإمام الكاظم عليه السّلام أنّه قال:

«إنّ للّه على الناس حجّتين حجّه ظاهره و حجّه باطنه،فأمّا الظاهره فالرسل و الأنبياء و الأئمّه،و أمّا الباطنه فالعقول» (۱) .

و

جاء فی أمالی الصّدوق عن الإمام الصّادق علیه السّلام لمّا سئل عن تفسیر قوله تعالی: فَلِلّٰهِ الْحُجَّهُ الْبٰالِغَهُ أنه قال:

«إنّ اللّه تعالی یقول للعبد یوم القیامه:عبدی أ کنت عالما،فإن قال:نعم،قال له:أ فلا عملت بما علمت؟و إن قال:کنت جاهلا،قال له:أ فلا تعلّمت حتی تعمل؟ فیخصمه،فتلک الحجّه البالغه» (۲) .

إنّ من البدیهی أنّ المقصود من الحدیث المذکور لیس هو أنّ الحجّه البالغه منحصره فی حوار اللّه تعالی مع عباده یوم القیامه،بل إنّ للّه حججا بالغه عدیده من مصادیقها ما جاء فی الحدیث المذکور من الحوار بین اللّه و بین عباده،لأن نطاق الحجج الإلهیه البالغه واسع یشمل الدنیا و الآخره.

و فی الآیه التّالیه-و لکی یتضح بطلان أقوالهم،و مراعاه لأسس القضاء و الحکم الصحیح-دعا المشرکین لیأتوا بشهدائهم المعتبرین لو کان لهم،لکی یشهدوا لهم بأنّ اللّه هو الذی حرّم الحیوانات و الزروع التی ادّعوا تحریمها،لهذا یقول: قُلْ هَلُمَّ شُهَدٰاءَکُمُ الَّذِینَ یَشْهَدُونَ أَنَّ اللّٰهَ حَرَّمَ هٰذٰا .

ثمّ یضیف قائلا:إذا کانوا لا یملکون مثل هؤلاء الشهداء المعتبرین(و لا یملکون حتما)بل یکتفون بشهادتهم و ادّعائهم أنفسهم فقط،فلا تشهد معهم و لا تؤیدهم فی دعاویهم: فَإِنْ شَهِدُوا فَلاٰ تَشْهَدْ مَعَهُمْ .

اتضح ممّا قیل إنّه لا تناقض قطّ فی الآیه لو لوحظت مجموعه،و أمّا مطالبتهم بالشاهد فی البدایه ثمّ أمره تعالی بعدم قبول شهاداتهم،فلا یستتبع إشکالا،لأنّ المقصود هو الإشعار بأنّهم عاجزون عن إقامه الشهود المعتبرین

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۱،ص ۷۷۴.

۲- ۲) -تفسیر نور الثقلین،ج ۱،ص ۷۷۶.

على القطع و اليقين،لأنّهم لا يمتلكون أىّ دليل من الأنبياء الإلهيين و الكتب السماويه يسند تحريم هذه الأمور،و لهذا فإنّهم وحدهم الذين يدّعون هذه الأمور سيشهدون،و من المعلوم أنّ مثل هذه الشهاده مرفوضه.

هذا مضافا إلى أنّ جميع القرائن تشهد بأنّ هذه الأحكام ما هى إلاّ أحكام مصطنعه مختلفه نابعه عن محض الهوى و التقليد الأعمى،و لا اعتبار لها مطلقا.

و لذلك قال فى العباره اللاحقه: وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ،وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) .

يعنى أنّ وثنيتهم،و إنكارهم للقيامه و البعث،و الخرافات،و إتباعهم للهوى، شواهد حيّه على أنّ أحكامهم هذه مختلقه أيضا،و أنّ ادّعاهم فى مسأله تحريم هذه الموضوعات من جانب اللّه لا قيمه له،و لا أساس له من الصحه.

۱- ۱) -«يعدلون»مشتق من ماده«عدل»بمعنى الشريك و التشبيه،و على هذا الأساس فإنّ مفهوم جمله«و هم بربّهم يعدلون» هم أنّهم كانوا يعتقدون بشريك و شبيه اللّه سبحانه.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۵۱ الی ۱۵۳]

اشاره

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّاهُمْ وَ
لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۱۵۱) وَ لا
تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا
وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ بِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۱۵۲) وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۵۳)

التّفسير

اشاره

الأوامر العشره:

بعد نفی أحكام المشركين المختلفه التی مرّت فی الآيات المتقدمه،أشارت

ص :۵۰۷

هذه الآيات الثلاثه إلى أصول المحرمات فى الإسلام،و ذكرت الذنوب الرئيسيه الكبيره فى عشره أقسام ببيان مقتضب،عميق و فريد،ودعت المشركين إلى أن يحضروا عند النّبى و يستمعوا إلى ما يتلى عليهم من المحرمات الإلهيه الواقعيه، و يتركوا المحرمات المختلقه جانبا.

يقول أوّلا: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .

۱- أَلاّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً .

۲- وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ۳- وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ أى بسبب الفقر و الحرمان لأنّنا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّاهُمْ .

۴- وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ أى لا تقربوها فضلا عن أن لا ترتكبوها.

۵- وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ فلا تسفكوا الدّماء البريئه، و لا تقتلوا النفوس التى حرم اللّه قتلها إلاّ ضمن قوانين العقوبات الإلهيه،فيجوز أن تقتلوا من أذن اللّه لكم بقتله.

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر هذه الأقسام الخمسه يقول لمزيد من التأكيد: ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فلا ترتكبوها.

۶- وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ فلا تقربوا مال اليتيم إلاّ بقصد الإصلاح حتى يبلغ أشده و يستوى.

۷- وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ فلا تطففوا و لا تبخسوا.

و حيث أن الإنسان-مهما دقق فى الكيل و الوزن-قد يزيد أو ينقص بما لا يمكن أن تضبطه الموازين و المكاييل المتعارفه لقلته و خفائه،لهذا عقب على ما قال بقوله: لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها .

۸- وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى فلا تنحرفوا عن جاده الحق عند

الشهاده أو القضاء أو أمر آخر حتى و لو كان على القريب،فاشهدوا بالحق، و اقضوا بالعدل.

۹- وَ بِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُوا و لا تنقضوه.

و أمّا ما هو المراد من العهد الالهى المذكور فى هذه الآيه؟فقد ذهب المفسّرون إلى احتمالات عديده فيه،و لكن مفهوم الآيه يشمل جميع العهود الالهيّه«التكوينيه»و«التشريعيه»و التكاليف الالهيه و كل عهد و نذر و يمين.

ثمّ إنّه سبحانه يقول فى ختام هذه الأقسام الأربعه-للتأكيد: ذٰلِكُمْ وَصّٰاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

۱۰- وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ إن طريقى هذا هو طريق التوحيد،طريق الحق و العدل،طريق الطهر و التقوى فامشوا فيه،و اتبعوه،و اسلكوه و لا تسلكوا الطرق المنحرفه و المتفرقه، فتؤدى بكم إلى الانحراف عن اللّه و إلى الاختلاف،و التشرذم،و التفرق،و تزرع فيكم بذور الفرقه و النفاق.

ثمّ يختم جميع هذه الأقسام و للمرّه الثّالثه-لغرض التأكيد بقوله: ذٰلِكُمْ وَصّٰاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

بحوث

اشاره

إنّ هاهنا عدّه نقاط يجب أن نقف عندها،و هى:

۱-الشروع بالتوحيد و الختم بنبذ الاختلاف

إنّ الملاحظ فى هذه الآيات أنّ هذه التعاليم و الأوامر العشره بدأت بتحريم الشرك الذى هو فى الواقع المنشأ الأصلى لجميع المفاسد الاجتماعيه و المحرمات الالهيه،و انتهت-أيضا-بالدّعوه إلى نبذ التفرق و الاختلاف الذى

یعدّ هو الآخر نوعا من الشرک العملی.

إنّ هـذا الموضوع یکشف عن أهمیه مسأله التوحید فی جمیع الأصول و الفروع الإسـلامیه،و بالتالی یکشف عن أن التوحید لیس مجرّد أصل عقائدی بحت،بل یمثّل روح التعالیم الإسلامیه برمتها.

۲-التأکیدات المتتابعه

لقـد تکرّرت عباره ذٰلِکُمْ وَصّٰاکُمْ بِهِ للتأکید عند ختام کل آیه من الآیات الثلاث،مع فوارق فی الفواصل طبعا،فقد ختمت العباره فی الآیه الأولی بجمله:

لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ

،و فی الآیه الثّانیه بجمله: لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ و فی الآیه الثّالثه بجمله: لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ .

و یبـدو أنّ هـذه التعـابیر المختلفه إشـاره إلی النقطـه التّالیه و هی:أنّ المرحلـه الأولی عنـد تلقّی أیّ حکـم مـن الأحکـام هو مرحله«التعقل»أی فهم ذلک الحکم و إدراکه.

و المرحله الثّانیه هی:مرحله«التذکر»و هضم ذلک الحکم و امتصاص مفاده و استیعاب محتواه.

و المرحله الثّالثه هی:المرحله النهائیه،و هی مرحله العمل و التطبیق،و قد أسماها القرآن بمرحله«التقوی».

صحیـح أنّ کل واحـده من هـذه العبارات(و المراحل)جاءت بعد ذکر عدّه تعالیم من التعالیم العشـره،إلاّ أنّه من الواضح أنّ هذه المراحـل لاـ تختص بأحکـام معیّنه،لأـنّ کل حکم من الأحکام،و کل تعلیم من التعالیم بحاجه إلی«التعقل» و«التـذکر»و«التقوی و العمل»،إنّما هی رعایه جهات الفصاحه و البلاغه،التی اقتضت توزیع هذه التأکیدات(و المراحل)فی أثناء تلک التعالیم العشره.

۳-التعالیم و الأوامر الخالده

لعلّنا فی غنیّ عن التذکیر بأنّ هذه التعالیم و الأوامر العشره لا تختص بالدین الإسلامی،بل کان نظیرها فی جمیع الشرائع المتقدمه علیه و إن کانت قد حظیت فی الإسلام بعنایه أکبر و أوسع.

و فی الحقیقه أنّ هذه التعالیم ممّا یدرکه العقل السویّ و الضمیر السلیم بوضوح و جلاء و بعباره أخری:هی من«المستقلات العقلیه»و لهذا فإنّها کما ذکرت فی القرآن الکریم،تلاحظ بشکل أو بآخر فی شرائع الأنبیاء الآخرین (۱) .

۴-أهمیه الإحسان إلی الوالدین

إنّ ذکر مسأله الإحسان للوالدین-بعد مکافحه الشرک مباشره،و قبل ذکر تعالیم مهمّه مثل حرمه قتل النفس و الأمر بالعدل-یدلّ علی الأهمیه القصوی التی یحظی بها حق الوالدین فی التعالیم الإسلامیه.

و یتّضح هذا الأمر أکثر عند ما نری أن القرآن الکریم ذکر بدل تحریم أذی الوالدین الذی یلائم سیاق هذه الآیه فی استعراضها للمحرمات،مسأله الإحسان إلیهما،یعنی أنّه لیس إزعاج الوالدین و إیذاؤهما محرّما فقط،بل یجب الإحسان إلیهما.

و الأجمل من هذا کلّه أنّ کلمه«الإحسان»عدّیت بحرف«الباء»فقال:

وَ بِالْوٰالِدَیْنِ إِحْسٰاناً

و نحن نعلم أن الإحسان قد یعدّی بإلی و قد یعدّی بالباء، فإذا عدّ بإلی کان معناه:الإحسان إلی الآخر سواء کان بصوره مباشره،أو مع الواسطه.و لکنّه عند ما یعدّی بالباء یکون معناه:الإحسان بصوره مباشره و من دون واسطه.

و علی هذه الأساس فإنّ هذه الآیه تؤکّد أنّ موضوع الإحسان إلی الوالدین

۱- ۱) -راجع الآیه(۱۳)من سوره الشوری.

من الأهميه البالغه بحيث يجب على الإنسان أن يباشر الإحسان بنفسه إلى الوالدين (۱) .

۵-قتل الأولاد من الإملاق و الجوع

يستفاد من هـذه الآيـات أنّ العرب فى العهـد الجـاهلى لم يقتصـروا على قتـل البنـات و وأدهن بسـبب بعض العصبيـات الخـاطئه فحسب، بـل كـانوا يقتلون أولادهم الـذين كانوا يعـدّون ثروه كبرى فى المجتمع يومـذاك،و ذلك بسـبب الفقر و خشـيتهم من الفاقه،أيضا.و اللّه تعالى يلفت نظرهم إلى مائده النعم الإلهيّه الواسعه التى يستفيد منها حتى أضعف الموجودات،و نهاهم سبحانه عن ذلك.

و لكن هـذا العمـل الجـاهلى-و للأسف البـالغ-يتكّرر الآـن فى عصـرنا فى صوره أخرى،إذ نلاحـظ كيف يعمـد الناس إلى قتل الأطفال الأبرياء و هم أجنّه عن طريق«الكور تاج»و الإجهاض بحجه النقصان الاحتمالى فى المواد الغذائيه.

إنّ إسـقاط الجنين و إن كان يبرّر الآن بأدله و حجج أخرى أيضا،إلاّ أنّ مسأله الفقر و مسأله نقصان المواد الغذائيه،هى من أدلتها الأصليّه.

هـذه المسـأله و المسائل المشابهه الأخرى تشـير إلى أنّ العهـد الجاهلى يتكّرر فى شـكل آخر،و أنّ«جاهليه القرن العشـرين»أكثر وحشيه من جاهليه ما قبل الإسلام.

۶-ما هو المقصود من الفواحش؟

«الفواحش»جمع«فـاحشه»يعنى مـا عظم قبحه من الـذنوب.و على هـذا الأسـاس فـإنّ نقض العهـد،و التطفيف و الشـرك و ما شابه ذلك و إن كانت من الذنوب

ص :۵۱۲

۱- ۱) -تفسير المنار،ج ۸،ص ۱۸۵.

الکبار،إلّا أنّ ذکرها فی مقابل الفواحش إنّما هو لأجل التفاوت المفهومی بینها.

٧-لا تقربوا هذه الذّنوب

فی الآیات الحاضره ورد التعبیر بجمله لا تقربوا فی موضعین،و قد تکرر هذا الموضوع(و هذا النهی)فی القرآن لبعض الذنوب الأخر أیضا،و یبدو أنّ هذا التعبیر قد ورد فی مجال الذنوب المثیره کالزنا،و أموال الیتامی و ما شابهها،لهذا یحذّر الناس من الاقتراب إلیها لکی لا یقعوا تحت إثارتها.

٨-الذّنوب الظاهره و الباطنه

لا شک فی أنّ جمله مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ تشمل کل الذنوب القبیحه الظاهره،و الخفیه،و لکن

جاء فی بعض الأحادیث عن الإمام الباقر علیه السّلام «ما ظهر هو الزنا و ما بطن هو المخالّه» (أی اتخاذ الخلیلات و الصدیقات سرّا و خفیّه) و لکنّه واضح أنّ ذکر هذه الموارد إنّما هو بیان المصداق الواضح،لا أنّه یعنی انحصارها فیها.

٩-الوصایا العشر عند الیهود

نلاحظ فی التّوراه فی الفصل ٢٠-سفر الخروج أحکاما عشره تعرف عند الیهود بالوصایا،و هی تبدأ من الجمله الثانیه و تنتهی عند السابعه عشره من ذلک الفصل.

و لکن بالمقارنه بین الوصایا العشر،و بین ما جاء فی الآیات الحاضره یتضح أنّ فرقا واسعا و بونا شاسعا بین هذین البرنامجین،و علی أنّه لا یمکن الاطمئنان إلی أنّ التّوراه الحاضره لم تنحرف فی هذا المجال،کما تعرضت للتحریف فی الأقسام الأخری.و لکنّ ما هو مسلّم هو أنّ الوصایا العشر الموجوده فی التّوراه

ص :٥١٣

و إن كانت مشتمله على المسائل اللازمه،إلّا أنّها أقل مستوى بكثير-من حيث السعه و الأبعاد الأخلاقيه،و الاجتماعيه و العقيديه- من مفاد الآيات الحاضره.

۱۰-كيف غيّرت هذه الآيات وجه المدينه المنوره؟

لقد وردت فی بحار الأنوار،و كذا فی كتاب أعلام الورى قصّه جميله تحكى عن تأثير هذه الآيات البالغ فی نفوس المستمعين،و ها نحن ندرج هنا القصه المذكوره باختصار وفقا لما جاء فی بحار الأنوار بروايه على بن إبراهيم.

قدم أسعد بن زراره،و ذكوان بن عبد قيس مكّه فی موسم من مواسم العرب و هما من الخزرج،و كان بين الأوس و الخزرج حرب قد بقوا فيها دهرا طويلا، و كانوا لا يضعون السلاح لا بالليل و لا بالنهار،و كان آخر حرب بينهم يوم بعاث، و كانت الغلبه فيها للأوس على الخزرج،فخرج أسعد بن زراره و ذكوان إلى مكّه يسألون الحلف على الأوس و كان أسعد بن زراره صديقا لعتبه بن ربيعه فنزل عليه،و قصّ عليه ما جاء من أجله فقال عتبه بن ربيعه فی جواب أسعد:بعدت دارنا من داركم،و لنا شغل لا نتفرغ لشیء،قال أسعد:و ما شغلكم و أنتم فی حرمكم و أمنكم؟قال عتبه:خرج فينا رجل يدّعى أنّه رسول اللّه،سفّه أحلامنا، و سبّ آلهتنا،و أفسد شبابنا،و فرق جماعتنا.

فقال له أسعد:من هو منكم؟قال:ابن عبد اللّه بن عبد المطلب،من أوسطنا شرفا،و أعظمنا بيتا.

فلمّا سمع أسعد و ذكوان ذلك،أخذا يفكّران فيه،و وقع فی قلبهما ما كانا يسمعانه من اليهود،أنّ هذا أوان نبی يخرج بمكّه يكون مهاجره بالمدينه.

فقال أسعد:أين هو؟ قال عتبه:جالس فی الحجر(حجر إسماعيل) و أنّهم(أی المسلمون)لا يخرجون من شعبهم إلّا فی المواسم،فلا تسمع منه،و لا تكلّمه،فإنّه ساحر يسحرك بكلامه،و كان هذا فی وقت محاصره بنی هاشم فی الشعب.

فقال أسعد لعتبه:فكيف أصنع،و أنا محرم للعمره لا بدّ لى أن أطوف بالبيت؟ قال:ضع فى أذنيك القطن.

فدخل أسعد المسجد،و قد حشا أذنيه بالقطن فطاف بالبيت و رسول اللّه جالس فى الحجر مع قوم من بنى هاشم،فنظر إليه نظره فجازه.

فلمّا كان فى الشّوط الثّانى قال فى نفسه:ما أجد أجهل منّى.أ يكون مثل هذا الحديث بمكّه فلا أتعرّفه حتى أرجع إلى قومى فأخبرهم؟فأخذ القطن من أذنيه و رمى به،و

قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أنعم صباحا.فرفع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رأسه إليه، و قال:قد أبدلنا اللّه به ما هو أحسن من هذا،تحيه أهل الجنّه،السلام عليكم.

فقال له أسعد:إلى م تدعو يا محمّد؟ قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إلى شهاده أن لا إله إلاّ اللّه،و أنّى رسول اللّه،و أدعوكم إلى...

(ثمّ تلا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الآيات الثلاثه المبحوثه هنا و التى تتضمن التعاليم العشره).

فلمّا سمع أسعد هذا قال له:أشهد أن لا إله إلاّ اللّه،و أنّك رسول اللّه،يا رسول اللّه بأبى أنت و أمى أنا من أهل يثرب من الخزرج،و بيننا و بين إخوتنا من الأوس حبال مقطوعه، فإن وصلها اللّه بك،و لا أجد أعزّ منك،و معى رجل من قومى،فإن دخل فى هذا الأمر رجوت أن يتمّم اللّه لنا أمرنا فيك.

و اللّه يا رسول اللّه،لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك،و يبشروننا بمخرجك، و يخبروننا بصفتك،و أرجو أن تكون دارنا دار هجرتك عندنا فقد أعلمنا اليهود ذلك،فالحمد للّه الذى ساقنى إليك،و اللّه ما جئت إلاّ لنطلب الحلف على قومنا، و قد آتانا اللّه بأفضل ممّا أتيت له.

ثمّ أسلم رفيق أسعد-ذكوان-أيضا-ثمّ طلبا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبعث معهم رجلا يعلمهم القرآن،و يدعو الناس إلى أمره،و يطفئ الحروب،فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معهما إلى المدينه«مصعب بن عمير»و منذئذ أسست قواعد الإسلام فى المدينه و تغير وجه يثرب (1) .

1- 1) -بحار الأنوار،الطبعه الجديده،ج 19،ص 8 و 9 و 10.

الآیات [سوره الأنعام (۶): الآیات ۱۵۴ الی ۱۵۷]

اشاره

ثُمَّ آتَیْنا مُوسَی اَلْکِتابَ تَماماً عَلَی اَلَّذِی أَحْسَنَ وَ تَفْصِیلاً لِکُلِّ شَیْءٍ وَ هُدیً وَ رَحْمَهً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ یُؤْمِنُونَ (۱۵۴) وَ هذا کِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَکٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اِتَّقُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۵۵) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ اَلْکِتابُ عَلی طائِفَتَیْنِ مِنْ قَبْلِنا وَ إِنْ کُنّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِینَ (۱۵۶) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنّا أُنْزِلَ عَلَیْنَا اَلْکِتابُ لَکُنّا أَهْدی مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَکُمْ بَیِّنَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَذَّبَ بِآیاتِ اَللّهِ وَ صَدَفَ عَنْها سَنَجْزِی اَلَّذِینَ یَصْدِفُونَ عَنْ آیاتِنا سُوءَ اَلْعَذابِ بِما کانُوا یَصْدِفُونَ (۱۵۷)

التّفسیر

اشاره

رد حاسم علی المتحججین و المتعلّلین:

فی الآیات السابقه دار الحدیث عن عشره من أحکام الإسلام الأساسیه التی تشکّل-فی الحقیقه-أساسا و قاعده للکثیر من الأحکام الإسلامیه،

ص :۵۱۶

و يستفاد من قوله تعالى: أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ و نظائره،أنّ هذه الأحکام لم تکن مختصّه بدین معنین أو شریعه خاصّه،خاصّه و أنّها من الأصول و المبادئ التی یحکم بها العقل و یؤیّدها من دون تلکؤ أو تأخیر،و بهذا یکون مضمون الآیات السابقه هو بیان الأحکام التی لم تکن مختصّه بالإسلام،بل هی موجوده و مقرره فی جمیع الأدیان.

ثمّ قال عقیب ذلک فی هذه الآیات: ثُمَّ آتَیْنٰا مُوسَی الْکِتٰابَ تَمٰاماً عَلَی الَّذِی أَحْسَنَ فقد أتممنا نعمتنا علی المحسنین و الذین سلّموا لأمره و اتبعوه.

و ممّا قیل یتّضح معنی کلمه«ثمّ»تستعمل فی اللغه العربیه عاده فی«العطف مع التراخی»و یکون معنی الآیه هو:أنّنا آتینا هذه التعالیم و الوصایا العامّه للأنبیاء السابقین أوّلا،ثمّ آتینا موسی کتابا سماویا و بیّنا فیه هذه التعالیم و البرامج و غیرها من التعالیم و البرامج اللازمه.

و بهذا لا حاجه إلی ما ذهب إلیه بعض المفسّرین من التوجیهات المختلفه، و الضعیفه أحیانا فی هذا المجال.

کما تتّضح هذه النقطه أیضا،و هی أنّ عباره: اَلَّذِی أَحْسَنَ إشاره إلی جمیع المحسنین،و الذین یستجیبون للحق،و یقبلون بالأوامر الإلهیه.

وَ تَفْصِیلاً لِکُلِّ شَیْءٍ

فإن فیه کلّ شیء ممّا یحتاج إلیه المجتمع،و ممّا له أثر فی تکامل الإنسان وتر شیده.

وَ هُدیً وَ رَحْمَهً

أی أنّ فی هذا الکتاب الذی نزل علی موسی مضافا إلی ما سبق:هدی و رحمه.

إنّ جمیع هذه البرامج،ما هی إلاّ لکی یؤمنوا بیوم القیامه،و بلقاء اللّه،و لکی یطهّروا عن طریق الإیمان بالمعاد أفکارهم،و أقوالهم،و أعمالهم و یزکوها:

لَعَلَّهُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ یُؤْمِنُونَ

.

هذا،و یمکن أن یقال:إذا کانت شریعه موسی شریعه کامله(کما یستفاد من

كلمه«تماما»)فما الحاجه إلى شريعه عيسى،و إلى الشريعه الإسلاميه؟ و لكن يجب أن يعلم أنّ كلّ شريعه من الشرائع إنّما تكون شريعه جامعه و كامله بالنسبه لعصرها،و من المستحيل أن تنزل شريعه ناقصه من جانب اللّه تعالى.

بيد أنّ هذه الشريعه التى تكون كامله بالنسبه إلى عصر معيّن يمكن أن تكون ناقصه غير كامله بالنسبه إلى العصور اللاحقه،كما أنّ البرنامج الكامل الجامع المعدّ لمرحله الدراسه الابتدائيه،يكون برنامجا ناقصا بالنسبه إلى مرحله الدراسه المتوّسطه،و هذا هو السرّ فى إرسال الأنبياء المتعددين بالكتب السماويّه المختلفه المتنوعه حتى ينتهى الأمر إلى آخر الأنبياء و آخر التعاليم.

نعم إذ تهيّأ البشر لتلقّى التعاليم النهائيه،و صدرت إليهم تلك التعاليم و الأوامر،لم يبق حاجه-بعد ذلك-إلى دين جديد،و كان شأنهم حينئذ شأن المتخّرجين الذين يمكنهم بما عندهم من معلومات الحصول على نجاحات علميه عن طريق المطالعه و التأمل.

إن أتباع مثل هذه الشريعه،و مثل هذا الدين(النهائى)لن يحتاجوا إلى دين جديد،و إنّما يكتسبون طاقه حركتهم و تقدمهم من نفس ذلك الدين الإلهى.

كما أنّه يستفاد من هذه الآيه أيضا أنّ القضايا المرتبطه بالقيامه قد وردت فى التّوراه الأصليه بالقدر الكافى.و إذا لم نلاحظ اشاره إلى قضايا الحشر و المعاد فى التّوراه الفعليه و الكتب الحاضره المرتبطه بها إلاّ نادرا،فالظاهر أنّ ذلك بسبب تحريف اليهود و أصحاب الدنيا الذين كانوا يرغبون فى قلّه التحدّث فى القيامه و قلّه السماع عنها.

على أنّه قد وردت فى التّوراه الفعليه مع ذلك إشارات عابره و مختصره إلى مسأله القيامه،و لكنّها قليله إلى درجه دفع بالبعض إلى القول:إنّ اليهود لا يعتقدون بالمعاد و القيامه أساسا،و لكن هذا الكلام أشبه بالمبالغه من الواقع

و الحقيقه.

كما أنّه يجب أيضا أن نلفت نظر القارئ إلى أنّ المراد من إلقاء اللّه الذى ورد فى الآيات القرآنيه ليس هو اللقاء الحسى و الرؤيه البصريه،بل المراد هو نوع من الشهود الباطنى،و اللقاء الروحانى،الذى يتحقق فى يوم القيامه على أثر التكامل الإنسانى الحاصل للأشخاص،أو المقصود منه هو:مشاهده الثواب و العقاب فى العالم الآخر.

الآيه اللاحقه تشير إلى نزول القرآن و تعليماته القيمه،و بذلك أكملت البحث المطروح فى الآيه السابقه،يقول تعالى: وَ هٰذٰا كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ مُبٰارَكٌ فهذا الكتاب الذى أنزلناه كتاب عظيم الفائده،عظيم البركه،و هو المنبع لكلّ أنواع الخير و البركه.

و لمّا كان الأمر كذلك وجب اتباعه بصوره كامله،و وجب التزود بالتقوى، و التجنب عن مخالفته،لتشملكم رحمه اللّه و لطفه فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

و فى الآيه الثالثه أبطل سبحانه جميع المعاذير و التحججات و سدّ جميع طرق التملّص و الفرار فى وجه المشركين،فقال لهم أوّلا:لقد أنزلنا هذا الكتاب مع هذه المميزات لكى لا تقولوا:لقد نزلت الكتب السماويه على الطائفتين السابقتين(اليهود و النصارى) و كنّا عن دراستها غافلين،و ليس تمرّدنا على أوامر اللّه لكونها موجوده عند غيرنا من الأمم،و لم يبلغنا منها شيء: أَنْ تَقُولُوا إِنَّمٰا أُنْزِلَ الْكِتٰابُ عَلىٰ طٰائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنٰا،وَ إِنْ كُنّٰا عَنْ دِرٰاسَتِهِمْ لَغٰافِلِينَ (1) .

ثمّ إنّه سبحانه ينقل عنهم-فى الآيه اللاحقه-نفس ذلك التحجج و لكن بصوره أوسع،و مقرونا هذه المرّه بنوع أشدّ من الغرور و الصّلف و هو:أنّ القرآن الكريم لو لم ينزل عليهم لكان من الممكن أن يدّعوا أنّهم كانوا أكثر استعدادا من

1- 1) -«أن تقولوا»معناه«لئلاّ تقولوا»و نظير ذلك كثير فى لغه العرب.

أيه أمّه أخرى لقبول الأمر الإلهى: أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنّٰا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتٰابُ لَكُنّٰا أَهْدىٰ مِنْهُمْ .

و الآيه المتقدّمه كانت تعكس-فى الحقيقه-هذا التحجج و هو:أنّ عدم اهتدائنا إنّما هو بسبب غفلتنا و جهلنا بالكتب السماويه،و هذه الغفله و هذا الجهل ناشئ عن أنّ هذه الكتب نزلت على الآخرين،و لم تنزل علينا.

أمّا هذه الآيه فتعكس صفه الإحساس بالتفوق و الادّعاء الفارغ الذى كانوا يدّعونه عن تفوّق العنصر العربىّ على غيرهم.

و قد نقل نظير هذا المعنى فى سوره فاطر فى الآيه(۴۲)عن مقاله المشركين فى شكل مسأله قاطعه و ليس من باب القضيه الشرطيه و ذلک عند ما يقول:

وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً .

و على أيه حال فإنّ القرآن يقول فى معرض الرّد على هذه الادعاءات أن اللّه سبحانه سدّ عليكم كل سبل التملص و الفرار،و أبطل جميع الذرائع و المعاذير، لأنّ اللّه آتاكم كل الآيات،و أقام كل الحجج المقرونه بالهدايه الإلهيه و بالرحمه الربانيه لكم: فَقَدْ جٰاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ .

و الملفت للنظر أنّه استعمل لفظ«البينه»بدل الكتاب السماوى،و هو إشاره إلى أنّ هذا الكتاب السماوى واضح المعالم،بيّن الحقائق من جميع الجهات، و مقرون بالدلائل القاطعه،و البراهين الساطعه اللامعه.

و مع ذلک فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ صَدَفَ عَنْهٰا .

و«صدف»من«الصدف»و يعنى الإعراض الشديد-من دون تفكير-عن شىء،و هو إشاره إلى أنّهم لم يكونوا ليعرضوا عن آيات اللّه فحسب،بل كانوا يبتعدون عنها-أيضا-من دون أن يفكروا فيها أدنى تفكير.ربّما استعملت هذه اللفظه بمعنى آخر و هو منع الآخرين أيضا.

ص:۵۲۰

و فی خاتمه هـذه الآیه بیّن اللّه تعالی العقاب الألیم الـذی أعدّ لهؤلاء المخاصـمین المعاندین الذین یرفضون الحقائق و ینکرونها من دون أن یفکروا فیهـا و یـدرسوها و لو قلیلا،بل و لا یکتفون برفضـها إنما یعمـدون إلی صـدّ الآخرین عنها،و یحولون بینهم و بین سـماعها و استیعابهـا،بیّن کـلّ ذلـک فی قـوله المـوجز و البلیغ: سَنَجْزِی الَّذِینَ یَصْدِفُونَ عَنْ آیاتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما کانُوا یَصْدِفُونَ .

و«سوء العذاب»و إن کان بمعنی العذاب السـیء،و لکن حیث أن العذاب السیّء عقاب شدید و موجع للغایه فی حدّ نفسه،لذلک فسّره بعض المفسّرین بالعقاب الشدید.

ثمّ إنّ تکرار لفظه«یصـدفون»عنـد بیان جزاء الصادفین عن آیات اللّه لأجل توضـیح هذه الحقیقه،و هی أنّ جمیع البلایا و المحن التی تصیب هذا الفریق ناشئه من کونهم یعرضون عن الحقائق من دون أدنی تفکیر و دراسه،و لو أنّهم سمحوا لأنفسهم بالتفکیر و الدراسه-کباحث عن الحقیقه و شاک یطلب الیقین-لما أصیبوا بمثل هذه العواقب الألیمه و المصیر المؤلم.

ص :521

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۵۸]

اشاره

هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِیَهُمُ الْمَلائِکَهُ أَوْ یَأْتِیَ رَبُّکَ أَوْ یَأْتِیَ بَعْضُ آیاتِ رَبِّکَ یَوْمَ یَأْتِی بَعْضُ آیاتِ رَبِّکَ لا یَنْفَعُ نَفْساً إِیمانُها لَمْ تَکُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ کَسَبَتْ فِی إِیمانِها خَیْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنّا مُنْتَظِرُونَ (۱۵۸)

التّفسیر

اشاره

توقعات باطله و مطالیب مستحیله:

فی الآیات السابقه تبیّنت هذه الحقیقه و هی:أنّنا أتممنا الحجّه علی المشرکین،و آتیناهم الکتاب السماوی(أی القرآن)لهدایتهم جمیعا،لکی لا یبقی لدیهم أی عذر یبرّرون به مخالفتهم للرساله و معارضتهم للدعوه.

و هذه الآیه تقول:و لکن هؤلاء الأشخاص المخاصمین المعاندین بلغوا فی لجاجهم و عنادهم حدّا لا یؤثّر فیهم حتی هذا البرنامج الواضح البیّن،و کأنّهم یتوقعون و ینتظرون هلاکهم،أو ذهاب آخر فرصه،أو ینتظرون أمورا مستحیله.

فیقول أولا: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِیَهُمُ الْمَلائِکَهُ لتقبض أرواحهم.

أَوْ یَأْتِیَ رَبُّکَ

إلیهم فیرونه،حتی یؤمنوا به.

ص:۵۲۲

و يراد من هذا الكلام فى الحقيقه أنّهم ينتظرون أمورا مستحيله،لا أنّ مجىء اللّه سبحانه و تعالى أو رؤيته أمور ممكنه.

و هـذا النوع من البيان و الكلام أشـبه ما يكون بمن يقول لشـخص مجرم معانـد، بعد أن يريه ما لديه من وثائق كافيه دامغه و هو مع كـل هـذا ينكر جنـايته:إذا كنت لاـ تقبـل بكل هـذه الوثائق،فلعلك تنتظر أن يعود المقتول إلى الحياه،و يحضـر فى المحكمه ليشـهد عليـك بأنّـك الـذى قتلته؟ ثمّ يقول:أو أنّكم تنتظرون أن تتحقق بعض الآيـات الإلـهيه و العلامـات الخاصّه بيوم القيامه و نهـايه العـالم يوم تنسـدّ كـل أبواب التوبه: أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّکَ ؟ و على هـذا الأساس فإنّ عباره آيَاتِ رَبِّکَ و إن جاءت بصـوره كليّه و على نحو الإجمـال،و لكنّهـا يمكـن أن تكـون بقرينـه العبـارات اللاـحقه الـتى سيأتى تفسـيرها،بمعنى علامـات القيامه،مثل الزلازل المخيفه،و فقدان الشمس و القمر و الكواكب لأنوارها و أضوائها،و ما أشبه ذلك.

أو يكون المراد من ذلـك المطـاليب غير المعقوله التى يطلبونها من رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم،و من جملتها أنّهم لا يؤمنون به إلاّ أن تمطر عليهم السـماء حجاره،أو تمتلئ صحارى الحجاز القفراء اليابسه بالينابيع و النخيل!! ثمّ يضيف عقيب ذلك قائلاـ: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّکَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً فأبواب التوبه حينـذاك مغلقه فى وجوه الـذين لم يؤمنوا إلى تلـك السـاعه،لأـنّ التوبه ساعتئـذ تكون ذات صـبغه اضـطراريه إجبـاريه،و فاقـده لمعطيات الإيمان الاختيارى و قيمه التوبه النصوح.

هـذا،و يتضـح ممّا قيل أن عباره أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً تعنى أنّ الإيمان وحده لا ينفع فى ذلك اليوم،بل حتى أولئك الذين آمنوا من قبل،و لكنّهم لم

يعملوا عملا صالحا،لم ينفعهم فى ذلك اليوم أن يعملوا عملا صالحا،لأنّ أوضاعا كتلك تسلب من الإنسان القدره على ارتكاب الذنب،و تقوده نحو العمل الصالح بصوره جبريه لا مفرّ منها،فلا يكون لمثل هذا العمل أيه قيمه ذاتيه.

ثمّ إنّه فى المقطع الأخير من الآيه يوجه تهديدا شديدا إلى هؤلاء الأشخاص المعاندين،إذ يقول بنبره شديده: قُلِ انْتَظِرُوا إِنّا مُنْتَظِرُونَ .

لا فائده للإيمان بدون عمل:

إنّ من النقاط الهامّه التى نستفيدها من الآيه الحاضره هو أنّ الآيه تعتبر طريق النجاه منحصره فى الإيمان،ذلك الإيمان الذى يكتسب المرء فيه خيرا و يعمل فى ظلّه عملا صالحا.

و يمكن أن ينطرح هذا السؤال و هو:هل الإيمان وحده غير كاف و لو خلّى من جميع الأعمال الصالحه؟ و نجيب:صحيح أنّ المؤمن يمكن أن يزلّ أحيانا و يرتكب بعض الذنوب المعاصى ثمّ يندم على فعله و يعمد إلى إصلاح نفسه،و لكن من لم يعمل أىّ عمل صالح طوال حياته،و لم يستغل الفرص الكثيره و الكافيه لذلك،بل على العكس من ذلك صدر منه كل قبيح و وقعت منه كل معصيه،و اقترف كل إثم،فإنّه يبدو من المستبعد جدا أن يكون من أهل النجاه،و من الذين ينفعهم إيمانهم،لأنّه لا يمكن أن نصدّق بأنّ شخصا ينتمى إلى دين من الأديان،و لكنّه لا يعمل بأى شىء من تعاليم ذلك الدين و لا مرّه واحده فى حياته،بل كان يرتكب خلافها دائما،إذ أنّ حالته و موقفه هذا دليل قاطع و بيّن على عدم إيمانه،و عدم اعتقاده.

و على هذا الأساس يجب أن يقترن الإيمان و لو بالحدّ الأدنى من العمل الصالح،ليدلّ ذلك على وجود الإيمان.

الآیتان [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كٰانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمٰا أَمْرُهُمْ إِلَى اَللّٰهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ (۱۵۹) مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (۱۶۰)

التّفسير

اشاره

رفض المفرّقين للصّفوف و نفيهم:

تعقيبا على التعاليم و الأوامر العشر التى مرّت فى الآيات السابقه،و التى أمر فى آخرها بإتباع الصراط الإلهى المستقيم،و بمكافحه أى نوع من أنواع النفاق و التفرقه،جاءت هذه الآيه تتضمن تأكيدا على هذه الحقيقه،و تفسيرا و شرحا لها.

فيقول تعالى أوّلا: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كٰانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (۱) أى أنّ الذين اختلفوا فى الدين و تفرقوا فرقا و طوائف لا يمتون إليك

ص: ۵۲۵

۱- ۱) -«الشيع»من حيث اللغه تعنى الفرق و الطوائف المختلفه و أتباع الأشخاص المختلفين،و على هذا فإنّ مفرد كلمه يعنى من يتبع مدرسه أو شخصا معينا،هذا هو المعنى اللغوى لكلمه الشيعه.

بصله أبدا،كما لا يرتبطون بالدين أبدا،لأنّ دينك هو دين التوحيد،و دين الصراط المستقيم،و الصراط المستقيم ما هو إلاّ واحد لا أكثر.

ثمّ قال تعالى-مهدّدا موبّخا أولئك المفرّقين- إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ أى أنّ اللّه هو الذى سيؤاخذهم بأعمالهم و هو عليم بها،لا يغيب شيء منها.

بحثان

اشاره

و هاهنا نقطتان يجب الالتفات إليهما:

۱-من هم المقصودون فى الآيه؟

يعتقد جماعه من المفسّرين أنّ هذه الآيه نزلت فى اليهود و النصارى الذين اختلفوا و تفرّقوا إلى فرق و طوائف مذهبيه مختلفه،و تباغضوا و تشاحنوا و تنازعوا فيما بينهم.

و لكن يرى آخرون أنّ هذه الآيه إشاره إلى الذين يفرّقون صفوف هذه الأمّه (الإسلاميه)بدافع التعصب و حبّ الاستعلاء،و حب المنصب و الجاه.

و لكن محتوى هذه الآيه يمثل حكما عاما يشمل كل من يفرّق الصفوف، و كل من يبذر بذور النفاق و الاختلاف بين عباد اللّه بابتداع البدع،من دون فرق بين من كان يفعل هذا فى الأمم السابقه أو فى هذه الأمه.

و ما نلاحظه من الرّوايات المنقوله عن أهل البيت عليهم السّلام و هكذا روايات أهل السنّه التى تصرّح بأن هذه الآيه إشاره إلى مفرّقى الصفوف و أهل البدع فى هذه

(۱)

و لكن للفظه الشيعه معنى آخر فى الاصطلاح،فهو يطلق على من يتبع أمير المؤمنين عليا عليه السّلام و يشايعه،و لا يصح أن نخلط بين المعنيين اللغوى و الاصطلاحى.

الأمّه،فهو من باب بيان المصداق (۱) ،لأنّه لو لم يذكر هذا المصداق لظن البعض أنّ المقصود بالآيه هم الآخرون خاصّه،و أنّ الضمير عائد إلى غيرهم فيبرّءوا بذلك ساحتهم.

ففى روايه منقوله عن الإمام الباقر عليه السّلام فى ذيل هذه الآيه-على ما فى تفسير على بن إبراهيم-قال فى تفسيرها: «فارقوا أمير المؤمنين عليه السّلام و صاروا أحزابا» (۲) .

و هناك أحاديث أخر رويت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حول افتراق هذه الأمّه و تشتتها و تشرذمها إلى فرق ذكرها على سبيل التنبؤ،جميعها تؤيّد هذه الحقيقه أيضا.

۲-بشاعه التفرقه و زرع الاختلاف

هذه الآيه تكرّر مرّه أخرى-و بمزيد من التأكيد-هذه الحقيقه،و هى أنّ الإسلام دين الوحده و الاتحاد،و أنّه يرفض كل لون من ألوان التفرقه و إلقاء الاختلاف فى صفوف الأمه،و تقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إنّ عملك و برنامجك لا يشابه عمل المفرقين للصفوف،ناشرى الخلاف فيها مطلقا،و انهم بالتالى لا يمتون إليك و لا تمت إليهم بصله أبدا،و إنّ اللّه المنتقم الجبار سوف ينتقم منهم، و يريهم عاقبه أعمالهم الشريره.

إنّ التوحيد الحقيقى ليس واحدا من أصول الإسلام و قواعده فحسب،بل إنّ جميع أصول الإسلام و فروعه،و جميع برامجه المتنوعه،تدور حول محور التوحيد،و تنطلق منه و تنتهى إليه التوحيد روح ساريه فى كيان التعاليم الإسلاميه برمتها،و التوحيد هو الأساس الحضارى الذى تقوم عليه مبادئ الإسلام عامته.

و لكن هذا الدين الذى يتألف من أقصاه إلى أقصاه من عنصر الوحده

۱- ۱) -نور الثقلين،المجلد الاوّل،ص ۷۸۳.

۲- ۲) -نور الثقلين،المجلد الاوّل،ص ۷۸۳.

و الاتحاد قد وقع اليوم-مع شده الأسف-فريسه بأيدى مفرّقى الصفوف، و مثيرى الاختلاف بحيث فقد وجهه الحقيقى.

فبيّن يوم و آخر ينعق ناعق،و يثير نغمه جديده خبيثه،و يقوم معقّد أو معتوه أو غبىّ و يخالف حكما من أحكام الإسلام،و برنامجا من برامجه،فيلتف حوله فريق من الجهله و البسطاء،فيفرز تمزقا جديدا.

على أنّ للجهل الـذى يعانى منه فريق من العامّه دورا مؤثرا فى هـذه التفرقه و الاختلافات،لا يقل عن تأثير ذكاء الأعداء و فطنتهم و يقظتهم فى إذكاء التمزّق الداخلى.

فربّما طرح البعض أمورا أكل عليه الدهر و شرب،من جديد،و أحدثوا حولها ضجّه غبيّه ليشغلوا بها بال الناس،و لكن الإسلام-كما صرحت الآيه غريب عن أعمالهم،و أعمالهم غريبه عن الإسلام،و ستفشل فى المآل كل محاولات المفرقين للصفوف،تذهب أدراج الرياح،و لن يحصدوا منها سوى الخيبه و الخسران.

حملات كاتب«المنار»الظالمه على الشّيعه:

يعانى كاتب تفسير المنار من سوء ظن بالغ الشدّه بالنسبه إلى الشيعه، و بنفس القدر يعانى من الجهل بعقائد الشيعه و تاريخهم.

ففى ذيل هذه الآيه يعقد فصلا حول الشيعه تحت غطاء الدعوه إلى الاتحاد، و يصفهم بأنّهم يفرقون الصفوف و يخالفون الإسلام،و أنهم ممن يعملون ضدّ الإسلام و يقومون بنشاطات سياسيه تخريبيه تحت غطاء المذهب و العقيده الدّينيه،و كأنّ وجود كلمه«شيعا»فى الآيه الحاضره و التى ليس لها أى ارتباط بقضيه التشيع و الشيعه ذكّره بهذه الأمور التافهه،فاندفع يتّهم هذه الجماعه المؤمنه من دون تورّع.

إنّ كتاباته أفضل جواب على أقواله،و خير شاهد على عدم معرفته بعقائد الشيعه،و تأريخهم،و ذلك لأنّه:

۱-يربط بين الشّيعه و«عبد اللّه بن سبأ»اليهودى المشكوك فى أصل وجوده من وجهه نظر التّأريخ،و الذى ليس له-على فرض وجوده-أدنى دور فى تاريخ التشيع و الشيعه! بينما نجده من جانب آخر يربط بين الشيعه و«الباطنيه»بل حتى بين الشيعه و الفرقه البهائيه التى هى أعدى أعداء الشيعه.على حين تكشف أدنى معرفه بتاريخ الشيعه أنّ هذه الأحاديث و المزاعم ليست سوى مزاعم و أحاديث خياليه وهميه،بل محض افتراء و اتهام و اختلاق.

و الأعجب من كل ذلك هو أنّ هذا الكاتب يربط بين جماعه«الغلاه»(و هم الذين يرفعون عليا عليه السّلام إلى درجه الألوهيه غلوّا)و بين الشيعه فى حين أن الفقه الشيعى أفرز فصلا للغلاه تحت عنوان إحدى الفرق و الطوائف المقطوع بكفرها، و يتهم الشيعه بأنّهم يعبدون أهل البيت،و غير ذلك من النسب الباطله الرخيصه.

إن من المسلّم أن كاتب«المنار»لو لم يكن قد تأثر بالأحكام المتسرّعه و العصبيات العمياء و سمح لنفسه بأن يسمع عقائد الشيعه من أفواههم أنفسهم، و يأخذها منهم،و يستقرئها من كتبهم لا من كتب أعدائهم لعرف جيدا بأنّ ما نسبه إلى الشيعه ليس مجرّد افتراءات و أكاذيب،بل هو مهازل مضحكه.

و الأعجب من ذلك كلّه أنّه عزا نشأه التشيع إلى الإيرانيين،على أنّ التشيع كان فاشيا فى العراق و الحجاز و مصر قبل أن يتشيع الإيرانيون بقرون مديده، و الوثائق التّأريخيه شواهد حيّه على هذه الحقيقه.

۲-إنّ ذنب الشيعه هو أنّهم عملوا بما صدر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قطعا،و الذى ورد-كذلك-فى أوثق المصادر الستّه و هو

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّى تارك فيكم الثقلين

ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى» (۱) .

إنّ ذنب الشيعه هو أنّهم يعتبرون أهل البيت النبوى أدرى و أعرف من غيرهم بدين النّبى و رسالته،فجعلوهم الملجأ و المرجع فى المشاكل الدينيه،و أخذوا عنهم حقائق الإسلام.

أنّ ذنب الشيعه هو أنّهم فتحوا باب«الاجتهاد»أخذا بحكم المنطق و العقل، و القرآن و السنه و بذلك منحوا الفقه الإسلامى فاعليه متحركه،و لم يحصروه ب«أربعه أشخاص»و يجبروا الناس على إتباعهم.

أ ليست خطابات القرآن و السنه و موجّهه إلى عموم المؤمنين فى جميع الدهور و العصور؟ أم هل كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتّبعون فى فهم الكتاب و السنه أشخاصا معينين،فلما ذا نحصر الإسلام فى حصار قديم من الجمود باسم«المذاهب الأربعه»الحنفى،الحنبلى،المالكى،الشّافعى؟! إن ذنب الشيعه هو أنّهم يقولون:إنّ صحابه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مثل سائر المسلمين يجب أن يقيّموا بمقياس إيمانهم و فى ضوء أعمالهم،فمن وافق عمله الكتاب و السنه كان صالحا،و من خالف عمله الكتاب و السنه-سواء أ كان فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو جاء بعده-رفض و طرد،و لا تكفى مجرّد الصحبه ليتستر بها المجرمون و الجناه،فلا يجوز أن يقدّس و يحترم رجال كمعاويه الذى داس كل القيم و تجاهل جميع الضوابط الإسلاميه،و خرج على إمام زمانه الذى رضيت به الأمّه الإسلاميه،و على الأقل فى ذلك العصر(و نعنى عليا عليه السّلام)،و أراق تلك الدّماء الكثيره!...لا يجوز تقديس هذا الشخص و أمثاله لمجرّد صحبته لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لا بعض الصحابه المرتزقه ممن مالأه و سار فى ركابه.

۱- ۱) -راجع صحيح الترمذى مجلد ۳ الصفحه ۱۰۰،و سنن البيهقى المجلد الأوّل الصفحه ۱۳ و المجلد الثّانى الصفحه:۴۳۱، و كنز العمال المجلد الأوّل الصفحه ۱۵۴ و ۱۵۹،و الطبقات الكبرى لابن سعد المجلد الثانى،الصفحه ۲ و كتبا أخرى.

نعم هـذه هی ذنوب الشیعه و هم یعترفون بهـا،و لکن هـل وجـدتم فی عالمنا هـذا من هو أشـدّ مظلومیّه من الشیعه،بحیث تعتبر أفضـل نقـاط القوّه فی تاریخها و عقائـدها نقاط ضـعف،و یکیلون لها سـیلا من الاتهامات و الأکاذیب،بل و لا یسـمحون لها بأن تنشر معتقداتها فی أوساط المسلمین و تعرضها علیهم بحریه، کما یفعل غیرها من الطوائف،بل یأخذون عقائدها من غیرها.

تری إذا عملت جماعه بـأمر نبیّهم فی حین لاـ یعمـل الآـخرون به،فهل یعتبر عمل تلکم الجماعه تفریقا للصـفوف،و شـقا لعصـی الأمّه؟و هل یجب صـرف هذه الجماعه عن مسارها لیتحقق الاتحاد،أو تقویم من یسـلک غیر سبیل المؤمنین؟ ٣-إنّ تاریخ العلوم الإسـلامیّه یشـهد أنّ الشـیعه کـانوا السـبّاقین فی أکثر هـذه العلوم و المعـارف إلی درجه أنه اعتبر الشـیعه،البنـاه المؤسسـین لعلوم الإسلام. (١)

إنّ الکتب التی ألّفها علماء الشـیعه فی مجال التّفسـیر و التّأریخ،و الحدیث و الفقه،و الأصول،و الرجال و الفلسفه الإسلامیه،لیست أمـورا یمکن تجاهلهـا و إنکارهـا أو إخفاؤهـا،فهی موجـوده فی جمیع المکتبـات(اللّهم إلاّـ اکـثر مکتبـات أهـل السـنه الـذین لا یسـمحون عـاده بـدخول هـذه المؤلّفـات و الکتب إلی مکتبـاتهم، فی حین أننـا نسـمح بـدخول مؤلفاتهم فی مکتباتنا منـذ قرون مدیده)و هذه الکتب شواهد حیّه علی ما ذکرناه.

فهل هؤلاء الذین صنّفوا و ألّفوا کل هذه الکتب حول الإسلام و تعالیمه،فی سبیل نشرها و بثّها و تعمیقها،کانوا أعداء للإسلام؟ و هل عرفتم عدوّا یحبّ الإسـلام بهذه الدرجه؟! أم هل یسـتطیع أحد أن یخدم الإسـلام الحنیف بمثل هذه الخدمه الکبیره،إذا کان محبّا مخلصا،و عاشقا متیّما؟! هذا و نقول فی ختام حدیثنا:إذا أردتم أن نزیل کل هذا الاختلاف و الفرقه

١- ١) -للوقوف علی أدله هذا الموضوع راجع کتاب«تأسیس الشیعه لعلوم الإسلام»،و کتاب«أصل الشیعه و أصولها».

تعالوا نعمل شيئا آخر بدل التراشق بالاتهامات،و ذلک أن يتعرف بعضنا على بعض و يفهم بعضنا بعضا،لأنّ مثل هذه النسب و الافتراءات الباطله ليس من شأنها أن تحقق الوحده الإسلاميه،بل توجه ضربه قاضيه إلى أسس الوحده الإسلاميه.

ثواب أكثر،عقاب أقلّ:

فى الآيه اللاحقه إشاره إلى الرحمه الإلهيه الواسعه،و إلى الثواب الإلهى الواسع الّذى ينتظر الأفراد الصالحين المحسنين،و قد كمّلت التهديدات المذكوره فى الآيه بهذه التشجيعات و يقول: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا .

ثمّ قال: وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَلاٰ يُجْزىٰ إِلاّٰ مِثْلَهٰا .

و للتأكيد يضيف هذه الجمله أيضا فيقول: وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ و إنما يعاقبون بمقدار أعمالهم.

و أمّا ما هو المراد من«الحسنه»و«السّيئه»فى الآيه الحاضره و هل هما خصوص«التوحيد»و«الشرک»أو معنى أوسع؟فبين المفسّرين خلاف مذكور فى محلّه،و لكن ظاهر الآيه يشمل كل عمل صالح و فكر صالح و عقيده صالحه أو سيئه،إذ لا دليل على تحديد أو حصر الحسنه و السيئه.

بحوث

اشاره

و هاهنا نكات يجب التوجّه إليها و التوقف عندها:

-١

إنّ المقصود من قوله:«جاء به»

كما يستفاد من مفهوم الجمله هو أن يجىء بالعمل الصالح أو السىء معه،يعنى إذا مثل الإنسان أمام المحكمه الإلهيه العادله يوم القيامه فإنّه لا يحضر بيد فارغه خاليه من العقيده و العمل الصالحين، أو عقيده أو أعمال طالحه،بل هى معه دائما،و لا تنفصل عنه أبدا،فهى قرينته فى

الحیاه الأبدیّه و تحشر معه.

لقد استعمل مثل هذا التعبیر فی الآیات القرآنیه الأخری بهذا المعنی أیضا..

ففی الآیه (۳۳)من سوره(ق)نقرأ قوله تعالی: مَنْ خَشِیَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَیْبِ وَ جٰاءَ بِقَلْبٍ مُنِیبٍ إنّ الجنّه لمن آمن باللّٰه عن طریق الإیمان بالغیب،و خافه و أتی إلی ساحه القیامه بقلب تائب مملوء بالإحساس بالمسؤولیه.

۲-أجر الحسنه،عشره أضعاف

نقرأ فی الآیه الحاضره أن الحسنه یثاب علیها بعشره أضعافها،بینما یستفاد من بعض الآیات القرآنیه أنه اقتصر علی عباره أَضْعٰافاً کَثِیرَهً من دون ذکر عدد الأضعاف(کما فی الآیه ۲۴۵ من سوره البقره)و فی بعض الآیات بلغ ثواب بعض الأعمال مثل الإنفاق إلی سبعمائه ضعف(کما فی الآیه ۲۶۱ من سوره البقره)بل ربّما إلی أکثر من ذلک مثل قوله: إِنَّمٰا یُوَفَّی الصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسٰابٍ (۱) .

إنّ من الواضح أنه لا تناقض بین هذه الآیات أبدا،إذ إنّ أقل ما یعطی للمحسنین هو عشره أضعاف الحسنه،و هکذا یتصاعد حجم الثواب مع تعاظم أهمیه العمل و الحسنه،و مع تعاظم درجه الإخلاص،و مع ازدیاد مقدار السعی و الجهد و المبذول فی سبیل العمل الصالح،حتی یصل الأمر إلی أن تتحطم الحدود و المقادیر،و لا یعلم حدّ الثواب و مقداره إلاّ اللّه تعالی.

فمثلا الإنفاق الذی یحظی بأهمیه بالغه فی الإسلام یتجاوز مقدار ثوابه الحدّ المتعارف للعمل الصالح الذی هو عشره أضعاف الحسنه،و یصل إلی«الأضعاف الکثیره»أو«سبعمائه ضعف»و ربّما أکثر من ذلک.

و الاستقامه التی هی أساس جمیع النجاحات و السعادات،و لا تبقی عقیده

۱- ۱) -الزمر،۱۰.

أو عمل صالح و لا يستمر بدونها قد ذكر القرآن لها ثوابا خارجا عن حدّ الإحصاء و الحساب.

و من هنا أيضا يتضح عدم المنافاه بين هذه الآيه و بين الرّوايات التى تذكر لبعض الأعمال الحسنه مثوبه أكثر من عشره أضعاف.

كما أنّ ما نقرؤه فى الآيه(۸۴)من سوره القصص فى قوله تعالى: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا لا ينافى الآيه الحاضره حتى نحتاج إلى القول بنسخ الآيه،لأنّ للخير معنى واسعا يتلاءم مع عشره أضعاف أيضا.

۳-لماذا كفاره يوم واحد ستين يوما؟

ربّما يتصور البعض:أنّ وجوب صوم«ستين يوما»من باب الكفاره فى مقابل إفطار يوم من شهر رمضان،و العقوبات الأخرى فى الدنيا و الآخره من هذا القبيل،لا تتلاءم مع الآيه الحاضره التى تقول:السيئه تجازى بمثلها فقط.

و لكن مع الالتفات إلى نقطه واحده يتضح جواب هذا الاعتراض أيضا و هى أنّ المراد من المساواه بين«المعصيه و العقوبه»ليس هو المساواه العدديه،بل لا بدّ من أخذ كيفيه العمل أيضا بنظر الاعتبار.

إنّ إفطار يوم واحد من أيّام شهر رمضان المبارك مع ماله من الأهميه،ليست عقوبته صوم يوم واحد بدله من باب الكفاره،بل عليه أن يصوم أيّاما عديده حتى تساوى مبلغ احترام ذلك اليوم من شهر رمضان المبارك،و لهذا نقرأ فى بعض الرّوايات أنّ عقوبه الذنوب فى شهر رمضان أشد و أكبر من عقوبه الذنوب فى الأيّام و الأشهر الأخرى.كما أنّ ثواب الأعمال الصالحه فى تلك الأيام أكثر و أزيد،إلى درجه أنّ ثواب ختمه واحده للقرآن فى هذا الشهر يعادل ثواب سبعين ختمه للقرآن فى الأشهر الأخرى.

۴-منتهى اللّطف الرّبانى

إنّ النقطه الأجمل فى المقام هى أنّ الآيه الحاضره جسّدت منتهى اللطف و الرحمه الإلهيه فى حق الإنسان.

فهل عرفت أحدا بيده كل أزمه الإنسان و شؤونه،كما أنّه محيط بجميع أعماله و شؤونه،يبعث قاده و مرشدين معصومين لهدايته و إرشاده،ليوفق إلى الإتيان بالعمل الصالح فى هدى رسله،مستفيدا من الطاقه الإلهيه الممنوحه له، مع ذلك يثيبه على حسناته بعشر أمثالها،و لكنّه لا يجازيه على السيئه إلاّ بمثلها، ثمّ يجعل باب التوبه و نيل العفو مفتوحا فى وجهه؟!

يقول أبو ذر:قال الصادق المصدّق[أى رسول اللّه]

: «إنّ اللّه قال الحسنه عشر أو أزيد،و السيئه واحده أو أغفر،فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره» (۱) .

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد الرابع،ص ۳۹۰.

الآيات [سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۶۱ الی ۱۶۳]

اشاره

قُلْ إِنَّنِی هَدٰانِی رَبِّی إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ دِیناً قِیَماً مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً وَ مٰا کٰانَ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۱۶۱) قُلْ إِنَّ صَلاٰتِی وَ نُسُکِی وَ مَحْیٰایَ وَ مَمٰاتِی لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۱۶۲) لاٰ شَرِیکَ لَهُ وَ بِذٰلِکَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ اَلْمُسْلِمِینَ (۱۶۳)

التّفسیر

اشاره

هذا هو طریقی المستقیم

هذه الآیه و الآیات الأخر التی سنقرؤها فیما بعد و التی ختمت بها سوره الأنعام، تعتبر خلاصه الأبحاث المطروحه فی هذه السوره التی بـدأت و انتهت بمکافحه الشـرک و الوثنیه،و ترکزت أحادیثها علی توضـیح هـذا الأمر.فقـد بدأت هذه السوره بالدعوه إلی التوحید و مکافحه الشرک،و ختمت بنفس ذلک البحث أیضا.

ففی البدایه أمرت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأن یقول فی مواجهه معتقدات المشرکین و الوثنیین و مزاعمهم الجوفاء و العاریه عن المنطق السلیم: قُلْ إِنَّنِی هَدٰانِی رَبِّی إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ أی طریق التوحید،و رفض کل أشکال الشرک و الوثنیه.

و الجدير بالذكر أنّ هذه الآيه و طائفه كبيره من الآيات السابقه و اللاحقه لها تبدأ بجمله:«قل»و لعلّه لا توجد فى القرآن الكريم سوره كررت فيها هذه الجمله بهذا القدر مثل هذه السوره،و هذا يعكس فى الواقع مدى شدّه المواجهه بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين منطق المشركين.

كما أنّه يسدّ كل أبواب العذر فى وجوههم،لأنّ تكرار كلمه«قل»علامه على أنّ كل ما يقوله لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما هو بأمر اللّه،بل هو عين كلام اللّه،لا أنّها آراء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أفكاره و قناعاته الشخصيه.

و من الواضح أن ذكر كلمه«قل»فى هذه الآيات و أمثالها فى نص القرآن، إنّما هو لحفظ أصاله القرآن،و للدلاله على أن ما يأتى بعدها هو عين الكلمات التى أوحيت إلى رسول اللّه.

و بعباره أخرى:الهدف منها هو الدلاله على أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يحدث فيها أىّ تغيير فى الألفاظ التى أوحيت إليه،و حتى كلمه«قل»التى هى خطاب إليه قد ذكرها عينا.

ثمّ إنّه تعالى يوضح«الصراط المستقيم»فى هذه الآيه و الآيتين اللاحقتين.

فهو يقول أوّلا:إنّه الدين المستقيم الذى هو فى نهايه الصحه و الاستقامه، و هو الأبدى الخالد القائم المتكفل لأمور الدين و الدنيا و الجسد و الروح: دِيناً قِيَماً (1) .

و حيث أنّ العرب كانوا يكنّون لإبراهيم عليه السّلام محبّه خاصّه،بل كانوا يصفون عقيدتهم و دينهم بأنّه دين إبراهيم هو هذا الذى أدعو أنا إليه لا ما تزعمونه: مِلَّةَ إِبْراهِيمَ .

إبراهيم عليه السّلام الذى أعرض عن العقائد الخرافيه التى كانت سائده فى عصره و بيئته،و أقبل على التوحيد حَنِيفاً .

۱- ۱) -«قيما»قد تأتى أيضا بمعنى الاستقامه،و قد تأتى بمعنى الثبات و الدوام و كذلك تأتى بمعنى القائم بأمور الدين و الدنيا.

و«الحنيف»يعنى الشخص أو الشىء الذى يميل إلى جهه ما،و أمّا فى المصطلح القرآنى فيطلق هذا الوصف على من يعرض عن عقيده عصره الباطله و يولى وجهه نحو الدين الحق و العقيده الحقّه.

و كأنّ هذا التعبير جواب و ردّ على مقاله المشركين الذين كانوا يعيبون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مخالفته للعقيده الوثنيه التى كانت دين أسلافهم من العرب،فقال النّبى فى معرض الردّ على مقالتهم هذه،بأنّ نقض السنن الجاهليه و الإعراض عن العقائد الخرافيه السائده فى البيئه ليس هو من فعلى فقط،بل كان إبراهيم- الذى نحترمه جميعا-كذلك أيضا.

ثمّ يضيف للتأكيد قائلا: وَ مٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ،بل هو بطل الكفاح ضد الوثنيه،و حامل الحرب ضد الشرك،الذى لم يفتأ لحظه واحده عن محاربته و كفاحه.

إنّ تكرار جمله حَنِيفاً وَ مٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فى عدّه موارد من آيات القرآن الكريم مع قوله:«مسلما»أو بدونها،إنّما هو للتأكيد على هذه المسأله و هى أنّ إبراهيم الذى يفتخر به العرب الجاهليون مبرّأ و منزه عن كل هذه العقائد و الأعمال الخاطئه (۱) .

الآيه اللاحقه تشير إلى أنّه على النّبى أن يقول:إنّى لست موحدا من حيث العقيده فحسب،بل إنى أعمل كل عمل صالح: قُلْ إِنَّ صَلاٰتِى وَ نُسُكِى وَ مَحْيٰاىَ وَ مَمٰاتِى لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ ،فأنا أحيى للّه،و له أموت،و أفدى بكل شىء لأجله،و كل هدفى و كل حبّى بل كل وجودى له.

و«النسك»يعنى فى الأصل العباده،و لذا يقال:للعابد:ناسك،و لكن هذه الكلمه تطلق فى الأغلب على أعمال الحج فيقال:مناسك الحج.

و قد احتمل البعض أن يكون الموارد من«النسك»هنا هو«الأضحيّه».

ص :۵۳۸

۱- ۱) -البقره،۱۳۵،آل عمران،۴۷ و ۹۵.

و لکن الظاهر أنّه یشمل کل عباده،و هو إشاره أوّلا إلی الصّلاه کأهم عباده،ثمّ إلی سائر العبادات بشکل کلّی،یعنی صلاتی و کل عباداتی،بل و حتی موتی و حیاتی کلها له تعالی.

ثمّ فی الآیه الثالثه یضیف للتأکید،و إبطالا لأی نوع من أنواع الشرک و الوثنیه قائلا: لاٰ شَرِیکَ لَهُ .

ثمّ یقول فی ختام الآیه: وَ بِذٰلِکَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِینَ .

کیف کان النّبیّ أوّل مسلم؟

فی الآیه الحاضره وصف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنه أوّل المسلمین.

و قد وقع بین المفسّرین کلام حول هذه المسأله،لأنّنا نعلم أنّه إذا کان المقصود من«الإسلام»هو المعنی الواسع لهذه الکلمه فإنه یشمل جمیع الأدیان السماویّه،و لهذا یطلق وصف المسلم علی الأنبیاء الآخرین أیضا،فاننا نقرأ حول نوح علیه السّلام: وَ أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ مِنَ الْمُسْلِمِینَ (۱) .

و نقرأ حول إبراهیم الخلیل علیه السّلام و ابنه إسماعیل أیضا: رَبَّنٰا وَ اجْعَلْنٰا مُسْلِمَیْنِ لَکَ (۲) .

و جاء فی شأن یوسف علیه السّلام: تَوَفَّنِی مُسْلِماً (۳) .

علی أن«المسلم»یعنی الذی یسلّم و یخضع أمام أمر اللّه،و هذا المعنی یصدق علی جمیع الأنبیاء الإلهیین و أممهم المؤمنه،و مع ذلک فإن کون رسول الإسلام أوّل المسلمین،إمّا من جهه کیفیه إسلامه و أهمیته،لأنّ درجه إسلامه و تسلیمه أعلی و أفضل من الجمیع،و إمّا لأنّه کان أوّل فرد من هذه الأمّه التی

۱- ۱) -یونس،۷۲.

۲- ۲) -البقره،۱۲۸.

۳- ۳) -یوسف،۱۰۱.

قبلت بالإسلام و القرآن.

و قد ورد فی بعض الرّوایات-أیضا-أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أوّل من أجاب فی المیثاق فی عالم الذّر،فإسلامه متقدم علی إسلام الخلائق أجمعین (۱) .

و علی أی حال فإنّ الآیات الحاضره توضح روح الإسلام،و تعکس حقیقه التعالیم القرآنیه و هی:الدعوه إلی الصراط المستقیم،و الدعوه إلی دین محطم الأصنام إبراهیم الخالص،و الدعوه إلی رفض أی نوع من أنواع الشّرک و الثنویه...

هذا من جهه العقیده و الإیمان.

و أمّا من جهه العمل:الدّعوه إلی الإخلاص،و إلی تصفیه النّیه،و الإتیان بکل شیء للّه تعالی،الحیاه لأجله،و الموت فی سبیله،و طلب کل شیء منه،و محبّته، و الانقطاع إلیه،و عن غیره،و التولی له،و التبرؤ من غیره.

فما أکبر الفرق بین ما جاء فی الدعوه الإسلامیه الواضحه،و بین أعمال بعض المتظاهرین بالإسلام الذین لا یفهمون من الإسلام سوی التظاهر بالدین، و لا یفکرون فی جمیع الموارد إلاّ فی الظاهر،و لا یعتنون بالباطن و الحقیقه،و لهذا فلیس حیاتهم و مماتهم و اجتماعهم و مفاخرهم و حریتهم سوی قشور خاویه لا غیر.

۱- ۱) -تفسیر الصافی،ذیل هذه الآیه.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۶۴]

اشاره

قُلْ أَ غَيْرَ اَللّٰهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لاٰ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاّٰ عَلَيْهٰا وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۱۶۴)

التّفسیر

إنّ التأكيدات المتتابعه المتواليه و الاستدلال المتنوع فى هذه السوره فى صعيد التوحيد و مكافحه الشرك تنبئ عن أهميه كبرى للموضوع.

و هذه الآيه شجبت منطق المشركين من طريق آخر،حيث قال سبحانه لنبيّه:

قل لهم و اسألهم:هل من الصحيح أن أطلب ربّا غير اللّه الواحد فى حين أنّه هو المالك و المربّى،و هو رب كل شىء و بيده أزمه جميع الكائنات،و حكمه جار فى جميع ذرّات الوجود بلا استثناء: قُلْ أَ غَيْرَ اللّٰهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ .

ثمّ إنّه يردّ على جماعه من المشركين المتحجرين ممن قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:اتّبعنا و علينا وزرك إن كان خطأ،قائلا: وَ لاٰ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاّٰ عَلَيْهٰا، وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ فلا يعمل أحد إلاّ لنفسه،و لا يحمل أحد وزر أحد.

ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

فمآلكم إليه و هو يخبركم عن جميع ما اختلفتم فيه.

بحثان

إنّ هاهنا نقطتين يجب أن نقف عندهما و نلتفت إليهما:

۱-ربّما حملنا وزر غيرنا

قد يتوهمّ أنّ الآيه الحاضره التی تبيّن أصلين من الأصول المنطقيه المسلّمه لدى جميع الأديان و الشرائع(أی مبدأ:لا يعمل أحد إلاّ لنفسه،و لا يعاقب أحد بذنب غيره)تتنافى مع الآيات القرآنيه الأخرى،كما لا توافق جمله من الرّوايات فی هذه المجال،لأنّ اللّه تعالى يقول فی سوره النحل الآيه ۲۵: لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ كٰامِلَةً يَوْمَ الْقِيٰامَةِ،وَ مِنْ أَوْزٰارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

فإذا لم يحمل أحد وزر أحد فكيف يحمل هؤلاء المضلّون وزر الضالّين أيضا.

كما أنّ الأحاديث المرتبطه ب«السنّه الحسنه»و«السنّه السيئه»المرويه بطرق الشيعه و السنّه.تتنافى مع مفهوم الآيه الحاضره

كقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من سنّ سنّه حسنه كان له أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شیء،و من سنّ سنّه سيئه كان عليه وزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شیء».

و لكن الإجابه على هذا السؤال واضحه،فإنّ الآيه المبحوثه هنا تقول:إنّه لا يحمل أحد وزر أحد من دون سبب،و لكنّ الآيات و الرّوايات المشار إليها سلفا تقول:إذا كان الإنسان مؤسّسا لعمل صالح أو سیءّ يعمل وفقه الآخرون،أی كان له«التسبيب»و الدلاله فی قيام الآخرين بعمل معيّن،و كانت له بالتالی دخاله فی وقوعه،فإنّه-و لا شك-يشترك معهم فی نتائجه و عواقبه،لأنّه يعتبر-فی الحقيقه عمله و فعله،فلا مناص من أن يتحمل تبعاته إنّ خيرا فخير،و إن شرا فشرّ،لأنّه هو الذی وضع بيده أساسه الذی قام عليه صرح العمل،و ارتفع بنيانه.

۲-هل أن أعمال الآخرين الصالحه تنفعنا؟

إنّ التوّهم الآخر الذى يمكن أن يخالج الأذهان حول هذه الآيه هو:أنّ الآيه تقول:إن عمل كل إنسان لا ينفع إلاّ نفسه،و على هذا فإن الأعمال الصالحه التى تهدى إلى الأموات،بل و حتى الأحياء أحيانا،لا يمكن أن تنفعهم،فى حين نقرأ فى روايات كثيره مرويه عن طريق الشيعه و السنه عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّه من أهل البيت عليهم السّلام أن مثل هذه الأعمال قد تنفع الآخرين،و إن هذا ينطبق على الجميع،فلا ينحصر بعمل الولد لوالديه،بل يشمل كل من يعمل عملا و يهدى ثوابه للآخرين.

هنا مضافا إلى أنّنا نعلم أن الثواب يرتبط بتأثير العمل الصالح المأتى به على روح الإنسان و دوره فى تكامل الإنسان و رقيّه،و لكنّ الذى لم يعمل عملا صالحا قط،بل و لم يكن له أيه دخاله فى مقدماته كذلك،فكيف يمكن أن ينشأ منه أثر روحى و معنوى؟؟ و لقد واصل البعض طرح هذا الإشكال بصوره مسهبه،و لم يكن الأفراد العاديون وحدهم هم الذين طرحوه،بل تأثر به بعض المفسّرين و الكتاب،مثل كاتب«المنار»إلى درجه أنّهم تناسوا كثيرا من الأحاديث و الرّوايات المسلّمه، و لكن مع الالتفات إلى نقطتين يتضح الجواب على هذا الإشكال.

۱-صحيح أن عمل كل إنسان سبب لتكامله بالخصوص،و أنّ نتائج الأعمال الصالحه و آثارها الواقعيه عائده إلى القائم بالعمل الصالح،تماما كما تكون«الرّياضه»،و«التّعليم و التّربيه»من كل أحد سببا لتقويه جسم فاعلها و روحه و نفسه،و تكاملهما.

و لكن عند ما يعمل أحد عملا صالحا لشخص آخر،فإنّه إنّما يفعله حتما لأجل أن ذلك الشخص يمتلك امتيازا على غيره و صفه حسنه،أو لأنّه كان مربيّا صالحا،أو تلميذا صالحا،أو صديقا طيبا أو جارا وفيا له،أو كان عالما خدوما

للمجتمع،أو مؤمنا مخلصا،أو يمتلك أدنى حد من الصلاح فى حياته،يوجب جلب أنظار الآخرين،و يسبب فى أن يعملوا أعمالا صالحه و يهدونها إليه.

و على هذا فذلك العمل-فى الحقيقه-إنّما يكون نتيجه لذلك الامتياز، و نتيجه للصفه الحسنه المذكوره،و للنقطه المضيئه فى شخصيته و حياته،و لهذا يكون قيام الآخرين بالأعمال الصالحه له إنما هو أشعه من ضوء علمه الطيب أو نيّته الصالحه،و نتيجه لتلك الخصله الحسنه التى يتّصف بها.

۲-المثوبات التى يعطيها اللّه تعالى للأشخاص على نوعين:مثوبات تتناسب مع وضع تكاملهم الروحى و صلاحيتهم،يعنى أن أرواحهم و نفوسهم قد تسمو بسبب قيامهم بالأعمال الصالحه سموا كبيرا،و ترتقى فى سلّم الكمال رقيا عظيما إلى درجه يصلحون للعيش فى عوالم أعلى و أفضل،و يرتفعون بما صنعوه على أجنحه العقيده و العمل الصالح.

و لكن حيث أنّ أىّ عمل صالح هو إطاعه لأمر اللّه سبحانه،و يستحق المطيع لإطاعته أجرا و مثوبه،فإنّه يمكنه أن يهدى ذلك الثواب و الأجر إلى غيره بإرادته و رغبته،تماما،مثل أستاذ متخصّص فى شعبه مهمّه من العلوم يدرّس فى جامعه من الجامعات،فإنّه لا ريب فى أنّه يصل بتدريسه إلى نتيجتين:

فهو من جهه يصل-فى ضوء تدريسه-إلى درجات علميه أكمل و أقوى، و هو فى نفس الوقت يحصل على أموال لقاء خدمته،و لا ريب فى أنّه لا يستطيع أن يهدى النتيجه الأولى لأحد لأنّها خاصّه به،و لكنّه يمكنه أن يقدم(أو يهدى) النتيجه الثانيه إلى من يرغب و يحب.

إنّ إهداء(ثواب)الأعمال الصالحه من جانب العاملين بها إلى الأموات،بل و إلى الأحياء أحيانا،إنّما هو من هذا النمط و من هذا القبيل.

و بهذا يرتفع و ينتفى أى إبهام يحوم حول هذه الأحاديث.

و لكن يجب أن نعلم بأنّ المثوبات التى تصل إلى الآخرين عن هذا الطريق لا

یمکن أن تضمن سعادتهم،بل تصیبهم منها آثار قلیله و الأصل و الأساس فی نجاتهم إنّما هو إیمانهم و عملهم أنفسهم.

الآیه [سوره الأنعام (۶): آیه ۱۶۵]

اشاره

وَ هُوَ اَلَّذِی جَعَلَکُمْ خَلاٰئِفَ اَلْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَکُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِیَبْلُوَکُمْ فِی مٰا آتٰاکُمْ إِنَّ رَبَّکَ سَرِیعُ اَلْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۶۵)

التّفسیر

اشاره

فی هذه الآیه التی هی آخر الآیات من سوره الأنعام إشاره إلی أهمیه مقام الإنسان و مکانته فی عالم الوجود لتکمیل الأبحاث الماضیه فی مجال تقویه دعائم التوحید،و مکافحه الشرک،یعنی أن یعرف الإنسان قیمه نفسه،کأرقی و أفضل کائن فی عالم الخلق،و لا یسجد للخشب و الحجر،و لا یرکع أمام الأصنام المختلفه الأخری،و لا یقع فی أسرها،بل یکون أمیرا و حاکما علیها بدل أن یکون أسیرا و محکوما لها.

لهذا قال تعالی فی مطلع کلامه: هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلاٰئِفَ الْأَرْضِ (۱) .

إن الإنسان الذی هو خلیفه اللّه فی أرضه،و الذی سخرت له کل منابع هذا

۱- ۱) -«الخلائف»کما فی المفردات للراغب-جمع خلیفه«و خلفاء»جمع«خلیف»و هما بمعنی من یقوم مقام أحد بعده،و التاء المضافه إلی الکلمه تفید المبالغه،و قال جمع آخر من أهل اللغه:الخلائف جمع خلیف و خلیفه.

العالم و صدر الأمر بحكومته على جميع الموجودات من جانب اللّه تعالى،لا يجوز أن يسمح لنفسه بالسقوط إلى درجه السجود للجمادات.

ثمّ أشار سبحانه إلى اختلاف المواهب و الاستعدادات فى المواهب البدنيه و الروحيه لدى البشر،و الهدف من هذا الاختلاف و التفاوت،فيقول: وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ من المواهب المتنوعه و المتفاوته و يختبركم بها.

ثمّ تشير فى خاتمه الآيه الحاضره إلى حريه الإنسان فى إختيار طريق السعاده و طريق الشقاء نتيجه هذه الاختبارات و الابتلاءات،إذ يقول: إِنَّ رَبَّکَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ،فإنّ ربّک سريع العقاب مع الذين يفشلون فى هذا الاختبار،و غفور رحيم للذين ينجحون فيه و يسعون لإصلاح أخطائهم.

التفاوت بين أفراد البشر و مبدأ العداله:

لا شک أنّ بين أفراد البشر طائفه من الاختلافات و الفوارق المصطنعه، التى هى نتيجه المظالم التى يمارسها بعض أفراد البشر ضد الآخرين،فهناک مثلا جماعه يمتلكون ثروات هائله،و جماعات أخرى تعانى من الفقر المدقع، جماعه يعانون من الجهل و الأميه بسبب عدم توفّر مستلزمات الدراسه،و جماعه أخرى تبلغ المراتب العليا فى الثقافه و العلم بسبب توفّر كلّ الوسائل اللازمه للتحصيل و الدراسه.

جماعه يعانون من المرض و العلّه بسبب سوء التغذيه و ندره الوسائل الصحيّه،فى حين يحظى أفراد معدودون بقدر كبير من السلامه و العافيه،بسبب توفر جميع الإمكانيات.

إنّ مثل هذه الفوارق و الاختلافات:الثروه و الفقر،و العلم و الجهل،و السلامه المرض،هى فى الأغلب وليده الاستعمار و الاستثمار،و هى مظاهر مختلفه

للعبوديه و المظالم الظاهره و الخفيه.

إنّ من المسلّم أنه لا يمكن أن تعتبر هذه الأمور من فعل المشيئه الإلهيه، و ليس من الصحيح مطلقا الدفاع عن مثل هذه الاختلافات غير المبرّره أساسا.

و لكن فی نفس الوقت لا يمكن إنكار أنّه حتی لو روعيت جميع أصول العداله فی المجتمع الإنسانی-أيضا-فإنّه لا يتساوی الناس جميعا من حيث القابليات و من حيث الفكر،و الذوق،و فی الذكاء،و السليقه و حتی من جهه التركيب البدنیّ.

و لكن هل وجود هذه الاختلافات و الفوارق مخالف لمبدأ العداله،أو أنّه علی العكس يكون هو العدل بمعناه الواقعی،يعنی أنّ مبدأ وضع كل شیء فی محلّه يوجب أن يكون الأفراد غير متساوين.

إذا كان جميع الأفراد فی المجتمع الإسلامی متساوين و متشابهين فی المواهب و القابليات كالقماش أو الأوانی التی تخرج من مصنع واحد،كان المجتمع الإنسانی-حينئذ-مجتمعا ميتا ساكنا جامدا عاريا عن التحرك و التكامل.

انظروا إلی نبته الورد،فهناك جذور قويه متينه،و سوق رقيقه،و لكنّها متينه نوعا مّا،و فروع ألطف،ثمّ أوراق و أوراد بعضها ألطف من بعض،و هذه المجموعه المتنوعه فی تراكيبها و المختلفه فی متانتها و لطافتها تشكل نبته ورده جميله تختلف فيها الخلايا بحسب اختلافها فی وظائفها،و تختلف فيها القابليات و الاستعدادات بحسب اختلافها و وظائفها.

إن نفس هذا الموضوع يلحظ فی العالم البشری،فأفراد البشر يشكلون من حيث المجموع شجره كبيره واحده يقوم كل فرد برساله خاصّه فی هذا الصرح العظيم،و له بنيان مخصوص يتلاءم مع وظائفه.

و لهذا يقول القرآن الكريم:إنّ هذه الفوارق و هذا التفاوت وسيله لاختباركم

و امتحانكم،لأن الاختبار و الامتحان الإلهى-كما قلنا سابقا-يعنى«التربيه».

و بهذا يجاب على كل اعتراض و إشكال يورد فى المقام على أثر الفهم الخاطئ لمفهوم الآيه.

خلافه الإنسان فى الأرض:

إنّ النقطه الأخرى الجديره بالاهتمام،هى أن القرآن الكريم وصف الإنسان مرارا بالخلافه،و أنّه خليفه اللّه فى أرضه،أن هذا الوصف،و هذا التعبير ضمن بيانه لمكانه الإنسان يبين هذه الحقيقه أيضا،و هى:أن اللّه تبارك و تعالى هو المالك الأصلى و الحقيقى للأموال و الثروات و القابليات،و جميع المواهب الإلهيه الممنوحه للإنسان،و ما الإنسان-فى الحقيقه-إلاّ خليفه اللّه وكيل من جانبه، و مأذون من قبله.

و من البديهى أن الوكيل-مهما كان-فهو غير مستقل فى تصرفاته،بل يجب أن تخضع تصرفاته لإذن صاحبها الأصلى،و تقع ضمن إجازته.

و من هنا يتضح أن الإسلام-مثلا-يختلف عن النظام الشيوعى،و كذا عن النظام الرأسمالى فى مسأله المالكيه،لأنّ الفريق الأوّل يخصّص الملكيه بالجماعه،و الفريق الثانى يخصصها بالفرد،بينما يقول الإسلام:الملكيه لا هى للفرد و لا هى للمجتمع،بل هى فى الحقيقه للّه تعالى،و الناس و كلاء اللّه،و خلفاؤه.

و بهذا الدليل نفسه يراقب الإسلام طريقه تصرّف الأفراد فى الأموال كسبا و صرفا،و يضع لكل ذلك قيودا و شروطا تجعل الاقتصاد الإسلامى نظاما متميّزا فى مقابل الأنظمه الأخرى.

«ختام سوره الانعام»

ص :۵۴۹

سوره الأعراف

اشاره

مكيّه و عدد آياتها مائتان و ستّ آيات

ص: ۵۵۱

سوره الأعراف هذه السوره من السور المكيه إلاّ قوله تعالى: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَهِ -إلى- بِما كانُوا يَفْسُقُونَ ،الذى نزل فى المدينه.

عدد آيات هذه السوره(۲۰۶)آيه أو(۲۰۵)كما عليه البعض.

لمحه سريعه عن محتويات هذه السّوره:

إن أكثر السور القرآنيه(۸۰ إلى ۹۰ سوره)-كما نعلم-نزلت فى مكّه،و نظرا إلى الأوضاع التى كانت سائده فى المحيط المكّى،و حاله المسلمين خلال ۱۳ عاما،و كذا بالإمعان فى صفحات التّأريخ الإسلامى بعد الهجره،يتضح بجلاء أن هناك فرقا بين لحن السور المكيه و السور المدنيه.

ففى السّور المكيه يدور الحديث-غالبا-حول المبدأ و المعاد،و حول إثبات التوحيد،و يوم القيامه،و مكافحه الشرك و الوثنيه،و تقويه مكانه الإنسان و دعم موقعه فى عالم الخلق،لأنّ الفتره المكّيه كانت تشكل فتره بناء المسلمين من حيث العقيده،و تقويه أسس الإيمان كأسس و قواعد ل«نهضه متجذره».

ففى الفتره المكيه كان على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يطهّر العقول و الأذهان من جميع الأفكار الوثنيه الخرافيه،و يغرس محلّها روح التوحيد،و العبوديه للّه تعالى،و الإحساس بالمسؤوليه لأفراد الطبقه المسحوقه و المحقّره فى اطار العهد الوثنى بشخصيتهم الحضاريه و هويتهم و كرامتهم الإنسانيه،و حقيقه موقعهم فى نظام الوجود،و عالم الخلق،ليصنع-بالتالى-من ذلك الشعب الوضيع المشحون

ص:۵۵۳

بالخرافه،أمه ذات شخصيه قويه،و ذات إراده صلبه،و إيمان فاعل،و قد كان هذا البناء العقائدى القوى الذى تم على يد رسول الإسلام فى هدى القرآن فى مكّه، هو السبب فى تقدم الإسلام المطّرد فى المدينه.

إن آيات السور المكيه كذلك تتناسب جميعها مع هذا الهدف الخاص.

أمّا الفتره المدينه،فقد كانت فتره تشكيل و تأسيس الحكومه الإسلاميه، فتره الجهاد فى مقابل الأعداء،فتره تأسيس و بناء مجتمع سليم على أساس القيم الإنسانيه،و العداله الاجتماعيه.

و لهذا تهتم السور المدنيه فى كثير من آياتها بتفاصيل القضايا الحقوقيه، و الأخلاقيه و الاقتصاديه،و الجزائيه،و غير ذلك من الحاجات الفرديه و الاجتماعيه.

و إذا أراد المسلمون اليوم أن يستعيدوا عظمتهم الغابره،و مجدهم القديم، وجب عليهم أن ينفّذوا هذا البرنامج بالذات،و أن يطووا هاتين الفترتين بصوره كامله،فإنّه ما لم تتوطد الأسس العقائديه،و ما لم يتم بناؤها بشكل محكم لم تحظ اللّبنات الفوقيه و البناء الحضارى للمجتمع بالمتانه و القوه اللازمه.

و على كل حال فحيث أن سوره الأعراف من السور المكيه،لذلك تجلّت فيها جميع خصائص السوره المكيه و لهذا نرى:

كيف أنّها أشارت فى البدء إلى مسأله«المبدأ و المعاد».

ثمّ بهدف إحياء شخصيه الإنسان شرحت-باهتمام و عنايه كبيره-قصّه خلق آدم.

ثمّ عدّدت-بعد ذلك-المواثيق التى أخذها اللّه تعالى من أبناء آدم فى مسير الهدايه و الصلاح،واحدا واحدا.

ثمّ للتدليل على هزيمه و خسران الجماعات التى تحيد عن سبيل التوحيد و العداله و التقوى.و كذا للتدليل على نجاح المؤمنين الصادقين و انتصارهم،

ذکرت قصص کثیر من الأقوام الغابره و الأنبیاء السابقین مثل«نوح»و«لوط» و«شعیب»و ختمت ذلک ببیان قصه بنی إسرائیل،و جهاد«موسی»ضدّ فرعون، بصوره مفصّله.

و فی آخر السوره عادت مرّه أخری إلی مسأله المبدأ و المعاد،بهذا تتناغم البدایه و الخاتمه.

أهمیه هذه السّوره:

جاء فی تفسیر العیاشی عن الإمام الصادق أنّه قال: «من قرأ سوره الأعراف فی کل شهر کان یوم القیامه من الذین لا خوف علیهم و لا هم یحزنون...فإن قرأها فی کل جمعه کان ممن لا یحاسب یوم القیامه(و کذا قال:)أمّا أن یکون فیها محکما فلا تدعوا قراءتها و القیام بها فإنّها تشهد یوم القیامه لمن قرأها» (۱) .

إن ما یستفاد من الحدیث الحاضر بوضوح هو أن هذه الرّوایات و الأحادیث الوارده فی فضل السور لا تعنی أن مجرّد قراءتها تنطوی علی کل تلک النتائج، و الثمرات الکبری،بل إنّ ما یعطی هذه القراءه القیمه النهائیه هو الإیمان بمضامین السوره،ثمّ العمل علی طبقها.

و لهذا جاء فی الروایه الحاضره:قراءتها و تلاوتها و القیام بها.کما أنّنا نقرأ

فی هذه الروایه أنّه علیه السّلام قال: «من قرأ هذه السوره کان یوم القیامه من الذین لا خوف علیهم و لا هم یحزنون».

و فی الحقیقه فإنّ هذه إشاره لطیفه إلی الآیه(۳۵)من هذه السوره،التی یقول فیها سبحانه: فَمَنِ اتَّقیٰ وَ أَصْلَحَ فَلاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ .

فهذه المنزله-کما یلاحظ القارئ الکریم-مخصوصه بالذین اتقوا، و سلکوا سبیل الصلاح،هذا مضافا إلی أنّ القرآن الکریم کتاب«عقیده»و«عمل»

۱- ۱) -تفسیر البرهان،المجلد الثانی،الصفحه ۲ و نور الثقلین،المجلد الثانی،الصفحه ۲.

و القراءه و التلاوه تعتبران مقدمه لهذا الموضوع.

قال الراغب فی کتاب«المفردات»فی ماده:تلاوه:قوله: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاٰوَتِهِ (۱) ،إتباع القرآن بالعلم و العمل.

و هذا یعنی أنّ للتلاوه مفهوما أعلی من مفهوم القراءه،فهی مقرونه بنوع من التدبر و التفکر و العمل.

۱- ۱) -البقره،۱۲۱.

الآيات [سوره الأعراف (۷): الآيات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ المص (۱) کِتٰابٌ أُنْزِلَ إِلَیْکَ فَلاٰ یَکُنْ فِی صَدْرِکَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِکْریٰ لِلْمُؤْمِنِینَ (۲) اِتَّبِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ قَلِیلاً مٰا تَذَکَّرُونَ (۳)

التّفسیر

فی مطلع هذه السّوره نواجه مرّه أخری«الحروف المقطّعه»و هی هنا عباره عن:الألف و اللام و المیم،و الصاد.

و قد سبقت منّا أبحاث مفصّله عند تفسیر هذه الحروف فی مطلع سوره «البقره»و کذا:«آل عمران».

و هنا نلفت النظر إلی تفسیر آخر من التفاسیر المطروحه فی هذا الصعید استکمالا للبحث و هو:أنّه یمکن أن یکون أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب انتباه المستمعین،و دعوتهم إلی السکوت و الإصغاء،لأنّ وجود هذه الحروف فی مطلع الکلام موضوع عجیب لم یسبق له مثیل فی نظر العرب،و من شأنها أن تثیر فی العربی حبّ الاستطلاع،و تدعوه إلی متابعه الکلام إلی نهایته.

و من الاتفاق أنّ غالب السور المبدوءه بالحروف المقطّعه هی السور التی نزلت فی مکّه،و نحن نعلم أن المسلمین فی مکّه کانوا أقلیّه،و کان أعداؤهم و خصومهم خصوما ألدّاء اشتد عنادهم إلی درجه أنّهم ما کانوا علی استعداد

حتى لاستماع كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،بل ربّما أثاروا ضجيجا،و رفعوا الأصوات فى وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند قراءته للآيات القرآنيه ليضيع فى زحمتها و خضمّها نداؤه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و هو ما أشارت إليه بعض الآيات(مثل الآيه ۲۶ سوره فصلت السجده).

كما أننا نقرأ فى بعض الرّوايات و الأحاديث المرويه عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ هذه الحروف رموز و إشاره إلى أسماء اللّه،ف«المص»فى السوره المبحوثه مثلا إشاره إلى جمله:أنا اللّه المقتدر الصادق.

و بهذا الطريق يكون كل واحد من الحروف الأربعه صوره مختصره عن أحد أسماء اللّه تعالى.

ثمّ إنّ موضوع إحلال الصياغات المختصره محلّ الصياغات المفصّله للكلمات كان أمرا رائجا من قديم الزمان،و إن حصل مثل هذا فى عصرنا أيضا بشكل أوسع،حيث اختصرت الكثير من العبارات الطويله،و كذا أسامى المؤسسات أو الهيئات فى كلمه قصيره أو أحرف معدوده.

على أن ثمّه نقطه تستحق التنويه بها هنا،و هى أنّ التفاسير و التحاليل المختلفه عن«الحروف المقطعّه»لا تتنافى و لا تتناقض فيما بينها،و يمكن أن تكون جميع التفاسير بطونا مختلفه من بطون القرآن.

ثمّ يقول تعالى فى الآيه اللاحقه: كِتٰابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاٰ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ .

و«الحرج»فى اللغه يعنى الشعور بالضيق و أى نوع من أنواع المعاناه، و الحرج فى الأصل يعنى مجتمع الشجر الملتفّ أوّلا ـ ثمّ المنتشر،و هو يطلق على كل نوع من أنواع الضيق.

إنّ العباره الحاضره تسلّى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تطمئن خاطره بأنّ هذه الآيات نازله من جانب اللّه تعالى فيجب أن لا يشعر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأىّ ضيق و حرج،لا من ناحيه ثقل

الرساله الملقاه على عاتقه،و لا من ناحيه ردود فعل المعارضين و الأعداء الألدّاء تجاه دعوته،و لا من ناحيه النتيجه المتوقعه من تبليغه و دعوته.

هذا و يمكن إدراك المشكلات التى كانت تعرقل حركه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إدراكا كاملا-إذا عرفنا أن هذه السوره من السور المكّيه،و نحن و إن كنّا نعجز عن تصوّر جميع الجزئيات و التفاصيل المرتبطه بحياه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و صحبه فى المحيط المكى،و فى مطلع الدّعوه الإسلاميه،و لكن مع الالتفات إلى حقيقه أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان عليه أن يقوم بنهضه ثوريه فى جميع المجالات و الأصعده فى تلك البيئه المتخلفه جدا و فى مدّه قصيره،يمكن أن نتصور على نحو الإجمال أبعاد و أنواع الصعاب التى كانت تنتظره.

و على هذا الأساس يكون من الطبيعى أن يعمد اللّه سبحانه إلى تسليه النّبى و تطمينه بأن لا يشعر بالضيق و الحرج،و أن يطمئنّ إلى نتيجه جهوده.

ثمّ يضيف تعالى فى الجمله اللاحقه أن الهدف من نزول هذا الكتاب العزيز هو إنذار الناس و تحذيرهم من عواقب نواياهم و أعمالهم الشريره،و تذكير المؤمنين الصادقين،إذا يقول: لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (1) .

هذا و مجىء قضيه«الإنذار»فى صوره الأمر العام الموجّه للجميع، و اختصاص«التذكير»بالمؤمنين خاصّه،إنّما هو لأجل أنّ الدعوه إلى الحق، و مكافحه الانحرافات يجب أن تتمّ بصوره عامّه و شامله،و لكن من الواضح أنّ المؤمنين هم وحدهم الذين ينتفعون بهذه الدعوه،أولئك الذين تتوفر لديهم أرضيات مستعدّه لقبول الحق،و قد أبعدوا عن أنفسهم روح العناد و اللجاج و سلّموا أمام الحقائق.

1- 1) -و على هذا الأساس فإن جمله«لتنذر»تتعلق ب«أنزل»و ليس بجمله«فلا يكن»و لعل جعل هذه الجمله(أى جمله لتنذر)بعد جمله«فلا يكن فى صدرك حرج»لأجل أنّه يجب أوّلا إعداد النّبى فى طريق الدعوه،ثمّ اقتراح الهدف و هو الإنذار عليه(تأمل جيدا).

و قد جاءت هذه العباره بعينها فی مطلع سوره البقره إذا یقول تعالی: ذٰلِکَ الْکِتٰابُ لاٰ رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ (و للمزید من التوضیح راجع تفسیر الآیه ۲ من سوره الحمد).

ثمّ إنّه سبحانه یوجه خطابه إلی عامّه الناس یقول: اِتَّبِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ و بهذا الطریق یکون قد بدأ الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و مهمّته و رسالته،و انتهی بوظیفه الناس و واجبهم تجاه الرساله.

و للتأکید یضیف سبحانه قائلا: وَ لاٰ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءَ فلا تتبعوا غیر أوامر اللّه،و لا تختاروا ولیا غیر اللّه.

و حیث إنّ الخاضعین للحق و المذکرین قلیلون،لذا قال فی ختام الآیه:

قَلِیلاً مٰا تَذَکَّرُونَ

.

و من هذه الآیه یستفاد أنّ الإنسان یواجه طریقین(أو خیارین)إمّا القبول بولایه اللّه و قیادته،و إمّا الدخول تحت ولایه الآخرین،فإذا سلک الطریق الأوّل کان اللّه ولیّه،و أمّا إذا دخل تحت ولایه الآخرین فإن علیه-حینئذ-أن یخضع فی کل یوم لواحد من الأرباب،و أن یختار ربّا جدیدا.

و کلمه«الأولیاء»التی هی جمیع«ولی»إشاره إلی هذا المعنی.

ص:۵۶۰

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ۴ الى ۵]

اشاره

وَ كَمْ مِنْ قَرْيَهٍ أَهْلَكْنٰاهٰا فَجٰاءَهٰا بَأْسُنٰا بَيٰاتاً أَوْ هُمْ قٰائِلُونَ (۴) فَمٰا كٰانَ دَعْوٰاهُمْ إِذْ جٰاءَهُمْ بَأْسُنٰا إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا إِنّٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ (۵)

التّفسير

اشاره

الأقوام التى هلكت و بادت:

هاتان الآيتان تشيران إلى العواقب المؤلمه التى تترتب على مخالفه الأوامر التى تمّ بيانها فى الآيات السابقه،كما أنّهما تعدّان-فى الواقع-فهرستا إجماليا عن قصص الأقوام المتعدده أمثال نوح،و قوم فرعون،و قوم عاد و ثمود،و قوم لوط التى ستأتى فيما بعد.

إنّ القرآن الكريم يحذر و ينذر بشدّه فى هذه الآيه كل أولئك الذين يتمردون على تعاليم الأنبياء و يقومون بزرع الفجور و الفساد بدل إصلاح أنفسهم و إصلاح الآخرين،بأن يتدبروا قليلا فى حياه الأقوام السالفه و ينظروا كم من قريه عامره أبادها اللّه،و أهلك سكانها الفاسقين: وَ كَمْ مِنْ قَرْيَهٍ أَهْلَكْنٰاهٰا .

ثمّ يبيّن كيفيه هلاكهم بأنّ العذاب الأليم جاءهم فى منتصف الليل و هم يقضون ساعات الراحه و السكون،أو فى وسط النهار و هم يمضون لحظات الاستراحه و الاسترخاء بعد رحله من العمل و النشاط اليومى الدّائب: فَجٰاءَهٰا

بَأْسُنا بَیاتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ

.

ثمّ یواصل الحدیث فی الآیه اللاحقه هکذا: فَما کانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاّ أَنْ قالُوا إِنّا کُنّا ظالِمِینَ فعند ما یتورّطون فی البلاء،و تتحطم حیاتهم بعواصف الجزاء یترکون کبریاءهم و نخوتهم و ینادون معترفین بظلمهم:إنّا کنّا ظالمین.

بحوث

إنّ هاهنا نقاطا عدیده ینبغی الالتفات إلیها:

۱-«القریه»مأخذوه أصلا من«قری»(علی وزن نهی)و هی تعنی الاجتماع،و حیث إنّ القریه مرکز لاجتماع أفراد البشر أطلق علیها هذا الاسم.

من هنا یتّضح أن القریه لا تعنی الرستاق فقط،بل تشمل کل موضع عامر اجتمع فیه أفراد البشر،و قد أطلقت هذه اللفظه-فی کثیر من آیات القرآن الکریم -علی المدینه،أو أیه منطقه عامره مدینه کانت أو رستاقا.

و«قائلون»اسم فاعل من«القیلوله»یعنی النوم فی نصف النهار،و أصله الراحه،و لهذا یقال الإقاله فی البیع لأنّه الإراحه منه بالإعفاء من عقده.

و«البیات»أی عند اللیل.

۲-إنّ ما نقرؤه فی هذه الآیات من أنّ عقاب اللّه تعالی و عذابه یصیب الظالمین لیلا،أو عند منتصف النهار،لأجل أن یذوقوا طعم العذاب و الجزاء، و ذلک عند ما تنهدم راحتهم و سکونهم به انهداما کاملا،کما سبق لهم أن هدموا راحه الآخرین و سکونهم و عکروا صفوهم،و بهذا یکون جزاؤهم مناسبا لذنبهم و من جنسه.

۳-یستفاد من الآیه الحاضره-أیضا-أن جمیع الأقوام العاصیه الجانیه عند ما تواجه العقاب،و تنکشف عن عیونها أغطیه الغفله و الغرور،و تعترف-برمتها-

بـذنوبها،و لكن لا يجـديها مثل هـذا الاعتراف،لأنّه نوع من الاعتراف«الجبرى و الاضـطرارى»الـذى يضـطرّ إليه حتى أشـد الناس غرورا.

و بعبـاره أخرى،إنّ هـذه اليقظه نوع من اليقظه الكـاذبه و العـابره و غير المؤثره التى لاـ تحمـل أيه علامه من علامات الانقلاب و التحوّل الروحى،بهذا لا يكون لها أيه نتيجه...نعم،إذا كانوا يظهرون هذه الحقيقه فى حاله الإختيار و الحريه كان ذلك دليلا على انقلابهم الروحى و سببا لنجاتهم.

۴-من المباحث المطروحه عند المفسّرين فى مجال الآيه الحاضره هو:

لمـاذا قـال القرآن أوّلاـ: أَهْلَكْنٰاهٰا ثمّ أعقب هـذه الجمله بجمله أخرى مبـدوءه بفـاء التفريع التى هى عاده للترتيب الزمانى فقال: فَجٰاءَهٰا بَأْسُنٰا بَيٰاتاً فى حين أن مثل هذا العقاب(أى مجئ البأس بياتا)كان قبل الهلاك لا بعد الهلاك.

و لكن يجب أن نعلم أنّ الجمله المبدوءه بالفاء قد تكون شـرحا و تفصيلا للجمله السابقه لا لبيان حادثه أخرى،و فى المقام أشار أوّلا إلى موضوع الإهلاك على نحو الإجمال،ثمّ عمد إلى شرح هذا الموضوع المجمل بقوله:

فَجٰاءَهٰا بَأْسُنٰا بَيٰاتاً أَوْ هُمْ قٰائِلُونَ فَمٰا كٰانَ دَعْوٰاهُمْ إِذْ جٰاءَهُمْ بَأْسُنٰا إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا إِنّٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ

.و لهذا فى الأدب العربى نظائر كثيره.

۵-إنّ هذا النوع من الآيات يجب أن لا تعتبر شرحا لقصص الأمم الغابره، و بالتالى ممّا يرتبط بالزمن الغابر و الأمم الماضيه فقط.

إنّ هـذه الآيات تحـذيرات صاعقه لهـذا العصـر و ما يليه من العصور،لنا و للأمم و الأقوام القادمه،لأنّه لا معنى للتبعيض فى السـنه الإلهيه.

و الإنسـان المسـلح بالتكنولوجيـا المتقـدمه مع كـلّ مـا أوتى من قوّه هو الآـخر عـاجز أمام الزلازل و العواصف،و أمام السـيول و الأمطار الغريزه،تماما مثل عجز الأمم ما قبل التّأريخ و ضعفها.

و على هذا فليست مثل تلك العواقب السيئه و الأليمه التى أصابت ظلمه

ص :۵۶۳

الأمم الغابره،و جباريها،و حلّت بالمغرورين و الفسقه و المتمردين ليلا و حطمتهم، ببعيده عن الإنسان الحاضر.بل إنّ قوه الإنسان المعاصر و قدراته الكبرى يمكن أن تكون مصدر بلاء عظيم له،و تجرّه إلى أحضان حروب مدمّره لا تنتج سوى فناء جيله،ألا يجب أن نعتبر بهذه الحوادث و نستيقظ من نوم الغفله!؟

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ۶ الى ٩]

اشاره

فَلَنَسْئَلَنَّ اَلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ اَلْمُرْسَلِينَ (۶) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ مٰا كُنّٰا غٰائِبِينَ (٧) وَ اَلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ اَلْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (٨) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ اَلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَظْلِمُونَ (٩)

التّفسير

اشاره

التّحقيق الشّامل:

لقد تضمنت الآيات السابقه إشاره إلى معرفه اللّه و نزول القرآن الكريم،و أمّا الآيات أعلاه فانها تتحدث عن المعاد فهى مكمله للآيات السالفه،مضافا إلى أنّ الآيه المتقدمه تحدثت عن الجزاء الدنيوى للظالمين، و هذا الآيات تبحث فى الجزاء و العقاب الأخروى لهم،و بهذا يتضح الارتباط بينها.

يقول تعالى أوّلا-و هو يقرر سنّه عامّه: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أى أنّنا سنسأل فى يوم القيامه كل من أرسلنا لهدايته رسولا،حتما و دون ريب.

بل و نسأل كذلك الأنبياء أيضا:ماذا فعلوا فى مجال تبليغ رسالتهم:

ص:۵۶۵

وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ

.

و على هذا الأساس فالجميع مسئولون،قاده و أتباعا،رسلا و مرسلا إليهم، غايه ما فى الأمر أنّه يختلف السؤال و المسؤوليات من طائفه إلى أخرى.

و ثمّه

حديث مروى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام فى هذا الصعيد يؤيد هذا المعنى أيضا،إذا يقول:«فيقام الرسل فيسألون عن تأديه الرسالات التى حملوها إلى أممهم،فأخبروا أنّهم قد أدّوا ذلك إلى أممهم» (۱) .

هذا و قد صرّح فى حديث آخر فى تفسير على بن إبراهيم بهذا المعنى أيضا (۲) .

فى الآيه اللاحقه-و لكى لا يتصور أحد بأنّ سؤال اللّه للأنبياء يعنى أن الأمر قد خفى على اللّه و غاب عن علمه قال تعالى بصراحه مزيجه بالقسم،بأننا سوف نشرح لهم كل أعمالهم بعلمنا،لأنّه ما غاب عنّا شىء من أفعالهم،و ما غابوا هم عنّا،فقد كنا معهم فى كل حين و مكان: فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ .

«لنقصنّ»مأخوذه من«القصه»و هى فى الأصل تعنى ما يتلو بعضه بعضا، و حيث أن القضايا عند شرحها يتلو بعضها بعضا أطلق عليها لفظ القصه،و هكذا أطلق على العقوبه التى تتلو الجنايه لفظ«القصاص»،و منه«المقصّ»لأنّه يقطع الشعر بالتوالى،و يقال عمن يبحث عن شىء أنّه«قصّ»لأنّه يبحث الحوادث واحدا بعد واحد.

و حيث إنّ فى هذه الجمله أربعه أنواع من التأكيد(لام القسم،و نون التأكيد، و كلمه علم،التى جاءت بصوره النكره،و المراد من ذلك بيان عظمته،و جمله ما كان غائبين)لذلك يستفاد منها أنّ المقصود هو:إنّنا نشرح لهم تفاصيل أعمالهم جميعها القذه بالقذه و تباعا،ليعلموا أنّه لا يخفى عنّا شىء من نيّه أو عمل قط (۳) .

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،المجلد الثانى،الصفحه ۴.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -تفسير«مجمع البيان»،و تفسير«التبيان»عن معنى القصه فى ذيل الآيه الحاضره ورد البحث أعلاه فى.

المساءله لماذا؟

إنّ أوّل ما يطرح نفسه هنا هو:نحن نعلم أنّ اللّه سبحانه يعلم بكل شيء،فهو الحاضر فى كل زمان و مكان،الناظر لكل شيء من نيّه أو عمل،فما الحاجه إلى مساءله الرسل و الأمم عامّه و بدون استثناء؟! الجواب على هذا السؤال واضح،لأنّ السؤال لو كان للاستعلام و الاستفهام، و بهدف الوقوف على الحقيقه لم يصح أن يقع من العالم العارف.

و أمّا إذا كان المقصود منه هو إلفات الشخص إلى ما عمله،أو إتمام الحجّه عليه،أو ما أشبه ذلك،لم يكن فى ذلك بأس و لا ضير،إذ يشبه ذلك تماما ما لو أسدينا إلى أحد خدمات كثيره و قابلنا بالإساءه و الخيانه،و كان كل ذلك معلوما معروفا عندنا،و مع ذلك فإننا نسائله و نقول:ألسنا قد أسدينا إليك كذا و كذا من الخدمه؟فهل كان هذا جزاء الإحسان إليك؟؟ إنّ مثل هذه المساءله ليست لاكتساب العلم،و اكتشاف الحقيقه المجهوله، بل هى لتفهيم الطرف الآخر و إيقافه على الحقيقه،أو أنّه لتثمين خدمه قام بها أحد المسؤولين و تشجيعه،فنسأله:ماذا فعلت فى هذه السفره التى كلّفت فيها بمهمّه؟ مع أنّنا نعرف من قبل بتفاصيل عمله.

التّوفيق بين آيات المساءله فى القرآن:

قد يظنّ أن الآيات المطروحه هنا على بساط البحث،و التى تصرح بكل تأكيد بأن اللّه يسأل الجميع عمّا فعلوه و ارتكبوه،تنافى بعض الآيات القرآنيه الأخرى فى هذا الصعيد مثلما ما جاء فى سوره الرحمان: فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لاٰ جَانٌّ ... يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمٰاهُمْ... (1) .

و كذا الآيات الأخرى التى تنفى السؤال؟

۱- ۱) -الرحمان،۳۹ و ۴۱.

فکیف یمکن التوفیق و الجمع بین تلک الآیات و الآیات الحاضره التی تثبت قضیه المساءله یوم القیامه؟! إن الإمعان فی هذه الآیات کفیل بأن یکشف کل إبهام عنها،فإنه یستفاد من مجموع الآیات الوارده فی مجال المساءله فی یوم القیامه أن الناس یمرون فی ذلک الیوم بمراحل مختلفه متنوعه،ففی بعض المراحل لا یسألون عن أی شیء مطلقا،بل یختم علی أفواههم،و تتکلم أعضاؤهم و جوارحهم التی تحتفظ بآثار أعمالهم فی نفسها،کشاهد حیّ لا یردّ یروی أعمالهم بدقه متناهیه.

و فی المرحله الأخری یرفع الختم عن أفواههم فیتحدثون و یسألون فیعترفون عند ذلک-بعد مشاهده الحقائق التی انکشفت فی ضوء شهاده الجوارح-بأعمالهم،تماما کالمجرم الذی لا یری بدّا من الاعتراف بجرمه عند مشاهده الأدله العینیه.

و قد احتمل بعض المفسّرین أیضا فی تفسیر هذه الآیات،أنّ الآیات النافیه للسؤال إشاره إلی نفی المساءله الشفاهیه،و الآیات المثبته إشاره إلی السؤال من الجوارح و هی تجیب بلسان الحال-مثل حمره وجه الإنسان خجلا من انکشاف جرمه-بالحقائق.

و فی هذه الصوره یرتفع التنافی بین هاتین الطائفتین من الآیات.

فی الآیه اللاحقه-تکمیلا لمبحث المعاد-یشیر تعالی إلی قضیه«وزن الأعمال»الذی جاء ذکره فی السور القرآنیه الأخری مثل ما جاء فی سوره «المؤمنون»فی الآیه(۱۰۲ و ۱۰۳)و سوره القارعه الآیه(۶ و ۸).

فیقول أوّلا:إنّ وزن الأعمال یوم القیامه أمر واقع لا ریب فیه: وَ الْوَزْنُ یَوْمَئِذٍ الْحَقُّ (۱) .

۱- ۱) -بناء علی هذا یکون الوزن هنا بمعناه المصدری و هو مبتدأ و«الحق»خبره،و إن أعطیت احتمالات فی ترکیب الجمله الحاضره و لکن ما قلناه أقرب من الجمیع.

ما هو ميزان الأعمال يوم القيامه؟

لقد وقع كلام كثير بين المفسّرين و المتكلمين حول كيفيه وزن الأعمال يوم القيامه،و حيث أنّ البعض تصور أنّ وزن الأعمال و ميزانها فى يوم القيامه يشبه الوزن و الميزان المتعارف فى هذه الحياه،و من جانب آخر لم يكن للأعمال البشريه وزن،و خفه و ثقل يمكن أن يعرف بالميزان،لهذا لا بدّ من حلّ هذه المشكله عن طريق فكره تجسم الأعمال،أو عن طريق أن الأشخاص أنفسهم يوزنون بدل أعمالهم فى ذلك اليوم.

حتى أنّه روى عن«عبيد بن عمير»أنه قال:«يؤتى بالرجل الطويل العظيم فلا يزن جناح بعوضه»إشاره إلى أن أولئك الأشخاص كانوا فى الظاهر أصحاب شخصيات كبيره،و أمّا فى الباطن فلم يكونوا بشىء (۱) .

و لكن لو تركنا مسأله المقارنه و المقايسه بين الحياه فى ذلك العالم و الحياه فى هذا العالم،و علمنا بأن كل شىء فى تلك الحياه يختلف عمّا عليه فى حياتنا هذه،تماما مثلما تختلف أوضاع الفتره الجنينيه عن أوضاع الحياه الدنيا،و علمنا -أيضا-أنّه ليس من الصحيح أن نبحث-فى فهم معانى الألفاظ-عن المصاديق الحاضره و المعينه دائما،بل لا بدّ أن ندرس المفاهيم من حيث النتائج،اتضحت و انحلت مشكله«وزن الأعمال فى يوم القيامه».

و توضيح الأمر هو:أننا لو كنا نتلفظ فيما مضى من الزمن بلفظ المصباح كان يتبادر إلى ذهننا صوره و وعاء خاص فيه شىء من الزيت،و نصب فيه فتيل من القطن.و ربّما أيضا تصوّرنا زجاجه وضعت على النّار لتحفظها من الانطفاء بسبب الرياح،على حين يتبادر من لفظ المصباح إلى ذهننا اليوم جهاز خاص لا مكان فيه للزيت،و لا للفتيل أمّا ما يجمع بين مصباح الأمس و مصباح اليوم،هو

۱- ۱) -رويت هذه الروايه من عبيد بن عمير فى تفسير«مجمع البيان»و تفسير«الطبرى»و ظاهر العباره يوحى بأن الكلام هو لعبيد و ليس لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الهدف من المصباح و النتيجه المتوخاه أو المتحصله منه،يعنى الأداه التى نزيل الظلمه.

و الأمر فى قضيّه«الميزان»على هذا الغرار،بل و فى هذه الحياه ذاتها نرى كيف أن الموازين تطوّرت مع مرور الزمن تطورا كبيرا،حتى أنه بات يطلق لفظ الميزان على وسائل التوزين الأخرى،مثل مقياس الحراره،و مقياس سرعه الهواء و أمثال ذلك.

اذن،فالمسلّم هو أن أعمال الإنسان توزن فى يوم القيامه بأداه خاصّه لا بواسطه موازين مثل موازين الدنيا،و يمكن أن تكون تلك الأداه نفس وجود الأنبياء و الأئمّه و الصالحين،و هذا ما يستفاد-أيضا-من الأحاديث المرويه عن أهل البيت عليهم السّلام.

ففى بحار الأنوار ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوٰازِينَ الْقِسْطَ أنه قال:«و الموازين الأنبياء،و الأوصياء،و من الخلق من يدخل الجنّه بغير حساب» (۱) .

و

جاء فى روايه أخرى: إنّ أمير المؤمنين و الأئمّه من ذريته عليهم السّلام هم الموازين (۲) .

و نقرأ فى إحدى زيارات الإمام أمير المؤمنين المطلقه:

السلام على ميزان الأعمال.

و فى الحقيقه أن الرجال و النساء النموذجيين فى العالم هم مقاييس لتقييم أعمال العباد،فكل من شابههم كان له وزن بمقدار مشابهته لهم،و من بعد عنهم كان خفيف الوزن،أو فاقد الوزن من الأساس.

بل إنّ أولياء اللّه فى هذا العالم هم أيضا مقاييس للوزن و التقييم،و لكن حيث

۱- ۱) -بحار الأنوار،الطبعه الجديده،ج ۷،ص ۲۵۲ و ۲۵۱.

۲- ۲) -المصدر السابق.

أنّ أكثر الحقائق فی هذا العالم تبقی خلف حجب الإبهام و الغموض.تبرز فی یوم القیامه بمقتضی قوله تعالی: وَ بَرَزُوا لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ (۱) و تنکشف هذه الحقائق و تنجلی للعیان.

و من هنا یتّضح لماذا جاء لفظ المیزان فی الآیه بصیغه الجمع:«الموازین» لأنّ أولیاء اللّه الذین یوزن بهم الأعمال متعددون.

ثمّ إن هناک احتمالا آخر أیضا،و هو أن کل واحد منهم کان متمیزا فی صفه معینه،و علی هذا یکون کل واحد منهم میزانا للتقییم فی إحدی الصفات و الأعمال البشریه،و حیث أن أعمال البشر و صفاتهم مختلفه،لهذا یجب أن تکون المعاییر و المقاییس متعدده.

و من هنا أیضا یتّضح أنّ ما جاء فی بعض الرّوایات و الأخبار،مثل ما ورد

عن الإمام الصادق علیه السّلام حیث سألوه:ما معنی المیزان؟قال:«العدل» لا ینافی ما ذکرناه،لأنّ أولیاء اللّه،و الرجال و النساء النموذجیین فی هذا العالم هم مظاهر للعدل من حیث الفکر،و العدل من حیث العقیده،و العدل من حیث الصفات و الأعمال(تأملوا) (۲) .

ثمّ إنه تعالی یقول فی المقطع الآخر من الآیه: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِینُهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِینُهُ فَأُولئِکَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما کانُوا بِآیاتِنا یَظْلِمُونَ .

إنّ من البدیهی أنّ المراد من الخفّه و الثقل فی الموازین لیس هو خفه و ثقل نفس المیزان،بل قیمه و وزن الأشیاء التی توزن بواسطه تلک الموازین،و تقاس بتلک المقاییس.

ثمّ إنّ فی التعبیر بجمله«خسروا أنفسهم»إشاره لطیفه إلی هذه الحقیقه.

ص: ۵۷۱

۱- ۱) -إبراهیم،۴۸.

۲- ۲) -تفسیر نور الثقلین،ج ۲،ص ۵.

و هی أن هؤلاء قد أصیبوا بأکبر الخسارات،لأنّ الإنسان قد یخسر ماله،أو منصبه،و لکنّه قد یخسر أصل وجوده من دون أن یحصل علی شیء فی مقابل ذلک،و تلک هی الخساره الکبری،و الضرر الأعظم.

إنّ فی التعبیر ب«کانوا بآیاتنا یظلمون»فی آخر الآیه إشاره إلی أن مثل هؤلاء لم یظلموا أنفسهم فحسب،بل ظلموا-کذا-البرامج الإلهیه الهادیه،لأنّ هذه البرامج کان ینبغی أن تکون سبلا للهدایه و وسائل للنجاه،و لو أنّ أحدا تجاهلها، و لم یکترث بها،فلم یحصل منها هذا الأثر،کان ظالما لها.

و قد جاء فی بعض الرّوایات و الأخبار أنّ المراد من الآیات هنا هم أئمّه الهدی علیهم السّلام،علی أن هذا النمط من التّفسیر-کما أسلفنا مرارا-لا یعنی حصر مفهوم الآیه فیهم،بل هم المصادیق الأتمّ و الأظهر للآیات الالهیه.

هذا،و فسّر بعض المفسّرین الظلم فی الآیه بالکفر و الإنکار،و هذا المعنی لیس بعیدا عن مفهوم الظلم،إذ قد ورد الظلم فی بعض الآیات القرآنیه الأخری بهذا المعنی.

الآیه [سوره الأعراف (۷): آیه ۱۰]

اشاره

وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاكُمْ فِی اَلْأَرْضِ وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِیهٰا مَعٰایِشَ قَلِیلاً مٰا تَشْكُرُونَ (۱۰)

التّفسیر

اشاره

مكانه الإنسان و عظمته فی عالم الوجود:

عقیب الآیات التی أشارت إلی المبدأ و المعاد،یدور البحث فی هذه الآیه و الآیات اللاحقه حول عظمه الإنسان و أهمیه مقامه،و كیفیه خلق هذا الكائن و المفاخر التی وهبها اللّه له،و المواثیق التی أخذها اللّه منه لقاء هذه المواهب و النعم،كل ذلك لتقویه قواعد و أسس تربیته و تكامله.

و فی البدایه اختصر جمیع هذه الأمور فی هذه الآیه،ثمّ شرحها و فصّلها فی الآیات اللاحقه.

فهو یقول البدایه:نحن الذین منحناكم الملكیه و الحاكمیه و سلطناكم علی الأرض: وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاكُمْ فِی الْأَرْضِ .

و أعطیناكم وسائل العیش بجمیع أنواعها: وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِیهٰا مَعٰایِشَ .

و لكن مع ذلك لم تشكروا هذه النعم إلاّ قلیلا قَلِیلاً مٰا تَشْكُرُونَ .

و«التمكین»هنا لیس بمعنی أن یوضع شخص فی مكان مّا،بل معناه أن

یعطی و یوفّر له کل ما یستطیع بواسطته علی تنفیذ مآربه،و تهیئه أدوات العمل له، و رفع الموانع و إزالتها عن طریقه،و یطلق علی مجموع هذا لفظ«التمکین»،فإننا نقرأ فی القرآن الکریم حول یوسف: وَ کَذٰلِکَ مَکَّنّا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ (۱) أی أننا جعلنا جمیع الإمکانیات تحت تصرّفه.

إنّ هذه الآیه-مثل بعض الآیات القرآنیه الأخری-تدعو الناس-بعد ذکر و تعداد النعم الإلهیه و المواهب الربانیّه-إلی شکرها،و تذم کفران النعم.

إن من البدیهی أن بعث روح الشکر و التقدیر لدی الناس فی مقابل النعم الإلهیه،إنّما هو لأجل أن یخضعوا لواهب النعم تمشیا و استجابه لنداء الفطره، و لکی یعرفوه و یطیعوه عن قناعه فیهتدوا و یتکاملوا بهذه الطریقه،لا أن الشاکر یؤثر بشکره فی مقام الرّبوبیه العظیم،بل الأثر الحاصل من الشکر-مثل سائر آثار العبادات و الأوامر الإلهیه-جمیعا-یعود إلی الإنسان لا غیر.

۱- ۱) -تفسیر یوسف،۵۶.

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١١ الی ١٨]

اشاره

وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ اَلسّٰاجِدِينَ (١١) قٰالَ مٰا مَنَعَكَ أَلاّٰ
تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قٰالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قٰالَ فَاهْبِطْ مِنْهٰا فَمٰا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهٰا فَاخْرُجْ
إِنَّكَ مِنَ اَلصّٰاغِرِينَ (١٣) قٰالَ أَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١۴) قٰالَ إِنَّكَ مِنَ اَلْمُنْظَرِينَ (١۵) قٰالَ فَبِمٰا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرٰاطَكَ
اَلْمُسْتَقِيمَ (١۶) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمٰانِهِمْ وَ عَنْ شَمٰائِلِهِمْ وَ لاٰ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شٰاكِرِينَ (١٧) قٰالَ اُخْرُجْ
مِنْهٰا مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)

التّفسیر

اشاره

قصّه عصیان إبلیس

لقد أشیر إلی مسأله خلق الإنسان و کیفیه إیجاده فی سبع سور من سور

ص :۵٧۵

القرآن الكريم،و الهدف من ذكر هذا الموضوع-كما سبق أن أشرنا فى الآيه السابقه-هو بيان شخصيه الإنسان،و مقامه،و منزلته بين كائنات العالم،و بعث روح الشكر و الحمد فيه.

لقد جاء ذكر خلق الإنسان من التراب،و سجود الملائكه له،و تمرّد الشيطان و عصيانه،ثمّ موقفه تجاه النوع الإنسانى فى هذه السور بتعابير مختلفه.

و فى الآيه المبحوثه الآن يقول اللّه تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنٰاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنٰاكُمْ ثُمَّ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ جدّكم الأوّل،و من المأمورين بالسجود إبليس الذين كان موجودا فى صفوفهم و إن لم يكن منهم،فامتثلوا لهذا الأمر جميعا و سجدوا لآدم إلاّ إبليس: فَسَجَدُوا إِلاّٰ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السّٰاجِدِينَ .

و يمكن أن يكون ذكر«الخلق»فى الآيه الحاضره قبل«التصوير»إشاره إلى:

أنّنا أوجدنا الماده الأصليه للإنسان أوّلا،ثمّ أفضنا عليها الصوره الإنسانيه.

بحثان

اشاره

١-سجود الملائكه لم يكن سجود عباده

كما قلنا فى ذيل الآيه(٣۴)من سوره البقره:إنّ سجود الملائكه لآدم لم يكن سجود عباده،لأن العباده مخصوصه اللّه سبحانه،بل السجده هنا بمعنى التواضع(أى الخضوع أمام عظمه آدم و سموّ منزلته فى عالم الخليقه)أو بمعنى السجود للّه الذى خلق مثل هذا المخلوق المتعادل المتوازن.

٢-إبليس لم يكن من الملائكه

إنّ«إبليس»-كما قلنا فى ذيل تلك الآيه-لم يكن من الملائكه،بل هو حسب صريح الآيات القرآنيه من قسم آخر من الكائنات يدعى«الجنّ» (و للمزيد من التوضيح راجع المجلد الأوّل من هذا التّفسير فى الحديث عن

سجود الملائکه لآدم).

فی الآیه اللاحقه یقول تعالی:أنه أخذ إبلیس علی عصیانه و طغیانه،و قٰالَ مٰا مَنَعَکَ أَلاّٰ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُکَ .فتذرع-فی مقام الجواب-بعذر غیر وجیه إذ:

قٰالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ

.

و کأن إبلیس کان یتصوّر أنّ النّار أفضل من التراب،و هذه هی أکبر غلطاته و أخطائه،و لعلّه لم یقل ذلک عن خطأ و التباس،بل کذب عن وعی و فهم،لأنّنا نعلم أنّ التراب مصدر أنواع البرکات،و منبع جمیع المواد الحیاتیه،و أهم وسیله لمواصله الموجودات الحیه حیاتها،علی حین أن الأمر بالنسبه إلی النّار لیس علی هذا الشکل.

صحیح أنّ النّار أحد عوامل التجزئه و الترکیب فی الکائنات الموجوده فی هذا الکون،و لکن الدور الأصلی و الأساسی هو للمواد الموجوده فی التراب، و تعدّ النّار وسیله لتکمیلها فقط.

و صحیح-أیضا-أنّ الکره الأرضیه انفصلت-فی بدایه أمرها-عن الشمس، و کانت علی هیئه کره ناریه فبردت تدریجا،و لکن یجب أن نعلم أن الأرض ما دامت مشتعله،و حاره لم یکن علیها أی کائن حیّ،و إنّما ظهرت الحیاه علی سطح هذا الکره عند ما حلّ التراب و الطین محل النّار.

هذا مضافا إلی أنّ أیه نار ظهرت علی سطح الأرض کان مصدرها مواد مستفاده من التراب،ثمّ إنّ التراب مصدر نموّ الأشجار،و الأشجار مصدر ظهور النّار،و حتی المواد النفطیه أو الدهون القابله للاشتعال و الاحتراق تعود-أیضا-إلی التراب أو إلی الحیوانات التی تتغذی من المواد النباتیه.

علی أنّ میزه الإنسان-بغض النظر عن کل هذه الأمور-لم تکن فی کونه من التراب،بل إنّ میزته الأصلیه تکمن فی«الروح الإنسانیه»و فی خلافته للّه تعالی.

و علی فرض أنّ ماده الشیطان الأصلیه کانت أفضل من ماده الإنسان،فإن

ذلک لا یعنی تسویغ عدم السجود للإنسان الذی خلق بتلک الروح،و وهبه اللّه تلک العظمه،و جعله خلیفه له علی الأرض.

و الظاهر أنّ الشیطان کان یعرف بکل هذه الأمور،و لکن التکبر،و الأنانیه هما اللذان منعاه عن امتثال أمر اللّه،و کان ما أتی به من العذر حجه داحضه،و محض تحجج و تعلّل.

أوّل قیاس هو قیاس الشیطان:

القیاس فی الأحکام و الحقائق الدینیه مرفوض بشکل قاطع فی أحادیث عدیده وردت عن أهل البیت علیهم السّلام،و نقرأ فی هذه الأحادیث أنّ أوّل من قاس هو الشیطان.

قال الإمام الصادق علیه السّلام لأبی حنیفه: «لا تقس،فإن أوّل من قاس إبلیس» (1) .

و قد روی هذا المطلب فی تفاسیر أهل السنه قدیما و حدیثا مثل تفسیر «الطبری»عن«ابن عباس»و تفسیر المنار و«ابن سیرین»و«الحسن البصری» (2) .

و المراد من القیاس هو أن نقیس موضوع علی آخر یتشابهان من بعض الجهات،و نحکم للثّانی بنفس الحکم الموجود للموضوع الأوّل من دون أن نعرف فلسفه الحکم و أسراره کاملا،کأن نقیس«بول»الإنسان المحکوم بالنجاسه،و وجوب الاجتناب عنه بعرق الإنسان،و نقول:بما أنّ هذین الشیئین یتشابهان من بعض الجهات و فی بعض الأجزاء،لهذا یسری حکم الأوّل إلی الثانی فیکون کلاهما نجسین،فی حین أنّهما حتی لو تشابها من جهات فهما متفاوتان مختلفان من جهات أخری أیضا،فأحدهما أرق و الآخر أغلظ،

1- 1) -نور الثقلین،المجلد الثانی،الصفحه 6.

2- 2) -تفسیر المنار،المجلد 8 الصفحه 321،و تفسیر الطبری،الجزء 8 و 9،و تفسیر القرطبی،ج 4 الصفحه 2067.

و الاجتناب من أحدهما سهل،و من الآخر صعب و شاق جدّا،هذا مضافا إلى أنه ليست فلسفه الحكم الأوّل معلومه لنا بالكامل،فمثل هذا القياس ليس سوى قياس تخمينى لا أكثر.

و لهذا السبب منع أئمّتنا عليهم السّلام من القياس بشدّه، استلهاما من كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أبطلوه،لأنّ فتح باب القياس يتسبب فى أن يعمد كل أحد بالاعتماد على دراسته المحدوده و فكره القاصر و بمجرّد أن يعتبر موضوعين متساويين من بعض الجهات...أن يعمد إلى إجراء حكم الأوّل على الثانى،و بهذا تتعرض قوانين الشرع و أحكام الدين إلى الهرج و المرج.

إنّ بطلان القياس عقلا ليس مقصورا على القوانين الدينيه فحسب،فالأطباء هم أيضا يؤكّدون فى توصياتهم على أن لا تعطى و صفه أىّ مريض لمريض آخر مهما تشابها من بعض النواحى،و فلسفه هذا النهى واضحه،لأنّه قد يتشابه المريضان فى نظرنا من بعض النواحى،و لكن مع ذلک يتفاوتان من جهات عديده،مثلا من جهه القدره على تحمّل الدواء،و فئه الدم،و مقدار السكر فى الدم،و لا يستطيع الأشخاص العادّيون من الناس أن يشخّصوا هذه الأمور،بل تشخيصها يختص بالأطباء و ذوى الاختصاص فى الطب،فلو أعطيت أدويه مريض لآخر دون ملاحظه هذه الخصوصيات،فمضافا إلى احتمال عدم الانتفاع بها،فإنّها ربّما تكون منشأ لسلسله من الأخطار غير القابله للجبران.

و الأحكام الإلهيه أدقّ من هذه الجهه،و لهذا جاء فى الأحاديث و الأخبار أنه لو عمل بالقياس لمحق الدين،أو كان فساده أكثر من صلاحه (1) .

أضف إلى ذلک أنّ اللجوء إلى القياس لاكتشاف الأحكام و معرفتها دليل على قصور الدين،لأنّه إذا كان لكل موضوع حكم فى الدين لم يكن أيه حاجه إلى القياس،و لهذا فإنّ الشيعه حيث أنّهم أخذوا جميع احتياجاتهم من الأحكام

١- ١) -وسائل الشيعه،المجلد ١٨،باب القياس.

الـدينيه من مدرسه أهل البيت ورثه النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لم يروا حاجه إلى اللجوء إلى القياس،و لكن فقهاء السـنه حيث أنّهم تجـاهلوا مـدرسه أهـل البيت الـذين هم حسب نص النّبى الملجأ الثّانى للمسـلمين بعـد القرآن الكريم لـذلك واجهوا نقصا فى مصادر الأحكام الإسلاميه و أدلتها،و لم يروا مناصا من اللجوء إلى القياس.

و أمّـا فى مـورد الشـيطان،فنحن نقرأ فى النصـوص و الرّوايـات أنّه كـان أوّل من قـاس،و النكته فيهـا أنّه قـاس خلقته-من النـاحيه المـاديه-بخلقـه آدم،و تمسـك بأفضـليه النّـار على الـتراب فى بعض الجهـات،و اعتـبر ذلـك دليلاـ على أفضـليه النّـار من جميع النـواحى،من دون أن يلتفت إلى امتيـازات الـتراب،بـل و من دون أن يلتفت إلى امتيـازات آدم الروحـانيه و المعنويه،فحكم على طريق ما يسمّى بقياس الأولويه،و لكن قياسا على أساس التخمين و الظن و الدراسه السطحيه و المحدوده،بأفضليته على آدم،بل و دفعه هذا القياس الباطل إلى تجاهل الأمر الإلهى.

و الملفت للنظر أنّه

ورد فى بعض الرّوايات المرويه عن الإمام الصادق عليه السّـلام فى مؤلفات الشيعه و السنه معا أنه قال: «من قاس أمر الدين برأيه قرنه اللّه تعالى يوم القيامه بإبليس» (۱) .

و باختصار،إنّ قياس موضوع بموضوع آخر من دون علم بجميع أسـراره و فلسـفته،لا يصح أن يكون دليلا على اتحاد حكمهما،و لو أنّ القياس تطرق إلى مسائل الدين و قضايا الشريعه لم تبق للأحكام ضابطه ثابته،إذ يمكن حينئذ أن يقيس شخص ما موضوعا بنحو،و يصدر حكما بحرمته،و يقيس شخص آخر الموضوع نفسه بنحو آخر و يصدر حكما بحليّته.

و المورد الوحيـد الذى يمكن اسـتثناؤه من هذا الأمر هو ما إذا ذكر المقنّن أو الطبيب نفسه دليل حكمه و فلسـفه قانونه،ففى هذه الحاله يجوز لنا إذا رأينا هذا

۱- ۱) -تفسير المنار،ج ۸،ص ۳۳۱ و نور الثقلين،ج ۲،ص ۷.

الدليل و هذه الفلسفه فی موضوع آخر أن نجری الحکم فیه و نعدّیه إلیه أیضا، و هذا هو ما اصطلح علیه بالقیاس«المنصوص العلّه»مثلا-إذا قال الطبیب للمریض:یجب أن تتجنب تناول الفاکهه الفلانیه لأنّها حامضه،علم المریض بأنّ الحموضه تضرّه،و أنّه یجب أن یتجنب الحموضه و إن کان فی فاکهه أخری.

و هکذا إذا صرّح القرآن الکریم أو صرّحت السنّه الشریفه بأن:تجنّبوا الخمر لأنّه مسکر،علمنا أنّ کل مسکر حرام(و إن لم یکن خمرا)و یجب اجتنابه.

إنّ هذا القیاس لیس باطلا و لا ممنوعا،لأنّه معلوم الدلیل و منصوص العلّه مقطوع بها و القیاس الممنوع هو فیما إذا لم نعلم بدلیل الحکم و فلسفته بصوره القطع و من جمیع الجهات.

علی أن مبحث القیاس مبحث واسع الأطراف،و ما مضی من البحث ما إلاّ هو عصاره منه،و لمزید التوضیح و الاطلاع راجعوا کتب أصول الفقه و کتب الأخبار،باب القیاس،و نحن نختم البحث الحاضر بذکر حدیث فی هذا المجال.

جاء فی کتاب«علل الشرائع» دخل أبو حنیفه علی الإمام الصادق علیه السّلام فقال له:«یا أبا حنیفه،بلغنی أنّک تقیس؟قال:نعم،أنا أقیس.قال:لا تقس فإنّ أوّل من قاس إبلیس حین قال:خلقتنی من نار و خلقته من طین فقاس ما بین النّار و الطین، و لو قاس نوریه آدم بنوریه النّار عرف فضل من بین النّورین و صفاء أحدهما علی الآخر» (1) .

جواب علی سؤال:

بقی هنا سؤال و هو:کیف کان یتحدث الشیطان مع اللّه،فهل کان ینزل علیه الوحی؟ الجواب هو:أنّ کلام اللّه لا یکون بالوحی دائما،فالوحی عباره عن رساله

1- 1) -نور الثقلین،ج 2،ص 6،و علل الشرائع،ص 86.

النبوّه،فلا ـ مانع من أن يكلّم اللّه أحدا لا بعنوان الوحى و الرساله،بل عن طريق الباطنى أو بواسطه بعض الملائكه،سواء كان من يحادثه اللّه من الصالحين الأبرار مثل مريم و أمّ موسى،أو من غير الصالحين مثل الشيطان! و لنعد الآن إلى تفسير بقيه الآيات:

حيث أن امتناع الشيطان من السجود لآدم عليه السّلام لم يكن امتناعا بسيطا و عاديا و لم يكن معصيه عادّيه،بل كان تمرّدا مقرونا بالاـعتراض و الإنكـار للمقـام الربوبى،لأـنّه قـال:أنـا أفضل منه،و هـذه الجمله تعنى فى حقيقه الأمر أن أمرك بالسجود لآدم أمر مخالف للحكمه و العـداله و موجب لتقـديم«المرجوح»على «الراجح»لهذا فإنّ مخالفته كانت تعنى الكفر و إنكار العلم و الحكمه الإـلهيين، فوجب أن يخسر جميع مراتبه و درجـاته،و بالتـالى كـل مـا له من مكانه عنـد اللّه، و لهـذا أخرجه اللّه من ذلك المقام الكريم،و جرّده من تلك المنزله السامقه التى كان يتمتع بها فى صفوف الملائكه،فقال له: فَاهْبِطْ مِنْهٰا .

و قـد ذهـب جمع مـن المفسّـرين فى ضـمير«منهـا»إلى إرجـاعه إلى«السـماء» أو«الجنّه»و ذهب آخرون إلى إرجاعهـا إلى«المنزله الدرجه»،و هما لا يختلفان كثيرا من حيث النتيجه.

ثمّ إنّه تعالى شرح له منشأ هذا السقوط و التنزّل بالعباره التّاليه: فَمٰا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهٰا .

و أضاف للتأكيد قائلا: فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصّٰاغِرِينَ يعنى إنّك بعملك و موقفك هذا لم تصبح كبيرا،بل على العكس من ذلك أصبته بالصغار و الذله.

إنّ هـذه الجمله توضـح بجلاء أن شـقاء الشـيطان كله كان وليـد تكبره،و إن أنانيته هذه التى جعلته يرى نفسه أفضل ممّا هو،هى التى تسببت فى أن لا يكتفى بعـدم السـجود لأدم،بل و ينكر علم اللّه و حكمته،و يعترض على أمر اللّه، و ينتقده،فخسر على أثر ذلك منزلته و مكانته،و لم يحصد من موقفه إلاّ الذله

و الصغار بدل العظمه و هذه يعنى أنّه لم يصل إلى هدفه فحسب،بل بات على العكس من ذلك.

و نحن نقرأ فى نهج البلاغه«الخطبه القاصعه»فى كلام أمير المؤمنين عليه السّلام عند ذمّه للتكبر و العجب ما يلى:

«فاعتبروا بما فعل اللّه بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، و جهده الجهيد،و كان قد عبد اللّه سته آلاف سنه...عن كبر ساعه واحده،فمن ذا بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته؟كلا،ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنّه بشرا بأمر أخرج به منها ملكا،إنّ حكمه فى أهل السماء و أهل الأرض الواحد» (۱) .

و

قد جاء أيضا عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام أنّه قال: «إنّ للمعاصى شعبا فأوّل ما عصى اللّه به الكبر،و هى معصيه إبليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين،و الحرص و هى معصيه آدم و حواء...ثمّ الحسد و هى معصيه ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله» (۲) .

و كذا

نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه قال: «أصول الكفر ثلاثه:الحرص و الاستكبار و الحسد،فأمّا الحرص فإن آدم حين نهى عن الشجره حمله الحرص على أن أكل منها،و أمّا الاستكبار فإبليس حيث أمر بالسجود لآدم فأبى،و أمّا الحسد فابنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه» (۳) .

و لكن قصّه الشيطان لم تنته إلى هذا الحدّ،فهو عند ما عرف بأنه صار مطرودا من حضره ذى الجلال زاد من طغيانه و لجاجته،و بدل أن يتوب و يثوب إلى اللّه و يعترف بخطئه فإنّ الشىء الوحيد الذى طلبه من اللّه تعالى هو أن يمهله و يؤجّل موته إلى يوم القيامه: قٰالَ أَنْظِرْنِى إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

و لقد استجاب اللّه لهذا الطلب،ف قٰالَ إِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ .

۱- ۱) -إطلاق«الملک»على الشيطان إنما هو لأجل أنّه كان له مكان فى صفوف الملائكه،و كان رديفا لهم لا أنّه كان منهم و من جنسهم كما قلنا سابقا.

۲- ۲) -سفينه البحار،ماده كبر.

۳- ۳) -أصول الكافى،ج ۲،ص ۲۱۹،باب أصول الكفر.

إنّ هذه الآيات و ان لم تصرّح بالمقدار الذى استجيب من طلب الشيطان من حيث الزمن،إلاّ أننا نقرأ فى الآيه(٣)من سوره الحجر أنه تعالى قال له: فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ إِلیٰ یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ و هذا یعنی أن مطلب الشیطان لم یستجب له بتمامه و کماله،بل استجیب إلی الوقت الذی یعلمه اللّه تعالی(و سوف نبحث عند تفسیر الآیه(٣)من سوره الحجر حول معنی قوله إِلیٰ یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ إن شاء اللّه).

غیر أنّ الشیطان لم یبغ من مطلبه هذا(أی الإمهال الطویل)الحصول علی فرصه لجبران ما فات منه أو لیعمّر طویلا،إنّما کان هدفه من ذلک هو إغواء بنی البشر و قٰالَ فَبِمٰا أَغْوَیْتَنِی لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرٰاطَکَ الْمُسْتَقِیمَ أی لأغوینهم کما غویت،و لأضلنّهم کما ضللت.

إبلیس أوّل القائلین بالجبر:

یستفاد من الآیه الحاضره أن الشیطان لتبرئه نفسه نسب إلی اللّه الجبر إذ قال:

فَبِمٰا أَغْوَیْتَنِی

لأغوینهم.

بعض المفسّرین أصرّ علی تفسیر جمله فَبِمٰا أَغْوَیْتَنِی بنحو لا یفهم منه الجبر،إلاّ أن الظاهر هو أنه لا موجب لمثل هذا الإصرار.و شاهد هذا القول هو ما

روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام: «کان أمیر المؤمنین جالسا بالکوفه بعد منصرفه من صفّین إذا أقبل شیخ فجثا بین یدیه ثمّ قال له:یا أمیر المؤمنین:أخبرنا عن مسیرنا إلی أهل الشام أ بقضاء اللّه و قدره؟فقال له أمیر المؤمنین علیه السّلام:«أجل مه یا شیخ ما علوتم تلعه و لا هبطتم بطن واد إلاّ بقضاء من اللّه و قدر».

فقال له الشّیخ:عند اللّه أحتسب عنائی یا أمیر المؤمنین.

فقال له علیه السّلام:«یا شیخ فو اللّه لقد عظم اللّه تعالی لکم الأجر فی مسیرتکم و أنتم سائرون و فی مقامکم و أنتم مقیمون و فی منصرفکم و أنتم منصرفون و لم تکونوا

فی شیء من حالاتکم مکرهین و لا إلیه مضطرین».

فقال له الشیخ:و کیف لم نکن فی شیء من حالاتنا مکرهین و لا إلیه مضطرین و کان بالقضاء و القدر مسیرنا و منقلبنا و منصرفنا.(فاستفاد السائل من هذه الإجابه الجبریه).

فقال له علیه السّلام:«أو تظن أنه کان قضاء حتما و قدرا لازما أنّه لو کان کذلک لبطل الثواب و العقاب و الأمر و النهی و الزجر من اللّه تعالی و سقط معنی الوعد و الوعید فلم تکن لائمه للمذنب و لا محمده للمحسن و لکان المحسن أولی بالعقوبه من المذنب تلک مقاله اخوان عبده الأوثان و خصماء الرحمن و حزب الشیطان و قدریه هذه الأمّه و مجوسها...» (1) .

و من هذا یتّضح أنّ أوّل من وقع فی ورطه الاعتقاد بالجبر هو الشیطان.

ثمّ إنّ الشیطان أضاف-تأکیدا لقوله-بأنّه لن یکتفی بالقعود بالمرصاد لهم، بل سیأتیهم من کل حدب و صوب،و یسدّ علیهم الطریق من کل جانب ثُمَّ لَآتِیَنَّهُمْ مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَیْمٰانِهِمْ وَ عَنْ شَمٰائِلِهِمْ وَ لاٰ تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شٰاکِرِینَ .

و یمکن أن یکون هذا التعبیر کنایه عن أنّ الشیطان یحاصر الإنسان من کل الجهات و یتوسل إلی إغوائه بکل وسیله ممکنه،و یسعی فی إضلاله، و هذا التعبیر دارج فی المحاورات الیومیه أیضا،فنقول:فلان حاصرته الدیون أو الأمراض من الجهات الأربع.

و عدم ذکر الفوق و التحت إنّما هو لأجل أنّ الإنسان یتحرک عاده فی الجهات الأربع المذکوره،و یکون له نشاط فی هذه الأنحاء غالبا.

1- 1) -حق الیقین فی معرفه اصول الدین،ج 1،ص 72.

لقد نقل فی حدیث مروی عن الإمام الباقر علیه السّلام تفسیر أعمق لهذه الجهات الأربع حیث قال:«ثمّ قال:لآتینّهم من بین أیدیهم،معناه أهوّن علیهم أمر الآخره، و من خلفهم،آمرهم بجمع الأموال و البخل بها عن الحقوق لتبقی لورثتهم.و عن أیمانهم،أفسد علیهم أمر دینهم بتزیین الضلاله و تحسین الشبهه.و عن شمائلهم، بتحبیب اللذّات إلیهم و تغلیب الشّهوات علی قلوبهم» (۱) .

و فی آخر آیه من الآیات المبحوثه هنا یصدر مرّه أخری الأمر بخروج الشیطان من حریم القرب الإلهی و المقام الرفیع،بفارق واحد هو أن الأمر بطرده هنا اتّخذ صوره أکثر ازدراء و تحقیرا،و أشدّ عنفا و وقعا،و لعلّ هذا کان لأجل العناد و اللجاج الذی أبداه الشیطان بالإلحاح علی الوسوسه للإنسان و إغوائه و إغرائه،یعنی أن موقفه الأثیم فی البدایه کان منحصرا فی التمرد علی أمر اللّه و عدم امتثاله،و لهذا صدر الأمر بخروجه فقط،و لکن عند ما أضاف معصیه أکبر إلی معصیته بالعزم علی إضلال الآخرین جاء الأمر المشدّد: قٰالَ اخْرُجْ مِنْهٰا مَذْؤُماً مَدْحُوراً .

ثمّ حلف علی أن یملأ جهنم منه و من اتباعه لَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکُمْ أَجْمَعِینَ .

فلسفه خلق الشیطان و حکمه إمهاله:

فی مثل هذه الأبحاث تتبادر إلی الأذهان-عاده أسئله متنوعه و مختلفه أهمها سؤالان:

۱-لماذا خلق اللّه الشیطان،مع أنّه علم بأنّه سیکون منشأ للکثیر من الوساوس و الضلالات؟ ۲-بعد أن ارتکب الشیطان مثل تلک المعصیه الکبیره،لماذا قبل اللّه طلبه فی

۱- ۱) -تفسیر مجمع البیان،ج ۴،ص ۴۰۴.

الإمهال،و تأخير الأجل؟ و قد أجبنا على السؤال الأوّل فى المجلد الأوّل من تفسيرنا هذا(الأمثل) و قلنا:

أوّلا:إنّ خلق الشيطان كان فى بدايه الأمر خلقا جيدا،لا عيب فيه،و لهذا احتل موقعا فى صفوف المقرّبين إلى اللّه،و بين ملائكته العظام،و إن لم يكن من جنسهم ثمّ إنّه بسوء تصرّفه فى حريته بنى على الطغيان و التمرد،فطرد من ساحه القرب الإلهى،و اختصّ باسم الشيطان.

ثانيا:إنّ وجود الشيطان ليس غير مضرّ بالنسبه سالكى طريق الحقّ فحسب، بل يعدّ رمزا لتكاملهم أيضا،لأنّ وجود مثل هذا العدوّ القويّ فى مقابل الإنسان يوجب تربيه الإنسان و تكامله و حنكته،و أساسا ينبثق كل تكامل من بين ثنايا التناقضات و التدافعات،و لا يسلك أى كائن طريق كماله و رشده إلاّ إذا واجه ضدا قويا،و نقيضا معاندا.

فتكون النتيجه أنّ الشيطان و إن كان بحكم إرادته الحرّه مسئولا تجاه أعماله المخالفه،و لكن وساوسه لن تضرّ عباد اللّه الذين يريدون سلوك طريق الحقّ،بل يكون مفيدا لهم بصوره غير مباشره.

و الجواب على السؤال الثانى يتضح ممّا قلناه فى الجواب على الاعتراض الأوّل،لأنّ مواصله الشيطان لحياته كقضيه سلبيه يكون وجودها ضروريا لتقويه نقاط إيجابيه،لا يكون غير مضرّ فحسب،بل هو مؤثّر و مفيد أيضا،فإنّه مع غضّ النظر عن الشيطان،هناك مجموعه من الغرائز المختلفه فى داخلنا،و هى بوقوفها فى الطرف الآخر من قوانا العقليه و الروحيه تشكّلان ساحه صراح و تناقض قويّين،و فى مثل هذه الساحه يتحقق تقدم الإنسان و تكامله،و تربيته و رشده.

و استمرار حياه الشيطان-هو الآخر-لتقويه عوامل هذا التناقض المثمر المفيد.

و بعباره أخرى:إنّ الطريق المستقيم يتميّز دائما بالالتفات إلى الطرق

المنحرفه حوله و لو لا هذه المقايسه و المقارنه لما أمكن تمييز الطريق المستقيم عن الطريق المنحرف.

كلّ هذا بغض النظر عن أنّنا نقرأ فى بعض الأحاديث أنّ الشيطان بعد قيامه بذلك الذنب،عرّض سعادته و نجاته فى العالم الآخر للخطر بصوره كلّيه،و لهذا فإنّه طلب من اللّه تعالى أن يعطيه عمرا طويلا فى هذه الدنيا فى مقابل عباداته التى كان قد أتى بها قبل ذلك،و كانت العداله الإلهيه تقتضى قبول مثل هذا الطلب.

إنّ النقطه المهمّه الأخرى التى يجب الانتباه إليها-أيضا-هى أنّ اللّه تعالى و إن كان ترك الشيطان حرّا فى القيام بوساوسه،و لكنّه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرّدا من الدفاع عن نفسه.

لأنّه أوّلا:وهبه قوّه العقل التى يمكن أن توجد سدّا قويا منيعا فى وجه الوساوس الشيطانيه خاصّه إذا لقيت تربيه صالحه.

و ثانيا:جعل الفطره النقيّه و حبّ التكامل فى باطن الإنسان كعامل فعال من عوامل السعاده.

و ثالثا:يبعث الملائكه التى تلهم الخيرات إلى الذين يريدون أن يعيشوا بمنأى عن الوساوس الشيطانيه،كما يصرّح القرآن الكريم بذلك إذ يقول: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَهُ (١) إنّها تنزل عليهم لتقويه معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات و التطمينات لهم.

و نقرأ فى موضوع آخر: إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلاٰئِكَهِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا (٢) و سدّدوا خطاهم فى طريق الحق.

١- ١) -فصّلت،٣٠.

٢- ٢) -الأنفال،١٢.

فرضيه تطور الأنواع و خلقه آدم:

هل هناك تلاؤم بين ما يقوله القرآن الكريم فى خلقه آدم،مع ما هو مطروح فى فرضيه الأنواع فى أبحاث العلوم الطبيعيه،أو لا؟ و أساسا هل بلغت فرضيه التطور و التكامل مرحله القطعيه و اليقين من وجهه نظر العلماء،أو لا؟...

كل هذه الأمور بحاجه إلى أبحاث مفصله سوف نخوضها بمشيئه اللّه فى ذيل آيات أكثر تناسبا،مثل الآيات(۲۶)إلى(۳۳)من سوره الحجر.

ص :۵۸۹

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٩ الى ٢٢]

اشاره

وَ يٰا آدَمُ اُسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ اَلْجَنَّهَ فَكُلاٰ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمٰا وَ لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ اَلشَّجَرَهَ فَتَكُونٰا مِنَ اَلظّٰالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا اَلشَّيْطٰانُ لِيُبْدِيَ لَهُمٰا مٰا وُورِيَ عَنْهُمٰا مِنْ سَوْآتِهِمٰا وَ قٰالَ مٰا نَهٰاكُمٰا رَبُّكُمٰا عَنْ هٰذِهِ اَلشَّجَرَهِ إِلاّٰ أَنْ تَكُونٰا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونٰا مِنَ اَلْخٰالِدِينَ (٢٠) وَ قٰاسَمَهُمٰا إِنِّي لَكُمٰا لَمِنَ اَلنّٰاصِحِينَ (٢١) فَدَلاّٰهُمٰا بِغُرُورٍ فَلَمّٰا ذٰاقَا اَلشَّجَرَهَ بَدَتْ لَهُمٰا سَوْآتُهُمٰا وَ طَفِقٰا يَخْصِفٰانِ عَلَيْهِمٰا مِنْ وَرَقِ اَلْجَنَّهِ وَ نٰادٰاهُمٰا رَبُّهُمٰا أَ لَمْ أَنْهَكُمٰا عَنْ تِلْكُمَا اَلشَّجَرَهِ وَ أَقُلْ لَكُمٰا إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ لَكُمٰا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)

التّفسير

اشاره

وساوس شيطانيّه فى حلل خلّابه:

تبيّن هذه الآيات و تستعرض فصلا آخر من قصّه آدم،فتقول أوّلا:إنّ اللّه سبحانه أمر آدم و زوجته حواء بأن يسكنا الجنّه: يٰا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّهَ .

و يستفاد من هذه العباره أنّ آدم و حواء لم يكونا فى بدء الخلقه فى الجنّه،

إنّما خلقا أوّلا ثمّ هديا إلى السكنى فى الجنّه و أنّ القرائن تفيد-كما أسلفنا فى ذيل الآيات المتعلقه بقصه خلق آدم فى سوره البقره-أن تلك الجنّه لم تكن جنّه القيامه،بل هى-كما ورد فى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام أيضا جنّه الدنيا،أى أنّها كانت بستانا جميلا أخضر من بساتين هذا العالم،وفّر اللّه سبحانه فيها جميع أنواع النعم و الخيرات.

و فى هذه الأثناء صدر أوّل تكليف و أمر و نهى إلى آدم و حواء من جانب اللّه تعالى،بهذه الصوره: فَكُلاٰ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمٰا وَ لاٰ تَقْرَبٰا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونٰا مِنَ الظّٰالِمِينَ أى أنّ الأكل من جميع أشجار هذه الجنّه مباح لكما،إلاّ شجره خاصّه لا تقرباها،و إلاّ كنتما من الظالمين.

ثمّ إنّ الشيطان الذى طرد من رحمه اللّه تعالى بسبب إحجامه عن السجود لآدم،و كان قد صمّم على أن ينتقم لنفسه من آدم و بنيه ما أمكن،و يسعى فى إضلالهم ما استطاع،و كان يعلم جيدا أنّ الأكل من الشجره الممنوعه تعرّض آدم للإخراج من الجنّه،عمد إلى الوسوسه لآدم و زوجته،و بغيه الوصول إلى هذا الهدف نشر شباكا متنوعه على طريقهما.

ففى البدايه-و كان يقول القرآن الكريم-بدأ بنزع لباس الطاعه و العبوديه للّه، عنهما،فأبدى عورتهما التى كانت مخبأه مستوره: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطٰانُ لِيُبْدِيَ لَهُمٰا مٰا وُورِيَ عَنْهُمٰا مِنْ سَوْآتِهِمٰا .

و للوصول إلى هذا الهدف رأى أنّ أفضل طريق هو أن يستغلّ حبّ الإنسان و رغبته الذاتيه فى التكامل و الرقى و الحياه الخالده،و ليوفّر لهما عذرا يعتذران و يتوسلان به لتبرير مخالفتهما لأمر اللّه و نهيه،و لهذا قال لآدم و زوجته: مٰا نَهٰاكُمٰا رَبُّكُمٰا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاّٰ أَنْ تَكُونٰا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونٰا مِنَ الْخٰالِدِينَ .

و بهذه الطريقه صوّر الأمر الإلهى فى نظرهما بشكل آخر،و صوّر المسأله و كأنّ الأكل من«الشجره الممنوعه»ليس غير مضرّ فحسب،بل يورث عمرا

خالدا أو نيل درجه الملائكه.

و الشاهد على هذا الكلام هو العباره التى قالها إبليس فى سوره طه الآيه ١٢٠: يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَهِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى .

فقد جاء فى روايه رويت فى تفسير القمى عن الإمام الصادق عليه السّلام،و فى «عيون أخبار الرضا»عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام: فجاء إبليس فقال:

«إنّكما إن أكلتما من هذه الشجره التى نهاكما اللّه عنها صرتما ملكين،و بقيتما فى الجنّه أبدا،و إن لم تأكلا منها أخرجكما اللّه من الجنّه» (١) .

و لما سمع آدم هذا الكلام غرق فى التفكير،و لكنّ الشيطان-من أجل أن يحكم قبضته و يعمّق وسوسته فى روح آدم و حواء-توسّل بالأيمان المغلّظه للتدليل على أنه يريد لهما الخير! وَ قاسَمَهُما إِنِّى لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ .

لم يكن آدم يمتلك تجربه كافيه عن الحياه،و لم يكن قد وقع فى حبائل الشيطان و خدعه بعد،و لم يعرف بكذبه و تضليله قبل هذا،كما أنّه لم يكن فى مقدوره أن يصدّق بأن يأتى بمثل هذه الايمان المغلّظه كذبا،و ينشر مثل هذا الحبائل و الشباك على طريقه.

و لهذا وقع فى حبال الشيطان،و انخدع بوسوسته فى المآل،و نزل بحبل خداعه المهترئ فى بئر الوساوس الشيطانيه للحصول على ماء الحياه الخالده و الملك الذى لا يبلى،و لكنّه ليس فقط لم يظفر بماء الحياه كما ظنّ،بل سقط فى ورطه المخالفه و العصيان للأوامر الإلهيه،كما يعبّر القرآن عن ذلك و يلخصه فى عباره موجزه إذ يقول: فَدَلاّهُما بِغُرُورٍ (٢) .

و مع أن آدم-نظرا لسابقه عداء الشيطان له،و مع علمه بحكمه اللّه و رحمته

ص:۵۹۲

١- ١) -نور الثقلين،المجلد الثانى،ص ١٣.

٢- ٢) -دلّى من ماده التدليه و تعنى إرسال الدلو فى البئر بحبل تدريجا،و هذه-فى حقيقتها-كنايه لطيفه عن أنّ الشيطان أنزل بحبل مكره و خداعه آدم و زوجته من مقامهما الرفيع،و أرسلهما إلى قعر بئر المشكلات و الابتعاد عن الرحمه الإلهيه.

الواسعه،و محبته و لطفه-كان من اللازم أن يبدّد كل الوساوس و يقاومها،و لا يسلّم للشيطان،إلاّ أنه قد وقع ما وقع على كل حال.

و بمجرّد أن ذاق آدم و زوجته من تلك الشجره الممنوعه تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس و انكشفت سوءاتهما فَلَمّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما .

و يستفاد من العباره أعلاه أنّهما بمجرّد أن ذاقا من ثمره الشجره الممنوعه أصيبا بهذه العاقبه المشؤومه،و فى الحقيقه جرّدا من لباس الجنّه الذى هو لباس الكرامه الإلهيه لهما.

و يستفاد من هذه الآيه جيدا أنّهما قبل ارتكابهما لهذه المخالفه لم يكونا عاريين،بل كانا مستورين بلباس لم يرد فى القرآن ذكر عن حقيقه ذلك اللباس و كيفيته،و لكنّه على ايّ حال كان يعدّ علامه لشخصيه آدم و حواء و مكانتهما و احترامهما،و قد تساقط عنهما بمخالفتهما لأمر اللّه،و تجاهلهما لنهيه.

على حين تقول التّوراه المحرفه:إنّ آدم و حواء كانا فى ذلك الوقت عاريين بالكامل،و لكنّهما لم يكونا يدركان قبح العرى،و عند ما ذاقا و أكلا من الشجره الممنوعه التى كانت شجره العلم و المعرفه،انفتحت أبصار عقولهما،فرأيا عريهما،و عرفا بقبح هذه الحاله.

إنّ آدم الذى تصفه التّوراه لم يكن فى الواقع إنسانا،بل كان بعيدا من العلم و المعرفه جدا،إلى درجه أنّه لم يكن يعرف حتى عريه.

و لكن آدم الذى يصفه القرآن الكريم،لم يكن عارفا بوضعه فحسب،بل كان واقفا على أسرار الخلقه أيضا(علم الأسماء)،و كان يعدّ معلّم الملائكه،و إذا ما استطاع الشيطان أن ينفذ فيه فإنّ ذلك لم يكن بسبب جهله،بل استغلّ الشيطان صفاء نيّته،و طيب نفسه.

و يشهد بهذا القول الآيه(٢٧)من نفس هذه السوره،و التى تقول: يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما .

و ما كتبه بعض الكتّاب المسلمين من أن آدم كان عاريا منذ البدايه،فهو خطأ بيّن نشأ ممّا ورد فى التّوراه المحرفه.

و على كل حال فإنّ القرآن يقول:إن آدم و حواء لمّا وجدا نفسيهما عاريين عمدا فورا إلى ستر نفسيهما بأوراق الجنّه: وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّهِ (١) .

و فى هذا الوقت بالذات جاءهما نداء من اللّه يقول:ألم أحذّركما من الاقتراب و الأكل من هذه الشجره؟ألم أقل لكما:إنّ الشيطان عدوّ لكما؟فلما ذا تناسيتم أمرى و وقعتم فى مثل هذه الأزمه: وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَ لَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَهِ وَ أَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ .

من المقايسه بين تعبير هذه الآيه و الآيه الاولى التى أجاز اللّه فيها لآدم و حواء أن يسكنا الجنّه،يستفاد بوضوح أنّهما بعد المعصيه ابتعدا عن مقام القرب الإلهى إلى درجه أنّ أشجار الجنّه أيضا اضحت بعيده عنهما.لأنّه فى الآيه السابقه تمت الإشاره إلى الشجره بأداه الإشاره القريبه(هذه الشجره)و أمّا فى هذه الآيه فقد استعملت مضافا إلى كلمه(نادى)التى هى للخطاب من بعيد، استعملت(تلكما)التى هى للإشاره إلى البعيد.

بحوث

اشاره

إنّ فى هذه الآيه نقاطا لا بدّ من التوقف عندها:

١-كيفيه وسوسه الشيطان

يستفاد من عباره(وسوس له)نظرا إلى حرف اللام(التى تأتى فى العاده

١- ١) -«يخصفان»من ماده«الخصف»و تعنى فى الأصل ضم شيء إلى شيء آخر،و الجمع،ثمّ أطلق على ترفيع النعل أو الثواب المتمزق و خياطته فقيل:خصف النعل أو الثوب،أى جمع الأجزاء المتفرقه و ضم بعضها إلى الآخر.

للفائده و النفع)أنّ الشيطان كان يتخذ صفه الناصح،و المحبّ لآدم،فی حین أن (وسوس إلیه)لا ینطوی علی هذا المعنی،بل یعنی فقط مجرّد النفوذ و التسلّل الخفیّ إلی قلب أحد.

و علی کل حال یجب أن لا یتصور أن الوساوس الشیطانیه مهما بغلت من القوه تسلب الإراده و الإختیار من الإنسان،بل یمکن للإنسان-رغم ذلک-و بقوّه العقل و الإیمان أن یقف فی وجه تلک الوساوس و یقاومها.

و بعباره أخری:إن الوساوس الشیطانیه لا تجبر الإنسان علی المعصیه،بل قوّه الإراده و حاله الإختیار باقیه حتی مع الوساوس،و إنّ مقاومتها تحتاج إلی الاستقامه و الصمود الأکثر و ربّما إلی تحمّل الألم و العذاب و کذلک فإنّ الوساوس الشیطانیه لا تسلب المسؤولیه عن أحد و لا تجرّده عنها،کما نلاحظ ذلک فی آدم.

و لهذا نری أنه رغم جمیع العوامل التی حفت بآدم،و دعته إلی مخالفه أمر اللّه و نهیه،و شجعته علیها،و التی أقامها الشیطان فی طریقه،فإنّ اللّه سبحانه اعتبره مسئولا عن عمله،و لهذا عاقبه علی النحو الذی سیأتی بیانه.

۲-ماذا کانت الشّجره الممنوعه؟

جاءت الإشاره إلی الشجره الممنوعه فی ست مواضع من القرآن الکریم، من دون أن یجری حدیث عن طبیعه أو کیفیه أو اسم هذه الشجره،و أنها ماذا کانت؟و ماذا کان ثمرها؟بید أنّه ورد فی المصادر الإسلامیه تفسیران لها، أحدهما«مادیّ»و هو أنّها کانت«الحنطه» (۱) کما هو المعروف فی الرّوایات.

و یجب الانتباه إلی نقطه،و هی أن العرب تطلق لفظه«الشجره»حتی علی النبته،و لهذا أطلقت-فی القرآن الکریم-لفظه الشجره علی نبته الیقطین،إذ قال

۱- ۱) -و للاطلاع علی هذه الرّوایات یراجع تفسیر نور الثقلین،المجلد الأوّل،الصفحه ۵۹ و ۶۰ و المجلد الثانی،الصفحه ۱۱،فی تفسیر آیات سوره البقره و سوره الأعراف.

سبحانه: وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (۱) .

و التّفسير الآخر«معنوى»و هو أنّ المقصود من تلك الشجره-كما فى الرّوايات-هو ما عبّر عنها ب«شجره الحسد»لأنّ آدم طبقا لهذه الرّوايات-بعد ملاحظه مكانته و مقامه-تصوّر أنّه لا يوجد فوق مقامه مقام،و لا فوق مكانته مكانه،و لكن اللّه تعال أطلعه على مقام ثله من الأولياء من ذريته و أبنائه(رسول الإسلام و أهل بيته)،فحصل عند ما يشبه الحسد،و كانت هذه هى الشجره الممنوعه التى أمر آدم بأن لا يقربها.

و فى الحقيقه تناول آدم-طبقا لهذه الرّوايات-من شجرتين،كانت إحداهما أقلّ منه مرتبه و أدنى منه منزله،و قد قادته إلى العالم المادى،و كانت هى «الحنطه».و الأخرى هى الشجره المعنويه التى كانت تمثل مقام ثله من أولياء اللّه،و الذى كان أعلى و أسمى من مقامه و مرتبته،و حيث أنّه تعدّى حدّه فى كلا الصعيدين ابتلى بذلك المصير المؤلم.

و لكن يجب أن نعلم أن هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام منه،بل كان مجرّد إحساس نفسانى من دون أن تتبعه أيه خطوه عمليه على طبقه.

و حيث إنّ للآيات القرآنيه-كما أسلفنا مرارا-معان متعدّده،فلا مانع من أن يكون كلا المعنيين مرادين من الآيه.

و من حسن الاتفاق أنّ كلمه«الشجره»قد استعملت فى القرآن الكريم فى كلا المعنيين،فحينا استعملت فى المعنى المادى التعارف للشجره مثل: وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنٰاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ (۲) التى هى إشاره إلى شجره الزيتون،و تاره استعملت فى الشجره المعنويه مثل وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ التى يكون المراد منها إمّا طائفه من المشركين،أو اليهود،أو الأقوام الطاغيه الأخرى مثل

۱- ۱) -الصافات،۱۴۶.

۲- ۲) -المؤمنون،۲۰.

بنی أمیه.

علی أنّ المفسّرین أبدوا احتمالات متعدده أخری حول الشجره الممنوعه، و لکن ما قلناه هو الأبین و الأظهر من الجمیع.

و لکن النقطه التی یجب أن نذکّر بها هنا،هی أنه وصفت الشجره الممنوعه فی التّوراه المختلفه-المعترف بها الیوم من قبل جمیع مسیحیی العالم و یهودییه- بشجره العلم و المعرفه و شجره الحیاه (۱) تقول التّوراه:إن آدم لم یکن عالما و لا عارفا قبل أکله من شجره العلم و المعرفه،حتی أنّه لا یعرف و لم یمیّز عریه، و عند ما أکل من تلک الشجره،و صار إنسانا بمعنی الکلمه طرد من الجنّه خشیه أن یأکل من شجره الحیاه أیضا فیخلد کما الآلهه.

و هذا من أوضح القرائن الشاهده علی أنّ التّوراه الرائجه لیست کتابا سماویا،بل هی من نسیج العقل البشری القاصر المحدود،الذی یعتبر العلم و المعرفه عیبا و شینا للإنسان،و یعتبر آدم بسبب ارتکابه معصیه تحصیل العلم و المعرفه مستحقا للطرد من جنه اللّه،و کأنّ الجنّه لم تکن مکان العقلاء الفاهمین و منزل العلماء العارفین!! و لملفت للنظر أنّ الدّکتور«ویلیم میلر»الذی یعدّ من مفسری الإنجیل القدیرین و البارزین بل من مفسّری العهدین(التّوراه و الإنجیل معا)یقول فی کتابه المسمی«ما هی المسیحیه»:«إنّ الشیطان تسلّل إلی الجنّه فی صوره حیّه، و أقنع حواء بأن تأکل من ثمره تلک الشجره،ثمّ أعطت حواء من تلک الثمره إلی آدم،فأکل منها آدم أیضا،و لم یکن فعل أبوینا الأولیین مجرّد خطأ عادی،أو غلطه ناشئه من عدم التفکیر،بل کان معصیه متعمّده ضدّ الخالق،و بعباره أخری:

إنّ آدم و حواء کانا یریدان بهذا الصنیع أن یصیرا آلهه،إنّهما لم یرغبا فی أن یطیعا اللّه،بل کانا یریدان أن یعملا وفق رغباتهما و میولهما الشخصیه،فما ذا کانت

۱- ۱) -التّوراه،سفر التکوین الإصحاح الثانی الفقره رقم ۱۷.

النتیجه؟لقد وبّخهما اللّه تعالی بشدّه،و أخرجهما من الجنّه،لیعیشا فی عالم ملیء بالعذاب و الألم و المحنه».

لقد أراد مفسّر التّوراه و الإنجیل هذا أن یبرر شجره التّوراه الممنوعه،و لکنّه نسب أعظم الذنوب و هو مضاده اللّه و محاربته-إلی آدم...أمّا کان من الأفضل أن یعترف-بدل إعطاء مثل هذه التّفسیرات-بتطرّق التحریف و التلاعب إلی هذه الکتب المسماه بالکتب المقدّسه؟!

۳-هل ارتکب آدم معصیه؟

یستفاد ممّا نقلناه من الکتب المقدّسه-لدی الیهود و النصاری- أنّهم یعتقدون بأن آدم ارتکب معصیه،بل تری کتبهم أن معصیته لم تکن معصیه عادیه، و إنما کانت معصیه کبیره و إثما عظیما،بل إن الذی صدر عن آدم هو مضاده اللّه و الطموح فی الألوهیه و الربوبیّه،و لکن المصادر الإسلامیه-عقلا-و نقلا-تقول لنا:إنّ الأنبیاء لا یرتکبون إثما،و إنّ منصب إمامه الناس و هدایتهم لا یعطی لمن یرتکب ذنبا و یقترف معصیه.و نحن نعلم أن آدم کان من الأنبیاء الإلهیین،و علی هذا الأساس فإنّ کل ما ورد فی هذه الآیات مثل غیرها من التعابیر التی جاءت فی القرآن حول سائر الأنبیاء الذین نسب إلیهم العصیان،جمیعها تعنی«العصیان النسبی»و«ترک الأولی»لا العصیان المطلق.

و توضیح ذلک:أن المعصیه علی نوعین:«المعصیه المطلقه»و«المعصیه النسبیه»،و المعصیه المطلقه هی مخالفه النهی التحریمی،و تجاهل الأمر الإلهیّ القطعیّ،و هی تشمل کلّ نوع من أنواع ترک الواجب و إتیان الحرام.

و لکن المعصیه النسبیه هی أن یصدر من شخصیه کبیره عمل غیر حرام لا یناسب شأنه و لا یلیق بمقامه،و ربّما یکون إتیان عمل مباح-بل و مستحب-لا یلیق بشأن الشخصیات الکبیره،و فی هذه الصوره یعدّ إتیان ذلک العمل«معصیه

نسبيه»،كما لو ساعد مؤمن واسع الثراء فقيرا لإنقاذه من مخالب الفقر بمبلغ تافه، فإنّه ليس من شك فى أنّ هذه المعونه الماليه مهما كانت صغيره و حقيره لا تكون فعلا حراما،بل هى أمر مستحب،و لكن كل من يسمع بها يذم ذلك الغنى حتى كأنّه ارتكب معصيه و اقترف ذنبا،و ذلك لأنّه يتوقّع من مثل هذا الغنى المؤمن أن يقوم بمساعده أكبر.

و انطلاقا من هذه القاعده و على هذا الأساس تقاس الأعمال التى تصدر من الشخصيات الكبيره بمكانتهم و شأنهم الممتاز،و ربّما يطلق على ذلك العمل-مع مقايسته بذلك-لفظ«العصيان»و«الذنب».

فالصّلاه التى يقوم بها فرد عادى قد تعتبر صلاه ممتازه،و لكنّها تعدّ معصيه إذا صدر مثلها من أولياء اللّه،لأن لحظه واحده من الغفله فى حال العباده لا تناسب مقامهم و لا تليق بشأنهم.بل نظرا لعلمهم و تقواهم و منزلتهم القريبه يجب أن يكونوا حال عباده اللّه تعالى مستغرقين فى صفات اللّه الجماليه و الجلاليه، و غارقين فى التوجه إلى عظمته و حضرته.

و هكذا الحال فى سائر أعمالهم،فإنّها على غرار عباداتهم،يجب أن تقاس بمنازلهم و شؤونهم،و لهذا إذا صدر منهم«ترك الأولى»عوتبوا من جانب اللّه، و المراد من ترك الأولى،هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل،و يعمد إلى عمل جيد أو مستحبّ أدنى منه فى الفضل.

فإنّنا نقرأ فى الأحاديث الإسلاميه أن ما أصيب به يعقوب من محنه فراق ولده يوسف،كان لأجل غفلته عن إطعام فقير صائم وقف على باب بيته عند غروب الشمس يطلب طعاما،فغفل يعقوب عن إطعامه،فعاد ذلك الفقير جائعا منكسرا خائبا.

فلو أنّ هذا الصنيع صدر من إنسان عادى من عامّه الناس لما حظى بمثل هذه الأهميه و الخطوره،و لكن يعدّ صدوره من نبىّ إلهىّ كبير،و من قائد أمّه أمرا

مهمّا و خطيرا استتبع عقوبه شديده من جانب اللّه تعالى (۱) .

إنّ نهى آدم عن الشجره الممنوعه لم يكن نهيا تحريميا،بل كان ترک أولى، و لكن نظرا إلى مكانه آدم و مقامه و مرتبته عدّ صدوره أمرا مهما و خطيرا، و استوجب مخالفه هذا النهى(و إن كان نهيا كراهيا و تنزيهيا)تلك العقوبه و المؤاخذه من جانب اللّه تعالى.

هذا و قد احتمل بعض المفسّرين-أيضا-أنّ نهى آدم عن الشجره الممنوعه كان«نهيا إرشاديا»لا نهيا مولويا،و توضيح ذلك:أنه قد ينهى اللّه تعالى عن شىء من منطلق كونه مالک الإنسان و صاحب أمره و مولاه،و طاعه هذا النوع من النهى واجبه على كل أحد من الناس،و هذا النوع من النهى يسمى نهيا مولويا.

و لكنّه قد ينهى عن شىء لمجرّد أن ينبه الإنسان على أن ارتكاب هذا النهى ينطوى على أثر غير محمود تماما،مثل نهى الطبيب عن الأطعمه المضّره،و لا شک فى أنّ المريض لو خالف الطبيب لا يكون قد أهان الطبيب،و لا أنّه خالف شخصه،بل يكون بتجاهله نهى الطبيب قد تجاهل إرشاده،و جرّ إلى نفسه التعب و النصب.

و فى قصه آدم أيضا قال اللّه تعالى له:إنّ نتيجه الأكل من الشجره الممنوعه هى الخروج من الجنّه،و الوقوع فى التعب و النصب،و كان هذا مجرّد إرشاد و ليس أمرا،و بهذا فإنّ آدم خالف نهيا إرشاديا فقط،لا أنّه أتى عصيانا و ذنبا واقعيا.

و لكن التّفسير الأوّل أصحّ،لأنّ النهى الإرشادىّ لا يحتاج إلى مغفره،فى حين أنّ آدم-ما سنقرأ فى الآيه اللاحقه-يطلب من اللّه تعالى الغفران،هذا مضافا إلى أنّ فتره الجنّه كانت تعدّ فتره تدريبيه و تعليميه بالنسبه لآدم...،فتره الوقوف على التكاليف و الأوامر و النواهى الإلهيه...فتره معرفه الصّديق و العدو...فتره

۱- ۱) -نور الثقلين،المجلد الثانى ص ۴۱۱،نقلا عن كتاب علل الشرائع.

الوقوف على نتائج العصيان و ثمره مخالفه الأمر الإلهى و اتباع الشيطان و قبول وساوسه،و نحن نعلم أنّ النهى الإرشادى ليس فى حقيقته تكليفا،و لا ينطوى على تعهّد،و لا يورث مسئوليه.

و فى خاتمه هذا البحث نذكّر القارئ بأنّ كلمه«النهى»و«العصيان» و«الغفران»و«الظلم»تبدو فى بادئ النظر و كأنها تعطى معنى المعصيه المطلقه و الذنب الحقيقى و آثاره،و لكن نظرا لمسأله عصمه الأنبياء الثابته بالدليل العقلى و النقلى تحمل جميع هذه التعابير على«العصيان النسبىّ»و هذا الأمر لا يبدو بعيدا عن ظاهر اللفظ بالنظر إلى منزله آدم و سائر الأنبياء العظيمه و سموّ مقامه.

ص :۶۰۱

الآیات [سوره الأعراف (٧): الآیات ٢٣ الی ٢۵]

اشاره

قالاٰ رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (٢٣) قٰالَ اِهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِى اَلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ (٢۴) قٰالَ فِيهٰا تَحْيَوْنَ وَ فِيهٰا تَمُوتُونَ وَ مِنْهٰا تُخْرَجُونَ (٢۵)

التّفسیر

اشاره

رجوع آدم إلی اللّه و توبته:

و فی المآل عند ما عرف آدم و حواء بکید إبلیس،و خطّته و مکره الشیطانی، و رأیا نتیجه مخالفتهم فکرا فی تلافی ما فات،و جبران ما صدر منهما،فکانت أوّل خطوه خطیاها هی:الاعتراف بظلمهما لنفسیهما أمام اللّه: قٰالاٰ رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِينَ .

و الخطوه الأولی فی سبیل التوبه و الإنابه إلی اللّه و إصلاح المفاسد هی:أن ینزل الإنسان عن غروره و لجاجه،و یعترف بخطئه اعترافا بنّاء واقعا فی سبیل التکامل.

و الملفت للنظر أن آدم و حواء یظهران أدبا کبیرا مع اللّه فی توبتهما و طلبهما العفو و الغفران منه تعالی فلم یقولا:ربنا اغفر لنا،بل یقولان: إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا

وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ

.

و لا شك أنّ مخالفه أوامر اللّه و نواهيه ظلم يورده الإنسان على نفسه،لأنّ جميع البرامج و الأوامر الإلهيه تهدف إلى خير الإنسان،و تتكفل سعادته و تقدمه، و على هذا الأساس فإنّ أيه مخالفه من جانب الإنسان تكون مخالفه لتكامل نفسه،و سببا لتأخرها و سقوطها،و آدم و حواء و إن لم يذنبا و لم يرتكبا معصيه، و لكن نفس هذا الترك للأولى أنزلهما من مقامهما الرفيع،و استوجب حطّ منزلتهما.

إنّ توبه آدم و حواء الخالصه و إن قبلت من جانب اللّه تعالى-كما نقرأ ذلك فى الآيه(٣٧)من سوره البقره فَتابَ -و لكنّهما لم يستطيعا على كل حال التخلص من الأثر الوضعى و النتيجه الطبيعه لعملهما،فقد أمرا بمغادره الجنّه، و شمل هذا الأمر الشيطان أيضا: قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ .

كما ذكّر الجميع بأنّهم سيتعرضون فى الأرض للموت بعد الحياه،ثمّ يخرجون من الأرض مرّه أخرى للحساب قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ .

و الظاهر أن المخاطبين فى هذه الآيه: قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ هم آدم و حواء و إبليس جميعا،و لكن لا يبعد أن يكون المخاطبين فى الآيه اللاحقه هم آدم و حواء فقط لأنّهما هما اللذان يخرجان من الأرض.

قصّه آدم و مستقبل هذا العالم:

إن ببعض المفسّرين الذين تأثروا بموجه الأفكار الغربيه الإلحاديه عاده، و حاولوا أن يضفوا على قصّه آدم و حواء من بدايتها إلى نهايتها طابع التشبيه و الكنايه و المجازيه،أو ما يسمّى الآن بالرمزيه،و يحملوا جميع الألفاظ المتعلقه بهذه الحادثه-على خلاف الظاهر-على الكنايه عن المسائل المعنويه.

و لكن الذى لا شك فيه أن ظاهر هذه الآيات يحكى عن حادثه واقعيه عينيه وقعت لأبينا و أمنا الأوّلين:آدم و حواء،و حيث أن هذه القصّه لا تتضمن أيه نكته

غير قابله للتفسير حسب الظاهر،كما ليس فيها ما يخالف الموازين العقليه (ليكون قرينه على حملها على المعنى الكنائى)لهذا ليس هناك أى دليل على أن نعرض عن ظاهر الآيات،و لا نحملها على معناها الحقيقى.

و لكن مع ذلك يمكن أن تحمل هذه الحادثه الواقعيه الحسيه إشارات إلى حياه النوع البشرى فى مستقبل هذه العالم.

يعنى أنّ الإنسان المركب من قوّه«العقل»و من«الغرائز الجامحه»و التى تجرّه كل واحده منهما إلى جهه و ناحيه يواجه فى خضم هذه الحياه الصاخبه دعاه كذّابين أصحاب سوابق سيئه مثل الشيطان،يحاولون بوساوسهم المتواصله إلقاء الستار و الحجاب على عقله بغيه عزله عنه،و بغيه خداعه و إضلاله و تركه حائرا فى متاهات الحياه يبحث عن سراب.

إنّ أوّل نتيجه للاستسلام أمام الوساوس هو انهيار حاجز التقوى،و سقوط لباسه،و انكشاف مساوئه و سوءاته.

و الأخرى هى الابتعاد عن مقام القرب إلى اللّه،و سقوط الإنسان عن مقام الإنسانيه الكريم،و الإخراج من جنه الأمن و الطمأنينه،و الوقوع فى دوامه الحياه الماديه المضنيه.

و فى هذه الحاله يمكن لقوّه العقل-أيضا-أن تساعد الإنسان و تعينه على النهوض من كبوته،فيفكر فورا فى تلافى ما فاته،و جبران ما بدر منه،فيبعثه العقل و التفكير إلى أن يعود إلى اللّه كى يعترف بكل شجاعه و صراحه بذنوبه، اعترافا بناء واعيا مفيدا يعدّ منعطفا فى حياته.

و فى هذا الوقت تمتد إليه يد الرحمه الإلهيه مرّه أخرى،و تنقذه و تخلصه من السقوط الأبدىّ،و إن كان لا يستطيع مع ذلك التخلص من آثار معصيته الوضعيه و نتائجها الطبيعيه مهما كانت قليله و محدوده.و لكن هذه الحادثه ستكون له درسا و عبره،و سيمكنه ذلك من أن يتخذ من هذه الهزيمه قاعده صلبه لانتصاره فى مستقبل الحياه،و يستفيد من هذا الضرر نفعا كبيرا فى المراحل القادمه من حياته.

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامى عام ۱۴۲۶ الهجرى فى المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فى الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فى العلوم الإسلامية وتبعثرها فى أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فى العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهى منظمة فى برامج إلكترونية وجاهزة فى مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبىّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فى المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فى الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فى الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فى ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمى البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فى نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فى مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فى الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فی تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فی طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.